مكتبة النخبة

هيروغلاف

قِصص ورؤى مِن أجل مُستقبلٍ أفضل

تمهيد بقلم: نيل ستيفنسون

تحرير: إد فين، كاتْرين كرامر

تصدير بقلم: لورانس إم كراوس

التنوير

ترجمة: محمّد فتحي خضر

"قد تكون هذه المجموعة القصصيّة الدّفعة التي يحتاجها خيالنا. إنّه كتاب مهمّ ولا يقتصر السّبب على ما يقدّمه من خيالٍ وحسب"
(وول ستريت جورنال)

هيروغلاف

قصصٌ ورؤى من أجل مستقبل أفضل

برتراند رسل

تاريخ الفلسفة الغربيّة

الكتاب الأول

الفلسفة القديمة

هيروغلاف

قصصٌ ورؤى من أجل مستقبل أفضل

تمهيد بقلم

نيل ستيفنسون

تحرير

إد فين و كاثرين كرامر

تصدير بقلم

لورانس إم. كراوس

ترجمة

محمد فتحي خضر

This book is published in collaboration with the Arabic Book Program)ABP (of the U.S. Embassy Cairo. ABP works with Egyptian publishers to translate and publish books that reflect .U.S. culture and values

ينشر هذا الكتاب بالتعاون مع برنامج الكتاب العربي بالسفارة الأمريكية في القاهرة، وهو. برنامج يعمل مع دور نشر مصرية على ترجمة ونشر كتب تعبر عن الثقافة والقيم الأمريكية

تصدير

بقلم لورانس إم. كراوس

يشترك الخيال العلمي مع العلم في دافع أساسي شديد الأهمية: الهوَس بالاحتمالات الممكنة للوجود. وكفيزيائي نظري، لطالما كان دافعي الأساسي لدراسة الكون هو التساؤل عمًّا هو ممكن وليس فقط عمًّا يمكن تنفيذه من

الناحية العملية؛ وهذا يجعلني أتعاطف بشدة مع كتَّاب الخيال العلمي في التحديات التي يواجهونها. فعلى أي حال ربما يكون الاختلاف الأبرز بين العلم وبين الخيال العلمي هو أن العلم يستكشف ما هو ممكن في كوننا، فيما يستكشف الخيال العلمي ما هو ممكن في أي كون.

ليس مقصودًا من كلامي التقليل من أهمية هذا التمييز المهم. قال الفيزيائي الشهير ريتشارد فاينمان ذات مرة إن «العلم هو الخيال المُكمَّم في سترة مجانين»، ومن الرائع أن يترك المرء العنان لخياله كي يهيم بحرية، بيْد أن إجبار أفكارنا على الرضوخ للأدلة المستقاة من الواقع، والاستعداد للتخلص من أفكارنا - حتى الجميل منها - لو تبيَّن أن الطبيعة لا تستخدمها، إنما هو أمر صعب حتى لأولئك الذين يقضون حياتهم متأهِّبِين لذلك.

في مجال علم الكونيات الذي أتخصص فيه، على سبيل المثال، أجبرتنا البيانات على أن نتخلَّى - على مضضٍ شديد - عن الفكرة المريحة التي تقضي بأن طاقة الفضاء الخاوي لها قيمة منطقية معقولة، مقدارها صفر، وبدلًا من ذلك صار علينا أن نتقبَّل حقيقة أن الفضاء الخاوي يحتوي على السواد الأعظم من طاقة الكون، وأنه ينتج جاذبية مضادة من نوع ما، من شأنها أن تحدد مصيرنا النهائي.

في هذا الصدد ربما يكون من الملائم أن نقترح بدلًا من ذلك أن الخيال العلمي هو صنف أدبي نحتفظ فيه بالأفكار الجميلة ونتغافل عن البيانات ... وتحديدًا يحق لنا فيه أن نتخيَّل واقعًا جديدًا يتوافق مع أفكارنا.

ولهذا السبب دائمًا ما لا أتحمس للزعم القائل بأن الخيال العلمي يتنبأ بالمستقبل؛ فهذا ببساطة غير صحيح. إن خيال العالَم الطبيعي يفوق بمراحل خيال أكثر كتاب الخيال العلمي موهبة، كما أن الإنجازات العلمية الكبيرة دائمًا ما تكون غير متوقَّعة، وهذا أحد الأشياء التي تجعل العلم مبهرًا ومن الممتع بشدة الانغماس فيه. تتضمن هذه الإنجازات الاكتشافات العارضة على غرار قدرة البنسلين المضادة للجراثيم، أو السلوك الغريب للكون المتمدد الذي ألمحتُ إليه فيما سبق، أو حتى الثورة الاجتماعية الطاغية التي أوجدتها الشبكة العنكبوتية الدولية.

حين يلتقي العلم مع الخيال العلمي، نادرًا ما تكون الرابطة سببيَّة، وإنما بالأحرى يحدث هذا لأن أشخاصًا مبدعين يكون بإمكانهم الخروج بحلول مستقلة، ولكن متشابهة، لمشكلات معروفة. وهكذا، على سبيل المثال، في مواجهة الحقيقة التي تقضي بأن شق جسد الشخص من أجل استكشافه من

الداخل أمر غير محبَّذ في مقابل سَبْر العمليات الأيضية من الخارج، تفتَّقت قريحة كُتاب مسلسل ستار تريك عن «المستشعر الثلاثي»، بينما في العالم الواقعي اخترع العلماء آلات الفحص بالموجات فوق الصوتية، والأشعة المقطعية، وأشعة الرنين المغناطيسي. كانت الآلات الأخيرة بطبيعة الحال أكثر صعوبة في بنائها من الأولى، ولهذا ليس من المفاجئ أنها ظهرت إلى النور في وقت متأخر عنها.

بطبيعة الحال تظهر أمثلة بين الحين والآخر يلهم فيها الخيال العلمي المصمِّمين في الحياة الواقعية. فمثلًا الهواتف المحمولة استُلهمت فكرتها من مسلسل ستار تريك، وفي الوقت الحالي تخصص مؤسسة إكس برايز جائزة لمن يتمكن من بناء مستشعر ثلاثي حقيقي. بيد أن هذا محض استثناء، لا قاعدة.

وهذا ما يجعل التكنولوجيا الحديثة آسرة للاهتمام وطَموحة. في هذه المجموعة القصصية طُلب من عدد من كتَّاب الخيال العلمي ومستشرفي المستقبل والكتاب المتخصصين في التكنولوجيا تأليف قصصٍ قريبة في تفاصيلها من تفاصيل واقعنا، بحيث يستكشفون الاحتمالات التي يمكن أن تستحث تعاونًا بناءً بين العلماء والمهندسين من أجل إنتاج تكنولوجيات جديدة للتعاطي مع المشكلات التي تقع فيما وراء أفقنا الحالي. وقد عبَّر نيل ستيفنسون عن هذه الفكرة حين أسس مشروع هيروغلاف بقوله: ينبغي للمجموعة القصصية أن تتجنب ذكر «متسللي الحواسب والفضاء الفائق والمحرقة». بمعنى آخر، ينبغي أن تتجنب الأفكار الرئيسية لكتابات الخيال العلمي الكلاسيكية: كالمستقبل الديستوبي أو التكنولوجيا شديدة التقدم التي تجعل العالم الذي يضمها لا يحمل سوى شبهًا بسيطًا بعالمنا، هذا إن كان يشبهه من الأساس.

تغطي القصص التي تضمها هذه المجموعة نطاقًا من الاحتمالات تمسه العلوم والتكنولوجيا الحالية بالفعل. أعتقد أن على المرء أن يتوقع وجود قصة واحدة على الأقل عن السفر عبر الفضاء، هذه المنطقة التي تولِّد قدرًا من الإحباط في نفوس أولئك الذين نشؤوا وقت أن كان برنامج أبوللو الفضائي في ذروته. قد تكون قصة جريجوري بينفورد الفضائية الملحمية قائمة على التمني بالأساس، ولكن وجهًا أساسيًّا من أوجهها يدور حول تكنولوجيا يأخذها بعض رواد الأعمال على الأقل على محمل الجد، ونعني بهذا تعدين الكويكبات بحثًا عن المواد الخام التي يمكن استخدامها في علاج ندرة الموارد هنا على كوكب الأرض وأيضًا بناء المنشآت في الفضاء. لم أكن لأستثمر أموالي في هذه التكنولوجيا المحتملة - إذ لا أرى وجود لنموذج عملٍ واقعي قادر على

النجاح - لكن لو أنك تدبرت استثماراتي الشخصية على أرض الواقع فلن يكون من العسير أن تتبيَّن كيف تختلف فراستي في العمل عن فراسة وارن بافيت. وبصرف النظر عما يستطيع المرء قوله عن الهدر الشديد للموارد المرتبط باستكشاف الفضاء - والذي يمنع ناسا من الاضطلاع بأعمال علمية كافية - فمن الصعب أن نزعم أن مستقبلنا سيتوسع على المدى البعيد إلى ما وراء حدود كوكبنا، هذا لو كان لنا مستقبل من الأساس.

إن قصة نيل ستيفنسون عن بناء برج يمتد لارتفاع عشرين كيلومترًا فوق سطح الأرض أكثر واقعية. من الوهلة الأولى يبدو أن الأمر يجافي المنطق، لكن ما الحدود الفعلية للهندسة المدنية؟ لم يكن مصير برج بابل حسنًا لأي من قاطنيه، لكن شأن السواد الأعظم من الإنجيل لم تكن هذه القصة سوى قصة خيالية، بل ومملَّة في حقيقة الأمر. ماذا لو فكر أحدهم في هذا المشروع على نحو جديّ؟

هل توجد قوانين فيزيائية تجعل هذا المشروع مستحيلًا؟ نتج عن هذه الفكرة تعاون وثيق مع المهندسين بجامعة أريزونا الحكومية، وسنعرف مع مرور الوقت ما إذا كانت ستنتقل من خيال ستيفنسون إلى أرض الواقع أم لا. تتضمن القصص الأخرى موضوعات تقع في القلب من ابتكارات علمية حديثة، من العلوم العصبية وتخزين الذاكرة إلى الطابعات ثلاثية الأبعاد. ومهما يكن الشك الذي قد يراودنا بشأن نجاح مثل هذه الأفكار في التأثير على نحو مثمر على البحث العلمي أو الهندسي الجاري، فإن السمة المميزة للخيال العلمي الجيد - التي قد تثير دهشة البعض - هي أنه ليس مبنيًّا بالكامل على العلم الحقيقي.

في كثير من الأحيان نركز على الكلمة الثانية من مصطلح «الخيال العلمي» لا الأولى. لكن إذا كانت قصة الخيال العلمي غير جذابة من الناحية الدرامية سيصير من العسير، إن لم يكن من المستحيل، للقراء أن يتخلوا مؤقتًا عن معتقداتهم، وأن ينغمسوا فيما هو مكتوب. وبهذا المعنى، لا شيء يفرق الخيال العلمي عن بقية أنواع الأدب. إن هذه الأعمال الأدبية جميعها تخلق كوْنًا كاذبًا من الضروري أن يبدو حقيقيًّا بما يكفي كي يجعل التوتر الدرامي بين الأبطال مقنعًا وجذابًا في الوقت ذاته.

كثيرٌ من قصص هذه المجموعة يجسِّد تحديدًا هذا التطور في التوتر الدرامي الذي يحول الأفكار المستقبلية الباهتة إلى قطع أدبية جذابة. على سبيل المثال تقنية الطباعة ثلاثية الأبعاد تقنية جديدة تُذكي بالفعل خيال الجمهور، إذ تمكننا من تصنيع الأجهزة الميكانيكية المعقدة في العالم الثالث مثلما تمكننا من بناء

أعضاء الجسم خلية بخلية. ومع ذلك، تذهب قصة «الرجل الذي باع القمر» لكوري دوكتورو بهذه الأفكار خطوة إضافية من خلال اقتراح وضع الطابعات ثلاثية الأبعاد على القمر من أجل خلق مواد بناء يمكن ذات يوم استخدامها في المستعمرات المستقبلية. لكن ما يجعل هذه القصة تنبض حقًّا بالحياة، وما يدفعنا إلى التخلي مؤقتًا عن عدم التصديق الناجم عن العوائق التقنية الهائلة المتضمنة، هو تلك الصداقة العميقة بين أولئك الأضداد الذين يتقابلون مصادفةً بوصفهم من مرتادي مهرجان «الرجل المحترق»، الذين يتغلبون على مخاوفهم الشخصية وأسقامهم من أجل بناء حياتهم معًا.

وعلى نحو مشابه، يرى كثيرون منا أن المحاولات البازغة لدمج العلوم العصبية على نحو أوفى داخل المنظومة القانونية - بداية من البحث عن صورة من صور كشف الكذب يمكنها أن تفلح حقًّا وصولًا إلى الجهود الحثيثة للتنبؤ بالسلوك قبل حدوثه - أن هذه المحاولات بمنزلة تطورات مرعبة. ومع هذا فهي ربما ليست مرعبة بنفس القدر الذي نراه في قصة «العهد» لإليزابيث بير؛ إذ استعانت بير بفكرة بسيطة -تقضي بأننا في نهاية المطاف قد نتمكن من تعديل الفسيولوجيا العصبية بالقدر الكافي بحيث نغير شخصية المرء - كي تصطحبنا إلى داخل عقل سفاح ثم دمجت هذا المفهوم في مطاردة مليئة بالتشويق لا نستطيع فيها تبين المُطارِد من الطريدة.

أيضًا لطالما كان الخيال العلمي وسيلة ملائمة لتسليط الضوء على القضايا الاجتماعية بصورة تتحاشى القوالب النمطية التي تنتج حِملًا عاطفيًّا يشوه الواقع في كثير من الأحيان. في القرن التاسع عشر وصف إدوارد أبوت في قصته «الأرض المسطَّحة» عالمًا خياليًّا يضم كائنات من بُعدين، كانت فيه الطبقة الاجتماعية الأعلى - الدوائر - هم الكهنة، بينما الطبقة الدنيا - الخطوط - هي النساء. كانت النساء خطيرات لأن الخط المستقيم يختفي من الأنظار حين يكون متجهًا نحوك، ومن ثم من الممكن أن يخترق جسدك، ولهذا السبب كانت هناك حاجة لتخصيص مداخل منفصلة للنساء في كل مبنى. وبهذه الطريقة استطاع أبوت أن يوجه سهام النقد إلى ما شهدته النساء من قهر في العصر الفيكتوري من دون الإشارة إلى أي قضايا سياسية جارية.

وبالمثل، نجد في هذه المجموعة أيضًا قصصًا عديدة، أبرزها قصة «حين نصل إلى أريزونا» لمادلين آشبي و«درجات من الحرية» لكارل شرودر، تستكشف كيف يمكن للتكنولوجيا المستقبلية المتقدمة - في حالة قصة آشبي تكنولوجيا الاستشعار والواجهات البشرية-الآلية، وفي قصة شرودر التعقيد المتزايد لتحليلات البيانات واستعادتها على الإنترنت - أن تلقي ضوءًا جديدًا على المشكلات الحالية التي نواجهها في العالم الواقعي. في قصة آشبي نجد

الخوف الدائم الذي يشعر به المهاجرون غير الشرعيين الآن في الولايات المتحدة من أن يجري «طردهم» وترحيلهم رغم أنهم قد يكونو أعضاءً منتجين في المجتمع، وفي قصة شرودر نجد ذلك الصراع الأبدي بين الفرد والدولة، وهو الشيء عينه الذي قصده روسو حين قال إننا نولد جميعًا أحرارًا ومع ذلك سنظل إلى الأبد مقيدين بالأغلال. بيد أن هذا الصراع اتخذ بُعدًا جديدًا في العالم الافتراضي للإنترنت؛ فمع زيادة التواصل عبر الإنترنت صار من الممكن الاطلاع على البيانات المتعلقة بكل شيء، بداية من تفضيلات التسوق وصولًا إلى شبكات الأصدقاء، ومَن يستطيعون استخدام هذه المعلومات على النحو الأمثل سيصير بمقدورهم التلاعب بنا.

لو أن هذه الأنواع من الدراما هي التي تكمن خلف الخيال العلمي الجيد، وليس العلم الحقيقي وحسب، ربما يحق للمرء أن يتشكَّك فيما إذا كان بمقدور الخيال العلمي أن يلعب دورًا من الأساس في دفْع مسيرة العلم والتكنولوجيا. وفي هذا الصدد سأستعين بكلمات صديقي وزميلي ستيفن هوكينج، الذي كتب مقدمة كتابي «فيزياء ستار تريك»، إذ قال: «الخيال العلمي على شاكلة مسلسل ستار تريك يلهم الخيال».

أعرف قلة قليلة للغاية من العلماء العاملين الذين لم يستمتعوا بالخيال العلمي خلال مراهقتهم، والسؤال الذي يثار بشكل طبيعي هو: أي الأمرين يأتي أولًا؟ هل حُب الخيال العلمي يلهم الشغف بالعلم، أم هل الشغف بالأشياء العلمية يولِّد اهتمامًا لدى شريحة من كتاب الأدب ذوي الميول العلمية؟

ورغم أنه تساؤل طبيعي فإنني، على غرار هوكينج، أرى أنه غير مهم بدرجة كبيرة. لا شك أن الخيال العلمي باعتباره صنفًا أدبيًا يضفي الشرعية على النشاط المرتبط بتخيل ما يمكن تحقيقه في الكون وكيفية تحقيقه، خصوصًا لدى المراهقين سريعي التأثر. ومن ثم يمكن للخيال العلمي أن يساعد في غرس الاهتمام بشعر الواقع، وفي الوقت عينه يوفر متنفسًا للتخيُّل الإبداعي للعالم، وهذا التخيل الإبداعي هو أساس ممارسة العلم. سيكون من قبيل التقصير من جانبي ألا أذكر أن الخيال العلمي أيضًا يوفر فرصة مهمة أخرى للشباب كي ينموا، ويمنحهم مبررًا للقراءة، وأرى أن هناك الكثيرين في وقتنا الحالي سيشعرون بالإحراج لو رآهم أحد وهم يضعون كتابًا تحت إبطهم، ما لم يكن هذا الكتاب كتاب خيال علمي. إن العلاقة الطويلة بين الخيال العلمي والروايات الرائجة رسخت، على مدار جيل كامل، إمكانية سير القراءة والتفكير والاستمتاع معًا يدًا بيد.

وهذا يعود بي إلى بداية حديثي؛ فجمال العلم لا يكمن في نظري فقط في قدرته على إنتاج تكنولوجيات رائعة جديدة تغير الحالة الإنسانية ويكون بمقدورها أن تحسِّنها، وإنما في قدرته على فتح أعيننا على العجائب اللانهائية للكون الحقيقي، الذي يواصل مفاجأتنا في كل مرة نفتح فيها نافذة جديدة عليه، حتى حين تكون هذه النافذة نافذة أدبية. ولو حدث أن توقفنا عن تخيل الاحتمالات اللانهائية للوجود، أو توقفنا عن استكشاف سبل تحديد مدى واقعية هذه الاحتمالات، حينها لن تستحق الدراما البشرية أن تكتب عنها، لا كتابات أدبية ولا غير أدبية.

تمهيد

مجاعة الابتكار

بقلم نيل ستيفنسون

خلال سنوات عمري عاصرتُ الحقبة التي استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية فيها إرسال البشر إلى الفضاء، وتتمثل إحدى ذكرياتي المبكرة في الجلوس على بساط مجدُول أمام جهاز تليفزيون أبيض وأسود عملاق بينما أشاهد رحلات برنامج جيمناي الفضائي المبكرة. وفي صيف عام 2011، وأنا في الحادية والخمسين من العمر - لكنني لم أفقد روح الشباب بعد - شاهدتُ على شاشة تلفاز مسطحة حديثة آخر مكوك فضائي وهو ينطلق من منصته. لقد تابعت تدهور برنامج الفضاء بكل أسى، بل وبمرارة. أين محطتي الفضائية التي تشبه في شكلها الكعكة المحلاة؟ وأين تذكرة ذهابي إلى المريخ؟ لكن حتى وقت قريب احتفظت بمشاعري لنفسي. على الدوام كان هناك منتقدين لاستكشاف الفضاء، ومن شأن شكواي من توقفه أن تعرضني إلى الهجوم من جانب أولئك الذين لا يجدون في أنفسهم تعاطفًا مع كهل أمريكي أبيض أخفق في مشاهدة أحلام صباه وهي تتحقق.

ومع هذا، فأنا قلق من أن عجزنا عن مضاهاة إنجازات برنامج الفضاء في فترة الستينيات قد يكون في حقيقته دلالة على فشل عام للمجتمع في تنفيذ المشروعات العظيمة. لقد شهد والداي وجدودي اختراع السيارة والطائرة والطاقة النووية والكمبيوتر، هذا على سبيل المثال لا الحصر. والعلماء

والمهندسون الذين بلغوا سن رشدهم خلال النصف الأول من القرن العشرين كان بمقدورهم التطلع إلى بناء أشياء يمكنها أن تحل مشكلات قائمة منذ دهور، وأن يغيروا وجده البسيطة، ويبنوا الاقتصاد، ويوفروا وظائف للطبقة الوسطى البازغة التي شكلت أساس ديمقراطيتنا المستقرة.

عززت حادثة التسرب النفطي لمنصة ديب ووتر هورايزون عام 2010 إحساسي بأننا فقدنا قدرتنا على إنجاز المشروعات العظيمة. لقد وقعت صدمة النفط عام 1973، حين حظرت منظمة الأوبك تصدير النفط للدول الغربية، أي منذ أكثر من أربعين سنة، وكان من الجليِّ وقتها أن من الجنون أن تترك الولايات المتحدة اقتصادها رهينة في أيدي الدول المنتجة للنفط. وقد أدى هذا الموقف إلى اقتراح جيمي كارتر الداعي إلى بناء صناعة وقود تخليقي ضخمة على التراب الأمريكي. وبصرف النظر عن رأي المرء في فترة كارتر الرئاسية أو في هذا المُقترَح تحديدًا، فقد مثَّل على الأقل محاولة جادة لعلاج المشكلة.

لم نرَ جهودًا مماثلة منذ ذلك الوقت. لقد تحدثنا عن مزارع الرياح وعن قوة المد وعن الطاقة الشمسية لعقود، ورغم تحقُّق بعض التقدم في تلك المناحي فلا يزال الوقود الأحفوري هو مصدر الطاقة الأساسي لنا. في مدينتي، سياتل، نجحت مبادرة من جانب المواطنين في إعاقة خطة عمرها خمسة وثلاثون عامًا لمد خط قطارات خفيفة عبر بحيرة واشنطن. وفي ظل ما تواجهه المدينة من صعوبات وتأخير في تنفيذ المشروعات العظيمة، نجد أنها اكتفت بمشروع لطلاء حارات الدراجات على أرصفة الشوارع العامة.

في بدايات عام 2011 شاركتُ في مؤتمر تحت عنوان «زمن المستقبل» وفيه عبَّرتُ عن حزني لتوقف البعثات الفضائية المأهولة، ثم تحولت إلى موضوع الطاقة وأشرت إلى أن القضية الحقيقية لا تتعلق بالصواريخ وإنما بعجزنا الأكبر كمجتمع عن الاضطلاع بمشروعات عظيمة. مسَّ حديثي، بمحض المصادفة، وترًا حساسًا لدى الحضور؛ الذين كانوا أكثر ثقة مني في أن الخيال العلمي له أهمية - بل نفع - في مواجهة المشكلة. وقد سمعت نظريتين تفسران سبب ذلك: 1. نظرية الإلهام: وتقضي بأن الخيال العلمي يحض الناس على اختيار العلم والهندسة كمجالات عمل لهم، وهذا أمر لا شك في صحته، كما أنه بدهي إلى حدٍّ ما.

2. نظرية الصور الرمزية: وتقضي بأن الخيال العلمي يرسم صورة متكاملة جديرة بالتصديق لواقع بديل توجد به بعض الاختراعات المُقنعة. فالكون في الخيال العلمي يتسم بالاتساق والمنطقية المقبولين من جانب العلماء

والمهندسين. تتضمن الأمثلة على ذلك روبوتات إسحاق عظيموف ومركبات روبرت هاينلين الصاروخية وفضاء ويليام جيبسون السيبراني. وحسب تعبير جيم كاركانياس من مختبر أبحاث مايكروسوفت فإن هذه الأيقونات تعمل عمل الصور الرمزية؛ فهي رموز بسيطة يسهل التعرف عليها ويتفق الجميع على دلالاتها.

مع ازدياد العلوم والتكنولوجيا في التعقيد، وجد الباحثون والعلماء أنهم باتوا يركزون أكثر وأكثر على موضوعات أضيق نطاقًا. ربما توظف شركة تكنولوجية كبيرة أو مختبر مئات أو آلاف الأشخاص، بحيث يعتني كل واحد منهم بجانب بسيط للغاية من المشكلة الكلية، وقد تصير عملية التواصل بين هؤلاء أشبه بكابوس مقيم من رسائل البريد الإلكتروني وشرائح الباور بوينت المتبادلة. إن العشق الذي يكنُّه الكثيرون للخيال العلمي يعكس، جزئيًّا، الفائدة التي يقدمها السرد الشامل الذي يوفر لهم ولزملائهم رؤية مشتركة. إن تنسيق جهودهم عبر منظومة إدارية من الأوامر والنواهي لن يختلف كثيرًا عن محاولة إدارة الاقتصاد الحديث عن طريق مكتب سياسي مركزي، وعلى العكس من ذلك فإن السماح لهم بالعمل على تحقيق هدف مشترك يوفر سوقًا للأفكار يتسم بالحرية والتنسيق الذاتي.

الخيال العلمي عبر العصور

تغير الخيال العلمي مع مرور الوقت الذي تحدثت عنه، وأعني من منتصف خمسينيات القرن العشرين (الحقبة التي شهدت تسخير الطاقة النووية واختراع الطائرات النفاثة وسباقات السرعة وأجهزة الكمبيوتر) إلى الوقت الحاضر. وبصفة عامة، فإن التفاؤل التكنولوجي الذي ساد العصر الذهبي للخيال العلمي أفسح الطريق أمام الأدب المكتوب من منطلق نظرة سوداوية متشكِّكة يعمها الغموض. وأنا نفسي أقر بأنني كتبت عن متسللي الحواسب؛ أولئك المحتالين التقليديين الذين يستغلون القدرات السرية للأنظمة المعقدة التي صممها آخرون لا نعلم شيئًا عن شخصياتهم.

إيمانًا منا بأننا نمتلك كل صور التكنولوجيا التي نحتاجها وأكثر، فإننا نسعى إلى جذب الانتباه إلى آثارها الجانبية المدمرة. يبدو هذا ضربًا من الحماقة في وقتنا الحاضر الذي تثقل كاهلنا فيه تكنولوجيات على غرار مفاعلات فوكوشيما النووية العتيقة التي تعود إلى حقبة الستينيات، رغم أننا نؤمن بإمكانية تطوير تكنولوجيا الاندماج النووي النظيف في المستقبل غير البعيد. إن الدافع المُلح لتطوير تكنولوجيات جديدة وتطبيقها على مستوى واسع لم يعد يبدو مثل

الانشغال الطفولي لقلة من المهووسين بالعلم الذين يعملون بالمسطرة الحاسبة، بل هو في حقيقته السبيل الوحيدة كي تهرب البشرية من مآزقها الحالية. وكم أشعر بالأسف لأننا نسينا كيف نقوم بذلك.

«أنتم من تتقاعسون عن القيام بدوركم!» هكذا علَّق مايكل كراو، رئيس جامعة أريزونا الحكومية (وأحد المتحدثين في مؤتمر «زمن المستقبل»)، وكان يقصد بحديثه كتاب الخيال العلمي بطبيعة الحال. وحسب المفهوم من تعليقه، فإن العلماء والمهندسين يبحثون بالفعل عن أشياء جديدة يفعلونها، وأن الوقت قد حان كي يبدأ كتَّاب الخيال العلمي في الدخول بثقلهم وطرح رؤى كبيرة تتسم بالمنطقية. ومن هنا جاء مشروع هيروغلاف، وهو محاولة لإنتاج كتابات خيال علمي جديدة تتسم بصورة ما بكونها عودة متعمدة إلى التفاؤل التكنولوجي العملي الذي اتسم به العصر الذهبي.

حضارات فضائية

يشار إلى الصين اليوم بأنها دولة تضطلع بمشروعات عظيمة، وما من شك في أنهم يشيدون السدود ونظم السكك الحديدية فائقة السرعة والصواريخ بمعدلات استثنائية، بيد أن هذه المشروعات ليست مبتكرة بضرورة الحال. فبرنامجهم الفضائي، شأنهم شأن الدول الأخرى (ومن ضمنها الولايات المتحدة) يحاكي وحسب العمل الذي أنجز منذ خمسين عامًا على يد السوفييت والأمريكان. لكن من شأن البرنامج المبتكر بحق أن يتضمن مخاطرات (وتقبلًا للإخفاق) بهدف تمهيد الطريق أمام تكنولوجيات فضائية جديدة طوَّرها باحثون من كل أنحاء العالم خلال العقود التي هيمنت عليها عمليات إطلاق الصواريخ.

تخيَّل مصنعًا ينتج مركبات صغيرة على نطاق واسع، مركبات في حجم وتعقيد الثلاجات، والتي تخرج من نهاية خط التجميع ثم تُحمَّل بشحنة في سبيلها إلى الفضاء، وتُغطِّى بوقود الهيدروجين السائل غير الملوِّث، ثم تُعرَّض لحرارة شديدة مركزة صادرة عن مجموعة من الهوائيات الأرضية التي تبث أشعة الليزر أو الموجات الدقيقة. وبعد أن يجري تسخين الهيدروجين إلى درجة حرارة تفوق ما يمكن تحقيقه عن طريق التفاعل الكيميائي، يندفع الهيدروجين من فوهة بقاعدة المركبة، دافعًا إياها إلى الطيران كالصاروخ في الهواء. تندفع المركبة نحو مدار الأرض، وتخضع خلال تحليقها للمتابعة بواسطة أشعة الليزر أو الموجات الدقيقة، وتحمل حمولة تزيد كثيرًا عما يستطيع صاروخ عامل بالوقود الكيميائي من الوزن نفسه حمْله، بيد أن مستوى التعقيد والنفقات

والوظائف المطلوبة لا يزال يشكل عائقًا. على مدار عقود كانت هذه هي الرؤية التي تبناها فيزيائيون أمثال جوردين كير وكيفن باركين. كما أن فكرةً مشابِهةً، تقضي باستخدام أشعة ليزر موجَّهة من الأرض من أجل تشغيل المحركات الدافعة في مؤخرة مركبة فضائية، نوقشت من جانب كل من آرثر كانترويتز وفريمان دايسون وغيرهما من الفيزيائيين البارزين في أوائل ستينيات القرن العشرين.

لو بدا هذا شديد التعقيد في نظرك، تدبر الاقتراح الذي تقدم به جيوف لانديس وفنسنت دنيس في عام 2003، الذي يقضي بتشييد برج ارتفاعه عشرون كيلومترًا باستخدام جَمَلونات بسيطة من الصلب، بحيث تكون الصواريخ التقليدية المنطلقة من قمة هذا البرج قادرة على حمل ضعف الوزن الذي تحمله الصواريخ المنطلقة من على سطح الأرض. بل إن هناك أيضًا أبحاث متعددة، تعود إلى زمن قسطنطين تسيولكوفسكي، رائد علم الملاحة الفضائية الذي بدأ عمله في أواخر القرن التاسع عشر، تظهر أن بالإمكان استخدام عُقدة بسيطة - حبل طويل ملفوف من طرفيه بينما يدور حول الأرض - في جر حمولات إلى خارج الغلاف الجوي العلوي وجذبها إلى مدار الأرض من دون الحاجة إلى محركات من أي نوع. وستُضَخ الطاقة إلى هذه المنظومة باستخدام عملية كهروديناميكية لا توجد بها أي أجزاء متحركة.

هذه كلها أفكار واعدة، من نوعية الأفكار التي جعلت جيلًا مبكرًا من العلماء والمهندسين يتقدون حماسًا ويبنون أشياءً عظيمة بحق.

لكن كي ندرك إلى أي مدى تبعد عقليتنا الحالية عن القدرة على الابتكاء على مثل هذا النطاق الكبير، فلنتدبر مصير خزانات الوقود الخارجية الخاصة بمكوكات الفضاء. كان خزان الوقود الخارجي هو الجزء الأبرز والأكثر وضوحًا في مكوك الفضاء، إذ يتضاءل إلى جواره المكوك نفسه، وهو يقف على منصة الإطلاق. كان خزان الوقود الخارجي يظل مُلحقًا بالمكوك - أو ربما من المنطقي أن نقول إن المكوك هو الذي يظل مُلحقًا بالخزان الخارجي - لفترة طويلة بعد انفصال المُعزِّزات النفاثة وسقوطها بعيدًا عنه. يظل الخزان الخارجي والمكوك متصلين طيلة الرحلة عبر الغلاف الجوي وصولًا إلى الفضاء، وبعد أن تكتسب المنظومة السرعة المدارية الخاصة بها ينفصل الخزان الخارجي ويهوي نحو الغلاف الجوي، حيث يحترق أثناء دخوله إلى الأرض.

بتكلفة هامشية وحسب كان بالإمكان إبقاء الخزانات الخارجية في المدار على نحو دائم. كانت كتلة الخزان الخارجي، بما في ذلك الدوافع الإضافية، تبلغ

نحو ضعف كتلة أكبر حمولة يمكن لمكوك حملها، وكان من شأن عدم تدميرها أن يضاعف الكتلة الإجمالية المُطلَقة إلى المدار بواسطة المكوك ثلاث مرات تقريبًا. كان من الممكن الربط بين الخزانات الخارجية من أجل بناء وحدات كبيرة تتضاءل إلى جوارها محطة الفضاء الدولية الحالية، وكان من الممكن استغلال بقايا الأكسجين والهيدروجين داخلها والمزج بينها من أجل توليد الكهرباء وإنتاج أطنان من الماء، تلك السلعة عالية التكلفة والمرغوبة بشدة في الفضاء. لكن رغم العمل الشاق والمحاولات الحثيثة التي بذلها خبراء الفضاء الذين كانوا يتمنون الاستفادة من هذه الخزانات، قد آثرت ناسا - لأسباب تقنية وسياسية - تركها تحترق ببساطة في الغلاف الجوي. ومن الممكن أن تخبرنا هذه الحكاية الرمزية بالكثير عن الصعوبات التي تكتنف عملية الإبداع في النطاقات الأخرى.

إنجاز مشروعات عظيمة

ليس الابتكار ممكنًا من دون تقبُّل المخاطرة بفشله. ولقد تحققت الابتكارات العظيمة الثورية في منتصف القرن العشرين في عالم يبدو، من منظورنا الحالي، مليئًا بالمخاطر وعدم الاستقرار. ففي أوقات لم تكن توجد بها أحزمة الأمان أو مضادات حيوية أو كثير من اللقاحات، لم يكن أولئك الناس المعتادون على العيش في ظل الكساد والحروب العالمية والحرب الباردة ليفكروا بجدية في نتائج محتملة ترى فيها عقولنا الحديثة خطورة جدية، هذا لو لاحظوها من الأساس. وقد تسببت المنافسة بين الديمقراطيات الغربية والقوى الشيوعية في جعل الأولى تدفع علماءها ومهندسيها إلى إطلاق العنان لخيالهم، ووفرت لهم شبكة الأمان حين لم تكن جهودهم المبدئية تؤتي ثمارها. وقد أخبرني أحد العاملين المخضرمين بناسا ذات مرة أن نجاح مشروع أبوللو في الهبوط على القمر كان أعظم إنجازات الشيوعية.

في كتابه «التكيف: لماذا يبدأ النجاح دومًا بفشل» يتناول تيم هارفورد اكتشاف تشارلز داروين لنطاق واسع من الأنواع المتمايزة في جزر جالاباجوس، وهي حالة تتعارض تعارضًا صارخًا مع الصورة التي نراها في القارات الكبرى، حيث يُكبَح جماح التجارب التطورية عن طريق التزاوج الداخلي. وكان التناقض بين «عزلة جالاباجوس» في مقابل «التراتبية المؤسسية القلقة» هو التناقض الذي رصده هارفورد عند تقييم قدرة أي مؤسسة على الابتكار.

أغلب من يعملون داخل المؤسسات أو الحقل الأكاديمي شهدوا موقفًا شبيهًا بما يلي: يجلس عدد من المهندسين داخل غرفة ما، يتداولون بعض الأفكار

فيما بينهم، ومن بين ثنايا المناقشة يظهر إلى النور مفهوم جديد يبدو واعدًا. بعدها يُجري شخص جالس إلى حاسبه المحمول في أحد أركان الغرفة بحثًا سريعًا على محرك جوجل البحثي، ثم يعلمهم أن هذه الفكرة «الجديدة» هي في واقع الأمر فكرة قديمة - أو شبيهة للغاية بفكرة قديمة - جُرِّبَت بالفعل، وهذه الفكرة إما فشلت أو نجحت. لو أنها فشلت، حينها لن يوافق أي مدير يرغب في البقاء في منصبه على إنفاق المال على محاولة إحيائها. ولو أنها نجحت فلا بد أنها محمية ببراءة اختراع وسيكون من العسير للغاية دخول السوق، نظرًا لأن أولئك الذين سبق لهم التفكير فيها سيحظون بمزية السبق، ومن المؤكد أنهم أرسوا قيودًا تمنع غيرهم من الدخول. لا شك أن عدد الأفكار الواعدة التي وئِدت في مهدها بهذه الصورة يقدر بالملايين.

ماذا لو لم يكن بوسع ذلك الشخص الجالس في ركن الغرفة البحث على محرك جوجل؟ ربما كان الأمر سيتطلب قضاء أسابيع في البحث داخل المكتبات - والبحث المُضني بين صفحات العديد من الكتب، وتتبع العديد من المراجع، بعضها ذا صلة وبعضها ليس كذلك - من أجل العثور على دليل بأن هذه الفكرة ليست جديدة بالكامل. وبعد الكشف عن الفكرة السابقة أخيرًا، ربما يتضح أنها ليست مماثلة تمامًا للفكرة المقترحة، وستكون هناك أسباب تدعم تناول الفكرة من منظور جديد، وربما تنقيحها عن طريق ابتكارات من مجالات أخرى. وهنا تظهر فائدة عزلة جالاباجوس.

البديل المكافئ لعزلة جالاباجوس هو الصراع من أجل البقاء داخل قارة كبيرة، حيث تنحو النظم البيئية شديدة الرسوخ إلى تشويه التكيفات الجديدة والطغيان عليها. لدى جارون لانيير، عالِم الكمبيوتر والملحن والرسام ومؤلف كتاب «أنت لست آلة: بيان رسمي»، بعض الأفكار عن التبعات غير المقصودة للإنترنت - المعادل المعلوماتي للقارة الكبيرة - فيما يخص قدرتنا على الإقدام على المخاطرات. في عصر ما قبل الإنترنت كان المديرون مجبرين على اتخاذ قراراتهم استنادًا إلى ما كان لديهم من معلومات محدودة. لكن اليوم، على النقيض من ذلك، تتدفق البيانات إلى المديرين في التو واللحظة من مصادر لا حصر لها لم يكن من الممكن تخيلها منذ جيلين، وتعمل الحاسبات القوية على معالجة البيانات وتنظيمها وعرضها بطرق تتفوق بمراحل على المخططات البيانية المرسومة بخط اليد التي كنت أستخدمها في شبابي بنفس المقدار الذي تتفوق به ألعاب الفيديو الحديثة على ألعاب الورقة والقلم كلعبة «إكس أو». ففي عالم يتمتع فيه صانعو القرار بمعارف لا نهائية، من السهل رؤية المخاطرات على أنها بدع غريبة تخص ماضيًا بدائيًا محفوفًا بالخطر.

إن وهمْ تخليص عملية اتخاذ القرار من عدم اليقين ليس بالكامل مسألة أسلوب إداري أو تفضيل شخصي؛ ففي البيئة القانونية التي تشكَّلت حول المؤسسات المطروحة أسهمها للتداول في أسواق المال، يميل المديرون بشدة إلى تجنب تحمل مسؤولية أي مخاطر كانوا يعلمون بشأنها - أو كان ينبغي لهم أن يعلموا بشأنها، حسب رأي هيئة محلفين مستقبلية ما - حتى لو كان حدسهم ينبئهم بأن هذه المقامرة من الممكن أن تؤتي ثمارها على المدى الطويل. ففي الصناعات التي تُحدَّد السياسات فيها عن طريق التقرير ربع السنوي التالي لا وجود لما يسمى بـ «المدى الطويل». واحتمالية أن تؤدي بعض الابتكارات إلى جلب المال لا تعدو كونها محض احتمالية قد لا يتاح لها الوقت كي تتجسد قبل أن تبدأ استدعاءات المثول أمام المحاكم في القضايا التي يرفعها الأقلية من حملة الأسهم في الانهمار.

إن إيماننا بهذه الحتمية التي لا مفر منها لهو القاتل الحقيقي للابتكار في عصرنا الحالي. ففي هذه البيئة يكون أفضل ما بوسع أي مدير جسور أن يفعله هو إدخال تحسينات بسيطة على النظم الموجودة بالفعل - محاولة تحقيق انتصار مرحلي، تقليل النفقات، تحسين بعض المبتكرات من حين لآخر - على غرار مخططي المدن الذين يطلون حارات الدراجات في الشوارع كبادرة نحو حل مشكلات الطاقة. وأي إستراتيجية تتضمن الإقدام على مخاطرة - كتقبل خسارة على المدى القصير من أجل تحقيق هدف مستقبلي أكبر - سريعًا ما ستتوقف بفعل المطالبات بوجود نظام يحتفي بالمكاسب قصيرة المدى ويتسامح مع الركود، ويعتبر أي شيء آخر بمنزلة فشل. باختصار، هذا عالم لا يمكن فيه إنجاز أي مشروعات عظيمة.

شكر وتقدير

يرغب المحرِّران في توجيه الشكر إلى الأشخاص العديدين الذين ساعدوا في ظهور هذا الكتاب، ومشروع هيروغلاف، إلى أرض الواقع. كثيرٌ من الأشخاص الآتي ذكرهم ها هنا سيُذكرون في الصفحات التالية بسبب الأدوار العديدة التي اضطلعوا بها في سبيل تطوير هذه الفكرة الكبيرة ودعمها. أولًا، نود توجيه الشكر إلى نيل ستيفنسون لتأسيسه مشروع هيروغلاف، كما نشكر مايكل كراو، رئيس جامعة أريزونا الحكومية، لبث الحياة في «مركز العلم والخيال» بالجامعة.

ونيابة عن مركز العلم والخيال، نشكر كيمبرلي دي لوس سانتوس لرعايتها هذه الفكرة في مراحلها الأولى، وصفوت سليم وجوشوا جالاجر لرسم الملامح الأساسية لمشروع هيروغلاف، وآرت لي وجيم أوبريان وكارين ليبمان لما قدموه من مشورة حكيمة، ولورين بيدرسن، وإليزابيث فيج، وويسلي دي لا روسا لروحهم الفكاهية المرحة وتوجههم الإيجابي النشيط والساعات العديدة التي أسهموا بها في مشروع هيروغلاف والمركز. كما نود توجيه شكر خاص إلى جنيفر آبل، المحررة المتطوعة الاستثنائية، ونينا ميلر، المصممة المبدعة والمهندسة المعمارية للمنصة الحالية لمشروع هيروغلاف، وجوي إيشريتش، المحرر والمؤيد المتحمس والمدير والقائد الموهوب الدؤوب لمشروع هيروغلاف وللمركز. وفيما يخص إطلاق مشروع هيروغلاف نشكر جيرمي بونستين وجاري ماكوي وكارين لاور وزوي جلين وكل العاملين بمؤسسة سوبوتاي وبرين ستيم ميديا لعملهم على النسخ الأولى لمنصة مشروع هيروغلاف، علاوة على جيم كاركانياس وستيوارت براند وإستر دايسون وغيرهم كثيرين ممن قدموا النصح والدعم المفيد خلال الأيام الأولى للمشروع.

كما نود بصفتنا المحررين أن نشكر جنيفر بريل وكل العاملين في دار نشر هاربر كولينز لما أبدوه من ذكاء ودفء ودعم متواصل، علاوة على مايكل مورتيمر والفاتنة ليز دارهانسوف، من وكالة دارهانسوف وفيريل ليتراري آيجنتس، واللذين عملا كوكيلين أدبيين واضطلعا بعملية التفاوض المعقدة نيابة عن جامعة أريزونا الحكومية.

يود إد فين أن يشكر كل العاملين بجامعة أريزونا الحكومية الذين لم يجعلوا ظهور المركز إلى النور ممكنًا وحسب وإنما جعلوا منه مغامرة مثيرة كذلك، وذلك على دعمهم ونصائحهم السديدة وسخائهم الفكري، خاصة أولئك الذين قد يمنحونه منصبًا دائمًا بالجامعة يومًا ما. كما يود أن يشكر خصيصًا مايكل كراو للسماح له بحرية العمل وكيمبرلي دي لوس سانتوس لاستعانتها به وهو الشخص الذي، وفق توصيفات عدة، يمكن اعتباره غريب الأطوار. كما يعبر إد فين عن عرفانه الدائم لآنا ونورا اللتان تمنحانه أسبابًا جديدة للتفاؤل كل يوم.

توجه كاثرين كرامر الشكر لنيل ستيفنسون وإد فين لمنحها فرصة العمل على هذا الكتاب، ولإدوارد كورنيل لدعمه وتشجيعه، ولجريجوري بينفورد للمحادثات التي أجرتها معه والنصائح التي منحها إياها، ولديفيد هارتويل لاقتراحه على نيل ستيفنسون أنها قد تكون الشخص المناسب لهذا المشروع.

مقدمة

مخطط تمهيدي لأحلام أفضل

إد فلين وكاثرين كرامر

مرحبًا بكم في مشروع هيروغلاف، الذي أسسه نيل ستيفنسون ويموِّله مركز العلم والخيال التابع لجامعة أريزونا الحكومية. إن غايتنا الرئيسية هنا هي بث الحماسة من جديد في الطموحات التكنولوجية العظيمة من خلال قوة السرد القصصي. فالمشروعات الجسورة كبناء الهرم الأكبر أو سد هوفر أو الهبوط على القمر لم تتحقق بمحض المصادفة، إذ كان على أحدهم أن يتخيلها أولًا وأن يبتكر سردًا يبث الحياة في هذه الصورة في أعين الآخرين. لقد تحققت هذه الأحلام لا لأنها كانت سهلة، وإنما لأنها كانت صعبة. ويؤمن محررا هذه المجموعة القصصية بأننا لو أردنا خلق مستقبل أفضل فسنحتاج إلى البدء بأحلام أفضل. فالأحلام الكبيرة - تلك الأحلام المتفائلة الشاملة المُعدية - تشكل الخطوة الحاسمة الأولى نحو خلق أي تغيير حقيقي في العالم. وكما يتضح لنا ففي بعض الأحيان يكون الحالم كاتبًا أدبيًّا، وفي المعتاد يكون من كتَّاب الخيال العلمي.

بدأ المشروع عام 2011، حين كان نيل ستيفنسون يشارك في مؤتمر بعنوان «زمن المستقبل» إلى جانب مايكل كراو، رئيس جامعة أريزونا الحكومية. كان ستيفنسون قد نشر لتوِّه مقالًا بعنوان «مجاعة الابتكار»، الذي أوردناه في تمهيد هذا الكتاب، وحين اعتلى المنصة تحدث عن كيف أن رؤانا المستقبلية تتسم بالسوداوية، وكيف أننا نبدو وقد فقدنا القدرة على التفكير في «المشروعات العظيمة» وتنفيذها: كبرنامج أبوللو، ومشروعات البنية التحتية القومية، والرقاقات الدقيقة. رأى كراو أنه ربما يكون كتاب الخيال العلمي هم مَن يخذلوننا عن طريق إحجامهم عن تخيل رؤى مستقبلية كبيرة طَموحًا من شأنها أن تلهمنا المضي قدمًا وتحقيقها على أرض الواقع. وبدأ الاثنان في مناقشة الكيفية التي قد ينخرط بها كتاب الخيال العلمي على نحو نشط في رسم ملامح المستقبل بصورة منظمة دائمة.

نتج عن هذا الحوار إطلاق كل من «مركز العلم والخيال» و«مشروع هيروغلاف»، وهما مبادرتان لهما هدف مشترك، وهو: حمل الناس على التفكير

في المستقبل على نحو مبدع وطَموح. نرى أن هذه المهمة لها شقين متكملين؛ فأولًا، نحن بحاجة إلى نشر شعور أوسع بالمسؤولية عن المستقبل. فالمستقبل ليس شيئًا يجهِّزه أشخاص يرتدون أردية بيضاء في أحد المختبرات في مكان ما، وسواء تقبلنا هذا أم لم نتقبله فجميعنا نتخذ خيارات من شأنها أن ترسم ملامح المستقبل الذي نخلقه معًا. وثانيًا، نحن بحاجة إلى أن نكون أكثر ألفة بالأدوات التي نمتلكها لتصور ذلك المستقبل. والجامعة مكان مناسب تحديدًا للتشديد على أن يكون الخيال هو مفتاح المُضي قدمًا في كل فرع معرفي، رغم أن اللغة المهنية في العديد من هذه الفروع تحظر استخدام التفكير غير التقليدي أو تثبطه. ومن ثم فنحن نأمل أن يكون المركز، الذي يموِّله ويديره إد فين، بمنزلة وسيلة لتيسير هذه التجارب الفكرية الثورية، والمحاورات غير التقليدية، والنماذج الأولية المدهشة، والأهم من ذلك أن يكون مسرحًا يستطيع فيه أي شخص الإقدام على مخاطرات فكرية.

لو كان المركز بمنزلة منظومة التوجيه والتحكم، فمشروع هيروغلاف هو المركبة ذاتها: فهو جهدنا الأول لاستكشاف الحافة البعيدة للمعارف والقدرات البشرية. جمع ستيفنسون مجموعة صغيرة من الكتَّاب المهتمين بخوْض هذا التحدي، كما وظَّفَ كاثرين كرامر، التي حررت حولية «أفضل أعمال الخيال العلمي في العام» لمدة عشر سنوات ولها خبرة عريضة بكتابات الخيال العلمي التقليدية. انضمت كاثرين إلى فين كمحررة مشاركة، وتم التوسع في مجموعة المشاركين إلى أن صارت تضم خليط الكتَّابِ المنشورة أعمالهم في هذا الكتاب. تحرينا في بحثنا أن تكون المجموعة متنوعة تحوي مزيجًا من الرؤى التكنولوجية والسياسية والأسلوبية، وتضم عددًا من كتَّاب الخيال العلمي المشاهير الذين دأبوا لسنوات على كتابة هذا النوع من الأدب المتفائل المبنى على أساس تكنولوجي والمعني بالمستقبل القريب. أيضًا يستفيد المشروع من شبكة رائعة من الأشخاص بداية من طلاب الجامعة وصولًا إلى متخصصي التكنولوجيا والعلماء ومستشرفي المستقبل المستعدين للتفكير على نحو جدي، وجريء، في المستقبل الذي نريد تحقيقه.

ورغم أن هذه الشبكة تضم علماءً ومهندسين يعملون على أشياء مادية ملموسة، فإن صورة الخيال التي نتبناها لا ترفض الأصول الراسخة لأدب الخيال العلمي ولا تبتعد عنها. بدلًا من ذلك فنحن نتبنَّى قوة « أحدث صور أدب الأفكار العظيمة» حسب وصف كاتب العلوم والتكنولوجيا كلايف طومسون، من أجل فتح أبواب جديدة، وطرح أسئلة جديدة، وتقديم التحفيز والإلهام. فبإمكان قصة الخيال العلمي الجيدة أن تشرك ملايين الأشخاص في صورة أيقونية واحدة. إن روبوتات إسحاق عظيموف ومركبات روبرت هاينلين الصاروخية وفضاء ويليام جيبسون السيبراني لم ترسم ملامح تكنولوجيات

حقيقية وحسب، وإنما شكلت ملامح الإطار الثقافي الذي حولها. لقد خلقت قصص الخيال العلمي هذه رمزًا يصعب محوُه، بصمة رسومية ظلت راسخة داخل الخيال الشعبي. وهذا النطاق المتنوع من المقاربات مهم للغاية في كسر قوالب المستقبل النمطية واستكشاف طيف الاحتمالات الكامل الذي ينتظر نوعنا البشري في الأجيال القليلة القادمة.

وبغية استكشاف هذه الاحتمالات، يربط مشروع هيروغلاف بين الكتاب من جهة، وبين العلماء والمهندسين من جهة أخرى، حتى يتمكنوا من تحديد الأفكار الجامحة الجديدة. والفكرة الجامحة في هذا السياق تقع في نقطة التقاطع بين مشكلة عظيمة، وحل ثوري، واكتشاف مفاجئ يجعل الحل ممكنًا في وقتنا الحالي أو في المستقبل القريب. والتحدي الذي نطرحه أمام مجتمع مشروع هيروغلاف هو ابتكار أفكار يمكن تحقيقها في غضون حياة مهنية واحدة، وذلك عن طريق تطبيق تكنولوجيات موجودة اليوم بالفعل أو ستوجد في المستقبل القريب. لا وجود لعصيٍّ سحرية، أو محركات فضائية فائقة، أو مجرات توجد في مكان بعيد بعيد، فقط أفكار عن الكيفية التي سيكون العالم مختلفًا للغاية عليها بالاستعانة بقليل من التعديلات البسيطة.

إن وجود المشروع في مركز العلم والخيال بالجامعة يمكننا من الاستفادة من موارد جامعة بحثية تجريبية طموحة على أعلى مستوى. ورغم أنه ليس شيئًا جديدًا أن يستشير كتّاب الخيال العلمي العلماء - وعدد منٍ كتاب الخيال العلمي هم أنفسهم علماء - فإن هذه هي المرة الأولى التي توظِّف فيها إحدى الجامعات أعضاءها في دعم مشروع للخيال العلمي الحالم.

يتبادل كتابٌ وباحثون، وغيرهم، الحديث عبر الإنترنت وبشكل شخصي وعلى الهاتف، مشكِّلين حلقة ثرية من الفعل ورد الفعل بين العلم والسرد القصصي. والقلب الحي النابض لمشروع هيروغلاف هو هذا المجتمع الممتد، وهذه الحوارات وعمليات العصف الذهني والمناقشات التي شكلت ملامح القصص الواردة في هذا الكتاب.

لطالما كان الخيال العلمي أدبًا تحركه الأفكار، أدبًا يلهم الناس بأن يصيروا علماء ومهندسين. وجزء أصيلٍ من مهمة كاتب الخيال العلمي هي ابتكار أفكار تكون جيدة بما يكفي، أو مسلِّية بما يكفي، بحيث تسمح للقراء بالامتناع طوْعًا عن عدم تصديقها، بحيث تدعو القراء إلى المشاركة في الحلم. ومهمتنا الأساسية كمحررين هي صقل القصص التي من شأنها أن تدعم هذا الاهتمام بالأفكار الثورية، ونأمل أن نتمكن من خلال صياغة هذه التحديات بطريقة مثيرة يسيرة الفهم في تحفيز القراء على التوصل لحلول جديدة.

أحد مباهج العمل في هذا المشروع تمثلت في مشاهدة الكثير من أعمال الخيال العلمي المستندة إلى أبحاث حقيقية، على غرار تمويل الطابعات القمرية (ناسا ووكالة الفضاء الأوربية) وخطط استخدام الدرونات التجارية (أمازون وغيرها). علاوة على ذلك فإن عمليات التعاون التي ينطوي عليها تأليف هذه القصص أدت إلى فتح آفاق بحثية جديدة: فمثلًا يثير برج ستيفنسون العالي أسئلة بحثية عن أنماط الرياح والنشاط الكهربائي في طبقات الغلاف الجوي العليا. في السنوات القادمة نهدف إلى الاستمرار في زعزعة الحدود الفاصلة بين الأدب والأبحاث العلمية الحقيقية عن طريق تمويل بعض المغامرات العلمية، وتوظيف المزيد من المعاونين في مجتمع مشروع هيروغلاف، وتنقيح عملية صناعة النماذج الأولية للمنتجات التي نحلم بها.

عند تصدير أي مجموعة قصصية تقليدية عادة ما نخصص بضع فقرات من أجل تلخيص الخطوط العامة للقصص التي يحويها الكتاب. لكن بدلًا من ذلك نقترح عليك أن تستعرض الملحوظات التي كتبها المؤلفون في نهاية كل قصة، والتعليقات والقراءات الإضافية التي نرشحها لكل قصة على الموقع الإلكتروني لمشروع هيروغلاف (hieroglyph.asu.edu)، وهناك سوف تطلع على عمليات التعاون والحوارات والأبحاث الفنية التي أجراها المؤلفون من أجل ابتكار قصصهم. إن المشكلات التي يتناولها المؤلفون تتراوح من مشكلات عسيرة مثل السفر بين النجوم إلى تحديات أكثر واقعية مثل التغير المناخي والعدالة الاجتماعية. (ماذا يحدث حين لا نتناول العدالة الاجتماعية بوصفها عَرَضًا للابتكار التكنولوجي وإنما نتساءل عن الكيفية التي يمكن بها تحسين البنى الاجتماعية عينها بطريقة ثورية؟) وفي العديد من هذه التجارب الفكرية يكون التعاطف عنصرًا أساسيًّا في حل المشكلات التكنولوجية واسعة النطاق. إن الأدب ليس معنيًّا بتناول المستقبل وحسب، وإنما معنيٌّ كذلك بفهم بعضنا بعضًا، وفقط حين نعمل معًا يكون بمقدورنا حل المشكلات الكبيرة.

هذه القصص ليست نهاية المشروع، وإنما بدايته. فهذا الكتاب ما هو إلا مخطط تمهيدي للمستقبل، يحوي أفكارًا نأمل أن تقفز من بين صفحاته إلى الحياة الواقعية. ومجموعة التجارب الفكرية والاسئلة الموجهة والإثباتات المبسطة التي يحويها كلها مدعومة بأبحاث في مجالات متعددة مثل العلوم العصبية وعلوم الروبوتات وعلم النفس السلوكي والهندسة الإنشائية. نأمل أن يعكس هذا الكتاب طموحاتنا. ومن شأن تتبع الخيوط المذكورة هنا إلى موقع مشروع هيروغلاف أن يقودك إلى أفكار جديدة، وأبحاث فنية، ومقابلات، وإيضاحات، ومناقشات حماسية. وإلى أحلام أفضل.

نامل أن يلهمك مشروع هيروغلاف بالانضمام إلينا ومساعدتنا في تخيُّل ما يمكن أن يكون عليه المستقبل. فكر في هذا الكتاب على أنه مخطط تمهيدي، وبيان رسمي، ودعوة موجهة إليك. ما أحلامك المستقبلية، وكيف يمكننا تحقيقها؟ نود أن نعرف كل هذا.

الغلاف المجهول

نيل ستيفنسون

«إنها تُسمَّى التُّربة». هكذا أخبرته للمرة الثالثة.

لم يكن كارل ممن يحبون أن تُقال لهم الأشياء مرتين. اعتدل في جلسته وقال: «في نظري ما هذا كله إلا غبار».

قلت له: «بصرف النظر عما تسميه، فلديه قدرة معينة على دعم المباني».

كنت أدرك أنه على وشك أن يقاطعني، لذا رفعت يدي كي أسكته. شهق كل من في الغرفة اندهاشًا، لكن لم يكن أيهم يعرف كارل منذ سن الخامسة مثلي. قلت: «كل ما أقوله هو إن المهندسين المدنيين بارعون، بارعون للغاية في تشييد المباني فوق «الغبار» (كنت أستميله بهذه الكلمة)، لذا بدلًا من أن تبدأ هذا المشروع - بصرف النظر عما يكونه - بإصدار «فتوى» ضد الغبار، ربما يجدر بك أن تثق في أن المهندسين سيجدون طريقة ذكية ما لدعم أيٍّ كان ذلك الذي تريد تشييده فوق هذه التربة، أيًّا كان نوعها، التي تغطي ذلك الموقع اللعين الذي تريد مني شراؤه».

قال كارل: «لا أثق أن بمقدور الغبار أن يدعم مبنى ارتفاعه عشرون كيلومترًا».

أخرست كلماته كل من بالغرفة. لو كان ذلك أي عميل آخر لرفع أحد الحاضرين يده وسأله ما إن كان يعني حقًّا ما قاله.

أو، بفرض أنه كان يعني ما يقول حقًّا، فسيسأله ما إن كان قد فَقَد صوابه.

لكن لم يرفع أحد يده.

قلت أخيرًا: «حسنٌ، سنبحث عن موقع يكون فيه صخر الأديم قريبًا من السطح».

قال كارل: «الأفضل أن يكون السطح نفسه من صخر الأديم».

أوضحتُ قائلة: «إنني فقط أقول إن هذا قد يكون أمرًا عسيرًا، إلى جانب المتطلبات الأخرى. ما كانت تلك المتطلبات مجددًا؟».

قال: «الاتصال المباشر ببحيرة عظمى، وحبذا لو كان مقامٌ عليها مصنعٌ للصلب».

سأل أحدهم: «وماذا لو لم يكن مصنع الصلب معروضًا للبيع؟».

سارعتُ بالرد قبل كارل قائلة: «سيكون معروضًا للبيع».

كانت العلاقة بيني وبين كارل من نوعية العلاقات التي قد تمر فيها خمسة وعشرون عامًا دون أي تواصلٍ من أي نوع، ثم تُستأنَف العلاقة تمامًا كما كنا عليه حين افترقنا في سن الثانية عشرة. كنا قد ارتدنا المدارس عينها وتعاركنا في الملاعب عينها، بل ووصل الأمر إلى تبادل بعض القبلات على سبيل التجريب، وهو الأمر الذي لم ينتهِ على ما يرام لأسباب ستتضح بعض قليل. بعد ذلك رفض مدرب فريق كرة القدم بالمدرسة الإعدادية السماح لي بالمشاركة، إلا كعضوة في فريق التدريب أو فريق المُشجِّعات، ثم أخرجني والداي من المدرسة ومنحاني تعليمًا منزليًّا لمدة عام قبل أن يرسلاني إلى أكاديمية خاصة. تلا ذلك الذهاب إلى الكلية ثم القيام بالدراسات العليا ثم المرور بسلسلة مُحبِطة من البطالة أو العمل في وظائف متدنِّية، نظرًا لأن الاقتصاد لم يكن مُرحِّبًا بأولئك الذين تخصصهم الأساسي هو الأديان المقارنة. انتقلتُ إلى كاليفورنيا مع خليلة لي خلال البرهة التي كان فيها زواج المثليين والمثليات قانونيًّا، لكنني انفصلت عنها قبل إتمام الزواج؛ لأن ثمة شيئًا في معرفة أن «بمقدوري» فعْل هذا جعل اهتمامي يتركَّز على ما إذا كنت أريد هذا حقًّا أم لا، وبعد ذلك قابلتُ تِس وتزوجْتُها. كانت تِس تكسب دخلًا طيبًا من عملها مبرمجة لصالح سلسلة من شركات التكنولوجيا، وهو ما جعلني أقرب إلى ربة المنزل، ولم يكن ثمة شيء أمضي فيه الوقت سوى اليوجا. وفي النهاية، وبدلًا من أن يُجَن جنوني، دخلتُ مجال العقارات. كنت أجيد كل الأمور عدا التعامل مع مُلاك المنازل المستقبليين السخفاء، الذين كانوا يعجزون عن حسم قرارهم بشأن شراء أحد المنازل.

اتضح أن العمل في العقارات التجارية كان الأمر الملائم لي. فهؤلاء المشترون كانوا يعرفون ما يريدون، وهذه النوعية من البشر تعجبني.

نوعية البشر أمثال كارل.

كنت قد تابعتُ مسيرته المهنية؛ المقالات الرئيسية في مجلات الأعمال، وصوره وهو يفتتح بورصة نيويورك. لم أدرك أن هذا هو كارل، الصبي من ملعب المدرسة، إلى أن صار ملياردير ًا، ثم فقد ماله، ثم صار ملياردير ًا مجددًا، مُظهرًا قدرًا من تحمُّل الخسارة يتوافق على نحو مثالي مع سلوكه خلال فترات الركود الاقتصادي.

في أحد الأعوام ذهبت إلى منزل والديّ لقضاء عطلة الكريسماس. أرسلتني والدتي، المشغولة في المطبخ، إلى متجر البقالة كي أبتاع لها شرابًا بنكهة التوت البري. وهناك وجدت نفسي أقف إلى جوار كارل في طابور الحساب. كان يحمل عبوة من الكريمة الحامضة وست عبوات من الجعة. كنت أقف إلى جوار الرجل الحادي عشر من حيث الثراء في أمريكا ننتظر السيدة جونز العجوز (إذ كنا نعرفها منذ ثلاثة عقود) كي تنتهي من ترتيب كوبونات الخصم خاصتها. مشيتُ أنا وكارل عبر ساحة انتظار السيارات إلى مطعم آبلبي وقضينا بعض الوقت نتحدث عما مضى من حياتنا. أخبرته عن زيجتي، فأومأ كارل كما لو كان يقول: «أجل، هذا يلائمك». وأحدث رد فعله هذا إحساسًا فوريًّا، غبيًّا ربما، من العرفان والولاء ساعدني على تحمُّل الكثير من الجنون الذي حدث لاحقًا.

بعدها بدا وكأن مؤقِّتًا داخليًّا ما انطلق في رأسه، ربما شعر أن الكريمة الحامضة وعبوات الجعة ستفقد برودتها، أو ربما هذه هي الكيفية التي عليها الأشخاص المشابهون لكارل. تحول إلى شخص بالغ مجددًا وسألني عما أفعل لكسب معيشتي. سألني أسئلة كثيرة عن الأمر، وكان يقاطع إجاباتي حين لا تقدم جديدًا. ثم طلب مني بطاقة العمل خاصتي.

بعد أسبوع كنت في منطقة باي آريا، أبحث لكارل عن مستودع لتخزين المجموعة التي يمتلكها من الطائرات ذات السطحين التي تعود لزمن الحرب العالمية الأولى. وبعد ذلك ساعدتُ إحدى شركاته في الانتقال إلى منشأة جديدة في ريدوود شورز. وبعدها عثرت على بناية مكتبية لشركة التمويل المصغَّر التي يمتلكها.

كانت الأمور تسير على نحو سلس بيننا على الدوام، وحتى حين كان يفقد صبره أو يغضب صراحةً بسبب شيء ما، كنا دائمًا إيما وكارل، الصبيين ذوي

الاثنتى عشر عامًا مجددًا، حتى حين جاء إليَّ وهو يحمل نظرة الصبي ذي الاثني عشر عامًا على وجهه وقال لي: «لديَّ فكرة غريبة من أجلك»، خصوصًا حين فعل هذا.

- «أنت بالفعل لم تكن تمزح بشأن الجزء الغريب». هكذا أخبرته بعد أن غادر المهندسون والمصرفيون والمحامون والفيزيائي الفلكي الوحيد الغرفة.

أقر قائلًا: «كنت أنوي الاحتفاظ بالأمر سرًّا لفترة أطول، لكن لن يكون بوسع الناس اتخاذ قرارات صائبة لو لم أخبرهم بالخطة».

سألته: «أهناك خطة؟ أعني، ما مقدار ما خططتَ له من الأمر بالفعل؟».

قال: «طلبتُ من المهندسين المدنيين والميكانيكيين العمل على الأمر لبضعة شهور، إنه فريق صغير. لكن ما لم أتدبره بعد هو ...».

بادرته قائلة: «كيف لهذا أن يكون منطقيًّا؟».

- «آه، كنت أعرف أن هناك سببًا لتعييني إياكي».

- «كيف يُصنَع الصلب»، يبدو هذا أشبه بعنوان لأحد تلك الأفلام التعليمية الجادة التي كان النوم يغالبني أنا وكارل خلال مشاهدتها ونحن في الصف الرابع. لو كنت في سن معينة، سيكون بمقدورك أن ترى ذلك الفيلم بعين خيالك: المشاهد الخشنة المصورة بالأبيض والأسود، بطاقات العناوين المكتوبة بالأحرف السوداء، الموسيقى التصويرية ذات النغمة الظافرة التي تنطلق بقوة من سماعات وحدة الفيديو الصغيرة الموجودة في الفصل. كان هذا ملخصًا للأشهر الستة الأولى من شَغلي الوظيفة في مؤسسة كارل. فلم يكن هناك جدوى من البدء في التفكير بشأن بناء برج من الصلب ارتفاعه عشرون كيلومترًا إلى أن نعرف أولًا من أين سنأتي بالصلب.

ومن دون محاولة التمسك بالتناسق السردي، ها هي قائمة بست نقاط تلخص الأشهر الستة الأولى من عملي: • ثمة سبب وراء وجود مصانع الصلب في المنطقة المحيطة بالبحيرات العظمى؛ إذ يبدو أن هذه البحيرات قد صممها الله كي تدعم إنتاج الصلب على نطاق واسع. كان خام الحديد يأتي من شمالي مينيسوتا كي يجتمع مع الفحم القادم من منطقة أبالاتشيا (أو لاحقًا من وايومنج) وصولًا إلى المصانع المقامة على شواطئ تلك المسطحات المائية الشاسعة. بالنسبة لي ولك فإن كلمة «بحيرة» قد تعني «صيد الأسماك والتزلج

على الماء»، لكن في نظر رجال الصناعة كانت البحيرة تعني «طريقًا سريعًا واسعًا بلا نهاية يستخدم في نقل الأشياء الثقيلة».

• معظم مصانع الصلب هذه عتيق الطراز.

• كانت صناعة الصلب، حسب وصف كارل القاسي «الحديقة الجوراسية لعالم الأعمال». كان بناء مصنع جديد يحتاج وقتًا طويلًا لتعويض رأس المال المستثمَر فيه، ومن ثم كان المُلاك يقاومون التغيير. كان الابتكار يحتاج أن يُفرَض فرضًا عليهم من جانب المعتنقين الجدد له، من في أماكن أخرى من العالم، والذين لم يكن لديهم ما يخسرونه.

• كانت الصين تسحقنا سَحقًا؛ فغالبية مصانعها كانت جديدة، وكانت تقدم مُنتجًا أفضل: أكثر استدامة وأعلى جودة وأسهل في التعامل. كانوا يحصلون على خام الحديد من أستراليا، ويحصلون على الفحم محليًّا. ولم تكن الضوابط التنظيمية تعيق عملهم.

• لم يكن أيٌّ من المصانع الأمريكية القائمة ينتج الأشياء التي سنحتاجها.

• كمشروع جانبي على السبيل نحو تشييد ذلك البُرج، كان كارل ينتوي إعادة إحياء صناعة الصُّلب الأمريكية.

كانت فكرتنا المبدئية، التي أغرمنا بها من فورنا، هي غرس البرج على امتداد شاطئ إحدى البحيرات العظمى، بحيث ينبثق من الأساس من أعلى أحد مصانع الصلب الجديدة. ومن نافلة القول إننا حظينا بدعم غرفة التجارة في ذلك الجزء من البلاد إلى أن تواصل مهندسو الإنشاءات التابعون لنا مع بعض علماء المناخ وطلبوا منا عقد اجتماع قصير معهم.

كان قلق المهندسين آخذًا في التزايد بشأن الرياح. فقد كان واضحًا من وقت مبكر أن التحدي الكبير، من منظور مهندسي الإنشاءات، لم يكن دعم وزن المبنى ذاته. فمقدار الصلب المطلوب لعمل هذا كان تافهًا مقارنة بما كان مطلوبًا للحيلولة دون أن تطيح به الرياح الموجودة على ارتفاعات عالية للغاية. قدَّم كافاناو هيوز، كبير المهندسين الإنشائيين، عرضًا توضيحيًّا فًاعلًا صار يُعرف باسم «أنا الرياح». كان يطلب منك أن تقف مسترخيًا في وضعك الطبيعي، بحيث تباعد بين قدميك بمحاذاة عرض الكتفين، ثم كان يتحرك إلى أحد الجانبين ويبدأ في دفعك. أولًا ينزل على يديه وركبتيه ويدفعك من الكاحل بأقصى ما يستطيع. ثم يفسر الأمر قائلًا: «الرياح على المستوى المنخفض». بعد ذلك ينهض على ركبتيه ويضع يديه على عظم الورك ويدفع، ثم يقول:

«لاحظ انتقال الوزن»، ثم يحثك على أن تقول ما تشعر به إلى أن تصل إلى الإجابة الصحيحة: أن ساقك وقدمك المواجهتين للرياح كانتا تحملان وزنًا أكبر، بينما ساقك وقدمك البعيدتان عن الرياح كانتا أخف وزنًا. والسبيل الوحيدة لك كي تقاوم قوة كافاناو هي عملية السحب-الدفع التفاضلية بين إحدى القدمين والأخرى؛ أو عملية «المزاوجة» كما كان كافاناو يسميهما. «فلا بد أن تكون الساق من أسفل أقوى كي تتحمل هذه القوة الإضافية. لكن بما أننا لا ندري من أي اتجاه ستهب الرياح، علينا أن نجعل كل السيقان أقوى بالمقدار عينه. هذا يعني وزنًا أكبر، ومزيدًا من الصلب». وأخيرًا، كان كافاناو يقف ويضع يده على كتفك، ثم يدفع. لم يكن يحتاج قوة كبيرة كي يخرج الشخص عن توازنه. إلى جانب هذا، كانت ثمة أمور أخرى تحدث: ليس فقط عملية «مزاوجة» متزايدة الشدة بين القدم القريبة من الرياح والبعيدة عنها، ولكن بعض الشد الداخلي في الجزع. قال كافاناو: «إن مدربي يحثني دومًا على تنشيط جزعي، وهذا يعني في نظري منظومة من التدعيم المتبادل التي تمكنني من نقل قوى الشد من أحد أجزاء جسدي إلى جزء آخر، وفي النهاية إلى قدمي». ثم يواصل دفعك إلى أن تضطر إلى الوثب بعيدًا عنه. ثم يفسر قائلًا: «ثمة مشكلتان: الأولى هي أن هذا التدعيم المتبادل يحتاج مزيدًا من الصلب، والمزيد من الصلب يرتطم به المزيد من الرياح، ومن ثم تزداد القوة الواقعة على الجسم ككل!».

قال كارل: «اللعنة، إنه نمو أسِّي».

قال كافاناو: «نعم، إنه كذلك. المشكلة الثانية هي أن الرياح الأعتى لا تكون على مستوى الكاحل، حيث يكون من السهل مقاومتها، وإنما في الأعلى، بالقرب من القمة، وهو أسوأ مكان ممكن».

قال كارل: «التيار النفَّاث» [(1)]

- «أنت محق. لا أعني بحديثي هذا أننا لا نستطيع بناء برج قادر على مقاومة التيار النفَّاث. فبإمكاننا أن نفعل أي شيء نريد. بَيد أن المنطق السليم يحتم علينا تجنُّب الأماكن التي يكون فيها التيار النفاث قوي ومتكرر». ثم أومأ إلى أحد رفاقه الجدد من علماء المناخ، والذي أخرج خريطة للعالم تبين المواضع التي كان فيها التيار النفَّاث يوجد بكثرة. صار واضحًا على الفور أن الجزء الشمالي من الغرب الأوسط والشمال الشرقي الصناعي كانا أسوأ مكانين في العالم أجمع لبناء برجنا.

كان الوضع أفضل قرب خط الاستواء وقرب القطبين، لكن كارل رفض فكرة القطبين. لذا لم يتبق لدينا سوى حفنة من دوائر العرض التي كانت تتوافق، بشكل تقريبي، مع المنطقة الاستوائية.

بعد أن تفحصَّ كارل الخريطة لدقيقة قال: «أعرف ما يدور في خلد البعض منكم، لكن لا، لن أبني البرج في منطقة لعينة من مناطق العالم الثالث كي ينتهي به الحال في يد أول حكومة عسكرية تمسك بزمام الأمور».

كان بعض الموجودين بالغرفة قد وُلدوا ونشؤوا بالفعل في واحدة من مناطق العالم الثالث اللعينة حسب وصف كارل.

كان كارل غافلًا عن ذلك، وأضاف: «الاستقرار السياسي وحقوق المِلكية معياران غير قابلين للتفاوض من معايير اختيار المكان».

أوضح أحدهم قائلًا: «الخلجان الواقعة في أقصى شمال أستراليا تبدو مثالية إذن». ولدقيقة كنا على استعداد لشراء قبعات على الموضة والانضمام إلى برامج السفر المتكرر على متن الخطوط الجوية الأسترالية «كانتاس»، إلى أن ذكر عضو آخر في جماعة علماء المناخ، أن تلك المناطق تضربها الأعاصير بمعدل أكبر.

قال كارل: «حسنٌ، نحتاج إذًا مكانًا ذا مناخ مضجر على أي ارتفاع، ونحتاج استقرارًا سياسيًّا».

كانت الإجابة هي جنوب غربي الولايات المتحدة، بحيث يكون الموقع الأساسي هو الوادي الأوسط في كاليفورنيا. دار بعض الجدل؛ إذ أنكر أصحاب التوجه اليساري فكرة أن الولايات المتحدة كيان مستقر سياسيًّا، فيما تحفَّظ أصحاب التوجه اليميني على الافتراض القائل بأن الأمريكان يتمتعون بالفعل بحقوق مِلكية. كما شعر أهل كاليفورنيا بالإهانة من فكرة أن مناخهم كان مُضجرًا، رغم أن البشر في كل ركن من أركان العالم يحبون فيما يبدو الشكوى من الطقس المحلي. شرعنا في البحث انطلاقًا من الوادي الأوسط. هل سيمكننا العثور على موقعٍ يتسم باستقرار زلزالي أكبر؟ وهل سيكون على اتصال بمسطح مائي كبير يصلح للنقل؟ هل سنجد هضبة مرتفعة على نحو مناسب، فيما يبدو، بحيث يمكننا الاستفادة من الارتفاع الإضافي؟

سرعان ما عثرنا على مواقع واعدة في وسط كاليفورنيا وجنوبي نيفادا ووسط أريزونا وجنوب غربي تكساس. وفي كل مرة كنا نجد موقعًا كانت غريزة التملك لديَّ تنشط، وأسارع بملاحقة كارل بالرسائل النصية والبريد

الإلكتروني، راغبة في حسم الأمور. لكن بدا أن كل ما كان يريده هو تعليق هؤلاء الأشخاص لأطول وقت ممكن، على أمل التلاعب بهم ودفعهم إلى خفض الأسعار، حسب ظني.

ثم ذات يوم ظهرت الرسالة النصية التالية على هاتفي: - «اشتر المواقع الأربعة جميعها».

رددتُ قائلة: - «هاها، حقًّا؟».

أجابني: - «ما دمت تعتقدين أنه بالإمكان إعادة بيعها دون خسائر كبيرة».

وبعدها بلحظات: - «لا تنفقي المال كله في موقع واحد».

مشيرًا، فيما يبدو، إلى حقيقة أنني كنت على وشك الحصول على عمولات من الصفقات الأربع المنفصلة، وربما ثلاث أخرى غيرها حين يقرر بيع المواقع التي لن يستخدمها («المواقع الفاشلة» حسب تعبيره).

كنت أوشك على الشك في أن البرج محض خدعة، وأن كارل كان في الواقع يدير لعبة معقدة للغاية في العقارات المهجورة.

صارت الحقيقة أوضح أمام ناظري حين اشترى كارل المواقع الأربعة جميعها ثم بدأ في زيارة هذه البلدات وجعل مهندسيه يعرضون أمام أهلها العرض التقديمي الذي جهزوه عن الأهمية البالغة لتشييد برج ارتفاعه عشرون كيلومترًا في منطقتهم. أوضحت عشرات من شرائح عرض الباوربوينت، بأكثر طريقة مُطَمْئِنة ممكنة، لماذا من المستحيل أن ينهار هذا المبنى ويسحق البلدة. حتى لو ارتطمت به طائرة من طراز بوينج 747.

انتهى بي الحال بحضور العديد من هذه العروض التقديمية. كنت قد قمت بالفعل بالجزء الذي أنا مؤهَّلة للقيام به، لكن ظل مسمَّاي الوظيفي يتغير مع تطور المشروع. لم يكن كارل ممن يحترمون الألقاب والمؤهلات. فأي شخص كان يثق به، وكان في مجال رؤيته، ولم يكن سبق له أن قال شيئًا مفرط الغباء أخيرًا، كان الحال ينتهي به وقد تقلد بعض المسؤوليات. انتهى الحال بي وقد صرت أحد مروِّجي هذا المشروع وتركت عملي المعتاد بالكامل (كان هذا مقبولًا، إذ سوِّينا الأمر فيما بعد)، واضطررتُ إلى شراء محفظة بطاقات كي أضع بها بطاقات الخصم الخاصة بفنادق هيرتز ويونايتد وماريوت... إلخ. ثم اشتريتُ حقيبة يد صغيرة كي أضع بها محفظة البطاقات، وبعدها اشتريتُ تنورة كي تتماشى مع حقيبة اليد. أذكر هذا لأنني كنت دائمًا من نوعية الفتيات

اللاتي يرتدين سراويل من الجينز ويضعن محفظة صغيرة في الجيب. شاهدت تِس هذا التحول في ملابسي في دهشة وحذر، متهمة إياي بالسفر إلى الغرب الواقع بين الجبال وأنا أرتدي ملابس غير ملائمة. صارت الأمور متوترة قليلًا بيننا إلى أن أوضحتُ في يوم قائلة: «إنهم لا يكترثون لبتة بكوني مِثلية».

- «حقًّا؟».

- «حقًّا. إنهم في الواقع يظنون أن هذا مثيرًا للإعجاب بشكل ما. أغلبهم يظن هذا».

- «كنت أظن فقط أن ...».

- «كلا، هذه الملابس الهدف منها أن يأخذوني بجدية». هدأ روْع تِس، وإن لم تقتنع بالكامل.

- «الناس يخشون أن يسقط البرج فوقهم. ويجب على الشخص الذي يوضِّح لهم كيف أن هذا الأمر لن يحدث مطلقًا ألا يكون مرتديًا الجلد الأسود».

كان بمقدوري استعراض شرائح الباوربوينت في منامي. في حقيقة الأمر، كثيرًا ما فعلت هذا وأنا نائمة، وأنا أتقلَّب على فراشي في الفندق. كنا قد وظفنا شركة للتصاميم الرسومية كي تنتج لنا فيلمًا لطيفًا من الرسوم المتحركة يظهر التحول الذي سيصيب الموقع. تسوية الأرض، غرس الأشجار لجعل المنطقة جميلة، خط سكك حديدية جديد على شكل مصاصة وينتهي بحلقة تامة الاستدارة قُطرها تسعة أميال. وإلى الداخل من هذا توجد القضبان، نحو نصف دستة منها، واحد لكل دعامة أساسية؛ وهذه الدعامات الأساسية من شأنها أن تحمل البرج. ثمة تفسير مفصل للسؤال «لماذا ستة منها؟». نظريًّا، يمكنك أن تبني برجًا راسخًا مستقرًّا بثلاث دعامات فقط. لكن لو حدث شيء لدعامة منها - لم يكن ضروريًّا أن أذكر هجمة بطائرة نفاثة، لأن الجميع كان يتصور هذا بالفعل في عقله - لن يكون بوسع الدعامتين المتبقيتين حمْل المبنى. ربما تستطيع تشييد البرج بأربع دعامات، لكن هذا سيتطلب بعض الحيل الإنشائية. خمس دعامات كان الخيار الأكثر أمانًا، بينما ست دعامات تمنحنا هامش أمان أكبر علاوة على بعض الفوائد الناتجة عن التناظر. فكلما زاد عدد الدعامات، صارت كل واحدة أقرب إلى جاراتها، وهذا بسَّطَ، بصورة ما، مشكلة الربط بينها هيكليًّا. لهذا استقر الرأي على ست دعامات.

كانت الخطوة التالية هي تشييد شرائط الأساس: ستة مسارات من الخرسانة المسلحة، كل واحد منها يطوِّق أحد القضبان. مضى هذا الجزء من

العرض التقديمي سريعًا، فلا توجد أشياء كثيرة مثيرة للاهتمام بشأن الرصف.

كان مفهوم مصنع طَرْق الصُّلب أصعب في شرحه. كانوا يملكون المصانع بالفعل، لكن لم يسبق لأحد منهم أن رأى مصنعًا تتوسطه دبابة قتالية في حجم المركز التجاري. في هذا الموضع كانت المعالجة الرسومية الحاسوبية مفيدة، إذ أوضحت كيف يُبنى المصنع كله من أسفل إلى أعلى على درجات ضخمة من الصلب، وكيف أنه يستقبل المُدخلات (الصلب! والصلب! والمزيد من الصلب!) من خط السكك الحديدية الذي يمر في منتصفه، ثم يُجمِّع المُدخلات في جدائل، ويربطها معًا بقاعدة الدعامة، ثم يدفعها إلى أعلى عبر فتحة في السقف. كان الأمر كله يسيرًا في استيعابه، بمجرد تفهُّم فكرته. الجزء الوحيد الذي كان صعبًا إلى حدٍّ ما في توضيحه هو أن كل مصنع من مصانع الطَّرْق الستة - واحد لكل دعامة رئيسية - كان أيضًا أساسًا هيكليًّا يدعم نصيبه من الوزن الإجمالي للبرج. لم يكن على المصنع فقط أن يطرق الصلب (ببطء!) على امتداد مُدرَّج، ولم يكن عليه فقط أن يُجمِّع الجدائل ويدفعها خروجًا من قمته، بل كان عليه أيضًا أن يحوي أذرعًا هيدروليكية من أجل دفع البرج إلى أعلى، بحيث ينقل نصيبه من الوزن نزولًا عبر الهيكل إلى درجات الصلب الكبيرة، ومنها إلى شريط الأساس وفي النهاية إلى الأديم الصخري الأثير لدى كارل.

بعد توضيح هذه الأمور الأساسية، صرت قادرة على المضي إلى العرض الرسومي المليء بالأغنيات والرقصات (وما يكمله من موسيقى سيمفونية) الذي يظهر «المغازل» الستة (وهي التسمية التي أطلقناها على المصانع المُشكِّلة للجدائل) وهي واقفة في مواضعها الابتدائية عند أقصى الأطراف الداخلية للقضبان، بحيث تكاد يمس بعضها بعضًا. اندفعت ستة قطارات في صخب على امتداد مقبض المصاصة، ثم ذهبت في طرقها المتباينة حول خط الحافة. اندفع قطار سابع نحو المركز، متجهًا صوب مغزل مركزي ثابت مصمم من أجل تشكيل قلب البرج. وبمجرد أن صار لدى كل جديلة من جدائل الصلب السبعة القطار الخاص بها فإنها بدأت - على نحو يشبه أبراج الإذاعة - في الظهور عبر فتحات في أسقفها، بحيث تنمو إلى الأعلى وكأنها سويقات منبثقة من بذرة فاصولياء سحرية. كانت هناك لحظة توقف بينما واصلت الروافع إعداد المنصة التي تصل الدعامات الست بالقلب. كانت هذه فرصتي كي أستخدم بعض الأوصاف الشعرية بينما أستعرض حقيقة أن هذه المنصة ستكون يومًا ما على ارتفاع عشرين ألف متر فوق سطح الأرض، أي فعليًّا في الفضاء الخارجي، حيث السماء السوداء وانحناء الأرض واضحان للعيان. سيستمتع الأزواج في شهر العسل بالإقامة في أجنحتهم ذات الضغط الجوي الملائم، وسيرصد علماء الفلك الكون عبر تليسكوبات لا يعتمها التلوث الناجم

عن الغلاف الجوي. من هذه المنصة ستنطلق الصواريخ، كما سيقفز منها ممارسو القفز المظلي الحُر إلى الأرض.

ومع ذلك فنحو 99 بالمائة من العمال الذين سيبنون كل هذا لن يغادروا الأرض مطلقًا.

كان رد الفعل حيال ذلك متفاوتًا. بالطبع تفهَّم الجميع لماذا كان ذلك منطقيًّا؛ إذ لا يمكننا إرسال قوة عاملة كبيرة الحجم إلى الفضاء كل يوم، بحيث يتنفسون من خزنات أكسجين وهم يرتدون بذلات فضائية. بيد أن هذا انتقص بعضًا من رومانسية الأمر. وعلى مستوى ما أظن أن كل عامل من ذوي الياقات الزرقاء حضر واحدًا من هذه العروض التقديمية كان يمنِّي نفسه أنه سيكون من بين القلة القليلة التي ستتاح لها فرصة الصعود أعلى البرج، من أجل أعمال الفحص وحل المشكلات.

كان الجزء المتبقي من الفيلم متوقعًا بقدر كبير. واصلت القطارات التوافد، وواصلت المغازل نسج جدائل الصلب، متوقفة من بين الحين والآخر حتى يمكن ربط الدعامات المنشأة حديثًا بالقلب عن طريق الجدائل المصنوعة من الصلب؛ «عضلات الجذع» التي تحدث عنها كافاناو. كنا نسرِّع عرض الفيلم ما إن يتفهَّم الحاضرون الفكرة العامة. دَفْع، توقُّف، رَبْط. دَفْع، توقُّف، رَبْط. ومع كل دَفعة كانت المصانع تتحرك على مساراتها إلى الخارج على نحو محسوب بدقة، بحيث تتباعد بمقدار متر واحد مقابل كل خمسة عشر مترًا من المادة التي تلفظها لأعلى، حتى تظل النسبة بين ارتفاع البرج وعرضه ثابتة. ومع ذلك فقرب النهاية بدأت المصانع تتباعد بسرعة أكبر، بحيث تمددت القاعدة على نحو يشبه قاعدة برج إيفل. حتى الأشخاص الذين كانوا يحضرون العرض وهم يزعمون أنهم قلقون من انهيار البرج كانوا يقتنعون بما يرون، إذ كان البرج يتمتع بقاعدة واسعة بما يكفي تجعله «يبدو» ثابتًا. كان الصلب يرتفع أكثر وأكثر بينما أستعرض بعض المعارف التي استقيتها من ويكيبيديا ومن كتب علم الأرصاد الجوية ومن محادثاتي المطوَّلة مع خبراء الفلزات بشأن الطبقات المختلفة للغلاف الجوي والتحديات المختلفة التي سيتعين على البرج مواجهتها: ففي الأسفل يوجد المطر والغبار، وأعلى قليلًا يوجد الرذاذ الثلجي، وأعلى من ذلك توجد الرياح الشديدة وإمكانية أن يتعرض البرج لتيار نفاث (أو تيار عارض). إن البرد القارس من شأنه أن يجعل المعادن سهلة الكسر لو أننا كنا من الغباء بحيث نستخدم السبائك غير الصحيحة. كما أن المعدن يتعرض لقوى التمدد والانكماش الحراريين بينما تسطع الشمس غير المحجوبة على الأجزاء العليا من البرج في النهار وتختفي في الليل. كان كل تحدٍّ بمنزلة فرصة لتوليد الطاقة بواسطة الألواح الضوئية (في الأعلى) أو أنابيب الحمل الحراري (في الأسفل) أو توربينات الرياح (في المنتصف).

ثم انتهت العروض الترويجية.

وكادت زيجتي تنتهي هي الأخرى، إذ عانت كثيرًا بفعل كل تلك الغيابات، وكل تلك الليالي التي قضيتها في الفنادق بعيدًا عن المنزل، وكل تلك التغييرات المنذرة بالخطر في ملبسي وتصفيفة شعري.

لو كان لي أن أكتب كتابًا عن تشييد البرج فسأقحم فيه فصلًا يمتد على مدار ثلاثة أعوام بعنوان «السياسة والمحامون». في وسط كل هذا وردتني رسالة نصية من كارل يقول فيها: «كاليفورنيا = فاشلة».

بمعنى «بيعي موقع كاليفورنيا».

كان ردي: «اتفقنا».

بيد أن رد فعلي كان أكثر تعقيدًا من ذلك بقليل. كنت أعرف من البداية، بالطبع، أننا في النهاية سنبيع ثلاثة مواقع على الأقل من المواقع الأربعة. لكنني قضيت وقتًا في كل مكان منها وعقدتُ صداقات مع السكان المحليين، ولم أكن أحب أن أكسر قلوبهم بأن أبلغهم أن عطاءهم قد رُفض؛ خاصة أنه بحلول هذه النقطة كان كل عطاء قد تفرع إلى حزمة معقدة تشمل الولاية والحكومات المحلية والاتحادات العمالية والبنوك وغير ذلك من الجهات.

كان الرد، ببساطة، هو أن البرج سيكون مرئيًّا من التلال في كل من أوكلاند وبيركلي: وهو جزء موسر من العالم يعيش فيه كثير من أثرياء العالم المعتادين على النظر من نوافذ منازلهم الراقية ومشاهدة المشهد الطبيعي. المشهد الطبيعي وحده. فهم لم يرغبوا أن يشوه المشهد برجٌ «عملاق» ارتفاعه عشرون كيلومترًا من شأن «مظهره الصارخ القبيح الصناعي» أن يكون «مكتظًّا بزخارف صناعية غليظة» و«مزينًا بعروض ضوئية على غرار لاس فيجاس» بحيث «يفسد نقاء السماء في الليل والنهار».

فشل موقع جنوب غربي تكساس بعد ذلك بستة أشهر بسبب علماء البيئة الذين كانوا أشبه بالدمى في يد ذلك التحالف غير المقدس بين … لا يهم. كان من شأن إثبات خطأ مزاعمهم في المحاكم أن يكون أمرًا مكلفًا، وبفضل تمتعهم بتمويل سخي كانوا سيطيلون عملية التقاضي إلى الأبد عن طريق تقديم طعون قانونية. كانت أريزونا قطعة الدومينو التالية في السقوط. كانت احتمالًا مستبعدًا من البداية، لكننا تمسكنا بها كي تمنحنا قوة تفاوضية أكبر في موقع نيفادا، الذي ما إن اشتم السياسيون فيه رائحة المال حتى شرعوا يُعرِّفوننا، بطرق متعددة، أنه سيتعين علينا أن نمنحهم جزءًا من الكعكة.

هذه كانت الكيفية التي ربحت بها عمولاتي الأربع عن طريق شراء المواقع «الفاشلة» لكارل، ثم أربع عمولات أخرى عن طريق بيع كل موقع منها. ربحنا المال في موقعين وخسرنا في موقعين، وإجمالًا تساوت مكاسبنا وخسائرنا.

هذه هي الكيفية التي انتهى المشروع حيث بدأ: بين محمية للسكان الأصليين وموقع عسكري قديم لاختبار القنابل، في الصحراء الجنوب غربية، في منطقة أظهرت بالفعل تقبلها للتغييرات الثورية في الطبيعة، أولًا عن طريق القصف الشديد بالقنابل، ثم عن طريق بناء مجمع كازينوهات، وأخيرًا عن طريق التقبل التام لإقامة مزارع رياح بها.

في الوقت عينه تقريبًا أتممنا صفقة شراء مجمع صناعي قديم قرب الحدود بين إلينوي وإنديانا، وشرعنا في بناء نوع جديد من مصانع الصلب. كانت البحيرات العظمى هي الموقع الأفضل في العالم لصنع الصلب، وكان هذا انحرافًا شديدًا عن خطتنا الأصلية التي كانت تقضي بتصنيع الصلب في موقع البناء نفسه. لكن على مر السنين بات جليًّا أن العديد من الأشخاص كانوا يريدون نوعية الصلب التي يستطيع المصنع الجديد إنتاجها. ورغم صعوبة تصديق ذلك، فقد صار البرج عميلًا ثانويًّا.

لم يمثل النقل مشكلة عظيمة؛ إذ كان بالإمكان شحن القطع الصغيرة إلى الجنوب الغربي على قطارات البضائع، أما الأشياء ضخمة الحجم فكانت تُنقل عبر النهر وصولًا إلى الخليج، ثم عبر قناة بنما، إلى أن تصل إلى رأس خليج كاليفورنيا، ثم تُنقَل برًّا بواسطة القطارات الأرضية.

كان الموقع على مسافة عشرون دقيقة بالسيارة من مجمع للتعليم الجامعي، وهو ما أتاح للموظفين فرصة تعليم أبنائهم والترفيه عن أنفسهم، ومنحنا موردًا جاهزًا من المواهب الهندسية الشابة.

هذا إلى جانب حانة للمثليات مستوحاة من أجواء راعيات البقر، التي صارت مهمة للغاية حين أخبرني كارل - كما لو كان هذا من المفترض أنه واضح من البداية - أنني سأنتقل إلى هناك كي أدير الأمر كله.

أوضحت قائلة: «لكنني لست مؤهلة لبناء برج ارتفاعه عشرون كيلومترًا».

قال: «بما أنه لم يسبق بناء برج مماثل من قبل، لا يوجد من هو مؤهل من الأساس».

- «إن الأمور الهندسية بعيدة للغاية عن ...».

- «لدينا مهندسون».

- «وكل التفاصيل القانونية ...».

- «لدينا محامون».

كنت أحمل هَم التحدث مع تِس بهذا الشأن، لكنها كانت تعرف منذ وقت طويل أن هذا سيحدث. بل ربما أهَّبها كارل لذلك.

- «دعينا نذهب». كان هذا كل ما قالته.

فكرتُ في نفسي: فليسعد قلبها الطيب. لكن ما قلته هو: «ماذا؟».

- «كنت أتدارس الأمر. ورتبت أموري مع رئيسي في العمل. سأعمل من المنزل باستخدام الكمبيوتر».

لم تصدق أيٌّ منا هذا بالطبع. استمرت تِس في وظيفتها اثنيْ عشر أسبوعًا بعد انتقالنا.

باعت بعض الأسهم واشترت حانة راعية البقر بأقل مما أنفقته على سيارتها الأخيرة، وبالجزء المتبقي من المال اشترت شاحنة خفيفة من صاحب مزرعة كان قد باع مزرعته لكارل.

بعدها بخمس سنوات تحولت الحانة إلى مُلتقى تجمُّع للمهندسين، المثليين وغيرهم، الذين انتقلوا إلى المنطقة.

وبعد خمس سنوات أخرى كانت تِس تدير «الحانة الفضائية الأولى».

بطبيعة الحال اختلف الناس حول هذا. كانت سياحة الفضاء آخذة في الازدهار. توافد السياح الشاعرون بالدوار والغثيان في الجيوب الصغيرة لكبسولاتهم تحت المدارية وامتصوا الكوكتيلات المعدة مسبقًا من أكياس ذات فتحات، واعتُبرت الحانة من ثمَّ أول حانة في الفضاء. صار الأمر أشبه بالجدال حول من بنى أول كمبيوتر: حسنًا، الأمر يعتمد على تعريفك للكمبيوتر.

ما تعريفك للحانة؟ في نظر تِس كان لا بد أن تحتوي الحانة على صندوق موسيقي (جوكبوكس) ولوح تصويب الأسهم وكذلك الجاذبية الأرضية؛ فلا

يمكنك الإمساك بمشروب جينيس في جاذبية منعدمة.

في البداية كانت الحانة تتكون من حاوية شحن ذات كُوات جانبية تضيئها مصابيح البلازما ويرتادها زبائن تِس، الممتنون على الدوام، من نخبة عمال الصلب العاملين على ارتفاعات عالية. كان هذا في الأيام الخوالي حين كانت المنصة المسمَّاة «الكيلومتر المربع» - وهو الاسم الذي كنا نطلقه على المنصة (الدائرية في حقيقة الأمر) الموجودة أعلى البرج - لا يزال على ارتفاع ألفي متر على سطح الأرض. وما إن وصلنا إلى ارتفاع أربعة آلاف متر حتى صار ضروريًّا البدء في تشغيل أجهزة تركيز الأكسجين طوال الوقت، حتى للزبائن المعتادين على العمل على ارتفاعات عالية. وفي اليوم الذي تجاوزت فيه منصة «توب كليك» (وهي التسمية التي منحناها للكيلومتر المربع بحلول ذلك الوقت) ارتفاع جبل إفرست، نقلنا العمل كله إلى كوخ مُعدَّل الضغط من أكواخ كوونسيت المغلقة، بحيث كان الضغط الجوي داخله معادلًا لمستوى سطح البحر. وحين تجاوز ارتفاعنا عشرة آلاف متر بدأنا نطلق على حانتنا اسم «الحانة الفضائية الأولى». كانت هناك انتقادات على الإنترنت، لكن الصحفيين ورجال الأعمال الذين ركبوا القطار الحلزوني إلى أعلى البرج وجلسوا في الحانة وهم يستمتعون بمشهد السماء الداكنة وانحناء سطح الأرض، حسنًا، لم يستطِع أيهم التشكيك في قولنا.

إنني بهذا أتجاوز عن الكثير من التفاصيل: فقد استغرق التجهيز للمشروع خمس سنوات، بينما استغرق تنفيذه عشر سنوات. كان لدي أنا وتِس اثنان من الأبناء، ربيناهما حتى سن المراهقة، ومرت حياتنا الشخصية بفترة صعبة حين دخلت تِس في علاقة مع عامل صُلب من الموهوك جاء من شمالي نيويورك، ثم غادر بعدها بعام حين حكّمَت تِس عقلها بشكل أفضل. واصلتُ إدارة المشروع لبضع سنوات إلى أن أعلن كارل فجأة خلال أحد الاجتماعات (أ) أنني أؤدي عملًا رائعًا ولكنني (ب) سأغادر موقعي على الفور و(ج) أنه سيشرع في تلقي علاجٍ إشعاعيٍ بسبب سرطان البروستاتا بعد خمس وأربعين دقيقة من الآن. بعد ذلك منحني أغرب صفقة عقارية تجارية في العالم: بيع منصة توب كليك. أثيرت قضايا متعلقة بتعارض المصالح بسبب حانة زوجتي، لكن كارل حلها على الفور بأن منحنا عقد إيجار مدى الحياة، كتبه في عجالة بخط يده على ظهر تصريح مرور.

صار شحن المواد الخام إلى الأعلى أكثر تكلفة مع زيادة ارتفاع البرج، لذا فقد ثبتنا الهياكل الكبيرة بينما كانت توب كليك لا تزال على الأرض، ثم خزَّنَّا الصلب وغير ذلك من البضائع التي من الممكن أن تُستخدم في إنهائها لاحقًا. كل هذه المواد حصلت على رحلة مجانية - وإن كانت بطيئة - إلى ارتفاع

عشرين ألف متر. سارت الأعمال الإنشائية الأخرى بسرعة متمهِّلة خلال السنوات التي كانت فيها توب كليك ترتفع عبر «المنطقة الميتة»؛ ونعني بها الارتفاعات الواقعة بين سبعة كيلومترات واثني عشر كيلومترًا. على ارتفاع أقل من سبعة كيلومترات كان بمقدور البشر التنفس (وإن احتاج معظمهم خزانات أكسجين)، والتحرك دون ارتداء بذلات ضغط، والاستمتاع بمشهد جميل بما يكفي. كان الجو باردًا للغاية، لكن كان بإمكانك ارتداء ملابس ثقيلة، إذ كان الوضع أشبه بمعسكر استعدادي على سفح جبل من جبال الهيمالايا صنعه بشر. أما فوق ارتفاع سبعة كيلومترات فلم يكن ثمة هواء كافٍ للتنفس، لكن كان يوجد منه ما يكفي لتوليد قدر وفير من الطقس السيئ. كان المشهد إلى أسفل تحجبه الغيوم، بينما لم يكن المشهد إلى أعلى قد أثراه ضوء النجوم بعد. أعلى من ارتفاع إفرست - تسعة كيلومترات أو نحو ذلك - واجهتنا رياح عاصفة تقل حرارتها عن الصفر المئوي كانت في أسوأ صورها قريبة للغاية من التيار النفَّاث في شدتها. لم يكن من المفيد في شيء إبقاء الزجاج في أُطُر النوافذ، حتى الأشياء بادية الثقل مثل حاويات الشحن كان لا بد من لحامها في الأرضية وإلا كانت لتتطاير وتسقط من على ارتفاع بضعة أميال وتتحطم على الأرض. كانت هناك سبل للتعامل مع الأمر، لكن بشكل أساسي صار العمل في توب كليك في حالة معلَّقة إلى أن دفعت المغازل على الأرض المنصة إلى ارتفاع يتجاوز المنطقة الميتة. وخلال ذلك الوقت كانت لدينا أمور أخرى لنفكر فيها: مثل كسوة الدعامات الأفقية بأجنحة عملاقة وجعْلها تعمل على النحو الصحيح.

فوق المنطقة الميتة سريعًا ما سارت الأمور على ما يرام. جهَّز عمال يرتدون بذلات فضائية المباني التي ظلت خاوية لعدة سنوات، ثم زوَّدوها بالضغط الجوي الملائم بحيث يستطيع العمال ذوو ملابس العمل العادية دخولها وتركيب الأرضيات ومقابض الأبواب.

وخلال هذه المرحلة، حين وصلت توب كليك إلى ارتفاع سبعة عشر كيلومترًا فوق الأرض، أقمنا حفلًا في الحانة الفضائية الأولى بهدف نثر رماد كارل. كانت الفكرة الأساسية هي أن يسقط الرماد لنحو كيلومترين، ثم تذروه الرياح.

كنت آخر الواصلين، وقد حملت معي ضيف الشرف - كيس بلاستيكي ذو شريط مغلق مليء برماد كارل - في حقيبة توصيل بدت شبابية للغاية بما لا يتوافق مع مظهري كأم في منتصف العمر تعمل في مجال العقارات. تأخرت رحلتي من مطار سان فرانسيسكو بسبب عاصفة هائلة؛ عاصفة من النوع الذي كان يجتاح منطقة السهول العظمى من الغرب إلى الشرق منذ قديم الأزل لكن تندر رؤيته في ذلك الجزء من الجنوب الغربي. لكن شأن الضفدع

الموضوع في إناء من الماء في سبيله للغليان، كنا آخذين في التعود على التغيرات الحادة في المناخ وأحداث الطقس التي لم نسمع عنها في القرن السابق. وجدت شركة الطيران وسيلة لتعديل خط السير بحيث أتفادى العاصفة، لكن أثناء الانتقال من المطار المحلي وأنا استقل شاحنة تِس، أمكنني أن أرى بوضوح كافي أن العاصفة كانت عازمة على اللحاق بي: إذ كان قوس من سحب السندان الركامية الطبقية يمتد، على ما يبدو، من باها إلى يوتا ويحجب شمس ما بعد الظهيرة ويومض هنا وهناك ببرق مدفون.

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يبدو البرج ضئيلًا إلى جانبه.

كان أحد المهندسين، في بدايات العمل، قد وصف البرج بأنه «سحابة من المعدن»، وهو ما كان توصيفًا شعريًّا من طرف مهندس بيد أنه أوصل الفكرة المقصودة: أقل قدر مطلوب من الصلب لأداء المهمة، موزعٌ على أكبر حجم يمكن شغله، لكن بطريقة خاصة مقصود منها حل مجموعة من المشكلات الإنشائية. وفي الليل، حين تُضاء الأنوار، كان يبدو أكبر حجمًا بكثير مما يبدو عليه خلال النهار، إذ كان يبدو مثل سحابة وامضة تنبثق من الصحراء وكأنها إعصار مقلوب. وإذا رفعت بصرك عاليًا بما يكفي - عاليًا للغاية، أعلى من أغلب السحب - سيكون بمقدورك أن ترى مجموعة من الأجنحة تتحرك مع التيار النفاث، وكأنها مجموعة من الستائر الفينيسية المتدلية على نحو غامض في الفضاء. وفوق ذلك كان هناك النور الساطع على القمة، حيث يتسع البرج كي يدعم منصة توب كليك، التي كثيرًا ما كانت السحب والضباب تحجبها.

ورغم أنني كنت أعيش مع هذا الشيء، وعليه، لنحو عشرين عامًا فإنني ما زلت أنبهر بحجمه كلما اقتربت منه كما أفعل الآن. لكن وجود رماد كارل على المقعد المجاور لي جذب انتباهي بصورة ما إلى إرثه الذي خلفه على الأرض، الذي يمتد الآن من قاعدة البرج وحتى قُطر يتراوح بين عشرة وعشرين ميلًا. فإلى الشرق والجنوب الشرقي امتدت مساحة من المراعي المفتوحة، تسكنها ثيران البيسون وجرذان الأرض وبعض الأشخاص المرتبطون بالأرض: كرعاة البقر والهنود الحُمر الذين عاشوا على الدوام في هذه المناطق. جزء من المنطقة كان ساحة اختبار للقنابل، وقد اشتريت الجزء المتبقي، مزرعة تلو الأخرى، مستعينة بشركات وسيطة حتى لا يتحد مُلَّاك الأراضي ضدي ويرفعوا السعر. كان أحد الأسئلة التي سألني الناس إياها هو: «ماذا لو أصابه الصدأ وسقط؟» وكانت إجابة كارل: «حينها سنستخدم متفجرات الهدم كي يسقط البرج تمامًا كالشجرة في منتصف الرقعة»، وهو الاسم الذي صارت المنطقة تحمله. بدت لي هذه الإجابة تراجعًا أمام أولئك الرافضين لإقامة المشروع في منطقتهم، إلى أن فهمت أن كارل كان يقصد دومًا استخدام

البرج كمنصة لإطلاق المركبات الفضائية التي ستمر مساراتها، في العشرين ميلًا الأولى، في منتصف «الرقعة»، التي كان من ثم بحاجة إلى أن يبقيها خالية على أي حال حتى يكون للصواريخ التي لا تنجح في الوصول إلى الفضاء مكان كي تهوي فيه.

كانت الأميال الأخيرة من الطريق السريع الجديد من المطار تمتد بمحاذاة الحد الشمالي للرقعة، وبينما كنت أقود الشاحنة استمتعت، إلى يساري، بمشهد ثيران البيسون التي ترعى والهنود الذين يمتطون الخيل، أما إلى اليمين فقد امتد شريط نابض بالحياة من المراكز التجارية وسلاسل المحلات الكبرى التي ظهرت كي تسد احتياجات الأشخاص الذين انتقلوا للعيش هنا. وفيما وراء ذلك الخط من التطور كان بإمكاني سماع صافرات قطار؛ إذ كان هناك قطار ضخم آخر آتٍ من شيكاجو يحمل جدائل سابقة الصنع من الصلب كي يغذي بها المغازل.

كان الخط الدائري المحيط بالقاعدة ظاهرًا للعيان بينما كان هلال من المباني التجارية بارتفاع خمسة إلى عشرة أدوار يزدان بشعارات شركات التكنولوجيا والمقاولات التي افتتحت فروعًا لها هنا. كانت هناك أيضًا فنادق ومبانٍ سكنية تأوي سكانًا مؤقتين علاوة على حشد أصغر سنًا من شباب المدينة الذين كانوا يرغبون في البقاء على مقربة من منطقة الحياة الليلية والترفيه. ومن نوافذهم كان باستطاعتهم النظر فيما وراء المجمعات السكنية المنتشرة على امتداد طريق الولاية السريع الذي يربطهم بمجمع التعليم الجامعي. كان هذا كله يشعرك بأنه أمر وقتي عابر، بما أنه كان من المفهوم أنه عند اكتمال البرج وتوقف المغازل عن العمل، سيتحول الكيلومتر السفلي إلى مدينة رأسية، وهو مكان رائع للغاية للعيش فيه، من الناحية الثقافية والمناخية على حدٍ سواء.

لكن في الوقت الحالي كان الجزء السفلي من البرج عبارة عن شبكة من الجدائل العارية يعمل بها عمال الصلب وروبوتاتهم. كانت الأقواس الملحومة معلقة كما لو كانت فراشات داخل زجاجات، وكانت الروافع تدور وتلتقط ما تحمله وكأنها سراعيف جوفاء. في أغلب مواقع البناء، كان يتعين على أي رافعة أن ترتقي إلى الأعلى بينما ينمو المبنى من تحتها، لكن هنا كان يتعين على الروافع أن تواصل العمل «أسفل» الهيكل، بينما كان يُدفَع إلى أعلى من المغازل. لم يكن الأمر معقدًا كعلوم الصواريخ، لكن كان عمل الروافع يَسُر الأنظار وكأنه ألعاب البناء المخصصة للأطفال، وكانت تشاهده الأسر التي تقضي إجازاتها والمتقاعدون العارفون بكل شيء من منصات مشاهدة مغطاة موزعة حول الطريق الدائري.

كان العمل المعقد هو ذلك المرتبط بالقلب الداخلي للبرج، مدخنة بقطر عشرة أمتار تمتد بارتفاع المحور المركزي للبرج. خلال السنوات الأولى كنت أزعج كارل بأسئلة عما كان ينوي عمله تحديدًا بتلك المساحة الفارغة؛ تلك الفجوة تامة الاستدارة في مركز كل طابق.

كان يقول: «أنت تفترضين أن لدي خطة سرية».

- «لديك دائمًا خطة سرية».

- «خطتي السرية هي أنه ليست لدي خطة سرية».

- «عجبًا!».

- «سوف أبيع - بل سوف تبيعين - حق استخدامه لأعلى مُزايد. على موقع إيباي لو لزم الأمر».

- «وما الذي سيفعله أعلى مُزايد به؟».

- «ليس لدي فكرة. بما أن ارتفاعه عشرون كيلومترًا ويتجه لأعلى مباشرة، أخمن أنه سيكون شيئًا مرتبطًا بإرسال الأشياء إلى الفضاء».

- «لكنك لا تعرف ماذا تحديدًا؟».

رفع يديه قائلًا: «ربما قاذفة بازلاء عملاقة، أو قاذفة كهرومغناطيسية، أو شيء لم يُختَرَع بعد».

- «لماذا إذًا اخترت أن يكون قُطره عشرة أمتار؟».

- «كان هذا الرقم أسهل في التذكر مقارنة بأحد عشر فاصل واحد ثلاثة تسعة صفر اثنين أربعة ...».

- «حسنًا حسنًا!».

نجحت الخطة السرية. ومنح الطرف الفائز بالمزايدة - وهو ائتلاف من شركات الفضاء التجارية ومتعهدي وزارة الدفاع - البرج دفعة من الأموال والمصداقية في الوقت الذي كنا نحتاج فيه كليهما تمامًا.

عبرتُ الطريق الدائري، في مواجهة المرور المتدفق على نحو معاكس - عُمال أنهوا ورديتهم النهارية ومتجهين إلى منازلهم لقضاء العطلة الأسبوعية - ومررتُ بنقطة تفتيش أمنية ثم اجتزتُ معبرًا فوقيًّا وُضع أعلى خط السكك الحديدية الدائري. كان المعبر ينحدر نحو المستوى الأرضي وصار طريقًا موازيًا للقضيب الشمالي الغربي.

عوضًا عن رصف القضبان كلها في الوقت عينه - وهو ما كان سيحمِّلنا تكلفة مرتفعة في البداية - فإننا كنا نبنيها في الوقت المطلوب، قبل أن نحتاجها بأسابيع أو أمتار قليلة. مكننا هذا من تشغيل فرق الرصف على نحو ثابت دائم طيلة أعوام. ومن ثم فقبالة المغزل الشمالي الغربي الضخم كانت توجد حافة هذا النشاط التمهيدي: أعلام برتقالية تحدد مواقع عينات التربة، الثرى المُدّرَّج والمدكوك، شبكة رمادية من حديد التسليح، ألواح من الخشب الرقائقي، خرسانة مصبوبة حديثًا. ومن خلف كل هذا كانت تبزغ المماشي العملاقة المترابطة والبدن الهائل للمغزل.

أعلى المغزل كان عمال الوردية الليلية في ملابسهم الواقية يخرجون من غرفات تبديل الملابس بالأسفل وينهمكون في العمل على أحدث قطاع مغزول من الجديلة، فيفحصونها بالعين وبالأشعة السينية ويركبون المستشعرات والأضواء والأسلاك. كان الكثير من هذا العمل قد جرى بالفعل على بُعد مئات الأميال حين جُهِّزَت الجدائل بشكل مُسبق، إلا أن أي عملية مُدارة حاسوبيًّا لا مفر من أن يجري تحسينها على يد البشر الذين يفحصون البناء الفعلي ويكتبون عليه بأقلام الشحم. وبينما ارتفع البرج من قلب الصحراء، توالت البيانات من مقاييس الإجهاد والمزدوجات الحرارية والكاميرات وغيرها من المستشعرات وفيرة العدد التي ولدت أطنانًا من المعلومات عن الكيفية التي حقق بها النموذج التوقعات، أو لم يحققها، وهو ما أوجد احتياجًا لـ «فرق تعديل» لإجراء التعديلات المطلوبة على الجدائل المغزولة حديثًا قبل دفعها إلى ارتفاع أعلى نحو السماء، بحيث يكون من العسير الوصول إليها.

كان هناك أكثر من طريق إلى القمة. صار التسلق بالأيدي رياضة خطيرة جديدة. كما كانت منصات الطائرات الهليوكبتر متاحة على ارتفاعات متعددة، وكان العمل جاريًا على بناء مطار إقليمي جديد سيكون في نهاية المطاف على ارتفاع ألفين وخمسمائة متر بحيث تستطيع الطائرات الإقلاع منه والهبوط إليه من خلال فتحات في جانب البرج، وهو ما يوفر عليها كميات هائلة من الوقود بفضل تجنبها عمليات الإقلاع والهبوط المعتادة.

كانت أبراج المصاعد العمودية تحيط بالممر الهوائي البالغ قطره عشرة أمتار والموجود في منتصف البرج. بيد أن منظومة الانتقال الرئيسية كانت القطار الحلزوني؛ وهو مزيج من قطار ومصعد وزلاجة ملاهٍ كان يطوق المحيط الخارجي للبرج بشكل حلزوني، بحيث يرتفع بزاوية ثابتة مقدارها عشرون درجة. كان في حقيقته مُنحَدَرًا بسيطًا يبلغ طوله نحو ستون كيلومترًا، وكان يلتف حول البرج أثناء بناءه. يمكنك تصور الفكرة العامة له إذا قمت بقص مثلث من الورق ولففته حول قلم رصاص. كانت قطارات خاصة تسير داخل هذا المسار الحلزوني ولها أرضيات مائلة، بحيث يشعر الركاب أنهم واقفون على أرض مستوية على الدوام. بُنيت محطات للقطار كل كيلومترين من الارتفاع، وكانت واحدة منها - الثانية قبل الأخيرة - قد جُهِّزَت بشكل مبدئي للتو وكانت تتدلى على ارتفاع بضعة أمتار من الأرض. تمكنتُ من الوصول إليها بجهد جهيد عبر سقالة رافعة كي ألحق بالقطار الصاعد التالي.

في الواقع كانت كلمة «قطار» توصيفًا مبالغًا فيه لوسيلة النقل هذه، إذ كان يتكون من عربة وحيدة تخلو من أي تجهيزات فاخرة من تلك التي ستُبنى لاحقًا حين تحمل جموع السياح وكبار رجال الأعمال. كان كل من اعتاد الركوب يعرف أن عليه إفراغ مثانته أولًا، وأن يحضر معه ملابس ثقيلة حتى لو كان الجو دافئًا على المستوى الأرضي. كنت أتشارك العربة مع جو، وهو مهندس طيران كان في طريقه إلى ارتفاع أربعة عشر ألف متر كي يتفقد آلية المؤازرة على أحد الأجنحة، ونيكي، وهي عالمة فلك كانت في طريقها إلى منصة توب كليك للعمل على منظومة تثبيت المرايا الخاصة بالتليسكوب الكبير الذي كان يُبنى هناك، وفروج، وهو مُنتِج فيديو يجهز جلسة تصوير عن صناعة القفز من المواقع الثابتة، التي كانت تخدم بالفعل ألف عميل في العام. بعد الاستماع إلى التحذيرات المُسجلة، بدأت العربة صعود المسار الحلزوني، مُرتكزة قليلًا على محاورها بينما تزداد سرعتها. أخبرتنا رسالة مسجلة عن أماكن وجود الحبوب المضادة للغثيان وأكياس التقيؤ، ثم انتقلت إلى الجزء الأكثر خطورة والخاص بما سنفعله في حالة فقدان الضغط داخل العربة.

كان الركاب من ذوي الياقات البيضاء جميعهم، وكنا في ظهيرة يوم الجمعة وأغلب العمال كانوا يهبطون لأسفل من أجل قضاء العطلة الأسبوعية، وهو ما أمكننا رؤيته حين نظرنا من النافذة إلى العربات المكتظة الذاهبة في الاتجاه المعاكس.

وللمرة المائة منذ مغادرة دار الجنازات مددتُ يديَّ وربتُّ على كيس الرماد الموجود في حقيبتي. كان لدى كارل الكثير ليفخر به ولم يكن يخجل من تلقي الثناء المستحق. لكنني كنت أعرف، فقط من خلال مشاهدة ردود فعله، أنه

كان يفخر تحديدًا بخلق عدد لا يُحصى من فرص العمل للعمال العاديين. كانت عائلته في مسقط رأسه مكونة من عمال صُلب وكهربائيين ومزارعين. وكان كارل يشعر مع هؤلاء براحة أكبر مما يشعر بها مع أولئك الموجودين في صَن فالي أو مؤتمرات تيد (التكنولوجيا والترفيه والتصميم)، وحين توفي كارل كان الحزن الشديد الذي أصاب هؤلاء العُمال صادقًا وغير متكلّف.

بينما كنا نصعد في مسارنا الحلزوني مررنا بأقطاب البوصلة كلها كل أربع دقائق أو نحو ذلك. تبدلت مشاهد المساحات البنية الشاسعة للرقعة وحلت محلها واجهة العاصفة العريضة التي كانت تحتشد قبالة شمس نهاية النهار. كانت الحواف العليا للسحب لا تزال تلتمع بأشعة الشمس المنحنية، بينما قواعدها مختفية في الظلام الرمادي المائل للزرقة، الذي تتخلله هنا وهناك ومضات البرق البيضاء بلون الثلج.

بدأت العربة تطن وتهتز وهي تشق طريقها في مواجهة تيار من الهواء بسرعة ثمانين ميلًا في الساعة. بدأت أعمدة من الظلال تلوح أمامنا بينما كنا نعبر خلال هيكل يشبه سُلمًا سداسي الجوانب، يطوق كل هيكل منها جناحٌ عظيم. لم يكن هذا الجزء من البرج هيكلًا بالمعنى التقليدي للكلمة بقدر ما كان طائرة شراعية ثابتة، أو ربما تكون «طائرة ورقية» هي الكلمة الأدق لوصفه.

كانت الفكرة تعود إلى الأشهر الأولى من عملية التصميم، حين كان المهندسون يعملون حتى وقت متأخر من الليل على تعديل نماذجهم ثم يستيقظون في الصباح ليجدوا رسائل بريد إلكتروني طويلة من كارل، أُرسلت في الثالثة فجرًا. كان وزن البرج - ما أطلق عليه كارل «فاتورة الصلب» - آخذًا في التزايد. أحيانًا كانت الزيادة تحدث تدريجيًّا وعلى نحو غير ملحوظ وفي أحيان أخرى تقفز على نحو مباغت. كانت الرياح هي المشكلة. وكان السبيل الوحيد للانتصار في المعركة - أو هذا ما ظنه المهندسون في البداية - هي جعل البرج أضخم حجمًا، بحيث تتمكن السيقان المواجهة للريح من المقاومة بشكل أكبر. لكن كلما زادت مساحة جوانب المبنى المعرضة للرياح زاد تأثير قوة الرياح على المبنى، وهو سبب المشكلة في المقام الأول. ليس هذا وحسب، بل من شأن زيادة تلك المساحة أن تتطلب وضع المزيد من الصلب بالأسفل من أجل دعم وزن البرج. وهذه الدائرة المفرغة أنتجت قفزات هائلة في فاتورة الصلب كلما جرى تعديل أي شيء.

لم يمض وقت طويل حتى أوضح أحدهم أنه من منظور الديناميكا الهوائية كان البرج كابوسًا مُقيمًا. ففي الأساس كانت كل جديلة وكل كابل عبارة عن

أسطوانة، والشكل الأسطواني أحد أعلى الأشكال من حيث المقاومة. لكن إذا كسونا كل أسطوانة من هذه الأسطوانات بكسوة ذات شكل انسيابي، وتركناها حرة كي تتمركز بما يتوافق مع الرياح، ستقل المقاومة بمعدل هائل وتهبط فاتورة الصلب، حسنًا، كما يهبط مفتاح إنجليزي مُلقى من أحد كازينوهات منصة توب كليك. وتلك الكسوات ستكون لها فوائد أخرى كذلك، إذ حين تُملأ بمواد عازلة خفيفة الوزن سيكون من شأنها أن تقلل الارتفاعات والانخفاضات الحرارية التي يسببها ضوء الشمس والتعرض المباشر للفضاء. وبهذا سيعيش الصلب في درجة حرارة متوسطة ملائمة، دون أن يتمدد أو ينكمش بدرجة كبيرة، ومن ثم تقل مشكلة الهشاشة بدرجة كبيرة.

شعر الجميع بالرضا عن هذا الحل، ثم اقترح كارل فكرة أظن أنها كانت تراود بعض المهندسين ولكنهم كانوا يخشون التعبير عنها: لماذا لا نجعل البرج يطير؟ فإذا كنا سنتجشَّم كل هذا العناء من أجل كسوة البرج بأكمله، لماذا لا نستخدم هذه الكسوات عينها ليس فقط من أجل تقليل المقاومة ولكن أيضًا من أجل إنتاج قوة رفع؟

بعبارة أخرى، أجنحة. ستُغطى العوارض الجانبية للبرج - الدعامات الأفقية التي تربط الدعامات الرأسية معًا على مسافات منتظمة - بأجنحة من الألمونيوم المصقول، تدفعها محركات يكون بمقدورها تغيير زاوية التماس، بحيث تعدل الأسطح الانسيابية كي تولِّد مقدارًا أكبر أو أقل من قوة الرفع. وحين يضرب التيار النفاث الأجزاء العليا من البرج وكأنه خرطوم مطافئ يضرب لُعبة طفل - أي بتعبير آخر حين يكون أقصى ضغط ممكن موجه إلى السيقان المواجهة للرياح - ستُعدَّل وضعية الأجنحة في هذا الجانب بحيث ترفع الثقل كله إلى أعلى وتخفف الضغط. وبفضل هذه المناورة الديناميكية الهوائية ستجري إعادة توجيه الطاقة عينها التي من شأنها تدمير البرج بحيث تساعد في رفعه. وبهذا سيصير البرج نصف مبنى، ونصف طائرة ورقية.

أدى تشكك الناس - المفهوم - بشأن الخطة إلى الحاجة للاحتفاظ برقعة أرض كبيرة خالية في اتجاه الرياح. وقد تبنى بعضهم نظرة متشائمة عن المبنى تقضي بأنه لن يظل قائمًا من دون تغذية استرجاعية متواصلة لمنظومة الضبط والتحكم.

بعد ركوب القطار الحلزوني تبادلتُ حوارًا بسيطًا مع جو، المهندس الجالس قبالتي. بعد ذلك قام بفرد شاشة عرض كبيرة، مُعتذرًا لاحتلاله مثل هذه المساحة الكبيرة من الطاولة، وقضى معظم الرحلة وهو يتأمل رسمًا فنيًّا كبيرًا ثلاثي الأبعاد: آلية المؤازرة التي كان ذاهبًا لإلقاء نظرة عليها. ألقيت

نظرة عليها ولاحظت أنه كان ينظر إليَّ في تمعن. وحين التقت أعيننا أشاح بنظره بعيدًا في حرج، وقال: «أخبريني برأيك فيما ترين».

- «آه، لقد أمضيت سنوات عدة في الحديث مع مواطنين قلقين في صالات ألعاب المدارس وإلى النواب في جلسات استماع بالكونجرس، محاولة إقناعهم بهذه الفكرة».

- «أي فكرة؟».

قلت: «بالضبط، لقد اعتدنا على الفكرة لدرجة أننا لم نعد نراها. إنني أتحدث عن فكرة طيران البرج».

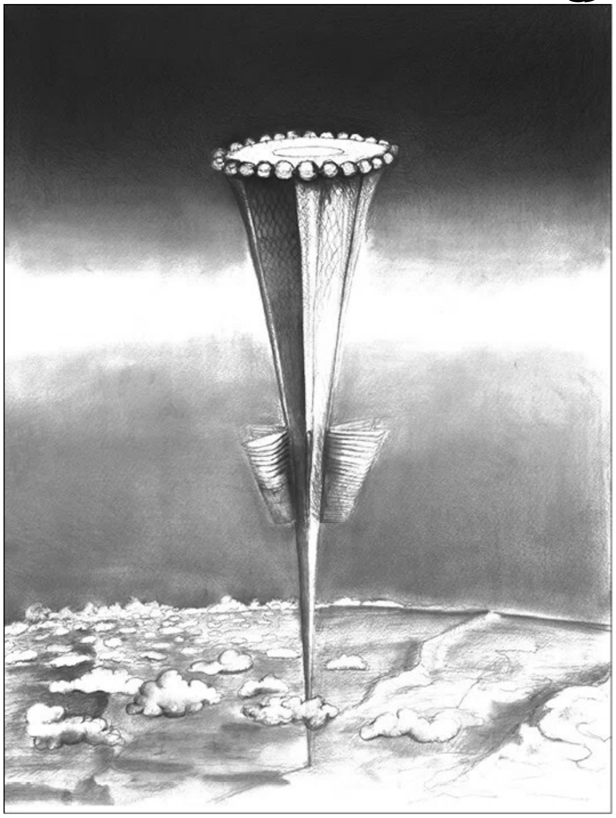

© Haylee Bolinger / ASU ,2013

هز كتفيه وقال: «كان الأمر سيتطلب منظومة تعليق نشطة على أي حال، من أجل التحكم في الاهتزازات».

- «وإلا سيتعين تزويد كل ماكينة بيع في توب كليك بموزِّع أتوماتيكي لأكياس التقيؤ». نعم، كنت أكسب عيشي من إخبار الناس بهذا. «ومن هناك ما هي إلا

خطوة بسيطة حتى نستخدم القدرة عينها كي ندعم المبنى في تلك المواقف النادرة التي سيضربه فيها التيار النفاث».

أومأ جو وقال: «لا سبيل للعودة. لقد تسلل الأمر إلينا».

- «أي أمر؟».

حار جوابًا، وللحظة ابتسم في عجز. ثم رفع يديه وقال: «كل شيء. أي شيء به كود. أي شيء متصل بالإنترنت. لقد تسلل هذا الشيء إلى حياتنا وصرنا معتمدين عليه. وإذا تخلينا عنه سينهار الاقتصاد، كما البرج. علينا اعتناقه وحسب».

قلت: «بالضبط. أحد أشد المعارضين لي كان سيناتورًا بمجلس الشيوخ وكان ما يبقيه على قيد الحياة منظمٌ قلبي مُدمج به مئات آلاف الأسطر من الأكواد».

أومأ جو موافقًا وقال: «حين كنت صغيرًا كنت مُحبطًا لأننا لم نعد نبني طموحات عظمى. كنا نطور تطبيقات غبية وحسب. وحين جاء كارل بفكرة البرج، وفهمتُ أن البرج سيطير - أنه لن يقف قائمًا من الأساس من دون شبكات مُدمجة - تجدد لدي الأمل. لقد كنا مضطرين إلى التوقف عن بناء الأشياء لجيل كامل، فقط كي نستوعب - ونتشرب - العقلية القائلة بأن كل شيء مترابط، وذكي، ونشط. وهذا مكننا من بناء أشياء كان يستحيل بناؤها في السابق، تمامًا مثلما كان من المستحيل بناء ناطحات السحاب قبل وجود الصُّلب».

أومأتُ نحو الرسم الموجود أمامه، الذي كان يعرض بعض الصور المتحركة البسيطة بينما كنا نتحدث وقلت: «ما الجديد في عالمك؟».

- «آه، أؤدي بعض التعديلات على الأداء. ففي ظل بعض الظروف تحدث رجفة في البرج مقدارها نحو واحد على عشرة من الهرتز، ربما تكوني قد شعرتي بها. لا تستطيع المؤازِراتِ الاستجابة بالسرعة الكافية للتغلب عليها، لذا نعمل على تطوير طريقًا بديلًا. الهدف من الأمر الراحة أكثر من الأمان. ربما يجبرنا الأمر على استبدال بعض وحدات التحكم، فهو ليس من نوعية الأمور التي يمكنك القيام بها وأنت جالس على الأرض وتكتب». ثم أومأ نحو شبكة الأمتعة المجاورة للباب حيث وضع حقيبة صفراء فاقعة، واضح من مظهرها أنها ثقيلة.

قلت: «لا بأس، فالجلوس على الأرض والكتابة لم يكونا أسلوب كارل».

في هذه اللحظة دق جرس العربة كي يحذرنا من انخفاض وشيك في التسارع. بدأ جو في جمع أشياءه، وبعدها بدقيقة توقفت العربة في منتصف ما يبدو مثل حجيرة عالقة بين زخارف البرج وكأنها كيس من بيض العنكبوت عالق في شبكة. أضيئت الأنوار، إذ كان الوقت قد تجاوز وقت الغسق. تلامس ممر أنبوبي مع فتحة العربة، وتمددت أطرافه الهوائية كي تمنع تسرب الهواء. اندفع الهواء أثناء معادلة الفارق الطفيف في الضغط الجوي وشعرت بتأثير الضغط على أذني. ثم انفتح الباب.

أومأ جو برأسه مودِّعًا ثم جر حقيبته الضخمة إلى المحطة، التي كانت حوضًا معدنيًّا عديم النوافذ. بعدها بدقيقة استأنفنا طريقنا مجددًا.

- «أريد فقط ان أعرفك بنفسي، أنا نيكي تشو». هكذا تحدثت عالمة الفلك الذاهبة إلى توب كليك، وأضافت: «آسفة لكني لم أدرك مَن أنت إلا حين سمعتك تتحدثين».

- «هل قضيتِ كثيرًا من الوقت هنا يا نيكي؟».

- «مرة واحدة فقط، في جلسة التوجيه وإرشادات السلامة».

- «حسنًا، أنت مُرحَّب بك دائمًا في الحانة. إننا نقيم احتفالًا خاصًّا الليلة، لكن مع هذا يمكنك المجيء إذا رغبت».

- «لقد سمعتُ بهذا»، هكذا قالت نيكي، في تردد ربما، ورنت ببصرها نحو حقيبتي وأكملت قائلة: «أتمنى فقط لو أمكنني أن أتشارك واحدة من هذه الرحلات مع الرجل قبل أن ...».

كان الصمت مُحرجًا. قلت لها ما كان كارل سيقوله: «قبل أن يُحرَق جثمانه في أتون عملاق؟ بالطبع».

ذات مرة وصف أحد السيناتورات الإنترنت بأنه سلسلة من الأنابيب، وهو ما لم يكن وصفًا دقيقًا للإنترنت ولكنه كان توصيفًا مناسبًا لمنصة توب كليك. كانت الكلمة الرائجة لوصف توب كليك هي «بيئة مواتية». كنت أعرف هذا لأن كارل حظر استخدام هذا الوصف في شرائح الباوربوينت، قبيل أن يحظر استخدام الباوربوينت من الأساس، ثم يحاول أن يحظر عقد الاجتماعات كلها. «إن رأس الرجاء الصالح ليس بيئة مواتية. أيضًا لم يكن الغرب الأمريكي بيئة مواتية. ولا القمر. إن الناس الذين يذهبون إلى مثل هذه الأماكن يتسمون

بجسارة علينا احترامها. لكم أكره التقليل من شأنهم عن طريق طمأنتهم بأن البيئة ستكون مواتية!».

كان مثل هذا اللغو ينهي بعض المحادثات غير المريحة مع مدراء الكازينوهات والفنادق. كنت قد وهبت جزءًا بسيطًا لكن مهمًا من حياتي لحمله على الإقرار بأن وظيفتي ستكون أيسر، وأن توب كليك ستكون أعلى قيمة لو كانت تتسم بجو قابل للتنفس لن يسبب لسعات صقيع وحروقًا شمسية في الوقت عينه. كان بناء قبة كبيرة أعلى المنصة أمرًا تعوزه المرونة بدرجة كبيرة ومن ثم انتهى بنا المطاف بمجموعة من الهياكل الأسطوانية ونصف الدائرية (لأن هذه الأشكال كانت تتحمل الضغط الصناعي) التي تربطها معًا ممرات نقل أنبوبية. كانت محطة القطار الحلزوني في توب كليك عبارة عن قبة نصف دائرية، تثير الذهول بالفعل على النحو الذي تثيره الهياكل الرومانية رغم كونها مجرد غطاءً أجوف. كان يتشعب منها أنابيب تفضي إلى كازينوهات وفنادق ومبانٍ مكتبية غير مكتملة بعد إلى جانب المعهد الذي كان قد تبرع به كارل وبعض أصدقائه المليارديرات. كان المرصد هناك، وهو المكان الذي كانت نيكي ذاهبة إليه بعد أن ودعتني وتبادلت بيانات الاتصال معي. علّقتُ الحقيبة على كتفي وداخلها رماد كارل ومشيتُ داخل أحد الممرات الأنبوبية نحو ردهة انتقلت منها إلى ممر آخر أخذني إلى الحانة الفضائية الأولى. كان فروج، منتج الفيديو، يمشي معي بعد أن نام معظم الرحلة، وكان يرغب في احتساء مشروب. عاونته في جر حقيبتيه: حقيبة ذات غطاء صلب مليئة بمعدات الفيديو وحقيبة ظهر وردية فاقعة تحتوي على المظلة التي كان ينوي استخدامها في رحلة العودة.

كان جمعًا صغيرًا بالأساس؛ إذ لم يكن لدى كارل العديد من الأصدقاء. كانت ألكسندرا، ابنته من زيجة قديمة، قد طارت إلى هنا من لندن بصحبة رفيقها روجر، الذي كان يعمل خبيرًا ماليًّا من نوع ما، وكان ينتمي إلى أسرة موسرة. كانت تِس هناك وحيَّتني بكأس من النبيذ وقبلة. كان أحد ابنينا في الجامعة والآخر في أحد المعسكرات. حضر شقيق كارل الأصغر ديف، وهو مدرب كرة طائرة بالجامعة، من أوهايو كذلك، وكان مخمورًا بالفعل. أيضًا حضرت ماكسين، الرئيسة التنفيذية لمؤسسة كارل الخيرية، رفقة زوجها توم الذي يعمل مخرجًا. احتللنا أحد أركان الحانة، التي كانت هادئة على أي حال. كانت النادلة مارلا وهيرام، وهو أحد الزبائن المعتادين، يشاهدان مباراة من مباريات دوري الهوكي الكندي على الشاشة الكبيرة. وكان هيرام، وهو عامل صلب من هنود الموهوك لا يقرب الخمر، يشرب عصيرًا طبيعيًّا. جذب فروج مقعدًا في الطرف الآخر للحانة وطلب مشروب جينيس، ثم أخرج هاتفه وبدأ سلسلة من المكالمات التي تبدأ جميعها بعبارة: «لن تخمن مطلقًا من أين أتصل بك!».

كان أمرًا طيبًا أن أعود إلى مكاني وإلى زوجتي. وبعد رشفات قليلة من كأس النبيذ بدأت أتمنى لو ذهب كل هؤلاء الحاضرون إلى حال سبيلهم وتركونا وحدنا، وفجأة التفت الرؤوس ولاحظتُ أن امرأة ترتدي بذلة فضائية انضمت إلينا.

لم تكن نيكي تشو مرتدية البذلة بالكامل، إذ كانت تتحلى بالذوق الكافي، بحيث خلعت الخوذة وحملتها تحت ذراعها. قالت: «آسفة لكن أظن أننا جميعًا بحاجة إلى أن نحتمي أسفل شيء ما، أو ربما يجدر بي أن أقول «فوق» شيء ما».

سألتها: «فوق شيء ما؟».

كسر روجر جدار الصمت الذي أعقب ذلك. لا أدري، ربما كان السبب هو ذلك الولع البريطاني باللعب بالكلمات. سألها: «ما الذي سيأتينا من تحتنا؟ وكيف له أن يخترق الأرضية؟».

قالت نيكي: «دفقات عالية الطاقة من أشعة جاما، وبعض المادة المضادة».

- «المادة المضادة؟» هكذا قال عدد من الحاضرين في الوقت عينه.

- «سأشرح كل شيء أثناء ارتدائنا البذلات الفضائية». قالت هذا ثم شرعت في التقهقر نحو المخرج وأضافت: «أخشى أنه سيتعين عليكم ترك مشروباتكم».

كان ارتداء البذلات الفضائية بالنسبة للعيش في توب كليك بمنزلة تدريب ارتداء سترات النجاة في رحلة بالمحيط. بفضل صناعة السياحة الفضائية صار من اليسير ارتداء هذه البذلات، ومع هذا فقد استغرقنا بضع دقائق. كانت البذلات مخزنة في دهليز كان، لأسباب منطقية للغاية، عبارة عن كبسولة عديمة النوافذ محكمة الإغلاق. أصرت نيكي على أن نسحب البذلات خارجًا إلى ردهة سماوية ملحقة - من المقرر مستقبلًا أن تكون مطعمًا - لها نوافذ كبيرة مواجهة للغرب. كانت تريد لنا أن نشاهد قدرًا كبيرًا من العاصفة.

ولم يكن الأمر يشبه بأي حال من الأحوال مشاهدة العاصفة تقترب على الأرض. كلنا سبقت له رؤية العاصفة على الأرض. من على مبعدة يمكنك النظر عاليًا إلى هيكل السحب العالية، لكن مع اقترابها كان كل شيء يبتلعه الضباب. صواعق البرق، البَرَد، وابل المطر، والعواصف الهادرة التي تباغتك من كل مكان.

أما هنا فكنا أعلى من أعلى قمم سحب السندان، [2] نستمتع بمشهد للفضاء الخارجي لا يعيقه شيء. كانت مجرة درب التبانة ظاهرة أمام ناظرينا وكأنها نافورة متعرِّجة أعلى مقدمة العاصفة، وكانت من هذا الارتفاع تبدو مثل طبقة من الضباب الجليدي الجاف المتراكم على الأرض في صالة ديسكو. وأحيانًا كانت تتوهج على نحو وجيز.

وضعني تحذير نيكي في عقلية الحرب النووية، لذا تعين عليَّ الانتظار حتى يتولى عقلي المنطقي دفة الأمور مجددًا ويخبرني أن هذه الومضات لم تكن أكثر من صواعق برق، لكننا نراها من أعلى.

استدارت نيكي تجاهي، لكنها لم تكن تنظر نحوي. كانت تجول ببصرها دون تركيز، وقالت: «أسهل سبيل لرؤيتها هو عبر رؤيتك الجانبية. ستكون عالية للغاية ... في الفضاء».

سألها ديف: «ما الذي تتحدثين عنه؟» إذ لم يكن يتفهَّم الأمر على نحو جيد. ولحسن الحظ أجاب هيرام: «الأشباح. إننا نراها طوال الوقت».

لو كان هذا الحديث قد صدر عن أي شخص آخر لاستثار ردًّا ساخرًا من ديف. لكن حين صدر عن رجل من الموهوك يزن 250 رطلًا وله وجه قُدَّ من صخر، اكتسب الحديث جدية أكبر.

- «آه» هكذا شهقت تِس.

تبينتُ الابتسامة في صوت نيكي وهي تقول: «ها هو واحد كبير هناك!».

- «أين؟» هكذا تساءل الحضور.

قالت نيكي: «أخشى أنه قد خبا». لكني حينها رأيت قرصًا من الضوء الأحمر عاليًا، والذي تمدد بينما كان مركزه يشتد سوادًا، بحيث صار هالة قرمزية قبل أن يخبو.

استدرتُ نحو نيكي كي أسألها سؤالًا، لكنه لم يغادر حلقي، إذ لمحت شيئًا هائلًا بطرف عيني: سحابة من الضوء الأحمر، أشبه بقنديل البحر، تجر وراءها مئات من الخيوط المتدفقة. وما إن أدرت رأسي كي أركز بصري عليها حتى انكمشت إلى نقطة ضئيلة أخذت في الخبو.

في غضون دقيقة كان الجميع قد شاهدوا على الأقل واحدًا من تلك الأشباح، ومن ثم تلاشت كل الشكوك المتعلقة بمصداقية نيكي. في أغلب الأحيان كانت تخبو جميعًا في غمضة عين، لكن في بعض الأحيان كانت أجسام شبحية من الضوء الأزرق تظهر.

كانت نيكي تشاهد ردود فعلهم في عدم ارتياح، إذ كانت تتمنى بوضوح أن يأخذوا هذا الأمر بجدية أكبر. قالت: «منذ عقدين بدأ بعض مراصد أشعة جاما التي تدور حول الأرض في التقاط دفقات قوية للغاية منها. وباختصار، صار جليًّا أن هذه الدفقات لم تكن آتية من أعماق الفضاء وإنما من أسفل؛ من الأرض. كانت قوية للغاية بحيث تعدت حدود مستشعراتنا، لذا لم نتمكن حتى من معرفة مقدار شدتها الحقيقية. وقد تبين أنها كانت آتية من السحب الرعدية. كانت الظروف داخل أبراج العواصف هذه عجيبة بدرجة لا توصف، فكانت الإلكترونات الحرة تتسارع إلى الأعلى ثم يُقذَف بها إلى حالة مفرطة النشاط، شديدة النسبية، وفي نقطة ما ترتطم بالذرات في أعلى أبراج العواصف بطاقة شديدة تجعلها بحيث تنتج أشعة جاما، والتي بدورها تنتج بوزيترونات؛ أي مادة مضادة. تمتلك البوزيترونات شحنة معاكسة للإلكترونات، لذا فإنها تتسارع إلى الأسفل. ثم تتكرر الدورة، لأعلى وأسفل، وفي مرحلة ما تحصل على دفقة من أشعة جاما تتسم بالخطورة الشديدة؛ إذ يمكنك في لحظة واحدة أن تحصل على مقدار منها يعادل ما تحصل عليه في حياتك كلها». ثم توقفت للحظة وحدقت مباشرة في بينما ارتسم على وجهها شبح ابتسامة وقالت: «إن الأرض عالم غريب».

أثارت القصة داخلي بعض الذكريات. كانت هذه واحدة من اللحظات المفاجئة التي باغتتنا في منتصف المشروع وسببت أزمة لبضعة أسابيع. والجزء العسير، في حقيقة الأمر، كان حمل كارل وغيره من صانعي القرار على تصديق أن هذا الأمر حقيقي. لم يكن الحل الهندسي معقدًا بدرجة كبيرة؛ إذ يتلخص في تحصين أرضيات المباني بمواد عازلة للإشعاع، مع إخلاء المناطق التي لم تجر وقايتها بعد خلال العواصف.

قلت لها: «أشكرك، أنت عالمة بارعة».

أومأت نيكي.

سألتُها: «ما فكرتك؟ لماذا نرتدي البذلات الفضائية؟».

- «يوجد مكان في المستودع كُدِّسَت فيه بعض ألواح الصلب على بعضها، وأظن أننا لو احتشدنا فوقها فسِتمنع معظم أشعة جاما الآتية من العاصفة».

كان روجر يستمع للحديث بأكمله. وفي لحظة من الإدراك المفاجئ أدركتُ السبب: لقد كانت ألكسندرا حبلى. لم يكن الحمل ظاهرًا عليها بعد، لذا لم يكن ثمة دليل يدعم حدسي. بيد أنها رفضت احتساء أي مشروب، وهو الأمر غير المعتاد منها، وكان هناك شيء ما في الطريقة التي كانت تتبادل بها النظرات مع روجر... كان حفيد كارل موجودًا هنا، آخذًا في التشكل داخل رحمها. لا بد أن نضعها فوق الطبقة الواقية.

كان المستودع الذي تحدثت عنه نيكي عبارة عن مخزن قديم لمواد البناء، قرب منتصف توب كليك. كان موجودًا في العراء، ولهذا السبب تعين علينا ارتداء بذلاتنا الفضائية كي نصل إليه. وفي غضون دقائق قليلة تمكنا من ارتداء خوذاتنا وتركنا بذلاتنا تجري عمليات التحقق الذاتي الروتينية. دلفنا إلى حجرة لمعادلة الضغط وشعرنا بذلك الإحساس العجيب بينما تتصلب بذلاتنا حول أجسامنا مع انخفاض الضغط الخارجي. كان التحرك بها شاقًّا، ولم يكن أي منا مُدربًّا في حقيقة الأمر على استخدامها، إذ كان الغرض منها إبقاؤنا على قيد الحياة وحسب. ولذلك السبب كان عدد من دراجات الأقدام (سكوتر) التي تدور بالكهرباء موجودًا في منصات الشحن خارج المخرج مباشرة. كان كل ما علينا فعله هو المشي نحوها، ثم الوقوف عليها، وتوجيهها. وفي طابور أخرق تتبعنا نيكي في مسار غير مباشر بين المباني غير المكتملة. بعد قليل وصلنا إلى المستودع وتبعناها إلى مكان كُومت فيه ألواح الصلب في كتل مستطيلة يناهز ارتفاعها ارتفاع رؤوسنا تقريبًا. شرع هيرام، وكان أكثرنا تمرسًا على التحرك في البذلة، في تسلق قمة الكومة ثم مد يده كي يعين بقيتنا على اللحاق به.

لم يكن المنظر هنا جميلًا، لكن لم يكن أحد يشك في حُكم نيكي بشأن أشعة جاما، لذا لم نمانع. سرعان ما كان الجزء الأشد من العاصفة يمر أسفلنا، وكان بمقدورنا معرفة هذا من حقيقة أن الأشباح الحمراء كانت فوقنا مباشرة. انتهى الحال بمعظمنا وقد استلقينا على ظهورنا حتى يتسنى لنا النظر لأعلى مباشرة ومشاهدة العرض الضوئي.

كنا قد اتخذنا هذه الاحتياطات لسبب واحد: تجنُّب التعرض لأشعة جاما. لم تكن العاصفة قريبة منا، وعلى مسافة بعيدة إلى الأسفل كانت الرياح تقرع البناء السفلي، بيد أننا لم نشعر بها. كان المشهد أسفلنا تحجبه أطنان من الصلب، وكان دليلنا الوحيد على أننا في وسط عاصفة هو الأشباح التي تلوح أعلى رؤوسنا بعشرات الآلاف من الأمتار.

وكل هذا جعل صاعقة البرق الفائقة أشد مفاجأة بكثير.

بطبيعة الحال لم أدرك أنها كانت تسمى «الصاعقة الفائقة الصاعدة» إلا بعد ذلك بكثير. ففي ذلك الوقت افترضت وحسب أنني قد مُت لسبب ما وأن الانتقال إلى الجنة، أو الجحيم، كان أمرًا أكثر مشقة بكثير مما كان يصفه الناجون من تجارب الاقتراب من الموت. كانت فرضيتي التالية هي أنني لا أزال حية، لكن ليس لوقت طويل، وأذكر أنني مددت يدي كي ألمس خوذتي، مخافة أن تكون قد انتُزعت عني. كلا، لا تزال موجودة. بعد ذلك، لنحو دقيقة أو دقيقتين، ظللتُ مقتنعة أن إرهابيين أقدموا على تفجير قنبلة نووية صغيرة على منصة توب كليك. كانت المباني متضررة، والحطام المشتعل يحتشد على المنصة. وأخيرًا تعافى سمعي بحيث صرت قادرة على سماع نيكي وهي تقول: «البرق». ورغم كل هذه الفوضى فإن جزءًا من عقلي أخذ يستعيد ذلك الاعتراض الطفولي القائل بأن البرق ما هو إلا تفاعل بين السحاب والأرض، وأننا هنا لم نكن بين السحاب والأرض، فكيف يمكن هذا؟ الآن، بالطبع، أعرف أكثر مما أريد عن الصواعق الفائقة الصاعدة: وهي ظاهرة مبهرة أخرى تقع في منتصف الغلاف الجوي لم تكن نيكي قد تطرَّقت إليها بعد بالشرح.

تدوم الصدمة والرعب لفترة معينة ثم تبدأ في العودة إلى أرض الواقع.

كانت الحانة الفضائية الأولى مُدمرة بالكامل تقريبًا. فقد أحدثت الصاعقة الفائقة فُتحة في سقفها وأرضيتها، وفُقد الضغط داخلها على نحو عنيف بحيث لفظت محتوياتها - المقاعد ولوحات التصويب ورماد كارل - إلى الفضاء. إذن لم يتسبب حذر نيكي من أشعة جاما في إنقاذنا من تلقي جرعة قوية من الإشعاع وحسب، بل حمانا كذلك من أن ننفجر أشلاءً وتتناثر جثثنا في الصحراء.

بعض المباني الأخرى لم تعد بيئاتها مواتية للحياة، فيما بدا البعض سليمًا. انغلقت أبواب السلامة في شبكة الممرات الأنبوبية بحيث تمنع فقدان الضغط الجوي في توب كليك كلها. وحين مرت العاصفة وزال خطر أشعة جاما، كنا سننتقل إلى أحد المباني وننتظر الإنقاذ.

كان الموقف سيئًا الآن؛ لأن البرج شرع في التمايل والاهتزاز أسفل أقدامنا.

من البدهي أن سيطر شعور الهلع علينا. وأعترف أنني كنت أسير على هذا الدرب إلى أن جاءني صوت هيرام يقول: «لا أبالي كم كانت هذه الصاعقة كبيرة. لقد ارتقيتُ هذا البرج منذ البداية ومن المستحيل أن يكون قد تعرض لمثل هذا الضرر». ثم تدحرج من على كومة ألواح الصلب وترك نفسه يهبط على السطح وقال: «سأذهب كي ألقي نظرة».

اللعنة، وما المانع؟ لقد ولّت أيام الحمل بالنسبة لي. وكانت لدي مسؤوليات، أولاها وأهمها حماية حفيد كارل الذي لا يزال في طور التكوين.

قالت تِس: «إيما، ما الذي تفعلينه؟!».

- «لقد انتهت العاصفة يا حبيبتي». هكذا رددت عليها وتبعت هيرام، الذي أنزلني بسلاسة على السطح.

قادنا حدسنا بين الحطام وصولًا مباشرة إلى الحانة الفضائية الأولى. جثونا على ركبتينا واقتربنا من الفتحة الموجودة في السطح على يدينا وقدمينا.

حين نظرنا من الفتحة رأينا، على مسافة كيلومترين أسفل منا، شيئًا أشبه بستائر فينيسية تعرضت إلى لهب موقد لحام. لقد ضربت العاصفة الفائقة العديد من هذه الأجنحة المصنوعة من الألومنيوم المصقول، وكان شريط ضخم من الألومنيوم قد تقشر من أحدها والتف حول الجناح الذي أسفله.

قال هيرام: «حسنًا، ها هي مشكلتك. لا عجب أن البرج لا يطير كما ينبغي». وفي هذه اللحظة تمامًا اهتز البرج من تحت أقدامنا، مسببًا صرخات فزع صدرت عن أصدقائنا في المستودع.

سألته: «هل هذا خطير؟» لأن إحدى مزايا كوني امرأة في منتصف العمر هي حرية توجيه أسئلة قد يتردد أي شاب في طرحها.

قال: «على الناس بالأسفل؟ لو أن أيًّا من هذا سقط؟ بالطبع! لكن بالنسبة لنا؟ لا. إن البناء بخير. فقط هو لا يطير على نحو سليم. والمخاطرة الحقيقية الوحيدة هي أن نتقيأ في خوذاتنا».

لم أكن بصدد التشكيك في كلام هيرام، وهو الذي ارتقى البرج من يومه الأول وكان يتمتع بحدس قوي بشأن ما يجعل البرج راسخًا. لكن تداعت ذكريات غير مريحة عن جلسات عقدت، منذ سنوات، بشأن الانهيارات المتتابعة من أعلى لأسفل. كان المثال الأشهر هو برجي مركز التجارة العالمي، اللذين انهارا تمامًا رغم حقيقة أن الضرر المبدئي كان مقصورًا على الأدوار العليا. فبإمكان الحطام الناجم عن حادث وقع في الأدوار العليا أن يتلف العناصر الإنشائية اسفله، بحيث تكون نتائج ذلك غير محسوبة. والضغط الجوي الضعيف، الذي ليس له وجود تقريبًا، من شأنه أن يسمح للحطام بالسقوط بسرعة تفوق سرعة الصوت. فالطاقة، والضرر، من شأنهما أن يزيدا مع تضاعف السرعة ...

تساءلت: أين كانت المشكلة التي كانت تمنع البرج من «الطيران على نحو سليم»؟ هل تسببت الصاعقة الفائقة في حرق الدوائر الإلكترونية؟ هل تسببت في تعطل آلية الحركة؟ هل تسببت في انثناء أحد أسطح التحكم؟

وهذا جعلني أتذكر إحدى التفاصيل من وقت سابق من الليلة...

قلت: «اللعنة، هناك رجل هناك، يعمل على المنظومة. جو المهندس، آمل أن يكون بخير».

- «هل من سبيل للوصول إليه؟»، هكذا تساءلت تِس، وهذا ذكرني أننا جميعًا هنا متصلون في محادثة واحدة عبر شبكة الاتصال اللاسلكية.

قلت: «الأهم فالمهم. إن الأولوية القصوى هي تفقُّد حافة توب كليك من أجل التأكد من عدم سقوط أي حطام من على الحافة. انتشروا وافعلوا هذا، وإذا رأيتم شيئًا أبلغوه لهيرام. هيرام، سيتعين عليك تثبيت بعض الأشياء ...».

- «سآتِ بعربة لحام. من المفترض أنها تصلح تمامًا لتثبيت الأشياء».

شددت قائلة: «على الجميع الانتشار الآن. لقد انقضت العاصفة يا رفاق، وأرى الهواء الصافي أسفلنا، متجهًا صوْبنا. ابحثوا عن أي شيء قد يسقط من على الحافة، أو يتفكك بفعل كل هذا الاهتزاز. وبينما تفعلون هذا، ابحثوا عن المباني التي لا تزال محتفظة بالضغط الجوي المناسب، حيث يمكننا البقاء قبل أن ينفد الهواء من بذلاتنا».

بعدها بدقيقة قال ديف: «لدي أخبارًا طيبة وأخرى سيئة. وجدتُ قبة صغيرة - كُشك من أكشاك البناء - لا تزال محتفظة بالضغط الجوي. لكن هذا الشيء إلى جواره تضرر بشدة، وثمة جديلة من جدائل السقف على وشك أن تسقط من على الحافة».

قال هيرام: «أعرف هذا المكان. أنا في طريقي إليه».

لم يكن ثمة مطر هنا، لذا كانت كلمة «السقف» تعني قطعة من الصلب لتقليل تيار الأشعة الكونية. المقصد هنا أن السقف جسم ثقيل، وليس شيئًا نرغب في سقوطه من قمة البرج.

سرت في تثاقل مرتدية بذلتي، ولمحت هيرام وهو يدفع في مشقة عربة لحام بأسرع ما يستطيع. لم تكن تلك العربات تشبه عربات اللحام الأرضية؛ إذ

كان بها محركات مدمجة لتوليد الطاقة يشغلها البروبان السائل، لكن بسبب الهواء الشحيح هنا كانت مزودة أيضًا بخزانات للأكسجين السائل. كان تحريكها صعبًا للغاية حتى بالنسبة لرجل ضخم الجثة مثل هيرام، لكن في الوقت الحالي سار ديف نحوه كي يساعده.

بالداخل، كان مأوانا الصغير يشبه أي مكتب بمواقع البناء؛ إذ تملؤه الكاتالوجات المجانية من شركات المقاولات وملصقات الجعة التي تصور فتيات مثيرات. وما إن عبرنا حجرة معادلة الضغط وخلعنا خوذاتنا حتى تمكنا من الجلوس وتقييم الموقف في تروٍ. بالخارج، كان هيرام يعمل على لحام الجديلة السائبة في موضعها، يعاونه في هذا ديف ومقاول كان قد انضم إليهما للمساعدة. كان الرجل يعمل في وقت متأخر في الطابق العلوي لأحد الكازينوهات حين انطفأت الأنوار واندفع قوس طوله ستة أقدام من منظِّم مائي قريب وتلامس مع أحد المقابس الكهربية، مارًّا على مقربة شديدة من رأسه بحيث مس شعره. وحين سمعنا قصته تفهمنا سبب عدم قدرتنا على استخدام الإنترنت. لكن كان بوسعنا إجراء مكالمات بالهواتف الخلوية والاتصال، على نحو متقطع مع ذلك، بالأبراج على الأرض.

كانت كل من تِس ومارلا النادلة يعرفان طريقهما في أرجاء المنصة أفضل من سواهما، فارتدتا خزانات أكسجين جديدة وخرجتا للاستطلاع من أجل استعادة أي شخص مصاب. تمكنتُ من الوصول عبر الهاتف إلى رئيس جو في العمل وعرفت منه الخبر المقلق، وإن كان غير المفاجئ، بأنه لم يعاود الاتصال برئيسه.

وهكذا انتهى بنا الحال أنا وروجر وفروج بالهبوط لثلاثة كيلومترات عبر الفتحة المركزية للبرج في مهمة إنقاذ.

لماذا ثلاثتنا؟ حسنًا، كان فروج هو قافز المنصات المخضرم، رغم أنه تجاوز ريعان شبابه، وكانت السبيل الوحيدة لمنعه من الانضمام إلينا هو أن نضربه على رأسه بمفتاح إنجليزي ونقيده في أحد العوارض. وكان روجر، ذو النسب الرفيع، يتمتع بخبرة في التسلق.

أما أنا فكنت أعرف خبايا البرج أفضل من أي شخص آخر.

كانت الفتحة المركزية، التي ستُملأ ذات يوم بتقنية فضائية ما لم يجر تطويرها بعد، خالية. كان عمال البناء، بطبعهم البراجماتي، قد أنزلوا كابلات طويلة فيها، أشبه بحبال متسلقي الجبال. كانوا يستخدمون معدات هبوط ميكانيكية للنزول إلى المكان الذي يريدونه، لكن لم يُتَح لهم وقتٍ كافٍ للعبث

بالقطار الحلزوني. أيضًا كانت هناك مصاعد، لكن هذه المصاعد أغلقتَ نفسها تمامًا حين أتلفت الصاعقة الفائقة مكوناتها الإلكترونية، ولم يبد أن هناك طريقة لإعادة تشغيلها من دون المرور بممثل خدمة العملاء في باكستان. وضع روجر، أكبرنا حجمًا، بذلة فضائية إضافية على ظهره (كانت هذه البذلات تُطوى بحيث تصير أشبه بحقائب الظهر، ذات حجم كبير لكن يمكن حملها). كان هذا تحسبًا لأن يحتاج جو واحدة. أوضح لنا هيرام كيف يمكن ربط معدات الهبوط الميكانيكية بالأجزاء الخارجية من البذلات. وقد ربط كل منا نفسه بكابل مختلف - كان هناك الكثير منها - ثم ابتعدنا عن حافة الفتحة وتركنا أنفسنا نهوي.

ها هي إذن الفتحة الأنبوبية، البالغ عرضها عشرة أمتار وطولها (حاليًّا) سبعة عشر ألف مترًا. كان السير إلى حافتها والنظر لأسفل مباشرة قد صار نشاطًا سياحيًّا رائجًا على منصة توب كليك. ولوضع الأمور في منظورها الصحيح، كانت لها أبعاد نسبية تماثل تلك الخاصة بماصة صودا عملاقة طولها أربعون قدمًا. كانت مستقيمة تمام الاستقامة في المعتاد، كما لو كانت محفورة بالليزر في مكعب من الجرانيت، وكان إبقاؤها على هذا النحو داخل سحابة الصلب التي تعصف بها الرياح أمرًا صعبًا.

ومع ذلك فقد كانت تهتز الليلة بعنف. لم يكن بالإمكان رؤية القاع وأنت تقف بالأعلى. كان الأمر أشبه بالتحديق في حلق أفعى آخذة في التموج، وذلك لأن البرج، حسب كلمات هيرام، لم يكن يطير كما ينبغي. لقد كانت استقامته المعتادة عبارة عن عملية متكاملة، وليست حالة ثابتة، إذ كان ما يبقيه مستقيمًا من لحظة لأخرى حلقة من التغذية الراجعة كانت قد تضررت بشدة.

رغم ما يوحي به من خطر، لم يكن التموج كبيرًا كما كان يبدو من أعلى، وما إن عدلنا مقدار الشد في معدات الهبوط الميكانيكية حتى تمكنا من الهبوط على نحو مستقيم إلى الأسفل. ففي داخل ماصة طولها أربعون قدمًا حتى الانثناء البسيط يبدو خطيرًا.

صار وزن الكابلات يمثل مشكلة بعد مسافة، ولذا كانت كل كابل ينتهي كل مائة متر، بحيث نكون مجبرين على التوقف والانتقال إلى كابل جديد. استغرق الأمر ثلاثين نقلة، ومثلها من الدقائق، كي نهبط إلى الارتفاع الذي غادر فيه جو القطار منذ ساعات.

وهكذا دخلنا «الرقبة»، وهي الجزء الأنحف في البرج، لكن بصورة ما الجزء الأكثر تعقيدًا أيضًا. كان مقصودًا لتوب كليك أن تكون منطقة المقامرين

والعلماء، بينما كانت الكيلومترات السفلية بمنزلة مدينة لها مطار على سطحها، أما الرقبة فكانت منطقة المهندسين: أي منطقة أجهزة التحكم الميكانيكية والجوية. وسبب هذا هو أن هذا المكان تحديدًا كان المكان الذي تضرب فيه الرياح بأقصى قوتها، وكان يتعين مواجهتها عن طريق ما أُطلق عليه «الإجراءات النشطة». أوضح هذه الإجراءات كانت الأجنحة الحاملة، التي كانت كبيرة بما يكفي بحيث يستطيع الناس المشي داخلها. وعلى أحد المستويات كان هناك أيضًا مصفوفة من المحركات التوربينية المروحية، مماثلة لتلك التي نراها على متن طائرات الركاب، والتي كانت موضوعة هناك كإجراء احترازي أخير في حالة أن ضرب تيار نفاث بكل قوته. ففي هذه الحالة سنقوم بتزويدها بالوقود، وتشغيلها بكل قوتها بحيث تعاكس اتجاه الرياح، إلى أن يمضي التيار النفاث في طريقه بعد بضع ساعات أو أيام.

© Haylee Bolinger / ASU ,2013

كل هذا العتاد من أجل التعامل مع هذه القوى العاتية جعل الرقبة أكثر اكتنازًا بكثير من بقية البرج، ومن ثم بينما كنا نهبط في صمت داخلها، كان مشهد النجوم والأفق المنحني تقاطعه المعدات الهندسية العديدة، إلى أن تخفيه بالكامل، وأغلبها كان مكسوًّا بأجنحة انسيابية تجعله أقل مقاومة للهواء.

عند الارتفاع المستهدف، كانت ست دعامات أفقية تخرج من القلب إلى السيقان الست الرئيسية للبرج. كانت هناك جدائل، وشبكات من مجموعات أصغر مقسمة في مجموعات ثلاثية في منظومات صلبة، تبدو أشبه بأبراج إذاعية مقلوبة على جانبها. كانت أنابيب بلاستيكية قد وُضعت حولها، مُشكِّلةً

ممرات محكمة السداد، وكانت تلك بدورها مغلفة بأغمدة إنسيابية. وكانت ست منها تتلاقى كبرامق العجلة في المكان الذي توقفنا فيه خلال هبوطنا وحللنا أنفسنا عن معدات الهبوط الميكانيكية. تحركنا في تؤدة، رابطين أنفسنا بحواجز الأمان، وكنا نتقافز من مكان إلى الآخر - إذ كانت الرياح شديدة العصف - وشققنا طريقنا إلى حجرة معادلة الضغط التي كانت توفر مُدخلًا إلى الدعامة/الجديلة/الأنبوب/الجناح الجنوبي الشرقي. واستنادًا إلى المعلومات التي جاءتنا من رئيس جو في العمل، اعتقدتُ أننا سنجده في طرف هذه الحجرة. ولهذا أصابني الجزع حين أنبأتنا وحدة التحكم بالحجرة بأن الأنبوب كان خاليًا من الضغط. كان من المفترض أن يتسم هذا الشيء بضغط جوي ملائم، بحيث يستطيع المهندسون التحرك فيه دون مغادرة البيئة المواتية، شديدة الأهمية للعمل. لكن فيما يبدو فقد تسببت الصاعقة الفائقة في إحداث تسرب. لم يكن ذلك يمثل مشكلة لي أو روجر أو فروج، لكنني لم أعلم ما يعنيه هذا لجو.

على أي حال، كان فتح الباب أمرًا سهلًا نظرًا لأننا لم نكن مضطرين إلى معادلة الضغط الجوي. وجدنا أمامنا أنبوبًا يمتد لألف متر، تضيئه مصابيح الليد الزرقاء الخافتة. كانت جديلة الصلب مزودة بممشى بلاستيكي ضيق ذي قضبان، لذا شرعنا في المشي. كان من شأن المشي أن يكون أيسر كثيرًا في الضغط الجوي العادي، بل في الواقع كم تمنينا أن تكون لدينا بعضًا من تلك السكوترات الكهربائية، كتلك الموجودة في توب كليك. كان مصممو هذه البذلات قد أحسنوا التعامل مع تحديات التصميم على أفضل نحو ممكن، لكنها في نهاية المطاف كانت مصنوعة من أجل جلوس الناجين في سكون بانتظار أن ينقذهم أشخاص يرتدون بذلات فضائية «حقيقية». لم تكن البذلات ملائمة للسير على هذا الممشى الضيق، بل كان الأمر أشبه بالخوض في أسمنت سائل والشعور به وهو يزداد صلابة كلما غرست قدمك فيه. أردت أن أكسر الجمود بأن أطلق مزحة عن كيف أن هذا يمثل تدريبًا هوائيًّا عظيمًا، لكني كنت ألهث بشدة منعتني من ذلك، وبالنظر إلى الهمهمات التي كنت أسمعها في سماعات الأذن، يبدو أن حال روجر وفروج لم يكن أفضل.

كنت على وشك الجأر بالشكوى عن صعوبة السير حين وصلنا إلى نهاية الأنبوب - بمعنى أننا وصلنا إلى الدعامة الرئيسية الجنوبية الشرقية - وسرنا عبر حجرة معادلة ضغط أخرى غير عاملة وصولًا إلى الحجيرة التي كان يعمل بها جو.

كانت الحجيرة دائرية الشكل، وقد وُضعت بها أرضية وسقف، بحيث تحوَّلت إلى غرفة دائرية في حجم مرآب يسع سيارتين. كانت المساحات قببية الشك

بالأعلى والأسفل مكتظة بمعدات إلكترونية وعدة إنقاذ على الترتيب، وكان أول ما لاحظته حين دخلت هو أن الكوة الأرضية كانت مفتوحة، وهو ما منحني الأمل في أن جو أُتيح له الوقت الكافي كي يفتحها ويخرج منها إحدى البذلات.

لكن جو لم يكن هناك.

لمحت بعيني ومضة من الضوء القرمزي على الجانب الآخر من الغرفة المظلمة، وأدركت أنني كنت أنظر مباشرة إلى الخارج عبر فتحة سببها الانفجار في الغلاف الدائري. كان الضوء الأحمر هو أحد تلك الأشباح، على مسافة بعيدة، أعلى قمة لعاصفة الرعدية الآخذة في التحرك جهة الشرق.

انحنى فروج والتقط مقعدًا دوارًا مقلوبًا. كان الفرش البلاستيكي مهترئًا في المواضع التي انصهر فيها وتجمَّد.

وفي مساحة العمل حيث كان جو جالسًا، وعلى الجدائل المعدنية المحيطة بموضع ضربة الصاعقة، كانت ثمة كتلة فوضاوية لم أتبين كنهها في البداية؛ لأنني لم أكن أريد ذلك. وحين أدركت ما هي كدت أتقيأ داخل بذلتي. أدركت أن جو لم يفتح الكوة الأرضية، بل انفتحت الكوة بعنف حين تعرضت الحجيرة كلها لفقدان الضغط بشكل مفاجئ. لقد تسبب الضغط الجوي في إحداث فجوة، مُطيحًا بجو وبالبذلة. لاحقًا اقترح محللو الطب الشرعي أن جو قُتل على الفور بفعل الصاعقة الفائقة، وهذا رحمه على الأقل من أن يُقذَف به ويسقط سقوطًا حرًّا وهو في كامل وعيه. لكن لم يغير أيٌّ من هذا حقيقة أنه كان موجودًا، دون جريرة ارتكبها، في المكان والوقت غير المناسبين. صار جو بهذا الضحية الثالثة التي سقطت خلال مشروع تشييد البرج. كانت الضحية الأولى قد سقطت في وقت مبكر، بسبب حادث لرافعة مشعبة كانت تنقل بعض الصلب. أما الضحية الثانية فقد سقطت منذ شهرين؛ إذ تسببت رافعة خارجة عن السيطرة في انقطاع كابل مشدود، ومن ثم ارتد الطرف الحر بفعل قوة الشد وضرب أحد العمال بقوة كبيرة أدت إلى كسر رقبته. كان جو الضحية رقم ثلاثة، إذ قتلته على الفور صاعقة فائقة صاعدة: وهي ظاهرة جوية عاتية تقع في أعلى الغلاف الجوي لم نسمع عنها إلا أحاديث عارضة وشائعات أثناء تصميم البرج.

ما حدث بعد ذلك نُقل على نحو خاطئ من جانب التحقيقات الإخبارية. لم يجانبهم الصواب من حيث الحقائق، بل كانوا مخطئين بشأن الكيفية التي نقلوا بها الأمر. أجل، حين رأينا أن وحدة التحكم الجنوب شرقية قد انفصلت عن الشبكة، استنتجنا أن مسؤولياتها حُوِّلَت إلى وحدات أخرى على المستوى

نفسه لا تزال تتمتع بمميزات مثل الطاقة والضغط الجوي. وفي ظل انقطاع الاتصال مع الجزء الأرضي من البرج، تعين علينا الاكتفاء ببضع محادثات مبتسرة عن طريق الهواتف الخلوية. افترقنا، روجر وفروج وأنا، وذهبنا صوب وحدات التحكم الجنوبية والشمالية والشمالية الشرقية على المستوى ذاته - وهو ما تطلب المزيد من التدريبات الهوائية - وفي النهاية خلعنا هذه البذلات اللعينة وبالاستعانة بالتعليمات الواردة من الجزء الأرضي أعدنا توصيل الكابلات وكتبنا أوامر حاسوبية مبهمة إلى أن جرى نقل التحكم. توقف البرج عن التأرجح، ومع تأقلم وحدات التحكم مع وضعه الديناميكي الهوائي الجديد، توقف عن الاهتزاز كذلك. كل هذا كان صحيحًا، بيد أن التقارير الإخبارية وصفته وكأنه من نوعية أزمة مركبة الفضاء أبوللو 13، وهو ما لم يكن صحيحًا. لقد جعلوا الأمر يبدو كما لو أنا كنا نؤدي عملًا صعبًا مثيرًا للإعجاب تحت ضغط شديد، بينما في الواقع كان معظم العمل يجري في بيئات مواتية (معذرة يا كارل!) والكتابة على لوحة مفاتيح. كما أنهم أخفقوا تمامًا في فهم السياق والجو العام الذي خيم عليه مصرع جو.

كان الأمر الوحيد الذي أصابوا بشأنه هو ما حدث في الساعات القليلة التي أعقبت ذلك؛ إذ خرج هيرام وفروج واعتليا أحد الأجنحة المتضررة كي يعيدا لحام بعض قطع المعدن السائبة التي كانت تعصف بها الرياح، وكان من الممكن أن توقع ضررًا كارثيًّا لو انفصلت عن مواضعها. كان ذلك عملًا خطيرًا بحق، جرت تأديته في مخاطرة شخصية عظيمة ومن دون حبال سلامة، فضلًا عن مخزون الهواء المتناقص والأصابع المتجمدة من البرد بسبب استغراقه وقتًا أطول بكثير عن المتوقع. ذهب فروج، المخلص لتقليد القفز بالمظلات، إلى أبعد مدى ممكن، واضطلع بأكبر المخاطرات، ربما لأنه كان يمتلك مظلة مثبتة إلى ظهره. أظن أنه كان يخطط للأمر من البداية، رغم أنه أنكر هذا لاحقًا. فبعد أن جرى تأمين كل قطع الحطام السائبة ولحامها في مواضعها «سقط» فروج على نحو مباغت بفعل «دفعة من الرياح غير المتوقعة» وغاص غوصًا حرًّا لبضعة آلاف من الأمتار قبل أن يفتح مظلته ويستمتع برحلة طويلة إلى الأرض الصلبة. ولقد رأيناه في أحد التسجيلات على موقع يوتيوب وهو يهبط في الصحراء في الفجر، ويخلع خوذته، ويلملم مظلته، ثم يخطو سريعًا نحو الكاميرا كي يقدم الأخبار المقبضة المتعلقة بوفاة أحد الأشخاص فوق البرج ليلة أمس. وببذلته الفضائية، وذقنه غير حليق، وانتعاشته بفعل «سقطته» ولكن في الوقت عينه جدِّيته بسبب المشهد المروِّع الذي شاهده في الحجيرة، بدا فروج وقتها رائد فضاء حقيقيًّا.

ولقد كان رائد فضاء بالفعل، في ذلك الصباح. رائد فضاء من دون صاروخ، يستكشف الأخطار ويحتضنها، ليس أخطار الفضاء الخارجي وإنما أخطار

الغلاف الجوي المجهول، الذي تخفيه قمم السحب عن أنظار أهل الأرض، ويمتد وكأنه غلالة كهربائية تفصل بيننا وبين محيط الكون العميق.

فتاة حائرة

كاثلين آن جونان

حين تكون البشرية أميَّة في الأساس، فإنها تحتاج إلى قادة كي يستوعبوا المعلومات ويحصلوا عليها، ويتعاملوا معها. وحين نصل إلى النقطة التي يكون فيها أغلب البشر أنفسهم متعلمين، وقادرين على اكتساب المعلومات، سنكون في علاقة جديدة بالكامل مع الكون. في اللحظة الحالية وحدها نزاهة الفرد هي ما يهم، وليس ما تمليه علينا القيادة السياسية أو الدينية.

- بوكمينستر فولر، محاضرة بعنوان «وحدها النزاهة هي ما يهم».

© Haylee Bolinger / ASU ,2013

كانت ميلودي، جدتي البعيدة، امرأة جميلة. كانت عيناها كبيرتين داكنتين، تضحكان على الدوام في وجهها الخمري الأملس. كما كانت تتمتع ببنية عضلية، بل ومشدودة، لكن كان هذا حال معظم الخمسيين (من عاشوا خمسة أرباع القرن، أي 125 عامًا).

كانت تجلس متربِّعة إلى جواري على مرتفع «جامب روك»، وهو لسان مرجاني مرتفع يشبه ظهر دولفين في خليج وايميا. وكان جناحاها، المرئيان بالكاد، يخفقان في سلاسة خلف ظهرها.

كانت أمواج الشتاء العملاقة ترتفع من البحر وتنكسر في طيات شبه شفافة. لم يكن ثمة قافزون من أعلى جامب روك اليوم، وكانت الأمواج ترتطم بجوانب الصخور وتنثر مياهها وتلتف حول القاع. كانت زلاجات القَطر منشغلة بسحب راكبي الأمواج إلى المواضع التي تبدأ فيها الموجات في التكوُّر، وجلس نحو ثلاثين من راكبي الأمواج على ألواحهم التي تتهادى بهم لأعلى وأسفل، بينما أخذت فدادين من الزبد الأبيض، ذات تيارات تحتية عميقة وقوية قادرة على إغراق أقوى الرجال، ترتطم بالشاطئ.

قالت ميلودي: «لم يكن الأمر هكذا دومًا يا آليا. التغيير، إنه أشبه بالموجة، ونحن لا نزال عليها. ومن الممكن لنا - بل والعالم البشري أجمع - أن نتحطم مثل ذلك الزبد، بفعل تلاقي العديد من العوامل».

- «أجل، هذا ما يقوله الجميع... العصور المظلمة». تذكر ميلودي التغيير كثيرًا، لكنها لا تقول الكثير عن الكيفية التي حدث بها. ربما من شأن تشجيعها على الحديث عنه أن يلين قلبها. فهذه هي السبيل الوحيدة للتعامل مع الأمر، ولكن ربما لا يوجد طريقة مُثلى. لم أكن قادرة قط على التلاعب بها، كما أنها تتمتع بمزية غير عادلة؛ فهي أكبر عمرًا وأذكى، علاوة على أنها «موجِّهة». آمل فقط أن تتفهَّمني، أن تتفهَّم سبب رغبتي في رؤيتها، ورغبتي في تلقي العون منها.

كنت أريد خياشيم. ليست مثل خياشيم الأسماك، ولكن هكذا يسميها الجميع.

- «تجعلين الأمر يبدو أشبه بالحرب».

- «لقد كانت حربًا. بل لقد سُميت حربًا. في ذلك الوقت بدت هذه اللغة السبيل الوحيدة لحشد الناس. ففي بدايات القرن الحادي والعشرين كان يتملكنا شعور بأننا نوع ناجح للغاية، بيد أننا كنا نبذر بذور دمارنا. كان من يتفهَّمون لغة نظرية الفوضى والإحصائيات يعرفون أن المجاعة الشاملة، وانهيار الحضارة، وفقدان المعلومات أقرب إلينا من حبل الوريد. إن تاريخ البشرية ما هو إلا تاريخ للحرب، ومعظم الناس نظروا إلى فكرة السلام العالمي بتشكُّك بالغ. لقد آمنوا أنه لن يتحقَّق إلا في عالم يكون فيه الإخضاع التام هو الكلمة السائدة، أو حين يُسحق جزء ليس بقليل من البشرية سحقًا تامًّا. نادرًا ما كان ينظر إلى هذا السلام على أنه حالة توازن تكون فيها القدرة الأعلى للبشر - الإبداع الحر - ممكنة لنسبة كبيرة من الأشخاص، وكان البعض يعتبرون هذه الفكرة مصدرًا للخطر. كانت الحرب السمة المميزة للبشرية، فقد أنفقنا ثروات في تكديس الذخائر وتجييش الجيوش، وبدا هذا أمرًا ضروريًّا لأن الطبيعة، حسب كلمات داروين، «حمراء السن والمخلب». كانت الحرب

هي المرض الذي تتفرَّد به البشرية، وقد بدت دومًا حتمية، شيئًا علينا العودة إليه رغم رغبنا وإحجامنا».

- «من الصعب تصديق هذا».

- «لقد حدث تغير جوهري في الكيفية التي نتواصل بها، والكيفية التي نرى بها أنفسنا. في ذلك الوقت كان بمقدور كل شخص أن يتفهَّم فكرة الحرب. «الحرب على الفقر»، «الحرب على السرطان»، «الحرب على الأمية»».

- «ما السرطان؟».

- «صحيح. وما شلل الأطفال، وما السُّل، وما الجُدري؟ إذا أردت أن تصيري طبيبة...».

- «أريد أن أكون بطلة العالم في ركوب الأمواج».

- «يمكنك تحقيق كلا الأمرين. فإذا أردتِ أن تكوني طبيبة - هذا أحد المسارات المهنية التي حددتِها، أتذكرين؟ - ستحتاجين إلى دراسة تاريخ المرض. كانت الأمية في بدايات القرن الحادي والعشرين تُصنَّف على أنها من مشكلات الصحة العامة، وهذا منحنا حرية تسخير العديد من الموارد المختلفة للعمل على حل المشكلة».

ها هي قد ورطتني، ولا بد لي من مسايرتها؛ سألتُها: «ما الذي كان يسببها؟».

- «العديد من الأشياء ... لكن ربما كان جنسنا البشري يمر وحسب بفترة مراهقة. ربما لم يكن من شأن التزامنا العنيد بإيداع الأطفال في المدارس - أو إرسالهم إلى العمل أو حتى بيعهم، كما في الدول الفقيرة - أن يؤدي إلى انهيار الحضارة، بيد أن الجهل المتعنِّت بشأن الكيفية التي يتعلَّم بها البشر، استنادًا إلى أدلة علمية، أضاع مليارات الحيوات وإمكاناتها. كانت اقتصادات العالم في حالة من الفوضى، وكان الناس في الغالب إما شديدي الثراء أو شديدي الفقر، وافري الصحة أو محكوم عليهم بالموت في شبابهم. لم يكن الأمر يفلح وحسب. كان هناك وهم، بين ميسوري الحال، بأن الأمر يسير على نحو طيب، لكنه لم يكن كذلك».

مسَّت بيدها وشم الخيشوم الذي دققته على خدِّي الأيمن، ويشبه رمزًا بولينيزيًّا عتيقًا، وكان بمنزلة صرخة للاستقلال، صرخة للسيطرة على جسدي.

- «حين تبلغين الثامنة عشر، هكذا تقول والدتك».

- «لماذا يتعين عليَّ الانتظار؟ عليكِ مساعدتي، سوف تستمع أمي إليك. انظري هناك - جِيل لديها خياشيم - انظري، إنها ذات الخياشيم الأرجوانية، يا للروعة!» تفقدتُ التيار التحتي ورأيتها تبرز برأسها، كانت صغيرة للغاية في ذلك البحر من الزبد الأبيض، على مسافة نحو مائة متر. «انظري كم الأمر ممتع».

- «أرى هذا».

- «أنا في الرابعة عشر، وهي لا تزال في الثالثة عشر. أنا متأخرة بالفعل. فكِّري في ما حدث لكِ؛ كنتِ في الثانية عشرة أو الثالثة عشر وقتها أليس كذلك؟ حين تغيرتِ؟ كان التغيير جذريًّا، صحيح؟ مخيفًا مثل الخياشيم. وانظري إلى حالك الآن!».

- «إذن فقد طلبتِ لقائي هنا كي أدافع عن مطلبكِ». كانت ابتسامتها ساخرة، وكنت واثقة أنه ليس لديَّ أي أمل، ومع ذلك فقد واصلتُ الضغط.

- «أعرف أن بمقدوري أن أكون بطلة! لقد حللتُ في المركز الثاني في مسابقة الفتيات، الطبيعيات، العام الماضي، لكن كي أحقق شيئًا كبيرًا أحتاج إلى الخياشيم».

- «لن تحميكي الخياشيم من الارتطام بالحيد البحري. إن والدتك تشعر أن هذه الخياشيم ستشعركِ أن بمقدوركِ الإقدام على مجازفات خطيرة. كما أن هناك نموذجًا آخر من نماذج حياتك المهنية؛ الفيزياء! أخبريني: ما الذي تفكرين فيه الآن، بينما تنظرين إلى المحيط؟».

أدركت وقتها أنني منوَّمة مغناطيسيًّا بفعل الطريقة التي ترتفع بها الأمواج، وتندفع تجاه الشاطئ، وتلتف، ثم تتكسَّر.

إنها فاتنة من منظور الرياضيات. تمعَّنتُ في منظر البحر، برقعه السماوية الفاتحة والداكنة اللون، وحيوده الداكنة، وزبده الدوار، لما لا يقل عن خمس دقائق. دائمًا ما أقضي وقتًا كثيرًا هنا، أدرس كيف تتكسَّر الأمواج في المواقف المختلفة. يمكنني معرفة ما إذا كانت أطنان من الرمال قد تحرَّكت، وأعرف موجات العواصف، وأعرف الوقت غير الملائم للخروج.

والآن، كما لو كانت الرياح قد تغيَّرت، أنظر إلى البحر بعين جديدة. «مع الخياشيم يمكنني الولوج داخل الموجات، ودراستها من الداخل، بدلًا من استخدام الخياشيم فقط كي تمنحني مزية تنافسية».

ابتسمت ميلودي وحسب. رفعت الرياح شعرها الأبيض الطويل بشكل لولبي مبهر، وشعرت أنني أريد أن أعرف، أيضًا، بشأن الآليات الفوضوية - الأنيقة في الوقت ذاته - المسؤولة عما يحدث الآن، الآن، الآن. أريد أن أكون قادرة على أن أصفها بطريقة قابلة للتكرار، من دون كلمات. لقد منحتك تصورًا مرئيًّا لما يحدث - يمكنك أن تراه في عقلك، أليس كذلك؟ - لكني أريد أن أكون قادرة على تكراره في وسائط أخرى. أريد دراسته، وأن أعبِّر عمَّا أراه. ربما يكون صوتي صوتًا جديدًا، أو ربما ستكون اكتشافاتي قد اكتُشفَت من قبل، لكني أريد أن أكون جزءًا من تلك الموسيقى.

أدركت، فجأة، أنني تعلَّمت لتوِّي التفكير بهذه الطريقة - فقط تعلمت أنه «من الممكن» التفكير بهذه الطريقة - بفضل أسئلة ميلودي. أرى إمكانية الولوج داخل الظواهر التي تثير فضولي بطرق متعدِّدة، وأن أراها من زوايا مختلفة.

إنه نوع من الحب. أحدِّق في راكبي الأمواج بينما يغطسون ويحلقون، ويتشقلبون في الهواء بأسلوب بانزاي. أحدِّق بكل الحب، بينما أنا عابسة.

إنها تحاول إثنائي عن رغبتي. وستحاول حملي على الاعتقاد بأنني لا أحتاج الخياشيم لعمل هذا، لكن هذا لن يفلح بالطبع. يبدو بدهيًّا أن الغوص والهبوط في بذلة مصمَّمة لجمع المعلومات عن التدفُّق والقوة والاضطراب هما السبيل المُثلى لدراسة الموجات.

- «لديكِ أجنحة. ظننت أنك ستتفهَّمين».

ضحكت وقالت: «إنها ممتعة، ومع ذلك فهي بالأساس ألعاب خطرة. فأنت تعرِّضين نفسك للخطر». ثم ابتسمت وأضافت: «أنتِ تريدين الذهاب إلى هناك على أي حال، صحيح؟ حتى من دون الخياشيم». ثم ربَّتت على ركبتي وقالت: «أعرف هذا».

- «لو أمكنني البقاء داخل الموجات، سأستطيع معرفتها. يمكنني دراستها، من الداخل للخارج».

رغم أنها كانت تجلس في ثبات شديد، وتمد يدها من وقت لآخر كي تربِّت على ركبتي، فإنها كانت تعتني بشكل افتراضي بنحو عشرين طالبًا آخر، من جميع الأعمار، ممن تقدم لهم التوجيه حول العالم بل في الفضاء، عن طريق تجسيد رسومي (أفاتار) وغير ذلك من الواجهات الأكثر تقدمًا، اعتمادًا على أسلوب تعلم الطالب. فالبعض، كما تخبرني، يحتاجون اهتمامًا أكبر مقارنة بغيرهم، ارتباطًا أشد وثاقة بالمصادر، إيماءة تشجيعية، أسئلة تساعدهم على التفكير بطريقة أكثر تركيزًا عن الهدف من وراء بحثهم أو العملية التي هم منخرطون فيها.

ردت في لُطف قائلة: «أنتِ داخل موجة. داخل الطية، تركبين الموجة أمام الانكسار مباشرة، بسرعة هائلة. ولأنك داخل الموجة، من الصعب عليك أن تري. لقد كان العالم على هذا الحال دومًا في نظرك».

- «أي حال؟».

- «في سلام. وأغلب الناس يملكون معارف متعددة، كالقراءة ...».

تذمَّرْتُ قائلة: «من المحال ألا يستطيع كل شخص معرفة القراءة، بصرف النظر عن مقدار كسله. الأمر أشبه بالتنفس».

- «لم أكن أستطيع القراءة، ولم أكن أستطيع الحساب. ولم أكن كسولًا».

- «ماذا؟» حدقتُ فيها بذهول. «لقد ساعدتِ في تطوير لغة «زيبرا»!» وأعني بهذا لغة الإشارة التي يستخدمها الجميع الآن.

مالت برأسها إلى الوراء وضحكت حتى اغرورقت عيناها بالدموع، ثم نظرت إليَّ وهي تبتسم ابتسامة عريضة وقالت: «أنتِ تعلمين أنني «تغيرت»، لكنك لا تملكين فكرة عن كيفية حدوث هذا أو سببه. لم يكن الأمر كما تظنين على الإطلاق. أنتِ بحاجة إلى درس في التاريخ أكثر مما تحتاجين الخياشيم! دعيني أريكِ كيف كان الأمر مختلفًا، اتفقنا؟».

نظرت في توق إلى الأمواج المتكسرة على الشاطئ ورنوت إلى لوحي القصير، وأنا أشعر بالخداع. لكن أثار كلامها اهتمامي.

- «ماذا حدث إذن؟ كيف كان الأمر؟ هل كان ممتعًا؟ هل كان ممتعًا بقدر ركوب الأمواج؟».

قالت في جدية: «كلا، على الإطلاق. أعتقد أنه كان مثيرًا بالقدر نفسه، لأنه كان مخيفًا. لم نكن ... لم أكن أعرف ما سيحدث. لكن ما إن حُرِّرَت القوة اللانهائية للإبداع، ووُزعت على نحو متساوٍ، حتى صار الأمر أشبه بالتفاعل الذري: فلم يعد بمقدورنا إعادة الجني إلى المصباح ثانية».

صمتَت للحظة، بينما يداها تتحرَّكان في هذا الاتجاه وذاك، تختار وتنتقي وتجمِّع من مكتبتها الداخلية القصصَ التي تريدها من أجل الدرس الذي كنت أعلم أنه قادم.

أشعر بالإثارة في واقع الأمر، وبالفخر الشديد. دائمًا ما تغيِّرني قصص ميلودي، إذ أشعر بعدها أنني أقوى. إنها ثمينة، ولا أحصل عليها كثيرًا. يمكنني بالكاد أن أتذكَّر المرة الأخيرة التي زارتني فيها بنفسها.

- «تبدين دومًا وكأنك تعلمين ما أحتاجه بالضبط. مثل الدواء».

حدَّقت في بدورها وقالت: «أنا موجِّهة، هذه وظيفتي. أنا أستمع إلى طلابي، وأرى الفجوات، وأتبيَّن من بين طيف الاحتمالات، الطريقة المُثلى التي أريهم بها المعلومات التي قد تعينهم في ذلك الوقت من رحلتهم. إن التعليم قائم أساسًا على التوقيت، وعلى فهم أي وسيط من شأنه لفت نظر أي شخص محدَّد: أي قصص - والقصص هنا يمكن أن تكون بالكلمات أو الأرقام أو الإشارات أو الصور أو الموسيقى - يمكنها أن تجذبهم إلى الحالة العصبية للتعلم، بحيث تغير أمخاخهم بصور مركزة؟ أنتِ محقة بشأن الدواء، بصورة ما، لكنه يبدو أقرب إلى الغذاء في نظري. هذه هي أول محاكاة حدسية تمرين بها، أليس كذلك؟».

- «محاكاة حدسية؟» كنت مستعدة بيولوجيًّا منذ عام للأمر، بيد أن المحاكاة الحدسية أمر جسيم، لم أكن واثقة أنه ينبغي عليَّ تجربتها. الأمر أشبه بتقدير ما إذا كنت ستمر أسفل الموجة أم أعلاها، مسألة حُكم.

نظرتُ إلى الأمواج وفكرتُ: الآن.

وحين عاودت النظر إلى ميلودي وجدت أنها انتهت من تجميع الكرات، التي كانت تلتمع في الهواء وكأنها كرات متقافزة، غير متأثِّرة بالرياح. ألقت ميلودي ناحيتي كرة ذهبية، وثانية خضراء، وثالثة بدت شبيهة بكوكب المشترى، إذ كانت تنبض بألوان دائرية داكنة. التقطتُ الكرات - كان الإحساس بها يشبه تنميلة خفيفة - وضغطها إلى صدري، حيث ذابت في سطح جلدي. ابتسمت

واستلقيت على حدبة ملساء من الصخر البركاني بينما كانت الرياح والشمس تغمران جلدي العاري. أغلقتُ عينيَّ وبدأت العملية.

اعتصارٌ عنيف. كان الظلام سائدًا، وبدا وكأنني أنظر إلى صفحات كتاب ما، لكن كانت الحروف تتراقص وتهزأ بي، تلتوي وكأنها مخلوقات خيالية متحركة، وشعرت بأنني مقيدة، كسجينة.

عند خوض المحاكاة الحدسية تظل محتفظًا بوعيك على نحو منفصل عن العملية نفسها. أعرف أن بمقدوري إنهاءها وقتما أختار، وأنني لن أظل حبيسة داخل كابوس مقيت. هذا ما كنت أعرفه، لكنني كنت بحاجة إلى اختباره. كنت بحاجة إلى معرفة أن بمقدوري الخروج.

فتحت عيني ورأيت السماء الزرقاء الساطعة، تتخللها بضعة خيوط من السحب البيضاء، وبرج الساعة العتيق على الجانب الآخر من الخليج. كنت أرى ميلودي من الجانب، وكان جفناها نصف مغلقين، وتشير في سلاسة إلى أحد طلابها. كانت مزودة بأدوات مزروعة تمكنها من تسجيل وإرسال هذه اللغة ثلاثية الأبعاد، وشعرتُ مجددًا برغبة قوية في التفكير في طرق لوصفها رياضيًّا.

توقَّفت عن الإشارة ونظرت إليَّ وقالت: «الأمر صعب التصديق، أليس كذلك؟».

- «كنت أنظر إلى الشاشة مباشرة - من خلال عينيك - وكان بمقدوري فقط ... التقاط طرف الأشياء، أو ... لا أدري. كان الأمر غريبًا».

- «هذا يسمَّى خلل القراءة. كنت أعاني من خلل القراءة، وخلل الكتابة، وخلل الحساب. فلم يكن بمقدوري أن أقرأ أو أكتب أو أؤدي أي عملية حسابية، رغم اجتهادي الشديد في ذلك. لكن، واصلي. اتصلي بي إذا احتجتِني، لكنني أظن أن بمقدورك التعامل مع الأمر. لقد انتظرتُ وقتًا طويلًا كي أريكِ. اتفقنا؟».

- «بالتأكيد».

ابتسمَتْ لشخص لا يمكنني رؤيته وعاودت الإشارة.

كنت أشعر بالارتباك. ففي ذلك الوقت لم يكن بإمكانها القراءة أو الكتابة، لكنها تعلَّمت كل هذا!

كان عجيبًا إحساسُ العودة بالزمن لأكثر من مائة عام، والانغماس في الأمر، رغم أن بمقدوري المغادرة في أي لحظة. كنت بالتأكيد أرغب في تجنب الإحساس بمشاعر ميلودي - فهذا يبدو أمرًا شخصيًّا للغاية - لكن كان هذا ما سيواجهني لا محالة. أعتقد أن الأمر أشبه بقراءة الكلمات، حيث تشعر بملمس الحروف، ولكن على نحو أقوى بكثير. لكنها تظن أنني قوية بما يكفي. ربما سيجعلني هذا أحصل على خياشيمي، لكني أشك في أن الوضع صار مختلفًا، وأنها تظن أن من شأن هذا أن يغير رأيي.

إذا كان بإمكاني مواجهة موجة وزنها أربعة أطنان، فبوسعي تحمل هذا. وهذا هو ما يستلزمه الأمر. أغلقتُ عينيَّ مجددًا.

وبدأتُ المحاكاة.

أنا ميلودي سميث، ونحن في عام 2121، وأبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا.

وُلدتُ في أيام كان الرعب فيها كلمة عادية، خوف تسبَّب في تخلي الجميع حول العالم عن حقوقهم، كما تسبَّب في أحوال كثيرة في سفك الدماء وسلب الحياة.

أعتقد أن الجميع أصابتهم الدهشة حين ظهر مشروع الطريق المفتوح (أوبن رود)، فائقة المرونة، على يد مجموعة تمتد حول العالم من البشر ما بين عشية وضحاها (هذا ما يبدو عليه الأمر الآن، رغم سنوات العنف والمسيرات والمظاهرات).

لم يضغط شخص بعينه على زر البدء. فقد ظهر، وتطوَّر، وتغيَّر مع زيادة التواصل، مزودًا بنظام تصحيح يعمل من المستوى السفلي إلى العلوي. لقد عمل أشخاصٌ متعددو التخصصات - علماء أعصاب وعلماء أحياء وعلماء في الإدراك المعرفي وفنانون وعلماء كمبيوتر وموسيقيون وحالمون أصحاب رؤى مستقبلية - على جوانب المشروع، على نحو منفصل في البداية، ثم على نحو مترابط على مدار أعوام.

كان فرعًا من الأبحاث المتعلقة بكيفية عمل المخ، وماهية الوعي، وصحة المخ، وكيفية ارتباط الأطفال بالبيئة واستكشافهم لها، والاستكشافات التي تشق مسارات عصبية محدَّدة، وكذلك الأبحاث المعنية بما يجعل الناس يعانون من مرض عقلي، وما يجعلهم مجرمين أو عنيفين أو يعانون من أي إعاقة، وكيفية تغيير ذلك.

كان وقتًا من أوقات الفوضى والنمو المجيد، نقطة تحول تماثل في أهميتها اختراع الصحافة المطبوعة. بدا تأثير هذه المعرفة العالمية على الطريقة الراسخة المفضَّلة لعمل الأشياء أشبه بتأثير القنبلة الذرية. كنت لتظن أن هذه هي نهاية العالم، وفي حقيقة الأمر كانت حربًا من حروب السلطة والمال تغلغلت في هيكل المجتمع بأسره.

كان الأمر خلاصًا من العمى العقلي. لقد عزَّزت معرفة القراءة والكتابة التعاطف داخل الناس، لأنها تجعلهم قادرين على الشعور بما يمر به غيرهم وتوسِّع نطاق مشاعرهم.

كنتُ هناك.

بل أنا هناك الآن.

في صبيحة اليوم الذي تغيَّر فيه كل شيء، استيقظتُ قبل شروق الشمس في غرفة نومي، التي كنت أعدها واحتي الخاصة، وأنا مستعدة لمواجهة الكوابيس اليومية.

كلا، هذا ليس صحيحًا. فأنا لم أكن مستعدة لها قط.

كانت الليلة السابقة بغيضة للغاية. رقدتُ في الظلام وقرَّرت ألا أذهب إلى المدرسة اليوم.

أكره مغادرة غرفتي. بل أكره حتى الذهاب إلى غرفة المعيشة. كان شقيقاي الأكبر سنًا هناك دائمًا، يتمددان أمام التلفاز - جهاز عتيق الطراز له شاشة عرض، تبرز منه مشاهد العربات وهي تتصادم وجرائم القتل وهي تُرتكَب - يتحيَّنان الفرصة لقوْل شيء بغيض.

كنت في السادسة من عمري، وقد منحني والداي غرفتي الخاصة، ودهاناتي، كل ألوان الدهان التي أريدها، رفًّا كبيرًا عليه جالونات، وأرباع جالونات وأثمان جالونات، من الدهان الاحترافي الساطع، إضافة إلى فُرَشات دهان احترافية، ودهانات رش، ومروحة قوية لتجفيف الدهان، وحوض مغسلة، وصناديق من الأسمال. كنت مصدر إحباط لهما، وقد منحاني كل هذا كي يبقياني سعيدة. كان لديَّ عالمي الخاص.

كنت أعيد دهان غرفتي طوال الوقت. إن فراشي مدهون، ومِزينتي مدهونة، وجدران غرفتي مدهونة. تبرز طبقات من أعوام سابقة، أجزاء أخرى مني، إنها

عملية تنقيب أثري عني. كنت أرسم أنماطًا أراها في رأسي، خطوطًا متعرِّجة ونقاطًا، أمورًا كهذه. كنت أرقد في فراشي وأرى الصور والألوان في رأسي، فأقفز وأبدأ الرسم من فوري. أو حين أكون في المدرسة، وأفكر في ما سأرسمه حين أذهب إلى المنزل، أي الألوان والفُرشات سأستخدم، وكيف سأمزج هذا أو ذاك.

أحيانًا كنت أصاب بنوبة غضب وأبدأ في إلقاء الدهان هنا وهناك.

حين كنت أحاول رسم الناس، كانت أشكالهم تبدو مضحكة، إذ كانت أذرعهم أطول مما ينبغي، ووجوههم مجنونة، لكن لا بأس، هكذا أخبر نفسي طوال الوقت. أحيانًا كنت ألف ذراعيَّ حول ركبتيَّ وأنكس رأسي وأقول: لا بأس، لا بأس، لا بأس.

ليلة أمس كنت أصرخ: «لا بأس! لا بأس!» بصوت عالٍ، وهرع والدي إلى غرفتي جريًا وقال لي: «ما الذي يحدث يا ميلودي؟» ورأيتُ أنني ألقيت علبة الدهان على الحائط تاركة بقعة كبيرة من الدهان الأصفر على الأرضية، خطا والدي عليها فترك جورباه آثارًا صفراء اللون. احتضنني بقوة فتوقَّفت عن الصراخ والارتجاف. قال لي: «انظري!» بينما فتح علبة من الدهان الأحمر وخلطها باللون الأصفر كي ينتج لونًا برتقاليًّا وصنع المزيد من آثار الأقدام على الأرضية حتى انفجر كلانا في الضحك.

حينها فتحت أمي الباب وصاحت: «هل أعمل في وظيفتين من أجل هذا؟».

تغيَّر وجه أبي من الضحك إلى الجمود، وكأنه تمثال، وكأنه صار شخصًا آخر في غمضة عين. قال: «هيا اخرجي كي تؤدي فروضك المنزلية الآن، عليكِ أن تتركي الدهان يجف». شعرت أنني محاصرة. فتحنا النوافذ وتركنا الجوارب الملوثة بالدهان على الأرض، وأغلقنا باب مملكتي.

جلستُ إلى الطاولة في غرفة الطعام وأنا أحمل حاسوبي اللوحي وأخرجت فروضي المنزلية. نظرتُ إلى الحائط... إلى كتب أمي، كلها مرتبة على نحو أنيق ولا يوجد منها كتاب ناقص، ولم تكن تميل نحو الفراغات كما كان معتادًا؛ إذ لم يعد لدى أمي وقت للقراءة. أغلقتُ عينيَّ وتذكرت نفسي وأنا أجلس مستكينة إلى جوارها، بينما نفتح كتابًا على حجرينا، وكانت تحاول أن تجعلني أنطق الكلمات المكتوبة على الصفحة حين سقطت دمعة من عينها على الصفحة والتمعت، نصف كرة صغيرة تسببت في تكبير صورة إحدى العجلات في صورة لقطار.

- «ميلودي؟» فتحتُ عيني. كانت كلمات الفرض المنزلي تتقافز أمامي على الشاشة، أصابني صداع فوري، ثقب أسود في منتصف صدري، ومعدتي.

- «عزيزتي» هكذا قال والدي، الذي جذب كرسيًّا إلى جواري. «ما الخطب؟» كان يعلم ما الخطب. كان كلانا يعلم.

- «لا أستطيع القراءة وسط هذه الضوضاء» وأشرتُ إلى التلفاز.

قال والدي: «أطفئا التلفاز». بادرني أليكس بنظرة وعيد من خلف ظهر والدي. ثم اتجه هو وجيك صوب غرفتيهما. «حسنًا، حاولي ثانية».

سقط ظل أمي على الحاسب اللوحي. قالت: «هيا، انطقي الكلمات».

- «م ... مت ... متى!».

قال والدي: «تخمين جيد» ثم ضغط على الشاشة فقال صوت الحاسب: «أين؟».

- «لماذا تدللها؟» هكذا قالت أمي ومشت مبتعدة.

ذهب إلى الشاشة التالية، وكانت عليها ثلاث كلمات. تساءل الصوت: «أي الكلمات هي كلمة «ماذا»؟».

لم أحر جوابًا، لكني أشرت نحو إحدى الكلمات.

قال والدي: «فكري في الإجابة».

لطالما كان لتلك الكلمات وقْع الصفعة على وجهي. انفجرتُ في البكاء وجريت إلى غرفتي، أغلقتُ الباب خلفي وألقيت بنفسي في الفراش. على الجانب الآخر من الباب كنت أسمع أمي وأبي يتشاجران: كلماته الهادئة، وصرخاتها. جذبت الوسادة فوق رأسي وبكيت حتى غلبني النوم، مجددًا.

وهكذا فتحتُ عيني الصباح التالي - حين كان كل شيء على وشك أن يتغيَّر - وأنا أذكر كل هذا، وبأذرع ثقيلة وأعين متألِّمة، مثل الروبوت الذي فرغت بطاريته، ارتديتُ ملابسي.

حين خرجتُ من غرفتي كان أليكس في المطبخ يشرب المياه الغازية بعد الإفطار. كان هو وجيك، وهما في الثامنة عشر والتاسعة عشر، عاطلين عن

العمل ولا يفعلان شيئًا عدا لعب ألعاب الفيديو وتناول رقائق البطاطس. لم يساعدا والدينا في شؤون المنزل، وبدا والدانا عديمي الحيلة أمام كسلهما المزدوج، أمام وجهيهما الجامدين المفتقدين للحياة المتنقلين من الكمبيوتر إلى التلفاز إلى الثلاجة. كان يكسبان المال بطريقة ما من الإنترنت، وكسب جيك سيارة قديمة من المقامرة على الإنترنت، لكنهما أبقيا الأمر سرًّا عن أمي وأبي، وجعلاني أحفظ سرهما أيضًا.

في طريقي إلى محطة الحافلات لمحت المربع السكني الذي كانت أمي وأبي يمتلكان فيه منزلًا، وكان منزلًا من طابق واحد توجد في باحته أشجار وزهور التيوليب التي تزرعها أمي في الربيع. وقد فقدا منزلهما في حادث. كان شقيقاي يمتلكان شعورًا بالاستحقاق لأنهما تربيا في صغرهما في هذا المنزل، شعورًا كنت محرومة منه. كان والدي فنانًا وقتها، لكن بعد ذلك اضطر إلى القبول بأي وظيفة وجدها. والآن هو يدير مطعمًا للمأكولات السريعة. إنه رجل لطيف، فهو لا يصرخ مطلقًا، لكنه بدا دومًا عاجزًا عن الاحتفاظ بوظيفة لوقتٍ طويل. أما أمي فكانت تعمل في مكتب ما.

في الحافلة، كان صبي نحيل شاحب يهمس بتعليقات ذات وقع بغيض عني وهو جالس ورائي. لا أعرف فحواها لكني أعلم أنها بغيضة، وأنه لا يوجد مقعد آخر خالٍ. كان يجلس خلفي على الدوام، وكنت أضطر إلى تحمله كل يوم، بينما أشعر بغصة في حلقي.

حين مررنا بالمحكمة العليا، ركزتُ نظري على الملوِّحين باللافتات كي أبعد تفكيري عن سماع التعليقات. واليوم، سمعت هتافات تقول: «لا للبشر المعدَّلين وراثيًّا! توقفوا عن لعب دور الإله!» همست بذلك التعبير، «معدَّلون وراثيًّا»، لنفسي كي أثبته في عقلي. أحب الكلمات الجديدة، وأستطيع تذكرها لو أنني كرَّرتها لنفسي. فتحت حاسبي اللوحي وقلت الكلمة، لكني أغلقته على الفور حين لطمني الفتى الجالس ورائي على مؤخرة رأسي براحة يده المفتوحة وقال: «جرِّبي كلمة «غبية»، أيتها السافلة».

تخيَّلت أنني درت حول نفسي مثل إعصار، واستخدمت القوى الخارقة التي دائمًا ما يتبادلها شقيقاي في ألعابهما، واقتلعتُ رأسه من موضعها. كنت أعرف أن بداخلي ما هو أكثر من الغضب والحزن. كنت أعرف أنني لو استطعت القراءة لذهبت إلى أي مكان ولفعلت أي شيء.

سألت الفتى الجالس بجواري: «ما المكتوب على اللافتات؟».

- «تقول لافتات إحدى المجموعتين «احظروا البيولوجيا النانوية. لا للتطبيع النانوي» وتقول لافتات المجموعة الأخرى: «ساعدوا أبناءنا على التعلم. حرِّروا القدرات البشرية»».

- «أشكرك». كانت المجموعتان كلتاهما تردّدان الآن: «أنقذوا أطفالنا!» وهو ما يلخص كل تلك الاحتجاجات: كل شخص يحب الأطفال.

وضعت سماعتي في أذني وقلت بينما أضع يدي فوق حاسبي اللوحي كي أحجب ضوضاء الحافلة: «أونا، أخبريني عن التطبيع النانوي».

- «بالطبع يا حلوتي». هكذا بدأت أونا حديثها، بصوت خالتي، التي كانت قد قرأت نحو خمسين صفحة من النصوص كي تهيِّئ الجهاز، ثم انتقلت بي إلى أحد المواقع. قرأت أونا: «البشر مولودون كي يتعلموا. ولقد سيطرنا على العالم بفضل حبنا للاستطلاع واستكشافنا. إننا نفكِّك الأشياء ونبني أشياء جديدة. إننا نخترع ...».

- «حسنًا، وماذا بعد؟».

خُيِّل لي أنني سمعت أونا تتنهَّد. «لذا كل الأشياء الصغيرة التي تفعلينها منذ وقت ولادتك تدرب خلاياك العصبية. وهي تنمو بسرعة كبيرة بحق وتبني مسارات عصبية مُخصَّصة لكل حواسك. إن مخك ينظم ذاته وأنت لا تزالين رضيعة، وتبدئين في رؤية حواف الأشياء، وتبدئين في سماع الاختلافات الدقيقة بين أصوات لغتك الأم، وتبدئين في ربط الأشياء معًا، لكن حينئذٍ...».

قلت: «حينئذٍ تسوء الأمور، كما حدث معي، أليس كذلك؟ هيا، يمكنك أن تخبريني. لن تؤذي مشاعري».

- «إن الخلايا العصبية تُشذَّب».

تُشَذَّب. يا لها من كلمة قبيحة. «أجل، تمامًا كما قلت!».

- «ميلودي، يحدث هذا الأمر للجميع في مراحل النمو المبكرة. اهدئي. سأغلق الجهاز الآن ...».

- «كلا! لن أهشم الجهاز. أعدك بهذا!» كانت الخدمات الاجتماعية قد منحتني «ماجيك مان»، الجهاز السابق على أونا، لكني عانيت من المتاعب معه بسبب

غضبي. اشترت خالتي أونا هذا الجهاز من أجلي، لكن البرنامج الأساسي لا يزال يتذكر كونه ماجيك مان.

بدأت أونا تتحدث ثانية: «يقول إن ثمة تحالفًا دوليًا من علماء الأعصاب والمعلمين والحكومات - كل الأطراف المعنية في حقيقة الأمر - يعمل على تحسين التعليم للأشخاص على شاكلتك ولكل شخص، لكن مصالح العمل تبعدهم عن المضي قدمًا في عملهم. إن قضية المحكمة العليا هذه تدور حول ما إذا كانت بالإمكان استخدام الاستراتيجيات الطبية الجديدة في التعليم أم لا. والأسبوع القادم سوف ينظرون في ما إذا كانت براءات الاختراع الخاصة بالمنطق البيولوجي العصبي التعليمي المسمَّاة «أوبن» قانونية أم لا. لكن بعض أنواع البوتات الرقمية الخاصة بالشركات تمنعني من المضي في استكشافي».

- «كيف يمكنهم هذا؟».

- «التعليم قائم على الشركات، لا الأشخاص. لا المعلمين ولا الأطفال. وشركات الاختبارات تجني المليارات كل عام من خلال إدارتها لبرامج الاختبار الإجبارية...».

تلعثمت أونا وتجمَّدت الشاشة. إن أليكس مفيد في شيء واحد فقط؛ فهو خبير في التعامل مع الكمبيوتر، وقد أخبرني أن هذا ما يحدث حين لا تريد الشركات أو الحكومة، التي تسيطر على الإنترنت والتلفاز وكل مصدر آخر من مصادر المعلومات، أن نعرف شيئًا ما. لكن ما تريدين معرفته موجود على الدوام، في مكان ما. أدت أصابعي الرقصة الصغيرة التي علمني إياها كي أصل إلى المزيد من المواقع الثورية، وعادت أونا مجددًا. عرضت عليَّ تسجيل فيديو لامرأة تتحدَّث.

- «كل شيء مقلوب رأسًا على عقب. إن الأدلة العلمية كافة تشير إلى أن نموذج التعلم البشري الأكفأ هو نموذج فردي بالكامل. فالبشر، من الطفولة إلى الشيخوخة، يتعلَّمون بأسلوبهم الخاص، وفي وقتهم الخاص، يدفعهم الفضول. إن العاشر من شهر فبراير ليس يومًا يكون فيه كل طالب من طلاب الصف الثالث على مستوى البلاد مستعدًّا لتعلم جدول ضرب العدد أربعة، لكن هكذا يجري تعليمه على مدار مائة عام. ولولا نقابات المعلمين لكان من السهل الاستعاضة عن المعلمين بفنيي تعليم، وهؤلاء يعرفون النصوص وحسب، لكنهم لا يعرفون شيئًا عن الكيفية التي يتعلَّم بها الطلاب. إن لديهم معرفة بسيطة بشأن كيفية جعل الطلاب يتعلَّمون الشيء نفسه، لكن هذا هو

كل شيء. وإذا لم يفلح هذا، فإنهم يجعلون الطلاب يرسبون، ويحملونهم على أداء التمرينات العقيمة عينها. لذا من الخطوات الأساسية لإخراج التعليم من أيدي الشركات وضعه في يد الأطفال ومعلميهم، بهذا الترتيب. ونحن نطلق على الأشخاص الذين سيساعدون في تنسيق عملية التعلم اسم «الموجِّهين»، وسيتعيَّن على هؤلاء الموجِّهين أن يعرفوا الكثير عن العلوم العصبية، وعن أساليب التعلم، وعن المواد التي تُدَرَّس، وسوف يتلقون تلميحات من الأطفال، وليس العكس. فالطفل سوف يريهم ما...».

توقفت الحافلة في ساحة انتظار السيارات الخاصة بالمدرسة. وبينما كنا ننضم إلى حشود الطلاب همس الصبي الشاحب في أذني مجددًا. وفي عقلي، استدرتُ نحوه وضربته بركبتي بين فخذيه، تاركة إياه يئن، لكن في الواقع انسللت بين الجمع بسرعة ودخلت المبنى الطويل المنخفض: مبنى مدرسة إيست سايد الثانوية.

أصوات صرير: أبواب الخزانات تنغلق، وأطفال يصيحون. كل غرفة مليئة بأشخاص مختلفين في أوقات مختلفة من اليوم. تنسدل غلالة رمادية من الفزع بيني وبين كل شيء آخر من حولي. لا أعرف أيهما أسوأ: قضاء كل يوم مع الأطفال البغضاء أنفسهم أم الوجود بين غرباء باستمرار. لا أحد يمنع الأطفال من التصرف بحقارة، فهذا يتطلب جهدًا بالغًا. يتم استدعائي إلى مكتب المدير كثيرًا، بسبب مشكلة السيطرة على غضبي، لكن هذا يبعث على الهدوء؛ فالسيد بيدلي رجل حنون هادئ، يسمح لي بالاستماع إلى الموسيقى والاسترخاء.

«إن نموذج المدرسة العامة لم يتغيَّر منذ أكثر من مائة عام». هذا صحيح. أصدق هذا القول؛ فقد بُنيت مدرستي في ستينات القرن العشرين، وهي مستطيلة الشكل ومليئة بحجرات دراسة مستطيلة الشكل. أنا مهتمة حقًّا بتعلم اللغة التايلاندية، لأن لدي ابنة عم تتحدث التايلاندية والإنجليزية وأغار منها، لكنهم أخبروني أنه لا يمكنني سوى تعلم الإسبانية أو اللاتينية. أخضع لبرنامج إصلاحي في كل من الرياضيات والقراءة، ولهذا السبب ينعتني أليكس دومًا بالفاشلة ويقول إنه ينبغي عليَّ أن أترك التعليم وأكتفي بتقليب البرجر، لكني لا أريد ذلك. الأمر أشبه بوجود صورة جميلة في رأسي لنفسي وأنا أقرأ كتابًا وأستخدم كل تلك الرموز العجيبة التي ألمحها أحيانًا في برنامج تعلُّم الرياضيات. أقف على جبل عالٍ، حيث تعصف الرياح بقوة والهواء رائق، وأستطيع أن أرى إلى ما لا نهاية، لكني أعجز عن العثور على بداية المسار الذي يقودني إلى القمة. أعجز عن الاستيعاب وحسب، رغم ما أتناوله من عقاقير. أحب معلميني الخصوصيين، لكن في كل يوم أُنقَل من فصل إلى

فصل، من عالم إلى عالم، ويُنتظر مني أن أستوعب المعلومات العديدة المتعلقة بالكسور العشرية. لديَّ ذاكرة قوية، وأعرف أن لديَّ أسئلة جيدة، لكن حين أسألها يقول المعلمون إن على الجميع دراسة درس اليوم وإنه لا يوجد وقت لهذه الأسئلة، وأشك في أنهم يعرفون الإجابات أو كيفية العثور عليها أو حتى كيفية التفكير فيها. إن الوجود في المدرسة أشبه بالوجود في طابور الكافيتريا، إذ أمر بسرعة أمام الروائح التي قد تكون مغرية كرائحة الخبز الطازج أو نفاذة كرائحة الكرنب المطبوخ، لكن لا يوجد وقت مطلقًا لي كي أضع الطعام على طبقي وأتناوله. يخبرونني بأنني قد أستطيع في وقت ما في المستقبل أن ألعب أوراقي بشكل صحيح، الأوراق التي يؤكد لي الجميع أنها موجودة لكني لم أرها من قبل قط. أي أوراق؟

أول دروس اليوم كان «الرياضيات للأغبياء». جلست في مؤخرة الحجرة حتى يتسنى لي الرسم على حاسبي اللوحي، لكن المعلمة نظرت إليَّ من موقعها في مقدمة الحجرة، حيث تراقب الجميع، فتوقف حاسبي عن العمل وسيطر عليه درس الرياضيات. «ميلودي، لديك ست مجموعات من البط. اكتبي مسألة الضرب التي سوف تخبرك عدد البط الإجمالي الموجود لديكِ». إن البط يسبح في بِركة، لكنه من الممكن أن يطير فوق قارة أنتاركتيكا. أحاول أن ألمس واحدة بإصبعي وأمنعها من التحرك، لكن إصبعي يرتطم بشاشة خاوية. أحاول العودة إلى برنامج الرسم. «ميلودي،» هكذا ردد صوت من خلفي، فرفعت رأسي. إنه السيد بيدلي. «تعالي إلى مكتبي من فضلك».

دُهشت للغاية لرؤية والديَّ هناك، وكانت والدتي ترتدي بذلة أنيقة ووالدي يرتدي بذلة المدير. لا أصدق أنهما استقطعا وقتًا من عملهما. من المؤكد أن شيئًا خطيرًا قد وقع.

جلسنا إلى طاولة كبيرة مستديرة كالكبار، وقال السيد بيدلي: «هذه مسألة حسَّاسة، وأعتذر لو كنت أتجاوز حدودي، لكنني كنت أطالع بعض البيانات وأعتقد أن ميلودي هي المرشحة المثالية لمشروع «الطريق المفتوح» التابع للمعاهد القومية للصحة. وأود أن أرشحها للمشاركة فيه».

- «تعني أنها من الممكن أن تكون موضع تجربة، مثل فئران المختبرات». هكذا قالت أمي. كانت تبدو مُتعبة، كعادتها، وكان شعرها البني الداكن ينحني على نحو مثالي حول ذقنها وبدا فمها كالخط الرفيع.

- «ستكون جزءًا من تجربة، نعم، لكن دعيني أطلعك على أفكاري. أنا على الأرجح الشخص الوحيد الذي راقبها على نحو ثابت على مدار أعوام. كما أن

لدي كل سجلاتها هنا، وقد طبعتها من أجلكم». ثم منحنا نسخة. لمحت بضع كلمات على النسخة الخاصة بي قبل أن تتلاشى بعيدًا، لكني كنت أعرف ما توضحه الأدلة: أنني في حالة يُرثى لها. هذه، في واقع الحال، هي صورتي: فأنا في الصف السابع وأعجز عن القراءة، ولا أملك مهارات حساب رمزية، وشبه عاجزة عن الكتابة. ومع هذا فيمكنني التحدث. هذا شيء طيب، أليس كذلك؟ برنامج يغيِّر كلماتي المنطوقة إلى كتابة. ماذا يريدون غير ذلك؟

- «إنها موهوبة في مناحٍ عديدة، كما تريان». هكذا قال السيد بيدلي بحنوه المعتاد.

زمَّت والدتي شفتيها بشدة أكبر، وهو ما يعني: لا يهم أي من هذا. أحنت رأسها وواصلت تقليب الصفحات.

قال والدي: «ندرك أنها تعاني من تحديات. أي نوع من التجارب تتحدَّث عنه؟».

في الصباح التالي كنت أنا وأبي داخل مبنى زجاجي جميل في غرفة تطل على حرم المعاهد القومية للصحة. أوضحت لنا د. كامبل، وهي باحثة ذات شعر أحمر طويل، أن لديَّ على الأرجح مخًّا غير عادي يمنعني من القدرة على التركيز. فأنا أعجز عن أن أعالج على نحو سليم ما أراه أو أسمعه، أو أن أنظِّم المعلومات وأستخدمها. وقالت إنه قد يكون لديهم علاج. فربما يكونون قادرين على تعديل مخي، بحيث يصير أقرب شبهًا بأمخاخ الجميع من حولي.

ومع ذلك، ظل قلبي يخفق على نحو أسرع.

- «نحن في الواقع في المراحل الأخيرة من أبحاثنا، ونحن نستعد للحصول على موافقة إدارة الأغذية والأدوية. إن هذه العملية جرت الموافقة عليها وثم استخدامها في أوربا وبلدان أخرى على مدار الأشهر الستة المنصرمة. وهي عملية شاملة مسماها العلمي هو «المرونة العصبية التعليمية والإجرائية والتشغيلية». ربما سمعتما بشأنها؟».

قال والدي: «لا أدري. ربما في الأخبار».

سألتُ: «ما هي؟».

- «سأريكِ بعض الصور. هذه هي صورة مخ طبيعي تحت جهاز التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي. هنا لدينا صبي عمره عشر سنوات ذو مخ

طبيعي - بمعنى أنه مماثل تقريبًا لأمخاخ 90 بالمائة من البشر - يقرأ في صمت. وفي هذه الصورة يقرأ الطفل بصوت مرتفع. أترين كيف تُضاء هذه المناطق؟» حدَّدت المناطق المختلفة - منطقة فيرنيكه ومنطقة بروكا واللحاء الحركي وغيرها - وشرحت وظيفتها.

- «هذه صورة لصبي يعاني خلل القراءة يؤدي المهمة عينها. وهنا صور للصبي نفسه الذي يعاني خلل القراءة وقد خضع لجيل سابق من العلاجات التي نقترح إخضاعك لها، إذا كنتِ مؤهَّلة وراغبة في ذلك».

رسمت كلماتها صورة بسيطة: فثمة أجزاء من مخي غير متصلة بالأجزاء الأخرى كما الحال في أمخاخ أغلب البشر.

وبيَّنت لي أن هناك وسيلة لإصلاح الأمر.

قال والدي: «هناك العديد والعديد من الأشخاص المبدعين الذين يعانون من خلل القراءة. ستيفن سبيلبرج...».

أنت! هكذا فكرتُ فجأة، وقد أدهشتني الكلمة حين برزت في رأسي، ثم تفهَّمت الحقيقة وكأنني وضعت قطعة أحجية في مكانها الصحيح. **أنت وأنا**، وربما **أليكس**.

- «خلل القراءة مصطلح جامع يصف طيفًا واسعًا من الإعاقات. تظهر اختبارات ميلودي أنها تملك كل أعراض خلل القراءة وخلل الحساب، ويمكننا تأكيد هذا التشخيص أو نفيه عن طريق الفحص بالرنين المغناطيسي. نحن الآن قادرون على أن نفتت هذه التحديات إلى صور أدق تحديدًا. إن القراءة تحدث في مناطق مختلفة من المخ، وإذا لم تكن هذه المناطق تترابط معًا، يكون من المتعذَّر القراءة. وحين تُفتَقَد المسارات بين هذه المناطق بصورة طبيعية، يكون من الممكن تنميتها عن طريق التدخلات الجينية والبيونانوية، إلى جانب التدريبات المباشرة. ومعًا، تبني العينان واليدان والمخ مسارات جديدة. ونتوقَّع أنه باستخدام تقنية أوبن سيتمكن العديد من الأشخاص الذين يعانون الآن من صعوبة القراءة، ومن إتقان مهارات المعالجة التي تنبثق منها القراءة. لا يوجد خطأ في هؤلاء الأشخاص، إنهم مختلفون وحسب. وإذا كانت معظم الأمخاخ مشابهة لمخ هذا الصبي لتمكنَّا جميعًا من التواصل بطرق مختلفة، وكنت سأصير أنا الشخص غير الطبيعي».

نظرتْ إلى والدي وقالت: «أعرف أن هذا الأمر يصعب تقبله، لكن الطريقة التي تعالج ابنتك بها المعلومات سوف تجعل من الصعب عليها أن تفعل ما

تريد فعله. ربما تطور استجابات وإستراتيجيات إبداعية، لكن لماذا نحرمها من فرصة التواصل مع بقية المجتمع؟ يمكنك العثور على مئات الأشخاص الرائعين والناجحين الذي يُفترض أنهم يعانون من خلل القراءة، لكنك لن تسمع عن مليارات الأشخاص الآخرين المصابين بخلل القراءة الذين يعجزون عن التغلب على مشكلاتهم رغم كل الطرق الإبداعية التي يتبعونها للتعامل معه».

قال والدي: «الأفراد المتنوعون عصبيًّا يقدمون إسهامات مهمة للبشرية. فكري في داروين، وليوناردو دا فينشي، وآينشتاين، وونستون ...».

كنت أنظر إلى صور الأمخاخ. يمكنني تبين الاختلاف. كان مخي يشبه صور ما «قبل» العلاج.

قاطعته قائلة: «أريد أن يترابط مخي».

صار والدي عصبيًّا وألح قائلًا: «أنت إنسانة مبدعة يا ميلودي، ربما عبقرية! لقد فُزتِ بجوائز فنية، ويمكنك الحصول على منحة دراسية. لا يجب أن تكوني مثل أي شخص آخر! يمكنك أن تكوني متفرِّدة!».

- «سأظل دومًا متفردة،» هكذا صرخت، رغم أنني لا أملك فكرة عن سبب إيماني بهذا. «الشيء الوحيد الذي سأخسره هو تعاستي!» نظر بحزن إليَّ. مِلت نحوه واحتضنته. «لا بأس يا والدي، لا بأس. أحب قدرتي على الرسم. وسأظل أرسم. أريد أن أتعلَّم القراءة أيضًا».

احتضنني بقوة وربَّت على ظهري. وسمعته يبتلع ريقه بصعوبة، وقال: «فلتفعليها إذن».

أومأت الدكتورة كامبل وقالت: «حسنٌ، على الوالدين أن يوافقا على هذا، وأريدكم جميعًا أن تعرفوا كل شيء يمكن معرفته. يؤسفني أن الأم لم تستطع المجيء».

- «كان عليها العمل. لقد أخذت يوم إجازة بالفعل».

- «سأتواصل معها وأناقش أي أسئلة قد تجول بخاطرها».

قال والدي: «لقد وافقَت بالفعل».

- «ومع هذا، أحتاج إلى التواصل معها. هذا أمر يهم الأسرة كلها».

كنت أستمتع بوجودي داخل جهاز التصوير بالرنين المغناطيسي الذي يرسم خريطة دماغية لي وللتغيرات التي تحدث بينما أؤدي المهام على مستوى دقيق للغاية. أنا آمنة: لا أحد بمقدوره التنمُّر عليَّ. يمكنني الاسترخاء بالكامل والرد على الأسئلة، وأنا أعلم أنه لن يحكم على أحد بقسوة بسبب إجاباتي الخاطئة. أجل، يواصل والدي إخباري بأن ثمة شيئًا خطأ، وأنني لا أحتاج إلى علاج، لذا غيرت الكلمة إلى «تحسين» وهذا جعله سعيدًا بشكل ما.

أحب الأصوات العميقة الخشنة التي يصدرها الجهاز، الإيقاعات المتنافرة، وقفات الصمت. إنها أشبه بالموسيقى في أذني. قمت ببعض الأبحاث عن كيفية عمل الجهاز وسبب إصداره هذه الأصوات، مستخدمة تسجيلات الفيديو، وأدركت التالي: سريعًا، حين يكون في وسعي القراءة، سأكون قادرة على استيعاب المعلومات على نحو أسرع بكثير مما أستطيع حين أستمع إلى حديث شخص ما. شعرت بالابتهاج!

بعد إجراء التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي - وهي التقنية التي أدرك أنها شديدة البدائية الآن - مررت بأجهزة أكثر تقدمًا لفحص مخي. وقد أذهلتني البيانات الصادرة عنها على شكل صور وأصوات ورسومات بيانية: إذ كنت انظر إلى نفسي. وقد استهدفت الفحوصات بدقة صعوبات التعلم ومسبباتها لديَّ.

عدت إلى المدرسة بينما عكف فريق دولي، مكوَّن من مجموعة متحمِّسة مشوقة من الأشخاص تقابل أفرادها على الإنترنت، على تجهيز علاجاتي. وأخبروني أنه في غضون وقت قصير ستجعل الدراسات الشبيهة بتلك التي أشارك بها في جعل هذه العملية فائقة السرعة. ويرى أحدهم أنه ستوجد أكشاك حول العالم يجري داخلها تقييم الناس وتقديم العلاجات لهم في غضون دقائق.

بعد مرور شهر استدعونا مجددًا ليعرفونا بالمعلومات التي جرى تجميعها. تقابلنا مع الدكتورة كامبل وبعض أفراد فريقها بصورة شخصية: متخصِّص في علوم الوراثة العصبية، ومتخصِّص في البيولوجيا النانوية، واثنان من المعلمين، كلهم ينتمون إلى مشروع «الطريق المفتوح». كان من المدهش مشاهدة كيفية انتقال المعلومات داخل مخي، ومشاهدة النموذج الذي ستنمو وفقه المسارات وتُقوَّى.

وبكل الإثارة والفخر أخذني الفريق في جولة داخل مختبر المرونة العصبية، المجهَّز بكل أنواع المعدات المُطوَّرة بشكل خاص والتي للغرابة بدت بسيطة - حروف كبيرة من الورق الرملي ملصقة على ألواح على سبيل المثال - لكن

ذكية. وحين تتبعت حرف الهاء، على سبيل المثال، كانت الكلمات تقول: «هاء كما في هواء، وهناء، وهزيم...» أذكر أن والدتي كانت تفعل أشياء كهذه منذ وقت طويل، وكما كان يحدث وقتها كانت التداعيات تتطاير من عقلي بمجرد أن أتوقف عن سماعها. وفي حجيرة مغلقة كانت توجد خرزات صغيرة ملونة مُجمعة تهدف إلى إيضاح عملية الضرب. كان بالسلسلة ذات الخرزات الخمس، على سبيل المثال، خمس مجموعات كل واحدة منها مكونة من خمس خرزات. كان هذا غريبًا. لم أكن أدرك معني كلمة «مربع» من قبل. ومجرد قدرتي على عمل مربع بيدي يجعلني أتفهمه. كانت هناك أيضًا أسهم صغيرة تحمل أعدادًا تنطق بأسمائها عند لمسها - 5 و10 و15 و20 و25 - لكني لم أستطع قراءتها.

طور المعلمون برنامجًا مُخصَّصًا من أجل كمبيوتر يشبه - بشكل ما - جهازًا تعويضيًا/محاكاة للمخ، ومنحوني إياه. كان هذا نظيرًا متنقلًا للمختبر المادي ويعرض صورًا ثلاثية الأبعاد يمكنني تحريكها باستخدام قفازات خاصة. وقد شاهدوني وأنا أستخدمه؛ فكنت أعد على سلسلة الخرزات ذات المربعات الخمسة وحين أقول «خمسة»، يتجسَّد العدد 5 إلى جوار الخرزة الخامسة. كنت أنسى شكلها ما إن تختفي الصورة، لكن كان الأمر ممتعًا.

كنت ألتقط أشياء - كرة، مكعب، شكلًا اثني عشري السطوح - وأفكِّكها بطرق متعدِّدة، وأعيد تجميعها، وألعب بها بأي طريقة أختار، وبينما أفعل هذا كانت المعلومات اللفظية والمكتوبة - على صورة معادلات عادة - تظهر في الهواء. كان بإمكاني تحريك تلك الأعداد أيضًا والانتقال السريع بين أنواع مختلفة من العمليات الرياضية التي تفسِّر، بطرقها المتنوِّعة، ما كنت أفعله وأراه.

تشاور الحضور في أحد الأركان، وهم يحنون رؤوسهم، ثم عادوا إليَّ وهم يبتسمون، وقالوا إنهم سيواصلون عملية التعديل. كانت الحماسة تملؤهم وكأنهم أطفال طلقاء في ملعب المدرسة، ويخيَّل إليك إنهم كانوا على وشك التقافز والتصفيق بأيديهم.

في صباح اليوم الذي كنت سأحصل فيه على الحقنة التي تحتوي على البوتات النانوية والمعلومات الوراثية التي ستمنحني مرونة عصبية مُعدلة لوقت محدود، استيقظتُ والعرق يغمرني. هل أريد حقًّا المرور بهذا الأمر؟ هل ستظل شخصيتي كما هي حقًّا؟ هل سأموت؟ أخبروني أن الإصابة بسرطان الدم جرَّاء العلاجات الجينية صار ضربًا من الماضي، لكنهم ليسوا أبطالًا خارقين، بل هم محض بشر. هل سيفشل الأمر ويصير حالي أسوأ؟

ربما كان أشجع أفعالي، وأغباها في الوقت عينه، على الإطلاق هو ركوبي السيارة مع والدي. في طريقنا إلى المعاهد القومية للصحة استمعنا إلى حديث تحفيزي من صبي من بروكسل وفتاة من أمستردام وفتاة أخرى من ليبيا كلهم أخذوا الحقنة نفسها. كانت الغبطة تملؤهم جميعًا. طلبت معرفة التقارير السلبية كذلك، ومن ثم استمعت إلى فتاة من ريو تقول إن العلاج لم يفعل شيئًا، وإلى والدين أرجعا إصابة طفلهما بتقلصات لا إرادية بالوجه إلى هذا العلاج. كان والدي يمسك بيدي طوال الوقت وهو يقود السيارة. وأخبرني على نحو متكرِّر أن بوسعي تغيير رأيي.

دخلنا حجرة صغيرة ومسحت د. كامبل موضع الحَقْنِ في ذراعي بالكحول، بينما كانت تحدِّثني طوال الوقت بصوت خفيض مُطَمْئِن: «في المستقبل القريب سيكون من الممكن شُرب العلاج. إننا نعمل على عملية إعادة ضبط من شأنها استعادة البيئة العقلية السابقة لو فضَّل العميل ذلك. إن بعض العميان الذين يستعيدون الرؤية أو الصُّم الذين يكتسبون القدرة على السمع يجدون صعوبة في تعلم كيفية معالجة المعلومات الجديدة ومن ثم يكونون غير سعداء. نريد أن نجعل كل شيء يسير في سلاسة من أجلك».

- «العلم». هكذا غمغم والدي بينما تنغرس الحقنة في ذراعي.

كانت هذه الحقنة مرتفعة الثمن للغاية، لدرجة أن قلة قليلة من البشر حول العالم هم من يستطيعون تحمل تكلفتها، وكانت ثورية للغاية لدرجة أن استخدام المزيج المُفصَّل فرديًّا يعد أمرًا غير قانوني في معظم دول العالم، ومثيرًا للجدل لدرجة أنه خُصِّص لي تأمين كامل على مدار الساعة، وهو الأمر الذي أغضب شقيقيَّ خصوصًا اللذين توقَّفت أنشطتهما المريبة بغتة، كما علمت لاحقًا.

قالت د. كامبل: «والآن، أريدك أن تقابلي جليندا. لقد تلقَّت الحقنة منذ بضعة أسابيع. سوف تكون موجِّهتك». ثم أدخلتني المختبر.

ربما كنت أتخيَّل وحسب، ولكن كل شيء بدا أشد سطوعًا، وأدق تحديدًا. قلت: «أشعر بقليل من الغثيان». فجلبت لي د. كامبل مشروب الجنزبيل وبعض رقائق البسكويت. وبينما كنت أفتح العبوة ظهرت فتاة أميركية من أصل أفريقي أمام ناظري.

- «مرحبًا، أنا جليندا».

ثم مدَّت يدها، فصافحتُها وقلت: «سعيدة بلقائك. أنا ميلودي».

كانت عيناها مبتهجتين بينما ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها، قالت: «حسنًا! لقد تلقيت حقنتي منذ شهر مضى، وسأكون مرشدتك هنا. أجل، لقد شعرت بالدوار ساعة أو نحو ذلك. أتريدين الاستلقاء؟».

أنهيت البسكويت وقلت: «كلا، أنا بخير. ماذا لدينا إذن؟».

- «أأنتِ عسراء؟».

أومأت بالإيجاب.

- «حسنًا، أحضري قفازيك ودعينا نبدأ». ثم لاحظت أني كنت أحدِّق في ضفائرها الطويلة.

- «خرزات جميلة».

- «تراجعي». هكذا قالت ثم هزَّت رأسها. دارت ضفائرها، وأصدرت الخرزات صوتًا شبه موسيقي بفضل ارتطامها. «أستخدم الشعر كسلاح. حين يُضرب أحدهم بالخرزات في وجهه، لا يضايقني بعدها مجدَّدًا. حسنًا، كل هذه التدريبات تبدو بسيطة، لكنك تعلمين أنها صعبة. إن اللغة الإنجليزية تافهة؛ فهي خالية من المنطق تمامًا. حسنًا، أحيانًا تكون منطقية، لكن هذا يخدعك بالاعتقاد بأنها منطقية على الدوام. عليكِ فقط أن تتعلَّمي مجموعة كاملة من القواعد، وأحيانًا فقط الطريقة التي تبدو عليها مجموعة من الكلمات. الأمر أيسر كثيرًا في اللغات الصوتية، كالإيطالية. أنتِ لستِ غبية، بل اللغة الإنجليزية هي الغبية. ما الذي تفعلينه؟».

أعرف على الفور إلام ترمين، أجبتها: «أرسم».

- «أنا أعزف الساكسفون. والآن يمكنني بالفعل قراءة النوتة الموسيقية! لقد تعلَّمت العزف عن طريق الاستماع، لكنني الآن أجيد الحفظ - تعرفين ما أعني - وعجبًا! الآن يمكنني عزف ما أراه على النوتة. وحين أرى نوتة موسيقية، أسمع الموسيقى في رأسي. الأمر أشبه بالسحر».

أخبرتني أن أول ما عليَّ فعله هو أن أصل كل حرف بصوتٍ وبحركة. «إن إصدار الحركة بيديكِ أو أصابعك يثبِّتها داخل مخك». وضحكت مضيفة: «لا يعني هذا أن هناك أسلاكًا داخل مخك».

- «الأمر أقرب شبهًا بالعروض الضوئية».

بل كنَّا ننام داخل المختبر - إذ كان يحوي غرف نوم صغيرة مريحة - حتى لا نفوت لحظة واحدة من وقتنا التنموي المُحسَّن.

كان طلاب الدراسات العليا يتوافدون علينا، يسجلون ملاحظات ويصورِّون لقطات فيديو. كان كل ما أفعله مُسجَّلًا بواسطة قلنسوة خفيفة مزوَّدة بمستشعرات كنت أرتديها، بعد اليوم الأول لم أعد ألحظ وجودها. إن القدرة على التركيز لهي تغيُّر كبير، لدرجة أن كل المشتِّتات اختفت. كنت أصعد تلًّا منحدرًا عاصفًا، وكنت آخذة في الابتعاد عن نقطة البداية.

كنت أحلم بالأشياء التي كنت أتعلَّمها - الأصوات والصور - وأحيانًا كنت أستيقظ ليلًا وأتذكَّر أين أنا، ثم أهرع من فراشي وأستأنف عملي من حيث توقَّفت. بدأت أفك طلاسم الحروف، لأنها تظل راسخة في عقلي، وكذلك لأنني كنت أقوم بالكثير من عمليات الرسم بأصابعي والكتابة البسيطة للأصوات على الورق. كنت أقول: «سسسسس» بينما أرسم حرف s متعرِّج على خط متقطع. توجد مجموعة من الحروف في صندوق مجزَّأ، وحين كنت ألتقط أحدها كان يصدر الصوت «ممممم» وأبدأ باللعب بها، لا توجد كلمة أخرى تصف ما أفعله، فهو ليس عملًا، وسريعًا ما كنت أجمِّع الكلمات التي تُغنَّى لي؛ بسرعة! الأمر جنوني. كنت أؤدي أنشطة يؤديها الأطفال في مرحلة الروضة بينما أنا في الثالثة عشر من عمري، لكني كنت أستمتع بالأمر أيما استمتاع.

كنت أضحك وأصيح طوال اليوم، وبعد أسبوعين من العمل المتصل أضاءت الأنوار. «قطة! شمس! ذهبنا إلى الحديقة!».

كانت جليندا تجلس متربِّعة على الأرض، وهي تمسك أوراق اللعب، وتلقيها في الهواء. كنا نتقافز ونتعانق ونصيح ونصرخ.

توالى مرور الأيام. كنا نلعب ألعاب الورق والكونكان والسكرابل، وغير ذلك من الألعاب التي لم يكن بمقدوري من قبل قط أن ألعبها. كنا أشبه بأسرة كبيرة، إذ كان عددنا يبلغ نحو اثني عشر طفلًا، كلنا تلقينا الحقنة نفسها. كنت أشعر أنني ظللت نائمة طوال حياتي وأنني مستيقظة الآن. ثمة عالم جديد من حولي؛ عالم يمكنني المشاركة فيه وتغييره. كنت أقرأ كل ما يمكنني قراءته بصوت مرتفع، ثم كانت الكلمات تمكث في رأسي، صامتة، تمنحني صورًا ومشاعر ومعلومات. وبفضل البوتات الموجودة في مخي، التي تنقل المعلومات إلى شاشة، كنت أستطيع رؤية أن حل أحجية ما يطلق شلالًا من المواد الكيميائية الباعثة على السعادة. يمكنني سماع أسماء المواد الكيميائية،

بل ومشاهدة تمثيل إحصائي للكيفية التي تتغيَّر بها الخلايا العصبية. المذهل في الأمر هو أن هذه الأشياء الدقيقة للغاية هي التي أيقظتني من سباتي.

على مدار الأسابيع التالية امتلأ المختبر - وهي كلمة جافة تصف لبيئة التعلم الدافئة الودود بما فيها من وسائد وكتب وألوان ساطعة وأشخاص موهوبين ودودين، بالغين وأطفال - بأطفال آخرين تلقوا الحقنة نفسها، وكان من المثير للغاية أن أجد في نفسي القدرة على مساعدتهم. كانت أمي وأبي يزوراني كل بضعة أيام، وكانا يسعدان، كلٌّ بطريقته، حين يرياني سعيدة، حتى أبي. لقد انزاح همٌّ ثقيل من على صدري؛ ولم أكن أعرف أن عجزي عن إسعادهما كان جزءًا بهذه الأهمية من حياتي.

وسريعًا ما حان وقت العودة إلى العالم الواقعي، من أجل معاودة الاندماج في مدرستي.

كان من المفترض أن أكون «المريض A4957»، سرًّا محاطًا بتكتُّم شديد، قطعة من البيانات، شأني شأن جليندا والأطفال الآخرين في المختبر. شأن الأطفال الآخرين حول العالم. لم يكن مسموحًا لي بإجراء مقابلات.

لكن شخصًا ما سرَّب الأخبار.

كنت معزولة تمامًا عن العالم الخارجي في المعاهد القومية للصحة، وحذَّرتني د. كامبل من الأمر وقالت لي إنه من الملائم تمامًا أن أرد على أي سؤال بالجواب: «لا تعليق». أخذتني سيارة ليموزين سوداء من المدخل الخلفي، لكني استطعت أن ألمح بعض المحتجين أمام البوابة الأمامية للمعاهد. كان شقيقاي يقيمان طوال الأسبوع الماضي في أحد الفنادق، وهو ما أسعدهما كثيرًا. وللأسف لم يكونا متحفِّظين بشأن عقد المقابلات الصحفية، ولم يكن باستطاعة أبي وأمي أن يكونا معهما طوال الوقت.

- «هذا جنون». هكذا قال أليكس وهو ينظر من نافذة الفندق. «هناك أشخاص يخافون من تعلُّمك القراءة!».

قال والدي: «إنهم يخافون أن يُفرَض هذا الأمر قسرًا عليهم وعلى أطفالهم».

- «لكن ما دام ناجحًا، ما المشكلة؟».

- «ماذا لو نجح اليوم ثم فشل غدًا؟ ماذا لو كان له آثار جانبية مريعة لا نعلم بشأنها الآن؟ ما الذي قد يحدث حين يكتسب الأشخاص الذين حُرموا من

التعليم بسبب جنسهم أو عرقهم أو طبقتهم الاجتماعية المعرفة بالعالم، والعلوم، والتاريخ، والكيفية التي يعيش بها غيرهم من البشر؟ ما الذي سيحدث للطريقة التي تسير بها الأمور لو تغيَّر تفكير عدد كبير من الأشخاص؟».

سألته: «ألا يدرك الجميع ذلك بالفعل؟ لدينا أجهزة تلفاز. ولدينا الإنترنت».

قال أليكس: «كما تعلمين، كلاهما خاضع للرقابة».

قال جيك: «ولا يمتلكهما الجميع بصوة متساوية. لقد سمعت ذلك في مكان ما».

حدَّقت من النافذة. كنَّا في الطابق الرابع، وحين لمحني الحشد ارتفعت اللافتات في الهواء. قلت: «أبي، يمكنني قراءة اللافتات الآن! يمكنني قراءة اللافتات!» ثم شرعت في التقافز في أرجاء الغرفة. «كما يمكنني قراءة الكلمات المعقَّدة!» كنت قد قرأت قوائم من الكلمات وتعريفاتها واستخداماتها، منبهرة بمدى عمق مهاراتي اللغوية وتعقيدها. كنا أعرف بالفعل من الكلمات أكثر كثيرًا مما يعرف أغلب الأطفال في سني، لأنني عملت بجد شديد في استظهارها على مدار سنوات عديدة.

سألني جيك: «مثل ماذا؟».

- «مثل ...» ونظرت من النافذة ورأيت امرأة ذات شعر أسود طويل تلوح بلافتة في تجهم. «مثل تعبير «نذير الشؤم» على سبيل المثال».

- «حقًّا؟ وماذا يعني هذا؟».

- «كيانٌ يحمل إشارة للمستقبل». هكذا قلت في اعتداد.

- «أجل، صحيح». لكن بدا عليه الانبهار رغم محاولة عدم إظهار هذا.

كنت أتطلَّع إلى رؤية غرفتي مجدَّدًا، وكنَّا جميعًا نشعر أننا داخل سجن. لكن لم يبدُ أن باستطاعتنا المغادرة بعد، إذ لم يكن المنزل آمنًا بعد. سألتني أمي إن كنت أريد العودة إلى المدرسة، فأجبتها «نعم» ومنعت نفسي بمشقة من أن أضيف قائلة «بحق الجحيم». لكنني أرغب في هذا بحق، أرغب في هذا بحق الجحيم.

في اليوم التالي تتبع مصورو الفضائح (الباباراتزي) السيارة السوداء التي نقلتني إلى المدرسة. كنت أشعر أنني داخل فيلم رديء. كانوا يعاملونني كما لو كنت قنبلة، إذ أُخليت الشوارع على مسافة مربعين سكنيين. فتح حراسي الشخصيون لي طريقًا كي أدلف إلى المبنى، وكان الأمر مزعجًا بحق. لم يكن بمقدوري التركيز والتباهي بقدراتي كما كنت أنتوي، وإن كنت تمكنتُ من حل بضع مسائل في الرياضيات وتجاوز شاشة «الرياضيات للأغبياء». سمعت أن مدير المدرسة تلقَّى بعض التهديدات بالقتل، بيد أنه رفض أن يرسلني إلى المنزل.

كان الأمر كله مقلقًا بشدة، لذا أخبرت حرَّاسي وقت الغداء أنني أريد عقد مقابلة. ربما من شأن هذا أن يبعدهم عني.

اخترت مكانًا في مقدمة المدرسة، في الموضع الذي كنت أتخيَّل فيه أنني ضربت الصبي المتنمِّر في منفرجه.

- «ما شعوركِ حيال التجربة؟».

صاح أحد أفراد الحشد: «وكأنَّكِ فأر تجارب».

قلت في الميكروفون: «شعور عظيم. آمل أن تساعد أطفالًا آخرين مثلي».

- «ما شعوركِ حيال كونكِ أولى الخاضعين لهذه التجربة؟» كان هذا سؤالًا صعبًا. هل عليَّ أن أفضح أمر الأطفال الآخرين الذين أعلم بشأنهم أمام هؤلاء الضباع؟ قلت أخيرًا: «أعتقد أن الجميع يعلم أنني لست الأولى، وأتمنَّى أن تدعنني وشأني كي أواصل حياتي».

- «اقرئي هذا». ثم دسَّت المرأة ذات الشعر الأسود الطويل ورقة مدوَّنًا عليها بعض الكتابة في يدي. كانت الكتابة واضحة تمام الوضوح: «أنا نذير شؤم لما سيحل بنا من تغيير قاتل». لا بد أن هذه كلماتهم. رفعت يدي أمام الكاميرات، تنتابني الإثارة لمعرفتي أنني أحمل بطاقة رابحة. ثم كورت الورقة وألقيتها على الأرض.

- «بل أنا بشير. بشير بالمعرفة المجانية لملايين البشر، في كل أنحاء العالم. إنه تغيير ثوريّ. إنه تغيير يماثل في ثوريته لقاح شلل الأطفال، ولقاح الجدري، لكن هذه المرة سيتحرَّر البشر من مرض الأمية. أشكركم، هذا كل شيء».

في اليوم التالي كان مكتوبًا على إحدى اللافتات «الأمية ليست مرضًا». ولم تظهر في الأخبار سوى هذه اللافتة المكتوب عليها «الأمية ليست مرضًا».

داخل المحاكاة عدت مجددًا إلى شخصيتي الحقيقية: آليا. تقلَّبت قصة ميلودي في تيار من الصور والسرد والموسيقى والقصائد كان يدخل عقلي بإيقاع معين. وما إن كنت أميِّز نمطًا ما حتى كان هذا النمط يتبدَّل، وشعرت وكأنني شكل مجرَّد، وكأن قطعة موسيقى كبيرة تلتمع بالألوان والشدة والعاطفة تطبق على صدري أو تجعلني أنضم للآخرين، على نحو وجيز، في أغنية جديدة غريبة.

مسيرة طويلة. ذباب. لمسة من سائل دبق في عيني، لا أمسحها! تصيح زهرة طلبًا للطعام. بحر من الخيام الطويلة البيضاء. جنود يحملون حلوى. مبشِّرون، حساء عدس. اهتمي بشؤونك، الآن. المياه دافئة وموحلة. حشد من الشاحنات البعيدة.

يمر بي جمْع من الأطفال. حلوى، حلوى، حلوى!

تنفتح الأبواب الخلفية للشاحنات، ومنها يخرج بشر وطاولات وصناديق وكراسٍ. يصيح حكيم صيني: «طابور إنجليزي! مشروب النيهي البارد! تناولوا قدحًا!».

دفعت الواقفين إلى أن وصلت للمقدمة، لسعة سريعة قوية، باردة! شراب النيهي الغازي بطعم البرتقال.

أسفل إحدى الأشجار كانت هناك خطوط ودوائر عشوائية ملصقة على لوح من الورق المقوَّى. جربت نزعها. سبقتني أيد كبيرة. ثثثث ثثثث لكلمة ثعبان! ششششمس! سسسسسسفيه، ققققققريبًا، سسسسسخيفًا! نضحك جميعنا. تحاول استعادة البطاقة مني: كلا! كلا! كلا! إنها ملكي! تقايضها ببطاقة مكتوب عليها تتتتت لكلمة تفاح، قطططططة، وسعيييييييدة. بعد ذلك ووو! ووو! ووو! كبداية كلمة وقت أو وردة أو وشاح!

يقترب الجنود وهم يصيحون، ثم يغادرون. نغني أغاني خفيفة. أشعر بالإثارة الشديدة.

يتراقص شبح رؤوس تتمايل داخل نفق ما. ثم يظهر ضوء أمامي: ويظهر جنود يضربون أشخاصًا ويطرحونهم أرضًا، يهب الشباب وقوفًا ويدفعونهم صائحين: «دعونا! نقرأ! دعونا! نقرأ!».

انعقدت مقابلة على طاولة مضاءة جيدًا، اجتمع عليها الحاضرون بوجوه جادة، بينما غرق كل شيء آخر في ظلال كثيفة.

- «أظهرت الأبحاث على نحو حاسم أن الأمخاخ الطبيعية لا يصيبها تلف، كما زعم كثيرون أن هذا سيحدث، بسبب استخدام تقنية «أوبن». فهي تسرِّع عملية تعلم القراءة للجميع».

- «لكن الناس يريدون هذا لأطفالهم الصغار».

- «ليس مُحبَّذًا استخدامها حتى سن الرابعة، لكنها لن تضرهم. إنها لا تسرِّع العمليات النمائية الأساسية الطبيعية. وحين تحدث مراحل المرونة الطبيعية في وقتها، تكون استجابة الأطفال في شكلها الأمثل».

مال المحاور إلى الأمام وقال: «إذن من الممكن أن يكونوا أذكى من الأطفال الذين لا يستخدمونها».

- «هذا أمر محتمل».

- «وهذا قد يقودنا إلى مجتمع منقسم إلى قسمين».

- «لو كان استخدامها محدودًا، بطبيعة الحال. ولهذا السبب تعمل مجموعات عديدة على منع هذا من الحدوث».

- «لكن هذا أمر مكلِّف».

هزَّت المرأة رأسها وقالت: «كان مكلفًا في البداية، لكن المختبرات المتقدِّمة وأجهزة الكمبيوتر التي استخدمناها من قبل صارت لا لزوم لها بشكل متزايد، بفضل زيادة عدد الموجِّهين. إنهم يعرفون كيف يخلقون أدوات تعلم من البيئة، أدوات رخيصة وبسيطة لرجة تبعث على الضحك، والشعور بالأسف. استخدام حبات الفول في العد. والجلوس إلى جوار شخص ومساعدته على نطق الكلمات. أغلب الناس الذين تلقوا الحقنة، أو المصل، سعداء للغاية، لأنه ستتاح لهم فرصة رد الجميل عن طريق استقطاع الوقت لتوجيه الغير».

تحوَّل المحاور إلى رجل يرتدي حلة من الصوف الخشن وقال: «د.إلتور، النظام التعليمي يشهد تغيرًا عظيمًا، أليس كذلك؟».

- «بالتأكيد. الأمر يبدو وكأننا كنَّا نسفِّه من شأن عدد كبير للغاية من الأطفال، استنادًا إلى نماذج عتيقة ربما كانت تحقِّق نجاحًا في مجتمعات أصغر وأكثر تقاربًا، أو نماذج حقَّقت نجاحًا في عملية إضفاء التجانس على العمالة المهاجرة المستهدف تسخيرها لعمل المصانع في بدايات القرن العشرين. إن قدرة نسبة جيدة من الأطفال على النجاح في المدارس عتيقة الطراز، استخدمت كبرهان على أن هذه هي الوسيلة المثلى التي يتعلَّم بها الأطفال، لأنه افتُرض أن نسبة معينة من الأطفال كانت غير قادرة على إتقان ما كنَّا نريد منهم أن يتعلَّموه. لكن من خلال التحرُّر من إطار العمل ذاك، وباستخدام المعلومات الجديدة من مجال علم الأعصاب حول الكيفية التي يحدث بها التعلُّم فعليًّا، وباستخدام أدوات التعلُّم الحاسوبية المتاحة عالميًّا، صار الأطفال يتعلَّمون بقدر أكبر وأسرع بكثير لدرجة أنه يبدو أنهم جميعًا عباقرة بالمقارنة بالأطفال منذ خمسة أعوام.

لقد تسبَّب الأمر في ثورة اجتماعية حقيقية في العديد من القطاعات. كل شيء سيتأثَّر: العمل والتجارة والهياكل السياسية والعلوم والفنون والدين، كل شيء. إن المعرفة الشاملة ربما تبدو تغيُّرًا بسيطًا، لكن مُلاك العبيد الأميركيين كانوا مدركين أن قوة القراءة لن تؤدِّي إلى نتائج بسيطة».

علَّق المحاور قائلًا: «الأمر غير بسيط إطلاقًا. سوف أتحوَّل إلى خبير قانوني. هل يمكنك مساعدتي في فهم الأمر الصادر بالأمس عن الأمم المتحدة، والذي يدعو الحكومات جميعها إلى دعم توزيع تقنية «أوبن» على جميع الأطفال حول العالم؟».

- «في الواقع...».

تعلُّم القراءة: مقتطفات يقرؤها عدد من الأشخاص متبايني الأعراق - فتيات، فتيان، نساء، رجال - ترجمتها المحاكاة: كيف تبدو

اللغة في يدي: حادة

ملتوية

وكأنني أشق قوس قزح

بعقلي.

تبرز ممرات

أسير فيها
كما لو كنت أشد حبلًا،
أجذب نفسي
يدًا تلو الأخرى.
لسان خشن يلعق مخي،
تتداعى الرؤى، وتعاود التشكل.
وما إن عدت صغيرة، حتى ركبت الموجة
موجة صارت ضخمة
بفعل كلمة.
لقد جعلتني شخصًا آخر
جعلتني الماضي
جعلتني المستقبل
أنا الغريبة
يسيرون بجواري في الشارع،
أنا القطة
النائمة عند قدمي.
أشرطة متراقصة من الكلمات المضيئة،
بداخلي.
لا أحد غيري يسمع
حين أسمع

كل خاطرة

خاصة للغاية

ومع ذلك عامة تمامًا.

أقرأ خطابات جدتي.

إنها ميتة

لكن صوتها يتحدث إليَّ

كما لو كانت حية. يتردد صوتها في عقلي،

تجلس إلى جواري

في ظهيرة ذلك الصيف في القاهرة.

تتقافز الكلمات في عقلي وكأنها غزلان برية،

وترسم مسارًا ساطعًا بارزًا في الهواء.

يسطع المعنى كضوء الشمس: أعرف القصة.

حين ذهبت والدتي للاحتجاج في كابول،

كانت ترتدي برقعًا أزرق فاقعًا.

لكنها لم تعد.

ينتقل الفيديو إلى موقع يوتيوب: الأوشحة ذات ملايين الألوان

لنساء يغنين في الشوارع

يسقط الضوء عليهن

وكأنهن قمة وراء قمة

من قمم الجبال

الشفافة مع شروق الشمس

إنها الأفكار! إنها الأفكار! إنها الأفكار!

أقرأ روايتي الأولى: لا أكاد أنتهي منها

حتى أدعها تسقط

وأتحرك مذهولة

خلال يومي المختلف

حيث يبدو كل شيء ساكنًا وجديدًا

كنت أشبه بفرسة حمراء

والشمس داخل قلبي

أجري في أرجاء الغابة

في شمال ميشيجان

وبوسعي أن أكتب الكلمات للأطفال الآخرين

كي يكونوا تلك الفرسة

كي يكونوا ذلك اليوم.

كانت القراءة مثل امرأة غريبة

جاءت إلى البلدة ومكثت بها.

يقول البعض إنها امرأة خطيرة،

لكن هذا بدا غير محتمل.

كانت تعمل في جدٍّ حيثما كان أحد يحتاجها.

كانت تساعد الأطفال في الطهو، وصنع صفحات الويب، وتنظيم معارض البيع،

تنظيم الانتقالات بالسيارات، جمع الأشخاص ذوي العقليات المتشابهة معًا

وسريعًا لم يعد بمقدورنا العيش من دونها

وبعد عام بدأت عملها الخاص.

والآن صارت تملك البلدة.

تعلمت أصوات الكلام: تبرز الحروف، بألوانها الساطعة

مرحلة عابرة، هذا ما يقولونه لي.

تتقلب وتنعكس، ويتابعها عقلي

وسريعًا ما تستقر، في وضع طبيعي.

لكنني الآن أعرف ذاتها القديمة

التي تضرب بجذورها عبر الزمن.

لقد كانت يومًا ما أشياءً، قبل أن تتحول إلى أصوات

ثم تغيرت الأصوات إلى أسطر

واقفة على أقدامها، وتسير عبر الزمن،

ذات قدرة هائلة

اكتسبت ألوانًا معروفة

وتسكن في عقولنا.

تسير حشود البشر في شارع ويلسون، ويهتفون «أوبن، أوبن» في صوت هادر. ومكتوب على لافتاتهم «المعرفة الثورية حقٌّ للجميع».

تنتقل الكاميرا إلى الأصوات المعارضة: «احظروا العبث بالأمخاخ». «حافظوا على حرية أطفالنا».

يتردَّد صوت خفيض بين هذه الصور المتعاقبة، أشبه بالصوت الذي يصنعه غدير متدفِّق وأنت تستمع إليه من دون تفكير: ما الذي يعنيه، ما الذي يعنيه، ما الذي يعنيه أن يكون الشخص بشرًا؟

أنريد أن نكون بشرًا، أم لا؟

أكتشف وظيفة بحث داخل المحاكاة وأتتبَّع خط سير حياة ميلودي.

أستمع إلى صوت ميلودي وهي فتاة في العشرين، يتردَّد على نحو خفيض في أذني، بينما وجهها المشرق يظهر أعلى منصة وهي تقول: «كل الكلمات الخاصة بالتواصل والارتباط والاتحاد، لا ندركها نحن الأطفال» - يلي ذلك ضحكة مرحة - «أعلم أنني راشدة الآن، لكنني حين اخترت هذا المسار كنت طفلة، وصرت جزءًا من شبكة صارت أصغر عمرًا يومًا بعد يوم، بينما صار أطفال أكثر وأكثر - عددهم نحو مليار الآن - يقرؤون بطلاقة وفهم، قبل سن السابعة، لأن عددًا غير مسبوق على مر التاريخ من الأطفال صار قادرًا على القراءة. نحن كذلك ننتج كتاباتنا الأدبية الخاصة، ونتبادلها، ونتعرَّف على الثقافات الأخرى ونعرف كيف أن بعض المشكلات عالمية بطبيعتها. وتمامًا مثلما توجد «فترة حسَّاسة» لغرس مهارات اللغة، تحاكيها تقنية «أوبن»، نحن في سبيلنا لأن نجد أنه قد تكون هناك «فترة حسَّاسة» أيضًا لغرس إطار العمل الأخلاقي والمعنوي لدى الشخص وتعزيزه. فحين يُختار الولاء بكل حرية، بناء على قرارات واعية، نجد أنها عملية سلسة وديناميكية. لكن حين يكون الولاء نابعًا من الخوف، كما الحال في الأنظمة القمعية، فإنه يكون مضرًّا بشكل بالغ. إننا نتعلَّم نوعية القوى والمهارات التي نحتاجها من أجل تحديد الفارق بين الأمرين من أجل صالحنا الخاص، وذلك حتى نستطيع اتخاذ قرارات إيجابية بشأن التزاماتنا ونحن في سبيلنا للنضج. ربما أجد أنني مخطئة حين يتقدَّم بي العمر، لكن من واقع خبرتي الشخصية فقد وجدت أن غالبية الأطفال الصغار مثاليون. إن بمقدورهم التفرقة بين الخير والشر، وفي الغالب هم يميلون إلى محاكاة الخير، وأن يحسنوا التعامل مع البشر. لكن حين نكون أطفالًا نكون مسلوبي القوة، وبسبب مرونتنا الفائقة فإننا نحاكي سلوكيات من حولنا ونعكس مشاعرهم. ولهذا، حتى في الأسر التي قد تتوقَّع فيها أن تجد نتائج سعيدة، تكون التعاسة وما تنتج عنها من سلوكيات بغيضة أمرًا واقعًا. ربما تكون المناطق الرمادية في السلوك البشري - الكذب والغش والسرقة - وبالتأكيد المناطق السوداء من المرض النفسي، ربما تكون انحرافًا عن

الطبيعي وأنها في الواقع أمراض واعتلالات يمكن علاجها من خلال التطبيق الملائم لتقنية «أوبن» ومن خلال خبرات التعاطف المثالية، بحيث يصير من شبه المستحيل بدنيًّا إيذاء الغير أو مشاهدتهم يتعرَّضون لأذى دون الشعور بالندم أو الشفقة أو الأسف. وبغض النظر عما تبدو عليه هذه الفكرة من سذاجة، فإن أغلب الأطفال يؤمنون أن العالم المثالي أمر ممكن، إذ يؤمن كل طفل بأن والديه سيحب أحدهما الآخر من جديد ويتزوجان ثانية، على سبيل المثال. فعلى العكس من الأطفال في السابق، لدينا قوة جديدة. وبفضل القوة الخفية للمعرفة يمكننا أن نضع أنفسنا في مكان الآخرين. لا يمكننا منع أنفسنا من ذلك. فنحن نشعر بقوة الغضب عميقًا في داخلنا، ونشعر بكرب الظلم. إن بمقدورنا أن نسعد على نحو منفرد أو داخل الجماعة التي ننتمي إليها دون أن نكون مضطرين إلى التخلص من الآخرين. فلقد صارت متعة المعرفة والحياة إدمانًا لدينا لدرجة أنه لم يعد لدينا وقت للتفكير في تدمير الآخرين.

إن الغريزة الدينية، متجسِّدة في أسمى صورها، تبنِي كاتدرائيات عظيمة وتحفِّز الناس كي يكونوا متعاطفين، وأن يساعدوا الغير، وألا يسبِّبوا الأذى. لكن في أسوأ صورها تتسبَّب هذه الغريزة في فصل حادٍّ بين طبقات البشر، بين أولئك الذين في موضع السلطة، الذين يستطيعون إيذاء الغير والإفلات بذلك، وبين من لا يملكون السلطة، الذين عليهم الخضوع للغير أو التعرُّض للإيذاء أو النبذ أو حتى القتل. هذا هو تاريخ الأديان جميعها في كل الأزمنة. وفي أي منتسب جديد للأديان تُرسَّخ مسارات للتفكير داخل العقل يُزعم، في بعض الحالات، أنها تجنبه الحاجة إلى التفكير العميق في القضايا الأخلاقية المعقَّدة. ولقد شهدنا فرار الناس من الجماعات الدينية بفضل استخدام تقنية «أوبن»، كما رأينا إنشاء جماعات جديدة بفضلها أيضًا. يحتاج المرء إلى العون وإلى القوة كي يغادر جماعة دينية، توجد داخلها كل علاقاته المهمة، كي يبحث عن حياة صحية أكثر. ليس بمقدور أحد أن يتنبَّأ بالتأثير الذي ستخلفه تقنية «أوبن» على الدين، وإن كان من المثير أن نجرِّب هذا.

بطبيعة الحال هذه القضايا أكثر تعقيدًا بكثير مما يستطيع أي شخص بمفرده استيعابه. لقد اقترحت مختلف الأنظمة والفلسفات - مثل الأديان والأطروحات الاقتصادية وأطر العمل القانونية والحكومية والعلمية - كلها اقترحت علاجات للبلايا التي تعاني منها البشرية. بل زعم البعض أن الطبيعة البشرية ملومة هي نفسها، وأننا لا يمكننا تغيير أسوأ ما في البشر من دون فقدان أفضل ما فيهم على حدٍّ سواء.

أرى أن هذا النهج أجوف ومفلس من الناحية الأخلاقية. فحين ننظر حولنا ونصير على وعي بالمعاناة البشرية، سيتعيَّن علينا جميعًا التفكير في أفضل

كيفية يمكننا بها تحسين الأحوال. وربما من شأن الطرق الجديدة لإدارة الموارد أن تنهي كل الحروب. لا أدري.

لكنني أعرف يقينًا أن المعرفة العالمية، بصرف النظر عن الطريقة الثورية التي ستتحقَّق بها، ستكون جزءًا من الحل».

صفق الجمهور استحسانًا، واقتربت امرأة من الجانب الأيمن للمنصة وهي تبتسم.

لقد صار عالمنا عالمًا جديدًا على حين غرة.

تلقى شقيقاي الحقنة وصارا، لدهشتي، شخصين رائعين.

تداعت الأصوات والصور والكلمات أمام عيني، وشعرت بمشاعر حية وقوية، ثم توقف صوت ميلودي وصورها.

لقد عدتُ آليا مجددًا، وأعادني تدفق الماء المالح، واندفاع الرياح، وهدير الأمواج إلى عالمي مرة أخرى.

فتحت عيني. أصابني مشهد السماء الزرقاء والشاطئ قليل الرواد والصيحات المتقطِّعة للأطفال على الشاطئ أسفل مني بالدهشة، تمامًا كما تتوقف عن الحركة فجأة وتشعر بالعالم يدور من حولك (لقد أخذتني المحاكاة حول العالم، إلى حجرات الدراسة، وانتقلت عبر التاريخ بسرعة مذهلة).

- «هل ما زلت ترسمين؟».

بدت ميلودي مندهشة. استغرقت لحظة كي تجيب، وكان صوتها بطيئًا وحنونًا. «لقد توقَّفت عن الرسم منذ بضعة سنوات. كنت منشغلة للغاية، وسعيدة للغاية. أعتقد أن الرسم كان ينبع من الغضب. كنت أرسم من حين لآخر على مدار سنوات، على نحو متقطِّع. لكن صار الأمر مختلفًا، وأعتقد أن والدي كان حزينًا دائمًا لهذا؛ فقد ظن أنني فقدت عبقريتي. لقد فقدت غضبي بالتأكيد، وكان هذا الغضب ما يحفِّزني على الرسم، في ذلك الوقت. لم تكن لديَّ حينها طريقة أخرى للتعبير عن نفسي. إن الطرق المغلقة تحفِّز الإبداع. لكنني وجدت تحديات جديدة منحتني الرضا العميق نفسه الذي منحني الرسم إياه فيما سبق».

مسَّت أصابعها بإبهامها بترتيب معين، فتلألأ جسدها بأنماط معقدة من الألوان، وقالت: «ما زلت أحب استكشاف الألوان والأنماط والأشكال. وكي أبدع هذه الأشكال درست التلألؤ البيولوجي مدة سنتين».

اتسعت عيناي: «هل يمكنك أن تمنحينني بعضًا من هذا؟».

ضحكت وقالت: «أترين؟ عليكِ أن تصممي أنماطك الخاصة! فكري في كيفية عمل هذا!».

عاودتُ التحديق في البحر وشهقت بعمق متفكِّرة في العجائب التي صرت، على نحو مفاجئ، أدرك أنه يحويها - عجائب جديدة تندفع من كل ما أراه وأسمعه - قوية متناسقة، كما لو كانت تصيح بي، مزيج معقد من القوى والخصائص والسمات الكيميائية والمواطن البيولوجية، فلم يعد البحر مجرد لُعبة وإنما مجال مذهل من المعلومات والعلاقات، بعضها لا يزال مجهولًا على الأرجح. وبعضها قد أكتشفه.

تنفتح الحياة أمامي.

أقول لميلودي: «هذا هو فنك. تفتيح العقول».

كانت ميلودي لا تزال تجلس متربعة، مُشبكة يديها في حِجرها، وقد خفضت رأسها وأومأت بقوة، لدرجة أن جسدها كله اهتز بقوة. وحين رفعت رأسها ثانية كان وجهها يشع بالرضا الهادئ. «أعتقد أن هذا صحيح. لم أكن أدرك هذا قط». ثم مالت إلى الأمام وعانقتني بقوة، وهمست في أذني: «أشكرك يا آليا».

وقفت وفردت جناحيها، ثم قفزت وطارت مع الرياح، تتقلب وتغوص وتدور حول نفسها وتنزلق في الهواء، إلى أن صارت محض نقطة زرقاء على مسافة بعيدة، لا يمكن تمييزها عن السماء والبحر. نقطة من اللانهائية.

تركتني دون أن تحل أي شيء على نحو حاسم، هكذا فكرت وأنا متحيِّرة قليلًا، بينما أشاهد موجة أخرى تضرب الشاطئ بقوة.

باستثناء أن كل شيء قد تغيَّر بالفعل.

أمسكتُ لوْحي ومشيتُ بحرصٍ نحو الأمواج الهادرة.

حين نصل إلى آريزونا

مادلين آشبي

ازدادت حدة الطنين في أضراس أوليسيز مع اقترابه من الحدود. قيل له إن من شأن هذا الطنين أن يساعده على أن يجد طريقه، فما دام ملتزمًا بالسير شَمالًا سيظل الطنين موجودًا، صفارة صغيرة تنبعث من أعماق فمه ترشده في طريقه. في الواقع، لم تكن ثمة ضرورة تحتم اهتزاز الشريحة الإلكترونية، لكن الرفاق في ماريبوسا قالوا إنه من الضروري أن تفعل الشريحة ما هو أكثر من مجرد إخبار الدرونات بموقعك طوال الوقت. كان لا بد لها أن تضيف قيمة، هكذا قالوا. كان لا بد أن تكون سهلة الاستخدام، حتى لا يجلس أوليسيز والآخرون جميعهم على كرسي طبيب الأسنان دون مبرر.

كان بالإمكان زرْع الشريحة أسفل الجلد، لكن وقتها ربما كان أوليسيز سيقع تحت إغراء استخراجها وبيعها. وهكذا استقرت الشريحة في أحد أضراسه. لم يكن يعلم أي ضرس؛ إذ إنهم أخضعوه للتخدير وقت الجراحة، وكان ثمة ضرسان في مؤخرة فمه تحديدًا، على الجانب الأيمن، يؤلمانه بشدة. حين كان يمرر لسانه عليهما كان يشعر أن كليهما من العظم الطبيعي، وحين كان يشرب الماء من قربته لم يكن أيهما يؤلم أكثر من الآخر.

كانت والدته قد سألته: «لماذا ستجتاز الحدود سيرًا؟ لقد قالوا إنهم سيرسلون شاحنة من أجلك. أنت تعلم، شاحنة مكيفة الهواء. مثل تلك التي أقلَّت إيلينا».

كانت إيلينا تنتظره في ماريبوسا. من الواضح أنهم يعاملون النساء على نحو مختلف، ربما كان السبب متعلقًا بتحديد ردود الفعل الأساسية لهن. الهرمونات. كان التفسير الرسمي هو التالي: تحتاج النساء فترة مراقبة تمتد لأكثر من ثلاثة أشهر لأن من الممكن أن تفسد دورة الحيض لديهن عمل كواشف الهرمونات الموضوعة في كل أرجاء المدينة. لكن ربما كانوا يريدون فقط أن يشاهدوا ما سيكون عليه لم الشمل. أن يشاهدوا ما إذا كان رومانسيًّا بما يكفي، حقيقيًّا بما يكفي. هذا ما شكَّت فيه إيلينا. كانت قد ركبت إحدى الشاحنات، وكانت تبتسم له حين انغلقت الأقفال من خلفها. لم تكن الشاحنات السوداء المتجهة إلى ماريبوسا يقودها سائقون، وكانت الأبواب تنغلق أوتوماتيكيًّا. كان بإمكانهم أخذك إلى أي مكان، ولم يكن بمقدورك فعل شيء. في نظره، كان دخول واحدة من هذه الأشياء فكرة حمقاء للغاية. كما أنهم لم يقولوا تحديدًا إنه لا يستطيع اجتياز الحدود سيرًا.

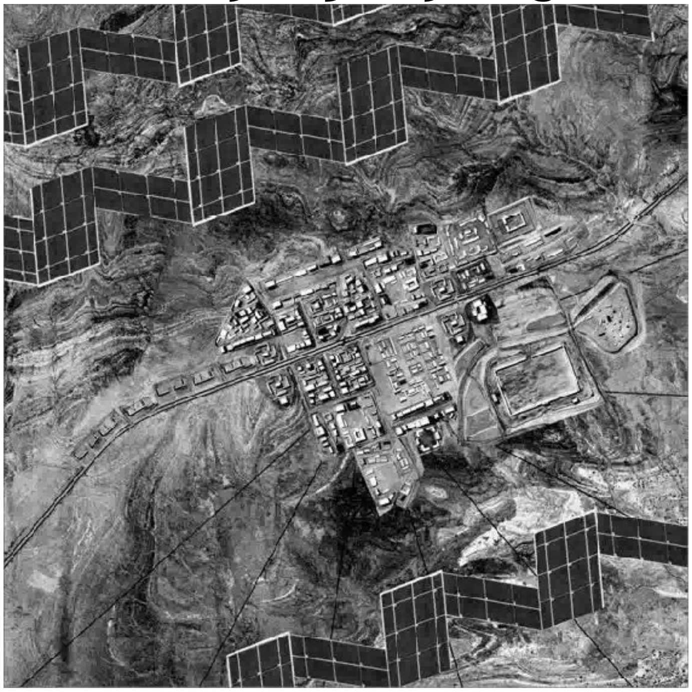

© Daniel Leivick ,2013 بدأ رحلته قبيل الفجر، بينما السماء لا تزال مظلمة. توقف في غرفة المعيشة، حيث كانت أمه تنام على المقعد الكبير. وبعينين نصف نائمتين نهضت وقبَّلته مودِّعة إياه.

قبل أن يغادر قال لها: «ثمة ذخيرة إضافية في العلبة الصفيحية الزرقاء. لقد تركت المزلاج مفتوحًا حتى يمكنك فتحها بسرعة».

فركت يدها ذات المفاصل المتورمة وابتسمت له قائلة: «لم تعد الأمور كذلك. لقد تحسن الحال الآن».

لم يكن يعلم ما إذا كانت تتحدَّث عن الحرب أم عن التهاب مفاصلها. على أي حال انتظر حتى فتحت مزاليج الباب ثم خرج إلى الرواق وغادر المبنى.

لم تكن المسافة بعيدة حتى ماريبوسا، كانت الصحراء مليئة بالمزارع الشمسية الآن، وكانت أصغر بكثير مما كانت عليه في الماضي. كانت الحدود تبدو حاليًّا على النحو التالي: نهر من الخلايا الكهروضوئية المنفتحة كالأزهار في ضوء الشمس، وكانت حوامات المراقبة تطير فوقها وحولها، تبعث أوتوماتيكيًّا بإنذارات إلى حرس الحدود لو حدث أن رصدت شخصًا يتجه شمالًا لا تتفق مشيته أو درجة حرارته أو تعبيراته أو غير ذلك من العوامل السرية مع التعريف الخوارزمي المتعارف عليه لهيئة «الموظف». وفي الموضع الذي ينتهي فيه النهر كانت تبدأ البلدات الحدودية، وكانت ماريبوسا آخرها.

كانت ماريبوسا تشغل منطقة صخرية سكنتها فيما سبق عناكب الرتيلاء وحدها. أُنشئت ماريبوسا إلى الغرب من طريق نوجاليس-هيرموسيلو السريع، وحدث ذلك سريعًا كما لو كانت قنبلة إنشائية انفجرت هناك. لا تزال عملية البناء جارية، وقد نمت البلدة إلى «مجتمع أولي مخطط» أو «خندق ثقافي» أو «أرض اختبار تجريبية» أو أيًّا كان ذلك المقصود منها. كان أوليسيز قد نظر إلى صور لها وكانت تبدو في نظره بلدة خامًا يافعة، أقرب إلى موقع تصوير أفلام منها إلى بلدة حقيقية. وبالوضع في الاعتبار أن كل من يذهب إلى هناك كان يتقدم إلى وظيفة ما، رأى أن هذا الوصف منطقي.

في الطريق إلى نوجاليس انضم إليه رجل يسمونه «الغرير». [(3)] لم تكن لدى أوليسيز أدنى فكرة عن الاسم الحقيقي للرجل العجوز، إذ كانوا يسمونه الغرير منذ وقت طويل، وقد جاءت التسمية على الأرجح لأن سالفيه الكثِّين على جانب ذقنه كانت تتخللهما شعيرات بيضاء، على نحو مماثل لحيوان الغرير. لكنه ظهر بغتة من جانب الزقاق وكأنه قط بري ومشى إلى جوار أوليسيز بنفس سرعته دون أن يبدو عليه الجهد أو الإرهاق. بدا وكأنه كان ينتظر أوليسيز، رغم أن أوليسيز لم يخبر أحدًا سوى أمه بِنيَّتِه عبور الحدود على قدميه. بيد أنه كان من الملائم أن يصطحب هذا الرجل العجوز أوليسيز عبر الحدود، وهما اللذان قطعا المسافة عينها مرات عدة من قبل، وإن كان عبر طريق مختلف.

سأله العجوز: «ماريبوسا؟».

أومأ أوليسيز.

- «أتؤلمك أسنانك؟».

أومأ أوليسيز مجددًا.

تنخَّم الغرير ثم بصق. كان هذا هو تعليقه الوحيد على ذلك الموضوع تحديدًا. وبينما اتجها صوب الطريق السريع بدأت اللوحات الإعلانية الذكية في الخبو، إذ صارت أسطحها خاملة بسبب ما رصدته من سماتهما الديموغرافية المشتركة والاتجاه الذي يسيران فيه. أضيئت آخر محطة حافلات بينما كانا يمران بجوارها. رصدت اللوحة الإعلانية الشعار الموجود على حقيبة ظهر أوليسيز وخمَّنت أنه يعمل في متجر وول مارت، وهو المكان الذي جاءت منه الحقيبة بالتأكيد. أنبأه هذا بأن بمقدور المرء التدرُّب في أقرب مكان ثم الذهاب إلى أي مكان آخر بهذا التدريب، لأن المنظومة كانت واحدة في كل مكان، عالمٌ بلا نهاية، حقًّا. دائمًا الكثير من العمل، دائمًا.

قال الغرير: «ربَّاه، لم تتغير هذه منذ ... منذ عشر سنوات؟».

قال أوليسيز: «كانت موجودة حين كنتُ صغيرًا». ثم واصل صفيره، وضحك العجوز. لوَّحا مودّشعين اللوحة الإعلانية (كان من سوء الطالع أن تتعامل بوقاحة مع اللوحات الإعلانية) ثم واصلا السير. عند حاجز الطريق السريع هَبَّ أوليسيز لمساعدة الغرير في عبور الحاجز، لكن العجوز عبره وحده دون أي مشقة. وقفا عند الشروق بجوار تقاطع الطرق، المدينة القديمة خلفهما والمدينة الجديدة تلتمع بضوء أبيض مثل نجمة في سماء مظلمة. وفوقهما، كانت النجوم الحقيقية آخذة في الخفوت. وفيما وراء الجبال كانت سماء الليل تتغضَّن في الأفق وكأنها ورقة مشتعلة.

- «هل عدت إلى هناك منذ ذلك الوقت؟».

- «مع المدرسة. مرة واحدة. رحلة ميدانية».

ضحك الغرير. صدرت الضحكة عنه دفعة واحدة وكأنها نبحة حادة. «رحلة ميدانية. يا إلهي». ثم هز رأسه وبصق مجددًا. «هل أخبروك، في رحلتك الميدانية، كم شخصًا مات هنا؟».

لم يتفوَّه أوليسيز بشيء. بطبيعة الحال لم يذكروا هذا الأمر. كانوا هناك من أجل مشاهدة المزارع الشمسية على أي حال وليس من أجل إعادة تجسيد

التاريخ القديم. لقد وقفت السيدة الآتية من الشركة أمام طلاب الفصل وهي تحمل حاسبها اللوحي الشفَّاف الوامض في يدها ولم تنبس بكلمة عن الحرب، أو عن البنادق، أو عن الرؤوس.

- «إنهم لا يعلمون، أليس كذلك؟ لا يعلمون ما حدث في السابق؟».

هز أوليسيز رأسه نفيًا.

قال الغرير: «حسنًا، لن يسمعوا عن الأمر مني مُطلقًا».

لم يقل الغرير شيئًا بينما اقترب أوليسيز من ماريبوسا. كان هناك حد فاصل واضح بين المزارع والبلدة، كانت المزارع تنتظم في صفوف سوداء خلف حواجز مستقيمة، وبعد الحواجز كانت توجد الأسواق الشعبية، ووراء هذه الأسواق كانت توجد ماريبوسا، مدينة التغيُّر والتحوُّل. توقَّف الطنين في أسنان أوليسيز فالتفت برأسه كي يخبر الغرير عن هذا الأمر، لكن العجوز كان قد اختفى.

بعد ذلك بدأت الأسواق تطلق صفيرًا معلنة انتهاء الوردية الليلية. حدَّق أوليسيز بجهد إذ ظن أنه رأى الغرير وهو يندس بين حشود عمَّال المصانع المرهقين المندفعين نحو حافلاتهم التي ستقلُّهم إلى منازلهم. أو لعله كان مجرَّد عجوز آخر له لحية يتخلَّلها الشيب. وللحظة تمنَّى أوليسيز لو استطاع الدخول إلى سجلات الدرونات التي مرَّا تحتها أثناء سيرهما، إذ من شأن هذا أن يؤكِّد له أن الغرير كان موجودًا بالفعل. كان هذا الأمر يحدث فيما مضى، تحت سماء الليل. ففي لحظة ما يكون العجوز واقفًا إلى جواره، أو إلى جوار والده، يحمل جاروفًا أو بلطة أو مصباحًا يدويًّا، وفي اللحظة التالي يختفي تمامًا، إذ يدخل أي منعطف في النفق في خفة حيوان الغرير الذي سُمِّيَ باسمه.

والآن كان أويسيز واقفًا بمفرده قبالة الجدار الجصِّيّ الأبيض والقوس المكسو بالقرميد. نظر إلى الأعلى صوب المصباح المعلَّق من مركزه، وكان ضوءه الذهبي يتراقص وكأنه شمعة صناعية. كانت أشجار النخيل الرشيقة، النظيفة من أي أتربة، تحف الجدار. دلف أوليسيز من تحت القوس.

لم يحدث شيء.

نظر إلى يساره، ثم إلى يمينه. لم يكن هناك أي حرَّاس، لم يكن هناك أي عابري سبيل، أو جيران يتحلَّقون حوله وكأنهم أسماك قرش، ففي هذا الوقت

المبكِّر لم يكن ثمة أحد بالخارج. رأى شخصًا آخر داكن البشرة يسلم البريد. رفع ساعي البريد حاجبيه حين رآه، وأومأ بصمت. كان هذا كل شيء. ربما اكتفى ساعي البريد بتفحصه بهذه لطريقة.

مضى داخل البلدة، مارًا بصفوف من المنازل الجصية البيضاء ذات الأسطح الحمراء الجميلة. تعجَّب أوليسيز، لماذا صمَّم أحدهم المنازل وفق هذا التراث الإسباني، رغم أن هذا التصميم جعل المنازل أشبه بمتاجر التسوق؟ كان كل شيء نقيًّا ها هنا؛ إذ كان الرصيف أسودَ ومستويًا وطريًّا مثل نعل الحذاء الجديد، وكانت أشجار الليمون النحيفة تميل بشدة فوق المروج المقصوصة حديثًا، وكانت الذبابات الآلية نظيفة وهادئة لدرجة أنه لم يلحظها إلا حين كانت تطير مبتعدة. لم تكن هذه الذبابات تمتص الدماء أو تمضغ الأنسجة، وإنما كانت تحصد البيانات وحسب.

امتدت ماريبوسا مسافة خمسة عشر ميلًا على جانبي الحدود، مقسمة إلى أربعة أقسام لكل منها مجموعة المنازل والشركات والمدارس ومراكز الخدمة الخاصة به. في المركز متنزه مرصوف بالقرميد، وفي منتصف هذا المتنزه متاهة من الصبار وغيره من النباتات الشوكية وفيرة العصارة. كانت النباتات تنمو في الموضع الذي كانت يضم فيما مضى محطة عبور الحدود القديمة. كان يعرف المنطقة كراحة يده؛ إذ يمكنه تحديد مكانها على الخريطة وهو معصوب العينين. من المؤكد أنهم زرعوا المتاهة في الطبقة العليا من التربة، فمن البدهي أنهم لم يحفروا عميقًا. كان أوليسيز قد رأى صورًا جوية لها: متاهة حلزونية شائكة مدفونة في قلب المدينة الجديدة. لم يكن بمقدوره تصور طريق الخروج منها، مهما حاول جاهدًا؛ فقد كانت الأشواك تتداخل معًا بشكل كثيف للغاية.

والآن، كان يقف أمامها، وقد التفَّت أصابعه حول الحديد الساخن الذي يتشكل منه حاجزها، ونظر إلى الداخل. رفع إحدى يديه ومد سبابته بين الأشواك. إلى جانبه، انفتحت واحدة من زهور الكمثرى الوردية المغبَّرة الشائكة الموجودة داخل الحديقة وصدر صوت يتساءل: «هل أنت تائه؟».

قال أوليسيز: «كلا، في الواقع أنا ذاهب إلى المنزل، إلى زوجتي».

- «عليك أن تأخذ واحدة من زهوري إذن». هكذا قال الصبار. لم يستطع أوليسيز أن يحدِّد عن أي نبتة صدر الصوت، لكن لم يكن هذا يهم. واصل الصوت حديثه قائلًا: «سأساعدك في إحراز بعض النقاط في المنزل».

ولم يدرك أوليسيز أن الصبار قد ألقى مُزحة إلا بعد أن سار مبتعدًا.

بدا المنزل شبيهًا بغيره من المنازل في الشارع؛ إذ كان لونه أبيض ناصعًا وله باب خشبي مصقول ذو لون فيروزي هادئ وسطح أحمر مغبَّر، وتنتصب قبالته نخلة صغيرة في ما تنتشر في باحته بعض الحصى الوردية اللون. كان شبيهًا بالمنازل الموصوفة في قصة الأطفال الذين ذهبوا إلى عوالم مختلفة، وفي العالم الأخير خرج جميع الأطفال من المنزل وأخذوا يلقون كراتهم في تناغم. لم يتذكر أوليسيز عنوان القصة، أو حتى عن ماذا كانت تدور، بل كل ما تذكره هو تلك الصورة: الأطفال بالخارج وهم يلقون كراتهم في إيقاعٍ متناغم، وكأن الشارع كله كان مؤلفًا في حقيقته من مرآتين تعكسان طفلًا وحيدًا. تسبَّبت هذه القصة في إصابته بكوابيس، والآن ها هو يعيش هناك.

فتحت إيلينا الباب قبل أن يطرقه.

لقد أحبها منذ أن وقعت عيناه عليها وهي تنزل من إحدى الحافلات أمام مدرسته، تحمل زجاجة من الماء المثلج تضعها على عنقها العاري. تجمَّد في مكانه فور رؤيتها، وكأنه مسَّ سلكًا عاريًا في مصباح الشارع وأصيب بصدمة كهربية. نظرت نحوه وابتسمت، وللمرة الأولى في حياته لم يشيح بنظره بعيدًا وإنما بادلها النظر. سارت نحوه ومدت زجاجة الماء وعرضت عليه أن يشرب لو كان عطشانًا. وكانت تلك بداية القصة.

الآن خرجت إيلينا من الباب ولفت ذراعيها حول عنقه، ومنحته قبلة جديرة بالمسلسلات التليفزيونية. وبينما كانا يتبادلان التقبيل كانت تتحرَّك قليلًا إلى اليمين، ولم يستطِع أن يفهم لماذا كانت تديره في هذا الاتجاه إلى أن قبَّلت أذنه اليمنى وهمست فيها قائلة: «ثمة كاميرا في إصيص الزرع الموجود هناك».

ابتعدت عنه ومنحته ابتسامة عريضة وقالت: «هل جئت سيرًا؟».

ابتسم وقال: «لماذا يواصل الجميع سؤالي عن هذا الأمر؟» ثم نظر إليها واعتصر معصميها وقال: «تبدين رائعة».

في الواقع كانت إيلينا تبدو رثة المنظر وهي ترتدي فستانها الصيفي الأبيض وصندلها الصغير الذي يكشف عن أظافرها الملونة بطلاء الأظافر الوردي. كانت قد غسلت شعرها وفردته، ولو أنها كانت ترتدي ثوبًا أسود لكنت تظن أنها في طريقها إلى جنازة ما. لكن ما لفت انتباهه كان الطريقة التي تزيَّنت بها، حيث كانت تشي بعدم الخبرة: فكان المسحوق الموضوع أسفل عينيها أكثر شحوبًا من المفترض بحيث أظهر الهالات الداكنة بدلًا من أن يخفيها. لم تبادِله النظر في عينيه.

سألها: «هل ثمة خطب ما؟».

اتسعت ابتسامتها وازداد صوتها حدة وهي تقول: «كلا، لا شيء. تفضَّل بالدخول».

تبعها أوليسيز إلى الداخل. كان المنزل عمليًّا للغاية: فقد كانت مرتبًا، خاليًا من الماركات الفاخرة، وكل شيء فيه كان أبيض، وصولًا إلى أرضية الردهة اللؤلؤية والمصباح المعلق أعلاها. بدا المنزل أكبر من الداخل، وأكثر رحابة. كان من نوعية المنازل التي يمتلكها الأشخاص البيض في المسلسلات التليفزيونية.

قالت إيلينا: «لنأخذ حمَّامًا».

ربما كانت للمراقبة المستمرة ولعب دور الزوجين السعيدين فوائد أخرى خلاف المواطنة. «أمسك ذراعي».

ابتسمت المرايا لهما حين دخلا الحمام وحين وقف أوليسيز أمامها سألَت: «تعديل البيانات الشخصية؟». قال: «لا، أشكرك» ثم بدأ في خلع ملابسه. أُعتمت المرايا بمجرد أن انعكست حلمتا صدره على سطحها.

قال إيلينا: «إنها تخجل من العُري. تُعتم بصورة أوتوماتيكية، هذا هو وضعها الأساسي».

أدرك أوليسيز مجددًا أن إيلينا كانت العقل المدبر في العلاقة التي تجمعهما. مسَّ مرفقها وأدارها نحوه وقبَّلها قبلة حقيقية هذه المرة، مجرَّد قبلة بسيطة مع حضن كبير في نهايتها، مثل الأشخاص الطبيعيين الذين لم يروا بعضها بعضًا منذ فترة طويلة. ندت عنها تنهيدة. ثمة خطب ما بالتأكيد.

سألها: «لقد افتقدتيني، أليس كذلك؟».

صدر عنها صوت غير واضح، ضحكة ربما أو تنهيدة، لم يستطع أن يحدد. عانقته بقوة وقالت: «بلى».

ثم ابتعدت عنه وخلعا بقية ملابسهما. حتى آلية عمل الحمام كانت مختزلة بشكل عبثي: فعليك أن تحرك يدك كي تبدأها، ثم تقوم بعمل إشارات معينة كي تجعل الماء أبرد أو أدفأ. بالتأكيد كان المقصود من التصميم أن يكون بارعًا على غرار فيلم «تقرير الأقلية» لكن انتهى به الحال على نحو بدائي أقرب إلى

فيلم «لقاءات قريبة من النوع الثالث». وأخيرًا وصل الماء إلى درجة حرارة معقولة ودخلت إيلينا تحته. وبعد أن ابتل شعرهما تلاقت عيناهما.

- «لقد تأخَّرت دورتي الشهرية».

بدا كما لو أن حرارة الماء قد انخفضت على نحو حاد. ظل ساكنًا، بحكم العادة. لقد اعتادا فعل هذا حين كانا في النفق، حين كانا يسمعان شخصًا يسير فوقه. والآن كان يصدر عنه رد الفعل هذا كلما شعر بأقل تغيير في المشاعر.

- «هل ستقول شيئًا؟».

اختفى صوته مثلما اختفت حركته. ثم استطاع حمل نفسه على الحديث فقال: «هل أنتِ متأكدة؟».

- «التطبيق متأكد».

- «لكنك تضعين لولبًا رحميًّا».

ابتلعت ريقها وقالت: «أعرف هذا. لا تزال الخيوط موجودة، لكن الاختبار جاء إيجابيًّا. إنه في الدرج هناك، لو كنت تريد أن تراه».

عبس وقال: «لن أنظر إلى قطعة بلاستيكية عليها بولك القديم. هذا مقرف. أتظنين أنني لا أصدقك؟».

أشاحت بنظرها بعيدًا. كانت هذه هي الحقيقة. لم يمضِ عليهما وقت طويل في مدينة العم سام الصغيرة هذه وها هما لا يثقان في بعضهما. مال بظهره مستندًا إلى جدار الحمام. حتى الآن لم تبد إيلينا مختلفة. كانت المسكرة تسيل على وجهها، وحين توقَّفت كي تمسح الماء من على وجهها لطَّخت المسكرة عينيها، ما جعلها تبدو أصغر سنًا.

قالت: «آسفة. أنا لم ... لم أكن ... أعرف أنه لا يمكننا البقاء لو احتفظنا به...».

- «هذه شائعة فحسب. لا نعلم ذلك يقينًا».

نظرت إليه نظرة مفادها أنه مفرط في الأمل على نحو ساذج وقالت: «أتذكر ما حدث لماريا وجييرمو؟».

يا إلهي. كانت محقة. كان جييرمو مرشحًا مثاليًّا. كان يُفترض به أن يُدرِّس الواقعية السحرية لبعض الطلبة الجدد الآن، وهو ما يناسب درجتي الدكتوراه اللتين يحملهما. كانت زوجته تحمل درجة جامعية في تعليم الأطفال المبكِّر، وكانت تجمعهما علاقة طيبة، من العلاقات التي فيها يساعد الزوجان أحدهما الآخر في عمل المنزل.

كانت علاقتهما مضرب الأمثال. يعيشان حياة طيبة في ماريبوسا، أو هكذا كان يُقال: فالأطفال في مركز الرعاية يحبون ماريا، وجييرمو يخرج مع طلبته، لكن ليس لوقت متأخر.

ثم جاء الحمل، وعادا إلى نوجاليس.

- «أطفال المهاجرين» هكذا قالت وهي تبصق. «أطفال المهاجرين اللعناء. هذا ما يقلقون بشأنه».

- «ليس الأمر كذلك. التكلفة فقط هي ...».

- «الأمر سيان يا أوليسيز. الأمر سيان».

نظر إلى الشاشة الرقمية، كان الوقت يمر بسرعة. «هيا، الماء يوشك أن يبرد».

ساعدها على الخروج وبدأ البحث عن منشفة. «أين تحتفظين بالمناشف؟».

- «آه، آسفة. اللعنة. كنت أنوي إخراج بعضها، ثم ...» توقفت عن الحديث. كانت لا تزال تبحث داخل الخزانة. مالت داخلها بينما كانت توليه ظهرها. «آه، اللعنة يا أوليسيز. أنا آسفة بشدة. كنت أظن أننا سنكون على ما يرام. إن نسبة حدوث حمل لا تتجاوز 0.6 بالمائة، ستة أعشار. ستة أعشار لعينة».

حمل نفسه على الابتسام. تجاوزها ومد يده داخل الخزانة وأخرج منشفة. وضع المنشفة على كتفيها وقال: «حسنًا، على الأقل ثمة شيء يسير على ما يرام».

- «وما هذا؟».

- «لقد صرنا نحسن السباب بالإنجليزية».

في اليوم التالي كانت جلسة التوجيه. تعيَّن على أوليسيز الذهاب في موعد منفصل مقارنة بأقرانه الذين ركبوا الحافلة نظرًا لعدم معرفته بالتعديل الأخير في المواعيد مثلهم. كان هذا ملائمًا له تمامًا. كان لديه ما يقلقه بالفعل ولم يكن يريد أن يتلقَّى المحاضرة وهو جالس على كرسي قابل للطي برفقة منافسيه الآخرين.

أخبره المسؤول بمركز إعداد الموظفين الجدد أنه يُدعى بول. بدا أشبه بشخص حديث التخرج: إذ كان ينتعل صندلًا وشعره ملفوف في جدائل وجلده اكتسب سمرة الشمس حديثًا، وكان يتوقف من حين لآخر كي يتأكد من أن الوشم على معصمه الأيسر كان ظاهرًا كما يريد. كان مركز إعداد الموظفين الجدد مبنى كبيرًا فسيحًا به مواسير مكشوفة وعوارض من البلوط الأبيض المصقول، تتخللها ألوان حية كالأخضر الفاتح والوردي الداكن. خمَّن أوليسيز أنه من المفترض به أن يشعر وكأنه داخل حجرة فنان وليس داخل مكتب للهجرة. أمسك بول ببعض الاستمارات ووضعها على مكتبه، ثم استعرضا معًا ملف أوليسيز. كانت كل المعلومات موجودة هناك: طوله ووزنه ولونه ويوم مولده وكل عنوان سكن به وكل وظيفة عمل بها. كل وظيفة كانوا يعلمون بشأنها على أي حال؛ فهو لم يتلقَّ أي أجر عن عمله الآخر. كان هذا عمل والده في الحقيقة، وأحيانًا كان والده يحتاج بعض العون. هذا كل ما في الأمر.

سأل: «هل عيناي بنيَّتا اللون حقًّا؟» أدار بول رأسه نحوه، كما لو أنه لم يسمعه جيدًا. لم يتفهَّم المزحة. فسأله أوليسيز: «هل كل شيء على ما يرام؟».

أومأ بول وقال: «نعم، كل شيء يبدو بخير حال. هذه هي وظيفتك الجديدة». ثم انتزع استمارة وظهر اسم الوظيفة واضحًا: فني ليزر مبتدئ. عرضت استمارة أخرى مسؤولياته الوظيفية على هيئة نقاط. كان سيعمل في شركة لاستخلاص الكربون تدعى «جرين لوك»، بحيث يستخدم أشعة الليزر في فحص سلامة مواسير الشفط، وربما يجري بعض الإصلاحات لو أصاب القضبان أو المرايا عطب. أيضًا سيتأكد من أن مصادر الطاقة كلها تعمل كما ينبغي، ويحرص على أن يعرف موضع كل واحد منها طوال الوقت، حتى لا ينتهي الحال بأحدها وقد أصاب قطة أحد الجيران بالعمى عن طريق الخطأ. وأسفل القائمة كان هناك مكان لتوقيعه.

قال بول: «عجبًا، يبدو الأمر معقدًا من الناحية التقنية».

بالتأكيد هو كذلك، هكذا فكّر أوليسيز. ثم عرض على بول لقطات لعمله في مُحاكي الإصلاح، وهو يعدِّل أحد قضبان الليزر وقال: «الأمر سهل، بعد فترة. عليك فقط أن تمتلك يدين بارعتين».

ابتسم بول وقال: «لا بد أن هذا يجعلك محبوبًا من النساء».

هز أوليسيز أصابعه وقال: «لو كانت شهادة زوجتي تُحتسب، لكنت مواطنًا بالفعل الآن».

اكتسى وجه بول بنظرة جادة وقال: «كيف حال زوجتك بالمناسبة؟».

سكن أوليسيز تمامًا وقال: «معذرة؟».

أجفل بول وقال: «حسنًا، يقول المنزل إنها لم تكن على ما يرام أخيرًا. الـ ... الحمام يسجل بعض النشاط الإضافي ...».

غثيان الحمل الصباحي. هذا هو الأمر بطبيعة الحال. وفي ضوء المراقبة الشديدة التي يراقبونها للماء هنا، من المؤكد أن عداد المياه رصد اختلافًا في استخدامها مقارنة بالمستخدمين الآخرين على الخط عينه، وكان الحمام هو التفسير.

«إنها تصاب بإسهال صباحي». هكذا أجاب أوليسيز كذبًا، ثم شاهد وجه بول وهو يمتقع تقزُّزًا. حين تكذب، من الأفضل أن تقول شيئًا لا يرغب الطرف الآخر في سماع المزيد عنه، شيئًا مُحرجًا. هذا ما علَّمه والده إياه. «أعتقد، كما تعلم، أن الوضع الجديد أصابها بالتوتر».

- «صحيح ...».

- «ستكون على ما يرام الآن وقد أصبحتُ معها».

- «عظيم». هكذا قال بول وهو يحاول تعديل جلسته. تشتت انتباه أوليسيز، إذ شعر أنه غفل عن شيء ما. لكن الآن عاود بول الحديث قائلًا: «أنت تعلم كيف يسير الأمر، أليس كذلك؟».

- «بلى. الأمر أشبه بلعبة «القتل»؟ لعبة الفيديو؟».

تنهَّد بول بثقل وبدأ حديثًا كان من الواضح أنه روتيني: «إن احتمالية حصولك على الفيزا تزداد أو تنقص اعتِمادًا على رأس مالك الاجتماعي في نهاية فترة

تجريبية مدتها ستة أسابيع. ورأس المال هذا يتحدَّد عن طريق الأشخاص الذين تعيش معهم في ماريبوسا. في كل يوم يُمنح عدد من مواطني ماريبوسا عددًا من الأصوات الإيجابية أو السلبية، لكن إذا أخبرت أحدًا أنك من المصوتين فإنك تفقد صوتك، حتى لو كنت تقول ذلك كذبًا. الأشخاص الملتزمون بالقواعد يحصلون على أصوات إيجابية أكثر من السلبية كي يشاركوا بها في اللعبة، لكن يمكنهم دومًا الامتناع عن التصويت. وإذا فعلوا هذا تضعهم الخوارزمية في قاع قائمة المصوتين».

- «إذن أولئك الذين يصوتون على نحو متكرِّر هم من يوجدون في أعلى القائمة؟».

ابتسم بول وقال: «نعم. الأمر بمثابة تحفيز».

أومأ أوليسيز. هذا معناه أنه من الممكن دومًا أن يحرص أكثر العنصريين تشددًا على التصويت المتكرِّر بطبيعة الحال. لكنه اختار ألا يثير الأمر، وبدلًا من ذلك سأل: «متى تحدث عملية التصويت؟».

- «في نهاية اليوم، نحو الثامنة مساء».

- «بعد أن يكون المصوتون قد تحدثوا مع زوجاتهم؟».

تململ بول في مقعده وقال: «أجل. في البداية كان التصويت يجري في الخامسة والنصف، ثم وقت الظهيرة، لكن كان عدد أقل من الناس يصوتون وهم في طريقهم إلى المنزل أو في وقت الغداء. سنجرب إجراء التصويت وقت الإفطار بعد ذلك». ثم ابتسم في حرج وأضاف: «بعد أن يكونوا قد تناولوا القهوة بالطبع».

كان أوليسيز يعلم بشأن تلك الأمور كافة؛ إذ كانت مدونة في وثيقة التنازل عن الحقوق التي وقَّعها قبل أن يبدأ عملية التقديم. كان الجميع في وطنه يخبروه أن الأمور ستسير سيرًا حسنًا، لأنه شاب صالح، شاب لطيف، وأن السنوات التي قضاها كصبي مولع بالتكنولوجيا وألعاب الذكاء في اللعب بمكعبات الليجو بدلًا من المسدسات ستكون لها قيمة أخيرًا في مكان مثل ماريبوسا. ومع هذا كان سماع شخص آخر وهو يصف الأمر مختلفًا. ففي موطنه، بينما إيلينا تنام على كتفه أو كان يشاهد قصص أمه على الشاشة، لم يكن الأمر يبدو حقيقيًّا بالكامل. لكنه بدا حقيقيًّا هنا، وكان يتصبب عرقًا من فرط توتره حتى في وجود مكيف الهواء.

- «كيف يعرف المصوتون أنهم سيُختارون؟ هل يحصلون على تنبيه ما؟».

- «كلا، إننا نخبرهم بالأمر بصورة شخصية، في اليوم السابق على التصويت». ثم اتسعت عيناه وأردف: «لا أعني نحن بالفعل، ليس أنا، وإنما شخص من أعضاء الفريق». لم يقل «فريق المهام»، لم يقل «الوكالة»، لم يقل «المكتب». لكن كانت الكلمات كلها تحمل المعنى ذاته.

نظر أوليسيز إلى الوثائق الموضوعة على المكتب وقال: «حسنًا، أعتقد أن عليَّ الذهاب إلى المكتب التالي».

نظر بول إلى الساعة الرقمية وقال: «نعم، يا إلهي، آسف». ثم مد يده وصافح أوليسيز.

سأله أوليسيز: «هل يمكنك أن تخبرني بمكان الحمام؟ من الأفضل ألا أتململ وأنا في أول أيام عملي بالوظيفة».

قهقه بول بصوت لم يسمعه أوليسيز يصدر عن رجل من قبل قط، وقال: «الباب إلى اليسار».

بعد أن شد أوليسيز سحَّاب بنطاله أدرك ما غفل عنه. الحمامات مزودة فقط بسجلات لمرات الاستخدام، لا نوعيته. فهي لم ترصد التغيرات في الهرمونات. وكاشفات الهرمونات الموجودة في المدينة كانت توجد فقط في محيطها الخارجي، إذ مقصود منها أن ترصد الارتفاعات الحادة في مستوى الكورتيزول والتي قد تشير إلى عدم الأمانة.

إنهم لا يعرفون أن إيلينا حبلى. ولن يعرفوا ذلك لبعض الوقت، على الأقل. كان لديهما بعض الوقت.

- «ليس لدينا أي وقت. أريزونا تُرحِّل بعد مضي اثني عشر أسبوعًا».

- «حقًّا؟» في المكسيك كانت الإجراءات تمتد عشرين أسبوعًا. كان لديهم خمسة أشهر كاملة، أي أطول بشهرين من فترة المراقبة في ماريبوسا. مضغ أوليسيز ما تبقى من طعامه دون شغف. كان طعم الليمون غير معتاد، إذ كان شديد الحموضة، وليس حُلوًا. كما كان الجُبن شديد الملوحة. لكن لم يكن ثمة مجال للشكوى، فإيلينا لم تكن قادرة على إبقاء أي طعام في معدتها من الأساس.

- «هل لديك أي فكرة كم أسبوعًا مضى على حملك؟».

تنهَّدت قائلة: «للمرة المليون لا. آسفة لهذا. لكن لا يهم هذا الأمر الآن، أليس كذلك؟ إننا عالقان في ورطة لا مخرج منها؛ فإذا ذهبت إلى طبيب سيعرفون، وسنُطرَد. وإذا لم أذهب إلى طبيب سنُتهم بالكذب حين يعرفون، وبعدها سنُطرد». أرجعت شعرها بيدها إلى الوراء وأضافت: «اللعنة، سيتعين عليَّ شراء الفوط الصحية حتى تظل البيانات صحيحة».

- «نحن لا نعلم إن كانوا قد وصلوا إلى هذا المدى ...».

- «بالطبع وصلوا إلى هذا المدى يا أوليسيز، لا شك في هذا. أتعتقد أنهم سيتركون البنية التحتية الخاصة بالتنقيب في البيانات التي عملت بشكل جيد لعقود من السنوات تضيع هباءً؟ لماذا تظن أنهم أعطوننا بطاقات خصم خاصة في متجر تارجت؟ لأن متجر تارجت هو الأفضل في هذه اللعبة. إنه على الأرجح يعلم بالفعل أنني حبلى.

اختنق صوتها. وحين وقف أوليسيز كي يربِّت على كتفيها كانت قد مسحت دموعها بظهر يدها.

قالت: «أكره هذه الهرمونات اللعينة».

واصل الربت عليها وقال: «أعلم هذا. يجدر بك أن تجربي تناول شيء ما. حتى لو تناولتِ المثلجات فحسب».

قالت: «سيكون هذا لطيفًا».

- «سأحضر بعض المثلجات». ثم توقَّف أمام المجمِّد وأضاف: «هل عليَّ أن أحضر طبقًا؟».

- «اصمت».

واصل أوليسيز اغتراف المثلجات وقد تمنَّى لو كان لديه بعض اللبن المكثَّف كي يضعه فوقها. لو كانت لديه علبة لبن مكثَّف كان سيسخنها في قدر من الماء حتى تتكرمل محتوياتها. من المرجح أنه كان سيروق لإيلينا. لقد ذكرت والدته أنها كانت تستمتع بتناوله حين كانت حبلى فيه. يا إلهي، ما الذي سيقولانه لوالدته؟

- «لو أنهم فقط سمحوا بإدخال بعض الميزوبروستول إلى هذا البلد اللعين، لأمكنني التعامل مع هذه المسألة كلها بنفسي».

لم يكن لديهما لبن مكثَّف. التقط أوليسيز وعاء المثلجات ووضعه أمامه هو وزوجته. حتى الأطباق كانت عديمة الزخارف هنا. لقد رأى تصميمات ممتعة أكثر في رحلته الأخيرة إلى متجر ديني. «ميزوبروستول؟».

- «اسمه التجاري سايتوتيك. إنه عقار للإجهاض. حسنًا إنه يحتوي على الميزوبروستول ومواد أخرى. تُعرف التركيبة أيضًا باسم RU-486».

- «وهي لا تباع هنا؟».

قالت ضاحكة: «كلا، ليس من دون وصفة طبية. لكنها تباع في المكسيك! بل إن شقيقتي سألتني لو كنت أريد أن آخذ معي بعضًا منه، تحسبًا للظروف. اللعنة».

- «كُلي المثلجات».

بدأت الأكل وقالت: «أشكرك».

ارتشف أوليسيز رشفة من جعته وهو يشاهد الشاشة الصغيرة المدمجة في ثلاجة المطبخ. لن يحقق مادريجال أي نجاح في هذه المباراة لو أنه واصل السقوط بهذه الطريقة على أرضية الملعب. كان الرجل يجري كطفل صغير، وكان سبب وجوده الوحيد في الفريق هو حجمه الضخم، إذ كان يمكنه أن يطيح بأي لاعب، وكان تأثيره قويًّا على اللعب. كان جدارًا قويًّا من العضلات والعظام يغرس نفسه في أرضية الملعب، بحيث يتقدم أي تشكيل ثلاثي مكون من لاعبين آخرين أصغر وأضعف.

جدار.

بالطبع، هذا هو الحل.

قال: «كي نوفر الوقت، دعيني أسألكِ سؤالًا».

ارتطمت ملعقتها بجانب الإناء وهي تقول: «بالطبع».

- «هل سيكون من المناسب أن نشتري هذا العقار من الإنترنت؟».

ردت قائلة: «سيتعين أن يجتاز الجمارك. بصرف النظر عما يعنيه هذا هنا».

- «حسنًا إذن». هكذا قال لنفسه، ثم أومأ لها وأضاف: «ثمة حل لهذا الأمر. أو طريق للالتفاف حوله على أي حال. لكنه يتضمن مني الحصول على بعض الأشياء من العمل».

أولًا، سنحتاج إلى أحد العناكب الآلية.

حسنًا، لم يكن هذا صحيحًا تمامًا. فأول شيء سيحتاجان لعمله هو الدخول إلى المتاهة، كما سيحتاجان جاروفًا أو اثنين. وبعد ذلك سيحتاجان العنكبوت الآلي. وبعد ذلك، بعد ذلك ...

بعد ذلك سيحتاجان إلى الغرير نفسه.

سألته إيلينا وهي في الحمام: «هل أنت متأكد أنه سيتذكر الشفرة السرية؟».

قال أوليسيز: «إنه هو مَن علمني إياها، لذا من المؤكد أن يتذكر. أين البطاقات البريدية؟».

على البطاقة البريدية كتب أنه يشتاق إلى مربى الخوخ التي تعدها والدته، من النوعية التي لا يستطيع العثور عليها في أرض الأحرار وموطن الشجعان، أمريكا. بعد ذلك ذكر حادثة وقعت في أبريل عام 1986: تشرنوبل. كان من اليسير للغاية أن يربط بين مربى الخوخ والكارثة النووية؛ فكل ما كان عليه أن يفعله هو أن يكتب مزحة عن عجز والدته عن إحكام إغلاق إناء الضغط، وكان هذا يكفي.

سألها أوليسيز في حذر: «متى سيكون موعد اللقاء معه؟».

قالت إيلينا: «بأسرع وقت ممكن. أخبره أننا نريد أن نقضي العطلة الأسبوعية معه. كما اعتدنا أن نفعل».

عند صندوق البريد التفتت إليه وهمست قائلة: «مربى الخوخ؟ هذه هي الشفرة السرية، أليس كذلك؟».

أومأ قائلًا: «بالتأكيد».

- «مربى الخوخ تعني حبوب الإجهاض. أنت واثق من هذا».

- «تمام الثقة».

- «لماذا؟».

- «حسنًا، لأنني أتذكر، ولأن ...».

- «كلا كلا، لماذا مربى الخوخ تحديدًا؟».

أجفل قائلًا: «لو سار الأمر على النحو المُخطَّط له، أعتقد أن المغزى سيكون واضحًا تمام الوضوح».

في اليوم التالي طلب أن يلقي نظرة على كواشف خط الأنابيب المستقلة، «فقط كي يألف التعامل معها».

رأى رئيسه في العمل أن هذه فكرة رائعة. كان رئيسه يحمل درجة الدكتوراة، وكان يصر على أن يناديه الجميع باسمه الأول، تيري. كان تيري رجلًا قصيرًا نحيفًا شعره الأشقر في سبيله للشيب وكان قميصه الأحمر الداكن يبرز لون جلده الوردي حول أنفه. بيد أنه بدا سعيدًا من قلبه بالعمل في ماريبوسا: فكان يحتفظ بحقيبة جولف في مكتبه وكان يصر على إقامة تجمُّع في ملعب الجولف لأعضاء الفريق كل يوم جمعة.

كل عنكبوت موضوع في صندوق بلاستيكي معتم منفصل في حجم صندوق الأحذية. كان يصدر عن الصناديق صوت حفيف بينما يمر بجوارها؛ إذ لا بد أن مستشعرات الضغط قد أحست بحركته. لكنه حمل نفسه على تجاهل ذلك الشعور المنفِّر الذي يتسبَّب فيه صوتها. كان يحتاج واحدًا من هذه العناكب؛ بل كان كلاهما يحتاجان واحدًا منها.

في نهاية الرفوف المعدنية صندوق يحوي عدة عناكب معطوبة، مكتوب على الملصق إنها طرازات قديمة، فلا توجد لها قطع غيار صالحة. قال رئيسه بينما كان يحمل الصندوق خارج الغرفة معه: «إننا نستخدمها كقطع غيار؛ فنستخدم الأجزاء الصالحة منها حين يصاب أي جهاز بعطب».

سأله أوليسيز: «هل يمكنني اصطحاب أحدها على المنزل؟ لن أضيع وقت الشركة، أريد فقط أن أدرسها عن كثب ما دمت سأتولى عملية إصلاحها، وربما يكون من الأفضل أن أعبث بها وحدي في وقتي الخاص ...».

- « ... وفي بيئة لا يمكنك فيها التسبب في مخاطر، أتفهم ما تقول». هكذا أكمل تيري عبارته وهو يبتسم، وأضاف: «لا مشكلة. فقط مرِّرها على الماسح الضوئي ووقع الاستمارة التي ستخرج منه».

- «أشكرك. أقدِّر لك هذا الأمر بحق».

- «وأنا عن نفسي أقدِّر فيك تمتعك بروح المبادرة! نحن نحتاج المزيد من هذا التفكير ها هنا».

ثم غمز بعينه.

شعر أوليسيز أنه أحرز للتو بعض النقاط. ربما لم تكن اللعبة عشوائية على أي حال.

- «متى بدأت العمل على هذا النفق؟».

أضاء أوليسيز مصباحه اليدوي في النفق. كان لا يزال كما يتذكره: نفقًا باردًا نسبيًّا ارتفاعه سبعة أقدام وعرضه خمسة أقدام كانت تكسو جدرانه الترابية المؤمَّنة ألواح خشبية غير مصقولة. كانت أسلاك سوداء وبرتقالية تمتد بطول السقف، وفي الماضي كانت هذه الأسلاك موصَّلة بمولدات كهربائية في أقبية على الجانب الآخر من الحدود وكانت تضيء النفق بالمصابيح التي كان يجري شراؤها بالجملة في أيام التخفيضات. والآن لم يعد لتلك المباني التي توفر الكهرباء وجود، وتعيَّن على أوليسيز وإيلينا الاكتفاء بالمصابيح اليدوية.

أجابها: «كنت طفلًا. كان العمل قد بدا بالفعل قبل أن أولد، على ما أعتقد. أعني أنهم كانوا يبنون الكثير من هذه الأنفاق وقتها. وهذا نفق آخر لم يعثر عليه أحد».

- «هل قمت بتهريب أي شخص بالفعل؟».

هز أوليسيز رأسه نفيًا وقال: «لم يكن والدي يحب أن أشارك في هذا العمل. كان يحتاج مساعدتي في بعض الجوانب الهندسية وحسب. كما تعلمين، أن أخبر العمال بالمواضع التي يحفرون فيها، وكيف ندعم النفق، أمور كهذه».

- «يبدو متينًا».

- «إنه كذلك. لكن لا ضيْر من بعض الحرص الإضافي». أنزل أوليسيز حقيبة ظهره وأخرج منها صندوق أحذية. وبحرص وضع الصندوق على الأرض، وانتظر حتى خرج العنكبوت الآلي منه زحفًا. التمعت الأضواء في كل رجل من أرجله الثمانية، وشاهده أوليسيز بينما يتقدمهما داخل النفق، سائرًا بشكل حلزوني على الأرض ثم إلى الجدار الأيمن، ثم السقف، ثم الجدار الأيسر، ثم يكرر ذلك مجددًا، مرارًا وتكرارًا.

قالت إيلينا: «أكره تلك الأشياء. إنها مخيفة».

- «هذه العناكب الآلية تنقذ حياة البشر؛ فهي تعمل في خطوط الأنابيب في كل أنحاء العالم».

- «وتعمل في الأنفاق أيضًا، أليس كذلك؟».

ابتسم أوليسيز وقال: «نعم، تعمل في الأنفاق أيضًا».

سارا خلف العنكبوت داخل النفق، وكانا يتوقَّفان حين يتوقَّف، وينتظران بينما يشع أضواءه من مفاصله نحو أقسام معينة من الجدار. أحيانًا كان الوهج الأخضر يتحوَّل إلى الأصفر، لكنه لم يتحوَّل إلى الأحمر قط. كان هذا أمرًا طيبًا. فرغم أن أوليسيز لم يشرف على بناء النفق كله فإنه كان واثقًا تمام الثقة في الأشخاص الذين أدوا المهمة. فعصابة التهريب التي كانت تدفع لهم مقابل عملهم كانت سخية، كما كانت هناك تبعات قاسية لو لم تُنفَّذ المهمة على النحو الصحيح.

قالت إيلينا: «أتمنى لو أنني استطعت قضاء المزيد من الوقت معه. أعني مع والدك».

«أتمنى هذا أيضًا». هكذا رد أوليسيز بينما يشاهد العنكبوت وهو يعمل على شيء ما قبل أن يواصل التقدم. «كان يحبك. كان يحبنا، يحب وجودنا معًا».

- «حقًّا؟».

أومأ وقال: «هذا ما قالته أمي على أي حال، بعد وفاته».

أمسكت إيلينا بيده وقالت: «آسفة. آسفة على كل شيء».

اقترب منها أوليسيز، وترك المصباح اليدوي يتدلّى من يده. كان من الأيسر التحدُّث بهذه الكلمات في الظلام. «توقَّفي. الأمر كما قلتِ. ستة أعشار بالمائة. لم يكن بمقدورك توقع هذا. لم يكن بمقدور أحد هذا. بالتأكيد لم يكن بمقدوري توقع الأمر».

- «لكن ...».

- «توقفي. لقد حدث ما حدث، وسنصلح الأمر معًا». ثم أشار في اتجاه النفق بمصباحه اليدوي وأضاف: «الغرير ينتظرنا هناك. سيصير الأمر على ما يرام». ثم أمال رأسه وقال: «أليس كذلك؟».

- «سأنزف دماء كثيرة، الأمر مؤلم».

- «لكني سأكون إلى جوارك. ويمكننا الذهاب إلى طبيب. يمكننا أن نقول إنه إجهاض طبيعي».

بدت إيلينا كما لو كانت تريد أن تقول شيئًا ما، لكن بدلًا من الحديث ألقت بنفسها في حضنه ولفَّت ذراعيها حوله كما لو كانت تتوقع منه أن يبتعد عنها بشكل ما. وبعد مضي دقيقة أراح ذقنه على رأسها.

سألها: «هل أنت متردِّدة حيال الأمر؟».

أومأت.

- «يجب أن نحصل على العقار يا إيلينا. إن وجود اختيارات أفضل كثيرًا من عدم وجود خيار على الإطلاق. لهذا السبب نحن هنا. أو هناك. أعني في ماريبوسا. لهذا السبب أتينا».

قالت باكية: «أعلم هذا». ثم عانقته على نحو أقوى. أدهشته القوة التي عانقته إيلينا بها. «الأمر فقط أنك تعاملني بلطف. كما أنك شجاع، وأريد أن أتحلى بمزيد من هذه الصفات في هذا العالم».

ابتعدت برفق مسحت عينيها، ثم ابتسمت وقالت: «الهرمونات اللعينة. آسفة».

أمسك يدها وقال: «دعينا فقط نحصل على العقار. لو قررت بعدها أنك لا تريدين هذا، حينها ...».

- «كلا، هذا ما أريده حقًّا، أنا فقط ...».

- «دعينا فقط نقرِّر الأمر لاحقًا، اتفقنا؟ لا يكون القرار قرارًا حقيقيًّا إذا لم يكن أمامك خيارات أخرى».

قالت: «حسنًا». وقد بدا عليها أنها لملمت شتات نفسها.

كانا لا يزالان متشابكي الأيدي حين ظهر الغرير في نهاية النفق. كان مرتديًا حلة أنيقة ويضع على رأسه خوذة ويلبس حذاءً عالي الرقبة من نوع فاخر.

سأله أوليسيز: «لماذا ترتدي هذا الزي الأنيق؟».

- «كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي ستجعلهم يسمحون لي بفحص منظومة الانتقال السريع». هكذا قال الرجل ثم أخرج لهما بطاقة هوية مزيفة وأضاف: «كان عليَّ أن أنزل تحت الأرض بصورة ما».

صفر أوليسيز وقال: «عجبًا».

عانق الغرير إيلينا ثم أخرج علبتين من جيبه وقال: «الإرشادات على الشريط. والعلبة الأخرى بها بعض الفاليوم، من أجل تسكين الألم».

ابتسمت وقالت: «أنت تفكر في كل شيء!».

- «احرصي على شُرب كمية كبيرة من الماء أولًا. ربما تحتاجين إلى تناول بعض الطعام مع هذا العقار».

- «سأفعل».

- «وعليكِ أن تذهبي إلى المستشفى. هل أنتِ مستعدة لذلك؟».

زمَّت إيلينا شفتيها وقالت: «نعم». وبعد لحظة سكوت أضافت: «أعتقد ذلك».

تنهَّد الغرير في ارتياح وقال: «كلما أسرعتِ باستخدام العقار كان ذلك أفضل. وكلما انتظرتِ فترة أطول سيكون أقل فاعلية. اتفقنا؟».

- «حسنًا».

نظر الغرير إلى أوليسيز وقال: «حسنًا. اعتنِ بها؛ فلسوف تحتاجك».

- «أعلم هذا». ثم خطر شيء على باله فقال: «هل تحدثت إلى والدتي؟».

هز الغرير رأسه نفيًا وقال: «لا يوجد سبب يدعوها إلى أن تعرف. لا أظن هذا».

- «أتفق معك».

قال الغرير وهو يحاول أن يبتسم: «أتمنى أن تسير الأمور على نحو مختلف معكما. ستصير الأمور مختلفة بالفعل، في وقت قريب، فسوف تصيران أمريكيين!».

قالت إيلينا: «إننا بالفعل أميركيون. القارة كلها أميركية».

تردَّد صدى ضحكة الغرير في النفق. عانقهما مودعًا إياهما، ثم ذهب في طريقه. وحين استدار أوليسيز كان العجوز قد اختفى. إنه سريع الحركة بالفعل كالغرير.

جذبته إيلينا من كُمه وقالت: «هل من المفترض أن يومض العنكبوت بالضوء الأحمر هكذا؟ أليس الضوء الأحمر علامة على الخطر؟».

وجَّه أوليسيز مصباحه اليدوي ناحية النفق، فوجد سحابة من الغبار تعيق طريقهما. قال: «نعم، علامة سيئة للغاية». ثم وجه المصباح إلى السقف. كان ثمة شق يمرٍ تحت الكابلات، وخُيِّل إليه أنه يسع طقطقته، وشاهد جذور النباتات المتدلِّية من السقف وهي تهتز في الضوء. بعد ذلك مد يده في حقيبته.

- «ما الذي يحدث؟».

قال: «ثمة انهيار في النفق أمامنا. علينا أن نحفر، هيا».

- «لكننا لم نصل إلى الجانب الآخر بعد، أليس كذلك؟».

تفقَّد أوليسيز الخريطة. اللعنة. «كلا لم نصل بعد. إننا ... إننا أسفل إحدى المزارع الشمسية، لكننا لا نزال في الجانب الأميركي». سحب جاروفًا ثم آخر، وناوله لإيلينا.

رفضت أن تأخذه منه وقالت: «أوليسيز، فكر في الأمر. سيجدون اثنين من المكسيكيين يحفران طريقهما خروجًا من أحد الأنفاق. سيروننا، العاملون في المزرعِة. سيرون أننا نحاول العودة إلى أميركا».

نظر أوليسيز إلى سحابة الغبار. اللعنة. وفي هذه اللحظة عاد العنكبوت إليه. كان مغطى بحبيبات الغبار، وكانت ثمة حصاة محشورة في مفصل إحدى أقدامه، كما كان هوائي الاستشعار مكسورًا. بصرف النظر عما كان يحدث في الأمام، فهو لا يزال يحدث.

قال: «إيلينا. علينا أن نخرج من هنا بأن نحفر طريقنا. قبل أن نُدفَن حيَّين».

أشارت إلى السقف وقالت: «وبفرض أننا نجحنا في الخروج، ما الذي سنقوله للناس هناك؟».

بدأ أوليسيز الحفر وقال: «سأفكر في شيء ما».

- «أشعر أنني لن يروق لي الأمر».

- «آه، أنا متأكد أنه لن يروق لكِ».

- «اخلعي ملابسك، الآن».

- «ماذا؟».

- «لدي فكرة».

نظرت إليه إيلينا بنظرة مفادها أنه من الأفضل أن تكون هذه الفكرة جيدة. لكنها خلعت حذاءها وبدأت في خلع ملابسها على أي حال، وانعكست الأضواء البيضاء والخضراء على مساحات مكشوفة متزايدة من جسدها. فك أوليسيز أزرار بنطاله وخلعه هو الآخر.

بعد ذلك احتضن زوجته.

- «ماذا تفعل بحق الجحيم؟ أيها الأخرق، لم أخلع حتى صديريتي ...».

- «توقفا! أظهرا أيديكما!».

ابتسم أوليسيز. ركع أرضًا ورفع يديه، وأسفله كانت إيلينا تنظر إليه في مقت شديد. وقفت بغضب وركعت على ركبتيها ورفعت يديها، وخلفهما كانت أصوات المفاتيح تصلصل وأضواء المصابيح اليدوية تتراقص. أتيحت لأوليسيز لحظة واحدة كي ينظر وراءه إلى زهرات اللوتس الصناعية الضخمة المفتوحة في سماء الليل، وكيف كانت النجوم تنعكس على أسطحها اللامعة، قبل أن

تُقيَّد يداه بالأصفاد. كان من المدهش للغاية مقدار تقبله للأمر، رغم أن هذا كان أسوأ ما يخشاه، وكل شيء عمل طوال حياته من أجل تجنبه: أن يُقبَض عليه على الحدود.

- «ما هذا بحق السماء؟» هكذا تحدَّث صوت لاهث متقطِّع. بغض النظر عن من يكون هؤلاء الأشخاص، فمن المؤكد أنهم أتوا جريًا.

- «سيدتي، هل أنت بخير؟» هكذا قال صوت آخر، صوت نسائي صارم.

- «ماذا؟» كادت إيلينا تنزل يديها، ثم تداركت نفسها. «أعني، نعم. أنا بخير».

- «هل كان هذا الرجل يهاجمك؟».

كاد أوليسيز أن يضحك، لكن صوتًا حكيمًا بداخله ذكره أنه كان أمام مجموعة من الأشخاص يحملون صواعق كهربائية، لذا تمالك نفسه. كانت حوامات المراقبة الحدودية الآلية مزودة برؤية حاسوبية تستحثها الحركة، وكانت مبرمجة على التعرف على كل أنواع الحركة: العدو والمشي والقفز، وكان من المنطقي أن تكون المضاجعة على هذه القائمة. كان الأمر واضحًا على أي حال. وفي نظر الكاميرات بدا ما كان أوليسيز يعتزم فعله أقرب إلى الاغتصاب بطبيعة الحال.

- «ماذا؟ كلا! هذا الرجل زوجي».

- «الاغتصاب الزوجي مشكلة خطيرة يا سيدتي، ولا يجدر بك أن تخافي من أن تخبرينا عن ...».

- «لم يكن يحاول اغتصابي أيها الأغبياء!» ثم أنزلت إيلينا يديها والتفتت مضيفة: «كان يحاول مضاجعتي. نحن نعيش هناك». ثم أشارت على نحو مبهم إلى الشمال، نحو أضواء ماريبوسا الساطعة. قالت بصوت لاهث بينما الأدرينالين يندفع في عروقها تاركًا إياها عاجزة عن العثور على الكلمات: «نحن ... لقد كنا فقط ...».

قال أوليسيز في صوت بدا شديد الثبات في أذنيه: «كنا فقط نريد أن نهرب من الكاميرات. نحن في فترة المراقبة، في ماريبوسا، وهناك نظام للنقاط، والهدف منه معرفة ما إذا كنت تحب زوجتك بالقدر الكافي، و...» توقف ولعق شفتيه «الأمر ... يسبب الفتور بيننا، تدركون ما أعني، أليس كذلك؟».

قالت إيلينا: «لذا فكرنا أن نخرج في الهواء الطلق».

- «ألا تمتلكان في منزلكما باحة أو شيئًا من هذا القبيل؟» هكذا تساءل أحدهم، وكان شابًا جديدًا في المهنة.

- «هناك كاميرات في باحة المنزل!» كانت إيلينا تتحدَّث وهي تشير بيديها، إذ كانت الآن تلعب دور المرأة اللاتينية شديدة العصبية. «بكل جدية، إنهم يراقباننا طوال الوقت».

تساءلت المرأة: «هل هذا قانوني؟ توجد في أريزونا قوانين ضد استراق النظر للغير، أعلم هذا لأن خليلي السابق ...».

- «كُفي عن الحديث عن خليلك السابق». ثم اقترب الرجل من ظهر أوليسيز وقال له: «لو تركتك تذهب أيها الشاب، هل ستجري مبتعدًا؟».

- «كلا يا سيدي، سأذهب إلى منزلي».

- «حسنًا إذن. أغلق سحَّاب بنطالك واستدر».

أغلق أوليسيز بنطاله ووقف في بطء. كانوا ضباط أمن تابعين لشركة خاصة. فلم يكونوا من حرس الحدود أو أمن المزرعة أو حتى من الميليشيات، مجرد ضباط في شركة أمن خاصة يعلو الغبار قمصانهم وتظهر تحت أعينهم هالات سوداء من فرط الإرهاق. وفوقهم كانت حوامات المراقبة الآلية تلتمع بضوء أخضر وهي تحوم في سكون. قاوم أوليسيز إغراء أن يخاطبهم على نحو مباشر.

قال: «نحن آسفان».

أضافت إيلينا: «نحن آسفان أشد الأسف».

قال أوليسيز وهو يشهق في بطء: «نعم، لقد كنا ... هذا المكان يثير الجنون، أتعلمون ما أعني؟ مجرد معرفتهم بكل ما تفعله، وما تبدو عليه، وكيف تتصرف في كل موقف...».

قالت إيلينا: «لم نمارس الجنس منذ أسابيع. صدقًا».

سألها الرجل: «أأنتما متزوجان؟».

- «أجل». هكذا أجابا في نفسٍ واحد.

ضحك رجال الأمن الثلاثة في آنٍ واحد. وقال الرجل: «اللعنة يا بني، فلتعتد على الوضع الجديد. أحضر ملابس زوجتك. هل تريدان منا أن نقلّكما إلى البلدة؟ سنساعدكما في تسوية الأمر هناك».

لم يرد أوليسيز، لكن إيلينا تقدَّمت وقالت: «سيكون هذا عظيمًا. أشكرك». ثم أشارت نحو أوليسيز واضافت: «هل ذكرت لكم أنها كانت فكرته هو؟».

أشاحت المرأة بعينيها، وأزاحت ضفيرة شعرها الفضية الطويلة جانبًا ثم ساعدت إيلينا في ارتداء قميصها وقالت: «خليلي السابق كان يتصرف هكذا. ذات مرة أراد أن نمارس الجنس أسفل مدرجات الملعب في المدرسة الثانوية. بطبيعة الحال علمت بعدها أنه كان يعبث مع فتاة في عامها الجامعي الأول، وكان عليَّ إنهاء العلاقة».

قالت إيلينا: «هذا أمر بدهي».

قال الرجل: «هلا توقَّفتِ عن الحديث عن هذا الأحمق؟ بأمانة يا جوان لقد سئمنا حديثك عن الأمر ...».

- «وهذا يعني أنك لم تتجاوزي الأمر بعد». هكذا قال الشاب وهو يحرك بعض المفاتيح وأضاف: «هل يمكنني القيادة؟».

- «كلا، لا يمكنك القيادة، دائمًا ما أخبرك أنه ليس بوسعك القيادة ليلًا. دعني أقود السيارة، ودعني أتولَّ الحديث حين نصل إلى ...» ثم أشار بسلسلة المفاتيح نحو شاحنة ضخمة أضيئت أنوارها وقال: «ما اسم البلدة مجدَّدًا؟».

قال أوليسيز: «ماريبوسا. نحن نعيش في ماريبوسا».

الرجل الذي باع القمر

كوري دوكتورو

ثمة شيء لم أكن أعلمه: هناك بعض الأورام السرطانية لا يمكن تشخيصها إلا بعد أسبوع من التحليل المعملي. لم أكن أعلم ذلك؛ لذا ذهبت إلى الطبيبة لأسألها عن الألم المزعج الذي أصاب ركبتي واشتد ولم يتلاشَ مثلما كان يحدث دومًا، بل كان يزدادا سوءًا باستمرار. تخيَّلت أن شيئًا داخلها قد تمزق، أو ربما أصبتُ بالتهاب المفاصل الذي عانى منه جداي. لكنها كانت من أولئك الأطباء الذين لم يحصلوا على المنشور الصادر من منظومة الرعاية الصحية الأمريكية والذي ينص على وجوب الاستماع إلى المريض لمدة ثلاث دقائق فقط، على أقصى تقدير، قبل كتابة أمر إحالة له أو وصفة طبية، أو الاثنتين، وصرفه من الباب في اللحظة التي يتم فيها إدخال المريض التالي. فقد استمعت لي، وأخذت تاريخي المرضي، ودونت أسماء مضادات الالتهاب التي قمت بتجربتها، كل شيء من الستيرويدات حتى وصفة طبية قوية خاصة بأحد رفاقي في رياضة التسلق من مضادات الالتهاب اللاستيرويدية، كما نخزت ركبتي بضع نخزات بحرص.

- «أنت مؤمَّن عليك، أليس كذلك؟».

قلت: «بلى. كان هذا أمرًا طيبًا؛ إذ قرأت أن عملية زرع الركبة تتكلف خمسة وسبعين ألف دولار. وهذا المبلغ يتجاوز ميزانيتي».

- «لا أظن أنك بحاجة لزرع ركبة يا جريج، فقط أريد إرسالك لإجراء بعض الفحوصات».

- «تقصدين أشعة مقطعية؟».

نظرت في عيني مباشرة وقالت: «كلا، أقصد خزعة».

أنا رجل أربعيني من لوس أنجلوس أنتمي للطبقة المتوسطة. كان منحنى الوفيات الاجتماعي الخاص بي موزعًا توزيعًا تقليديًّا تمامًا؛ بعض الوفيات المتقطعة والنادرة قبل بلوغ العاشرة، وأكثر قليلًا خلال سنوات المراهقة، ثم يزداد أكثر في العقد الثالث. مع بلوغي الخامسة والثلاثين، كان لدي حُلَّة للجنائز كنت أحتفظ بها في كيس من أكياس الغسيل الجاف في خزانة الملابس. لم تكن في البداية حلة جنائز، ولكنني ارتديتها في ثلاث جنائز على التوالي، ولم أستطع ارتداءها في أي مكان آخر دون الشعور بحزن غامض السبب ولا مسمى له. كنت في الأربعين من عمري. كانت احتمالات وفاتي في ارتفاع، وكان كل تجمع كبير للأصدقاء لا يخلو من مجموعة واحدة على الأقل من الأشخاص تكتسي وجوههم حزنًا يقفون معًا ويتذكرون شخصًا رحل مبكرًا للغاية. كان محتومًا أن يصاب واحد في دائرتي الصغيرة من أرباب الأربعينات

بالسرطان. لم يكن ثمة أي سبب أن أكون أنا هذا الشخص، ولكن أيضًا لم يكن ثمة أي سبب يمنع أن أكون أنا.

من الممكن أن يستغرق تشخيص سرطان العظام أسبوعًا. أسبوع! خلال ذلك الأسبوع، كنت أمضي الكثير من الوقت أحاول تخيل الإجراءات والعمليات الطبية البطيئة: تذويب الحمض لعينة العظام، والتحفيز البطيء لبعض المواد الكاشفة الغريبة، وهي عملية تتحول بموجبها بقعة ما إلى الأصفر ثم إلى البرتقالي، ثم بعد أيام، إلى الأحمر. أو لا تتحول، وكان هذا هو بيت القصيد. ربما لم يكن سرطانًا. وهذا هو ما دفعني لإجراء الاختبار، بدلًا من أخذ العلاج؛ فلم يكن أحد يعلم. ليس حتى تقوم تلك الجزيئات العنيدة في مختبر ما بمهمتها، ليس حتى يقوم روبوت طبي بأخذ أنبوب اختبار من حامل من الاستانلس ويفرغ محتوياته ويلتقط صورتها أو يحدد تركيبها الكيميائي وينبِّه أحد فنيي المختبر أن الدكتور روبوت قد توصل إلى استنتاجه وعلى الإنسان الأحمق أن يتفضل بالتحقق من سلامة النتائج ويتصل بالإنسان الأحمق الآخر ويخبره إن كان قد فاز بيانصيب السرطان (الجائزة الكبرى: السرطان).

كان أسبوعًا طويلًا. كانت كلمة «سرطان» أشبه بتكَّات بندول إيقاع. أفتح عيناي، سرطان. أحتاج للتبول، سرطان. أشعل ماكينة القهوة، سرطان. أطحن حبوب القهوة، سرطان، سرطان، سرطان.

في اليوم السابع خرجت من منزلي متوجهًا إلى «مينوس»، وهو معمل قراصنة الكمبيوتر المحلي الخاص بنا. فنيًّا، كان اسمه «أنتايتلد 1»؛ لأن لا أحد فكر في اسم أفضل له منذ عشر سنوات، حين كان يقع في مخزن لقطع غيار السيارات الرخيصة والقذرة في إيكو بارك. وعندما جرى تطوير إيكو بارك، تم نقل أنتايتلد 1 إلى وسط المدينة إلى مخزن سابق للأثاث بالقرب من منطقة سكيد رو، والتي سرعان ما بدأت حركتها التطويرية هي الأخرى. كنا آنذاك في الطابقين العلويين مما كان يومًا ما عيادة طبيب أسنان متواضعة في فينتورا بالقرب من ترازانا. كان الطبيب قد دعم الأرضيات من أجل المقاعد الكبيرة وأدخل خدمة 60 أمبيرًا من أجل أجهزة الأشعة السينية، مما جعلها مثالية لمتجر الأجهزة الخاص بنا والغرفة ذات المقاعد الخشبية المليئة بأجهزة الليزر. حتى إننا احتفظنا بدواليب الأبخرة.

لدي حاوية شخصية في مينوس تعج بمشروعات لم تكتمل: أجزاء متعددة لآلات ذكية للعب الشطرنج ذات طباعة ثلاثية الأبعاد؛ فنجان وطبق كنت أغطيهما بدقة بطلاء ومكونات مولدة للكهرباء؛ وحساس لا يحوي سوى

المكونات الأساسية لتحديد المواقع كنت أعبث به من أجل برنامج مينوس الفضائي.

كان برنامج مينوس الفضائي هو مشروعك الفضائي لإنشاء معمل قرصنة، من خلال إرسال بالونات إلى طبقة الغلاف الجوي العليا، وتصوير انحناء الأرض، وإبداء ملاحظات عن جودة الهواء والمناخ، وفي بعض الأحيان رفع دمية تجسيدية ساخرة ترتدي زي رائد فضاء مطبوع بالتقنية ثلاثية الأبعاد. كانت مجموعة هاكر دوجو، بشمال سان خوسيه، قد توصلت إلى جهاز توجيه صغير يعمل بالطاقة، إلا أنهم فشلوا في التعامل مع مشكلة الملاحة. وكان لإضافة جهاز تحديد مواقع (جي بي إس) احتياطي مع البطاريات المتصلة بالجهاز أثره في جعل الشيء أثقل مما ينبغي، لذا حاولوا اصطناعه بإجراء تقدير للموضع لكنه فشل إلى حد كبير. ظننت أنني قد يكون بإمكاني أن أجعل كل شيء أكثر خفة كثيرًا، بما في ذلك البطارية، باستعارة بعض التقنيات التي رأيتها في أحد مواقع سباق الدراجات.

وضعت الجي بي إس على طاولة عمل مع جهاز الكمبيوتر خاصتي، وفتحت ملف ملاحظاتي وأخذت أحملق فيها بعينين لامعتين. السرطان، السرطان، السرطان.

نسيت الأمر. وأعدت كل شيء إلى موضعه مجددًا وتوجهت إلى السطح من أجل تصفية ذهني وإيجاد رفقة. لم يكن السطح في مينوس مثل معظم الأسطح. فلم يكن مجرد حيز ممتد مغطى بالحصى تتناثر عبر أرجائه مراوح طرد، بل كان سطحنا واحدًا من أكثر أجزاء المكان ازدحامًا. فعلى حسب اليوم والوقت، كان يمكنك أن تجد كل أو أي مما يلي على سطح مينوس: تحديق في النجوم، تدخين، قفز حر من أماكن ثابتة، تجارب على الطاقة الشمسية، مناورات جوية بطائرات دون طيار، روبوتات أوتوماتيكية لرسم الجرافيتي، أعمال بستنة مكثفة موجهة بأجهزة إحساس، تربية حمام، جنس مسترق، ممارسة باركور، تجول تحت تأثير الهلوسة، قرصنة على شبكات الإنترنت اللاسلكية، عبث بالهواتف الخلوية، بث عبر راديو الهواة اللاسلكي، وبالطبع أناسًا عالقين ومحبطين وبحاجة إلى راحة من طاولات عملهم.

شققتُ طريقي عبر التجارب والمناقشات ومشروعات البناء، وانسللت خلسة من وراء أقفاص الحمام، وانتهى بي الحال بمشاهدة شخص كان يحاول، دون جدوى، تعلم كيفية تسلق جدار والقيام بحركة شقلبة كاملة. كان يتعلم على يد فتاة شابة، في السادسة عشر أو السابعة عشر، بدا واضحًا أنها ابنته (إذ كانت تناديه «أبي»)، وكان صبرها على وشك النفاد بينما كان يتهاوى

على الحصير الرياضي التي فرشاها على الأرض. أخذت أحدق فيهما عن بعد حتى توقف كلاهما عن الشجار أحدهما مع الآخر وراحا ينظران إلي شذرًا، لأجد أمامي رجلًا في الأربعينات من عمره ونسخة أنثوية مصغرة منه، كليهما غارق في عرقه. فسألتني الفتاة: «هل ثمة ما يضيرك؟».

قلت متلعثمًا: أعتذر»، وانصرفت، دون أن أضيف عبارة «لا أقصد أن أكون وقحًا، أنا فقط قلق بشأن السرطان».

كنت قد ابتعدت مسافة ثلاث خطوات حين رن هاتفي. كاد يسقط مني حين انتزعته من جيب بنطالي الجينز ويديّ ترتعشان. أجبته ووضعته سريعًا على أذني.

- «سيد هاريسون؟».

- «أجل».

- «أرجو الانتظار للتحدث إلى د. فيكسور». صوت تكتكة.

صوت تكتكة. «جريج؟».

قلت: «إنه أنا». كنت قد وقعت على وثيقة التنازل عن الحقوق التي أتاحت لنا تجاوز تفاصيل البروتوكول «الأمني» التي لا طائل منها والتي بموجبها يجب التأكد عند كل مكالمة من بتاريخ الميلاد واسم الأم الأصلي.

- «هل الوقت مناسب للحديث؟».

قلت: «أجل». مقطع واحد التصق في أذني وأطبق عليها. ربما صرخت به.

- «حسنًا، أود منك أن تأتي لإجراء بعض الفحوص التأكيدية، ولكننا أجرينا تحليلين وكلاهما سلبي بالنسبة للفوسفاتيز القلوية العالية ونازعة هيدروجين اللاكتات».

كنت قد طالعت بقلق شديد مئات الصفحات عبر الإنترنت التي تصف اختبارات الدم، وكنت أعلم ما يعنيه هذا، ولكن كان لا بد أن أتأكد. قلت: «إنه ليس سرطانًا، صحيح؟».

قالت الطبيبة: «هذه مؤشرات سلبية للسرطان».

خلفت تنهيدة التوتر التي انطلقت مني في عنف وكأنني تلقيت لكمة في البطن نوعًا من خواء هائل من الارتياح، ولكن ليس البهجة. ربما تأتي البهجة فيما بعد. أما في اللحظة الآنية، فكان الأمر أشبه بشعور تناول ثلاثة فناجين من القهوة أكثر من المعتاد. قلت: «دكتورة، هل لي أن أجرب معك افتراضًا؟».

- «سوف أبذل قصارى جهدي».

- «لنفترض أن القلق كان يراودك شخصيًّا من أن تكوني مصابة بسرطان العظام. لو حصلتِ على النتائج المعملية نفسها التي حصلت أنا عليها، هل كنت ستعتبرين نفسك عرضة لخطر الإصابة بسرطان العظام؟».

ردت قائلة: «أنت بارع جدًّا في ذلك». كانت تعجبني، ولكن عاداتها في الحديث كانت عادات شخص يذهب لحضور ندوة عن التأمين ضد المسؤولية مرتين سنويًّا. «حسنًا، وفق تلك الفرضية، كنت لأقول إنني أعتبر نفسي غير معرَّضة مؤقتًا لخطر سرطان العظام، ولكن سأكون بحاجة للتأكد من ذلك من خلال جولة جديدة من الاختبارات والتحاليل فقط من أجل بلوغ اليقين التام».

قلت: «فهمت. أنا بعيد عن جهاز الكمبيوتر خاصتي في الوقت الحالي. هل لي الاتصال بسكرتيرتك لاحقًا لترتيب ذلك؟».

قالت: «بالتأكيد. جريج؟».

- «نعم».

قالت: «تهانئي. انعم بنوم هانئ، اتفقنا؟».

قلت: «سوف أحاول. ستفيدني كلماتك بالتأكيد».

قالت: «ظننت ذلك. أحب إبلاغ الآخرين بالأنباء السارة».

كنت أظن أن مندوب التأمين الخاص بها لم يكن ليوافق على تلك الصياغة، ولكني كنت سعيدًا بقولها ذلك. دسست الهاتف في جيبي مرة أخرى، ونظرت إلى السماء شديدة الزرقة، التي كانت خالية من الغيوم عدا تلك الطبقة الرغوية الرقيقة من ضباب لوس أنجلوس التي كانت تحوم في الأفق. لقد كانت السماء نفسها التي كنت واقفًا تحتها قبل خمس دقائق. السطح نفسه. البناية نفسها. التجمع نفسه المثير للانتباه من الأشخاص غريبي الأطوار وهم يفعلون ما كانوا يفعلونه، ولكنني كنت شخصًا مختلفًا.

استحوذت عليَّ رغبة ملحة مفاجئة للذهاب وخوض بعض المجازفات: القيادة سريعًا على الطريق السريع، القفز من أعلى سطح مينوس، تجربة بعض حركات الباركور غير المستحسنة. كان جزء مني، ذلك الجزء الذي كان يبحث عن أنماط وسط هراء العشوائية اليومية، واثقًا من أنني على سلسلة من الحظ المتتابع وأراد أن يستغلها. أخبرت هذا الجزء أن يصمت وكبحته بقدر ما أستطيع. ولكنني كنت مفعمًا بفورة نشاط محتومة، كأن بإمكاني أن أطفو بخفة عبر السطح بلا أدنى تردد. كنت أعلم أنني إذا كنت قد مررت بوقت عصيب في التركيز فيما سبق، فإنني أواجه الآن صعوبة أكبر في الشروع في العمل. كان هذا ثمنًا زهيدًا عليَّ أن أدفعه.

جاء شخص من خلفي وقال: « مرحبًا، مرحبًا يا رجل؟».

خطر لي أنني الرجل المقصود، وأن هذا الشخص كان يناديني لفترة من الوقت، بنوع من الحدة اللينة؛ ليست غاضبة، ولكن بها إصرار. التفتُّ حولي ووجدتني أحدق في رجل هيئته كهيئة راكبي الأمواج في نصف عمري، وقد صفف شعره باهت اللون على شكل ذيل حصان، ويرتدي شورتًا وقميصًا رياضيًّا ذا أكمام طويلة مبقعًا بالشحم، وحافي القدمين، رابضًا مثل صياد تايلندي على ردفيه، وقد برزت عضلات ربلة ساقه مثل الأسلاك، وارتكزت أطراف أصابعه بخفة على أحد الأجهزة.

كان مينوس ممتلئًا بالأجهزة نصف المكتملة، وقد صنفرت لتصبح ذات شكل لائق، وطليت لتغطيتها، وكان بها الكثير من الأسلاك المكشوفة، والدوائر الكهربية المطبوعة، ونقاط من الغراء الساخن والبوليمر اللاصق التي تثبِّت أجزاءها في مواجهة قوى القص والعزم والقصور الحراري. ولكن حتى بهذه المعايير، كان الجهاز الخاص براكب الأمواج مثيرًا للانتباه إلى حد ما. كان عبارة عن عدسة - كبيرة ومستديرة ومصقولة، وتتخذ شكل أداة مصنوعة بدقة هندسية في ورشة صناعية حقيقية - وليست شيئًا تم تجميعه في معمل للقرصنة.

قلت: «مرحبًا».

قال: «الظل يا رجل».

كنتُ ألقي ظلًّا على العدسة. فتنحيت بذكاء إلى أحد الجوانب لتخترقها شمس لوس أنجلوس القاسية، متركزة من خلالها على تجويف أبيض على شيء أشبه بسرير أسفل العدسة. رفع لي راكب الأمواج إبهامه علامة على الاستحسان

وشرع ينظر بعين نصف مغمضة إلى شاشة جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به.

قلت له: «ما قصة هذا الشيء؟».

فقال: «أوه، إنه جهاز تلبيد شمسي. [(4)] إنه يستخدم طاقة الشمس في الطباعة ثلاثية الأبعاد». بدأ السرير في الاهتزاز والتحرك مع الحركة الراقصة للمحرك المتدرج المميز لطابعة ثلاثية الأبعاد. وأحدث شعاع الضوء صوتًا كقدح السمن على السرير مثل طرف مكواة لحام، مطلقًا خيطًا رفيعًا من الدخان مثل وميض يتلألأ في وهج الشمس. كانت هناك رائحة طيبة تفوح منه، تحركتُ في عكس اتجاه الدخان، رغبة مني في عدم استنشاق أي مواد متطايرة عطرية تنبعث من أداة الطباعة.

قلت: «هذا رائع للغاية. هل يعمل؟».

فابتسم قائلًا: «نعم، يعمل. هذا هو الجزء الذي أهتم به». وراح يكتب مزيدًا من الأوامر على الكمبيوتر وارتفع الشيء بأكمله على عجلات مجوفة وتزحزح بقدر ضئيل إلى الأمام بحركة بطيئة كحركة السلحفاة.

- «إنه يمشي؟».

- «نعم، الفكرة هي أن تتركه في الصحراء وتعود في خلال شهرين ليكون قد حول الرمال التي تنتشر حول وعاء التعبئة المثبت به إلى ألواح جاهزة يمكنك تركيبها معًا لبناء مأوى».

قلت: «آه، وماذا عن الرمال التي على اللوحة الشمسية؟» كان تفكيري منصبًّا على عربات المريخ الجوالة التي كانت تميل لفقدان الاتصال مع الأرض حين تتناثر كمية أكثر من اللازم من الغبار المريخي حول خلاياها الكهروضوئية.

«ما زلتُ أعمل على هذا الأمر. أستطيع أن أجعل العدسة والخلية الكهروضوئية تتحركان إلى الجانب وتهزان نفسيهما». وأشار إلى عدد من المحركات الصغيرة قائلًا: «ولكن الأجزاء المتحركة كثيرة. أريدها أن تعمل دون رقابة لشهور في المرة الواحدة».

قلت: «ماذا؟ لن يكون هذا أشبه بمهرجان الرجل المحترق، [(5)] أليس كذلك؟».

ابتسم ابتسامة مشوبة بالحزن. «أهو واضح لهذه الدرجة؟».

صراحة، لقد كان الأمر واضحًا بالفعل. فقد كان نصف مينوس من مرتادي المهرجان، وكانوا جميعًا يحملون قدرًا من هيئته التي تتسم بالغرابة الجذابة. قلت: «إنه مجرد تخمين حالفني الحظ فيه»؛ لأن لا أحد يرغب في أن يتم تذكيره بأنه شخص من نوعية خاصة؛ خاصة إذا كانت هذه النوعية خارجة عن المألوف.

اعتدل في جلسته ومد يده. كان قد فقد أنملة إصبعه السبابة، وكانت بقية أظافر أصابعه سوداء من أثر الشحم. صافحته، وكانت قبضته دافئة، وقوية وجافة وقاسية من الجسأة. كان يمكنك أن تضعها في متحف وتسميها «يد قرصان إلكترونية».

قال: «أنا بَج».

- «وأنا جريج».

- «إذن الخطة هي أن تجلبها إلى الصحراء من أجل حفل الجُبلايا في الرابع من يوليو، وتقوم بتشغيلها طوال الصيف، ثم تعود من أجل مهرجان الرجل المحترق، وتقوم بتركيب القطع معًا».

- «وما هو احتفال الجُبـ... أيًّا كان الاسم؟».

- «جُبلايا. إنه حفل يقام في الرابع من يوليو في صحراء الصخرة السوداء. إنه يشبه كثيرًا طقوس مهرجان الرجل المحترق المعتادة، حيث كان شعار «السلامة تأتي ثالثًا» هو الضوء الإرشادي وليس مجرد مزحة. يكون الاحتفال أصغر وأعنف، وأقل انغلاقًا، وتكون الأسلحة أكثر. إنه أكثر غرابة وحدة».

وراح جهازه يزمجر وتعطل؛ فنظر إليه بازدراء ووكز أحد محركاته المتدرجة بإبهامه، وزمجر مرة أخرى. قال لي: «عذرًا»، وجثا على ركبتيه بجواره. راقبته وهو يحاول إصلاحه بلا اكتراث لفترة، ثم انصرف، وقد غرق وسط دخانه الإبداعي.

عدت إلى مينوس، ووضعت أشيائي في موضعها، وأخذت أثرثر مع بعض الأشخاص كنت على معرفة بهم نوعًا ما حول أمور تافهة، وسط سحابة من اللاواقع. كان ذلك من آثار أسبوعي الذي امتلأ بالقلق وما تبعه من زوال مفاجئ، ولا أتذكر مطلقًا ما تحدثنا عنه. وبعد ساعة أو اثنتين من هذا، أدركت

فجأة أنني مقهور بشدة، أعني محبط ومحطم. ودعت الجميع - أو ربما لم أفعل، لم أكن لأقسم جازمًا بذلك - وخرجت لأبحث عن سيارتي. كنت أجول عبر ساحة المرآب، منهكًا زر الإنذار في سلسلة مفاتيحي ضغطًا، ثم صادفتُ بَج. كان يحمل (بالكاد) صندوقًا ضخمًا، وهو يجرجر قدميه ويظهر رأسه بصعوبة من أعلاه. كنت في شدة الإرهاق، ولكن كان من الوقاحة ألا أساعده.

«أتحتاج إلى مساعدة؟».

فقال: «مرحى يا رجل» وهو ما اعتبرته إجابة بالإثبات. أمسكت بأحد جوانب الصندوق وسرنا للخلف. لم يكن الصندوق ثقيلًا، ولكنه كان ضخمًا، وحين وصلنا إلى شاحنته الصغيرة المهترئة، ركل الباب الخلفي فاتحًا إياه، ثم وضع الصندوق مثل خبير في إبطال القنابل يبطل عبوة ناسفة خطيرة. ونفَّضَ يديه على بنطاله الجينز وقال: «شكرًا لك يا رجل. لن تصدق قيمة هذه العدسة». بعد أن تمكنت من النظر إلى قمة الصندوق، أدركت أنه كان عبارة عن طبقات مبطنة من القماش الخالي من النسالة والأغلفة البلاستيكية الواقية ذات الفقاعات وقد وُضعت العدسة وسط كل هذا، والجهاز أسفله. «تعلم أن مينوس مكان آمن، ولكني لا أريد المخاطرة بلا داعٍ. أنا واثق بنسبة 99 بالمائة من أنهم لن ينهبوه أو يستخدموه كقرص هوائي، ولكن وجود نسبة مخاطرة ولو واحدًا في الألف أمر لا أتحمله». ووضع بعضًا من الشرائط المنسوجة المرنة عليها وثبَّتها بمرابط مثبتة بمسامير ملولبة داخل صندوق السيارة ذي الملمس الدهني.

قلت: «أمر معقول».

- «جريج يا صديقي، هل لي أن أسألك سؤالًا شخصيًّا؟».

- «أعتقد ذلك».

- «هل أنت على ما يرام؟ أعني أنك تبدو وكأنك قد ضربت على أم رأسك بقالب طوب. هل تعتزم الذهاب بالسيارة إلى مكان ما؟».

قلت: «آه، حقًّا؟ أنا حقًّا لست بخير. ولكن يجب أن أكون كذلك». وبحت له بكل شيء عن الانتظار والتشخيص.

- «حسنًّا، لا غرابة في ذلك. أهنئك يا رجل، سوف تعيش! ولكن ليس إذا حطمت سيارتك وأنت في الطريق إلى المنزل. ماذا لو قمت بتوصيلك؟».

- «لا مانع، في الحقيقة ...».

رفع إحدى يديه، وقال: «جريج، أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفني، ولكنك لا تستطيع القيادة الآن، الأمر يبدو وكأنك احتسيت للتو بضع كؤوس من التكيلا. لذا بإمكاني توصيلك أو طلب سيارة أجرة لك، ولكن إذا حاولت الدخول إلى سيارتك، سوف أتشاجر معك حتى أجعلك تمل وتستسلم. ماذا تختار إذن؟ أقوم بتوصيلك؟ أم سيارة أجرة؟».

كان محقًّا تمامًا، وكنت أكره ذلك. فأعدت مفاتيحي إلى جيبي مجددًا قائلًا: «لقد فزت. سوف أقبل تلك التوصيلة».

قال: «عظيم»، وابتسم لي ابتسامة بوذية لها طابع الصفاء والسكينة المميز لسكان جنوبي كاليفورنيا وأضاف: «أين تقطن؟».

أجبت قائلًا: «إرفين».

فتأوه قائلًا: «هل أنت جاد؟» لقد كان الوصول إلى إرفين يستغرق ثلاث ساعات بالسيارة في الزحام.

قلت: «لا لست جادًّا. أنا أقطن في بوربانك. لقد أردت أن أعلمك درسًا بشأن الإفراط الزائد في الكرم».

قال: «تعلمت الدرس. لن أكون كريمًا أبدًا مرة أخرى». ولكنه كان يبتسم.

جلستُ في مقعد الراكب. كانت تلك السيارة تفوح برائحة عرق وآلات، وكانت دواسات الأرضية رمادية باهتة وذات ملمس قاس من بقايا هذا المبدع: بطاريات فارغة، أكواب قهوة، أدوات سمكرة، كابلات يو إس بي، وقوابس شاحن ولاعة السجائر. أعدت رأسي للوراء على مسند الرأس ونظرت عبر النوافذ القذرة عبر عينين نصف مفتوحتين بينما كان يلج إلى الجانب الخاص بالسائق ويقوم بتشغيل المحرك، ثم أطفأ صوت البودكاست الذي بدأ ينطلق من السماعات.

- «بوربانك، أليس كذلك؟».

قلت: «أجل». كان صدري، ورسغاي، وكاحليَّ ينوؤوا بأثقال خفية غير ظاهرة. وغمرتني السعادة لأنني لم أكن خلف عجلة القيادة. انعطفنا في اتجاه فينتورا بولِفارد وواصلنا التقدم ببطء عبر الزحام المروري في اتجاه الطريق السريع.

- «هل ستكون على ما يرام وأنت بمفردك؟».

- «الليلة؟ أجل، مؤكد. صراحة، هذا لطيف منك حقًّا، ولكن الأمر، أيًّا كان لا يعدو مجرد أثر. أعني أنني لا أحتضر. بل على العكس من ذلك، أليس كذلك؟».

- «معقول. أنت فقط تبدو في حالة مزرية».

أغمضت عينيَّ وبعدها شعرت بحركة السيارة تتسارع عندما وصلنا إلى الطريق السريع واتخذنا الحارات المخصصة للسيارات عالية الإشغال. ضغط على دوَّاسة البنزين وانطلق المحرك بسرعة أعلى.

- «أنت لست من الحارقين، أليس كذلك؟».

كتمت صوت أنين بداخلي. فالحارقون هم شهود يهوه المنتمون للثقافة المضادة. قلت: «كلا». ثم قلت ما أقوله دومًا. «يبدو الأمر فقط وكأنه يتطلب الكثير من الجهد».

زمجر قائلًا: «أنت تظن أن الرجل المحترق يشكل جهدًا كبيرًا، إذن يجب أن تجرب احتفال الرابع من يوليو. لا قواعد، لا حراس. الكثير من الأسلحة. الكثير من الانفجارات الخطيرة. جنس عرضي. لا يوجد مقهى. لا وجود لمتواكلين. مخدرات. رياح عاصفة. شمس حارقة. حركة دائمة عنيفة بلا توقف. إنه أشبه ببحيرة صحراوية نقية مقطرة».

تذكرتُ ذلك الشعور، كان يشبه ذلك الذي انتابني حين أردت القفز من أعلى السطح. قلت: «لا بد أن أعترف أن هذا يبدو مدهشًا تمامًا. وجنونيًّا أيضًا».

- «نعم، كلاهما معًا. هل ستأتِ؟».

اتسعت عيناي دهشة وقلت: «ماذا؟».

- «حسنًّا، أنا بحاجة إلى مساعدة في الطابعة. لقد اطلعت على بياناتك في قاعدة البيانات الخاصة بمينوس. إن لك خبرة في علم تصميم الروبوتات، صحيح؟».

قلت: «قليلًا».

- «وتقول البيانات إنك صممت بعض طابعات الريب راب؟».

قلت: «لقد صممت طابعتين ناجحتين». كان تصميم طابعتك ثلاثية الأبعاد القادرة على طباعة معظم الأجزاء اللازمة لتصميم نسخة من نفسها طقسًا انتقاليًّا معروفًا بالصعوبة لدى المولعين بالقرصنة. ثم أردفت قائلًا: «ونحو أربع لم تعمل قط أيضًا».

قال: «لقد عينتك مهندسًا مساعدًا أول. يمكنك الحصول على نصف شاحنتي، وسوف أحضر المُبرِّد، ومستلزمات الشواء وكتف الخنزير على ثلج جاف، وبرميلًا خشبيًّا صغيرًا من الجعة، وبعض النظارات الواقية الاحتياطية».

قلت: «هذا لطف جم منك».

قال: «أجل، إنه كذلك. اسمع يا جريج، أنا شخص طيب، وبإمكانك أن تسأل عني. وبطبيعتي لا أقدم على دعوة الآخرين لاحتفال الرابع من يوليو، فهو شيء خاص. ولكنني حقًّا أحتاج إلى بعض المساعدة، وأعتقد أنك بحاجة إلى المساعدة أيضًا. إن شعورك بالدنو من الموت لمدة أسبوع يتطلب احتفالًا لائقًا يخلده. إذا تركت حدثًا كبيرًا كهذا يمر مرور الكرام دون تمييز، فإنه يتراكم في الذاكرة فقط كما تعلم. مثل لويحة شريانية. ينبغي التخلص منها».

أترى، هذا هو الشيء المميز بشأن الحارقين. فالأمر بالنسبة لهم دين وديدن. لا بد من إنقاذ الجميع.

قلت: «سوف أفكر في الأمر».

- «جريج، لن تنزعج مما أقول، أليس كذلك؟».

- «اتفقنا».

- «حسنًّا. أراهن أنك من نوعية الأشخاص الذين يمضون الكثير من الوقت في «التفكير في الأمر»».

ابتلعت الرد الفظ ولم أنبس بكلمة.

- «وأنت الآن تغلي بداخلك. أنت تقليدي للغاية أيها الرجل. اسمع، استمر في ابتلاع مشاعرك وسوف ينتهي بك المطاف بالموت بسبب شيء سريع وطائش. يمكن أن تفعل ما شئت، ولكن ما أعرضه عليك هو شيء توجد جحافل من الناس على استعداد للقتل من أجله. أربعة أيام تنسى فيها من أنت، وتكون الشخص الذي ترغب في أن تكونه. نجوم، غبار، جنس، مخدرات، انفجارات، وإطلاق نار. لن تحظى بعروض كثيرة كهذه، هذا هو ما أقوله».

- «وأنا قلت إنني سأفكر في الأمر».

قال بينما يأكل ثمرة من التوت الأحمر بصوت عالٍ: «نعم، عظيم، هذا رائع». وواصل القيادة في صمت. تفرع الطريق السريع 101 إلى طريق مسدود. فراح ينقر على الهاتف القديم المعلق بلوحة القيادة بمشبك فيلكرو وحصل على رسم توضيحي للسيولة المرورية، والذي ظهر باللون الأحمر على مدى عشرة أميال.

- «لا أرغب في الجلوس في هذه السيارة على مدى الخمس وأربعين دقيقة القادمة وأنا أستمع إلى سكوتك. ما رأيك في هدنة؟ لن أذكر شيئًا عن الاحتفال، وتتظاهر أنت بأنك لا تظنني هيبيًّا معتوهًا، وسوف نبدأ من جديد، اتفقنا؟».

كان أكثر ما أدهشني هو مدى النضج العاطفي الذي تميز به العرض. فلم أكن أعرف قط كيف أخرج من المشاحنات الغبية، وهذا هو ما جعلني أصل إلى سن الأربعين وأنا ما زلت أعزب. فأجبت قائلًا: «اتفقنا».

وهكذا تجاوز الأمر ببساطة، وانتهى بنا المطاف بالحديث عن موضوع ذي صلة - التلبيد الشمسي الانتقائي بالليزر - وبعض من الأشياء ذات الرائحة

الكريهة التي كان مضطرًّا للتعامل معها خلال المشروع. «كثير من الناس قاموا به باستخدام الرمل، ولكنني أريد صهر الجبس. نظريًّا، ليس عليّ سوى الوصول إلى 85 بالمائة من الحرارة للحامه، ولكن يوجد به الكثير من الشوائب لدرجة تمنعني من الاعتماد عليه أو التنبؤ بما سيحدث».

- «ماذا لو قمت أولًا بغربلته أو شيء من هذا القبيل؟».

- «حسنًّا، إذا أردت أن أقوم بتشغيله بلا مراقبة، أظن أنني لن أرغب في الاضطرار لضم جهاز طرد إليه. فذرات غبار البحيرة الصحراوية الجافة متناهية النعومة، وتدخل في كل شيء. أعني أنني قد شاهدت سيارات ذات أشكال فنية لها محامل محكمة الغلق يفترض أن تعمل في الفضاء تصبح قذرة وكريهة الرائحة بعد بضع سنوات بسبب هذا الغبار».

أخذت أفكر في المشكلة بتروٍ. «ربما يمكنك تجربة وعاء ترسيب، وهو عبارة عن شيء يستخدم الرياح من أجل إحداث حركة الثوران من خلال شرائط منخلية مُدرَّجة، ولكنك ستكون بحاجة إلى إزالة ما يعلق بها بشكل ما». واستغرقت في التفكير أكثر. «بالطبع يمكنك أن تتخلص من الفضلات والبقايا بصهرها حين لا تكون متأكدًا، فقط أشعل بها النار حتى تطوعها».

ولكنه كان يهز رأسه نفيًّا بالفعل وقال: «لا جدوى من ذلك؛ فسخونتها تشتد للغاية ولا يمكنني ضبط الوقت بشكل صحيح، ما يؤدي إلى سيلان كل العناصر».

قلت: «ماذا عن استخدام حساس؟ حاول أن تحدد مدى سيلانها، ثم قم بضبط مسار المرور التالي على هذا الأساس؟».

فقال: «فكرت في ذلك. ما أفكر فيه أن هناك طرقًا عدة يمكن أن يفشل بها الأمر. تذكر أن هذا الشيء لا بد أن يعمل حيث لا يمكن لأحد الإشراف عليه ومراقبته. وأنا أريد إنزاله في يونيو وأنتقل إلى المنزل الذي يشيده لي بحلول سبتمبر. ولا بد أن يكون آمنًّا جدًّا جدًّا من التعطل».

فهمت مقصده، ولكن لم أكن واثقًا من أنني أتفق معه. فقد كانت الحساسات البصرية حلًّا معقولًا، وكذلك البرنامج الخاص بتفسير ما كانت تراه. كنت على وشك فتح الكمبيوتر المحمول الخاص بي والبحث عن فيديو تذكرت أنني قد شاهدته حين ضغط على المكابح بعنف وأحدث ضجيجًا مدويًّا. شعرت برجَّة الفرامل المانعة للانغلاق بينما انحرفت مؤخرة الشاحنة الصغيرة من جانب لآخر قليلًا وسمعت صوت بوق سيارة يدوِّي من خلفنا. كانت لدي لحظة واحدة

للتمعن في المصد تأخذ في الاقتراب منا والخاص بشاحنة البستاني التي كانت أمامنا قبل أن نصطدم به من الخلف. اندفعت إلى الخلف في مقعدي بفضل الوسادة الهوائية قبل ثانية واحدة من ارتطام السيارة القادمة من خلفنا بنا، لتنزلق مقدمتها المنخفضة أسفل مصد سيارتنا الخلفي بما جعل الجزء الخلفي لسيارتنا يرتفع على الأرض. توقفت السيارة قبيل أن يخترق مصد سيارتنا الخلفي زجاجها الأمامي، وبهذا أُنقِذَ السائق من إصابات جسيمة بالوجه بل وربما انفصال تام للرأس.

بدا الصوت وكأنه صادر من تحت الماء بينما كان يمر عبر الوسادة الهوائية، ولكن عندما حررت نفسي منها، عاد كل شيء كما كان. كان بَج بجانبي يصدر ضوضاء غاضبة ويحاول الانعطاف. كان عالقًا بين بقايا وسادته الهوائية، وبدت ذراعه اليمني وكأنها قد أصيبت بكسر؛ إذ كانت تتدلى في تراخٍ مثير للاشمئزاز». يا إلهي، العدسة ...».

نظرت إلى الوراء بعفوية، ورأيت أن مؤخرة السيارة لم يمسسها شيء، وإن كانت قد أصبحت أعلى مما ينبغي أن تكون عليه بعدة أقدام، وقلت: «رائع يا بَج. لقد انزلقت السيارة التي خلفنا أسفلنا. ولكن لا تتحرك، لقد أضيرت ذراعك».

فنظر إلى أسفل ورآها وارتخت عضلات وجهه وقال: «هذا ليس بالأمر الجيد». كانت حدقتا عينيه متسعتين بشكل هائل، وكان وجهه شاحبًا لدرجة الاخضرار.

قلت: «أنت في حالة صدمة».

فقال بصوت واهن: «أجل».

قمت بعملية جرد شخصي سريعة، محركًا جميع أطرافي ومديرًا رأسي بشكل تجريبي في كلا الاتجاهين. وبعد أن تأكدت من عدم إصابتي بأذى، قمت بتقييم سريع للسيارة وما حولها. كانت الحركة المرورية في الحارة المجاورة متوقفة أيضًا؛ فبالنظر من أعلي كتفي، استطعت أن أرى حادثًا بسيطًا على بعد سيارتين إلى الخلف حدث بلا شك جراء حادث الاصطدام الذي تعرضنا له. ترجَّل الرجل الذي أمامنا من شاحنته وتوجه نحونا بتؤدة، مما أوحى بأنه لم يصب بأذى، أيضًا لم يكن يتأهب لإطلاق الرصاص علينا لاصطدامنا به من الخلف، ومن ثم أعدت انتباهي إلى بَج. قلت له: «لا تتحرك»، ودفعت وسادته الهوائية جانبًا وفككت حزام أمانه، معيدًا إياه إلى بكرته بحرص دون السماح له بالاحتكاك بذراعه. وبعد أن انتهيت، فحصته فحصًا سريعًا، محركًا يديّ بخفة

على ساقيه، وصدره، ورأسه. لم يعارض - أو يصرخ من الألم - وانتهيت دون أن أجد آثار دماء على يديَّ، وكان ذلك أمرًا جيدًا.

قلت: «أظن أنها ذراعك فقط». تركزت عيناه على وجهي للحظة، ثم شرد بنظره.

قال وعلى وجهه نظرة مشوشة: «العدسة».

فأجبته قائلًا: «إنها بخير».

فكرَّر مرة أخرى «العدسة»، وحاول مجددًا أن يستدير في مقعده. وفي هذه المرة انتبه لذراعه المرتخية وأطلق آهة بسيطة. ثم حاول مجددًا معاودًا التأوُّه.

قلت له وأنا أمسك ذقنه وأدير وجهه في اتجاه وجهي: «بَج». كانت بشرته رطبة وباردة. «أنت مصدوم وذراعك مكسورة يا رجل. يجب أن تبقى بلا حركة إلى حين وصول سيارة الإسعاف إلى هنا. ربما تكون لديك إصابة بالعمود الفقري أو ارتجاج. أريدك أن تبقى مكانك بلا حراك».

فقال: «ولكن العدسة. لا أستطيع تحمل تكلفة واحدة أخرى».

- «هل ستبقى مكانك إذا ذهبتُ للاطمئنان على العدسة؟» بدا الأمر وكأنني أساوم شخصًا ثملًا صعب المراس على مفاتيح سيارته.

قال: «أجل».

- «فلتبق هناك».

ساعدني صاحب الشاحنة على الخروج من السيارة، وسألني: «هل أنت بخير؟» كانت له لكنة روسية ويدان خشنتان كيد بستاني وسمرة كسمرة مزارع.

أجبت قائلًا: «أجل. وأنت؟».

- «أظن ذلك. ولكن أضيرت شاحنتي».

كانت شاحنة بَج قد تداخلت على نحو كارثي مع مؤخرة الشاحنة، ما أدى إلى تشويهها حول منطقة الاصطدام في الشاحنة. وكنت مدركًا تمامًا أنها ربما تكون مصدر رزقه.

قلت: «لقد كُسر ذراع صديقي. كما أنه مصاب بصدمة. أنا واثق أنكما ستستطيعان صرف التأمين بمجرد وصول موظفي الإسعاف. هل اتصلت بهم؟».

قال: «زميلي يتولى ذلك»، مشيرًا إلى الشاحنة. كان هناك شخص ما في مقعد الراكب ومعه هاتف مثبت على رأسه أسفل حافة قبعة رعاة بقر.

قال بَج: «العدسة».

انحنيت إلى أسفل وفتحت الباب وقلت: «اهدأ، سأتولى الأمر». هززت كتفي في لا مبالاة للرجل المترِّجل من الشاحنة الكبيرة واستدرت عائدًا. كانت مؤخرة السيارة بأكملها مرفوعة عن الطريق، وكانت العجلتان الخلفيتان لا تزالان تدوران ببطء. وتبين لي من التقييم الأولي أننا لم نصب بأذى. ولم يكن بالإمكان قول الشيء عينه بالنسبة إلى السيارة الهجينة المنخفضة التي صدمتنا من الخلف، والتي تفلطحت بشكل كبير جراء احتكاكها الفظيع أسفلنا، لدرجة أن واحدًا من إطاراتها قد انفجر. ترجلت قائدة السيارة وكانت تتكئ عليها على نحو غير متزن. لوحت لي بنصف تلويحة بسيطة ونصف ابتسامة صغيرة، ورددت عليها بالمثل. فتحت الباب الخلفي للسيارة واطمأننت على سلامة الصندوق. لم ينبعج. فناديت بصوت عال قائلًا: «العدسة بخير». ولكن لم يصدر بَج أي إشارة على أنه قد سمع ما قلت.

بدأ القلق يراودني؛ فاستدرت بخطى سريعة حول مؤخرة السيارة ثم هرعت نحو الجانب الخاص بالسائق وجذبت باب بَج بقوة فاتحًا إياه. كان فاقد الوعي، وازدادت تلك اللمعة الرمادية التي على وجهه ابيضاضًا. كانت أنفاسه تخرج في شكل نوبات نهيج ضحلة قليلة وكان رأسه مرتخيًّا إلى الخلف في مقعده. زحف الذعر حتى بلغ حلقومي وابتلعته. نظرت إلى أعلى على نحو سريع وصرخت في وجه سائق الشاحنة: «لقد اتصلت بالإسعاف، أليس كذلك؟» لا بد أن الرجل سمع شيئًا في صوتي؛ إذ وجدته بعد لحظة واقفًا بجواري.

قال: «إنه مصاب بصدمة».

- «لقد مرت سنوات منذ قمت بإسعافات أولية».

قال: «ضعه في وضع التعافي. فك ملابسه، وغطه ببطانية».

قلت مشيرًا إلى ذراعه: «وماذا عن ذراعه؟».

أجفل فزعًا وقال: «سنضطر لتوخي الحذر». ثم أردف: «اللعنة». فقد كانت حركة المرور خلف السيارة على وشك التوقف التام. حتى الدراجات البخارية كانت تواجه صعوبة في التنقل بين الحارات المرورية بين السيارات الملاصقة بعضها بعضًا.

- «سيارة الإسعاف؟».

فهز كتفه قائلًا: أعتقد أنها في الطريق». وضع أذنه بالقرب من فم بَج، وأنصت إلى تنفسه، ووضع إصبعين من أصابعه على حنجرته وراح يتحسسها. «أعتقد أن من الأفضل أن نجعله في وضع الاستلقاء».

كانت السيدة التي تقود السيارة الأخرى تمتلك بطانية في صندوق سيارتها، فقمنا بفردها على الأرض العشبية بمحاذاة الجزيرة الوسطى التي كانت تتلألأ بقطع من الزجاج المكسور. قامت السيدة - وكانت شابة لاتينية، ترتدي ملابس رياضية - بالإمساك بذراع بَج بينما قمت مع البستاني بحمله من الطرفين ومددناه على الأرض. وجد الرجل الآخر الذي كان في الشاحنة الكبيرة بعض الإشارات الضوئية في حقيبة عدة تحت مقعد الشاحنة وأشعلها على الطريق من خلفنا. كنا نعمل بأقل قدر من الكلام، وبالنسبة لي كانت أصوات الطريق والتشوش العقلي الغريب الذي تلا مشاعر القلق التي انتابتني تتحد على صورة ضوضاء مُدركَة بالكاد. قلبنا بَج على جانبه، فيما قمت أنا بطيِّ سترتي لأسند ذراعه بها. كان يتأوه؛ فقام البستاني بفحص نبضه مرة أخرى، ثم طوى سترته واستخدمها لدعم قدميه.

قال: «عمل جيد».

فهززت رأسي موافقًا.

قال البستاني: «إنه شيء مجنون بحق».

قلت: «آها». وأخذت أعبث بشعر بَج بشكل أخرق. كان ذيل الحصان قد انفك وكان يتدلى على وجهه. كان ملمسه جافًّا وسلكيًّا، وكأنه قد أمضى وقتًا طويلًا في الشمس.

- «هل رأيته؟».

- «ماذا؟».

هز رأسه وقال: «الشيء الأكثر جنونًا على الإطلاق. لقد تحطم أمامنا مباشرة». تحدث بلغة روسية سريعة - أم لعلها كانت البلغارية؟ - إلى صديقه الذي جاء مسرعًا نحونا. وأعطاني الرجل شيئًا ما لأراه. نظرت إليه، محاولًا فهم ما أراه. كان عبارة عن معدن وبلاستيك تالف، وبعد ثانية واحدة فهمت ماهية هذا الشيء؛ لقد كان عبارة عن طائرة صغيرة دون طيار، نوع من المروحيات. كان لها أربع دوارات؛ لا بل ست، وكانت بها كاميرتان. كنت قد صنعت بعض النماذج المشابهة، بل إنني فقدت السيطرة على البعض منها في شبابي. استطعت بسهولة أن أرى كيف استطاع شخص مثلي، يجرب طائرة صغيرة دون طيار مصنوعة من مجموعة أدوات أو تم شراؤها مجمعة بالكامل، بسهولة أن يفقد مسار البطارية أو يطير على ارتفاع قريب للغاية من تيار صاعد ويتعرض للتحطم. كان محظورًا من الناحية التقنية أن تقوم بتسيير طائرة عدا فوق عقارك الخاص، ولكن كان تطبيق ذلك شبه مستحيل. فقد كانت هذه الطائرات تطير في كل مكان.

وافقته الرأي قائلًا: «إنه الشيء الأكثر جنونًا بالفعل». وسمعت أصوات صفارات الإسعاف.

أعجب أفراد فريق الطوارئ الطبية بعملنا وأخبرونا بذلك، وسمحوا لي بالركوب معهم في سيارة الإسعاف، رغم أن هذا ربما كان على افتراض أن بإمكاني المساعدة في أي أوراق خاصة بالتأمين تحتاج لملئها. بدت عليهم خيبة الأمل حين أخبرتهم أنني لم ألتق بَج سوى اليوم، ولا أعرف اسم عائلته، وكنت واثقًا إلى حد كبير من أن «بَج» لم يكن اسمه الأول. ولم يكن اسمه بالفعل. فحصلوا على كل البيانات من رخصة القيادة الخاصة به: سكوت زروبك. كان «زروبك» اسمًا رائعًا. لو كان اسمي «زروبك»، لاستخدمت اسم «زي»، كلقب لي، أو ربما «زِد».

بعد الكشف بالأشعة السينية على بَج ووضع ذراعه في معلاق وجبيرة هوائية، أفاق واستعاد وعيه مرة أخرى. كنت أعتزم سؤاله لماذا لم يستخدم اسم أوز، ولكننا لم نجد وقتًا لهذا قط. وانتهي بي المطاف، كما تبين، بتوصيله إلى منزله في سيارة أجرة، ثم استقليت السيارة نفسها لتوصيلي إلى المنزل أيضًا. كانت الساعة آنذاك الثانية صباحًا، وربما يوضح تأخر الوقت كيف انتهى بي الحال بالتعهد لبَج بأنني سأكون ذراعه ويده في طابعة غبار البحيرة الصحراوية وأنني سآتي معه إلى احتفال الرابع من يوليو من أجل الإشراف على تركيب الجهاز. ووافقت كذلك على مساعدته في التفكير في اسم له.

تلك هي الملابسات التي أدَّت بي إلى الوجود في شاحنة بيضاء كبيرة مؤجرة يوم الثلاثاء السابق على عطلة الرابع من يوليو، مغادرًا لوس أنجلوس في ساعة غير محددة من الليل بينما كان بَج يجلس في مقعد السائق وموسيقى جي فانك كلاسيكية تنطلق بصوت عال كان كافيًّا ليجعلني أشعر بالفزع وأنا جالس في مقعد الراكب بينما كنا متوجهين إلى نيفادا.

وضع بَج مبردًا بيننا، كان عامرًا بمشروبات الطاقة ومشروبات الإلكتروليت، واللحم المقدد، وألواح الحبوب. توقفنا في بحيرة مونو وابتعنا أكياسًا من البرتقال من رجال عجائز على جانب الطريق يرتدون قبعات رعاة البقر، وفي وقت لاحق توقفنا عند أحد الأكشاك الريفية واشترينا عصير جريب فروت طازجًا كان له طعم لاذع وكان باردًا جدًّا حتى إن قطع الفاكهة الصغيرة كانت عبارة عن كتل صغيرة متجمدة تذوب على ألسنتنا.

كانت منطقة الحمولة الخاصة بالشاحنة، من خلفنا، تحوي كل ما نحتاج إليه من أجل عطلة نهاية أسبوع طويلة من الاعتماد الجذري والمستمر على النفس؛ صفائح مياه لملئها في رينو، حمامات شمسية، خيام، قماش القنب، أوتاد فولاذية، مشروبات كحولية، دراجات، واق من الشمس، حقيبة إسعافات أولية، مدفع هواء، قاذفة لهب، مفرقعات متنوعة، صناديق من الألعاب النارية، ومزيد من المشروبات الكحولية. كان كل شيء مخزن ومغلق بما يتوافق مع قوانين كل من نيفادا وكاليفورنيا، المطبوعة على ورقة مغلفة داخل حافظة أوراق بلاستيكية عُلِّقت على الجزء الداخلي لباب الشاحنة الخلفي حين انتهينا من التحميل.

في وسط كل هذه التجهيزات واللوازم، والتي كانت ملفوفة بإحكام في أغلفة بلاستيكية ذات فقاعات ومؤمنة جيدًا في مكانها بالكثير من شرائط التثبيت، وضع الجهاز، الذي كنا نميزه في خطاباتنا ورسائلنا الإلكترونية بشكل معين. كنت قد أقنعت بَج بالتخلي عن بعض من رفضه للأجزاء المتحركة؛ لأن الجهاز كان سيؤول به المآل بالغرق وسط مخرجاته لو لم نفعل. وكان مفتاح ذلك هو إدراك أنه ليس مهمًا أين ذهب الجهاز، مادام أنه ذهب إلى مكان ما، وهكذا انتهى بنا الحال في منطقة ستراندبيست (وحش الشاطئ).

ووحش الشاطئ عبارة عن تمثال ميكانيكي إبداعي يعمل بالرياح يبدو شبيهًا بدودة ألفية ميكانيكية عمياء. وقد صممه صانعه، وهو فنان هولندي يدعى ثيو يانسن، ليتحمل العوامل القاسية ولكي يُدفَع عشوائيًّا بفعل الرياح. أما جهازنا فكان له ظهر عريض، ومع اكتمال الألواح المستديرة، تنزلق إلى الأرض عند أقدامه، مطوقة إياه تدريجيًّا بأكوام متصاعدة من قطع متشابكة ومطبوعة

بدقة. ولحمايته من الابتعاد بشدة، اعتزمت ربطه بقضيب فولاذي مثبت بعمق على شاطئ البحيرة الصحراوية، معطيًّا إياه دائرة عريضة تستطيع من خلالها الرياح العاتية لصحراء الصخرة السوداء أن تهب عليه من خلالها.

وما إن انتهيت، اضطر بَج للاعتراف بأنني كنت على صواب. فلم يكن التصميم أفضل فحسب، بل كان أروع، واتخذ الجهاز شكل القنطور، وكانت الطابعة بمثابة جذع ورأس منتصبين. بل إننا زودناه بطاقم من النظارات الواقية على سبيل الزينة وقناع تنقية، فقط لنجعله متناغمًا مع جيرانه في البحيرة الصحراوية. لقد كانت مجموعة متجاوبة للغاية، ولكنك لم تكن تعلم قط متى سيطل التحيز ضد الإنسان الآلي برأسه القبيح، ومن ثم كان أي شيء استطعنا فعله لتصوير الجهاز بسمات بشرية من شأنه أن يساعدنا في قضيتنا.

تعافت ذراع بَج المكسورة بما يكفي ليستطيع القيادة إلى حدود نيفادا، ولكن حين توقفنا للتزود بالوقود، وجدته يدلك ذراعه ويجفل. توليت أنا القيادة، وابتلع هو بعض المسكنات وفي غضون لحظات كان قد خلد إلى نوم سريع. حاولت ألا أحسده. فقد كان في غاية التوتر والعصبية خلال فترة الإعداد لاحتفال الرابع من يوليو، على الرغم من قيامه بالعديد من التجارب الناجحة في فناء منزله الخلفي، وعرض توضيحي رائع على سطح مينوس. فقد ظل يتمتم كيف أن لا شيء سار كما ينبغي في الصحراء، متوقعًا لياليَ مريعة زاخرة باللعنات واستجداء الأدوات وفقدان القدرة على الحصول على الدعم التقني عبر الإنترنت. لقد كان جانبًا منه لم أكن قد رأيته حتى تلك اللحظة - فقد كان رابط الجأش بطبيعته - إلا أنه قد منحني فرصة كي أكون الشخص الناضج الراشد الذي يضطلع بإحداث تغيير. وقد أفادني هذا بمجرد أن أدركت أنه في شدة القلق من أن يبدو أحمق أمام أصدقائه الذين لا يراهم سوى مرة واحدة في العام، وأن يبدو الأكثر اضطرابًا وغرابة في مجموعته. لم يغب عني أيضًا أنه كان أعزب، مثلي، يمضي وقتًا طويلًا للغاية في التساؤل عما يكشفه هذا عن شخصيته. بعبارة أخرى: لم يكن يريد أن يبدو أحمق أمام النساء اللاتي يتَلِقنَ له من الموجودات هناك.

- «أظن أن أمامنا ساعتين أخريين للوصول إلى رينو، لذلك سوف نتزود ببعض مؤن اللحظات الأخيرة وننطلق. إلا إذا كنت ترغب في اللعب على آلة القمار والإمساك بمنتحل شخصية ليزا مانيلي».

- «كلا، أريد أن أنطلق إلى هناك وأبدأ الإعداد».

- «جيد». وعلى حين غرة أخذ يضرب على صدره بقوة مثل الغوريلا بقبضته القوية وأطلق صيحة تمرد. «لا أطيق الانتظار يا رجل».

ابتسمت. كان هذا بَج الثرثار الذي أعرفه.

أشار لي بسبابته وقال: «أوه، أراك مبتسمًا. تظن أنك تعرف ما سيحدث. تظن أنك ستذهب لتتجرع بعض كؤوس الجعة، وتتناول بعض الحبوب، وتفجر بعض المتفجرات، وربما يحالفك الحظ مع النساء. ما لا تعرفه هو مدى التغيير الذي يمكن أن يخلفه كل هذا على الحياة. إنك تخرج من عقلك، بالمعنى الحرفي للكلمة. إن الأمر أشبه بـ ...» ولوح بيديه، وأخذ يضرب على لوحة القيادة بضع مرات، وفتح عبوة أحد مشروبات للطاقة وابتلعها.

- «حسنًّا، هكذا الأمر. نحن نمضي كل وقتنا منشغلين بأمور شتى. ولثمانية وتسعين بالمائة من اليوم يكون كل ما تفعله هو التفكير فيما ستفعله كي تستمر في القيام بما تفعله. القلق بشأن ما إذا كان لديك ما يكفي من المدخرات لتعينك خلال شيخوختك دون أن ينتهي بك الحال بتناول طعام القطط. القلق بشأن ما إذا كنت تحصل على القدر الكافي من الألياف، أو تتناول قدرًا أكبر من اللازم من الكربوهيدرات. فأنت على قيد الحياة، لكنك لا تعيش بالفعل.

- «هل مررت من قبل بزلزال سيئ؟ كلا؟ إليك السر الغريب في أي زلزال كبير: إنه شيء عظيم للغاية؛ على افتراض أنك لا تعلق وسط الأنقاض بالطبع. فبعد وقوع زلزال كبير، تمر بهذه اللحظة، لحظة يسودها نوع من الصمت، كأنك كنت تعيش مع مكبس هذا المبرد القديم الضخم الذي يطن في رأسك طنينًا صاخبًا حتى إنك لم تكن لديك القدرة قط على التفكير بشكل صحيح ولا مرة منذ بلغت الحادية عشرة أو الثانية عشرة، وربما أصغر. لم تكن قادرًا على التركيز قط. وحينها يتوقف ذلك المبرد الطنان ويسود صمت قوي مذهل، ولأول مرة يمكنك أن تسمع نفسك وأنت تفكر. إنها تلك اللحظة حين تدرك، بعد أن تتوقف الأرض عن الاهتزاز، أن هناك أنت وهناك آخرين، والمغزى من الحياة كلها هو أن تفكروا جميعًا كيف تنسجمون معًا على أفضل نحو ممكن.

يقولون إنه بعد أي زلزال كبير، يبدأ الناس في النهب والاغتصاب، ويأكل بعضهم بعضًا. ولكن أتعلم ماذا رأيت في آخر مرة وقع الزلزال، في 2019؟ رأيت الناس وقد أدركوا حقيقة الأمر. رأيتهم يشعلون شواياتهم ويطهون العشاء للجيران بكل ما لديهم في المجمَّد، قبل أن يفسد بأي شكل. رأيت الأطفال يلقون رعاية من الجميع، والجميع موجودون ويقولون: «ما الذي يمكنني أن

أفعله من أجلك؟ هل لديك سرير؟ ماء؟ طعام؟ هل أنت بخير؟ هل تحتاج إلى أحد للتحدث إليه؟ هل تحتاج إلى توصيلة؟ يعمدون في الأفلام دائمًا لإظهار الجميع وهم يهرولون للسلب والنهب بمجرد انقطاع الأنوار، ولكن لا أستطيع القول أيضًا بأنني قد رأيت ذلك على الإطلاق. أعني أن هذا ليس ما كنت لأفعله في هذه الظروف، هل كنت لتفعله أنت؟».

هززت رأسي نفيًّا.

- «بالطبع لا. لا أحد ممن نعرفه كان ليفعل. لأننا على الجانب نفسه؛ جانب الجنس البشري. ولكن حين يطن المبرد، من الممكن أن تتغافل عن هذه الحقيقة، وتبدأ في الشعور وكأنك داخل لعبة صفرية لا بد أن تربح بها ويخسر الآخرون، مجرد سباق لترى من يمكنه تخزين أكبر كم من ثمار الجوز قبل قدوم الشتاء على طريقة السناجب. ولكن عندما يقع زلزال كبير، تتذكر أنك لست السنجاب الذي يستطيع العيش في شجرته مع كل ما لديه من ثمار الجوز بينما تتضور السناجب الأخرى جوعًا وتتجمد من البرد هناك.

إن البحيرة الصحراوية أشبه بموقع حدوث كارثة لكن من دون كارثة فعلية؛ إنها فرصة لإغلاق المبرد وسماع الصمت. فرصة لترى أن الناس، كما تعلم، في غاية الروعة بالأساس. في معظم الأحيان. إنه المكان الذي تواجه فيه الواقع فعليًّا، بدلًا من كل الصخب والوهم الذي حولك».

- «إذن أنت تقول بشكل أساسي إنها أشبه بالبوذية مع وجود عقاقير ترويحية وانفجارات؟».

- «نعم، بشكل أساسي».

تقدمنا بالسيارة لمسافة أطول. وبدأت اللافتات الإرشادية لرينو تتزايد الآن، وصارت الكثافة المرورية أكبر، مما تطلب مزيدًا من الانتباه.

قال: «فقط لو كانت هناك طريقة للشعور على هذا النحو طوال الوقت».

فقلت دون تفكير: «لا يمكنك ذلك. فهناك دومًا مبدأ الارتداد إلى المتوسط. وكل ما هو استثنائي يبدو في النهاية دومًا عاديًّا. فقط افعله لفترة طويلة كفاية وسوف يتحول لمجرد ضوضاء مزعجة».

- «لعلك على حق. ولكن أتمنى ألا تكون كذلك. ففي مكان ما هناك، يوجد شيء مذهل لدرجة أن بإمكانك أن تكرس له حياتك ولا تنس مطلقًا كم هو

شيء خاص».

قطعنا الثلاثين ميلًا الأخيرة ببطء، مارين عبر قرية للهنود، عبر تعاريش الماشية ومجاري الماء الجافة. «إن الشرطيين المحليين رائعون، فهم أيضًا من الحارقين. فجميع المتواجدون هنا شبوا وهم يألفون مهرجان الرجل المحترق، وكان المصدر الوحيد الحقيقي للدخل منذ إغلاق منجم الجبس. ولكن المحققين الفيدراليين والشرطيين قادمون من على أطراف الولاية، وهذه أنباء سيئة. فالكثير ممن ينتمون لطائفة المورمون في مقاطعة بيرشينج لا يحبون ما نفعله. ولما كان الطريق بأكمله إلى البحيرة الصحراوية، فيما عدا الربع ميل الأخير، يقع داخل مقاطعة بيرشينج، ولما كان مفترضًا أن لا أحد يبيع أو يشتري أي شيء بمجرد الوصول إلى البحيرة الصحراوية، فإن جميع الأموال تظل في مقاطعة واشو، ولا تتحصل بيرشينج على أي شيء منها. كل ما تتحصل عليه هو مجموعة من الأشخاص غريبي الأطوار الذين يسيئون إليهم أيما إساءة. لذا فأنت تحتاج إلى القيادة ببطء والابتعاد عن المشاكل هنا؛ لأنك لا تعرف من ينتظر خلف إحدى هذه الشجيرات ليعطيك مخالفة ضخمة ويفتش سيارتك حتى مشايات الأرضية».

أبطأت من سرعتي أكثر. توقفنا من أجل ابتياع التاكو الهندي - وهو عبارة عن خبز مقلي مفلطح مغطى باللحم المفروم والخضراوات المقلية - الذي بقي في معدتي في شكل كتلة مالحة غير قابلة للهضم. كان هوس بَج يزداد تدريجيًّا كلما اقتربنا من الطريق الفرعي المؤدي إلى صحراء الصخرة السوداء وكان ينقر على لوحة القيادة مع وصولنا إلى الطريق الجانبي الترابي. أخذ يعبث بالستريو، وقام بتشغيل موسيقى رقص إلكترونية صاخبة جعلتني أشعر بالشيخوخة وأن الدهر قد تجاوزني، ورحت أبحث تحت المقعد عن قناع ضد الغبار وزوج من النظارات الواقية.

كنت قد شاهدت الكثير من الصور الفوتوغرافية لمهرجان الرجل المحترق، وأشكال الخيام والمظلة ومركبات المبيت و«المركبات المعدلة» التي تمتد في جميع الاتجاهات، ورغم علمي بأن احتفال الرابع من يوليو حدث أصغر كثيرًا، كنت لا أزال أتصوره بعين عقلي. ولكن بدلًا من ذلك، كان ما شاهدناه هو صحراء خاوية لا نهاية لها على ما يبدو، تتوارى أطرافها داخل سحب ثائرة من الغبار تطل من خلالها أطراف الجبال، ولا يوجد أي دلالة تذكر على وجود بشر يقطنوها.

قلت: «أين نحن الآن؟».

أخرج هاتفه وقام بتشغيل تطبيق الجي بي إس، وضغط على إحدى النقاط الوسيطة، وانتظر لحظة، ثم أشار إلى قلب الغبار وقال: «من هذا الطريق».

تقدمنا منطلقين وسط سحابة الغبار، وسرعان ما أصبحنا غارقين في ضباب شبه كامل. فأبطأت السيارة إلى سرعة السير، ثم إلى أبطأ من سرعة السير. قلت: «بَج، يجب أن نتوقف لبعض الوقت. لا أثر لطرق. ومن الممكن أن تأتي السيارات من أي اتجاه».

- «وهذا سبب أدعى للتوجه إلى موقع التخييم. فنحن هنا هدف سهل لأي شخص آخر قادم».

قلت: «هذا ليس منطقيًّا في الواقع. فإذا كنا نحن نتحرك وهم يتحركون، فتوجد فرصة أكبر كثيرًا للتعرض لحادث عما لو بقينا في موضعنا».

كان مذاق الهواء داخل الشاحنة مغبرًّا وقلويًّا. توقفت بالسيارة وارتديت القناع، ولاحظت أنني قد بدأت بالشعور بوخز في عينيَّ، فارتديت نظارات إضافية؛ وكانت نظارات كبيرة ذات عدسات بارزة من ماركة ميج التي تعود للعهد السوفييتي.

قال: «تحرك، لقد وصلنا إلى هناك تقريبًا».

كان بعض من حماسه قد بدأ في الانتقال لي. فأعدت تشغيل السيارة ووضعت قدمي متأهبًا على المكابح فيما تقدمنا ببطء عبر الغبار. وراح يحدق في تطبيق الجي بي إس خاصته، وهو يصيح: «يسار»، ثم «سر في خط مستقيم»، ثم «يمين»، ثم يعاود الكرة مجددًا. كنت واثقًا لبضع مرات أنني قد رأيت مصد سيارة أو إنسان يطل من وسط الغبار أمامنا ويضرب على المكابح بقوة، لأكتشف بعد ذلك أنها خدعة من الضوء ومن نظم مطابقة الأنماط المرهقة عصبيًّا والمفرطة النشاط في عقلي.

وحين دهست شيئًا بالفعل أخيرًا، تمددت في مكاني في توتر شديد لدرجة أنني أطلقت صرخة. وبالفعل كنت قد مررت على وتد خيمة مصنوع من قضيب فولاذي - وقد أتاحت لي الأيام الخمسة التالية الفرصة للتعرف بشكل لا نهائي على أوتاد الخيام الفولاذية، التي لم تكن تلحق ضررًا بالبحيرة الصحراوية وكانت زهيدة الثمن ومتينة - بحيث اخترق الإطار الأمامي من ناحية السائق، والذي انفجر محدثًا دويًّا يشبه صوت طلق ناري. فأطفأت المحرك وحاولت السيطرة على تنفسي.

أمهلني بَج لحظة ثم قال: «لقد وصلنا!».

- «أعتذر لما حدث للإطار».

- «لا عليك. سوف ندمر أشياء أصعب بكثير في إصلاحها من إطار فارغ. أتظن أن بإمكاننا تركيب الإطار الاحتياطي دون إفراغ أمتعتنا؟».

- «استحالة».

- «إذن سنضطر لإفراغ الأمتعة. هلم يا صاح».

وفي اللحظة التي فتح فيها الباب، تبعه ضباب من غبار أبيض، اتخذ شكل ذرات غبار تتلألأ في الهواء. هززت كتفي غير عابئ وفتحت بابي وترجَّلت من السيارة وسط الغبار.

كان هناك أناس وسط الغبار، ولكنهم كانوا مجهولي المعالم؛ إذ كانوا يرتدون أقنعة ونظارات واقية وكان يصعب تمييزهم. كانت لديَّ مهمة - وهي إنزال حمولة الشاحنة ونقلها إلى موقع تخييمنا، والذي كان دقيقًا بشكل غريب - فكان عبارة عن مجموعة من أربعة أركان مُعرفة كإحداثيات جي بي إس تصل دقتها إلى عُشر الثانية - وفي الوقت نفسه كان قطعة أرض ضخمة بشكل لا يصدق لدرجة تدفعك لأن تقول: «حسنًا، أي مكان هنا مناسب».

خرجت الأشكال المبهمة من وسط الغبار لتشكل فرقة دلاء تلاشيتُ بداخلها. أحب تكوين فريق دلاء جيد، ولكن من المدهش أن من الصعب إيجاده. ففريق الدلاء الجيد هو ذلك الذي تتسلم فيه حمولتك، وتستدير 180 درجة وتمشي حتى تصل إلى الشخص الذي يليك، وتقوم بتحميل ذلك الشخص، ثم تستدير مرة أخرى وتسير حتى يقوم شخص آخر بتحميلك. وفريق الدلاء الجيد لا يمرر الأشياء من شخص لآخر فحسب، بل هو منظومة ديناميكية يكون فيها تجمع وتفرق الوحدات المستقلة المشاركة مثاليًّا على حسب مستويات الحمل والسرعة والطاقة لكل مشترك. إن فريق الدلاء الجيد شيء جميل، شيء ينبع تناسقه السلس من مجموعة من الأجزاء المفككة لا تحتاج إلى معرفة أي شيء عن الحالة الكلية للمنظومة من أجل المساعدة في تحسينها. في فريق الدلاء الجيد، يخلق مجرد السير بالسرعة التي تشعر معها بالارتياح وعدم حمل أكثر مما يمكنك حمله بأمان، والعمل بإيقاعك الخاص منظومة متوازنة بشكل مثالي يستطيع فيها الأشخاص الأسرع منك العمل على نحو أسرع، ويستطيع

الأشخاص الأكثر بطئًا منك العمل بوتيرة أبطأ. وهو عكس فكرة خط التجميع، حيث يكون بطء شخص واحد مشكلة الخط بأكمله. ففريق الدلاء الجيد يتيح للجميع المساهمة كلٍّ حسب إيقاعه، وكلما كان لديك مساهمون أكبر، سارت الأمور على نحو أفضل.

أحب فرق الدلاء. إنها بمثابة برهان على أن بمقدورنا أن نكون أكثر ونحن معًا مما لو كنا بمفردنا، ودون الاضطرار لتلقي أوامر من قائد. حين فرغت الشاحنة وبدأت أسحب جزءًا من كومة معداتنا وتركيبها أدركت أن ساعة من الزمن قد انقضت، وكنت متعبًا ونشيطًا في الوقت نفسه. ناولني بَج قارورة من الخمر وأخذت أتنشقها، وتخللت أنفي نشقة قوية من الغبار وأبخرة الويسكي، ثم أخذت أرتشف منها. كان من نوعية البوربون المصنع في كنتاكي، وقد اخترق الغبار الذي ملأ فمي وحلقي مثل منظف الأفران.

تمدد بَج وسط الغبار بجانبي، وانسدل شعره الأشقر حول رأسه مثل هالة، وقال: «الآن يبدأ العمل. ما مدى صمودك؟».

قلت: «جاهز وعلى أهبة الاستعداد أيها القائد»، كنت أتحدث بعينين مغلقتين وكان رأسي ملقىً إلى الخلف.

جاء صوت نسائي مرح يقول: «انظرا إلى هيئتكما أنتما الاثنين» وإذ بأصابع تنتزع قارورة الويسكي من بين يديَّ. ففتحت عينيَّ، لأجد امرأة طويلة القامة عريضة المنكبين انجدل شعرها الأزرق المصفف على طريقة الموهوك في شكل حبل طويل تدلى حول كتفها تقف فوقنا. «لقد وصلتما إلى هنا للتو والتعب ينال منكما. عار عليكما».

قال بَج دون أن يتحرك قيد أنملة: «مرحبًا بلايت. بلايت، أقدم لك جريج. إنه لم يأت إلى البحيرة الصحراوية من قبل قط».

فقالت: «إنه بِكر! مدهش». وتجرعت مزيدًا من الويسكي. كانت ترتدي بزة عمل شمرت أكمامها كاشفة عن ذراعيها الطويلتين السمينتين القويتين، واللتين تلونتا بخطوط من الزنك مثل عمود الحلاق. كان من الصعب تقدير عمرها؛ فكانت تسريحة شعرها توحي بأنها في منتصف العشرينيات، ولكن طريقة وقوفها وحديثها جعلتني أفكر أنها قد تفوقني عمرًا. حاولت ألا أفكر في احتمالات حدوث ارتباط عاطفي. فبقدر ما كان يفترض للبحيرة الصحراوية أن تكون مهرجانًا للهرمونات والانفعالات، فلم تكن معسكرًا صيفيًّا. قالت: «سوف نكون لطفاء».

رددت قائلًا: «لا تقلقي بشأني. أنا أفقط أستجمع قواي قبل الانطلاق إلى العمل. هل يمكنني استعادة الويسكي من فضلك؟».

تناولت جرعة أخرى وأعادتها لي. «تفضل، إنه نوع جيد بالمناسبة».

قال بَج: «ماركة فايتنج كوك. لقد اشتريتها لأجل اسمها، وأدمنتها». ثم هبَّ واقفًا على قدميه وانخرطا معًا في عناق طويل، حتى إن قدميه ارتفعتا على الأرض لبرهة.

- «افتقدتك يا بَج».

- «افتقدتك أنا أيضًا. لا بد أن تأتي لزيارتنا وقتًا ما».

وظلا يتحادثان كصديقين قديمين، واستنتجت أنها كانت تعيش في مدينة سولت ليك وتدير ناديًّا للرقص القوطي/ البديل بدا أنه معروف. لم يكن هناك الكثير من الثقافة الغريبة في مدينة سولت ليك، ومن ثم كان أي شيء يصير أسطوريًّا بسرعة. كنت قد عملت مع شخص من بروفو، وكان ردلًا مثليًّا لم ينسجم مع عائلته المورمونية، وأمضى بضعة أعوام في مدينة سولت ليك قبل قدومه إلى لوس أنجلوس. وكنت واثقًا إلى حد كبير أنه قد تحدث عن النادي. كان أقرب إلى محطة على الطريق مخصصة لسكة حديد ولاية يوتا البوهيمية السرية.

بعد ذلك مد لي بَج يده وساعدني على النهوض على قدمي، وأعلن أننا بصدد نصب الخيام. وكان هذا يتضمن نصب هيكل مظلة عملاقًا، وربط الأرجوحات الشبكية، ونشر الأكياس الشمسية المطاطية السوداء الثقيلة على سقف الشاحنة لامتصاص حرارة النهار، وإعداد الشواية وأكياس الفحم، ودق العديد من القضبان الفولاذية المثنية في أرض الصحراء القاسية. لم تكن ذراع بَج المصابة مؤهلة للمهمة، ما دعاه لترك معظم العمل لي، كما شاركني بعض من الآخرين في العمل بنشاط في البداية، إلى أن وصل بعض المخيِّمين الآخرين وكانوا بحاجة إلى مساعدة في إنزال أغراضهم.

وأخيرًا حان وقت نصب الجهاز.

كان القلق يساورني إزاءه، خاصة أننا مررنا بالسيارة على بعض الحفر العميقة على الطريق المتفرع من الطريق رقم 34، إلا أن بَج كان سخيًّا بشكل بشع في الأغلفة البلاستيكية ذات الفقاعات. وانتهى بي الأمر بأن اضطررت للاستعانة بصندوق ذخيرة ثقيل ملئ بالطلقات لتثبيت طبقة تلو الأخرى من

البلاستيك ومنعه من أن تذروه الرياح. اجتذبت جمعًا صغيرًا من الأشخاص بينما كنت أعمل - لم يكونوا مشغولين لهذه الدرجة - وتدخلت بلايت وساعدت حتى النهاية، فقامت بربط ما يعادل حمل ذراع من ألواح البلاستيك ووضعتها أسفل صندوق الذخيرة. وأخيرًا تكشَّف الجهاز متعدد الأرجل كاملًا. ساد صمت تأملي طويل انكسر حين هبت نسمة على الجهاز وبدأ في التحرك، ببطء شديد، بمجرد التقاط كل شراع من أشرعة الأرجل حركة الرياح. كان يسير ببطء على أقدامه الضعيفة محدثًا صريرًا، بعدها ومع اشتداد الرياح أخذ يتمايل إلى الأمام فجأة، مشتتًا أنظار المتفرجين. أمسكت بالمقود الذي قمت بتثبيته بمؤخرته وتمسكت بأقصى ما يمكنني، لدرجة أنني كدت أقع على وجهي قبل أن أعيد توجيه جسدي لكي يميل في اتجاه البعيد عنه. كان الأمر أشبه بلعبة شد الحبل من طرف واحد. انطلقت مني صيحة وإذ بمزيد من الأيدي تمسك بالمقود على يدي، بما في ذلك يد بلايت، وقمنا بتثبيته.

قلت: «أظن أنني كان يجب أن أدق مسمارًا ضخمًا من أجل المقود قبل أن أبدأ».

تساءلت بلايت: «»وأين ستثبته؟».

هززت كتفيَّ قدر جهدي بينما كنت لا أزال ممسكًا بالسلك النايلون القوي قائلًا: «لا أعلم؛ سأثبته بالقرب من هيكل المظلة بما يكفي حتى يمكننا وضع الأدوات والمعدات هناك بينما نقوم بالعمل عليه، ولكن مع مراعاة أن يكون بعيدًا بما يكفي بحيث يمكنه أن يتحرك دون الارتطام بأي شيء».

قالت: «ابق هناك»، وتركت المقود، وهرولت نحو المنطقة الخلفية النائية الخاصة بموقعنا الغني، ثم عادت وأمسكت بمطرقتنا وأحد القضبان الفولاذية، ثم سمعت طرق مدقة على فولاذ؛ كانت طرقات إيقاعية بلا شك. كانت تفعل ذلك بمعدل يفوقني بكثير. ثم هرولت عائدة بعدها بلحظة، حتى أن نظاراتها الواقية قد اندفعت لأعلى على جبهتها، كاشفة عن عينين بنيتين داكنتين واسعتين، مع حاجبين كثيفين وتغضن جميل للجلد حول العينين. كان الجزء الذي لم يكن يفكر في الجهاز مني يفكر في مدى ما كانت عليه من جمال ويتساءل إن كانت عزباء، ويتساءل إن كانت على علاقة ببَج، ويتساءل إن كان لها اهتمام بالرجال من الأساس.

قالت: «لنقم بربطه». فقمنا بفرد الحبل وتركناه يسحبنا في اتجاه القضيب الفولاذي الذي أدخلته بلايت بالكامل تقريبًا في الأرض الوعرة، وكان كلا الطرفان المثنيين مغروزين بعمق بداخلها مكونين دعامة. قمت أنا بإدخال

طرف الحبل وربطته في شكل عقدة بحارة، التي تعلمتها خلال الأسبوع الذي حضرته مع معسكر الكشافة حين كنت في التاسعة، وهي العقدة الوحيدة التي كنت أعرفها. لم يحدث أن انحلت من قبل قط. ولو انحلت هذه المرة، فهناك احتمال أن يقطع الجهاز الطريق بأكمله إلى رينو على مدار الأشهر التالية، تاركًا خلفه أثرًا من الألواح المتشابكة التي كان يمكن أن تشكل خيمة مستديرة.

بدأت الشمس في الغروب، وعلى الرغم من أنني كنت أرغب حقًّا في استعراض قائمة المراجعة الخاصة بصيانة الجهاز، فقد كانت هناك موسيقى راقصة دائرة (موسيقى الدابستيب؛ كان بَج قد حذرني منها سلفًا وأعددت نفسي لتعلم حب نغماتها)، وكان هناك أشخاص يتمايلون، ورائحة شواء. كانت الشمس تلوح في الأفق ككرة ضخمة دموية وكانت حرارة النهار تفسح الطريق لليلة معتدلة البرودة. كان ضوء الليزر يتراقص ويتلاعب في الجو. وكانت الدرونات تطير فوق رؤوسنا، مطلقة عروضًا بأضواء الليد وتؤدي ألعابًا بهلوانية جعلت معدات تجنب الاصطدام الخاصة بها تعمل بأقصى قوتها (في كل مرة تصدر إحداها طنينًا في أذني، كنت أجفل مثلما فعلت عند وقوع الحادث).

ضربت بلايت يديها على فخذيها لتزيل عنها الغبار وقالت: «ماذا الآن؟».

فنظرت حولي وقلت: «العشاء؟».

قالت: «أجل»، وتأبَّطتْ ذراعي وقادتني مجددًا إلى المعسكر.

نحو منتصف الليل، خطر لي أنني ينبغي أن أذهب إلى الفراش وأحصل على ليلة من النوم الهادئ حتى أستطيع إعداد الجهاز وتشغيله في صباح اليوم التالي. حينئذ كان بَج وأنا نقتسم حبة من حبوب النشوة، ونمرر ما يعادل ترموسًا من شاي الفطر فيما بيننا - وهو ما يعرف بـ «مزيج الفطر وعقاقير النشوة»، وهو شيء لم أجربه منذ أكثر من عقد - وبعد ساعة وجدتني أتراقص وصار العالم مكانًا مذهلًا.

انتهى بي الحال وسط حفل لتبادل العناق والتضام في نحو الثانية صباحًا، وكان كل عصب داخلي واعيًّا بأنفاس الناس من حولي وجلودهم المتوخِّزة. قبَّلني أحدهم على جبهتي وارتددت إلى طفولتي، وسرى بداخلي شعور بأن كل الوقت في هذا العالم ملكي وممتد أمامي وأن لا وجود لأي مخاوف بشأن أي شيء. وفي لمح البصر أدركت أن هذا ما سيكون عليه عالم ما بعد الندرة المثالي. مكان لا يعلو فيه شيء فوق إسعاد من حولك والتسرية عن نفسك.

فكرت في كل أشكال المستقبل التي قرأت عنها وشاهدتها، ووجدتها أماكن بني فيها كل شيء على المعدن والبوليمر العقيمين. لم أستطع يومًا أن أتخيل نفسي داخل تلك الأشكال قط.

ولكن هذا «المستقبل» - مستقبل مغبر غني بالبشر يوجد فيه جلد وعرق وشعر البشر في كل مكان، وفيه أيضًا أضواء الليزر ودرونات وروبوتات غريبة تسير بقوة الرياح - كان هو المستقبل الذي أستطيع العيش فيه. مستقبل مُكرَّس لإسعادنا.

قلت في وجه أحدهم: «مرحبًا بكم في المستقبل». فضحك هذا الشخص ضحكة خافتة. اخترقت أشعة الليزر الغبار من فوقنا، واجتاحت السماء أشعة نقية متعددة الألوان. وراحت الدرونات تطن وتطير على ارتفاع منخفض. كان القمر يتلألأ فوقنا، وكان كبيرًا مثل ثمرة القرع وباهتًا.

أخذت أحدق في القمر، وراح يحدق بي في المقابل. لطالما كان يحدق لي، ولكنني دائمًا ما كنت أتحرك بأسرع مما يمكنني من أن ألاحظ ذلك.

استيقظت في اليوم التالي في فراشي الهوائي في مؤخرة الشاحنة. كان الجو حارًّا كأتون مستعر، وشعرت وكأنني قطعة من اللحم المقدد. خرجت متعثر الخطى دون قميص مرتديًا بنطالي الجينز واتجهت إلى هيكل المظلة، حيث وجدت قربة الماء خاصتي ونزعت غطاء الأنبوب. ظللت أرتشف منها حتى جفت ثم أعدت ملأها من برميل ماء ضخم كنا قد أقمناه على طاولات لنشر الخشب، وشربت المزيد. عدت إلى الشاحنة مجددًا وأخذت أبحث عن حاجبات الشمس والنظارات الواقية خاصتي، ووجدت قميصًا قطنيًّا وخرجت مرة أخرى، واستخدمت المرحاض الكيميائي المتنقِّل الذي نصبناه خلف لوحة ساترة رقيقة تم دقها في البحيرة الصحراوية بواسطة قضيب فولاذي وحبل من النايلون، ثم هويت داخل أرجوحة شبكية أسفل هيكل المظلة.

بعد فترة سادها شعور إنهاك من أثر الثمالة، إذ بأحدهم يضع مجموعة من الحبوب والأقراص في يدي اليسرى وكوبًا من القهوة في يدي اليمنى.

- «لا مزيد من الحبوب، أشكرك».

قال: «هذه مكملات غذائية. أعتقد أن نصفها عبارة عن عقاقير لا ضرر منها، ولكن النصف الثاني يبدو أنه يساعد في رفع مستويات السيراتونين لدى كبار السن. لا أعلم أي صنف ينطبق عليه أي وصف، ولكن يوجد زوجان عالمان في

مجال الأعصاب يأتيان في معظم السنين يستطيعان النقاش معك بشأن هذا على سبيل التسلية إذا كنت مهتمًّا. فلتأخذها».

زج بَج بطبق ورقي يحتوي على بيض مقلي، ونقانق، وشرائح من البطيخ في يدي. وقبل أن أعي ذلك، كنت قد ازدردت كل ما في الطبق حتى قشر البطيخ ولعقت القطع المقرمشة الشاردة من لحم النقانق. نظفت أسناني بالفرشاة ولحقت ببَج بالخارج بجوار الجهاز. كان الجهاز قد بدأ السير ليلًا، تاركًا آثار أقدام في الغبار أثارت نوعًا من الحيرة الجميلة. كانت الرياح ساكنة آنذاك، وإن كانت تصدر صريرًا محدودًا مع كل عصفة ريح. كنت أمسك ببَج ليظل ثابتًا بينما أخذ يتسلق الجهاز ويعبث به.

كنا قد وضعنا قدرًا كبيرًا من طاقتنا في مرحلة الإطلاق الذاتي. نظريًّا، يجب أن يكون الجهاز قادرًا على أن يحدد، بواسطة مجموعة الحساسات البصرية التي يحتوي عليها، ما إذا كانت مطبوعاته التجريبية صحيحة أم لا، ثم يعيد تسوية لوح البناء الخاص به ويعيد ضبط حساساته البصرية. كانت مُجمِّعات الطاقة الشمسية الممتدة تمتلئ بالغبار بسهولة، وكانت تقلِّب نفسها بشكل دوري. كان لهذه الآلية ثلاثة إجراءات لتجنب الأعطال؛ أولها أن بمقدورها العمل على طاقة البطارية، ولكن بمجرد شحن البطاريات كانت الطاقة تنتقل أوتوماتيكيًّا إلى زوج من الماكينات المؤازرة التي من شأنها أن تحرك نفسها إذا وصل شحن البطارية إلى مستوى بالغ الانخفاض. كما كان لكل منهما مخزون كاف لقلب الألواح ورجها وتجديدها؛ وبالاستعانة بمجموعة من التروس الدودية، تخلينا عن التصميم الحاسوبي واستخدمنا في الطباعة مزيجًا من السيراميك والبوليمر طور من أجل صنع أطقم الأسنان الاصطناعية ومضمون ضد الكسر أو البلى لسنوات.

كان هناك جزء مني مقتنع بأن الجهاز قد لا يعمل، في ظل وجود كم بالغ من الأجزاء المتحركة وعدم إجراء ما يكفي من الاختبارات. لقد كان غريبًا للغاية. ولكن عندما قم بَج بنشر الخلايا الكهروضوئية المرنة وتثبيتها بأعمدة الألياف الكربونية وثبت العدسة الكبيرة بحرص وضغط على زر التشغيل الكبير المغطى بالمطاط، أطلق أصوات التشغيل المزعجة وبدأ في ضبط نفسه.

وسارت الأمور على نحو مثالي.

تغربل الغبار داخل جيب التغذية خلال الليل وطار فوق لوح البناء. اخترقت الشمس العدسة، وبدأ الدخان في التصاعد من الغبار. كانت المحركات تصدر أصوات تكتكة كل دقيقة وأخذ الرأس يتحرك سريعًا في هذا الاتجاه وذاك

برشاقة آلية خالصة. وقد قام الجهاز، الذي كان يتحرك بدقة متأنِّية أبدعها أستاذ متمكن، بوصف شبكة وإذابتها، ثم رفعها تدريجيًّا من عند كل نقطة تقاطع، مضيفًا ارتفاعًا بمقدار 2 ميكرون إضافيين في كل مرة، بحيث ظهرت ناطحة سحاب متناهية الصغر. كانت الحساسات ترسل بيانات التغذية الراجعة إلى هاتف قديم كنت قد أحضرته معي - وكان لدينا صندوق كامل منها، متوقعين من تلك الأجهزة التي صنعت بلا هدف فشلًا أكبر بكثير من الفشل الذي توقعناه من جهازنا - ومنحتنا درجة من الثقة بشأن معدل الدقة الإجمالي للبناء. كانت اللبنات الأساسية التي صمم الجهاز لطباعتها عبارة عن ألواح بسمك خمسة ملليمترات تتداخل معًا دون أي وحدات تثبيت إضافية، معتمدة على مزيج بارع من الجاذبية والاحتكاك كي تبقى مغلقة ومحكمة بمجرد تركيبها معًا. كانت مستويات التحمل رائعة، وكان الجهاز واثقًا من قدرته على الوفاء بها.

إليك شيئًا عن الطباعة ثلاثية الأبعاد: فهي مثيرة للغاية في البداية، ثم تصير شديدة الملل، ثم تعود مثيرة مرة أخرى. إنها أقرب إلى السحر؛ حين يبدأ رأس الطباعة في الاهتزاز والتحول جيئة وذهابًا، أعلى وأسفل، وتتصاعد رائحة الانصهار من منصة البناء، ويصبح بمقدورك التحديق عبر تلك العدسة الضخمة الصافية وترى شكلًا محددًا يتكون. إنه لشيء مذهل أن تشاهد عملية تتحول بواسطتها فكرة إلى شيء مادي دون أن تمسسها يد بشر.

ولكنها عملية بطيئة أيضًا. فمنذ اللحظة التي يبدأ عندها شيء يسهل تمييزه في التبلور واتخاذ شكل معين حتى اللحظة التي يبدو فيها جاهزًا، هناك فترة فراغ طويلة ومملة تحدث خلالها تغيرات دقيقة تعمل تدريجيًّا على الوصول بالشكل إلى مرحلة النضج. إنها أشبه بمشاهدة عملية تآكل التربة (وإن كان بشكل عكسي). إنها من نوعية العمليات التي تتضرع من أجل انقضاء وقتها. وإذا انصرفت وعدت لاحقًا للاطمئنان على سير الأمور، ووجدت الشيء في حالة شبه مكتملة، ستجد حتمًا أن هناك عقبات غامضة لا حصر لها يجب أن يتجاوزها رأس الطباعة قبل أن يكتمل الشيء بشكل تام، ومرة أخرى تتمنى لو كان بالحياة زر للتقديم السريع.

لكنك بعد ذلك تمسك بين يديك بالشيء، الذي أُنتج من لا شيء، ومن أجهزة كمبيوتر وضوء وغبار، شيء مُصنَّع يتسم بالطابع المضلع الذي يميز كل شيء ينتج من أحد برامج النمذجة ثلاثية الأبعاد، ومرة أخرى يبدو الأمر أقرب للسحر.

هذه هي الدورة التي مر بها المشاهدون عند تدشين الجهاز، بشكل فردي وفي جماعات، في ذلك اليوم. جاء أداء الجهاز بالضبط كما هو مطلوب - فكان

في حد ذاته الشيء الأكثر إعجازًا في ذلك اليوم - وانتهى الحال بالجهاز طافيًّا في اتزان بينما أرجله تشق طريقها عبر الصحراء بصعوبة وجهد، وأنتج لوحة فردية متداخلة مصنوعة من الجبس ومسحات السليكون تشكلت بإتقان ودقة؛ كانت عبارة عن قرميدة سمكها خمسة مليمترات مثقبة ومزدوجة الجدار لها حواف متشابكة من جميع الجهات.

- «ذاك هو ما يفعله، صحيح؟» كانت بلايت تمر لتراه عدة مرات خلال اليوم، متقلبة بين الملل الخرافي لمشاهدة ذلك الطلاء ثلاثي الأبعاد وهو يجف وإثارة ميدان الرماية، الذي كانت تنبعث منه أصوات متواصلة لإطلاق النار مشوبة بالمرح والنشوة. أحضر أحدهم سيارة خردة على مقطورة، مغطاة بدرع يدوي الصنع ومزودة بجهاز تحكم عن بعد. كانت السيارة تتحرك بتثاقل في الصحراء بينما كان الرماة يصوبون على درعها الذي كان يتفكك ببطء، لتتعالى الهتافات في كل مرة تسقط كتلة ضخمة من تصفيحها، كاشفة الهيكل المعدني الهش الصدئ المختبئ أسفله.

«حسنًا، نعم. إنه ينتج الواحدة تلو الأخرى، طوال اليوم، ما دامت الشمس ساطعة. لم نكن واثقين بشأن المعدل، ولكني أظن أنه يصل إلى خمسة قراميد في شمس الصيف، على حسب العواصف الترابية. سنحتاج نحو مائتي قرميدة لبناء خيمة مستديرة ذات حجم معقول في يوم عيد العمال، ويفترض أن نحصل بسهولة على هذا العدد بحلول هذا الوقت». وبيَّنت لها كيف تتداخل قطع القرميد معًا، وكيف أنها تبقى في موضعها بمجرد أن تنغلق.

قالت: «إنها كوخ إسكيمو أكثر منها خيمة مستديرة».

قلت: «من الجانب التقني، هي ليست أيًّا من هذه الأشياء. إنه هيكل تجريبي جاهز مؤقت تم تجميعه بشريًّا ومطبوع بتقنية الأبعاد الثلاثية».

قالت: «كوخ إسكيمو».

- «بالضبط».

قال بَج: «حان الوقت لتناول بعض الطعام». ربما كانت الساعة ما بين الثالثة والسابعة مساء. فلم يكن أي من الهواتف التي تستعمل لمرة واحدة التي كنا نستخدمها لبرمجة ورصد الجهاز به إشارة شبكة، لذا لم يقم أي منها بضبط الساعة بشكل تلقائي. كما لم أكن أرتدي ساعة يد، فكنت أستيقظ حين كانت الحرارة الشديدة داخل الشاحنة توقظني، وآكل حين كانت معدتي تقرقر،

وأعمل لما تبقى من الوقت، وأرقص وأشرب وأتعاطى المخدرات كلما لاحت الفرصة.

وافقت معدتي على الاقتراح. فوضعت بلايت ذراعًا متعرِّقة ازدانت بوشم إكليل الغار حول كل كتف من كتفينا وقادتنا إلى عمود دخان الشواء الفواح.

أنا فخور بأن أقول إنني سدَّدت الرمية القاتلة على السيارة المستهدفة. كانت رمية من غير رامٍ. كنت أستهدف الكتلة الوسطى، في مكان ما بالقرب من الجزء الأوسط المُثقب بطلقات الرصاص، محدقًا عبر منظار البندقية بالغة الطول والتي قام شخص يرتدي ملابس جلدية مشققة باختبارها والتأكد منها من أجلي. كان عالمًا فيزيائيًّا في مجال ما - الجسيمات عالية الطاقة بمختبر الدفع النفاث - ولكنه كان يأتي منذ كان في السنة الأولى بالجامعة، وكان غارقًا حتى أصابع قدميه المزيَّنة بالوشوم في العقاقير المخدرة حتى أن تأثيرها بدا واضحًا على عينيه المستديرتين الجاحظتين. كان أيضًا محبًّا للمعدات الكبيرة، أعني الأسلحة التي كانت تمثل بديلًا للمصادم الفائق، مثل البندقية التي كلفت بالإشراف عليها. كانت بندقية قناص، لها حامل ثلاثي خاص، وأخبرني أنه اضطر لتخزينها في أحد نوادي السلاح على حدود نيفادا نظرًا لكونها محظورة في كاليفورنيا العذبة الجميلة.

حدقت في منظار البندقية، وأخذت نفسًا، وضغطت على الزناد. وفي اللحظة التي فعلت فيها ذلك، قامت قائدة السيارة بتحريك العصا التي كانت تستخدمها للتحكم فيها، فاستدارت السيارة بسرعة بحيث صار منتصف شبكتها الأمامية في مرماي تمامًا. اخترقت الرصاصة كتلة المحرك محدثة نافورة من الدخان والزيت الأسود، ودوَّى صوت التحطم القوي لمحرك السيارة، وأصوات الهزهزة والارتجاف والدوران المفاجئ المتنافرة بينما كانت السيارة تلتف وتنحرف ثم توقفت، وبدأت ألسنة اللهب تطوِّق غطاء محرك السيارة وتمتد سريعًا داخل المقعد الأمامي.

مررت بلحظة من الخوف الشديد، كأنما أتيت شيئًا مريعًا بتدميري لعبتهم. لم يستمر الصمت الذي ساد بعد رميتي لأكثر من ثانية، وكسرته صيحة جنونية وهتاف زلزل خط النار.

كان صاحب السيارة قد ملأها بتشكيلة متنوعة من المواد القابلة للاشتعال - قذائف هاون وشموع رومانية - ما إن لمستها النيران حتى انفجرت في كل اتجاه، مكونة خطوطًا إلى أعلى وإلى أسفل، لتتحطم في البحيرة الصحراوية وتتبعثر مثل أحجار مفلطحة. وراح الناس يضربون على ظهري بقوة مع انفجار

السيارة ذاتيًّا وانبعاث عمود أسود زيتي من الدخان. وحينها راودني شعور جامح لا يقيده شيء، وكأنني قد هجرت التحضر للأبد. لقد قتلت سيارة!

كانت تلك هي لحظة البداية الحقيقية لاحتفالي بالرابع من يوليو. انغماس مفرط في كل ما هو حسي، أحاط به الصخب، والسُكر، والخطر. كنت أنام في أرجوحات شبكية، ووسط أكوام من الأجساد الدافئة، وفي سيارات الآخرين. كنت أرقص بطرق لم أعهدها في الرقص من قبل، وأتناول وجبات مذهلة من اللحم المشوي وتحليات من الشيكولاتة السائلة المذابة على فطائر دسمة. كنت أساعد الآخرين في إصلاح سياراتهم، وتوجيه طائرة دون طيار، وأحصل على جلسة تدليك عار (والغريب أنه كان خاليًا من الجنس) من شخص غريب، وأقدم واحدة في المقابل. كنت أشارك في أغنيات لم أكن أعرف كلماتها، وأركب على غطاء سيارة بينما كانت تلف في دوائر بطيئة وسط الصحراء المفتوحة، وأختنق بالعواصف الترابية التي كانت تلسع بشرتي وعينيَّ وتتركني رابضًا على الأرض وسط ضباب تام بينما تهب.

لقد كانت تجربة مهيبة.

قالت بلايت بينما كنت أناولها زجاجة المياه الخاصة بها بعد أن أعدت ملأها من مخزوننا الآخذ في التناقص: «كيف حال جهازك الذي يسير بالرياح؟».

قلت: «لا أدري. أي الأيام اليوم؟».

قالت: «الاثنين».

- «لا أظن أنني قد مررت به اليوم. هل ترغبين في المجيء معي؟».

وفَعَلَت.

خلال الأيام التي مرت منذ قيامنا بنصب جهازنا، تزايدت أعداد الخيام والشاحنات والسيارات والمظلات والمركبات غريبة الشكل حوله، بحيث صارت الساحة التي يستقر بها الآن قائمة وسط مخيم إيواء منخفض. فقمنا بتعليق محيط من شرائط الأمان برتقالية اللون يصل ارتفاعه إلى خصر الجسم لحماية الناس من التعثر به ليلًا، ورأيت أنه قد تعرض للنقر في بعض المواضع وقلت لنفسي إنه من الضروري أن أزيل بكرة الشريط عن العمود الذي وضعناه عليه واستبدالها.

هبت رياح قوية في وقت سابق من ذلك اليوم، إلا أنها خمدت تمامًا في نهاية فترة العصر. كان الجهاز واقفًا ويصدر صريرًا خفيفًا عند طرف رباطه، وتناثرت من حوله ألواح مطبوعة. كانت ثلاث من أرجله مائلة، مرتكزة فوق قراميد منحرفة. فقمنا بجمعها ورصها بعضها فوق بعض بنظام وعدها؛ كان يوجد أربعون لوحًا إجمالًا، وهو عدد فاق ما جرؤت على تمنيه.

- «سوف يكون بوسعنا تركيب خيمتين مستديرتين أو ثلاث بهذا المعدل».

- «تقصد أكواخ إسكيمو».

قلت: «خيمتك يمكن أن تكون كوخ إسكيمو».

- «هذا كرم كبير منك يا صديقي».

- «قلتِ إن اليوم هو الاثنين، أليس كذلك؟».

أخذت تتمطى كقطة. كانت تعتليها خطوط من الغبار والأدران وتفوح منها رائحة حيوان كريه الرائحة لم يغتسل، حتى إنني اعتدت على شمها في نفسي. قالت: «أجل. سوف نحزم الأمتعة الليلة، ونخلي المكان مع بزوغ أول خيط للنهار».

ابتلعت لعابي بصعوبة. لقد أصبح الوقت مطاطًا هناك في الصحراء، ذلك الشعور الذي يراودك عند انتهاء الدراسة في فترة يونيو بأن الأيام بلا نهاية وأن هناك لحظات لا نهائية تنتظر ملئها وما من سبب على الإطلاق في العالم بأسره يدعو للقلق. وها هو الوقت الآن وقد تبخر سريعًا كتبخر قطرات العرق في الصحراء. ابتلعت لعابي مرة أخرى.

قلت: «هل ستستيقظين مع أول خيط من خيوط النهار؟».

قالت: «كلا»، ودسَّت كبسولتين من كبسولات الهلام في راحة يدي، ثم أردفت قائلة: «سوف أسهر طوال الليل. لحسن الحظ أنني لا أقود».

في مرحلة ما أدركنا أن لدينا ثلاثة حمامات شمسية مملوءة على سقف الشاحنة، ومن ثم كان التصرف الطبيعي الوحيد أن نفرغها على جسدينا، تاركين المياه الساخنة الرائعة تسيل علينا، وتناوبنا على غسل كل منا الآخر بالصابون، وتسببت مادة النشوة وأي شيء آخر حوته كبسولاتها في جعل كل نهاية عصبية في جسدي تصدر صوتًا كالنقر الخفيف. وآل المآل بمياهنا

الرمادية بالتجمع في بركة صغيرة عند أقدامنا، وقد اتسخت وتحولت إلى اللون البني، وحين خرجنا منها سرعان ما غطى الغبار منطقة القدمين والكاحلين وربلة الساق، ملتصقًا بين أصابع أقدامنا ونحن ننطلق انطلاقة مجنونة ضاحكة نحو الشاحنة، ونلقي بجسدينا داخلها ونوصد الباب من خلفنا بقوة.

أخذنا نتمرغ على المراتب الهوائية وسط هواء الشاحنة الكثيف شديد السخونة، وسط دغدغة وتقبيل وأحيانًا أكثر من ذلك، كان جنون الحبوب وشعور آخر ليلة في معسكر الصيف ينبضان في عروقنا.

قالت: «أنت تفكر في شيء ما»، وكانت مستلقية بشكل متقاطع بحيث التصقت معدتانا إحداها بالأخرى وشكل جسدانا علامة جمع ملتوية.

- «هل هذا خطأ؟».

مررت يديَّ على أسفل ظهرها، وانتفاخ مؤخرتها، وسرت بجسدها رعشة انتقلت إليَّ. لقد جعلني المخدر أرغب في فرك لحمها كالعجين، لتسري في يديَّ رعشة من الرغبة في الضغط والإطباق عليه.

- «لا شيء، فقط ...» لم أكن أرغب في التحدث عن الأمر. أردت أن أنغمس في مداعبة حميمة، وهي أيضًا. وقد فعلنا.

قالت بعد فترة طويلة نوعًا ما: «فقط ماذا؟» وفي لحظة ما، فتح بَج الأبواب الخلفية للشاحنة، ثم سرعان ما أغلقها.

- «أنت وبَج لستما ...؟».

قالت: «كلا. وأنت؟».

قلت: «كلا».

- «فقط ماذا إذن؟».

أعدت الحوار من البداية. فقد وصلت إلى نقطة الذروة وكان يخامرني شعور بالخدر.

- «فقط، حسنًا، إنه الواقع الافتراضي. إن الأمر كله في غاية ...».

قالت: «نعم». كان الواقع الافتراضي تعبيرًا رائعًا رائجًا بين الحارقين للعالم الواقعي، ولكن كان لا بد أن أعترف بأنه ملائم. فقد جعل هذا ما كنا فيه واقعًا خاصًّا أو زيفًا افتراضيًّا.

- «أعرف أننا هنا فقط من أجل المتعة، ولكن بشكل ما يبدو الأمر وكأنه كان ...» كانت الكلمة التي على طرف لساني هي مهم، ولكن يا له من اعتراف مخجل!

ظلت لفترة طويلة دون أن تنبس بشيء حتى إنني بدأت في السقوط في جنون الارتياب جراء المخدر، إذ راودني خوف من أكون قد قلت أو فعلت شيئًا غير لائق تمامًا ولكنني كنت في حالة من النشوة تعذرت معها ملاحظة ذلك.

قالت: «أعرف ما تعنيه».

اضطجعنا معًا وأنصتنا لصوت طرق الموسيقى المكتوم في ليل الصحراء. وأخذت تمسِّد على ذراعي ببطء بأنامل خشنة مثل ورق الصنفرة، إذ كانت تفرك بشرتي الجافة المتقشرة. كان بإمكاني الشعور بكل نبضة عصبية تتحرك من ذراعي إلى عمودي الفقري لتدخل إلى دماغي بشكل واضح. ولفترة نسيت حزني الوجودي الغريب، وكنت حقًّا أشعر وأسمع وأشم فقط دون أن أفكر، مستغرقًا تمامًا في اللحظة. لقد كان طنين المبرد الذي أخبرني به بَج، وها هو قد توقف أخيرًا. في تلك اللحظة، كنت أفكر فقط، ولا أفكر بشأن التفكير، أو أفكر بشأن التفكير في التفكير. وفي كل مرة كانت أفكاري تهيم بعيدًا دون التطرق إلى المعرفة الماورائية، كانت تعود بسهولة وبلا جهد إلى التفكير مجددًا.

كانت أغرب لحظات حياتي وواحدة من أفضلها. وساعدتني حقيقة أنني كنت مجردًا من الثياب وأشعر بالسخونة والتعرق مع امرأة جميلة وفي حالة ثمالة تامة. لقد وجدت المزيج المثالي الدقيق من الجنس والمخدرات والرقص كي يضعني في المكان الذي طالما بحث عنه عقلي منذ اليوم الذي خرجت فيه من أحشاء أمي.

لقد أنهت هذه اللحظة، تدريجيًّا، أفكارًا كانت تتسرَّب ثم تتدفق بشكل تلقائي. قلت: «يا للروعة».

قالت: «أنت أيضًا؟».

- «تمامًا».

قالت: «هذا ما آتي من أجله إلى هنا. إذا حالفني الحظ، أحظى ببضع لحظات مثل تلك هنا كل عام. ولكن المرة الأخيرة كانت منذ ثلاث سنوات. عدت إلى موطني وتركت وظيفتي وكنت أقضي ثلاث ساعات يوميًّا في تعلم الرقص بينما أقضي ما تبقى من وقتي في تدريس إصلاح المحركات الصغيرة في مركز تأهيل للأحداث المذنبين».

قلت: «حقًّا؟».

- «تمامًا».

- «وما الوظيفة التي تركتها؟».

- «كنت أشغل منصب مدير التكنولوجيا التنفيذي لدى شركة تصنع أنظمة تبريد ذات كفاءة لمراكز البيانات. كان لديها مشكلات معقدة وشيقة حقًا فيما يتعلق بالديناميكا الحرارية تحتاج للتغلب عليها وحلها، ولكن في نهاية اليوم أجدني أحاول فقط أن أفكر كيف ألعب لعبة الإنتروبي، وتلك لعبة تتطلب تحسينات متواصلة. كنت أرغب في القيام بشيء كبير ورائع وغريب وأستطيع أن أشير إليه وأقول «لقد فعلت ذاك». كان بعض من طلابي محدودي الذكاء، والقليل منهم كانوا مختلين عقليًّا، ولكن معظمهم كانوا مجرد أطفال محطمين ساعدتهم على التماسك واستعادة توازنهم، ولو قليلًا. والبعض منهم كان مذهلًا؛ فقد تعلموا كل ما علمتهم إياه، ثم علمني بعضهم أشياء لم أكن أفكر بها قط، ومضوا في القيام بأشياء مذهلة. لقد اتضح أن التدريس واحد من تلك الأشياء مثل تربية طفل أو ممارسة التمارين؛ أحيانًا ما يكون مذهلًا، وغالبًا ما يكون صعبًا ومؤلمًا، ولكنه، بالنظر إلى الماضي، مذهل بحق».

- «وهل لديك أطفال؟».

قالت ضاحكة: «مايا. إنها في الثالثة عشر. إنها تقضي الأسبوع مع والدها في أريزونا».

قلت: «لم تكن لدي فكرة عن ذلك. فأنت لا تتحدثين عنها كثيرًا».

قالت: «بل أتكلم عنها طوال الوقت. ولكن ليس في البحيرة الصحراوية. إنها بمثابة إجازة من حياتي الأخرى، دائمًا ما تطلب مني المجيء. أعتقد أنني سأضطر لإحضارها معي في إحدى السنين، ولكن ليس لاحتفال الرابع من يوليو. فهو مليء بالجنون. كما أنه الوقت الخاص ببلايت».

- «اسمك ليس بلايت، أليس كذلك؟».

أجابت قائلة: «كلا» فابتسمتُ وضربتها على مؤخرتها على سبيل المزاح. فقرصت فخذي بشدة كانت كافية لجعلي أصرخ.

قالت: «وأنت ماذا تفعل في حياتك؟».

كنت أكره ذلك السؤال. فأجبت قائلًا: «ليس الكثير. بدأت مشروعًا في التسعينيات، وجمعت ما يكفي من المال لدفع ثمن منزلي نقدًا وأشياء أخرى. كما أمارس ترميز العقود على نطاق محدود وبقية الوقت أفعل ما يحلو لي. وأمضي الكثير من الوقت في معمل القرصنة. أتعرفين مينوس؟».

- «أجل. هل أنت غني حقًّا؟».

قلت: «لا. أنا فقط، لا أعرف ماذا تسمِّينه؛ أنا غني بما يكفي. أعني بما يكفي لكي لا أكون مضطرًّا للقلق بشأن المال لبقية حياتي، مادام لا أريد المزيد منه، وأنا لا أريد. فأنا شخص بسيط للغاية».

قالت: «أستطيع أن أجزم بذلك. لقد ألقيت عليك نظرة واحدة وعرفت أنك وغد بسيط».

قلت: «أجل. بشكلٍ ما، كنت أظن أن هذه الحياة ستكون أكثر إثارة مما اتضح لي بعد ذلك».

- «بشكل واضح».

- «بشكل واضح».

- «إذن فلتمارس عملًا تطوعيًّا. افعل شيئًا ذا معنى بحياتك. تبن طفلًا. قم بتمشية كلاب مرضى السرطان».

قلت: «أجل».

قبَّلَت قصبة ساقي، ثم قامت بلي إصبع قدمي الصغيرة. «فقط افعل شيئًا يا جريج. أعني، ربما لا تصل من خلاله إلى حالة الاستيقاظ الروحي، ولكن الجلوس دون فعل شيء بالطبع هراء. كن ذكيًّا».

قلت: «أجل».

قالت: «تبًّا». ونهضت على ركبتيها ثم مالت للأمام نحوي. «افعل ما تشاء، أنت شخص كبير وراشد».

قلت: «أنا في سن كبيرة. لكن موضوع الرشد هذا ...».

- «أنت لا تختلف عن بقيتنا».

استلقينا هناك لمزيد من الوقت. كانت الضوضاء بالخارج قد أصبحت محمومة أكثر من أي وقت مضى، كانت مزيجًا عنيفًا وساحقًا ومضطربًّا من الضربات والصرخات وطلقات الرصاص والانفجارات.

قالت: «لنذهب لنراها»، ورحنا نترنح في جنح الليل.

كانت الشمس تشرق حين قالت: «لا أظن أن السعادة شيء يفترض أن تملكه، بل شيء يفترض أن تبتغيه».

أطلقت صيحة تعجب من رقعة الأرض التي كنت مستلقيًّا عليها ممدد الذراعين منفرج الساقين، مغبرًا شاعرًا ببرودة شديدة عندما تحولت السماء من اللون الأرجواني الضارب للزرقة إلى الوردي الصارخ.

قرصتني من حيث تستلقي، إذ كانت مستلقية فوقي وجهًا لوجه. كنت بصدد الاعتياد على قرصاتها، وبدأت في فهم الفروق الدقيقة بينها. كانت تلك قرصة ودودًا، في تقديري على أي حال.

- «لا تتذاكى. اسمع، أيًّا كانت ماهية السعادة، فهي أيضًا نوع من التفاعل الكيميائي. فجسدك يصنع ويتعرض لمزيج متنوع من الهرمونات والجزيئات الأخرى استجابة لمثير ما. فيعمل نظام المكافأة في المخ. فيمنحك شيئًا تشعر بإحساس جيد عندما تفعله. لقد مررنا بملايين السنين من التطور منحت ميزة تكاثرية للأشخاص الذين استشعروا المتعة والنشوة حين كان يحدث شيء يعزز البقاء. وهؤلاء الأفراد كانوا يفعلون المزيد من أي شيء كان يجعلهم سعداء، وإذا منحهم هذا الذي يفعلون المزيد منه ذرية أكثر وأقوى، كانوا يمررون هذا الشيء لأبنائهم».

قلت: «نعم. بالتأكيد. هذا يسري، على مستوى ما، على كل مشاعرنا على ما أظن».

قالت: «لا أعرف شيئًا عن ذلك. أنا فقط أتحدث عن السعادة. الفكرة هي أن القيام بالأشياء يعزز البقاء: البحث عن الغذاء، البحث عن الشركاء، حماية الأبناء، التفكير في طرق أفضل للاختباء من الضواري ... أما الجلوس بلا حراك والقيام بلا شيء، فلا يعزز البقاء مطلقًا؛ لأن بقية العالم يركض هنا وهناك، ويتوصل إلى إستراتيجيات لكي يفوقوك ذرية، ويتفوقون عليك في المنافسة على الغذاء والأرض ... فإذا جلست بلا حراك، سوف يسبقونك إلى الأمام».

قلت: «أو يسبقونني إلى الخلف».

- «أجل، هناك دومًا احتمال أن يكون الشيء الذي تفعله هو الشيء الخطأ. ولكن ليس هناك أي احتمال أن يكون عدم القيام بشيء هو الصواب. لتكف عن مقاطعتي على أي حال». وقرصتني مرة أخرى. كانت هذه القرصة حنونًا، فلم ألق بالًا. كانت الشمس تشرق. «إذن إن كان الشعور بالسعادة هو ما تسعى إليه، وبلغته، فإنك تتوقف عن البحث. وإذن لا بد أن ترتد المكافأة إلى المتوسط. ولا بد للسعادة أن تذوي وتخفت. وإلا اكتفيت بالاستلقاء، والغرق في الاسترخاء من فرط السعادة والبقاء بلا أطفال، حتى يأتي نمر ويلتهمك».

- «هل تسللتِ إلى كاميرا الويب خاصتي أو شيء من هذا القبيل؟».

قالت: ليس كل شيء أقوله يتعلق بك أنت».

قلت: «رائع. أتقبل فرضيتك مؤقتًا. إذن فالسعادة ليست حالة وجودية، بل هي سراب أحيانًا ما يُلمح بشكل خاطف في الأفق، مستدرجًا إيانا إلى الأمام».

«أنت مثال للشاعر المقيت. إنها جزرة تتدلى من عصا، ونحن الحمقى الذين يكدحون وراءها. ولكن لن نحصل عليها أبدًا».

قلت: «لا أدري. أعتقد أنني اقتربت كثيرًا».

وأكسبني هذا قبلة أخرى، وقرصة أيضًا، ولكنها كانت ودودًا.

قامت بلايت ورفاقها في المخيم بإزالة الأوتاد بعد ذلك بفترة قصيرة. وساعدتهم في تحميل أسلحتهم، وعتادهم، ومبرداتهم، وبالات الثياب، والبراميل الخشبية، والمياه الرمادية القذرة، والحقائب الرياضية المصنوعة من القماش، وأكياس القمامة، وحمامات الشمس المترهلة وهياكل المظلات المفككة، دافعًا نصفها بعنف إلى خارج عرباتهم أسفل مشمع أزرق اللون يصدر صوت طقطقة. كان لدى فريقها حجرة تخزين في رينو حيث سيتركون معظم الحمولة، مصطحبين فقط الأدوات الشخصية إلى المنزل.

كان تحريك عضلاتي أمرًا جيدًا بعد ليلة طويلة ساهرة من الرقص والجنس والاسترخاء، وحين انزلقنا مصادفة إلى إيقاع فريق الدلاء، تهاويت مباشرة داخل منطقة الجهد البدني المرهق المبارك، نوع من الرقص المرهق المستنزف للطاقة من التحرك، والرفع، والتمرير، والالتفاف، والتحرك ... وقبل أن أدرك ذلك، كانت الشمس قد ارتفعت كفاية لتطوِّق إبطيَّ بحلقات كبيرة من العرق. تم تحميل السيارات، وضممت بلايت بين ذراعيَّ، معانقة إياها عناقًا طويلًا استمر حتى ذاب جسدانا معًا.

قبَّلتني قبلة ناعمة جافة وقالت: «اذهب وتعقب بعض السعادة».

قلت: «وأنت أيضًا. أراك في مهرجان الرجل المحترق».

قرصتني مرة أخرى، قرصة ودودة. كان من المزمع أن نتقابل في عطلة عيد العمال القادمة، على افتراض أن بإمكاننا أن يجد كل منا الآخر وسط الزحام الرهيب لمهرجان الرجل المحترق الذي يضم ستمائة ألف شخص. فبعد احتفاليتي الحميمة بالرابع من يوليو وسط مائتي شخص، كان بمقدوري بالكاد أن أتصور شيئًا كهذا، على الرغم من أنني لو حالفني الحظ سوف أمضيه في أول خيمة مستديرة في العالم مطبوعة بتقنية الأبعاد الثلاثية. أو كوخ إسكيمو.

دخل بنا بَج مبكرًا إلى مهرجان الرجل المحترق. بدا المكان عند الطريق الفرعي شبه خاوٍ مثلما كان عندما كنا هناك في يوليو، ولكن مع وصولنا إلى البوابة الرئيسية، كان واضحًا أن الأمر مختلف تمامًا عن الرابع من يوليو.

خضعت الشاحنة والمقطورة للتفتيش - تفتيش! - وتم التنبيه علينا - من قبل رجل ضخم الجثة غزير الشعر يرتدي النصف السفلي من زي قرد من الفراء، وجلبابًا، وقبعة حارس أمن - بأن نظل على سرعة أقل من 5 أميال في الساعة حتى لا نثير الغبار، وهكذا تقدمنا إلى الأمام زحفًا. لم يكن هناك جي بي إس هذه المرة. فخلال الشهور التي قضيناها في لوس أنجلوس، نتساءل إن كان الجهاز قد تعطل، أو تهشم، أو علق، أو عصفت به الرياح، أو سرق، اجتازت الكثير من المركبات هذا الطريق لدرجة أنها رسمت طريقًا واضحًا يؤدي إلى البحيرة الصحراوية، محاطًا بالأوتاد والمراحيض النقالة ذات الأطراف البرتقالية الخاصة بالمراقبين.

كانت الشمس فوق رؤوسنا مباشرة، وكان تكييف الهواء يصدر أزيزًا بينما كنا نتحرك زحفًا، وعلى الرغم من أن الشكل المتمدد الدائري لمدينة الصخرة السوداء كان ممتلئًا بنسبة 10 بالمائة فقط، فقد استطعنا ملاحظته وتمييزه وسط مشهد الصحراء الخاوية. وفي منتصفها وقف تمثال الرجل المحترق، وكان عبارة عن صنم ضخم يتخذ طابع الوثنية الجديدة، سوف يؤول مصيره إلى التضحية به حرقًا في غضون أسبوع.

كان بَج يتبادل الرسائل الإلكترونية مع «ذا بورج»؛ جماعة الرجل المحترق، وهي عبارة عن طائفة غريبة من الموظفين غريبي الأطوار الذين وجدوا متعة وإثارة في إدارة هذا السيرك طوال فصل الصيف، وكان واثقًا من أن ساحتنا الصغيرة لم تمس. إذا سار كل شيء وفق الخطة، فمن المفترض أن نوقف الشاحنة، ونفرغ أمتعتنا وننصب المخيم، ثم نقوم بجر مقطورات الدراجات النارية إلى الساحة ونستكشف مدى تقدم الجهاز على مدار الصيف. كنت مقتنعًا بنسبة 90 بالمائة أنه قد انتهى وأصبح ذكرى منذ لحظة رحيلنا عن الصحراء ويرقد هناك بلا أي نفع منذ ذلك الحين. كنا قد أحضرنا معنا بعض وسائل الراحة التي يمكن أن تحول مؤخرة الشاحنة إلى غرفة نوم إذا وصلت الأمور إلى هذا الحد، ولكننا كنا ملتزمين بشكل مطلق بالنوم في الخيمة المستديرة. كوخ الإسكيمو.

بدأنا العمل بأسرع ما يمكن، مرتدين النظارات الواقية وأقنعة الدهان لمواجهة الغبار الثائر الناعم. كانت معظم مواقع التخييم خاوية واستطعنا أن نسلك طريقًا عبر نباتات الدولار الفضي المنتشرة في مدينة الصخرة السوداء، أوصلنا مباشرة إلى معسكر واسع يسمح بالتجول داخله، حيث لم تكن هناك سوى بضع خيام منصوبة. وأكد لي بَج أنه سيُفرش بالخيام في غضون يومين.

وما إن تخطينا المعسكر حتى عثرنا على الجهاز.

كان قد تغير لونه. فقد حولت الشمس القاسية والغبار القلوي الأرجل المصنوعة من مزيج السيراميك/ البوليمر، والأشرعة، والقاعدة إلى لون خشبي باهت. عندما عثرنا عليه، كانت الألواح الشمسية تتألق في الشمس، وتؤدي مهمتها الروتينية في التخلص من الغبار، لتدور مثل عصي رئيس فرق الإيقاع وتتشابك معًا محدثة صوت طقطقة مسموع، وتغربل غبارها داخل جيوب التغذية. كانت مكتملة. وما إن رأيت ذلك حتى راودني شعور لحظي بالكآبة والإحباط؛ فإذا كانت مغطاة بالغبار، لن تكون هناك طاقة. ومن المؤكد وقتها ألا يقوم الجهاز بعملية الطباعة.

ولكن ذلك لم يستمر سوى للحظة؛ كي أستوعب ما كان ينبغي أن أراه في الحال. كانت ساحة الجهاز مكدسة بالقراميد.

قال بَج: «الأمر أشبه بخريطة بيانية للرياح السائدة». وفي الحال أدركت ما يقصده؛ فقد كانت أكداس القراميد متفاوتة، فكانت تلال القراميد تمثل الأماكن التي هبت فيها الرياح على الجهاز في معظم الأحيان. التقطت عدة صور قبل أن نتجمع حول الجهاز لإجراء التشخيصات الخاصة به.

وفقًا لسجلات الجهاز، فقد قام بطباعة 413 قرميدة؛ وهو عدد يكفي لإقامة خيمتين مستديرتين، ويمثل نحو ضعف العدد الذي كنا ننتظره. من شان هذه البيانات أن تصبح أحجية شهية يجب حلها بعد المهرجان. هل كانت فترات النهار أطول؟ هل كانت الطابعة أكثر كفاءة؟

بدأنا في تحميل المقطورات. كان الأمر سيستغرق عدة رحلات لنقل جميع القراميد، بعدها كان علينا نقل الجهاز نفسه، وإقامة ساحة جديدة له في موقع التخييم الخاص بنا، ومن ثم كنا سنضطر في الشروع في تجميع الخيمة المستديرة. خيام مستديرة! كان الأمر ليصبح عملًا بدنيًّا تعذيبيًّا مضنيًّا، ولكن جاشت بداخلنا فورة من النشوة والجذل من مجرد التفكير في الأمر. لقد نجح!

صحت عاليًّا مخاطبًا العبقري المفضل لديَّ: «أيها الأستاذ، إن الجهاز على قيد الحياة!» هز بَج رأسه وأطلق تلك الضحكة الصاخبة المميزة لعالِم مجنون.

قمنا بإعادة الجهاز بواسطة زوج من الحبال، وأخذنا نسحب بكل ما أوتينا من قوة، ونحن نتمايل مع الرياح ونسير في مسار متعرج عبر البحيرة الصحراوية، ونتعثر في مواقع التخييم وقج اخترقت الأطراف المدببة لأوتاد الخيام الفولاذية أجسادنا تقريبًا. توقف الناس عما كانوا يفعلونه ليشاهدونا، وكأننا صيادان يتباهيان بالفريسة التي عادا بها، وراحوا يلوحون لنا وينظرون لنا شزرًا من

وراء نظاراتهم، محاولين فهم هذا المخلوق الغريب الأشبه بالقنطور ذي العين الواحدة التي تتألق عاليًّا فوق ظهره.

قمنا بغرسه داخل أرضية موقعنا على مربط أقصر بكثير وأزلنا عنه الغبار بواسطة فرش طلاء قاسية، مزيلين الغبار عن الشقوق والمفاصل، وكان ذلك في المقام الأول على سبيل النظافة العامة وعلى سبيل تزيينه من أجل المشاهدة العامة. كان يعمل بكفاءة مذهلة على الرغم من الغبار الذي تعرض له طوال الصيف.

قال بَج: «جاهز للشعور بالدهشة؟».

قلت: «أجل يا كابتن».

لم نكن نعرف عدد القراميد التي سنحصل عليها من الجهاز على مدار الصيف. فقد كانت تأتي في ثلاثة أحجام متشابكة، حسب النسبة الذهبية، يتداخل كل منها معًا بأربع طرق مختلفة. وكان التوصل إلى الشكل الأمثل لأي عدد معين من الألواح واحدة من المسائل شديدة التعقيد في علوم الحاسب والتي كانت ستتطلب دورات حسابية أكثر من المتبقي في عمر الكون من أجل حلها بشكل قاطع وحاسم. وقد توصلنا إلى حزمة من التعديلات على التصميم الأساسي (بدا أقرب إلى كوخ إسكيمو منه إلى خيمة مستديرة، ولكنه إحقاقًا للحق لم يكن شبيهًا بأي منهما إلى حدٍّ كبير) في المحاكاة الحاسوبية البسيطة، ولكننا دائمًا ما كنا نفاجأ بطرق جديدة لتكبير الحجم باستخدام أعداد صغيرة للغاية من القراميد.

قمنا بفرز المطبوعات حسب الحجم في أكوام وقمنا بعدها، مدخلين الأرقام في المحاكاة مستعرضين احتمالات مختلفة لتصميم الخيمة. كانت هناك مشكلة متعلقة بالمقياس - فعند نسبة ارتفاع/ عرض معينة، كان عليك البدء في زيادة عدد القراميد تصاعديًّا من أجل الحصول على زيادات خطية في الحجم - ولكن كم كان الحجم الكافي؟ بعد مناقشة لطيفة ودود تخللها الكثير من التحديق بنصف عين في شاشات الهواتف وسط وهج الشمس الحاد، وقع اختيارنا على تصميمين وشرعنا في بنائهما.

كانت ذراع بَج قد عادت إلى طبيعتها إلى حد كبير، ولكنه كان لا يزال يعمل بمعدل أبطأ مني وألقى اللوم في ذلك على ذراعه بدلًا من الاعتراف بأنه قد اختار تصميمًا أقل فاعلية. كنت قد انتهيت من نصف العمل، وكان هو قد أنجز أقل بكثير من النصف عندما رأينا بلايت تتجول داخل المخيم.

قالت: «رباه. لقد فعلتماها!».

طوَّقتها بذراعي عندما قفزت من فوق جدار بنياني الذي كان بارتفاع الركبة، راكلة إياه ما جعله يميل قليلًا. كانت ترتدي بزة العمل عديمة الأكمام نفسها، ولكنها قصت شعرها إلى زغب أزرق قصير صاعق حك وجنتي. بعد لحظة، التفَّت ذراعان أخريان حولنا وشممت رائحة عرق بَج واستشعرت عناقه القوي. وانخرطنا في عناق ثلاثي طويل ثم حررنا أنفسنا منه وأصدر بَج وأنا ما يشبه تقريرًا عسكريًّا بالغ الحماسة عن الأداء الأول المذهل للجهاز.

أخذت تتفحص أكداس القراميد والجدران التي شيدناها حتى تلك اللحظة. «أيها السادة هذا جنون. لم أكن أريد أن أقول أي شيء، كما تعلمان، ولكنني لم أقتنع بهذا قط. أعتقد أن أداتكما هذه» - وهنا تدخل بَج وأنا وقلنا: «الجهاز» في تناغم، لكنها أشارت لكل منا بإشارة بذيئة بإصبعها مستخدمة كلتا يديها - «سوف ينقلب على جانبه في عاصفة، ويحطم شيئًا مهمًّا، وينتهي به الأمر دفينًا في كثيبه الرملي».

قلت: «أجل، لقد راودتني كوابيس بشأن هذا أيضًا».

قال بَج: «لست أنا. لقد عرفت من اليوم الأول أنه سينجح. إنه يتحمل أي خلل إلى أقصى حد، ويتجاوز أي عطل بسلاسة ويسر».

- «إذن أنت تخبرني أنك لم تتخيل يومًا أنك ستجد كومة من الأجزاء المحطمة نصف مدفونة في الرمال؟».

رمقني بنظرته الصافية المطمئنة المعهودة، وقال: «لدي إيمان. إنه جهاز. إنه يفعل ما يفعله. فالآلية أ تعمل على أساس الآلية ب التي تعمل على أساس الآلية ج. فإذا فهمت ماذا تفعل أ، وب، وج، ستعرف ما يفعله الجهاز».

تكلمت بلايت وأنا في الوقت نفسه في غمرة عجلتنا لتوضيح العيب في هذا المنطق، ولكنه رفع يديه وأسكتنا.

- «قولا ما شئتما عن الفوضى والحساسية للظروف المبدئية، ولكن هذه هي الفكرة الأساسية: لقد كنت أومن بأن الجهاز سينجح، وها نحن هنا برفقة جهاز يعمل بنجاح. إن أدلة الوجود دائمًا ما تتغلب على النظرية. تلك هي الهندسة».

قلت: «عظيم. لا أستطيع الجدال في ذلك».

فربَّت على رأسي وقال: «حسنًّا يا رجل. منذ اليوم الذي قابلتك عرفت أنك شخص متشائم وقد تكون مؤذيًّا. سوف تقتلع البحيرة الصحراوية كل ذلك منك».

قالت بلايت: «سوف أساعد»، وقرصتني في صدري. كنت قد نسيت قرصاتها، واكتشفت أنني افتقدتها.

قلت: «أكرهكما أنتما الاثنين». فربت بَج على رأسي مرة أخرى وطبعت بلايت قُبلة على وجنتي.

- «دعوني أنتهي من إفراغ الأمتعة وسوف أعود وأساعدكما في لعبة ترتيب قراميد البحيرة الصحراوية، اتفقنا؟».

بالنظر إلى الأمر الآن، أرى أن المفاجأة الكبرى كانت في مدى صعوبة التوصل لكيفية تشييد البنيان بالشكل الصحيح. فإذا وضعت قرميدة على النحو الخاطئ في الصف الثالث، لم يكن ذلك يتضح حتى الصف الخامس أو السادس، وكنت تضطر إلى هدم كل ما بنيته والبدء من جديد. كان بَج يقول إن هذا يذكره بالحياكة، وهو شيء كان قد جربه لبضع سنوات.

قالت بلايت بينما كانت تلصق إحدى القراميد في موضعها: «كل ما في الأمر أن هذه مرتك الأولى. فالمرة الأولى التي قمت فيها ببناء حائط من مكعبات الليجو أفسدته أيضًا. لقد كنت متعايشًا مع هذه الفكرة طويلًا حتى أنك نسيت أنك لم تتعامل تعاملًا فعليًّا مع واقعها قط».

أخذنا نضع القراميد ونزيلها، وتكونت كومة من القراميد المتكسرة على أحد جوانب الموقع. ومع اقترابنا من النهاية، صار جليًّا أن النتيجة غير مكتملة؛ فما بدأ كفائض من القراميد تحول إلى شبه نقص بفضل ما قمنا بتكسيره. كان بعض من ذلك يرجع إلى خطأ منا - فقد كانت القراميد بحاجة لوضعها برفق ودقة، لا بالقوة، وكان من الصعب اتباع أسلوب وئيد متمهل في ذلك مع طول النهار وتصاعد الإحباط - ولكن البعض منه كان عيبًا جوهريًّا خالصًا، تمثل في مواضع تجمعت فيها شوائب على طول فاصل واحد، في انتظار التحطم من أقل ضغط، ما أدى إلى تكوين نصل حاد كالشفرة من الجبس يبدو دومًا أنه يجد طريقه إلى الأرساغ المكشوفة فوق خط القفاز. وفي مرات قلائل كانت القطع الصغيرة تتكسَّر إلى شظايا صغيرة وتتطاير في وجهي. كانت النظارات الواقية تحرف مسار معظمها، ولكن إحداها تسببت في إسالة الدماء من طرف أنفي.

في النهاية كان الفاصل بيننا وبين الانتهاء من العمل ثلاث - ثلاث! - قراميد، اثنتين من خيمتي وواحدة من خيمة بَج. وغربت الشمس، وأخذنا نعمل بواسطة مصباح الرأس والأنوار الأمامية للشاحنة. وبرزت أمامنا الفراغات واضحة كأنما تحملق فينا.

قال بَج منفعلًا: «حسنًّا، اللعنة».

أخذت أبحث وسط كومتنا من قطع الخزف المكسورة المنتمية لعصر ما بعد الحداثة، بحثًا عن أي قطع قابلة للإنقاذ، ولم أجد. كنت أعلم أنه لا يوجد، ولكنني بحثت على أي حال. صرت كآلة تجميع قطع الأحاجي، ولم أستطع التوقف بعد أن صرت على مقربة شديدة من النهاية. لقد كان الأمر بمثابة الجزء المضحك من مزحة مريعة.

قالت بلايت: «علام تفقدان صوابكما إلى هذا الحد أنتما الاثنين؟ فقط غطياها بقطعة من المشمع».

نظر كل منا إلى الآخر، وبدأ بَج الحديث قائلًا: «بلايت...» ثم توقف دون أن يكمل.

قلت: «نحن لا نريد تغطية هذه القراميد بالمشمع. نحن نريد أن نعرضها! نريد أن يرى الجميع مشروعنا الرائع! نريدهم أن يروا كيف صنعنا قوالب من الطوب من الغبار وضوء الشمس!».

قالت بلايت: «مممممم، نعم. فهمت. ولكن يمكنكما استخدام قماش المشمع الليلة، وتقومان بطباعة القطع الناقصة غدًا، صحيح؟».

حدق كل منا في الآخر في ذهول.

قلت: «صحيح».

غطى بَج وجهه بيده بقوة، لدرجة أنني قد سمعت قفازه وهو يصطدم بأنفه. وحين أزال يده، انحرفت نظاراته وارتفعت جزئيًّا إلى جبهته.

قلت: «سوف أحضر المشمع».

جاء المتفرجون. في البداية جاؤوا فرادى، ثم أسرابًا. وانتشر الخبر عبر أرجاء البحيرة الصحراوية: لقد قام هذان الرجلان بطباعة خيمتهما المستديرة - أو

كوخ الإسكيمو - بتقنية الأبعاد الثلاثية.

اكتفى كثيرون بالتجول حولها، واستشعروا اللمسة الأخيرة السلسة للبناء، واستكشفوا الفواصل الضيقة بأظافرهم، والتقطوا كسرة من القرميد المتصدع ليحتفظوا بها كتذكار. ورقصوا مع الجهاز بينما كان يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف عبر ساحته الصغيرة المقيدة، وإذا كانوا محظوظين كفاية ليروه وهو ينزل قرميدة منتهية إلى الصحراء، كانوا يلتقطونها ويتعجبون منها.

لكن لم يكن نجاحنا مطلقًا. فقد جاء رجل مسن، بدا عليه الضعف وملأت وجهه التجاعيد وله لحية كثيفة وسمرة بلون الجلد القديم - كان عاريًّا تمامًا ولم يكن لديه أدنى شعور بالخجل إزاء ذلك حتى إنني توقفت عن ملاحظته بعد ما يقرب من ثمان ثوان من بداية حوارنا - وقال: «هل لي أن أسألك عن شيء؟».

قلت: «بالتأكيد».

- «حسنًا، كنت أتساءل فقط كيف ستعيدان قوالب الطوب الخاصة بكما هذه إلى تراب عندما تفرغان من استخدامها؟».

- «ماذا تعني؟».

قال: «لا تترك أثرًا». ولمعت عيناه خلف نظاراته. كانت عبارة «لا تترك أثرًا» هي القاعدة الثامنة من القواعد العشر المقدسة التي لا يمكن انتهاكها لمهرجان الرجل المحترق. أظن أنني لا بد وأن أكون قد قرأتها في مرحلة ما، ولكن أغلب الظن أنني قد احتككت بها عن طريق حواراتي مع المسنين المحنكين بشأن تمتعهم بخبرة تفوقني في الحرق - أو المبتدئين المضطربين القلقين بشأن وضعهم - الذين أرادوا التنويه إلى أن طريقتي في الحرق هي الطريقة الخاطئة على جميع الأصعدة.

قلت: «لا أفهمك»، على الرغم من أنني استطعت أن أدرك إلى أين سيتجه هذا الحوار.

- «ماذا ستفعلان بكل هذه الأشياء حين تفرغان من استخدامها؟ كيف ستعيدان قرميدكما إلى تراب مرة أخرى؟».

قلت: لا أعتقد أن بإمكاننا هذا».

قال بنبرة شخص بصدد الفوز بالنقاش: «آه. لم أكن أظن ذلك. هل ستتركان هذه الخيمة هنا؟».

قلت: «كلا. سوف نفككها وننقلها بالشاحنة. حتى لا نترك أثرًا، صحيح؟».

- «ولكنكما تأخذان بعضًا من الصحراء معكما. وإذا فعلتما ذلك بالقدر الكافي، كيف سينتهي بنا الحال؟».

صحيح. ها قد وصلنا إلى حيث تصورت أن يتجه هذا الحوار. «كم من غبار البحيرة الصحراوية سوف تأخذه معك إلى الوطن في» - كنت على وشك أن أقول ملابسك - «سيارتك؟».

- «ولا ذرة أكثر مما ينبغي. إنها ليست صحراءنا كي نأخذها معنا. إن لديك ستين ألف شخص هنا. وحين يبدؤون في فعل ما تفعله، فجأة سيبدأ المكان في الاندثار».

فتحت فمي، وأغلقته، ثم عاودت فتحه.

- «هل لديك أدنى فكرة عن حجم تراب الجبس في صحراء الصخرة السوداء؟ أقصد بالنسبة لكم التراب الذي يدخل واحدًا من هذه القراميد؟» وربتُّ على جانب الخيمة؛ وكنا قد بدأنا ندعوها كوخ الإسكيمو المستدير.

قال وعيناه تلمعان ولحيته تهتز: «كنت أعلم أنك ستقول ذلك. لقد قالوا ذلك عن المحيط. والآن لدينا رقعة قمامة العظمى بالمحيط الهادي. وقالوه عن الفضاء، والآن أصبح المدار الأرضي المنخفض على وشك التحول إلى كومة نفايات تمحو كل قمر صناعي للاتصالات وتحول نقاط لاجرانج إلى مناطق إطلاق نار حر. في أي موضع على مدار التاريخ ستجد شخصًا يختزن شيئًا أو يأخذ شيئًا ويدعي أن الطلب لن يتجاوز العرض مطلقًا. وربما يكون هذا هو ما قاله أول راعي ماعز حين وجَّه قطيعه إلى سهول الصحراء الكبرى. «يستحيل أن تأكل هذه الكائنات هذه الرقعة الضخمة حتى الفناء». والآن أصبحت الصحراء الكبرى!».

كان عليَّ أن أعترف أن لديه وجهة نظر.

قلت: «اسمع، هذه هي المرة الأولى التي يجرب فيها أي شخص هذا. لقد ظل الحارقون يغيرون الصحراء لسنوات. إنهم يحفرون أطنانًا من السطح كل عام للتخلص من منصة الحرق وآثار الحرائق الكبيرة. ربما سنضطر إلى وضع

سقف لعدد أجهزة الروبوت التي تعمل كل عام، ولكن أتعلم، إنها نوع من المصادر المتجددة. فالغبار يهب في جميع الأوقات، فوق التلال وعبر الطريق. ويمتد إلى ياردات وياردات. لقد نقبوا هنا لقرن ولم ينتقصوا منها ذرة. فالشيء الوحيد الذي لا يغير العالم هو الجثث؛ أما الأحياء، فيغيرون الكوكب. ذاك جزء من الصفقة. ماذا لو جربنا هذا الشيء لفترة ونرى إن كان يمثل مشكلة، بدلًا من إعلانه كارثة قبل أن يبدأ العمل؟».

رمقني بنظرة ذابلة، وقال: «أوه نعم، لقد سمعت هذه المقولة من قبل. «امنح الأمر وقتًا، وانظر كيف يسير!» ذاك هو ما قالوه في فوكوشيما. وذاك هو ما قالوه عند اعتماد عقار ثاليدومايد. وذاك هو ما قالوه عن ليلة الزجاج المكسور».

قلت: «لا أظن أنهم قالوا ذلك عن ليلة الزجاج المكسور»، ثم انصرفت سريعًا ودون سابق إنذار. لقد علمتني عقودًا من الدخول على الإنترنت أن قانون جودوين كان صارمًا: فما إن تظهر المقارنات مع النازية أو هتلر ينتهي النقاش. صاح بشيء من خلفي، ولكن لم أستطع سماعه وسط نغمات الدابستيب الصادرة من سيارة انحرفت عن اتجاهها في تلك اللحظة، وكانت عبارة عن أتوبيس حفلات ضخم على شكل سفينة قراصنة يضم ثلاثة طوابق من الراقصين يتراقصون على إيقاع متوازن ومكبر صوت كان يمكنه تهشيم الزجاج.

ولكن بقيت تلك المحادثة معي. لقد كان رجلًا ملحًّا صلفًا يرى نفسه أقوم من الآخرين، ولكن ذلك لم يكن يعني بالضرورة أنه مخطئ.

إذا كنت حارقًا، فأنت تعرف ما حدث بعد ذلك. بدأنا العمل على سرب كامل من الأجهزة بحلول أعياد الميلاد، وعملنا على بنائها على مدار الربيع، وقمنا بشحنها في زوج من الناقلات ذات الست عشرة عجلة من أجل احتفال الرابع من يوليو القادم، بصحبة فريق من الرعاة الذين ساعدونا في بنائها. كان أكبر احتفال بالرابع من يوليو على الإطلاق وكان هناك الكثير من المسنين ممن لا يزالون يقولون إننا دمرناه. ولا أنكر أن إطلاق النار قد قل كثيرًا فيما ازداد صقل العدسات في تلك السنة.

كان الجزء الأفضل هو التنويع والتغيير. فقد أمكن دمج قراميدنا الثلاث الأساسية لإنشاء مجموعة لا نهائية من أكواخ الإسكيمو المستديرة، ولكن لكي أكون صريحًا، سوف تواجه صعوبة شديدة في تمييز كل منها عن الآخر. وقد بلغ الجنون مداه حين قامت مجموعة من خبراء الطوبولوجيا على موقعنا

الإلكتروني بتصميم مجموعة كاملة من الأشكال التي تراكبت معًا في إطار قراميدنا الثلاثة، ما جعل بالإمكان بناء أشياء مجنونة: أبراج دوارة، سلالم، جملونات. وقد عرض لنا أحد الأشخاص كيف أمكن تركيب المضلعات المربعة معًا لصنع زحلوقة لملاعب الأطفال، وبالفعل عندما جاء الصيف كانت هناك زحلوقة ضخمة لها سلم وحامل خشبي للدعم، وكانت نزهة مذهلة بشكل غير معقول، بمجرد أن يتم صقلها وتنعيمها لتصبح سطحًا لامعًا زلقًا بواسطة مِصقلة قُرصية.

في العام التالي، كانت هناك مساحات كاملة من مدينة الصخرة السوداء بنيت بالطوب الترابي، كما كان يسمى في ذلك الوقت. كان حدوث رد فعل عنيف ضد ذلك أمرًا متوقعًا. كان يُطلق علينا سكان الضواحي المجردون من الخيال القابعين داخل الأحياء السكنية المسيَّجة ذات المنازل المتشابهة التصميم، وكنا بمثابة كارثة بيئية - اتضح أن تنبؤ ذلك العجوز العاري نزق الطباع كان صحيحًا - وآفة تشوه المشهد.

أحبت بلايت هذا بشكل خاص. وقد أحضرت ابنتها، مايا، إلى البحيرة الصحراوية في ذلك العام، وقامت الاثنتان ببناء أكواخ الإسكيمو المستديرة الأروع والأكثر طموحًا التي رأيتها على الإطلاق، وكانت عبارة عن شيء مقوس بصلي الشكل من ثلاثة طوابق كانت أسطحه منقوشة على نحو رائع بأشعار ورسومات كانت قد غذت بها وحدة إدخال المتغيرات والحدود في برنامج النمذجة ثلاثية الأبعاد الملحق بأجهزتها. كانت حواف الأشكال المنقوشة حادة للغاية في البداية حتى إنه كان من الممكن أن تجرح نفسك بها بالمعنى الحرفي للكلمة، وقبل أن تذروها الرياح والغبار، كانت تضفي ظلالًا داخل أخاديد المنحوتات عند شروق الشمس والغروب، محولة الجدار إلى ما يشبه دفتر يوميات من الخرابيش والكلمات يخص شخص مجنون.

لم تكن مايا تكترث للكارهين. فقد كانت في الخامسة عشر وكانت أشبه بمغناطيس جاذب للمتاعب، وكان لديها موهبة وضع المتطفلين عند حدهم لدرجة أشعرتني برهبة مطلقة منها. فقد شاهدتها تصد محاولات لاعبي الأسطوانات ذوي المظهر المتشابه، والرجال الكبار غريبي الأطوار أمثالي، ورجال الفضاء ذوي العيون المحملقة الذين يتراقصون على هزيم الموسيقى الإلكترونية الراقصة البعيدة المنتشر في كل أرجاء المكان.

قلت لبلايت: «لقد ربَّيتها بشكل صحيح، هاه؟».

هزت بلايت كتفيها قائلة: «اسمع، إنه أمر سيئ أن تكون فتاة في الخامسة عشر. فكل ذلك الانتباه يحول دون اكتشاف ماهيتك. أنا سعيدة بأنها تجيد هذا، ولكن كنت أتمنى لو لم تكن مضطرة لفعله. كنت أتمنى فقط لو كان بإمكانها أن تمارس طقوس الحرق مثل بقيتنا».

طوقت كتفيها بذراعي قائلًا: «أجل، أجل، إنه أمر سيئ».

- «إنه كذلك. إلى جانب أنني لا أرغب في أن أنتشي لشعوري بأن عليَّ أن أراقبها طوال الوقت و...» ثم طوحت يديها في الهواء في قنوط ونظرت إلى السماء البيضاء المتوهجة من شدة القيظ بنظرة غاضبة.

- «أنت تشعرين بالذنب لأنك أحضرتها إلى هنا، أليس كذلك؟».

- «لا يا دكتور فرويد. أنا أشعر بالذنب بسبب شعوري بالندم على إحضاري لها».

- «هل أنت واثقة أنك لا تشعرين بالذنب لشعورك بالندم على شعورك بالذنب لأنك أحضرتها؟».

فقرصتني قائلة: «لتكن جادًّا».

محوت الابتسامة من على وجهي وقلت: «بلايت، أنا أحبك». كنت قد نطقت بها للمرة الأولى في زيارة لمنزلها بعد آخر احتفال مباشرة، وظلت لعشر دقائق كاملة صامتة دون أن تنبس بشيء. ومنذ ذلك الحين أصبحت حيلتي للفوز بالمجادلات معها.

قرصتني بشدة في ذراعي. وأخذت أدلك المنطقة الملتهبة؛ ففي كل مرة أعود من زيارة لرؤيتها، كنت أصاب بكدمات في حجم ثمرة الجريب فروت ولون آخر لحظات الغروب على كلا كتفيَّ. كانت مايا تجري من خلفنا جاذبة طائرة ورقية بهلوانية ضخمة من خلفها. وظلت طيلة احتفالية الرجل المحترق تعلم نفسها خدعًا جديدة بها واستطاعت أن تفعل بها أشياء لم أكن لأصدقها أبدًا. وهتفنا لها تشجيعًا وكأنما قد طارت بها في السماء.

قلت: «إنها طفلة مدهشة. لقد جعلتني أتمنى لو كان لديَّ مثلها. كنت لأتمنى ذلك لو عرفت أنها ستصبح هكذا».

كان والد مايا مدير منطقة لبلدة صغيرة في ولاية أريزونا كانت تعتمد كليًّا على المياه المستوردة. كان يحضر مرتين في السنة للزيارات، وكانت مايا تقضي معه ثلاثة أسابيع كل صيف وتقضي إجازات أعياد الميلاد والفصح معه بالتناوب، ودائمًا ما تعود بقائمة طويلة من الشكاوى بشأن الملل التام لملاعب الجولف والمراكز التجارية الضخمة الكائنة على أطراف المدينة. لم يسبق أن التقيت به قط، ولكن بدا من الحديث عنه أنه رجل طيب، وإن كان مملًّا بعض الشيء.

قالت بلايت: «لم يفت الأوان أبدًا. اذهب وابحث لك عن امرأة تصلح للزواج في الخامسة والعشرين واجعلها تنجب لك طفلًا».

- «ما الذي سأريده من تلك الطرازات الجديدة المبهرجة؟ إن لديَّ هنا طرازًا أمريكيًّا كلاسيكيًّا». وضممتها ثانية، وقرصتني هي مرة أخرى.

- «لا شيء أسهل من المقارنات المتعلقة بالسيارات يا صديقي».

- «كان القصد هو المجاملة».

قالت: «أعرف. عظيم. حسنًّا، إذن، يمكنك دائمًا أن تأتي لقضاء بعض الوقت حين تكون مايا موجودة، بدلًا من تدبير زياراتك وقت رحلاتها لزيارة والدها. هناك الكثير من أمور التربية للقيام بها في تلك الزيارة، وأحتاج لراحة من آن لآخر».

فجأة أحسست بأنني في قمة الجدية. كان هناك شيء في البحيرة الصحراوية جعل الأمر يبدو وكأن كل شيء ممكن. وكان عليَّ أن أمسك لساني لأمنع نفسي من التقدم لطلب يدها للزواج. وبدلًا من ذلك وجدتني أقول: «تبدو خطة جيدة للغاية. أعتقد أنني يجب أن ألزمك بها».

مدت أصابعها لتقرصني، ولكن بدلًا من ذلك وجدتها تجذبني نحوها وتمنحني قبلة عميقة رطبة طويلة.

صاحت مايا صيحة استهجان بينما كانت تمر بنا مُحدثة صخبًا وهرجًا، وكانت في تلك اللحظة تستقل دراجة منخفضة من دراجات البحيرة الصحراوية مغطاة بفرو ظريف وشريط لاصق مقوى خاص بالأنابيب. دارت حولنا مرتين، مهيلة كمًّا من التراب كون شكلًا كالمروحة، ثم توقفت سريعًا كلاعبي الهوكي حتى إن أقدامنا دفنت وسط كثيب رملي صغير تجمع أمام عجلة دراجتها الأمامية مثل موجة مقوسة.

قلت: «لقد تطبَّعت بطباع المحليين أيتها الطفلة».

رمقتني بنظرة طفلة صغيرة كلها طرب ومرح قائلة: «هل أنت والدي الجديد؟ تقول أمي إنك المفضل لديها بين كل أعمامي، وهم كُثر للغاية».

انقضت عليها بلايت وطرحتها أرضًا، وأخذتا تتدحرجان مثل هُريرتين صغيرتين تتعاركان، وسط دغدغات وصرخات عالية وأطراف مترامية. وانتهى الأمر بأن ثبتت مايا في مكانها أسفل ساعدي وركبتي بلايت.

قالت لها وهي تلهث: «لقد أحضرتك إلى هذا العالم، وبإمكاني أن أخرجك منه أيضًا».

أغلقت مايا عينيها ثم فتحتهما مجددًا على مصراعيها، وكانتا واسعتين كأطباق الفناجين وقالت: «آسفة يا أمي. أعتقد أنني قد تماديت. أحبك يا أمي».

استرخت بلايت قليلًا وأخذت مايا تتلوَّى بميوعة الشباب الضائع ذوي المفاصل السائبة، ووقفت على أصابع قدميها، ووثبت على دراجتها وصاحت: «ساذجة!» بينما كانت تبتعد بالدراجة لمسافة عشر ياردات كاملة، ثم أدت وقفة على العجلة الأمامية على طريقة دراجات بي إم إكس ثم استدارت للخلف لتواجهنا قائلة: «وداعاا!».

صاحت بلايت: «عودي من أجل العشاء».

- «حسنًا يا أمي!».

وحدَّقت كل منهما في الأخرى عبر الغبار الثائر.

صاحت مايا مرة أخرى: «إنه شخص طيب للغاية. يمكنك الإبقاء عليه».

خطت بلايت خطوة في اتجاهها، وابتسمت مايا ابتسامة عريضة خلت من أي ملامح خوف. «أحبك يا أمي. لا تقلقي، لن أقع في أي متاعب».

وضغطت على الدواسات لأسفل وانطلقت نحو البحيرة الصحراوية المفتوحة.

قلت: «يبدو أنك قد أنجبت شيطانة حقيقية».

ردت قائلة: «اخرس أيها الهاوي. هذا ما يفترض أن يكونوا عليه في الخامسة عشر. كنت لأقلق لو لم تكن كذلك».

في الوقت الذي أرسلوا فيه بَج إلى الوطن كي يقضي نحبه، كانت بلايت تعيش معي بشكل فعلي، فبعد أن تم تسريحها واتجهت للعمل الحر، لم يكن هناك سبب يمنع ذلك. أعطيتها المرآب كاملًا كي تستخدمه كمكان عمل لها - أوقفت سيارتي في الممر الخاص بالسيارات وقمت بتوصيل سلك طويل إليها لشحنها طوال الليل - ولكنها كانت تعمل لنصف الوقت في مينوس. كان آخر فروعه مذهلًا: محطة فرعية سابقة تتبع إدارة الماء والطاقة بلوس أنجلوس كانت في طريقها إلى الإفلاس. وبعد الخصخصة والفشل، قام الحراس القضائيون بجرد أصولها ووجدوا أنها كانت قابعة على كل هذه المحطات الفرعية المجمدة عن العمل، وعرضوها للإيجار بإيجارات زهيدة قصيرة الأجل. كان مختبر مينوس في تلك الأيام بمثابة كاتدرائية بشكل عملي، إذ كانت له أسقف بارتفاع 30 قدمًا، وممرات ضيقة، ومولدان كبيران للكهرباء كانا قد تم إنقاذهما من أيدي المتنازعين من منطلق الحنين البحت. وقد أضفيا على المكان طابعًا مسرحيًّا؛ إلى أن قرر أحدهم طلاءهما بدرجات مختلفة من اللون الوردي الساخن على سبيل الأمان، والذي بدا رائعًا إلى حد كبير ومعبرًا عن فن البوب، ولكنه أفسد موقع الشيء إلى حد ما.

لم يكن بَج أحمق؛ ليس مثلي. لذا عندما وجد كتلة صلبة في جسده وطلب من الطبيب فحصها وأمضى أسبوعًا في قلق بشأنها، قام بإخباري أنا وبلايت وزمرة من أصدقائه الآخرين بذلك وأمضى أسبوعًا ما بين بيوت الآخرين والعبث بالجهاز والذهاب إلى فصل اليوجا وطهو وجبات معقدة ذات أفكار غريبة؛ مثل العشاء المكون بالكامل من جوز الهند والذي احتوى على الدجاج بجوز الهند على أرز بجوز الهند مع فطيرة جوز الهند بالفواكه للتحلية. واتفق معي على أن أقوم بتوصيله إلى عيادة الطبيب من أجل زيارة المتابعة.

كنا نتمازح طوال الطريق إلى غرفة الانتظار مزاحًا شابه التوتر، إلى أن خيم الصمت علينا. جلسنا في مكتب الاستقبال نتنقل بأعيننا ما بين الرسوم المتحركة الكبيرة الغريبة المهدِّئة للأعصاب المعروضة على التليفزيون ذي الخمس وعشرين بوصة وبين الكتيبات الصحية التي كانت تحثنا على الاطلاع عليها من أجل التحليل الفوري وتوصيات المتابعة. وبدا البعض منها مهترئًا بالفعل.

رفعت موظفة الاستقبال بصرها من الشاشة إلى وجه بَج وقالت: «سكوت زروبك؟».

قال لي بينما كان ينهض ويتجه إليها: «هذا اسمي القديم. انس أنك قد سمعته».

بعد عشرين دقيقة، عاد وعلى وجهه ابتسامة كبيرة بيضاء امتدت ما بين زاويتي عينيه. فوقفت ورفعت حاجباي في تساؤل. ضرب كفه بكفي وخرجنا متجهين إلى السيارة. شاهدتنا الممرضة التي أعادته بعد الفحص ونحن نغادر من النافذة، وعلى وجهها نظرة قلق، وكان ينبغي أن يكون ذلك تنبيهًا لي.

قلت: «إذن كل شيء على ما يرام. إلى أين الآن؟».

قال: «لنذهب لتناول الغداء. هناك مطعم للدجاج على اليسار؛ إنهم يقدمون أفضل بطاطس مقلية حارة».

كان واحدًا من تلك الأماكن التي يقوم فيها الندلاء بتثبيت صواني الطعام بنوافذ السيارات ويقدمون لك طعامك عليها، وهو شيء كان فيه إحياء للماضي وجعلني أسعد بأن لدي مقاعد من الفينيل.

قلت وأنا أرتشف مخفوق اللبن والفاكهة بصوت ملحوظ: «يا لها من راحة!» كان لديهم آيس كريم ذيل النمر - وكان عبارة عن مزيج من نكهة البرتقال وعرق السوس الأسود - وأقنعني بَج بتجربته في مخفوق اللبن والفاكهة. وكان محقًّا؛ فقد كان رائعًا.

قال: «لا بأس بشأن ذلك».

- «بشأن ماذا؟».

- «يقول الطبيب إن الورم في الكبد والبنكرياس. بإمكاني الخضوع للعلاج الكيميائي والعلاج الإشعاعي، ولكن ذلك لن يضيف إلى عمري سوى شهرين، ولن تكون بالأشهر الجيدة. يقول الطبيب إنه من نوعية السرطان الذي حين يكتشفه طبيب، يرفض تقديم العلاج».

- «أوقفت السيارة على جانب الطريق. ولم أستطع أن أحمل نفسي على الالتفات والنظر إليه».

قلت: « بَج، أنا في شدة الأسف ...».

وضع يده على يدي، ولذت بالصمت. كان بإمكاني سماع صوت أنفاسه، التي كانت سريعة وضحلة قليلًا. لقد كان صديقي متماسكًا ورابط الجأش على نحو أفضل مني كثيرًا، ولكنه كان هو مَن صدر في حقه حكم الإعدام.

- «أتذكر ما أخبرتني به بشأن المنحنى؟ عندما كنت تظن أنك مصاب بالسرطان؟ كلما تقدم بك العمر، يغيِّب الموت مزيدًا من الأصدقاء. إنها مجرد إحصائيات وأرقام. وما من سبب يمنعني من أن أكون الرقم القادم».

- «ولكنك في الثلاثين ...».

قال: «الثالثة والثلاثين. قد أكون صغير السن بالفعل، ولكنه ليس بالشيء النادر». وأخذ يتنفس لفترة أطول، ثم أردف: «عشتُ حياة لا بأس بها».

قلت: « بَج»، ولكنه ضغط على يدي.

- «إذا كانت الجملة القادمة التي ستخرج من فمك تحوي كلمات «الشفاء التلقائي»، سوف أدق رأسك برزمة من العملات المعدنية. هذا أمر يحدث في قرية السنافر في الكريسماس، وليس في العالم الواقعي. ولا تحدثني عن امتلاك توجه إيجابي، فالسبب في موت كل أولئك الذين ماتوا من السرطان هو أنهم كانوا مصابين بالسرطان، وليس أنهم كانوا مفرطين في التشاؤم».

قلت: «ماذا عن لورا؟» كانا يتواعدان على فترات متقطعة لبضعة أشهر. كانت تبدو لطيفة. وكانت تقوم بتنفيذ نوع من تحليل الاستثمار لحساب أحد صناديق الاستثمار.

قال: «أوه، نعم. لا تظن أن الأمر كان في طريقه لاتخاذ منحى جاد. ما رأيك، هل أخبرها بأنني أحتضر ثم أنفصل عنها، أم أنفصل عنها ثم أخبرها أنني أحتضر، أم أكتفي بالانفصال عنها فحسب؟».

- «ما رأيك أن تخبرها أنك» - ثم ابتلعت لعابي - «تحتضر، ثم تعطيها حق الاختيار؟».

- «أي اختيار؟ الزواج؟ يا رجل، إن الأمر لا يتعلق بالحصول على بوليصة تأمين على الحياة. إنها شخصية لطيفة، ولا حاجة لها لأن تحصل على لقب أرملة في سن الثانية والثلاثين». ثم سحب يده وقال: «هل يمكنك القيادة؟».

عندما اتخذنا الطريق السريع رقم 10، ضحك بينه وبين نفسه. «على الأقل مرت بي بعض أعياد الميلاد الجيدة. سبعة وعشرون، ذاك عدد مكعب. تسعة وعشرون، عدد أولي. واحد وثلاثون، عدد أوَّلي. اثنان وثلاثون، عدد مرفوع إلى العدد اثنين. ثلاثة وثلاثون، عدد يُقرأ كما هو من اليمين أو اليسار. بعد ذلك تسوء الأمور».

قلت: «ستة وثلاثون عدد مربع».

قال: «مربع. مهلًا، مربع؟ لا تخادع نفسك، فأعياد الميلاد الجيدة تقع جميعًا في نطاق السابعة والعشرين حتى الثالثة والثلاثين. لقد حصلت على عدد مربع في الخامسة والعشرين. كم من الأعداد المربعة يحتاج الرجل؟».

قلت: «تبًّا، أنت غريب الأطوار».

- «أغرب من أن أحيا، وأجمل من أموت». ثم ضرب على صدره وقال: «حسنًّا، ليس الأمر كذلك ظاهريًّا»، ثم تنهَّد وقال: «تبًّا. حسنًّا، لقد حدث».

قلت: «اسمع، إذا كنت تحتاج إلى أي شيء، أبلغني. فأنا هنا من أجلك».

- «أنت شخص كريم ورائع، ولكن أتعلم، لا بد أن أعترف أن هذا ليس الطريق الأسوأ لاتخاذه. لا يزال أمامي شهران كي أودع الحياة، وأرتب الأمور، ولكن ليس عليَّ أن أجلس هكذا أتأوه وأتحول تدريجيًّا إلى هيكل عظمي يسير على الأرض لمدة ستة أشهر بينما يأكل جسدي نفسه. هذا هو الترتيب الأفضل».

فجأة جف فمي إلى حد أعجزني عن الكلام. وواجهت صعوبة في البلع بضع مرات كمن وقف في حلقه حجر، وأغمضت عينيَّ بشدة، وقمت بتشغيل السيارة، وتحركت. لم نتحدث لبقية الطريق إلى مسكن بَج. وحين توقفنا بالسيارة أمامه، وجدتني أخبره بلا تفكير: «يمكنك القدوم والإقامة معي إن شئت. أعني أن بقاءك وحيدًا ...».

قال: «أشكرك». وبدت على ملامحه الكآبة قليلًا ثم قال: «ليس اليوم، اتفقنا؟».

لم تكن بلايت بالمنزل حين عدت، ولكن كانت مايا موجودة. كنت قد نسيت أنها قادمة للإقامة معنا. كانت قد تخرجت في العام الماضي وقررت أن تشد الرحال عبر أماكن مختلفة مع مجموعة من أصدقائها على شبكة الإنترنت، وهو أمر كان رائجًا للغاية بين أبناء جيلها، الذي كان مثابة الكادر الثاني على التوالي

من جيل لا وظائف/لا أمل الذي يتخرج في مدارس أميركا الثانوية المتدهورة. وقد استعاروا مجموعة من الحيل من سابقيهم، أبرزها الرفض التام لتكبد أي قروض طلابية والميل إلى الدورات الدراسية المجانية المتاحة عبر الإنترنت في كل الفروع من الفلك إلى أدب الخيال العلمي؛ ولاسيما أشياء على غرار الزراعة وفن الطهو، وكان هذا جزءًا في غاية الأهمية من أسلوب حياتهم القائم على الاستقلال والبحث عن الرزق.

وصلت مايا إلى منزلي على دراجة استقلتها من محطة جراي هاوند، مستعينة بنوع من أنظمة التشارك الاجتماعي في ركوب الدراجات لم أسمع به من قبل قط. كانت قد توقفت في الطريق وقطفت بعض التوت، ودرنات النبات، والأعشاب، وبعض الفواكه الحمضية الطرية ولكنها صالحة. قالت وهي تلفظ بذور الجريب فروت بحرصٍ في يدها، لتقوم بنثرها لاحقًا في الجزء القادم من رحلة الدراجات: «سوف يطعمك العالم إذا تركته يفعل ذلك. خاصة في لوس أنجلوس. فكل هذا الماء المدعم بأموال الحكومة القادم من نهر كولورادو يصلح لشيء ما».

قلت: «يبدو من حديثك أنك واجهت وقتًا عصيبًا للغاية».

قالت: «لعل حالي أفضل منك. فالبؤس يبدو بارزًا في ملامحك». وجذبتني من كتفيَّ وحدقت في عينيَّ، وأخذت تتفحص وجهي. دهشت من كم الشبه الذي يجمع بينها وبين والدتها، على الرغم من معجون الزنك الذي غطى معالمها في صورة مربعات دقيقة كمربعات لوحة الداما بهدف خداع خوارزميات التعرف على الوجوه وحجب أشعة الشمس القاسية.

قلت لها وأنا أبتعد عنها مرتبكًا: «أشكرك»، وأخرجت قارورة زجاجية من القهوة الباردة المقطرة من المبرد.

قالت وهي تتبع خطوتي عبر المطبخ الصغير: «حقًّا؟ ماذا يحدث يا جريج؟ هل أمي بخير؟».

قلت: «أمك بخير، وأنا بخير».

- «لماذا إذن تبدو كما لو كنت قد اكتشفت لتوك أنك ستضطر لدفن كلاب قتلت بأسلوب القتل الرحيم من منطلق خدمة المجتمع».

- «هل يحدث هذا في الواقع؟».

- «تعني الكلاب؟ أجل. إنه يحدث كثيرًا في منطقة الغرب الأوسط. فهناك الكثير من الكلاب المتوحشة عبر أنحاء أوهايو وإنديانا. فيقومون بتجميعها، ويعرضونها للغاز المميت، ثم يكدسون جثثها. إنها العقوبة رقم واحد للتشرد. إنها تترك أثرًا في النفس».

- «يا إلهي».

- «كفاك هروبًا من الموضوع. ماذا يجري يا جريج؟».

صببت لنفسي بعض القهوة، وأضفت الثلج، ثم أخذت أقطر مقدار ملعقتين صغيرتين من اللبن نصف الدسم، مراقبًا الحركة السائلة الجميلة للبن الدسم وهو يمور في السائل البني الداكن.

قالت: «مهلًا يا جريج»، آخذة الكوب مني ومرتشفة نصفه دفعة واحدة. فاتسعت عيناها قليلًا قائلة: «هذا لذيذ».

- «إنها ليست قصتي كي أرويها».

- «قصة مَن إذن؟».

عدت أدراجي إلى المبرد لأخرج زجاجة القهوة الباردة المقطرة مرة أخرى، قالت: «صديقي، إن الألم يقل حين يُقتسم، والفرح يزداد حين يُقتسم. لا تكن من هذه النوعية من الأشخاص. تكلم».

- «أتذكرين بَج؟».

أشاحت عينيها على النحو المعتاد من المراهقين وقالت: «نعم، أذكر بَج».

التقطتُّ نفسًا، ثم أخرجتُه مرة أخرى، محاولًا إيجاد كلمات تسعفني. ولم أكن بحاجة إلى ذلك كما تبين لي بعد ذلك.

أخذت تطرف بعينها بضع مرات ثم قالت: «كم يتبقى له؟».

قلت: «شهران. وقد يطولان إذا تلقى العلاج. ولكن لن يطولا كثيرًا، وهو لن يأخذه على أي حال».

قالت: «جيد. تلك صفقة سيئة على أي حال». وجلست على أحد مقاعد المطبخ المنجدة بالفينيل عالي الجودة المزيَّن بالنجوم المشعة؛ كانت غنيمتي

من معرض للسلع المستخدمة في لوس أنجلوس حصلت عليها بعد مثابرة وكد، وكانت معها طاولة محددة بإطار من الكروم متماشية معها. نظرت إلى أسفل في قهوتها، التي تحول لونها إلى بني باهت متجانس كثيف. «ولكني آسفة لسماع هذا».

قلت: «أجل. أجل، وأنا أيضًا». وجلست معها.

- «ماذا سيفعل الآن؟».

هززت كتفاي قائلًا: «أظن أن عليه أن يقرر ذلك».

قالت بصوت هامس وهي لا تزال تحدَّق في المشروب: «يجب أن يفعل شيئًا كبيرًا. شيئًا ضخمًا. فكر في الأمر؛ لا يهم إن قام به على نحو مدمر. لا يهم إذا أفلس أو أي شيء كان. إنها فرصته الأخيرة، أتعلم ذلك؟».

قلت: «أعتقد ذلك. ولكن أعتقد أن الأمر يرجع إليه. إنها الشهور الأخيرة في حياته هو».

قالت: «هذا هراء. إنها أشهرنا الأخيرة معه. إنه سيتحول إلى رماد ويتلاشى، أما نحن فسوف تُترك على هذه الكرة الدنسة لما تبقى لنا من سنين أيًّا كان عددها. عليه أن يحاول أن يصنع منها شيئًا بالوقت المتبقي له أيًّا كان. شيء لنا لنواصله. فكر في الأمر يا جريج. ما الذي تفعله هنا على أي حال؟ تحاول أن تعيش حياة سهلة بلا هموم قدر الإمكان، صحيح؟ تحافظ على هدوئك فحسب، وتحاول ألا تسرف في إنفاق تلك الكتلة الثمينة القليلة من المال الهالك التي وجدتها بفضل الحظ حتى يمكنك أن ترقد عليها داخل القبر. أنت وأمي وبَج، كلكم «تعلمون» أن البشر لم يعد لهم فائدة حقيقية على هذه الأرض، كل هؤلاء الآليين يمكنهم أن يقوموا بكل العمل، وأن أشكال الحياة المصطنعة المسماة بالشركات يمكن أن تجني كل الربح، ومن ثم فأنت فقط تختبئ أسفل ألواح الأرضية وتأمل ألا ينهار عالمك قبل أن يغيِّبك الموت».

- «مايا ...».

- «ولا تتجرأ وتحدثني بأي هراء عن الفوارق بين الأجيال والخصائص السكانية والصيحات الشبابية وكل ذلك اللغو. الأشياء إما صحيحة أو غير صحيحة، بغض النظر عن عمر الشخص الذي يتفوه بها». ثم احتست شرابها وأضافت: «وأنت تعرف ذلك».

وضعت كوبي على الطاولة ووضعت يديَّ فوق رأسي وقلت: «أعلن استسلامي، أنت على حق. ليس لديَّ شيء أفضل كي أفعله، وبَج كذلك بالتأكيد. أخبريني أيتها الحكيمة: ما الذي ينبغي أن نفعله؟».

تصدَّعت القشرة الخارجية التي غلَّفت ثقتها المشوبة بالغضب قليلًا. «ليست لدي أي فكرة. فلتحلا مشكلة الجوع في العالم، أو اخترعا آلة ذات حركة أبدية. استعمرا القمر».

كتبنا هذه الأشياء على الحائط الذي نستخدمه كسبورة بيضاء في مسكن بَج. كان قد دهن الحائط بطلاء بلاستيكي لامع حين انتقل لأول مرة إلى المنزل الصغير في كولفر سيتي، واضعًا إياه حيث كان يوجد التليفزيون قبل بضعة عقود، ومنذ ذلك الحين غُطِّي بالكثير من الحبر القابل للمسح وتم تنظيفه ومسحه عدة مرات كثيرة لدرجة خلفت رقعًا مكشوفة يظهر من خلالها لون الطلاء الذي تحتها. تجنبنا تلك الرقع وكتبنا: حل مشكلة الجوع بالعالم

الآلة ذات الحركة الأبدية

استعمار القمر

كان أول شيء اتجهنا إليه هو اختراع الآلة ذات الحركة الأبدية.

قال بَج: «إنها مجرد حماقة. فأنا مهندس، وليس عالمًا في الميتافيزيقا. وإذا كنت سأفعل شيئًا بما تبقى من عمري، فلا بد أن يكون ممكنًّا على الأقل، حتى لو كان غير قابل للتصديق».

- «حين تتخلص من المستحيل، فإن ما يتبقى أيًّا كان، ومهما كان غير قابل للتصديق، لا بد أن يكون ...».

قالت مايا: «كيف كنت تختار مشروعاتك فيما مضى؟»كانت هي وبلايت تجلسان على مقعدين من القماش على جانبين متقابلين من الغرفة، ترقبان الحائط بتركيز وليس إحداهما الأخرى.

قال بَج: «هي من كانت تختارني». فأصدرت ضوضاء وقحة، فاضاف: «حقًّا. لم يخطر ذلك ببالي قط. ففي أي وقت كنت أركز عقلي بحق على شيء، وأبذل جهدًا فيه، كانت تلك بالضبط هي اللحظة التي يطالبني فيها مشروع آخر بأن أترك كل شيء، في التو واللحظة، وأهتم به. أعتقد أنه الجزء المدمر لذاته من

المخ، كان يحاول باستماتة أن يحول بيني وبين إنهاء أي شيء، على أمل أن أحاول محاولة أخرى بائسة».

قالت مايا: «بل الأرجح أن افتقارك للثقة بالنفس هو ما يمنعك من المضي قدمًا في أي شيء إلى النهاية، مخافة أن تفشل».

فأخرج لها لسانه وقال: «عسى أن يمنحني الله القدرة على تحمُّل حكمة المراهقين».

- «لا يهم عمر الشخص الذي يتحدث، المهم هو الكلمات». وأدت بيديها تحية الناماستي كما يؤديها معلم روحاني هندوسي ثم رفعتهما إلى جبهتها مثل معلمة يوجا تحاول الوصول إلى عينها الثالثة. بعدها أخرجت لسانها هي الأخرى.

- «حسنًّا، فلتصمتي أيها الحكيمة البليغة. الفكرة هي أنني اكتشفتُ أخيرًا كيف أستفيد من هذا كله. لقد كنت فقط أدون الأفكار عندما كانت تتبادر إلى ذهني وألصقها في ملف المهام التالية، ما يعني أنني كان دائمًا لديَّ ملف ضخم للمهام التالية ينتظر لحظة انتهائي من أي شيء أعمل عليه في ذلك الوقت».

- «عظيم إذن، ما المهمة التالية في ملف مهامك».

هز رأسه قائلًا: «لا شيء يستحق وقتي. أعني لا يستحق جهدي الأخير، لا شيء يصلح كإرث».

قالت بلايت: «أنت فقط تفكر في الأمر بشكل مبالغ يا رجل. أيًّا كان الشيء الذي ستفعله، فلتسرع في إنجازه. ما من سبب يدعو للحرج. إن عدم فعل أي شيء بداعي أن لا شيء كان يستحق جهدك الأخير سيكون أسوأ بكثير من أن تفعل شيئًا غير مكتمل».

قال بَج: «صدقيني، أنت لا تريدين أن تعرفي حقًّا».

- «حسنًّا، فلنعد إلى قائمتنا». وأغلقت عينيها وهزت كتفيها بصورة مصطنعة. «اسمع، من الواضح أن الطرق التي تستخدمها لاختيار مشروع ما حين يكون أمامك متسع من الوقت ستختلف عن الطريقة التي تستخدمها حين لا يكون متبقٍ لديك أي وقت تقريبًا. لذا دعنا نعود إلى هذا». وقامت بشطب بند آلة الحركة الأبدية. «أنا مقتنعة بأسبابك بالنسبة لهذه المهمة. وبذلك يتبقى لدينا استعمار القمر والجوع في العالم». ووضعت قلمها عند بند استعمار القمر.

«أعتقد أن بإمكاننا شطب هذا. فأنت لن تصل إلى القمر في شهرين. وإلى جانب هذا، فالجوع في العالم ...».

قال بَج منفعلًا: «تبًّا للجوع في العالم».

قالت: «رائع جدًّا. مهلًا يا بَج، لا أحد بحاجة لمن يذكره كم أنك شخص انتقادي ومتيقِّظ تمامًا لكل شيء. لقد كنا جميعًا نعرف طوال الوقت ماذا ينبغي أن تكون المهمة. فالجوع في العالم ...».

قال بَج مكررًا: «تبًّا، للعالم، وللجوع».

حدقت فيه بلايت بعين ضيقة. وأدركت علامات انفجار وشيك.

قلت: «بَج، ربما يمكنك توضيح تلك العبارة قليلًا؟».

قال: «مهلًا، أوضحها؟ لماذا؟ أنت تعرف ماذا تعني. تبًّا للجوع في العالم؛ لأن مشكلة الجوع في العالم ليست في كثرة السكان، أو استخدام النمط الخاطئ للزراعة، أو فكرة أننا لا نفعل ما يكفي لإطعام الفقراء. المشكلة فيما يتعلق بالجوع في العالم أن الحكومات القوية الغنية تسعد كثيرًا بإرسال الأسلحة والمال إلى الطغاة والمستبدين الذين سيستخدمون الطعام بدورهم من أجل التحكم في رعيَّتهم وملء جيوبهم. لا توجد مشكلة «جوع في العالم». بل توجد مشكلة فساد، توجد مشكلة جشع، توجد مشكلة سذاجة. فكل شخص عنصري حقير كرر ذلك الهراء الساذج الذي جاءت به المالتوسية الجديدة عن الكثافة السكانية، يعني بالطبع أن النوعية «الخاطئة» من الناس ينجبون أطفالًا، أي الفقراء الذين ليس لديهم ما يخسرونه وليس عليهم أن يقلقوا بشأن الانتقاص من ثرواتهم وتبديد معاشاتهم على كثرة الأطفال ...».

قلت: «إذن توجد مشكلة فساد، نقطة تؤخذ في الاعتبار. ما رأيك إذن إذا توصلنا لحل لمشكلة الفساد؟ ربما يمكننا أن نصنع نوعًا من الكاميرا الوثائقية تبين لك إن كان نائبك في الكونجرس يحصل على مساهمات من أجل حملته الانتخابية من الشركات ثم يصوِّت لصالح قوانين تخدم مصالحها؟».

- «ماذا، أتعني كل واحد منهم؟» خطت مايا خطوتين نحوي وقالت: «كن جادًّا يا جريج. إن المسؤول المنتخب العادي ينفق ما لا يقل عن نصف الوقت الذي يقضيه في منصبه في جمع تبرعات من أجل حملته الانتخابية القادمة. لقد ظلوا لعقود يحاولون تخصيص تمويل للحملات الانتخابية، والأشخاص الذين يعوِّلون على المساهمات الانتخابية الفاسدة لا يرغبون في تمرير قانون يحجم

المساهمات الانتخابية الفاسدة. ومعرفة أن نائبك يحصل على رشاوى يجدي فقط إذا كان الشخص المرشح أمامه هو الآخر لا يحصل على رشاوى».

وأضافت: «بحق السماء، إن الرجل يحتضر، وأنت تريده أن يقضي أيامه الأخيرة في إعداد بيانات تصويرية؟ لماذا لا يقوم بكتابة مقالات أيضًا؟» وتظاهرت بكتابة عنوان رئيسي بيديها في الهواء. «فضيحة: أعضاء الكونجرس العشرة الأكثر فسادًا! لكنك لن تكون بحاجة لتحليل بيانات لمعرفة العشرة الأكثر فسادًا، فهؤلاء هم الساسة العشرة الأطول بقاءً في مناصبهم ببساطة».

قلت: «حسنًّا. حسنًّا يا مايا، نقطة أخرى تؤخذ في الاعتبار. إذن ماذا أنتم فاعلون لمحاربة الفساد؟».

عدلت جلستها لتصبح في مواجهتي مباشرة، واقتربت كثيرًا بحيث صرت قادرًا على رؤية الشعيرات الداكنة الناعمة المتناثرة على شفتها العليا - إذ كانت هي وكتيبتها العمرية يرفضن هوس إزالة الشعر الذي ساد في العقد الماضي، ما جعل العاملات في مجال إزالة الشعر بالشمع البرازيلي وإزالة الشعر بالخيط وإزالة الشعر بأجهزة بالليزر عاطلات عن العمل - وأشم رائحة السموزي في أنفاسها. «عم تتحدث يا جريج؟ عن القضاء على الفساد؟ تقصد أن تكون هناك نسخة من المجتمع غير فاسدة؟ إن الفساد ليس الاستثناء، بل القاعدة. إنه سمة لا تتجزأ منه. ففكرة استخدام الأسواق لتحديد من يحصل على ماذا قائمة برمِّتها على الفساد؛ إنها وسيلة للتغطية على حقيقة أن بعض الناس يحصلون على الكثير، وأن معظمنا لا يحصل على الكثير، ولذلك نخترع مددًا غيبيًّا يُدعى قوى السوق التي تقدم المال على أساس الجدارة. كيف لنا أن نعرف أن السوق تعطي أناسًا يستحقون؟ حسنًّا، انظر إلى كل المال الذي يمتلكونه! إنه مجرد منطق دائري».

- «إذن ماذا بعد؟ أنلجأ للجماعية اللاسلطوية؟ للشيوعية؟».

أخذت تنظر إلينا جميعًا وقالت: «يا للذكاء! انظروا إلى ثلاثتكم. لقد نظَّمتم حياتكم بأكملها على أساس هذا الشيء الغريب للغاية المسمى بالاقتصاد المجاني، حيث تعتني بنفسك وتعتني بالآخرين جميعًا».

قالت بلايت: «إن الرجل المحترق ليس بحياة واقعية. رباه، كنت أعلم أنه كان عليَّ الانتظار حتى تتجاوزين الثامنة عشر قبل أن آخذك إلى البحيرة الصحراوية الجافة». كانت نبرتها هادئة، ولكن بالنظر إلى غضبهما السابق إحداهما من الأخرى، فقد توقعتُ حدوث انفجار.

ولكن مايا احتفظت بهدوئها. «أعلم أنه أمر في غاية الصعوبة حين يذكرك أحدهم بكل التناقضات التي في حياتك. ولكن انزعاجك لا يقلل من صحة ما أقول. أنتم جميعًا تعرفون أنه حقيقي. إن الرأسمالية المتأخرة غير قابلة للتغيير. إنها فكرة ولَّى زمانها».

أخذنا جميعًا نحدق بعضنا في بعض، مثلث من النضج والرشد وفي منتصفه مراهقة منعزلة ثائرة.

- «أنت على حق يا مايا. إنها محقة. وهذا ما يجعل الاختيار المنطقي الوحيد هو استعمار القمر».

قالت بلايت: «هل ستنسحب من الأرض وتنشئ مستعمرة من رجال القمر المنتمين للحركة النقابية اللاسلطوية؟».

- «إطلاقًا. ما أريده هو اقتصاد مجاني يتدلى كجزرة، ويكون معلقًا في السماء فوق رؤوسنا جميعًا. وسيلة أفضل للعيش، هناك، بادية للعيان، للأبد. على سطح القمر. فإذا انهارت الحضارة واكتشف أحد المسوخ القبيحة تلسكوبًا ووجهه إلى القمر، سوف يرى الدليل على ما يمكن أن يكون عليه الجنس البشري».

قلت: «عمَّ تتحدث بحق الجحيم؟».

وقف، متألمًا بعض الشيء، وجرجر قدميه حتى خزانة كتبه والتقط نموذجًا مصغرًا مطبوعًا بتقنية الأبعاد الثلاثية للجهاز، مصنوعًا بواحدة من طابعات التلبيد الانتقائي بالليزر التي تعمل بالحبر المسحوق الخاصة بمينوس. كان النموذج مزودًا أيضًا بعدسة صحيحة بصريًّا متناهية الصغر، كان معمله المفضل في ألمانيا قد زوده بها؛ كان الشيء برمته بمثابة مكافأة لانطلاقة سريعة بالغة النجاح بدأت قبل عامين. فناولني إياه وأخذت أرجله المتعددة تنثني وتصدر صليلًا عندما استقر على راحة يدي.

- «أريد أن أضع أجهزة على القمر. أريد أن أعدله كي يقوم بطباعة تراب القمر، أريد أن أجعله طليقًا. ستمر سنوات، وربما عقود. ولكن حين يصل أبناؤنا إلى القمر، أو ربما أبناء مايا، أو ربما أبناؤهم، سوف يجدون هدية من أسلافهم. شيء مقابل لا شيء. شيء مجاني تمامًا من الأيام الأولى لأمة أفضل حالًا».

كان جزء مني شبه غارق في الدموع بسبب الفكرة؛ من شدة جمالها وروعتها. ولكن كان هناك جزء آخر مني يملؤه غضب عارم من الفكرة. فقد بدا وكأنه يسخر من عالم الأحياء من موقعه العالي الوثير على حافة وادي الموت. كان لكلينا طريقة في المشاكسة والمماحكة مثل زوجين عجوزين، ولكن منذ تشخيص مرضه حين كنت أجد نفسي على وشك انتقاده، كنت أتوقف. فكانت التساؤلات تنهال على عقلي. ماذا لو كان هذا هو آخر شيء أقوله له؟ ماذا لو خلد إلى فراش الموت ولا تزال كلماتي القاسية الشرسة يتردد صداها في الهواء بيننا؟ وكان الأمر ينتهي بنوع من الاستياء والحنق الجياش يغلي بداخلي طوال الوقت.

اكتفيتُ فقط بالنظر بتمعُّن وروِيَّة إلى الجهاز الصغير الذكي في راحة يدي. وأخذنا نتحدث عن كيفية جعله ذا استخدام عملي؛ كان يفترض أن لوحة كمبيوتر من طراز جورسبيري بي آي بسبعة دولارات لها القدرة على المعالجة، وكان هناك الكثير من المحركات المتدرجة متناهية الصغر هناك، ولكن لا أحد استطاع التوصل إلى طريقة للقيام بعملية التجميع على نطاق كبير، لذا فقد اخترنا نموذجًا غير عملي.

- «هل يمكنك الطباعة بتراب القمر؟».

هز بَج كتفيه قائلًا: «ربما. أعرف أنني قرأت بعض المواد عنه. ووكالة ناسا تجري ما يشبه تحديًّا بعنوان «ماذا نفعل بكل هذا التراب من القمر؟» كل عام أو اثنين؛ يمكن أن تطلب ترابًا صناعيًا للعبث به».

- «بَج، لا أعتقد أننا سنضع طابعة على القمر في شهرين».

قال: «لا. لا، فأنا أتوقع أن أتحول إلى رماد قبل أن نكون مستعدين للانطلاق بكثير. فالأمر سيستغرق الكثير من العمل والجهد، ونحن لا نعرف سوى القليل عن الهندسة الخاصة بالبيئات منخفضة الجاذبية، ناهيك عن العمل في الفراغ. سوف يكون عليك جمع الأموال اللازمة لوضع الجهاز على سطح القمر، وهذا سيكون مبلغًا ضخمًا. ولا تنس أن تزوده بهوائي ضخم؛ لأن الطريقة الوحيدة التي ستتمكن من خلالها من الحديث إليه هي عن طريق إرسال موجة قصيرة إلى القمر. أتمنى أن تحظى بالكثير من الدعم من أناس موجودين حول خط الاستواء؛ ستكون تلك هي طريقتك المثلى لتبقيه في المدار طوال الوقت».

- «هذه ليست بفكرة جديدة، أليس كذلك؟».

- «بصراحة؟ لا، إطلاقًا. لقد كانت هذه الفكرة تراودني لسنوات. في أول مرة وضعنا فيها جهازًا وسط التراب وتركناه مدة الصيف، كنت على يقين بنسبة 99 بالمائة من أننا سنعود ونجد الجهاز قطعًا متناثرة. لكنه نجح، ولا يزال في تطور نحو الأفضل. وهذا ما دفعني للتفكير: أين المكان الذي نجد فيه الكثير من التراب والقليل من الناس؟ كنت أود لو زرعت الكثير من هذه الأجهزة على المريخ، وأرسلتها مقدمًا، حتى يتمكن أحفاد أحفادنا في غضون قرن أو اثنين من الهبوط على سطحه وبناء نسخة من مدينة برادبوري بين عشية وضحية. والأفضل أن نصنع نسخة ذاتية التجميع من طابعة الريب الراب، تستطيع أن تطبع نسخًا من نفسها، ونرى مدى السرعة التي يمكنك بها تحويل كويكب، أو حفنة غبار، أو كتلة من الصخور والثلج واقعة بين النجوم إلى قاعة لملوك المريخ، مع العلم بضرورة القيام ببعض أعمال التجميع».

لم ينطق أي منا بشيء لفترة.

قالت بلايت: «أعرف ما تعنيه يا بَج ...».

فنظر إليها بَج وعلى حافة عينيه تقف دموع متلألئة، وعلى عينيها أيضًا.

قالت: «أوه بَج».

وغطَّى وجهه بيديه وأخذ ينتحب. كنت أول من وصل إليه، فوضعت إحدى ذراعيَّ حول كتفيه وارتمى في أحضاني، وشعرت بالكتلة الغريبة في الموضع الذي لم يتم فيه تثبيت الخلع الذي أصيب به بشكل صحيح. ظل يبكي طويلًا. وطال بكاؤه لفترة كانت كافية كي تدفع بلايت، ومن بعدها مايا، للتقدم نحوه ووضع أذرعهن حولنا. وكانت كافية بالنسبة لي كي أبدأ في البكاء أنا أيضًا.

حين استقام في جلسته، أخذ الجهاز الصغير من يدي وقال: «إنه كون ضخم. إنه لا يلقي لنا بالًا. وعلى حد علمي، لا يوجد هنا سوانا. وإذا كان لأحفادنا - أقصد أحفادكم - أن يقابلوا كائنات فضائية أليفة، لن تكون هذه الكائنات سوى نحن».

ظل بَج على قيد الحياة لفترة أطول من المتوقع. قال الأطباء إن حس الهدف لديه هو ما أبقاه حيًّا، وهو ما بدا لي هراء. كان هذا الحديث أشبه بذلك الذي اعترض عليه بحدة في رده اللاذع الغاضب عليَّ بشأن التوجهات الإيجابية. «إذا كان امتلاك حس الهدف سوف يبقيك حيًّا، إذن فكل من ماتوا بسبب السرطان لا بد أنهم لم يكن لديهم ما يكفي من حس الهدف».

وكما كان بَج ليقول: دعك من هذا الهراء.

كان ثمة شيء مضحك بشأن فكرته؛ فقد أخبرت الناس بشأنها واستوعبوها ببساطة. ربما كان السبب هو كل تلك الأجهزة التي انتشرت بالبحيرة الصحراوية الجافة، أو ربما كان ذلك الحلم القديم الخاص بالآلات التي تستنسخ نفسها، أو ربما انهيار البعثات الصينية والهندية وإفلاس الشركة الأميركية التي كانت بصدد العمل على البعثة الخاصة. وربما تمثل السبب في بَج، أو واحد فقط من تلك الأمور.

ولكنهم استوعبوها.

لا أقصد بحديثي هذا أنها نالت إعجابهم. إطلاقًا. ففي اليوم الذي أعلنا فيه عن هدفنا الاستهلالي المتمثل في الصعود بحمولة تزن خمسين كيلوجرامًا إلى القمر - أي ما يعادل خُمس وزن جهاز من النوع العادي، ولكنها كانت فرصة هندسية، أليس كذلك؟ - دعت لجنة الاستخدامات السلمية للفضاء الخارجي التابعة للأمم المتحدة لاجتماع خاص في جنيف لمناقشة المحظورات المتعلقة بـ «التدهور البيئي لقمر البشرية». وكأننا كنا سنفسد الفوهات القمرية اللطيفة.

كان «ائتلاف القمر الأخضر» أكذوبة غريبة الأطوار. فمن ناحية كان لديك محور من السلطوية المصابة بجنون العظمة، يتكون من الصين وروسيا وكوريا الشمالية وما تبقى من اليونان وقبرص، أي جميع الدول المتعثرة اقتصاديًّا، وكانوا على قناعة بأننا كنا واجهة زائفة للمخابرات الأمريكية، نتحرك في وقت الضعف لتأسيس، لا أعرف، ربما منصة لنقل الأسلحة؟ ربما مركز تنصت؟ ربما صانعة زلازل قاتلة؟ لم يكن لديهم منطق متسق في هذا الصدد.

قل ما تشاء عن تلك الكيانات التافهة الغريبة المصابة بجنون العظمى، لكنها كانت بلا شك تفهم كيفية استغلال الأمم المتحدة. ما من أحد يستطيع استغلال الأمم المتحدة بشكل أفضل عدا الولايات المتحدة. ولو كنا بالفعل واجهة لمنظمة للجاسوسية، لربما وفَّروا لنا الحماية.

ولكن ذلك فقط هو ما كان متوقعًا. ما لم أتوقعه هو النصف الآخر للقمر الأخضر: الحركة البيئية. أشك جديًّا ومن صميم قلبي أن أي شخص في الحزب الشيوعي، أو دمشق، أو الكرملين، أو كريت كان يكترث البتة بشأن «بيئة» القمر. لقد كانوا يكرهوننا ويخافونا فقط لأن حكومتنا كانت تكرههم وتخافهم.

ولكن كان هناك أشخاص - العديد من الأشخاص - يعتقدون أن القمر له الحق في أن يظل «على فطرته». عندما صادفت هذه الكلمة لأول مرة - وكان ذلك في دردشة صوتية مع صحفية كانت قد نما إليها ثرثرتنا عبر الإنترنت حول المشروع - لم أستطع حتى التحدث عنها بأسلوب منطقي ذي معنى.

- «معذرة، هل يمكنك أن تقولي ذلك مجددًا؟».

- «أليس للقمر حق في أن يترك وشأنه في حالة فطرية نظيفة؟».

- «هناك مثل يقول: «ذاك ليس صحيحًا. بل إنه حتى ليس خطأ». إن القمر ليست له حقوق. إنه صخرة وتراب، وربما يكون هناك بعض الثلوج إذا حالفنا الحظ بشدة. ليس للقمر «حالة فطرية»؛ فقد تشكل بفعل كويكبات على مدى ملياري عام. وكان له سطح يشبه علبة قصدير تم سحبها خلف شاحنة لمسافة ألف ميل. لا يوجد أحد هناك. ولا يوجد شيء هناك».

- «فيما عدا الحفر والتراب، أليس كذلك؟».

- «أجل، فيما عدا تلك الأشياء».

تحوَّلت المكالمة إلى نوع من الصمت أدركت أنه صمت المنتصر. فقد كان واضحًا أن الصحفية شعرت بأنها قد أحرزت نقطة لصالحها. فأعدت شريط المكالمة في ذهني.

- «انتظري، ماذا؟ أنت تقولين إنك تعتقدين أن الكويكبات والتراب ينبغي الحفاظ عليهما؟ من أجل ماذا؟».

- «ولماذا لا ينبغي ذلك؟».

- «لأنهما مادة جامدة».

- «ولكن هذه المادة الجامدة ليست ملكًا لك لكي تفسدها».

- «اسمعي، في كل مرة يصطدم أحد النيازك بالقمر، يثير غبارًا أكثر مما أعتزم بعثرته بما يقرب من مليون ضعف. فهل يجب أن تنحرف النيازك عن مسارها؟ عند أي مرحلة نقوم بوضع حد للعبث بالطبيعة ونقول: حسنًا، حان الوقت كي نتوقف. هذا يكفي، لقد وصلنا إلى المنتهى. وأي تغييرات أخرى ستكون غير طبيعية؟».

- «بالطبع لا. ولكن هل تقصد أنك لا تدرك الفارق بين نيزك وآلة؟».

لم يكن هناك أي تردد في الرد. «لقد فرغ البشر للتو من إفساد الأرض بشكل تام والآن تريد البدء من جديد على القمر. ألن يكون من الأفضل أن نفكر كيف نرغب جميعًا في استغلال القمر قبل أن نذهب إلى هناك؟».

لا أذكر كيف أنهيت المكالمة. ولم تكن تلك هي المرة الأخيرة التي خضت فيها تلك المناقشة على أي حال. وكانت جميعًا تنتهي عند الموضع نفسه.

لا أدري إن كانت رابطة أصحاب الشوارب والشارات العسكرية كانوا في جانب المدافعين المتشددين عن البيئة أم العكس، ولكنها كانت مجموعة متجانسة إلى حد كبير.

كان الشيء الذي سار في صالحنا هو إفلاس بعثة كوكب المريخ، تلك البعثة الخاصة التي تم إرسالها إلى المريخ. فقد استثمروا الكثير في المرحلتين الأوليين من المشروع في مركبة رفع قابلة لاستعمالها ثانية ومحطة فضاء للالتقاء بها. كانت مركبة الرفع مربحة منذ اليوم الأول، حيث عادت عمليات الإطلاق الفضائي بأرباح عالية. ولكن بعثة المريخ ضخت كل مليم من الأرباح في بناء سكاي هافين، التي كان مزمعًا أن تكون بمنزلة ترسانة للصاروخ «بوروز»، وهو عبارة عن صاروخ أحادي الاتجاه يسع عشرين شخصًا أرسل إلى المريخ به ما يكفي من التكنولوجيا في صناديق الحمولة الخاصة به لترسيخ موطئ قدم على الكوكب المجاور. لكن تبين بعد ذلك أن سكاي هافين كانت باهظة التكاليف بشكل مفرط.

لا أستطيع لومهم. فقد شاهدوا محطتي سكاي لاب ومير وقرروا أنهما بمنزلة طريق مسدود، ومجرد تنويعات على فكرة قصيرة الأجل. وبدلًا من التركيز على القدرة، آثروا النظام شبه المستقر: وهو عبارة عن دوائر متداخلة ومضغوطة مصنوعة من البلاستيك المقوَّى بالألياف الكربونية يمكن بسهولة ترقيعها وإعادة غلقها حين تتمزق. كانت هناك شرائط مصمغة حرة يعاد ملؤها باستمرار تعوم في الفراغ ما بين القشور الخارجية، توزع من خلال تيارات الحمل الحراري التي تتشكل بفعل الحرارة المتسربة من داخل الهيكل. وكانت تُمتص داخل أي ثقب وتغلقه. وما إن تصل إحدى القشور الخارجية إلى درجة حرجة من الترقيع، كانت قشرة أخرى تتمدد داخل القشرة الداخلية، والتي كانت تتمدد بدورها لتسعها، فيصبح الجدار الداخلي هو الجدار الخارجي ويصبح الجدار الخارجي نفايات قابلة للتدوير يمكن تقطيعها، وتصميغها، واستخدامها للجيل الجديد من أعمال الترقيع. كان الأمر ينطوي على مرونة، وليس

استقرارًا، وكان يركز على كيفية الفشل بذكاء، حتى ولو على حساب النجاح الكامل.

بدا ذلك جيدًا للغاية على الورق، وكان أفضل في الفيديو. كان لديهم قيادة هندسية كاريزمية، هي مارينا كوتوف، والتي تم تسريحها من مختبر الدفع النفاث خلال فترة الانكماش الأخيرة، وكانت تتحدث عن المشروع بحماسة شبه دينية. وذهب الكثير من المهندسين إلى واحدة من ندواتها وهم على استعداد للسخرية من «الواقي الذكري الفضائي» وتحولوا لتبني شعار «الفشل الذكي، الفشل الزهيد، الفشل السريع» الذي كان بمثابة صيحتها في المعركة.

وفقًا لكل ما أملكه من معلومات، فقد كانت محقة تمامًا. كانت هناك الكثير من مشكلات التجريب المتعلقة بالخامة، وأفلس أحد مورديهم في منتصف المشروع، تاركًا إياهم بقرض مسدد جزئيًّا دون أن يملكوا شيئًا يقومون به حيال الأمر. ولسوء حظهم، كانت عملية تصنيع المادة الخام قد سجلت كبراءة اختراع بعد عذاب مرير، وكانت براءات الاختراع خاضعة لسيطرة مُضارب أبرم صفقة مع شركة واحدة كانت براعتها في المزايدة على رخص براءات الاختراع أفضل بكثير من براعتها في تصنيع الأشياء. ونشب صراع امتد لعدة أشهر بينما دارت محاولات لاسترضاء أمناء التفليسة وعُثر على مانح جديد للتراخيص، في ذك الوقت كانت سكاي هافين في مأزق.

جذبت بعثة المريخ استثمارات ضخمة في رأس المال واستثمارات أكثر في السندات القابلة للتحويل التي أصدروها مثل تذاكر اليانصيب. لم يكن إنشاء رافع مداري مربح وكفء أمرًا زهيد التكاليف؛ فقد أنفقوا عليه مليارات، وكانوا على ثقة من أنهم سيستطيعون أن يجعلوه يأتي ثماره بمجرد الانتهاء من سكاي هافين وإطلاق بعثة المريخ. وقد رأيت تحليلًا مقنعًا يشير إلى أنهم لم يكونوا ليستطيعوا الوصول إلى هناك إطلاقًا؛ ليس إذا اضطروا لسداد مستحقات دائنيهم، ووضع عائد تخارج يبلغ 10 أضعاف أو 20 ضعفًا لمستثمريهم.

كان الإفلاس هو الحل. بالتأكيد تسبب هذا في محو الآلاف من معاشات المسنين، ودمر مجموعة من البشر الضعفاء الذين كانوا متعلقين بقشة الاستقرار المالي في عالم لم يكن بحاجة سوى للبنوك والروبوتات؛ أشخاص مثلي. وكان هذا أمرًا في غاية السوء. فقد قتل أشخاصًا، مثلما قتل السرطان بَج.

كانت البنية التحتية التي كانت تملكها بعثة المريخ مفتتة وبيعت أجزاء، وذهبت كل مركبة رفع إلى اتحاد مالي مختلف. فكرنا في إنشاء صندوقنا التمويلي الخاص لشراء واحدة، ولكن قررنا أنه سيكون من الأفضل أن نقوم ببساطة بشراء خدمات من أحد الحمقى السذج الذين كانوا يقفون في طابور الإفلاس في مجال الفضاء. كانت بلايت طفلة صغيرة أثناء فقاعة الإنترنت في عام 1999، ولكنها قدمت عرضًا تقديميًّا عن تاريخ برامج التعيين المتقدم ذات مرة، وأوضحت كيف أنها كانت آخر فقاعة مفيدة؛ لأنها أخذت حزمة من رؤوس المال التي كانت تستخدم فقط لتوليد مزيد من رأس المال وحولتها إلى شبكة زهيدة التكلفة من جماعات وحشود من العباقرة البارعين غير المستغلين لملئها بالأشياء. ومنذ ذلك الحين وجميع الفقاعات تكتفي بتحويل المال من عالم النافع والمفيد إلى جيوب أصحاب الثراء الفاحش، كي يتم ضخه مرة أخرى داخل كازينوهات القمار المالي، حيث لا يفعل شيئًا سوى أن يدور ويدور مجددًا، لتعاد هندسته من قبل الخبراء السابقين في فيزياء التداول فائق السرعة الذين يفترض أنهم يعرفون أكثر.

كان إرث فقاعة الإنترنت هو الألياف زهيدة الثمن. ففور محو كل الديون بطريقة سحرية من السجلات وتخلي المستثمرين عن فكرة العائدات المضاعفة لعشر أو عشرين مرة، يمكن أن تكون الألياف تجارة مربحة.

أما إرث بعثة المريخ، فكان الرفع زهيد التكلفة. فقد كان كل ما يتطلبه الأمر هو دعم مالي ضخم من سوق مفرطة في التفاؤل وحزمة من صناديق التحوط، مع ثقة لا عقلانية في نجاحها المالي المؤكد والفوري، كما كان واضحًا، إذ كانت تجلب عشرة سنتات كاملة على الدولار الواحد، وبهذا حصلنا على كل الدعم المطلوب بسعر ثابت ورائع.

كان شيءٌ جيد أن يكون هناك أكثر من اتحاد مالي يدير مركبات الرفع إلى المدار؛ لأن شريكنا الإندونيسي في رحلة الإطلاق كان قد قرر عدم التعاون معنا قبل الانطلاق بشهر قد كانت لديهم علاقات تجارية وثيقة تربطهم بروسيا والصين، وبعد واحد من اجتماعات الاتفاق الجماعي التجارية التي تعقد خلف الأبواب المغلقة، خرج الجميع من القاعة المعبأة بالدخان وهو على قناعة بأنه لا ينبغي رفع ونقل أي شيء موجه إلى القمر من قبل أي دولة متحضِّرة.

تركني هذا أتمنى للمرة المليون لو كنا حقًّا واجهة للعم سام. كانت هناك عملية رفع كولومبية مربحة تتم كل شهر بدقة وانتظام متناهيين كالساعة، وكانت كولومبيا من الدول الواقعة تحت سيطرة أميركا تمامًا لدرجة أنهم كانوا

ليفعلوا أي شيء تقريبًا يطلب منهم. فكانت شركة أوربيتا كولومبيا إس إيه ترفع شتى صنوف النفايات الغريبة التي لا يوجد سبب يدعو لإرسالها إلى الفضاء، بما في ذلك طن من النظائر المشعة كشف عنه أحد الأشخاص من قسم الطاقة النووية بشركة جنرال إلكتريك بعدها بوقت طويل. ولكن لا تزال فكرة ذهاب كل تلك الأسلحة النووية الشنيعة إلى الفلك، وشبح رونالد ريجان وهو يقف فوق رؤوسنا تؤرق منامي بالكوابيس.

في النهاية وجدنا موطننا في البرازيل. كان في البرازيل حركة بيئية قوية، ولكنها كانت حركة بيئية من النوع الذي كان يهتم بالكائنات الحية، وليس الصخور. بعبارة أخرى، حركة من النوعية التي أبتغيها.

كنا نعلم طوال الوقت أن وفاة بَج قادمة لا محالة، وتلقينا الكثير من الإنذارات بذلك مع اشتداد المرض عليه وتفاقم الألم. حصل على مضخة مورفين، وكانت ذات مفعول، ثم ساعده بعض من أصدقائه الكيميائيين بمخزون من الكيتامين عالي الجودة، الذي أتى بمفعول حقيقي. لم يكن هناك خطر أنه سيدمنه أو يتلقى جرعة زائدة. على الأقل ليس بصورة متعمدة.

في الأسابيع الثلاثة الأخيرة، اشتد عليه المرض حتى إنه ظل ملازمًا الفراش. فنقلنا فراشه إلى غرفة المعيشة وأبقينا الستائر المعدنية مسدلة والأنوار مطفأة. وكنا نعمل بالهمسات. كان نائمًا لمعظم الوقت. لم يصب بالنحافة بالشكل الذي يمكن أن يصيب مرضى السرطان في المراحل الأخيرة، وكان ذلك في الغالب يعزو إلى قراره بالرحيل مبكرًا، دون الحصول على العلاج الكيميائي والإشعاعي. واحتفظ بشعره، وفي الأسبوع الأخير فقط لاحظت وأنا أقوم بتغيير مبولة الفراش الخاصة به أن ساقيه قد أصابهما الهزال والشحوب على نحو مخيف، في تناقض حاد مع ما رأيته في اليوم الذي التقينا فيه والساقين القويتين البرونزيتين والأوردة التي كانت تبرز منهما بينما كان جاثمًا بجوار النموذج الأوَّلي للجهاز.

لكنه احتفظ برفقتنا، وحين يكون مستيقظًا، كان يثرثر معنا بصوت ناعس. أحيانًا ما يكون مغيبًا للغاية وينتهي به الحال بالغياب التام عن الوعي، منبريًّا فقط إلى غمغمة غير مفهومة، ولكنه فجأة كان يمر بلحظات من الإدراك الواضح، حين كانت عيناه تتألقان ويرفع ذراعه المرتعشة ويشير إلى شيء على السبورة البيضاء أو على شاشة أحدهم ويبدي تغييرًا أو اعتراضًا ويكون في محله تمامًا. كان الأمر مخيفًا، وكأنه كان يجلب لنا رؤى متبصرة من حافة الموت، وكنا جميعًا ننتفض قليلًا حين كان يفعل ذلك. وهكذا، رويدًا رويدًا، صار لخارطة الطريق الخاصة بالمشروع شكلًا: ترتيب الاتحادات المالية الممولة

لأجهزة الرفع والنقل التي تجب تجربتها، والأساليب والطرق التي تجب تجربتها مع كل منها، وطريقة عرض المشروع، وحتى السرد المصور للفيديو والاقتراحات الهندسية لغربلة الحطام الصخري.

كان بَج ينام على سرير المستشفى الخاص به في غرفة المعيشة. نظريًّا، كنا جميعًا نتناوب النوم على الأريكة المجاورة له، ولكن عمليًّا كنت الوحيد الذي كان يستطيع النوم وسط التأوهات والأنَّات التي كانت تصدر منه أثناء نوم، ومع ذلك أستطيع الاستيقاظ حين كان يصدر صوتًا خشنًّا أجش من أجل طلب مبولة الفراش. وذات ليلة، بعد الثانية صباحًا، أيقظني وهو يصيح باسمي بصوت أجش: «جريج، جريج».

استيقظت لأجده قد قام بتعديل وضع فراشه لكي يجلس منتصبًا، وكان أكثر حركة وحيوية مما كان عليه لأسابيع، وكانت عيناه لامعتين ومنتبهتين.

- «ما الأمر يا بَج؟».

فأشار إلى فتحة في الستائر يتسلل منها شعاع ضوء فضي قائلًا: «إن القمر مكتمل الليلة».

فنظرت إلى مثلث الضوء الذي تراوح بين الأزرق والأبيض قائلًا: «يبدو كذلك».

- «هلا فتحت الستائر؟».

نهضت واتجهت نحو النافذة وفتحت الستائر، فنزل غبار قليل من قضبان النافذة جعلني أعطس. ومن خارج النافذة كان القمر قابعًا في السماء وقد أحاطت به النافذة مثل لقطة مصورة عالية الدقة والوضوح في فيلم وثائقي، وكان كبيرًا وساطعًا حتى بدا وكأن ثمة كشاف كبير مسلط على السماء. أخذ كلانا يحدق فيه لبرهة، ثم قال: «إنه وهم القمر. إنه يجعله يبدو كبيرًا على نحو خاص لأننا ليس لدينا أي شيء لنقارنه به. وما إن ينخفض قليلًا في الأفق وتصبح الأسطح وفروع الأشجار في المستوى نفسه، سوف يبدو صغيرًا مرة أخرى. ذاك هو قمر سمك الحَفش. قمر أغسطس، قمري المفضل. القمر الذي أحيانًا ما تحظى به في مهرجان الرجل المحترق». كان موعد المهرجان قد حان تقريبًا، واكتظ بريدي الإلكتروني برسائل عن الخلايا الكهروضوئية والمولدات، والملابس ودهان الجسم الموصل، الدراجات والقاطرات، الكهرباء والثلج الجاف، الماء والشوايات والفحم وأكياس النوم. في الأحوال الطبيعية، كانت كل هذه الأشياء تشكل جوقة متدرجة كانت تصل إلى ذروتها

حين نقوم برص أحدث وآخر نسخ الجهاز داخل الشاحنة، ونثبِّتها بإحكام وقوة وسط البقالة والملابس والخيام، ونغلق الأبواب ونذير مفاتيح التشغيل.

أما في هذا العام، فكانوا مجرد مجموعة من الأشخاص المزعجين كطنين البعوض انحرف مسار حياتهم عن مسار حياتنا بأقوى الطرق التي يمكن تخيلها. لقد كانوا في طريقهم لقضاء أسبوع من الغبار والمتعة؛ فيما تراصصنا نحن معًا في هذه الغرفة الكئيبة التي يخيِّم عليها شبح الموت، نخطط لرحلة إلى القمر.

قال وهو يسعل في وهن: «بالخارج». ومد يده ليأخذ زجاجة المياه خاصته وساعدته على وضع الأنبوب المرن داخل فمه. ردد ثانية بنبرة أقوى: «بالخارج».

رمقت سرير المستشفى الخاص به بعيني ونظرت إلى باب غرفة المعيشة، ثم قلت: «لن تكون الفتحة مناسبة له. ولا تعتقد أن بإمكانك أن تمشيها يا صاح».

أخذ يقلب عينيه في الجدار، وحدقت أنا فيه للحظة قبل أن أتوصل لما كان يحاول أن يخبرني به. فخلف خزانة الكتب المنخفضة، وصندوق القمامة، والكرسي المكتظ بالحشو، كان الجدار في الحقيقة عبارة عن مجموعة من الستائر المعدنية الرأسية القديمة المغلقة دائمًا. فقمت بإزاحة الأثاث ووجدت سلسلة سحب الستائر المعدنية، وقمت بشدها لتكشف عن طقم من الأبواب الجرارة المزدوجة، وكان عبارة عن قطعة مقاسها مترين في أربع مثبتة في المجرى الخاص به لحمايته من الفتح بالقوة. فنظرت إلى بَج الذي أخذ يومئ لي برأسه برزانة ووقار وأصدر إيماءة تصويب واهنة. فقمت برفع اللوح الخشبي، مخترقًا بطانة كثيفة من خيوط العنكبوت وكتل الغبار. نفضت يدي على السجاد ثم ركنت لوح الخشب على الحائط. جذبت الباب، وكان عالقًا في البداية، ثم انفتح مصدرًا صوت صرير طاحنًا. ونظرت من عند سرير المستشفى إلى الباب حديث الاكتشاف.

- «حسنًا يا صاح، فلنبدأ العمل. فالقمر لا ينتظر أحدًا».

أشار لي بإشارة النصر بإبهاميه وقمت بلف السرير، فاتحًا كل عجلة من عجلاته.

كان سريرًا جيدًا مستأجرًا من شركة متخصصة في مساعدة الأشخاص على الموت في المنزل. إذا بدت لك هذه فكرة قاسية لشركة ناشئة، فظني أنك لم

يسبق لك مساعدة صديق يحتضر في مستشفى.

ولكن ظل إخراج السرير من الباب معاناة رهيبة. فقد كانت فتحة الباب مناسبة بالضبط، دون وجود مساحة لعرض إصبع على كلا الجانبين. ثم كان هناك مسألة حامل جهاز التروية، والذي كان عليَّ أن أستدير للجهة للمقابلة بحيث كان فوق رأس السرير، في مواجهتي مباشرة بينما كنت أقوم بالدفع، إلى أن انحشر واضطررت للخروج من الباب الأمامي والالتفاف حول المنزل لسحبه من الجانب الآخر، بعد تحرير العجلات من الحشائش والحطام في الفناء الخلفي.

ولكن ما إن خرجنا، صار الدفع سلسًا، وأخذته مباشرة إلى وسط الفناء. كانت ليلة من ليالي لوس أنجلوس الرائعة، بنسماتها الباردة التي تأتي عوضًا عن حر النهار الخانق، وكان القمر يلوح في الأفق كبيرًا، حتى إنني تمنيت لو مددت يدي ولمسته. كان بَج وأنا بجوار أحدنا الآخر، ننظر بإعجاب إلى القمر.

قال لي: «ساعدني على خفض الظهر». فقمت بتدوير ذراع الفصل اليدوي الذي جعل السرير في وضع مستو برفق، واستطاع أن يستلقي على ظهره ويحملق في السماء. استلقيت أنا على الحشائش بجواره، ولكن كانت هناك صخور مدببة الأطراف هناك، ما دفعني للدخول وإحضار وسادتين من وسائد الأريكة وارتجلت سريرًا. وبينما كنت في طريقي للخروج من الباب، أخرجت زوجًا من المناظير المزدوجة من صندوق بَج الخاص بمهرجان الرجل المحترق، وانسال منهما بعض الغبار الأبيض الناعم بينما كنت أجذبهما من وسط النفايات القابعة بالداخل.

وضعت المنظار المزدوج على عينيَّ وركزته على القمر. فصارت الحفر والقمم في حيز من التركيز الحاد، فبدت لامعة وبراقة مقارنة بالبدر المكتمل. راح بَج يدلي يده إلى أسفل نحوي ويلوي أصابعه في جزع، ما جعلني أنهض وأساعده في وضع المنظار على وجهه. وأخذ يعبث بمقابض المنظار بأصابعه المرتعشة ثم توقف. ظل متوقفًا عن الحركة تمامًا لفترة طويلة للغاية، حتى إنني ظننت أنه ربما يكون قد خلد للنوم. ولكنه بعد ذلك أخفض المنظار برفق إلى صدره.

قال: «إنه جميل. يومًا ما سيتواجد بشر هناك».

قلت: «أجل، بالطبع».

- «ربما ليس قبل فترة طويلة. ربما تنشأ عليه حضارة مستقبلية. مهما حدث، سيكون القمر في السماء، وسيعرف الجميع أن هناك شيء ينتظرهم لكي يأتوا ويحصلوا عليه».

أخذت المنظار من أصابعه المرتخية واستلقيت على ظهري معاودًا النظر إلى القمر. كنت قد شاهدت اللقطات المصورة التي التقطتها المركبة أبوللو كثيرًا لدرجة أنها صارت غير حقيقية، مجرد لقطات بصرية أخرى من مكتبة أحلام الفضاء الفاشلة عن السفن والمحركات النفاثة التي تسافر بين النجوم والسفر بأسرع من سرعة الضوء. وعلى الرغم من كل ما قمت به من عمل على مدار الأسابيع والأشهر الماضية، كان القمر كمكان ... خياليًّا، شأنه شأن نارنيا أو الأرض الوسطى. لقد كان مكانًا يصلح لإقامة مخيم ما، وليس مكانًّا يمكن للبشر فيه خوض مغامرة، ناهيك عن العيش هناك.

من خلال كل تلك الحفر التي شاهدتها عبر المنظار في تلك الليلة، والتي كانت كل واحدة منها أقدم من أقدم شيء حي على الأرض، توصلت إلى فهم القمر كمكان. وفي تلك اللحظة وجدت نفسي أتعاطف مع المدافعين عن القمر الأخضر، وحديثهم عن فطرة القمر. كان هناك شيء رائع بشأن معرفة أن البشريين الأوائل الذين كانوا يسيرون منتصبين نظروا إلى القمر نفسه الذي ننظر إليه، وأنه لم يتغير.

قلت: «إنه جميل». وكان النعاس يداهمني.

فقال بصوت هامس: «جوهرة. لؤلؤة. إنه ملك لنا. يجب أن نذهب إلى هناك. يجب أن نهزم من يعتقدون أن الشركات أشخاص. إن القمر للأشخاص، وليس للشركات. إنه شيء مجاني. وهو ملكك إن أردته».

قلت: «آمين». كان الأمر يبدو وكأنك في معسكر جماعي، مستلق وسط أصدقائك، تحدقون في النجوم، وتتحدثون إلى أن يغلبكم النعاس.

ظللت أترنَّح بين اليقظة والنوم لفترة طويلة، بينما كان القمر يطوي السماء. وحين استيقظت، كانت الطيور تغرد والشمس على وجوهنا. كان بَج مستلقيًّا في غيبوبة، وزر جهاز المحلول الدوائي في قبضته المرتخية. لم يكن يفعل ذلك إلا عندما يكون الألم مبرحًا. أدخلت سريره برفق قدر ما استطعت، ولكنه لم يظهر أي إشارة تدل على ملاحظته ذلك، حتى عندما ارتطمت العجلات بمجرى الباب الجرار. أعدت كل شيء لمكانه قدر استطاعتي، وأخذت حمامًا ووضعت طعام الإفطار ولم أتحدث إلى بلايت أو مايا عن القمر في سماء الليل عندما وصلتا لاحقًا في صباح ذلك اليوم.

رحل بَج في تلك الليلة. لقد فعلها عن عمد، إذ طلب مني الكيتامين بنبرة جادة، ناظرًا إلى كل واحد منا بالتناوب بينما كنت أضع الأقراص في يده. قال: المزيد». وكررها ثانية. نظر في عينيَّ ونظرت في عينيه. وضعت المزيد من الأقراص في يده، وساعدته على إيجاد طرف أنبوب زجاجة المياه وابتلعها. مد يده إلى زر مضخة المورفين، فوضعته في يده، وأمسكت يده الأخرى. انتقلت بلايت ومايا إلى جانبي ووضعنا أيديهما على حاجز السرير، ثم على بَج، وتحديدًا على ذراعه الواهنة، وساقه الذابلة. ابتسم لنا ابتسامة خافتة، وهو في حالة من الغيبوبة والنعاس، وأغلق عينيه ثم فتحهما قليلًا، وأومأ برأسه. ووقفنا هناك نستمع إلى صوت أنفاسه وهي تتباطأ، شيئًا فشيئًا.

تتباطأ شيئًا فشيئًا.

لم أستطع تحديد اللحظة التي انتقل فيها من الحياة إلى الممات.

ولكن كانت هناك لحظة ارتخت فيها عضلات وجهه، وفي غضون ثوان أعادت ملامحه المألوفة ترتيب نفسها داخل وجه جثة. كان جزء كبير مما كنت أراه كشكل وجه بَج كان من تأثير انقباضات العضلات السفلية، فمع تقعُّر وجنتيه وارتدادها، تمدد جلد أنفه، جاعلًا إياه أشبه بنصل، ومليئة بالغضاريف، مع تفلطح فتحتي الأنف إلى شقين أشبه بالسحلية. كذلك تمددت شفتاه إلى الخلف في ابتسامة باهتة ناحلة كانت أقرب لنصف تكشيرة. ربما صدرت دقة أو دقتان من قلبه بعد ذلك؛ ربما كانت هناك نبضات كهربائية لا تزال تنتقل بشكل عشوائي من عصب إلى عصب، ومن خلية عصبية إلى خلية عصبية، لكنه كان في تلك اللحظة أقرب إلى الموت من الحياة، وبعد ذلك بثوان معدودة كان قد فارق الحياة تمامًا وبشكل جلي.

جلسنا ساكنين للحظة امتدت طويلًا. كنت الآن في غرفة بصحبة جثة، لا بصحبة صديقي. تركت يده واسترخيت، وكانت تلك إشارة لنا جميعًا كي نتراجع.

من المفترض أن تكون هناك كلمات خاصة بتلك اللحظات، ولكن لا يوجد. فمثلما تفرس كل إنسان عاش على هذه الأرض في القمر وبحث عن كلمات ليصفه بها، كذلك كنا جميعًا نحدق في جثامين الأشخاص الذين أحببناهم محاولين العثور على العاطفة المناسبة. تمنيت لو كنت أؤمن بالطقوس الأخيرة، أو وضع قطع النقود المعدنية على الجفنين، أو أي شيء نستطيع جميعًا الإقرار بأنه الوسيلة الملائمة لوضع نهاية للحظة والعودة إلى عالم الأحياء. دست بلايت يدها في يدي فيما وضعت مايا مرفقها عبر ذراعي الأخرى

وخرجنا معًا في جنح الليل. لم يعد القمر مكتملًا، لم تتبق منه سوى شظية من وجهه الضخم، والليلة كانت هناك غيوم تنطلق عبر السماء تخفيه تارة وتكشفه تارة أخرى.

وقف ثلاثتنا هناك وسط نسمات الليل وخشخشة أغصان الشجر والطنين البعيد لحركة المرور في لوس أنجلوس والضوضاء البعيدة لطائرة هيلكوبتر شرطية، بينما جسد صديقنا الآخذ في البرودة قابع على الجانب الآخر من الحائط الكائن خلفنا. وقفنا هناك وأخذنا نحملق في القمر.

كانت تهيئة الجهاز للعمل في بيئة قمرية تحديًّا هندسيًّا ضخمًا. كان بَج قد رسم لنا خريطة: جمع الحطام الصخري، وفرزه، وتلقيم الجهاز به على القاع، وضبط العدسة. ثم كانت هناك مسألة الدفع والتسيير، التي كانت أهم بالنسبة للقمر مما كانت على الأرض. كان من المزمع أن نقوم بإنزال جهاز على البحيرة الصحراوية في شهر يوليو على أن نجمع ألواح بعد شهرين، في يوم عيد العمال. ولكن طابعة القمر ربما تظل هناك لقرون، تقوم بتلبيد ألواح تيترويدية وتلفظها بينما البشر على الأرض يتنازعون ويثورون ويحدقون في النجوم. ولو لم نقرر كيف نجعل الجهاز يتحرك، سيؤول به المآل في النهاية بالوقوف على قمة سطح من الألواح المطبوعة، وقد نفد منه الغبار ولا يستطيع الوصول لمزيد من الغبار، سيكون هذا هو الأمر الواقع.

لم يكن بَج قد وجد حلًّا لهذه المشكلة. ولا أنا، ولا بلايت، ولا مايا. ولكننا لم نكن وحدنا. فقد كان هناك موقع معلومات ممتد وقائمة بريدية للمشروع، وفي مرحلة ما كان لدينا ثلاثة فرق منفصلة تتنافس من أجل الوصول إلى القمر أولًا. فريق مشروعنا، وفريق شبه متطابق في معنا في الأهداف فيما عدا أن منظميه كانوا ملتزمين التزامًا تامًّا بمنهجية معينة فيما يتعلق بإحكام سد المحامل، والتي صوت جانبنا لها بالرفض.

أما الفريق الثالث، فكان عبارة عن مجموعة صغيرة من الأشخاص غرباء الأطوار من المتصيِّدين عبر الإنترنت، مجتمع بدأ اكتساب خبرته برسم خطط مفصلة لغزو جزيرة سيلاند - منصة الحفر الواقعة بعيدًا عن الشاطئ التي تم تحويلها إلى ملاذ مشؤوم للمعلومات السيادية - ثم تحول للمقامرة في استطلاعات مجلة «تايم»، وتفكك ليتحول إلى حركة أنونيموس بكل أوجهها وأنشطتها ونزعاتها المتعددة، محاربة الجميع من الكنيسة العلماوية إلى الحكومة المصرية وصولًا إلى وكالة الأمن القومي الأمريكية وأثبتت قدرتها على تغيير نفسها بشكل متواصل لتحدي كل ما كان عاقلًا ومنطقيًّا في العالم، مهما تطلب الأمر.

نظم هؤلاء الأشخاص أنفسهم تحت راية «لجنة حماية لونا»، وشرعوا في صنع آلة من شأنها مطاردة آلتنا والإمساك بها، هي والألواح التي طرحتها، وتحطيمها إلى أصغر قطع يمكن تخيلها. كان يعمل معهم بعض المهندسين ذوي الموهبة العالية، وتمكنت التصميمات التي توصلوا إليها من حل بعض المشكلات التي كنا نعاني منها، مثل تصميم عجلة توازن تعمل أيضًا كمحرك دفعي، يتم توجيه طاقته في اتجاه واحد بحيث يشق الجهاز طريقه برفق عبر سطح القمر. وقد أنتجوا فيديوهات ورسومًا بيانية فنية لا حصر لها توضح كيفية عمل آلتهم، وكيفية اصطياد آلتنا بواسطة حساسات تعمل بالقوة المحركة الكهربائية، ونظام لألواح الرؤية. وفما يتعلق بالتسليح، فكانت له وحدة التلبيد الخاصة به، وكانت عبارة عن مجموعة بارعة من العدسات لدرجة أنها تستطيع التركيز عن طريق محركات مؤازرة محكومة ببرنامج حاسوبي لخلق تأثير العدسة المكبرة، مما يتيح له حرق الفتحات الميكروسكوبية التي تتخلل الروبوت الخاص بنا ببطء وبشكل مؤكد.

الأمر المهم أن التصميمات الفنية كانت سليمة تمامًا. وعلى الرغم من أن 90 بالمائة من الكلام المنمق على لوحات رسائلهم كانت له الصبغة المشوشة لضحكات المغيبين، كانت العشرة بالمائة المتبقية كانت في غاية الجدية، وكانت قادرة على ترديد مبادئ ائتلاف القمر الأخضر بل تنقيحها بجدية صارمة. كان هناك كثيرون في معسكرنا على قناعة بأنهم جادون؛ لاسيما بعد أن نجحوا في بناء روبوت قاتل في ست وثلاثين ساعة.

كان ظني أن الأمر كان تصيدًا، مجرد تصيد بحت. وصرخت عبر الإنترنت قائلًا: لا تغذوا المتصيدين، لكن لم أجد من ينصت لي (ليس عددًا كافيًّا من الناس على أي حال)، ودار لغط منهك حول إجراءات مضادة وإجراءات وقائية، بل دعوى قضائية، فليعيننا الله جميعًا؛ لأن ذلك لن يفضي إلى شيء. استمر الاشتباك والجدل طويلًا حتى إننا فوَّتنا نافذة الإطلاق الزمنية الخاصة بنا. وقال قادة ذلك الفريق المصاب بجنون العظمة إنهم قد أسدونا معروفًا بأن جعلونا نخسر العربون الذي أودعناه؛ لأننا الآن سيكون لدينا وقت لتصحيح الأمور بشكل حقيقي قبل موعد الإطلاق.

قالت مجموعة أخرى إن الشيء المهم لم يكن في الإجراءات المضادة، بل في التأخير؛ فلو تأخرنا حتى يقوم هؤلاء الحمقى بإنزال إنسانهم الآلي القاتل على سطح القمر، يمكننا نحن إنزال إنساننا الآلي على مسافة بعيدة كفاية بما يجعل الأمر يستغرق خمسمائة عام كي يلتقي الاثنان، على افتراض السرعة القصوى واستواء الأرض طوال الطريق. تصاعد ذلك ليتحول إلى نقاش حامي الوطيس حول نظرية اللعب وإستراتيجيته، وارتكبت الخطأ البشع بالانخراط

مباشرة في ذلك بقول: «اسمعوا أيها الأغبياء، إذا كانت إستراتيجيتكم هي الانتظار لفترة أطول منهم، وإذا كان هدفهم هو منعنا من القيام بأي شيء، فإن الإستراتيجية المثلى لهم هي عدم القيام بشيء. فما دام أنهم لم يطلقوا، لن نستطيع نحن الإطلاق».

استنزف النقاش الذي دار لاحقًا حياتي لمدة شهر وامتد لعالم الواقع بشكل طاغ، إذ حرصت مجموعة من الأشخاص المختلفين معي بقوة على البحث عني، في إحدى الفعاليات الخاصة بالحارقين في لوس أنجلوس، كي يثبتوا لي كم أنا أبله.

كان عليَّ ألا أنساق في هذا الجدل. وفي نهاية المطاف أقدم الأحمق المسؤول عن المال في هذه المجموعة المترصدة لنا على الهرب. لم أعرف قط ماذا فعل بالمال. وحسب علمي، لم يعرف أحد مطلقًا.

بعد ذلك أغلقت فمي. أو بالأحرى كنت أفتحه فقط للقيام بالأشياء التي من شأنها المساعدة في التقدم بالمشروع للأمام. توقفت عن تعنيف وزجر الآخرين، تاركًا تلك المهمة لمايا. أنا لا أومن بالتعميمات فيما يتعلق بالخصائص السكانية للناس، ولكن تلك الفتاة كانت تجيد الجدال. انس كل ذلك الهراء بشأن «المواطن الرقمي»، الذي لم يكن يعني أي شيء قط على أي حال. فاستخدام الكمبيوتر ليس بالأمر الصعب. أما النشوء في عالم تؤدي فيه طريقتك في الجدال بشأن شيء ما إلى تغييرٍ ما يحدث له، فكان مهارة، وكانت مايا تملكها بطرقٍ لم أفهمها قط.

- «ما الخطأ في تسميته بالجهاز وحسب؟».

كانت بلايت تنظر من الموقع الذي تقوم بإزالة الحشائش الضارة منه وهي تمسح العرق بذراعها من على جبهتها، تاركة خطًّا رفيعًا من أوساخ بنية اللون. كانت هي وأنا نتناوب إزالة الحشائش الضارة وكان هذا اليوم يومها، ما كان يعني أن عليَّ أن أقضي وقتي داخل المنزل مع كل الأشخاص الخياليين عبر الشبكة ومجادلتهم.

- «اترك هذا الأمر يا جريج»، قالتها بنبرة أدركت أنها نبرة غير قابلة للتفاوض تمامًا. كان قد مر على حياتنا معًا عامان، ومنذ ذلك الحين أنفقت جزءًا ضخمًا من مدخراتي في شراء نافذة إطلاق أخرى واضطررت لإعادة رهن منزلي. لم تكن حديقة الخضراوات مجرد هواية؛ لقد كانت أسلوب حياة يساعد على الوفاء بالنفقات الأساسية.

قلت: «مهلًا. مهلًا. لطالما كنا نسميه «الجهاز». هكذا سمَّاه بج ...».

ملأتها الدهشة وهبَّت واقفة على قدميها برشاقة لاعبي اليوجا. كانت عيناها نصف مغمضتين، ويشع منها ذلك الغضب الهادئ الذي كنت أعرفه وأخشاه.

- «بج؟ مهلًا يا جريج. أعتقد أننا قد اتفقنا على عدم اللعب بورقة عبادة الشخصية. لقد فارق الحياة منذ سنوات الآن. وهو لم يكن الرئيس ماو، ولا هاري سيلدون. لقد كان مجرد رجل كان يهوى التجمعات والحفلات، وكان مهندسًا لا بأس به، وكان شخصًا جميلًا بشكل عام. إن التذرع بعبارة «هكذا سمَّاه بَج» هو محض هراء. فـ «الجهاز» اسم أحمق. إنه وسيلة لكي نعلن للعالم أن هذا الشيء لم يتم التفكير فيه بعناية. إنه هزل. إنه ليس جديًّا ...».

قلت: «ربما كان ذلك أمرًا جيدًا. أتعلمين؟ لأن بهذه الطريقة، لا أحد يأخذنا على محمل الجد وعلينا أن نتحايل ونتصرف دون خوف من العقاب حتى يفوت الأوان و...».

خيم عليَّ الصمت تحت تأثير نظرتها الغاضبة الجامدة. حاولت أن أستمر في الحديث، ولكن لم أستطع؛ فقد كانت بلايت ممن لا يعانون مطلقًا من تشويه الواقع. بل على العكس كانت من أنصار تأكيد الواقع.

قلت: «حسنًّا. لن نسميه الجهاز. ولكن كنت أتمنى لو أخبرتني قبل أن تنشري الأمر بين الناس».

خلعتْ قفاز البستنة الخاص بها ودسَّته في جيبها، ثم مدْت يديها لي فأمسكتها.

قالت وهي تنظر في عينيَّ: «جريج. إن لدى آراء خاصة. الكثير من الآراء. ولن أطلعك عليها قبل أن «أجهر» بها. هل نحن واضحون في هذا الشأن؟».

مرة أخرى كبَّلتني نبرتها الواقعية؛ فأبت كل مبرراتي الحمقاء عن أنني لم أعن ذلك أن تشق طريقها للخروج من فمي، إذ برز على السطح إحساس كامن بالرغبة في حفظ الذات والبقاء.

قلت: «أجل يا بلايت». فضغطت على أصابعي وخلعت عنها مظهرها وسلوكها العابس الصارم وكأنه قناع كانت ترتديه.

- «رائع. والآن ماذا سنسميه؟».

كان جميع من عرفوه من خلال مهرجان الرجل المحترق يدعونه بالجهاز. أما الباقون فكانوا يدعونه طابعة القمر. «ليس طابعة القمر».

- «ولمَ لا؟ يبدو اسمًا ذا رواج. هل ستخبر الجميع أن الاسم الذي اختاروه خاطئ؟».

قلت: «نعم».

قالت: حسنًّا، تفضل».

- «حسنًّا، قبل كل شيء، هو ليس طابعة. إن تسميته بطابعة ثلاثية الأبعاد يشبه تسمية السيارة بالعربة عديمة الحصان، ويشبه تسمية المؤتمرات المرئية بـ «المكالمة المصورة». ما دمنا نلحق كلمة طابعة بكلمة أخرى كتسمية له، سوف نظل مقيدين بالتفكير في إطار الطباعة».

- «حسنًّا. نقطة لا بأس بها. ماذا أيضًا؟».

- «إنه لا يطبع القمر! إنه يستخدم تراب القمر لطباعة مواد بنائية لبناء مساكن جاهزة. إن الوسيلة لـ «طباعة» قمر هي دعل مذنب يرتطم بكوكب بحيث تنفصل كتلة ضخمة من الصخر في حجم القمر وتدور في مدار حوله».

- «إذن بمَ ينبغي أن نسميه في اعتقادك؟».

هززت كتفي قائلًا: «أحب اسم «الجهاز»».

طأطأتُ رأسي عندما لفَّت أحد قفازيها المتسخين في شكل كرة ورمت به رأسي. اصطادتني بالقفاز الآخر ثم أتبعته بحضن قوي ضغط على ضلوعي وقالت: «أحبك، تعرف هذا».

- «أحبك أنا أيضًا». وكنت بالفعل أحبها. فعلى الرغم من حقيقة أنني قد أجهزت على مدخراتي، ودخلت ضمن طبقة البريكاريا، [(6)] وقد ينتهي بي الحال يومًا ما بتناول طعام الكلاب، كنت في قمة السعادة.

- «تبًّا، لقد نسيت إطعام ميسي».

ضغطتْ على مؤخرتي ضغطةً على سبيل الدعابة وقالت: «فلتذهب إذن».

كانت ميسي هي خنزيرتنا، وكانت من نوعية الخنازير الأليفة المستأنسة، وكانت صغيرة بما يكفي بحيث تشعر بالسعادة على نصف فدان من حشائش الرعي، بجوار مرعى الدواجن الذي يقع على مساحة نصف فدان. كانت

الدواجن تقتات على الحشرات والحشائش الضارة، وقمنا بزراعة المزيد من حشائش الرعي وسط مخلفاتها، التي كانت ميسي تقتات عليها، مخلفة وراءها ما يكفي من المخلفات لزراعة التوت، وخضراوات السلاطة، التي كان يمكننا تناولها. كنا نحصل على البيض، ومن ثم اللحم المقدد ولحم الخنازير الطازج، وكذلك الدواجن. لا مخصبات، ولا فوسفات، إلى جانب الحصول على مزيد من السعرات الحرارية في مقابل مدخلات أقل من الطاقة والماء مقارنة بأكفأ المزارع الصناعية.

كان العمل بالمزرعة كثيفًا بشكل غير معقول، وهو ما جعلني أحبه. كان رائعًا أن تفكر أن السبيل لإطعام مليار شخص هو قياس العائد على الاستثمار عن طريق تعظيم السعرات الحرارية وتقليل البؤس والشقاء، بدلًا من تقليل استثمار رأس المال وتعظيم الأرباح المحتجزة للمساهمين.

لم يكن عشاء ميسي قد تأخر سوى ساعة واحدة، وكان لديها الكثير من الكلأ على نصف الفدان الذي ترعى عليه، ولكن كانت في شدة الغضب مني، ورفضت أن تأتي وتأكل من يدي حتى داعبتها وأصدرت أصواتًا اعتذارية لها، بعدها جاءت وأخذت تحك أنفي وتقرض أصابعي. كان لدي كلبان زوجان، في مرحلة النمو، ولكن لم يكن الأذكى والأكثر ودًا بينهما يرقى لمستوى خنزير من حيث الذكاء والود. لم أكن أدري كيف سنحمل أنفسنا على تناولها كطعام. لا يهم، فقد تمكنَّا من فعل ذلك مع الدواجن، التي كانت أكثر ذكاء وكان لديها شخصية أكثر مما تخيلت. وكان ذلك هو الشيء الآخر المهم بشأن الزراعة المستدامة: فقد جعلتك تفكر بعمق بشأن المصدر الذي جاء منه طعامك. فقد مرت شهور منذ استطعت أن أنظر إلى مرطبان من أصابع البيبروني اشتريته من إحدى محطات الوقود دون أن أتخيل الحيوانات التي كانت عليها يومًا ما.

نخرت ميسي في وجهي بود وتنشقت رائحة كعبيَّ، وكانت تلك طريقتها في المطالبة بإخراجها من مرعاها. ففتحت البوابة وانعطفت إلى الجزء الصغير من باحة المنزل التي كنا نحتفظ بها من أجل الترفيه البشري. وفتحت كرسيًّا وجلست عليه والتقطت الكرة الخاصة بها ورميتها وأخذت أشاهد جريها الوئيد في إثارة لإحضارها. كانت تستطيع القيام بذلك لساعات، ولكن فقط إذا غيرت موضع الرمي وأعطيتها بعض التحديات الصعبة.

كانت مايا تطلق على أجهزتنا اسم «صانعة القاذورات» والتي كانت تسمية مرحة فيما عدا أنها كانت بمثابة هدية لهم، إذ كانوا يتهموننا بالفعل بأننا نقذف قاذوراتنا على سطح القمر. كانت بلايت تفضل وصفها بأنها «مستوطِنات الأراضي»، وهو الوصف الذي كان يحوي بين طياته شتى أنواع الخبرات

والتجارب الشنيعة بشأن مصادرة أراضٍ من أشخاص كانوا موجودين هناك. وكانت تجادل دومًا بأنه لم يكن هناك سكّان محليون على القمر، ولكن ذلك لم يكن مهمًّا. فقد كان شعب القمر الأخضر عازمين على وصفنا بمنتزعي الأراضي الغاصبين، وكان ذلك يخدم مصالحهم. ودائمًا ما كان يدهشني كيف يمكن لأشخاص أذكياء مثل بلايت ومايا أن يكونوا بمثل هذا الغباء والحمق في هذا الشأن.

ليس الأمر أنني أمتلك أفكارًا أفضل. فقد كان اسم «الجهاز، اسمًا مريعًا.

ألقيت الكرة وتعمقت أكثر في التفكير.

استقر بي الحال بتسميته «فري لانش» (freelunch) بمعنى «المجاني». لم تكن تلك التسمية من صياغتي، إلا أنني بمجرد أن رأيتها، أدركت أنها التسمية المناسبة. فقد كان بمثابة منارة تبشرنا بحياة أفضل، فقط لو توقفنا عن دهس أحدنا للآخر للوصول إليه.

علق الاسم في الأذهان. تجادل بعض الناس بشأنه، لكنه كان واضحًا لأي شخص أجرى تحليلًا معجميًّا للوحات الرسائل، والدردشة، والتغريدات، والمنتديات أنه كان يحرز تقدمًا. لا شك أن مشروعات التوطين قد جادلت بشأن ما إذا كانت كلمة مجاني (أو free) تعني «حر» أم «دون مقابل» وقامت بفصل الكلمة من المنتصف. وفي البرازيل استخدموا كلمة «Livre» (التي كان الموظفون «المؤقتون» العاملون لثلاثين عامًا وأكثر في البرتغال يترجمونها إلى «gratis» (أي دون مقابل)).

توجه أكثر من ثمانية آلاف منا إلى مدينة ماكابا من أجل يوم الإطلاق، إذ هبطنا في جيانا واستقللنا القطار فائق السرعة الجديد من جورج تاون. كان هناك العشرات من النماذج الأولية لـ «فري لانش» تم صنعها واختبارها حول العالم، وسط تنافس من فرق العمل من أجل الحصول على التمويل، والصيانة، ومعامل الفضاء. وبمباركة ناسا، استحوذت إحدى الشركات بمدينة آشفيل على إنتاج الحطام الصخري الاصطناعي، وهو مزيج كان تركيبه (بطبيعة الحال) محل جدال حامي الوطيس.

كان الفريق البرازيلي يسخر كل موارده وطاقته من أجلنا. فكنت أسهر كل ليلة بين الرقص والأكل بشراهة، ثم أنام في غرفة المعيشة الخاصة بعائلة مختلفة إلى ان يأتي شخص ما ليصطحبني إلى الشاطئ، أو أحد مراكز الإبداع، أو إحدى المدارس. وذات مرة، تم تسكين مايا وبلايت وأنا في أحد الأحياء

العشوائية الفقيرة التي تقع على أحد أطراف برج إداري مهجور على كابلات رفيعة وقوية بشكل مستحيل. كانت الغرف مبنية من الكرتون المقوى المشمع، وكانت تتمايل مع الرياح لدرجة ترعبني. كنت على قناعة بأن الحال سينتهي بي بالسقوط مباشرة على الأرض. كنت أحاول ألا أتحرك، وإن اضطررت لذلك كنت أتنقَّل على أطراف أصابعي.

كانت مركبة النقل سيليسك إس ليفتر إس إيه تحوي مقصورة صغيرة للشخصيات المهمة يستطيع العملاء من خلالها مشاهدة عمليات الإطلاق. كانت تتسع لثمانية أشخاص، وكان الفوز بالمقاعد يتم من خلال مسابقات اليانصيب، ولم أحظ بواحد. لذا شاهدت عملية النقل والإطلاق بصحبة الآخرين جميعًا (الذين كان ينقصهم ثمانية أشخاص) من حي آخر فقير، وكان واحدًا من تلك الأحياء القديمة التي تحظى باعتراف رسمي. كان السطح مكتظًّا بالمتفرجين، وكان الباعة المتجولون يسيرون بشكل متعرج عبر الأزقة شديدة الانحدار بزجاجات من الجعة على شكل مصابيح، وأسياخ من اللحم، وقراطيس ورقية من المأكولات البحرية. كانت تلك هي عملية النقل الثالثة والتسعين للمركبة سيليسك، وكانت نسبة نجاحها تصل إلى 78 بالمائة، ولم تفشل سوى مرتين فقط في تلك الفترة. لم تسفر المحاولتان عن أي خسائر، ولكن الحمولة ألقيت فوق المحيط الهادئ وتحطمت عند الاصطدام.

كانت تلك احتمالات جيدة، ولكن كنا لا نزال جميعًا نحبس أنفاسنا خلال العد التنازلي، وأثناء انطلاق ألسنة اللهب الأولى والتمتمة الصادرة من آلاف المتكلمين، والتي كانت بمثابة جوقة مكونة من أصوات غير متزامنة ناتجة عن كثرة عدد المستخدمين على الشبكة. حبسنا أنفاسنا خلال عملية الإقلاع الموجهة بشريًّا للنفاثة الضخمة، والتي كانت بمثابة مرحلة أولى للمركبة، ولهثنا حين أظهرت لقطات الفيديو المرئية عبر الإنترنت المركبة وهي تظهر من مؤخرتها وتصعد بسلاسة إلى السماء. هبطت النفاثة على نحو شديد الانحدار مع انطلاق صواريخ المركبة واضطلاعها بمهمة الدفع، وذلك عبر الغلاف الجوي الرفيع على حافة الفضاء في خلال ثلاثمائة ثانية.

شاهدت الجزء التالي من المركبة، على الرغم من أن آخرين قد أقسموا على أن المشاهدة كانت أفضل من منصة المدار الأرضي المنخفض التابعة لقناة الجزيرة، والتي تدور حول الأرض، بينما الخط الفاصل بين النهار والليل يتقوس عبر المحيط بالأسفل. ولكنني أحببت المشهد من مقدمة المركبة؛ لأنه كان بالإمكان رؤية القمر يكبر ويكبر، إلى أن طغى على السماء.

قبل عقود، تحمل طاقم المركبة كيريوسيتي «دقائق الرعب السبعة» الخرافية حين كان لا بد أن تتناسق مظلتها، وصواريخها، وأغلفتها الخارجية مع توقيت دقيق بالثانية لإنزال الروبوت الصغير الشجاع على سطح أقرب جيراننا دون تحطيمه إلى شظايا. من حسن الحظ أن هبوط أول نسخة من فري لانش على القمر كان أبسط كثيرًا. كانت هناك أمور كثيرة تسير في صالحنا؛ فكان القمر قريبًا بما يكفي لإجراء القياسات عن بعد وإرسال توجيهات جديدة حتى اللحظة الأخيرة، وكانت جاذبيته أقل بكثير من المريخ، وكانت لدينا ميزة معرفة كل ما تعرفه ناسا ونشرته من واقع مهام الهبوط الخاصة بها. ودعنا لا ننسى أن كوكب الأرض يملك شريحة كبيرة من الطيارين المتخصصين في الهبوط على القمر على مر الأجيال والذين تدربوا على المحاكيات منذ أول ظهور للنسخة النصية على كمبيوتر PDP-8 في عام 1969.

في واقع الأمر، كان الجزء الأخير سيئًا. فقد كان الكثير من الناس يعتقدون أنهم مؤهلون للعب دور في الخطة، في حين لم يكن معظمهم مؤهلًا لذلك تمامًا. كانت نسبة الإشارة إلى الضجيج من ضمن أسوأ الأمور في المشروع بأكمله، ولكن في النهاية كانت الإستراتيجية الرابحة هي تلك المتداولة منذ مسابقة وكالة الفضاء الأوربية لمركبات الهبوط القمري الخردة، ينقصها مرحلة الملاحظة والمشاهدة: وهي عبارة عن سلسلة قصيرة من المدارات الإهليلجية تؤدي إلى نقل للمدار وعملية حرق سريع تجعل المركبة تهبط في اتجاه السطح. كانت نظم الرؤية التي تقيم موقع الهبوط قادرة على نشر نافثات هواء بشكل مستقل لدفع عملية النزول داخل أكثر الرقع المتاحة وضوحًا وسلاسة.

أطلقت مركبة النقل سيليسك فري لانش في الوقت المحدد بالضبط، فاشتغلت محركاته قليلًا ثم ارتد تلقائيًّا داخل مدار أدنى من أجل الاستعداد للهبوط. ومع ابتعاد الاثنين أحدهما عن الآخر، بدا فري لانش أنه يتقوَّس بعيدًا، على الرغم من أنه كان مستمرًّا بالفعل على المنحنى المضبوط الذي دفعته المركبة إليه. غاب فري لانش عن عدسة القمر الصناعي إيه جيه، ولم يعد مرئيًّا أمام القمر الذي يلوح في الأفق، ليظهر ويختفي بشكل متقطع كبقعة سوداء ظلت خوارزميات تصحيح الضوضاء تمحوها ثم تغير رأيها بشأنها.

التقت جميع الشاشات من حولي، الواحدة بعد الأخرى، على صورة واحدة: شاشة مقسومة على أحد جانبيها فيديو مهتز بتكبير عال في الزمن الفعلي، ونسخة برسومات خطية من الرادار. ظل فري لانش يدور ويدور حول القمر في أربعة مدارات آخذة في الضيق، مثل كرة حبل تدور حول عمود. وصاحب تحوله إلى مدار الانتقال وهج متناهي الصغر، ثم أخذ يهبط في شكل دوامة.

قالت بلايت: «إنه في طريقه للهبوط»، وأومأت برأسي، فعادت حواسي فجأة إلى الليل البرازيلي الدافئ، ورائحة الطعام ورائحة الجعة في فمي.

ظل يدور مقتربًا أكثر وأكثر، بعدها ارتد بعنف، ولهثنا جميعًا، وقالت بلايت: «هناك شيء على السطح».

قلت وأنا أحدق بعيني وأقوم بتكبير سريع للمشهد من الكاميرات السفلية: «أجل». كنا قد دفعنا لمحطة القمر الصناعي من أجل الإطلاع على مشاهد تسلسل عملية الهبوط، ما كان يعني حصولنا على مشاهد عالية الوضوح إلى حد ما. ولكن سطح القمر يتحدى العين البشرية: فهناك حصى دقيق يلقي ظلالًا طويلة حادة تبدو كشقوق عميقة أو ربما رصيف صخري مرتفع. وقد استطعت رؤية عشرة أشياء على موقع الهبوط كان من الممكن أن تكون معيقات خطيرة لفري لانش؛ أو ربما لا تمثل أي شيء ذي حيثية.

لم يكن هناك وقت. فقد كان فري لانش في تلك اللحظة في مدار شارد ومتقلب جعل المشهد من كاميراته يتقلب بشكل يبعث على الغثيان، كتلة ثائرة من الأرض في السماء، لجبال، حُفَر، أرض، سماء سوداء، كتلة بيضاء/ رمادية من الشمس. وندت من حولنا صيْحة تعجُّب خافتة من ثمانية آلاف حنجرة دفعة واحدة.

نقلتنا مايا إلى بث القمر الصناعي إيه جيه المكبر ولقطة الرادار. كان هناك شيء خطأ؛ فقد كان من المفترض أن يدور فري لانش مرتين أو ثلاث ثم يهبط. ولكنه بدلًا من ذلك كان يتردى قليلًا، لم يكن ينقلب على رأسه، بل كان يتدحرج بشكل أكبر من قدرة البوصلات الجيروسكوبية على تصحيحه.

قلت بصوت هامس: «اللعنة. أرجوك. ليس الآن». لا أعرف لمن كنت أتحدث. تُرى إلى بَج؟ لقد كان الهبوط هو الجزء الأخطر من المهمة بأكملها، وهذا هو ما جعلنا جميعًا هنا نراقب ما يحدث.

أخذ يسقط لأسفل وأسفل، وكان بإمكاننا جميعًا أن نرى أن أجهزة توازنه لا تعمل بشكل متزامن. فبدلًا من تخميد سقوطه، كان جهاز التوازن على أحد جانبيه يعمل على تسريعه، فيما كانت الأجهزة الثلاثة الأخرى تعمل ضده.

قالت مايا: «أرجوحة دوارة» حملقنا فيها جميعًا. ففي بعض من تجارب المحاكاة التي أجريناها للهبوط، فعل فري لانش هذا بالضبط، بينما دخل القائمون على عملية التوازن في جدال محتوم بشأن من كان على حق. فقام أحد الفرق - وكان مقره مدينة أيوا، ولكن كان له أنصار حول العالم - بتسميته

بالأرجوحة الدوَّارة وأجروا جميع أنواع العمليات الحسابية لتوضيح السبب وراء ارتفاع احتمالات حدوث ما حدث مقارنة بتقديراتنا. أرادوا منا تأجيل المهمة برمتها بينما يقومون بإعادة صياغة واختبار تسلسل عملية الهبوط. لم يأت التصويت في صالحهم، إلا أنهم لم يكفوا قط عن الدفاع عن موقفهم.

قالت بلايت في صوت خفيض مكتوم: «فلتصمتي». كان السقوط يزداد سوءًا، والأرض تلوح في الأفق.

قالت مايا في شرود: «اللعنة. إنها الأرجوحة الدوارة، وهذا يعني أننا يفترض أن نرى النيران المضادة في أي… ثانية … الآن!».

لو لم نكن نشاهد عن كثب، لكنا فوَّتنا هذا المشهد. كان فري لانش مزودًا بمجموعة من النفاخات الهوائية للطوارئ من أجل تشغيل مجمعات الطاقة الشمسية حال تعطل آلية الدوران الميكانيكي أو فقدانها للطاقة. وقد دافع أصحاب تسمية الأرجوحة الدوارة بنجاح عن فكرة إنشاء هيكل قيادي للطوارئ من شأنه اكتشاف السقوط ونشر نافثات الهواء في إطلاق قوي واحد من أجل إبطال جهاز التوازن المعطل. وقد أفرغت نفسها في أقل من ثانية، في شكل خط أبيض مشوش يتعامد بزوايا قائمة على محور دوران فري لانش، وقلت حدة التدحرج في ثلاثة اهتزازات قصيرة قصيرة. وبعد ثانية، كان فري لانش ينزلق إلى سطح القمر، ناشرًا عمود من الحطام الصخري أشبه بذيل الطاووس طاف فوق السطح مثل غبار البحيرة الصحراوية. أخذنا نرقب المشهد بينما كان غبار القمر يستقر بسدس السرعة التي اعتدنا عليها، وكان المشهد يبدو كتليفزيون مضبوط على قناة ميتة، وبدا وكأن ثلوجًا تظهر ببطء حول الزوايا الحادة لفري لانش.

سجلتُ كل ضوضاء صدرت من الحشود المجتمعة على الأسطح ودرجات السلم، كل أنَّة وآهة، التي كانت جميعًا تقول بشكل أساسي: «رجاء، رجاء، رجاء، دعوه ينجح».

أطلق فري لانش أغطيته الواقية. وظلت لمدة ثانية في موضعها، ولم تبد للعيان سوى كمجموعة من الزوايا الركنية غير المتوازية داخل الجسم الصندوقي الأساسي للروبوت الفضائي. بعدها انزلقت، لتهبط إلى السطح بتلك الحركة الرشيقة المعروفة للقمر. كان الشهيق المتزامن الذي رافق ذلك أشبه بصوت مولد مكتوم في حجم مدينة كاملة.

قالت مايا: «تشغيل/ اختبار ذاتي». أومأت برأسي. كان يمر بإجراءاته الروتينية الخاصة بالإعداد لبدء التشغيل، والاطمئنان على أنظمته الفرعية،

والتصديق على الفحوص النهائية. واستغرق الإجراء برمته أقل من دقيقة.

بعد مرور عشر دقائق لم يحدث شيء.

قلت: «تبًّا».

قالت بلايت: «صبرًا». وكان صوتها مشدودًا كوتر جيتار قبل أن ينقطع مباشرة.

قلت: «تبًّا للصبر».

قالت مايا: «صبرًا».

وأمسك كل منا بيد الآخر، وأخذنا نراقب الموقف.

وبعد مرور ساعة اتجهنا إلى الداخل.

لم يكن لدى فري لانش شيء ليقوله لنا. مع دوران الأرض تحت القمر، كان جيشنا من مشغلي اللاسلكي الهواة - وهم متطوعون منتشرون عبر خط الاستواء - يحاولون جميعًا باستبسال إرسال إشاراتهم إليه، وسماع رسائله البائسة. ولكنه التزم الصمت.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة، كان معظمنا قد غادر البرازيل. استقللنا سفينة شحن بطيئة من ساحل المحيط الهادي إلى ميناء لوس أنجلوس، في رحلة استغرقت ثلاثة أسابيع تناولنا خلالها الأسماك، وحدقنا بعين نصف مغمضة في شاشات العرض البلوري العاكسة في الشمس، وتجادلنا.

كانت لكل شخص نظرية بشأن ما حدث لفري لانش. فذهب البعض إلى أن مكونًّا أساسيًّا - مستشعرًا، أو مصدر طاقة، أو لوحة منطقية - قد تزحزح من موضعه خلال حركة الدوران (أو الإقلاع، أو الهبوط). كانت اللقطات ذات التكبير العالي من قمر الجزيرة الصناعي قد تم فحصها فحصًا دقيقًا، وتم وضع دائرة حمراء حول الأشياء التي كانت تمثل إما ضوضاء أو تأثيرات ناتجة عن ضغط الصورة، أو أدلة دامغة على حدوث تلف بالغ وتكبيرها بوحدات بيكسل فردية، ومناقشتها، ومعالجتها ببرنامج الفوتوشوب، وإدخال تعديلات عليها، وتحسينها.

تم نشر ألف صورة تلسكوبية لفري لانش، وكان تحديد وجود التلف المفترض من عدمه يتم اعتمادًا على الصورة. كان المشهد عبارة عن دمار شامل. خطأ بشري. أجزاء دون المستوى. دليل على أن الفضاء مكان كبير للغاية بالنسبة لأفراد تافهين من بني البشر، ولا يناسب سوى الدول الضخمة العنيدة.

لا يوجد شيء مجاني في هذا العالم، هكذا أخذ المتصيدون على لوحة الصور العشوائية يرددون، وأعلنوا مسؤوليتهم عن الأمر برمته. حتى إن أحد التبشيريين الإنجيليين في المكسيك ادعى أنه قد قضى عليه بقوة الصلاة، عقابًا لنا على غطرستنا.

أضمرت بداخلي أمنية سرية: أن يستيقظ فري لانش يومًا ما وقد أصاب المزيج السحري من إعادة التشغيل، وإعادة التحميل، وإعادة التهيئة من أجل إنجاح الأمر برمته. ولكن مع بقاء فري لانش قابعًا هناك، مستقرًّا وسط غبار عالم آخر - حسنًّا، القمر - خامدًا متعطلًا، واجهت حقيقة أن آلاف الناس قد أمضوا سنوات في العمل معًا من أجل إفساد نظام كوكب آخر. أو القمر.

لا يهم.

لم يكن ذلك العام جيدًا؛ فقد عاودتني نوبة أخرى من مخاوف السرطان لأن الحياة سيئة، وأرادت الطبيبة مجموعة من الاختبارات الخارجة عن مظلة التأمين من شأنها أن تكلفني تقريبًا كل ما تبقى في حسابي.

كنت قد ربحت القليل (جدًّا) من المال من القيام ببعض الكتابات عن مشروع فري لانش، وتحليلات للحادث، وإعداد ردود لبعض المواقع. ولكن بعد مرور شهرين من إعادة قولبة القاعدة نفسها، والتعامل مع كل الضغوط المتعلقة بمسألة الصحة، هجرت النشاط المرتبط بفري لانش كليًّا. وكانت بلايت قد سبقتني إلى ذلك بالفعل.

بعد شهر، انفصلتُ عن بلايت. كان ذلك أمرًا مخيفًا. لم يكن الانفصال بسبب أي شيء محدد، فقط سلسلة من المشاجرات الغبية البسيطة تحولت إلى انفجارات وانتهت بي بأن حزمت أغراضي في حقيبة وتواجهت إلى نُزُل صغير. في الليلة الأولى لي هناك، استيقظت في الثالثة صباحًا لأتقيأ عشائي بأكمله وزيادة.

بعد أسبوعين، عدت إلى منزلي مجددًا. لم تتحدث بلايت وأنا عن ذلك الوقت الرهيب بعد ذلك، ولكن حين كانت أيدينا تتشابك أو نتعانق ليلًا، كان الأمر

تشوبه شراسة لم يكن لها وجود في حياتنا لسنوات وسنوات. ربما كنا بحاجة إليها.

المال، المال، المال. لم يكن لدينا أي أموال. فقمت ببيع المنزل، وانتقلنا إلى منزل بالإيجار، حيث لم يسمحوا لنا بتربية دواجن أو خنازير. تراكمت علينا فواتير البقالة، ما ددفعنا للانتقال إلى مكان آخر، وكان هذا المكان في فريسنو، واقتنينا خنزيرًا جديدًا ونصف دزينة دواجن جديدة، ولكننا الآن كنا على مسافة ثلاث ساعات بالسيارة من مينوس وأصدقائنا.

حصلت بلايت على عمل في دار للمسنين، وكانت تتحصَّل على أجر أعلى قليلًا من الحد الأدنى للأجور. أما أنا فلم أستطع العثور على أي عمل، ولا في مجال البستنة. ووجدت نفسي جالسًا في خمول وجمود بالغين، وكأنني كنت قلقًا من أن أستهلك بعضًا من مدخراتي لو بدأت في التحرك.

كانت تعمل في مكان يدعى شادو هيلز، وكان جزءًا من سلسلة لدور قديمة للمسنين كانت تعتني بالأشخاص الذين احتفظوا بمدخراتهم دون مساس من أجل شيخوختهم الطويلة. كان المكان أشبه بباخرة ثابتة؛ فكان يتألف من خمسة وعشرين طابقًا تضم «كبائن خاصة» تحوي غرفة معيشة صغيرة وحجرة نوم ومطبخًا صغيرًا، كانت هناك ثلاث قاعات للطعام تقدم قوائم طعام متناوبة، وأنشطة، وبازارات أسبوعية للحرف اليدوية، وفصولًا دراسية، وصالات للألعاب الرياضية، وبركة سباحة، وقاعة لعرض الأفلام. كان الاختلاف الجوهري بين شادو هيلز والباخرة - بعيدًا عن انغلاق مقاطعة فريسنو - هو المستشفى وعنبر الرعاية التلطيفية اللذين كان يشغلان الطابقين العاشر والحادي عشر. بهذه الطريقة، بمجرد أن يبدأ شريك حياتك في الاحتضار، يمكنك الإقامة في الكابينة وزيارته في العنبر كل يوم، بدلًا من أن يبقى كل منكما وحيدًا في تلك الأيام الأخيرة. وكان ذلك شيئًا إنسانيًّا ومرهفًا، ولكنه كان يجعلني حزينًا.

كانت بلايت تعطي دروسًا في البرمجة للسبعينيين الذين لم تكن مدارسهم الثانوية توفر فصولًا «لعلم الكمبيوتر» في أوائل ثمانينيات القرن الماضي، والمسنين الذين تمكنوا من اجتياز طريق الحياة الطويل دون أن يتعلموا كيف يعلِّمون الكمبيوتر كيفية عمل شيء جديد. كانوا متحمسين وصبورين، وكانوا ينادون على بلايت بصوت عالٍ في كل مرة تعبر الردهة لمقابلتي ويصيحون بتعليقات وقحة بشأن مدى ملاءمتي كزوج لأستاذتهم ومعلمتهم المحبوبة.

كانت حريصة دومًا على تقبيلي ومعانقتي عناقًا حارًّا يتلامس فيه جسدانا بالكامل قبل أن تصطحبني للخارج إلى الحدائق من أجل بدء نزهتنا، وكانت أصوات الاستهجان ترتفع تدريجيًّا حتى تتعاظم.

قلت: «ليتك ما فعلت».

قالت: «متزمِّت»، وضربتني على مؤخرتي في تباهٍ، حتى إن المسنين قد لاحظوا وعلقوا بسيل متدفق من الكلمات. «ماذا لدينا للغداء؟».

- «حساء جوز الهند، وكاري الباذنجان، وقرع عسلي مشوي».

- «انتظر، سأذهب لإحضار شطيرتي الاحتياطية من زبد الفول السوداني والهلام».

كنت أشق طريقي عبر دورة تعليمية في الطهي عبر الإنترنت، بمعدل وصفة في المرة الواحدة، وكنت أتعامل مع الأمر وكأنه سلسلة من التجارب الكيميائية. كانت الوصفات تنجح في معظم الأحيان، إلا أن بلايت كانت تتمادى في التظاهر بأن الطعام لا يؤكل وكانت تتطلب بعض التملق والضغط لدفعها لتجربة إبداعاتي. لذا بينما كانت تهم بالانصراف سريعًا للعودة إلى العمل، ضغطتُ على يدها وجذبتها للخارج نحو الحديقة.

ساعدتني في بسط البطانية ووضع الأقسام الفردية للوعاء العازل للحرارة الذي يحوي وجبة الغداء. شعرت بالرضا حين رأيت أن الطعام لا يزال ساخنًا كفاية لدرجة أن البخار كان يتصاعد منه. كنت أجرب تسخين الطعام أكثر من اللازم قليلًا قبل تحويله إلى إناء آخر من أجل نقله، محاولًا إيجاد نقطة البدء الصحيحة تمامًا للحصول على درجة الحرارة المثالية عند الوصول لمرحلة الاستهلاك. تعقد الأمر بفعل حقيقة أن عملية التبريد ليست عملية خطية، وكانت تعتمد أيضًا على حجم وكثافة الطعام. كانت حقيقة أن هذه المشكلة كانت تستنزف العديد والعديد من سنوات حياتي بمثابة مؤشر لا بأس به على حالتي الذهنية المتدنية. ثمة دليل آخر على ذلك، وهو حرصي على ملاحظة درجة حرارة كل وجبة غداء قبل أن أدع بلايت تقدم على التهامه، وإرفاق درجة الحرارة الصحيحة بالسجل المناسب على هاتفي، الذي كان مدرجًا فيه البيانات الخاصة بوزن الطعام ونوعه، وإدخالها قبل مغادرة الطعام.

بذلت بلايت كل ما في وسعها من أجل إنجاح الأمر، جاعلة إياي أغرف ملاعق من الطعام وأصدر أصوات طائرة وأطعمها إياه قبل أن تجربه، ولكنها بعد ذلك أخذت تأكل بنهم. كانت واحدة من أفضل تجاربي. في مرحلة ما ضبطتها وهي

تقوم بسحب بودنج الأرز اللزج بصلصة المانجو الثخينة الذي صنعته إلى الجانب الذي تجلس عليه من البطانية وضربتها على يدها واستعدته. ولكنها نجحت في اختلاس ملعقة منه بينما لم أكن أنظر.

كنت أحب نزهات غدائنا معًا. بل إنها كانت الشيء الوحيد الذي أحبه في الواقع.

سألتني: «كم سينقضي من الوقت في تصورك قبل أن تفقد صوابك تمامًا؟»، وكانت ترتشف بعضًا من الشاي المثلج الذي سكبتُه في أكواب ذات قاعدة سميكة كنت قد ابتعتها من أحد معارض السلع المستعملة المخفضة، ونقلتها ملفوفة في مناشف أطباق ناعمة وسميكة.

- «من سيلاحظ؟».

بدأت ألملم الغداء، جامعًا أجزاء الوجبة ومطوِّقًا إياها بالأربطة ذاتية الشد. فأخذتها بلايت من يديَّ برفق وأنزلتهما.

قالت: «جريج. جريج، دعنا نتحدث بجدية. هذا ليس بالوضع الجيد. أنت بحاجة لتغيير شيء. إن الأمر يبدو كما لو كنت أعيش مع شبح. أو إنسان آلي».

شعرت وكأن مسمارًا من الغضب يخترقني من أعلى رأسي حتى مؤخرتي، غضب حاد ولا عقلاني لدرجة أنني لهثت بصوت مرتفع. لا بد أن أنضج وأنا في كهولتي؛ لأن القوة البحتة لرد الفعل كانت تعجزني وتجعلني أتوقف قبل الرد.

قلت: «لقد حاولت أن أجد عملًا. ليس هناك شيء يناسبني».

قالت وهي لا تزال ممسكة تتأبط ذراعي رافضة التنازل عن التلامس الجسدي بيننا: «كلا. كلا، هناك وظائف. كلانا يعرف أن هناك الكثير من العمل».

قلت: «سأفكر في الأمر»، ولكن في قرارة نفسي كنت أعني أنني لن أفكر في الأمر مطلقًا.

ظلت متشبثة بذراعي، وجعلتني أنظر في عينيها. «جريج أنا لا أمزح. هذا ليس بالوضع الجيد لك. إنه ليس جيدًا لنا. ليس هذا ما أريد أن أفعله لما بقي من عمري».

أسأت فهم حديثها شبه متعمد، وسألتها لمَ لم تبحث عن عمل في مكان آخر. ولكني كنت أعرف أن ما تقصده بكلمة «هذا» هو العيش معي في حالتي المتردية تلك.

قلت مكررًا: «سأفكر في الأمر»، وأزحت يدها. لملمت الغداء، ووضعته على مؤخرة دراجتي، وانطلقت عائدًا إلى المنزل. وتمكنت من منع نفسي من البكاء حتى أغلقت الباب من خلفي.

في تلك الليلة مارسنا الحب. كانت المرة الأولى منذ شهور طويلة عجزت حتى عن إحصائها. بدأ الأمر بتلامس صامت ليلًا، فيما بلغ عناقنا الحار المعتاد مدى أكبر قليلًا، شيئًا فشيئًا، وتسارعت أنفاسنا، وراحت أيدينا ثم أفواهنا تستكشف جسد كل منا الآخر. خيم علينا شبه صمت واشتد عناقنا وطال عن المعتاد. أدركت أن الفجوة الزمنية التي تفصلنا عن آخر عناق حميم جمع جسدينا معًا تزيد على الفجوة التي تفصلنا على آخر مرة مارسنا فيها الحب. وجدت أنني أفتقد العناق أكثر مما أفتقد الجنس.

بدأت الترويج لفري برانش - وهو الاسم الذي أطلق على خليفة فري لانش - بشكل محموم. ظللت لأيام أترك رسائل تنبيه على المنتديات، وأقوم بتحميل النماذج الأولية، وأشاهد الفيديوهات، ممضيًّا في ذلك بضع دقائق في المرة الواحدة قبل الانشغال في أمور أخرى على الكمبيوتر. كان لدى إحدى الفرق وصف معقول إلى حد ما عن سبب سير عملية الهبوط بشكل غاية في السوء، وتقبل الجميع تقريبًا فكرة أن الهبوط السيئ كان مسؤولًا عن فشل الأنظمة. وأشاروا إلى وجود خلل في نظام الرؤية، إذ حدث تصادم بين محركين استدلاليين جعله يخطئ في تفسير ظلال قمرية مألوفة معينة على أنها أرض وعرة، فقفز على الظلال بالمعنى الحرفي للكلمة. ثبتت ادعاءات فريق الأرجوحة الدوارة تمامًا ونجحوا في فرض إعادة تصميم كاملة لبرنامج التوازن وخطة الدخول.

كلما تفحصت فري برانش، كان الأمر يزداد إثارة. كان فري لانش قد نقل القياسات عن بعد حتى اللحظات الأخيرة من هبوطه، ما أدى إلى فصل قاطع وبات لجدل آخر: «إلى أي مدى ينبغي أن نشعر بالقلق إزاء القياسات الخاصة بالهبوط عن بعد إذا كان عليه أن يهبط مرة واحدة فقط؟» لقد علمتنا تدريبات المناورة الحية أشياء لم يكن يمكن لأي قدر من التجارب الأولية للطائرات التي تنفذ مهام السقوط الحر أن يظهره. فقد تبين، على سبيل المثال، أن الغلاف الخارجي لفري لانش قد صمم بهندسة فائقة دقيقة تمامًا ولم يعان سوى جزء محدود من السخونة التي تنبأت بها النماذج التجريبية. وكان هذا

يعني أن بإمكاننا تخفيف الوزن بنسبة 18 بالمائة. كانت تكلفة الكتلة تبلغ نحو 98 بالمائة من إجمالي تكلفة عملية الإطلاق، ومن ثم كان خفض الكتلة بنسبة 18 بالمائة يعني خفضًا يبلغ نحو 17.99 بالمائة في تكلفة بناء فري برانش وإرساله إلى سطح القمر.

أدركت بلايت أنني أدمنت الأمر قبل أن أدرك أنا هذا. ففي المرة الثالثة التي أعطيتها فيها شطيرة وبعض أعواد الجزر من اجل الغداء، بدأت في إطلاق النكات حول كوني قد أصبحت أرملة للقمر، وأخبرتني أنها ستأخذ معها غداءها أربعة أيام في الأسبوع، ولكن لا تزال تتوقع مني أن أصنع شيئًا لطيفًا من أجل مائدة عامرة يوم الجمعة.

وهكذا عدتُ ثانية إلى شغفي.

كبَّدني فري لانش كل مدخراتي تقريبًا، ولم أكن وحدي في ذلك. فقد كان قرار عدم الحصول على رعاية تجارية للمشروع مغلفًا بالنيات الحسنة، ولكنه كان يعني أن الأمر كله لا بد أن يُموَّل من الحمقى أمثالي. الأسوأ من ذلك أن فري لانش لم يكن مسجلًّا ضمن المشروعات الخيرية المعفاة من الضرائب وفق البند الثالث (ج) من المادة 501، ولذا لم يستطع حتى أن يجذب أيًا من الأغنياء ذوي الثراء الفاحش الباحثين عن وسيلة لخفض الضرائب.

أعيد تشغيل فري برانش بواسطة أشخاص بلا أي هواجس متعلقة برفض استغلال مهرجانات الرجل المحترق تجاريًّا. فكان كل شيء حتى لوحات الدوائر الكهربية عليها شعار أو اسم شخص ما، وأضافوا رخصة مستخدم نهائي للمشروع تنص على أنه بالمساهمة في بناء فري برانش، تكون قد تنازلت عن حقوق الملكية الفكرية الخاصة بك إلى المؤسسة التي تديره، وكانت مؤسسة ليس لها مجلس إدارة معين بالكامل ولا تتسم بالشفافية بأكثر مما يلزمها القانون.

أشعل ذلك عاصفة متوقعة من الجدل العنيف وصلت إلى الصحف العالمية حين عثر أحدهم على استمارة طلب براءة اختراع صادر من رئيس المؤسسة، يدعي فيها اختراع بعض من تقنيات الإقفال اخترعها بَج نفسه، هناك في البحيرة الصحراوية. رأيتها بأم عيني، والأهم أنني قد ساعدت في توثيقها، بواسطة إعلانات ذات ختم زمني أبطلت كل ادعاء من الادعاءات الجوهرية الخاصة ببراءة الاختراع.

كان الموقف سيئًا بما يكفي، إلا أن المؤسسة فاقمت ورطتها أكثر حين استخدمت التبرعات التي قامت بتحصيلها من أجل دفع أتعاب المحامين للمحاربة من أجل براءة الاختراع. وثبت بالدليل أن الشقاق الذي تبع ذلك شقاق نهائي لا رجعة فيه، وبعد عام انتهى تمامًا أمر فري برانش.

ومن وسط الرماد ظهر فري بير، الذي حاول أن يخلق موقفًا وسطًا بين مثالية فري لانش وقابلية فري برانش للفساد. قام المعنيون بالمشروع بجمع أموال من أجل البناء، واتفقوا على طباعة أسماء المتبرعين للمشروع على قوالب القرميد الساقطة على سطح القمر، واستفادوا من مبادرة مؤسسة أبحاث الفضاء الهندية لتخطيط القمر، التي أفرزت خرائط مسح عالية الوضوح بشكل لافت للنظر للجزء المضيء من القمر. وعلى ذلك الأساس، وجدوا نقطة على بحر الأمطار كانت في نعومة مؤخرة طفل رضيع وكانت على بعد بضع مائة كيلو متر من مثوى فري لانش الأخير.

كان مصيرهم الفشل بالطبع. سار كل شيء على ما يرام إلى أن حدث الانفصال عن منصة المدار الأرضي المنخفض؛ إذ حدث شيء ما - يوجد تسعة أفلام وثائقية (جميعها ممول تمويلًا جماعيًّا) تعرض نظريات متضاربة - وانتهى الحال به بالسقوط والتحطم فوق سيبيريا وأمطر شهبًا داخل العدسات الطامعة لآلاف الكاميرات.

فري بيرد

(مدعم، بالطبع، بسلسلة من عروض المدرجات الرياضية والجولات الغنائية.) فري برس.

(كان هذا الروبوت يطبع برقيات ويكليكس المسرَّبة التي تعود لمطلع القرن وفاز بجائزة في بينالي فينيسيا، الذي يقام في مدينة بادوا بعد أن صارت المدينة بأسرها تحت الماء. وكان من الأشياء المجدية التي قام بها اختياره لبرقيات تناولت خدع الحكومة الأميريكية بخصوص تغير المناخ. وكان الفينيسيون المبعدون الذين يعيشون في مساكنهم المتراصة ذات الطراز البيدوفي يرون أنه شيء مسل للغاية.) وقد استغرق ذلك سبعة أعوام.

تفترض نظرية المؤامرة الخاصة برائد الفضاء المفقود أن عددًا معينًّا من رواد الفضاء الروس - اثنين؟ ثلاثة؟ - قد قتلوا قبل رحلة جاجارين الناجحة. فيقولون إن جاجارين عندما استقل المركبة الفضائية فوستوك في عام 1961، كان يتوقع تمامًا أنه سيموت، ولكنه استقلها على أي حال، دون أن يهدده أحد

المسؤولين الحكوميين بمسدسه. لقد استقل المركبة التي قد يكون فيها هلاكه لأنها كانت تذكرته إلى الفضاء. لقد ذهب إلى ما كان من الممكن بشكل شبه يقيني أن يكون سبب موته لإيمانه بمستقبل أفضل. مكان للإنسانية وسط النجوم.

حين تفكر في بطل ما، فكر في جاجارين، وهو مربوط بحزام الأمان في تلك الكبسولة، ومن أسفله دويّ المحركات النفاثة، ودمدمة أصوات برج المراقبة في سماعة رأسه، ويد عجلة التسارع الثقيلة جاثمة بقوة على صدره تدفع بقوة متزايدة تسحق العظام، وزئير المحركات يمحو كل صوت سواها. تخيله يتجه دون تردد إلى موته بابتسامة على وجهه، وتخيله يخترق الغلاف الجوي، وانعدام الوزن المفاجئ، وإدراكه أنه قد نجا. أنه أول إنسان يصعد إلى الفضاء.

واصلنا إطلاق الطابعات.

أقامت بلايت وأنا عيد ميلاد سبعينيًّا مشتركًا ليتزامن مع إطلاق فري رانر. كان هناك أصدقاء قدامى لنا، وكانت هناك كعكة. وكان هناك آيس كريم، مع قطع من قرص العسل من خليتنا الخاصة. وكانت هناك - وأنا صادق في هذا - سبعون شمعة. وقد أطفأنها جميعًا، جميعًا، وإن كان الأمر قد استغرق محاولتين، بالنظر إلى حالة الرئة في السبعين.

راح كل منا يشرب نخبًا في صحة الآخر مثنيًّا عليه بخطبٍ مطولة تقطر منها عاطفة خالية من الخجل، وأحضرت مايا أبناءها وأهدونا مسرحية صغيرة قاموا بكتابتها، تدور حول طابعات صغيرة مطبوعة بالتقنية ثلاثية الأبعاد.

وبعدها، وبينما كنا نضبط كل شاشة في المنزل على الإطلاق، رفعت كأسًا وشربت نخبًا في صحة بَج: «فلنعش وكأنها الأيام الأولى من عمر أمة أفضل».

كان الهتاف والتهليل صاخبًا بما يكفي للتغطية على صوت الإطلاق.

هبط فري رانر في الساعة الرابعة وثلاث عشرة دقيقة بتوقيت جرينتش في يوم 10 أغسطس عام 2057. وبعد ثماني دقائق من الهبوط، أتم روتينه الخاص باختبار التشغيل الذاتي وأطلق مجمعات الطاقة الشمسية الخاصة به. أقام اتصالات مع تسع محطات أرضية مختلفة تعمل بنظام لا سلكي الهواة وقام بنقل قياسات شاملة عن بعد. تحركت محامله بسلاسة، وأمال عدسته في اتجاه أشعة الشمس. كانت اللقطات الخاصة بأول عملية تلبيد له منخفضة الوضوح ومهزوزة، ولكنها سُجِّلَت جميعًا من أجل نقلها لاحقًا، وكانت تلك هي اللقطة التي شاهدتموها، القمة ذات اللون الأبيض المبهر للطاقة المركزة

للشمس، وهي تذيب الحطام الصخري في شكل خط رفيع مسطح طويل سرعان ما التحم به خط آخر بمحاذاته مباشرة. أخذ الرأس يتحرك إلى الخلف وإلى الأمام، واضعًا الأساس، ومن فوقه البنية السداسية المثقبة الشبيهة بقرص العسل، ثم السطح الأخير. مال قاع الطابعة برشاقة وئيدة وانزلق قالب الطوب المطبوع لتوه بانسيابية وسقط على الغبار بالأسفل، متأرجحًا من جانب لآخر، وكان أشبه بالريشة حين سقط.

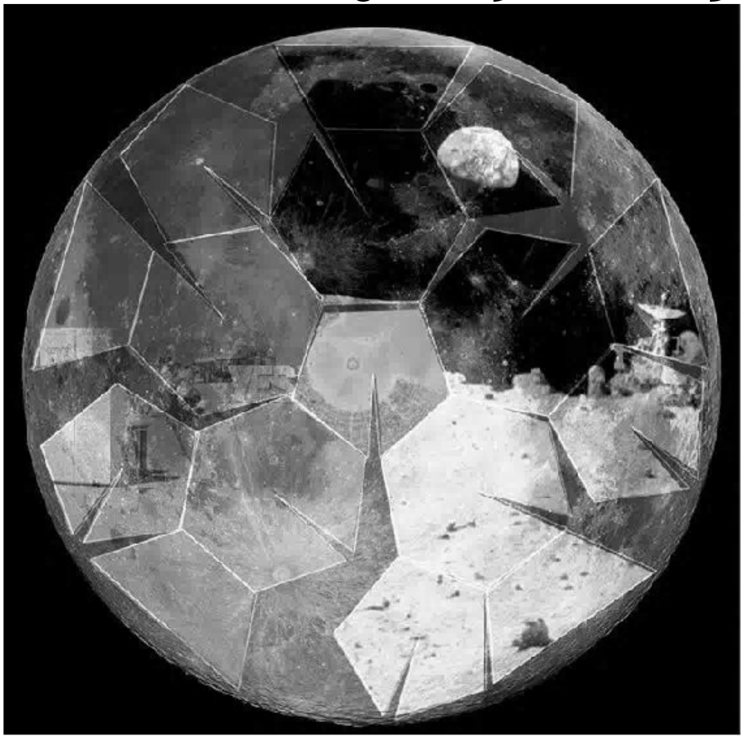

© 2013, Nina Miller / ASU, adapting content from: 2010, Gregory H. Revera, used under a CC BY-SA 3.0 license; 2011, Alisha Vargas, used under a CC BY 2.0 license; 2006, Floor, used under a CC BY-SA 2.0 license; and NASA

بعد أسبوع، تواصل فري رانر مع فري لانش، مستخدمًا هوائيات ذات مصفوفة طورية من أجل الحصول على إشارة ضيقة النطاق عالية القدرة لبرمجياته المخزونة الخامدة. وبعد جهد جهيد أعاد بناء نظام الإدخال والإخراج الأساسي لفري لانش، موجهًا إياه لاستخدام ما يملكه من طاقة محدودة لإطلاق النوابض التي تحجز المصفوفة الشمسية داخل جسده. استغرق الأمر سبعًا وثلاثين ساعة وبضع دقائق. كنا في البحيرة الصحراوية حين بلغنا أن المصفوفة الشمسية قد نُشرت، وانتشر الخبر كالنار في الهشيم من حارق إلى آخر، وانطلقت الألعاب النارية في السماء.

ابتسمتُ وأخذت أتمرغ داخل كوخنا المستدير، كوخ الإسكيمو. كوخ الإسكيمو المستدير. كنت في قمة السعادة. ولكنني كنت أيضًا في السبعين من عمري. وكنت بحاجة إلى الراحة. وفي صباح اليوم الثاني، اتجه شاب عار في العشرين من عمره تغطي جسمه حراشف من الخصر إلى أعلى بدراجته إلى مخيمنا وهو في حالة من الإثارة وطرق على قوالب الطوب المتشابكة للخيمة المستديرة حتى اعتقدت أنه قد يخترقها.

قلت: «ماذا يحدث بحق الجحيم؟».

فقال: «هناك قالب مطبوع. لقد أخرج فري لانش قالبًا من الطوب!» ونظر إليَّ وتأمل عينيَّ المرهقتين وشعري الأشيب. «آسف لإيقاظك، ولكن اعتقدت أنك سترغب في معرفة ذلك».

صاحت بلايت من الداخل قائلة: «بالطبع يريد أن يعرف. يا إلهي، جريج، أحضر للرجل شرابًا. نحن نحتفل!».

أثار غبار البحيرة الصحراوية أعصابي ودفعني لأن أمد يدي نحو المنديل الذي كان يلف عنقي، وجذبته على وجهي. التفتُّ نحو الشاب، الذي كان يقف هناك في حرج وخجل منفرج الساقين بجوار دراجته، قائلًا: «حسنًا. تفضل، نحن نحتفل!» وعانقته بأقوى ما استطعت، وفي المقابل احتضنني بعناية رقيقة.

فتحنا بضع زجاجات من ويسكي البوروبون كان أحد الأصدقاء قد أحضرها لنا في اليوم السابق وفتحنا المقاعد المطوية. ازداد الحشد، وأحضر الكثير منهم زجاجات. كانوا أصدقاء قدامى، أعداء قدامى، وأناسًا كان ينبغي أن أعرفهم ولم أفعل، وأناسًا عرفتهم ولكنهم لم يعرفوني في البداية. فقد ابتعدت عن البحيرة الصحراوية لسنوات كاملة. وعلى حين غرة، وجدت الشمس تغرب، وكان هناك الآلاف منا، والموسيقى دائرة، وساقاي تؤلماني من الرقص، فيما تشبَّثت بي بلايت بقوة حتى ظننت أنها ستكسر لي ضلعًا.

فكرت في أن أقول: لقد فعلناها، أو أنتم من فعلتموها، هم من فعلوها. ولكن لم يكن أي من هذا صحيحًا. «انتهى الأمر»، هذا ما قلت، وعرفت بلايت ما أعنيه تحديدًا. فهذا ما جعلني أحبها كل هذا الحب بالطبع.

جوني أبلدرون في مواجهة إدارة الطيران الفيدرالية

لي كونستانتينو

قضى جوني نحبه تحت سماء صيف وايومنج الزرقاء المرصعة بالسحب، والمتدربات إلى جواره، تمامًا كما كان يريد. أخذت النيران تلتهم شاحنة الرحلات القديمة الخاصة به من طراز فولكس فاجن كامبر، ثم ابتلعتها

بالكامل. انفجرت خزانات البروبان بالشاحنة وتصاعدت شجرة من الدخان الأسود تلك الظهيرة، وتجنَّبت السيارات والشاحنات ذاتية القيادة الطريق آي 80 لكي تتحاشى الحرارة الشديدة. يوم آخر، وضربة أخرى بالدرونات. أمسكَتْ شارلوت بيدي.

سألتُها: «هل كان ينبغي أن ينتهي الأمر على هذا النحو؟».

قالت: «لقد تنبَّأ دائمًا بأن الأمر سينتهي هكذا».

- «الخطأ خطئي».

- «جميعنا ملومون يا آرون».

نظرت المتدربات الأخريات إلينا، غير راغبات في تصديق شارلوت، لكن كانت هذه هي الحقيقة. ومع ذلك فقد لعبتُ دورًا ليس بقليل؛ إذ منحت سذاجتي إدارة الطيران الفيدرالية الفرصة التي تتحينها. كان هذا هو التفسير الأرجح على أي حال؛ فلم نكن متأكدين مما حدث في ذلك اليوم. كان الجميع يدعونه جوني أبلدرون، وكان رجلًا متعصِّبًا، وربما مجنونًا، لكنه أسر عقلي في نهاية المطاف، وقد ساعدني على رؤية العالم بعينين جديدتين.

حلَّقت إحدى الدرونات البرتقالية على ارتفاع منخفض، وكانت تحمل في جوفها مادة إطفاء كيميائية.

لم يكن جوني أبلدرون شخصًا بريئًا، فمثل جميع الزعماء الروحيين الناجحين، كان يجيد التسلل إليك من مواطن ضعفك، ولم أكن في أفضل حالاتي حين قابلته. كنت قد حصلت على شهادة عديمة القيمة في وسائل التواصل الاجتماعي من تطبيق على فيسبوك تابع لكلية وايومنج المجتمعية، وظللتُ دون عمل ستة أشهر بعدها. لم يكن أحد يرغب في توظيف خريج حديث متخصِّص في وسائل التواصل الاجتماعي يبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا. كنت أول شخص في عائلتي يحصل على شهادة أعلى من شهادة التعليم الأساسي، لذا كنت فخورًا بقدر ما. وقد ترددتُ في قبول الوظائف التي كنت أرى أنها أدنى من مستواي، رغم أن «جوبر»، التطبيق الخاص باستشارات التوظيف، دأب على إخباري أننا كنا نعيش في ظل اقتصاد جديد.

«الاقتصاد الأحدث على الإطلاق!» هذا في الواقع ما قاله، وكلماته تقطر ابتهاجًا.

صار هذا التطبيق رائجًا للغاية، لدرجة أن والدتي اشترت لي اشتراكًا لمدة عام من بطاقتها الائتمانية الهزيلة. كان جوبر عبارة عن حيوان قندس كارتوني، رمز العمل الجاد في نظر البعض. وكان ينصحني يوميًّا قائلًا: «عليك أن تخلق علامة تجارية لنفسك يا آرون، وأن تبدأ عملك الخاص». ووفق نصيحته قدمت استشاراتي بضع مرات مجانًا، إذ ساعدت فرقًا موسيقية محلية في إستراتيجياتها التسويقية على مواقع التواصل الاجتماعي، لكن لم يكن هؤلاء المبدعون يجيدون ملء «تقارير السمعة» التي من شأنها أن تعرِّف الناس بعملي. فالمرء يعمل ثلاث ساعات لتعديل الخط الذي كُتبت به الدعاية، ثم يقررون فجأة أنهم لا يحبونه أو يلومونك على تكاليف الطباعة.

- «إنها حلقة مفرغة يا جوبر». كنت قد اعتدت التحدث إليه في وقت متأخر من الليل، مستخدمًا إياه كمعالج نفسي. «لو أنني واصلت العمل مجانًا، سيتوقَّع الجميع مني أن أواصل العمل مجانًا. وإذا لم أواصل فعل هذا لن أحقِّق أي نتيجة».

- «أدرك أنك محبط يا آرون، أسمع هذا في صوتك. لكني في قلبي أعلم يقينًا أنك ستجد عميلًا يدفع لك المال. هل تريد الاستماع إلى شهادات إيجابية من مستشاري التواصل الاجتماعي الآخرين الذين تشبه صفحتهم على جوبر صفحتك؟».

- «كلا، أنا بخير».

- «أنا أؤمن بك يا آرون، وأرى فيك إمكانات هائلة. إن مهاراتي التحليلية المتقدمة تنبئني بأنك لست من النوع الانهزامي».

وضعت جوبر في وضعية النوم، بينما تحتشد دموع الإحباط - طيِّب، وربما العرفان - في عيني. فبعد عامين أمضيتهما في تعلم أطر ومنصات عمل باتت بالية بالفعل، شعرت أنني أختنق. كنت أعيش مع والديّ وشقيقاتي في كاسبر، فأنام طوال اليوم، وأسرف في الشراب والتدخين مقارنة بأصدقائي من التعليم الأساسي الذين تجمعني بهم مجموعة من مجموعات اللعب، والذين كانوا «عاطلين عن العمل» مثلي. لكن ذات يوم استيقظت وأدركت أن جوبر محق؛ ففي أعماقي لم أكن شخصًا انهزاميًّا. أقسمت على القبول بأي وظيفة متاحة، مهما كانت متدنية، أو مهما كان راتبها ضئيلًا. على المرء أن يبدأ من مكان ما، أليس كذلك؟ هذا ما أخبرني به جوبر على أي حال.

كنت أعمل في وردية تمتد ثماني ساعات، ستة أيام في الأسبوع، ومهمتي هي الحرص على أن تعمل محطة «بيج ماِشين» على نحو سليم. كانِ العمل

يبعد ساعتين عن البيت، وكان الراتب هزيلًا، لكنها كانت وظيفة على أي حال. كان المجمع الصاخب يقع على الطريق آي 80، وهو عبارة عن استراحة توقف ومقر لدرونات النقل التابعة لأمازون. يمكنك أحيانًا أن تلمح الميكانيكيين والحوَّامات الرباعية والمناطيد الصغيرة والطائرات ذات الجناح الثابت وهي تقلع وتهبط دون توقف. وإلى جانب بيج ماشين، كانت الرافعات تواصل أعمال الشحن والتفريغ، وكان سائقو الشاحنات ذوو الأجساد الضخمة يشربون الخمر ويفتشون ماكينات البيع بحثًا عن طعام أو شراب يتسلون به. كان كل شيء في بيج ماشين أوتوماتيكيًّا، حسنًا، تقريبًا كل شيء، ففي بعض الأحيان كان خرطوم ما يتشابك أو يموت جرذ في دورة المياه أو ينهار أحد سائقي الشاحنات بفعل الإسراف في الخمر على طاولة بلياردو مُحدثًا دويًا عاليًا، أو تهوي درون شاردة من السماء بسبب سقوط براز الطيور عليها. كنت أتولى ذلك العمل القليل الذي لم يكن بمقدور الروبوتات القيام به، كنت شبحًا ذا راتب هزيل داخل الماكينة.

كنت في نظر رؤسائي في العمل مجرد مخطط بياني موضوع على ألواح الإدارة الخاصة بهم، ولم يحدث أن قابلني أحدهم أو تحدَّث معي. كنت أمضي معظم وقتي دون عمل، ما دامت الخراطيم لا تتشابك والنادلات الروبوتية النحيلة المصنوعة من الزجاج العضوي تحضِّر الطلبات بصورة سليمة، وماكينات البيع تُخرج الأطعمة للزبائن الجائعين، وسائقي الشاحنات الثملين لا يسرفون في العنف. الشاحنات المدارة بثنائي ميثيل الإثير، والكحوليات، والناس. لم يكن من المرجح أن أحقِّق النجاح في عملي كاستشاري، لذا اقتطعت جزءًا كبيرًا من دخلي الجديد، وعملت أوقاتًا إضافية، كي أعيد التدريب. أخذت دورات تدريبية في «مايكروسوفت أمبرساند» ثم أعدت دراسة الدورة (ج)، في المنزل وخلال ساعات العمل. وحين كنت أصاب بالإحباط الشديد كنت أشاهد المسلسلات أحيانًا، رغم أنني لم أكن من محبي الإعلام الترفيهي.

في الغالب، كنت شاهد عيان على أفول عصر سائقي الشاحنات. لقد أخبروني أن أيامهم كانت معدودة الآن، وأن شاحناتهم كانت أوتوماتيكية في معظمها. في البداية، وبسبب أن الشاحنات الروبوتية زادت من حجم أعمال الشحن، أتيح لسائقي الشاحنات كم أكبر من العمل؛ إذ كان وجود المزيد من الشاحنات يقتضي وجود المزيد من السائقين بحكم القانون، بحيث يتم تزويد الشاحنات بهم تحسبًا لأي خلل يطرأ. لكن الشاحنات الروبوتية صارت أكثر اعتمادية، وحشدت جماعات الضغط قواها في واشنطن، ولم يكن بإمكان القانون أن يصمد. وفي النهاية سيتوجَّب التضحية بالسائقين على مذبح أتمتة الاقتصاد.

تعاطفتُ معهم، وإن لم يكن تعاطفي نقيًّا بالكامل. فإذا كان سائقو الشاحنات يحبونني - لا يحبون فقط محطة بيج ماشين ولكن يحبونني كترس في هذه الآلة - كانت نقاط أدائي ترتفع، وتعكس تقييماتي هذه النقاط، ومن ثم أجني مزيدًا من المال. لذا رغم أنني كنت أرى نفسي فيهم، هؤلاء السائقين التعساء، ورغم أنهم وجدوني ودودًا بما يكفي كي يبوحوا لي بمشكلاتهم، ورغم أنهم كانوا يحبونني بما يكفي كي يسجلوا إعجابهم في تقييم الأداء، فإنني كنت في حقيقة الأمر أبيع نفسي من أجل الحصول على الإكراميات، وكنت أجيد عمل ذلك.

كنت محاطًا بأشخاص ودودين طوال الليل، كل ليلة، لكن كانت بيج ماشين مكانًا موحشًا. توقفتُ عن الحديث إلى جوبر، وتجاهلت رسائله متزايدة الإلحاح إلى أن انتهى اشتراك العام في هذا التطبيق. كان شعورًا سيئًا، أشبه بالتخلي عن صديق حقيقي، وكأن جوبر كان يفتقدني، لكن لم يكن باستطاعتي مواجهته؛ إذ كان يذكرني بالشخص الذي كنت أريد فيما مضى أن أكون عليه.

استدارت رؤوس الجميع داخل الحانة، ومن فرط حيرة سائقي الشاحنات لم يتسن لهم الصفير إعجابًا. كنت في أحد الأركان، عاكفًا على الاعتناء بأحد روبوتات التنظيف، واحتبستُ أنفاسي من فرط الدهشة؛ فحين تقضي نحو ستة أشهر في التحدث إلى رجال نزقين في منتصف العمر ودون أن تتحدث مع امرأة في سنك لنحو العام، فهذا سيكون رد فعلك على الأرجح. دخلت شارلوت وونج محطة بيج ماشين وهي مرتدية زي المتدربات: بنطالًا أزرق ذا طيَّة وقميصًا أبيض متغضنًا وحذاء ذا إبزيم ذهبي، وتحمل حقيبة كتب جلدية تحت ذراعها. كان شعرها القصير الأسود لامعًا. كنت أعرف من ستكون؛ إذ كان الجميع على الطريق آي 80 يتحدثون عن جوني أبلدرون.

كان جوني من مهووسي الدرونات. كان يقود شاحنة رحلات من طراز فولكس فاجن كامبر على الطريق الرابط بين الولايات جيئة وذهابًا. كان قد استعاض عن الشاسيه القديم بآخر من البلاستيك المقوى، وكان بالشاحنة أجهزة تحكم واستشعار خاصة تُبلي بلاءً حسنًا في قيادة المركبة، وإن كان من حين لآخر يتوقف النظام عن العمل ويتسبب في جنوح الشاحنة الصغيرة عن جادة الطريق. كان جوني منشغلًا لدرجة تمنعه من القيادة بنفسه؛ إذ كان يعمل دائمًا في ورشته المتحركة، حيث يكتب شفرة خاصة للبرامج الحاسوبية الخاصة بالتصميم، ويصنع مواد خام محلية، ويبني وينقِّح طرازات جديدة من الدرونات، ويشارك في المنتديات - إذ يُقال إنه يكتب آلاف الكلمات كل ليلة - ناسجًا فلسفة الدرونات مع المجتمع العالمي لمهووسي الدرونات. وإذا كنت محظوظًا، سترى واحدة من دروناته الصغيرة وهي ترتفع من فتحة سقف

الشاحنة. كانت الدرونات تبدو مثل طيور الطنان، أو الفراشات، أو الصراصير الكبيرة، وأحيانًا كانت تطير مثل كرات الجولف، لكنها كانت في الأساس خوادم/موجِّهات بيانات محمولة، مصممة كي تشكل شبكة متداخلة مع الأجهزة المتوافقة معها.

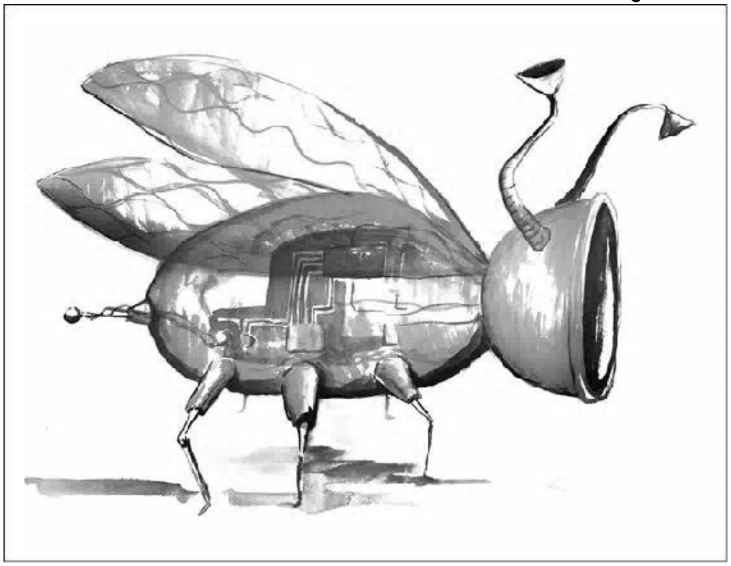

© Haylee Bolinger / ASU ,2013

كان مهندسًا وفنانًا، وكان أسطورة بالفعل - إذ يراه البعض بطلًا - لكنه كان في نظر إدارة الطيران الفيدرالية تهديدًا للمجال الجوي القومي، الذي صار في السنوات الأخيرة مسرحًا لحرب قذرة بين الإدارة وبين أولئك الذين رفضوا الانصياع لأوامرها. لم تصدر بعد مذكرة للقبض عليه، إذ كان يستعين بمحامين لحمايته، كما كان الاتحاد الأميركي للحريات المدنية يدعمه، لكن كان الكل يعلم أنه لن يظل حرًّا فترة طويلة، وحسب وصف أحد سائقي الشاحنات فإن جوني كان قضية خاسرة، لا جدوى منها! ماذا عن فتياته؟ متدربات جوني الفاتنات؟ كن يرتدين مثل سيدات شركات وول ستريت، وكان الاتحاد الأميركي للحريات المدنية هو من يرسلهن إليه، وكن ملتزمات نحو هذه القضية أو تلك، لكنهن يثرن الدهشة على أي حال. كان الرجل يميل إلى الفتيات الشابات ذوات التوجه اليساري.

«ماكينة البيع» هكذا قالت شارلوت في عصبية، وهو ما جعلني عصبيًّا.

- «ما المشكلة بها؟».

- «من الأفضل أن ترى بنفسك».

قلت: «اسمي آرون المناسبة».

- «ماذا؟».

- «اسمي ...».

قالت: «شارلوت. إنها فوضى. أعني أنها أخبرتني أنك تستطيع المساعدة».

صرت صديقًا لشارلوت العزيزة الجادة. كانت قد درست في مدرسة مستقلة في نيويورك، ثم في جامعة ييل، ثم انضمت إلى اتحاد الحريات المدنية، وهناك وجدت طريقها إلى جوني، فأرجأت الالتحاق بكلية الحقوق بجامعة كولومبيا كي تدعم قضيته. ومن خلالها تعرَّفت إلى الأخريات، وكانت قصصهن جميعًا متشابهة: بياتريس النشطة (التي تتبع تعاليم جون ويسلي الروحية) وساندي البشوشة (من كلية فاسار) وزارا الدمثة (من كلية براون) ثم بعد أن فقدت زارا إيمانها بالقضية تعرَّفت إلى بترا المتجهِّمة (من كلية أوبرلين). وكلما مر موكب جوني ببيج ماشين، وكان يتكون في المعتاد من الشاحنة وسيارة معاونة أو سيارتين لا أكثر، كانت شارلوت تحرص على التوقف وتجاذب أطراف الحديث معي وشراء القهوة للمجموعة. لم يغادر جوني نفسه الشاحنة الأرجوانية قط. ذات مرة رأيت يديه البنيتين وهو يخرجهما من جانب الشاحنة كي يمسك بالقهوة وبكيس من رقائق بريتزيل يام ذات السعرات العالية. للحظة رأيت لحيته المهيبة، التي بدت وكأنها تطفو مبتعدة عن وجهه، وفي تلك اللحظة تخيلته وكأنه خليط من راهب هندوسي وبابا نويل.

كانت شارلوت في معظم الأحيان (حسنًا، في جميع الأحيان) تتحدث عن مهمة جوني. كنت قد سمعت عن شبكة الدرونات من سائقي الشاحنات، لكنها عرفتني بكيفية عملها. إن الحاسبات العادية، والشبكات العادية - بمعنى المجال الإعلامي - خاضع للمراقبة من البداية إلى النهاية؛ فإذا حدث أن قمت بتشغيل برنامج غير قانوني للتشفير أو شاهدت فيلمًا دون أن تدفع مقابله مثلًا، سيعرف هاتفك بهذا، وستعرف الشبكة التي أنت جزء منها بهذا، وستعرف المنصة التي تستخدمها بهذا، وستعرف الخوادم التي تعمل عليها هذه المنصات بهذا، وسريعًا ما تعرف إدارة حماية حقوق الملكية الفكرية الأميركية ووكالة الأمن القومي ومكتب التحقيقات الفيدرالي جميعها بهذا. ومن ثم فأنت تحجم عن فعل هذا الأمر، فلا تشغل البرنامج أو تسرق الفيلم، مهما كان الأمر مُغريًا. إن النظام ليس مُحكم مائة بالمائة، لكنه يعمل على نحو جيد بما يكفي بحيث يردع الأنشطة غير القانونية. إن بمقدور رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي إغلاق الشبكات لو حدثت مشكلات حقيقية، كما فعلوا خلال

الإضراب المناهض لماريوت منذ عامين في شيكاجو، حيث كان منظمو الإضراب يستخدمون شفرة غير قانونية من أجل تنظيم إضرابهم.

على العكس من ذلك، في شبكة الدرونات لا يخضع شيء للرقابة. فلا أحد يمتلك الشبكة في واقع الأمر، أو يمكن أن تقول إن الجميع يملكونها. إنها موجودة وحسب، وأي شخص يمكنه أن يضيف جهازًا إليها ما دام يتبع بروتوكول ستاسكوفسكي لنقل البيانات. ستحتاج جهازًا خاصًّا لاستخدام البروتوكول، نظرًا لأن الدخول غير القانوني على هاتف محمي هو جريمة من الدرجة الخامسة، لكن ليس من العسير أن تجد جهازًا مفتوحًا، هكذا قالت شارلوت وهي تريني هاتفها (الذي بدا شبيهًا بأي هاتف عادي)، ما دام مصنوعًا من مُصنِّع شرعي. ورغم أنه من غير القانوني أن يبيع أي شخص أدوات تصنيع غير محمية، فإنه توجد ثغرات خاصة بالمصنعين الهواة أمكن لمهووسي الدرونات استغلالها.

بصراحة، لم أكن أرى سببًا يدعوك إلى تكريس حياتك لقضية جوني، كما لم أعرف لماذا كان بناء شبكة الدرونات أشبه بمشروع الحياة الديني في نظر البعض، خاصة وأن بمقدورك أن تستخدم المجال الإعلامي العادي دون متاعب، ما تطلق عليه الحكومة «الشبكات الصحية». صحيح أن شبكة الدرونات نمت بالأساس من الجهود الهادفة إلى نشر تغطية الإنترنت في المناطق الريفية، لكن أقمار المجال الإعلامي الصناعية صارت توفر تغطية أفضل الآن. وصحيح أيضًا أن شبكة الدرونات لم تكن غير قانونية بالمعنى الحرفي، ولكن ما الذي يدعوك لاستخدامها ما لم تكن تنوي شرًّا؟ لم أنطق صراحة بهذه الأسئلة.

نما داخلي إعجاب سخيف بشارلوت بعض الوقت، لكن ذلك الإعجاب من طرف واحد سرعان ما خبا، وأدركت أنه من الأفضل لنا أن نظل صديقين. كانت والدتي تبحث لي عن فتاة هندية مناسبة كي أتزوجها، وكان ذلك شرطًا من شروط استمرار بقائي بالمنزل. لن أظل وحيدًا لوقت طويل، ومن الأفضل أن أنسى شارلوت وجوني، والرومانسية المحيطة بحملتهما. لقد حان وقت إعادة علاقتي بجوبر، وأن أخطط لهروبي النهائي من بيج ماشين.

في «يوم الذكرى» [7] لهذا العام، فعل مارتن جالاجر فعلته. كان قد تسلل إلى كمبيوتر شاحنته طراز D9000 وأوصل الشاحنة بما بدا كحاوية عادية سعة ثلاثة وخمسين قدمًا عرفت السلطات لاحقًا أنها صُنعت في مجمع خاص قرب سولت ليك سيتي. ملأ جالاجر الحاوية بالمتفجرات وقادها إلى وسط مدينة شايان واضعًا يديه على مقود الشاحنة، مُتحكمًا بها للمرة الأولى. أوقف

الشاحنة أمام أعلى مباني المدينة، المقر المشيد حديثًا لوزارة النقل، تلك الوزارة التي كانت قد أصدرت القرار رقم 3482 الخاص بالتشغيل التجريبي لأسطول صغير من الشاحنات ذاتية القيادة. وفي التاسعة من صباح ذلك اليوم، وبعد أن بقي في شاحنته لمدة ست دقائق واثنتين وثلاثين ثانية، أظهرته خلالها كاميرات المراقبة وهو جالس في سكون مُحدقًا في الزجاج الأمامي دون تعبير، أقدم جالاجر على تفجير نفسه والشاحنة.

تسببت الشحنة المتفجرة التي تقارب في شدتها واحد كيلو طن في تدمير خمسة مربعات سكنية بالكامل، وخلفت 3032 قتيلًا ونحو عشرة أضعاف ذلك الرقم من الجرحى. كانت معجزة ألا يُقتَل المزيد من الناس. في تلك اللحظة كنت أنا وشارلوت نتناول القهوة. كنت قد أنهيت ورديتي في بيج ماشين وكانت تريني طرازًا جديدًا من الدرونات التي كان جوني يبنيها. كانت شارلوت تتحكم بحركات يدها في طائرة صغيرة مماثلة تمامًا لطائر الزقزاق، بحيث تجعلها تطير حول رأسي، وهي تضحك بسبب ضيقي ورفضي الخجول لتجربة التحكم في الدرون بنفسي. بعد ذلك صدر صوت صفير، وبعدها بثوان تصاعد الرنين من هواتف كل الموجودين في المطعم. وصلت إلى شارلوت رسالة من جوني فغادرت على الفور دون أن تنهي قهوتها، وتركت لي الدرون التي تشبه طائر الزقزاق كي أتخلص منها.

تصر أمي دائمًا على أنني شخص محبوب، ولك أن تقول إن كل متاعبي تنبع من هذه الحقيقة. فمارتن جالاجر لم يكن يحب الكثير في حياته البائسة، لكنه كان يحب بيج ماشين، ويحب التحدث إليَّ. لم أربط بين هذه الأمور في البداية، إذ لم يخطر هذا ببالي، لكن مكتب التحقيقات الفيدرالي فعل هذا.

- «لنر إن كنت أفهم كلامك على نحو صحيح يا آرون، أنت تقول إنك لا تتذكر التحدث إلى مارتن جالاجر، أليس كذلك؟».

- «بلى. أعني لا أعرف».

قال الرجل الثاني: «منذ عشر دقائق بدوت واثقًا من أنك لا تتذكره على الإطلاق».

- «بعد ذلك أريتماني تسجيل فيديو لنا نحن الاثنين ونحن نتحادث، وفي الواقع ... أنا أقول فقط إنه من الواضح أنني كنت أعرفه وتحدثت معه. لا أنكر هذا، لكن كثيرًا من سائقي الشاحنات يأتون إلى بيج ماشين. ووظيفتي هي أن أتحدث إليهم».

قال العميل الأول: «إن راتبك يعتمد على إعجابهم بك. أليس هذا صحيحًا؟».

- «لم أقل عكس ذلك».

- «إذن أخبرني، هل فعلت شيئًا خاصًّا كي يُعجَب بك مارتن جالاجر؟».

- «لقد رأيتما الفيديو، لقد أصلحت ماكينة البيع من أجله».

قال الرجل الثاني: «نعني شيئًا آخر. لأنك لو لم تستطِع التذكر الآن، وحدث أننا دخلنا إلى ذاكرتك ثم وجدنا فيديو آخر ...».

كان عميلان خاصان يجلسان إلى طاولة المطبخ، إلى جوار أمي، وكانت مذعورة بدرجة لم أرَها من قبل. حين تكون داخل البلاد بتأشيرة عمل لا يغيب عن بالك أبدًا ما يستطيع هؤلاء الأوغاد فعله بك، حتى لو كان أبناؤك من مواليد البلد. جلست سايبورج التعديل الرابع [(8)] في سكون على أريكة غرفة المعيشة، بعينيها الواسعتين الغائمتين، بينما تخرج أسلاك دقيقة من مقابس في رأسها، وبين الحين والآخر تلتفت إلى اليسار أو اليمين في حركات مفاجئة. وبفضل تمتعها بحواس مُحسَّنة - رؤية مُعزَّزة وسمع خارق - كانت تتوافق مع التوقعات المعقولة للخصوصية، وما كانت حواسها تسجله كان يعتبر بمنزلة أدلة شرعية. أخبرتني شارلوت لاحقًا أن القانون كان مبهمًا في هذه النقطة، وأن اتحاد الحريات المدنية عكف على محاربة سايبورجات التعديل الرابع لسنوات، وأن المحاكم لم تحسم الأمر بعد، ولا يلوح أي حل قريب في الأفق. لكن حقيقة وجود السايبورج هنا من الأساس كانت علامة على أنني أمثل أهمية ما، وأن هذا جزء من عملية جمع واسعة للبيانات، وأنه لا يوجد سبب ملموس يجعلهم يستصدرون أمر تفتيش فعليًا. هذه أخبار طيبة، حسب ظني. بيد أن المطاردة كانت قاسية؛ فقد حقَّق معي مكتب التحقيقات الفيدرالي ووزارة النقل ووكالات إنفاذ القانون المحلية ست مرات، وكان التحقيق يمتد ليوم كامل. وحين كان العملاء البشر يسأمون أو يُرهَقون، كانوا يدعونني أتحدث إلى برنامج تحقيقات حاسوبي يستطيع الاطلاع مباشرة على

استجاباتي الحيوية. وقتها كنت أعمل طيلة الليل، واستنفدت إجازاتي المرضية بسرعة وأخذت يومًا إجازة من دون راتب وأنفقت المال القليل الذي أملكه على برامج الدفاع القانوني، واستخدمت ملصقات ريد بول إكستريم الجلدية التي تمدني بالطاقة كي أكمل نوبات عملي المرهقة. صرت مرهقًا وسريع الغضب وبدأت الشجار مع والداي وشقيقاتي. انهارت مؤشرات العمل خاصتي وتراكمت نفقاتي القانونية ونضب دخلي. كنت أعلم أنني سأصل إلى الحضيض قريبًا، وبسرعة، وأن الأمر سيؤلم أيما إيلام.

غيرت مذبحة شايان بيج ماشين إلى غير رجعة. كان جالاجر قد أصدر بيانًا مصورًا، فيديو مدته سبع ساعات من المناجاة الذاتية والهجوم المحموم ضد وزارة النقل، وضد نظام الشاحنات ذاتية القيادة، وكان حديثه مشبعًا بنظرية المؤامرة. حين سُئلت عن هذا الفيديو أكدت أنني لم أشاهده، ولم أكن مهتمًا بمشاهدته، ولن أشاهده. كان رد فعل سائقي الشاحنات متباينًا. كان الكل يكرهون جالاجر، لا شك في هذا، لكنه مع ذلك أقدم على القيام بفعل ما، في الوقت الذي اكتفوا هم فيه بالجلوس في سكون والجأر بالشكوى، منتظرين النهاية وأن يحل اليوم الذي سيُفصلون فيه. كانت الحوارات العارضة المتعاطفة - المغلّفة بعبارات إخلاء المسؤولية مثل: «لا أؤيد ما فعله، لكن ...» - تصيبني بالغثيان. لقد مات كثيرون على يد هذا الوحش، فكيف يمكن لأحد أن يقول عنه كلمة طيبة، أو يقدم تبريرًا لما فعله، أو يضع كلمة «لكن» في أي عبارة عنه؟ كان سائقو الشاحنات يعرفون آرائي، ورغم أنهم كانوا يزعمون أنهم يشاطرونني الشعور ذاته، فإنهم صاروا لا يحبونني مثلما اعتادوا، وهو ما أثر سلبًا على راتبي بشكل أكبر. كان فيديو جالاجر هو الشيء الوحيد الذي يتحدث عنه الجميع في بيج ماشين إلى أن قررت وزارة العدل محوه من الوجود. لقد كان الفيديو دليلًا في تحقيق جارٍ، هكذا أوردت الصحف، وربما يحتوي على شفرات موجهة لإرهابيين آخرين. صار سائقو الشاحنات، المعروفون بصخبهم عادة، صامتين حيال هذا الأمر تمامًا، كما لو أنهم تلقوا أمرًا جماعيًّا مفاده: «لا تتحدثوا ألبتة عن مارتن جالاجر». فلم يعد مسموحًا بمثل هذه المحادثات العارضة.

ثم ذات يوم أصدرت وزارة النقل قرارًا جديدًا اختفى بموجبه سائقو الشاحنات، بين ليلة وضحاها بمعنى الكلمة، كما لو أنه لم يكن لهم وجود في المقام الأول، ومن ثم صار أسطول النقل بالشاحنات في الولايات المتحدة الأميركية كله مؤتمتًا بالأمر. لقد تسبب جالاجر في الإسراع بحدوث الأمر الذي كان يريد منعه. باتت المنطقة الخاصة بي في بيج ماشين خالية من البشر تقريبًا، ولم يعد لديَّ أي عمل أفعله إلا فيما ندر. لا تزال الشاحنات تتوافد على مدار الساعة كي تتزود بالوقود، لكن ماكينات البيع ظلت ممتلئة، وكانت الحانة

خاوية، ووقفت النادلات الروبوتية المصنوعة من الزجاج العضوي ساكنة وكأنها تماثيل في متحف، وفي بعض الأحيان ظلت لوحة البيانات الخاصة بي على اللون الأخضر مشيرة لعدم وجود شيء يحتاج عمله. لم تعد هذه الأضواء الخضراء تشير إلى اجتهادي في العمل، وإنما صارت نذيرًا بانتهاء أيامي هنا. كانت المسألة مسألة وقت قبل أن يسرحوني من العمل.

في الوقت ذاته كان مرفأ الدرونات على الجانب الآخر من المجمع ينبض بالحياة. لقد استخدم جالاجر شبكة الدرونات في التخطيط لهجومه، ورفع بيان الفيديو هناك، ولم يكن بمقدور السلطات محوه من دون تدمير البنية التحتية المادية للشبكة المتداخلة نفسها. أخضعت إدارة الطيران الفيدرالية، وقد تشجعت بفضل دعم الكونجرس لها، الطبقة السابعة من المجال الجوي لقانون الأحكام العرفية، وراقبت الارتفاعات الأعلى بكل شدة. كانت السماء الخالية من النجوم تضج بالانفجارات، ليلة بعد أخرى. كأن الحرب قائمة.

قالت شارلوت: «جوني يحتاج مساعدتك».

كنت جالسًا في المقعد الخلفي للسيارة بين زارا وساندي، بينما كانت شارلوت وبياتريس تجلسان على المقعدين الأماميين. كنا على مقربة من لارامي، متجهتين إلى مطعم صغير لتناول الفطور. كنت أتضوَّر جوعًا بعد ليلة قضيتها وحيدًا في العمل، وقد صُدمت حين وجدتُ شارلوت، التي طلبت لقائي، وقد أتت بصحبة فريق المتدربات بالكامل. كانت قد مرت أربعة أشهر على التفجير، ولم أرَ أيًّا منهن طوال تلك الفترة، لكني كنت أبعث رسائل نصية إلى شارلوت أحكي فيها عن الوضع في بيج ماشين، وأخبرتها أن وظيفتي لم يكن من المرجح أن تدوم لفترة طويلة، لذا من المؤكد أنهم علموا أنني كنت قانطًا.

أضافت شارلوت: «لقد دأب أخيرًا على اتخاذ خيارات ...».

قالت ساندي: «أقل من الحكيمة. يمكنك أن تقول غير حكيمة».

قالت زارا: «نحن قلقات. الأمور تسير بشكل سيئ للغاية».

في أعقاب مذبحة شايان كان أغلب مهووسي الدرونات مختبئين، لكن ليس جوني، فلم يكن هذا دأبه قط، هكذا قالت شارلوت. لقد تسببت الجهود المبذولة في حظر فيديو جالاجر في تأكيد الحاجة إلى شبكة الدرونات. إن ذلك الأحمق العنيد لم يستخدم المجال الإعلامي المعتاد قط، ولم يكن لديه فكرة عن المدى الذي ستُغطى به المذبحة، وكيف أن الغضب الشعبي يجري توجيهه

نحو مهووسي الدرونات. كان الغضب ضد مهووسي الدرونات يتصاعد، لكن جوني لم يهتم. فلم يكن يهم إلى أي مدى كانت فكرة جالاجر مجنونة، ولم يكن يهم أنه استخدم شبكة الدرونات في التخطيط لهجومه. فأنت لا تمنع الأفكار السيئة عن طريق إخفائها عن الأنظار، ولا يمكنك منع الجريمة عن طريق إبقاء الناس تحت المراقبة المستمرة. فلماذا نلوم مهووسي الدرونات الأبرياء على أفعال رجل مجنون؟ لماذا لا نلوم إدارة الطرق الفيدرالية اللعينة؟ هكذا كان يصرخ جوني، وكانت المتدربات يتفهمن وجهة نظره، وكن معجبات كشأنهن دومًا بمبادئه، لكنهن كن على شفا التمرد، خاصة زارا، التي قاطعته بغضب قائلة إنه يجدر به أن يتوارى عن الأنظار لبعض الوقت، وأن ينتظر لهذا الجنون والحزن أن يهدآ مع مرور الوقت. كانت زارا - وهي الوحيدة من متدربات جوني التي لها جذور محلية، والوحيدة التي كانت تعيش في منزلها وليس في فندق صغير مع بقية المتدربات - على شفا التمرد، فقد كانت الولاية كلها غاضبة، وكل شخص كان يعرف شخصًا قُتل أو أصيب في التفجير، وقد أصيب شخص كانت تعرفه زارا من أيام التعليم الأساسي.

قالت شارلوت: «لديك شهادة في مواقع التواصل الاجتماعي يا آرون، وجوني يقوم بعمل مهم لكنه لا يجيد توصيل مهمته للناس على نحو فاعل. إنه يفترض إما أنك تفهم ما يفعل أو أنه ما من سبيل إلى إنقاذك. لكننا تحدثنا معه، ونظن أن ...».

قالت ساندي: «اسمع، جوني يحتاج شخصًا يتولى شؤون العلاقات العامة من أجله».

قلت: «وما من شخص محترم سيقبل الاقتراب من هذا الرجل. بمقدوركن القيام بهذا العمل، لكن بالتأكيد لديكن أعمال أخرى تقمن بها، كما أنكن لا تعرفن شيئًا عن هذه الولاية ولا أهلها، باستثنائك يا زارا».

قالت ساندي في أسي: «أصبت القول».

قالت بياتريس: «لا تتصرف بسخف. إننا نطلب هذا منك، نطلب مساعدتك».

أضافت ساندي: «وهذا لا يعني أنك شخص غير محترم».

قلت: «سأكون أول متدرب ذكر».

قالت زارا: «ما الذي يعنيه هذا؟».

- «إنني فقط ... أعني أنهم يقولون في بيج ماشين إن ...».

- «جوني ليس ...».

قاطعت شارلوت قائلة: «الناس يقولون أفظع الأمور عن جوني. لكن لو أنك عملت معه، سيتعين عليك أن تراجع افتراضاتك».

قلت: «آسف».

قالت شارلوت: «كلا، بل أنا الآسفة لأنني طرحت الأمر بهذا الشكل».

- «كم سيدفع جوني؟».

ساد صمت طويل، وتبعته ضحكات مكتومة، كان هذا هو الجواب.

- «آه يا آرون. كنت أظن أنك تعرف معنى كلمة «متدرب»، أليس كذلك؟».

واصل عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي مضايقتي، بل إنهم ذات مرة سألوني عن جوني، وكانوا يصطحبون معهم أحد عملاء إدارة الطيران الفيدرالية. هل كانت تربطه أي علاقة بجالاجر؟ هل أتفق معه في مهمته؟ لماذا يبدو عليَّ أنني على علاقة وثيقة بمتدرباته؟ وفق نصيحة برنامجي القانوني أجبتُ بكل أمانة، لكني لم أذكر عرض التدرُّب لديه، وبدا أن إجاباتي أرضتهم. حين وُضعت رهن التحقيق، وأُخطرت بأن كل شبكات معارفي - وبياناتي الوصفية - موضوعة تحت المراقبة، تخلَّى عني معظم أصدقائي المزعومين بسرعة. لم تحذفني المتدربات لدى جوني من قوائم الأصدقاء، لكني توقفت عن التواصل معهن استجابة لضغوط والديَّ، ومن ثم توقفت عن الرد على اتصالات شارلوت. بيد أن هذا الابتعاد لم يفد في شيء؛ إذ فقد والدي وظيفته، ورغم أن السبب الرسمي كان تدني حالة الاقتصاد، فقد كنا نعلم أنني الملوم على هذا الأمر. كانت شقيقاتي ينفقن المال كي يحصلن على شهاداتهن، ومن ثم كانت والدتي وأنا وحدنا من نجني المال في الأسرة، رغم أن راتبي أخذ يقل ويقل مع مرور الوقت. قلت ورديات عملي في بيج ماشين؛ إذ لم يكن هناك الكثير كي أقوم به، هذا ما أخبروني به. وإذا استمر هذا النمط كما هو، ستقل ساعات عملي إلى الصفر في غضون أقل من شهر. كان حسابنا البنكي في حال يرثى له، وربما يتعين علينا قريبًا اللجوء إلى استثمارات التقاعد الهزيلة. جددتُ اشتراكي في تطبيق جوبر، واشتريت لنفسي عامًا آخر من النصائح المكلفة عديمة الجدوى.

- «أنا سعيد بلقائنا مجددًا يا آرون».

- «الأمور لا تسير على خير ما يرام يا جوبر. في الواقع، الحال على أسوأ ما يكون».

- «يمكنك التحدث معي. أخبرني عن متاعبك».

تحدثنا طوال الليل. لست فخورًا بالإقرار بذلك، لكن عودة جوبر مجددًا إلى حياتي مثَّلت لي متنفسًا كبيرًا. أحيانًا كنت أذهب إلى بيج ماشين كي أعاقر الخمر، وأجلس وحيدًا في الحانة شبه الخاوية، أشاهد تجهيزات الروبوتات الكبيرة، بينما نناقش مشكلاتي. أعاد جوبر تجهيز سيرتي الذاتية، وشرع في إرسال مئات من طلبات الالتحاق بالوظائف نيابة عني كل يوم. لم أحصل على مقابلات عمل، ولا رسائل رفض. ففي مقابل كل فرصة عمل متاحة كان مئات الأشخاص يتقدمون، وأغلبهم يملكون من الخبرة أكثر مما أملك أنا.

- «أعرف إلى أي مدى يمكن لهذه العملية أن تكون محبطة يا آرون. لكني أؤمن بك. هل هناك أي شيء غفلنا عنه؟».

- «ماذا تعني؟».

- «أي فرص ربما تصنعها لنفسك، من الصفر؟».

- «حسنًا ... لا شيء».

- «سمعت في صوتك نبرة تردد يا آرون. ما الذي كنت تفكر فيه الآن، ولم تقله؟».

- «أظن أنه عُرضت عليَّ فرصة للتدرُّب».

- «لماذا لم تقل هذا؟».

- «إنه ليس بالأمر الجيد».

- «لا صحة لهذا الكلام يا آرون. فأي فرصة تدرُّب يمكن أن تقودك إلى مكان ما».

- «إنها على الأرجح غير قانونية».

- «غير قانونية؟ أأنت متأكد؟».

أخبرته بأمر جوني.

- «لكن هذه فرصة رائعة يا آرون. إنها فرصة للعمل كاستشاري دعاية على مواقع التواصل الاجتماعي، وهذا هو تحديدًا مجال دراستك. كما أن تحليلاتي القانونية تخبرني بأنه ليس من غير القانوني العمل لدى جوني. يمكنك الاعتماد على كلمة جوبر في هذا الصدد؛ فنحن نضمن لك على الدوام أن تجد وظيفة تتوافق مع القوانين الفيدرالية وقوانين الولاية».

- «لكني لن أتلقى أجرًا. لا شيء على الإطلاق».

- «لا تفكر في الأمر بهذه الصورة يا آرون. فكر فيه من منظور بناء سمعتك. فقط تخيل مقدار الاهتمام الذي سيحظى به عملك لو أنك عملت مع هذا العميل الشهير! إن تحليلنا يبين أن السيد أبلدرون يقع في مركز بعض الشبكات المؤثرة للغاية. وإذا أحسنت العمل، وهو ما أثق فيه تمامًا، سيكون لك مستقبل باهر».

تساءلت عما إذا كنت لا أزال أعمل في بيج ماشين. لم يكن لدي أي عمل هناك طوال الأسبوعين القادمين، وهذا ما جعلني أحسم أمري. وبمجرد أن ارتفعت الشمس بما يكفي في السماء حتى لا أشعر بالإحراج من اضطراري إلى الاعتراف بأنني لم أنم بالليل، اتصلت بشارلوت.

اتخذتُ قراري. اصطحبتني شارلوت بسيارتها من بيج ماشين واتجهنا صوب ولاية يوتا. وبينما كانت السيارة تسير بالقيادة الذاتية نحو وجهتنا التي يميزها حشد ملوَّن من الأجسام المحلقة، تلك الدرونات التي تضيء وتنعكس عليها الأضواء، بدا واضحًا لي أن شارلوت منجذبة نحوي. لم يكن انجذابها جنسيًّا، بل كان أسمى من هذا، صورة من التزامل العميق، الوحدة، الصداقة، أيًّا كان ما تسميه. كنت ثملًا. ابتسمتُ لها فأجابتني بابتسامة، ابتسامة متوترة. كان مؤتمر مهووسي الدرونات الثالث منعقدًا في متنزه روكبورت إكسون بارك، على شواطئ بحيرة مبهرة تشق قوارب التجديف الصفراء والمراكب الشراعية البيضاء مياهها داكنة الزرقة، وتنتصب على شاطئها البعيد مجمعات سكنية فاخرة بنتها روبوتات. توافد مهووسو الدرونات من كل أنحاء العالم وشيدوا مدينة مؤقتة احتلت تلك الأرض المُخصخصة حديثًا. كان أفراد هذا المجتمع يحبون اقتناء السيارات من نوع أو آخر. تعاملت السلطات بضبط للنفس، وكان المخيم المرتجل محاطًا بقوات أمن خاصة، أفرادها مسلحون بأحدث العتاد، وكانت الدرونات المسلحة تختلط بمجموعة الدرونات المدنية. كانت شارلوت

تملك تصريح دخول ووفرت لي تصريحًا بوصفي ضيفًا، وهو ما مكنني من دخول ذلك المخيم الحصين.

كانت السماء تعج بالدرونات في عرض مبهر. حدقتُ في الدرونات التي على شكل حيوانات وحشرات، وفي المناطيد الكبيرة والصغيرة، وفي الدمى المحلقة ذات درجات العري المختلفة، وفي روبوت لسوبرمان بالحجم الطبيعي يطير جيئة وذهابًا، وفي اللافتات التي تروج لمختلف الآراء السياسية وتعكس النطاق الأيديولوجي العريض لمجتمع مهووسي الدرونات. كان الحشد يضم الأناركيين والليبرتاريين [9] من مناهضي حقوق الملكية الفكرية واليساريين المتشددين والليبراليين المعتدلين والليبرتاريين المدنيين وأنصار حمل السلاح وأتباع حزب القراصنة الإسكندنافي وأنصار حركة ما بعد الإنسانوية وحركة التفرد ورواد الأعمال. فرغم أن جوني دائمًا ما يروِّج نفسه بوصفه رسول مهووس الدرونات، فإنه لا يمثل سوى شريحة رفيعة من هذا الطيف النشط، وإن كانت شريحة ذات صوت مسموع. وعلى الفور بدا أقل غرابة في نظري أن متدرباته يرتدين زي محاميات الشركات وليس زي فرق موسيقى الروك. ربما راودني هذا الشعور لأنني كنت ثملًا، لكن يا للعجب، هكذا فكرت، يا له من حشد جميل في السماء، ويا له من جمع روحاني مبهر من الدرونات.

قالت شارلوت: «هيا تعالَ. إنه ينتظر».

كانت الشاحنة واقفة قرب مجسم مطاطي منفوخ ارتفاعه ثلاثون قدمًا لجوليان أسانج، مؤسس منظمة ويكيليكس. كان جوني قد انتزع الحوض والموقد ووضع مكانهما منصة عمل معقدة - بما فيها من خراطيم وأنابيب اختبار ولوحات كهربائية وقوارير صغيرة من السوائل التي يستخدمها في عمله - وعليها تراصت نماذج أولية لعشرات الدرونات نصف المكتملة، والمثبتة وكأنها حشرات عجيبة على لوح من الفلين. وفي موضع المقعد المجاور للسائق كان جهاز تصنيع في حجم الثلاجة يصدر أزيزًا. كانت رائحة المقصورة تشبه اللدائن الحرارية الساخنة المختلطة بالعرق البشري؛ إذ لم يكن مالك الشاحنة يستحم كثيرًا. وفي منتصف هذه الماكينات التي تئز وتطن جلس الملك، جوني أبلدرون المبجل ذاته، بلحيته المهيبة، على مقعده الذي يتكيف مع وضعية جسده ويتحرك استجابة لكل خاطرة أو إيماءة تصدر عنه. كانت الشاحنة امتدادًا لجهازه العصبي. كان جوني سمينًا، بل مفرط السمنة، ويرتدي ملابس عسكرية مموهة ذات ألوان عجيبة، وكان يرتدي قفازين ذوي أصابع مفتوحة فوق دعامة لرسغ اليد، ويمسك في كل يد بأداة متعددة المهام، بدت وكأنها سكين سويسري ملتصقة بذراع قاسية لوحش خرافي. كما كان

يرتدي على وجهه جهازًا معقدًا لامعًا، يمكن أن نشبهه بالنظارة، وكانت عدسات عديدة ذات أطوال ووظائف متباينة، وثلاث عدسات مكبرة، تدور داخل مجال رؤيته في أوقات غير متوقعة. حين دخلنا رفع رأسه ناظرًا إلينا دون أن يتوقف عن العمل على نماذجه الأولية، إذ كان يكتب على لوحات مفاتيح بدائية ويمسح بعينيه شاشات متعددة، عتيقة الطراز هي الأخرى، مثبتة إلى إطار النافذة.

© Haylee Bolinger / ASU ,2013

«هؤلاء الحقراء أحنوا رؤوسهم أمام الحكومة الفيدرالية والشركات الكبرى وطلبوا منها أن تدوسهم بأقدامها!» كان هذا أول ما تحدث به. «هل تفهمني؟».

قلت: «أود هذا».

- «أنت فتى مهذب».

- «أحاول أن أكون كذلك».

أوضح لي جوني أنه في الجلسة الصباحية أصدر المؤتمر بيانًا فاترًا قدم التعازي لضحايا مذبحة شايان، ودافع عن الحاجة المتواصلة لشبكة الدرونات،

لكنه وعد بالعمل مع الحكومة ووكالات إنفاذ القانون على المساعدة في منع إساءة استخدامها.

ابتسم وقال: «لم تحذرك شارلوت. فأنا أسحق من يقف في طريقي سحقًا».

«كلا يا سيدي» قلت هذا ونظرت إلى شارلوت، التي لم تقدم لي أي إرشاد. «لقد ظننت ...».

- «ظننت أن بمقدورك أن تساعدني. لكني سأسألك الآن: ما الذي تظن أن بإمكانك فعله من أجلي؟».

- «لدي شهادة في وسائل التواصل الاجتماعي و...».

- «من أين حصلت عليها؟».

- «من كلية وايومنج المجتمعية. حسنًا إنها ...».

- «أخبرني يا آرون. كيف ستشرح وجهة نظري للجمهور في الوقت الذي تخلَّى فيه عني حلفائي المزعومون في مواجهة أول تحدٍّ؟».

لا أذكر ما قلته ردًّا على ذلك، لكن حديثي أعجب جوني. كان اختباري الأول هو أن أكتب بيانًا صحفيًّا عن الجلسة المسائية. كان جوني مشاركًا في مناقشة جماعية تحت عنوان «الحق في المجال الجوي القومي: مائدة مستديرة»، وإلى جانب جوني كانت هناك محامية من اتحاد الحريات المدنية وصحفي متخصِّص في التكنولوجيا من مجلة «فين» كان قد ألَّف ثلاثة كتب عن القواعد المنظمة للمجال الجوي القومي، وعالمة اجتماع من جامعة تكساس في أوستن وممثل لإدارة الطيران الفيدرالية. كان حدثًا جاذبًا للأنظار، وتوقع الجميع أن يشهد صدامات عنيفة. كانت القاعة - أو بالأحرى الخيمة - ممتلئة عن آخرها، إذ احتشد داخلها مئات ومئات الأشخاص، وأطلقوا صيحات استهجان حين اعتلى الشخص التابع لإدارة الطيران الفيدرالية، وكان يرتدي حُلة رخصية، المنصة. كنت في الصف الأول رفقة المتدربات وبترا، وهي متدربة جديدة أرسلها الاتحاد الأميركي للحريات المدنية.

متى تحديدًا تفجَّر الوضع؟ من الصعب تحديد ذلك، حتى عند مراجعة تسجيل الفيديو، وهو ما فعلته أنا مرات عديدة بحرص بعدها. ألقت عالمة الاجتماع المتأنقة من جامعة تكساس في أوستن، وكانت تتمتع بلكنة أوربية شرقية، كلمة مليئة بالمصطلحات العلمية، امتدت لأكثر من سبع دقائق بعد الوقت

المخصص لها. وفي مرحلة ما من كلمتها قالت إن «اعتبار السماء شيئًا ملموسًا» كان استجابة إلى «الخوف الدنيوي من السماء المعروف بالأورونوفوبيا». وجد البعض أن حديثها مثيرًا للفكر، لكن معظمنا شعر بالحيرة. أنا عن نفسي لم أفهم إلا كلمة من كل خمس كلمات منه. بعد ذلك أعادنا الصحفي، وهو رجل أبيض في منتصف العمر، إلى أرض الواقع بحديثه الضحل المليء بالأمثلة والنوادر، وعرض علينا بعض الشرائح البارعة وخلص وهو يهز كتفيه مستسلمًا إلى أن إدارة الطيران الفيدرالية كانت تعلم ما تفعل، بصورة أو بأخرى. بعد ذلك أوضحت المرأة من اتحاد الحريات المدنية - وكانت حازمة ودقيقة - عددًا من المسائل القانونية المرتبطة بالاستخدام المدني السلمي للدرونات، وعبرت عن أملها أن يجري تناول هذه الأسئلة خلال الجلسة النقاشية اللاحقة. أما الشخص التابع لإدارة الطيران الفيدرالية، وكان شديد العصبية، فقد تنحنح ثم ألقى كلمة شديدة الملل حاول فيها أن يثبت ضرورة تحكم الإدارة في المجال الجوي الأميركي، ذاهبًا إلى أنها مسألة أمن قومي وتتعلق بسلامة العامة. وحين استخدم التعبير «مذبحة شايان» تحول الجمهور على الفور ضده، وانطلقت صيحات الاستهجان. وقف بعض الحضور، وكانوا من مؤيدي إدارة الطيران الفيدرالية وصرخوا: «إنه محق! إنه محق!» ابتسم جوني ابتسامة غامضة واسترخي في مقعده مشبِّكًا أصابعه خلف رأسه وترك «الفاشي الجديد التابع لإدارة الطيران الفيدرالية» (وهو المصطلح الذي استخدمه لوصفه فيما بعد) يتلقى غضب الحضور.

همست زارا: «لا أصدق هذا».

قلت: «ماذا؟».

- «إن جوني يتصرف بحمق بالغ. إنه يحرِّض الجمهور».

قالت ساندي: «جوني لم ينطق ببنت شفة».

- «لكن انظري إليه وابتسامة التشفِّي على وجهه تظهر استمتاعه بما يلاقيه هذا المسكين ... لقد كانت مذبحة بالفعل. الأمر بمنزلة خيانة لكل ما ندافع عنه. بمقدور جوني وقف كل صيحات الاستهجان هذه بكلمة منه. كل شخص هنا يحترمه كثيرًا. أنا ...».

- «إن جوني ليس ملزمًا بأن يفعل ما تريدينه أن يفعله يا زارا».

- «أشعر فقط ...».

قالت ساندي في حدة: «أتعلمين، جون ليس صديقك الحميم».

ساد الصمت المكان. لقد كُسر شيء مقدس.

وقفت زارا وقالت: «أنا لم ... أنا لم ...» بينما عيناها متسعتان من الصدمة بسبب ما قالته ساندي، وغادرت الخيمة وهي تشعر بالمرارة الشديدة.

حدقت بقية المتدربات في ساندي. كُنَّ فخورات بمهنيتهن ولم تصدر عن جوني قط أي بادرة غير لائقة تجاه أي منهن. تشتت انتباهي بفعل كل ما يحدث. على المنصة، وقف جوني في مرحلة ما، وهو يريح ثقله على طاولة قابلة للطي، وكان يتحدث وهو يلوح بسبابته بغضب عارم. كان يُفترض بي الانتباه إلى ما يقوله، إذ كان عليَّ أن أكتب بيانًا صحفيًّا عن هذا الحدث. في النهاية، بدأت أتصور تحديثات الحالة التي تدور عنه وكذلك تعليقات مواقع التواصل الاجتماعي: «... اعلموا ممن ينبغي أن تشعروا بالغضب، فاشيي إدارة الطيران الفيدرالية الجدد، أو مهووسي الدرونات المزعومين ضعيفي الإرادة الذين يسهل تخويفهم والذين يتظاهرون ...»، («اجلس أيها البدين» هكذا صاح فرد من الجمهور) «... بما يشبه المقاومة ضد دولة المؤسسات، أو لو أنكم صدقتم أنه عن طريق طلب إذن السلطة للمقاومة ...» («لديك الحق في أن تخرس تمامًا يا جوني، أيها اللعين البائس!») «... سيكون لكم الحق في أن تطلقوا على أنفسكم مهووسي الدرونات، أيها الحقراء الخانعين المنصاعين ...» لا أذكر تحديدًا مَن ضربني، لكن آخر ما أتذكره قبل أن تنهار الخيمة كلها من حولنا، أن كرسيًّا معدنيًّا قابلًا للطي كان يشق طريقه نحو وجهي.

حين غادرنا المؤتمر بعدها بثلاثة أيام، باستثناء زارا وبترا المتدربة الجديدة، ركبت الشاحنة مع جوني بينما رأسي لا يزال يؤلمني وذراعي ملتهبة، وقد صرت جزءًا من دائرة الموثوق بهم لديه. وبينما كنا نحتسي القهوة الفورية أثناء اجتيازنا الطريق الواصل بين الولايات، ناقشنا إستراتيجيته الخاصة بمواقع التواصل الاجتماعي. أراني جوني مواقع المجال الإعلامي الرديئة الخاصة به، التي لم تكن كثيرة. لم يكن يكترث بعرض جانبه من القضية أمام غير المتخصصين، وكان يرى أن الانغماس في وسائل الإعلام الشعبية كان أمرًا دون مستواه. كانت لديه رؤى معقدة بشأن كيفية تغيير شبكات الاتصالات، وعن الاقتصادات البديلة، ونماذج الحوكمة البشرية البديلة. وقد أراني بعض منتديات مهووسي الدرونات التي كان يواظب على زيارتها. كانت الشائعات صحيحة، فقد كتب مئات الآلاف من الكلمات، الكثير من الحديث الصاخب المصحوب بروابط تشعبية. شعرت بقوة شغفه، وتفهمت جزئيًّا الجاذبية التي تتمتع بها رؤية مهووسي الدرونات الخاصة بوجود شبكة اتصالات لا مركزية

بحق، من دون أقمار صناعية تابعة للمجال الإعلامي، ولا موافقة الدولة، ولا سيادة الشركات الكبرى. كانت هذه الرؤية قوية للغاية، ومُلحة للغاية بحيث اجتذبت المئات إلى المؤتمر، وألهمت الآلاف كي يحاولوا بناء شبكة الدرونات، وحضت الملايين على تجاوز المجال الإعلامي. لقد كانت عالمًا كاملًا في حد ذاتها، هذه الشبكة؛ صورة مصغرة معكوسة من الإعلام التقليدي. تخيلت نفسي وأنا أشرح عمل جوني لأبي وأمي. قد لا تعني مهمته الكثير لهما، إذ كانت مفهومة فقط لأولئك الذين اهتدوا لمثل هذه الأفكار بالفعل. كانت تلك هي مشكلته الرئيسية، وفي رأيي ما لم يغيِّر جوني أسلوبه فسيظل يحظى بقبول جماهيري محدود. لكن حين حاولت أن أشرح له هذه الفكرة في إحدى محطات التوقف لم يرغب في الاستماع إليّ.

- «لم أسمح لك بالانضمام إلينا بسبب شهادتك في مواقع التواصل الاجتماعي يا آرون». كنا نجلس على كرسيين خفيفين موضوعين أمام الشاحنة. كانت آلاف الدرونات، المتنكرة على شكل جرادات، تخرج من فوهة المُصنِّع، عبر فتحة السقف بالشاحنة، في أنماط حلزونية جميلة. كانت صامتة تمامًا وهي تطير مبتعدة، لا يصدر عنها سوى صوت زقزقة خافت، في طريقها نحو النقاط الضعيفة في شبكة الدرونات كي تملأها.

كان اليوم بديعًا، قلت: «عن ماذا إذن كنا نتحدث؟ لماذا إذن تعرضتُ أنا للضرب في المؤتمر؟».

- «كل هذه الأمور المتعلقة بالتواصل الاجتماعي مع الجماهير لا بأس بها، ولا يعني هذا أنها ليست مثيرة للاهتمام. لكن ما أريد أن أعرفه حقًّا هو بيج ماشين».

- «هل تعمل لصالح مكتب التحقيقات الفيدرالية يا سيد أبلدرون؟».

ضرب جوني مسند يد الكرسي وهو يضحك وقال: «هذا صحيح، أنا خائن للقضية، تمامًا مثل أولئك الحقراء الذين كانوا موجودين في المؤتمر».

ما كان جوني يريد معرفته هو قائمة بالأسماء، أسماء سائقي الشاحنات الذين كانوا يحبون التعامل معي، وبعض التلميحات عن ولائهم. وقد أوضح قائلًا إن مجتمع «مهووسي الدرونات التقليديين» كان آخذًا في الاستسلام. «أعطهم عامًا أو عامًا ونصف عام على الأكثر وسيصيرون أقرب إلى لجان العمل السياسي عديمة الجدوى أو جماعة الضغط. وهذا يعني نهاية شبكة الدرونات التي نعرفها. ما أحتاجه يا آرون هو جيش، جيش من الأفراد العاطلين حديثًا عن العمل، أشخاص يحتاجون إلى الشعور بأنهم جزء من مهمة أكبر، أشخاصًا

يشعرون بالغضب والمرارة بحيث لا ينسون القضية التي يدافعون عنها. إذا كنت راغبًا في مساعدة قضية حرية المعلومات، وهي الأمر الوحيد الذي يهم الآن، لن تكون مواهبك في وسائل التواصل الاجتماعي ذات فائدة كبيرة. فنحن لا نحاول إقناع ربات البيوت بأن يحبونا، بل نحن نريد شبكات متحمسة من الأفراد، وشخصًا يحرك هذه الشبكات، وأنت تبدو محبوبًا بما يكفي يا آرون، ولهذا السبب أحضرَتك متدرباتي إليَّ، ولهذا السبب سمحت لك بحضور مؤتمر مهووسي الدرونات. أنت تعرف مجتمع سائقي الشاحنات أفضل مما تظن».

- «لكني لا أعرف إن كنتُ مؤمنًا بقضيتك بعد يا سيد أبلدرون. لقد كان المؤتمر مدهشًا ومرعبًا ومحيِّرًا. ما أقوله هو أنني لا أعرف حتى ما إذا كنت أفهم قضيتك بالكامل أم لا. هذا ما ظننت أنني كنت أحاول فعله، ما طلبت مني شارلوت أن أفعله من أجلك، أن أترجم ما تقوله أنت بحيث يستطيع أناس مثل أمي وأبي أن يتفهماه. وإذا لم أستطع هذا ...».

- «لماذا إذن قبلت بالوظيفة ما دمت غير واثق؟».

- «لا أدري سيد أبلدرون. أنا عاطل عن العمل حاليًّا، وتطبيق الاستشارات الوظيفية الخاص بي، جوبر، رأى أنني قد أستفيد من الخبرة. أيضًا أنا ...».

- «أنت تقول إن تطبيق جوبر هو الذي أوصاك بأن تصير متدربًا لدي».

بينما كنت أجيب، فهمت خطئي. «لقد رأى ...».

- «أنت تتحدث عنه كما لو كان شخصًا من لحم ودم، أيها الفتى الساذج».

هب جوني واقفًا من على الكرسي، على نحو أسرع مما كنت أظنه يستطيع، وبدأ في نكز الشاحنة بعصا ماسحة، وبعد نحو عشر دقائق من البحث توقف أخيرًا قرب الثلاجة الصغيرة. «انظر إلى هذا. فقط انظر إلى هذا». كان جوني يحمل بين أصابعه صرصورًا كبيرًا ميتًا. «يمكنك أن ترى أن هذا ليس من صنع يدي. صناعة رديئة». قلبه جوني على ظهره وثقبه بإحدى أدواته إلى أن بدأت اقدامه تتحرك بلا هدى. انتزع جوني جناحه وفتح مستقبِل أقمار صناعية دقيق الحجم، والذي راح ينفتح أكثر وأكثر. قال جوني: «لقد جلبت معك صديقًا يا آرون».

- «ما هذا؟».

انتزع جوني القشرة الخارجية ونظر إلى الأجزاء الداخلية بعدسته المكبرة. «حشرة صناعية ناقلة للمعلومات. إلكترونات بيولوجية. ليس الهدف منها أن تقتل». واصل النكز وأضاف: «ربما هدفها المراقبة. وربما تهدف إلى التسلل إلى أنظمتي».

- «لماذا أنت واثق أنني أنا من جلبتها معي؟».

- «ربما الأمر محض مصادفة يا آرون، لكنها تحاكي حمضك النووي. إن أجهزة المسح لم تلتقطها لأنني أثق في جينومك. الأمر يحتاج ما هو أكثر من أحد المصنعين الهواة لعمل شيء كهذا».

- «سيد أبلدرون، آسف لو كنت ...».

- «لا تتأسَّف» قالها جوني وهو ينظر إلى السماء في قلق وأضاف: «فلتكن ذا نفع. ساعدني في إنزال أشيائي؛ إذ لا بد أن أتأكد من خلو الشاحنة من أي أجهزة مراقبة. ستأتي شارلوت والأخريات هنا سريعًا، فقد اتصلت بهن. هذه علامة سيئة. في الوقت الحالي علينا تدمير هاتفك. لا تثق في تطبيق البحث عن الوظائف هذا. لا تثق في أي شيء داخل المجال الإعلامي يا آرون، وربما يومًا ما قد تكون أقل غباءً».

بعد مرور ساعتين من البحث صار جوني مقتنعًا بأن شاحنته نظيفة. انتظرت كل من شارلوت وبياتريس وساندي وبترا، المتدربة الجديدة، أن يعطيهن جوني إشارة الأمان.

قلت: «لماذا يعاني من وسواس الشك إلى هذه الدرجة؟».

قالت شارلوت: «أحيانًا تكون لديه أسباب لذلك».

- «وفي الأحيان الأخرى؟».

هزت ساندي رأسها نفيًا، ونجحت في توصيل سخريتها من دون كلمات.

كنا جوْعى، لذا قررنا الذهاب إلى مطعم ديني القريب. وفي منتصف الطريق إلى هناك أوقف جوني الشاحنة.

قال: «ثمة شيء على غير ما يرام بالشاحنة، أعلم هذا. ربما أحتاج مساعدتكم، لذا لا تبتعدوا».

ظل الجميع بلا حراك، لقد بدأ جوني يشك في أقرب الناس إليه.

قلت لشارلوت: «أتعلمين، لم يكن جوني يريد مني أن أضع له إستراتيجية لمواقع التواصل الاجتماعي، بل كان يريد أسماء سائقي الشاحنات كي يضمهم إليه، وأن يستميلهم إليه في وقت قنوطهم».

قالت ساندي: «أخبرتك، كنت أعلم أنه يخدعنا».

- «وبمَ أخبرته يا آرون؟».

بينما كنت أتدبر جوابي شاهدت جوني وهو يخطو في تثاقل نحو الشاحنة. من دون تلك المعدات الخاصة بمهووسي الدرونات كان رجلًا عجوزًا مرهقًا لا أكثر، لكنه ذو عزيمة لا تلين. كان آتيًا من عصر مختلف، ونشأ في أميركا التي شعر بالحزن وهو يراها تموت. لم يكن أينا يعرف ذلك العالم الآخر، وكان الأمر يتطلب بعض الجهد كي نرى الأمور من منظور جوني، وكل لحظة تتطلب تركيزًا شديدًا، وإخلاصًا وخيالًا. لكن حين فكرت في سائقي الشاحنات في بيج ماشين، وتذكرت قصصهم التي تؤلم القلب، وعرفت أنه لا يوجد موقع إخباري من مواقع المجال الإعلامي مهتم برواية قصصهم تلك، وفكرت في مدى القنوط الذي شعر به مارتن جالاجر كي يقدم على فعلته تلك، كل هذا ساعدني في تفهم جوني، على الأقل لبعض الوقت. قلت: «لا أعرف ما قلت له». وبعد ثانية أو ثانيتين حدث ما حدث.

يسألني الناس عما شعرت به، لكني لا أحب الحديث عن الأمر. يقولون إنه بالتأكيد لم تكن مشاهدة ما حدث أمرًا سهلًا، ورغم أنني عادة ما أقابل محاولات الاستفزاز تلك بالصمت، فإنني أقر في داخلي أنه كان أمرًا صعبًا بحق. إنني أكتب هذه العبارات انطلاقًا من إحساسي بالواجب، أكتب عن الحوامة الرباعية السوداء غير المميزة التي هبطت في سكون من السماء الصافية، التي اقتربت من الشاحنة في هدوء، وأننا لم نكن مرتعبين بقدر ما كنا متحيرين لرؤيتها، وأن باب الشاحنة كان مفتوحًا، وهكذا كان بمقدورنا مشاهدة جوني وهو جالس على عرشه، يبحث داخل أدراج منصة العمل، مقتنعًا بأن ثمة مشكلة ما. كانت تلك المشكلة هي الحوامة الرباعية التي تحمل قنبلة صغيرة، التي دخلت الشاحنة من بابها المفتوح. نظر جوني نحو الحوامة مباشرة، وأطرف بعينه مرتين، ثم تحول إلينا بنظره، وبكل هدوء مد يده كي يلتقط عدة أدواته، كما لو أنها يمكن أن تنقذه. انفجرت الحوامة الصغيرة بقوة هائلة طرحتنا على ظهورنا وتطاير الحطام في جميع الاتجاهات. لم أعان سوى إصابات طفيفة.

كنت أنا أيضًا جزءًا من تلك المشكلة.

قلت في حيرة وأنا أكاد أفقد عقلي: «لقد وثقت في جوبر».

- «اهدأ. لا تلُم نفسك يا آرون. كنا نحن من أتى إليك».

- «لقد جئتم إلي لأنكم كنتم تثقون بي. لم يكن يجدر بكم ذلك».

قالت ساندي: «لو لم يكن بمقدورنا أن نثق بك ما كان لعملنا أي قيمة».

- «وكيف هذا؟».

- «لأنه حينها لن نستطيع أن نثق في أي شخص يا آرون».

كان جوني يشك أنه قد يتعرض إلى الاغتيال، وقد استعد لهذا الاحتمال وجهز أرشيفه الكامل، وكل أبحاثه ومذكراته، بحيث تُنشَر أوتوماتيكيًّا عند وفاته. تعرض «أرشيف أبلدرون» كما صار يُعرَف للحجب على الفور في مواقع المجال الإعلامي الرسمية، لكن لم يكن بالإمكان حذفه من شبكة الدرونات. لقد حقق جوني بوفاته شهرة لم يستطِع تحقيقها قط في حياته. كانت الدرون التي قتلته لا تحمل أي علامة مميزة، ولم يكن بالإمكان تتبع مصدرها، ولم يكن من الواضح الجهة التي أقدمت على الاغتيال. كان أغلب مهووسي الدرونات مقتنعين أن إدارة الطيران الفيدرالية هي التي اغتالته، بينما زعمت الحكومة أن الجاني كان أحد المنافسين من داخل مجتمع مهووسي الدرونات، وهو ما شكل دعاية بارعة، سواء كان الزعم صحيحًا أم لا. ألمح آخرون إلى أن جوني هو من رتب مقتله بنفسه - وهي الصورة الأكثر تطرفًا من «الانتشار على شبكات التواصل الاجتماعي» - كي يحوِّل نفسه إلى البطل الذي طالما كان يرنو إلى أن يصبح عليه. نسج آخرون قصصًا أكثر شناعة تتضمن شبكات سرية يتعارض وجودها مع حياة الجمهورية، شبكات قد تستعصي دوافعها - وكذلك تصميمها المتداخل - على الوصف.

بالنسبة لي، كنت أتبنى رأي مهووسي الدرونات؛ إذ كنت أرى أن إدارة الطيران الفيدرالية هي المسؤولة عن قتله. وبغض النظر عن الحقيقة، ولَّد مقتل جوني اهتمامًا كبيرًا بمهمته. أنشأت المتدربات لديه منظمة غير ربحية كي تنشر رؤيته، رغم أنه ربما كان سيعارض ذلك لو كان حيًّا. كما اجتمع مؤتمر مهووسي الدرونات في جلسة افتراضية خاصة وأصدر بيانًا شديد القسوة ضد إدارة الطيران الفيدرالية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، ووزارة العدل، وإدارة السياسيات الصناعية. صارت شبكة الدرونات أكبر وأكبر مع انضمام الأفراد

وجماعات النشطاء إليها وإنشاء مواقع جديدة على هذه الشبكة المتداخلة، وتصميم نظم تشفير أفضل، وتنفيذ برامج نقل بيانات أكثر تقدمًا. وبعد أسبوع من الصمت، والتسامح غير المعتادين، ردت إدارة الطيران الفيدرالية الضربة؛ إذ صعَّدت قمعها لشبكة الدرونات. وبعد ذلك بوقت قصير، وقع الرئيس قانون الشبكة الصحية، الذي يوحي اسمه بالحفاظ على الصحة الروحية للأمة على الإنترنت، كما أغلقت وكالة الأمن القومي ثغرات الهواة التي كانت تمكن شبكة الدرونات من الحياة طوال هذا الوقت. لقد كانت حربًا، خالية من الدماء في أغلبها. كان على كل شخص أن يختار أحد الجانبين.

أثق أنك تعرف أي جانب اخترت أنا. واصلت إدارة الطيران الفيدرالية تفكيك شبكة الدرونات، لكن دون أن تضاهي السرعة التي كانت بها الشبكة تعيد بناء نفسها. كان هذا انتصارًا بشكل ما، وإن كان مؤقتًا، لكن ما لم يوحِّد آخرون جهودهم، وما لم تؤدِ مسيرتنا إلى واشنطن الشهر القادم إلى «تغيير لغة الحوار»، كما يقول بعض مهووسي الدرونات، لن تستطيع شبكة الدرونات الاستمرار طويلًا؛ إذ من الصعب دحر القوة العاتية للدولة. ربما تظن أن قصتي قصة حزينة - بالطبع يظن والداي وشقيقاتي هذا - لكن لا تقع في هذا الخطأ. إننا نبني شيئًا، نبنيه حرفيًّا معًا. فأنا أريد لشقيقاتي أن يعشن في جمهورية حرة، في عالم حر، العالم الذي كان جوني يتذكره ويتصوره. إن لدينا ما يكفي من المشكلات، لكني لست بالشخص المتشائم، لذا لم أيأس بعد. كنت أول من فاز بالزمالة التذكارية لمؤسسة جوني أبلدرون، وساعدني هذا كثيرًا، وإن كنت أعترف أنني فزت بفضل علاقتي بالناس هناك. كانت المنحة صغيرة لكنها ساعدتني في دفع فواتيري أثناء العمل على تنظيم هذه المسيرة الاحتجاجية. إننا نحيي ذكرى مرور عام على وفاة جوني. لقد منحنا جوني الأمل في أن الناس حين يعملون معًا يكون باستطاعتهم إحداث التغيير. لا تزال متدرباته يتعملن، ويتقاتلن من أجل مستقبل أفضل. أراهن من حين لآخر، حين يمررن بوايومنج، كلهن عدا شارلوت، التي عادت إلى نيويورك كي تحصل على درجتها الجامعية في القانون. إننا نخطط للقاء، والاحتجاج، وتبادل المعلومات والذكريات.

بالتفكر في الأمر، بدا خطئي الأكبر واضحًا؛ فقد كنت أظن أنني أحتاج إلى وظيفة، لكن جوني بيَّن لي أنني كنت أحتاج إلى مهمة أؤمن بها. مهمتي هي أن أنقل هذه القصة إلى غيري، وأن أحارب الأكاذيب التي سمعتموها، وبعض هذه الأكاذيب صادرة من جهات رسمية. لقد كان جوني محقًّا: فإياك أن تصدق شيئًا ما لم تسمعه على شبكة الدرونات، وحتى حين يحدث ذلك عليك بتوخي الحذر. لا تكن عبدًا للسلطة، وفكر بنفسك، ونظم عملك. لكن ثمة جهد مساوي يهدف إلى تحويل جوني إلى شهيد أو قديس. لم أكن أؤمن أنه كذلك، بل هو مجرد

شخص كان مهووسًا بحرية المعلومات، شخص ملأ السماوات بالدرونات. لم يكن ذلك هوسًا ضارًّا، ولم تكن حياته بائسة، لكن جوني كان مجرد قمة لجبل جليدي ضخم عالمي. ولو سمعت هذا الحديث أو قرأته ربما، ستعرف أن هذا أمر حقيقي. وكل ما يسعني فعله هو أن أنقل إليك قصته، وأن أريك القمة الفضية لجبل الجليد ذاك من خلال ذكراي الصغيرة الخاصة عنه. وإذا تبينت درسًا ما في هذه القصة، بعض الحقيقة الراسخة، هلم أنت أيضًا وانقلها لغيرك، واجعلها حاضرة على الدوام.

درجات من الحرية

كارل شرودر

تلقى روبرت سكاي المكالمة بينما كان يساعد ابنه في اختيار منزل جديد في غرب فانكوفر. بعد قضاء كل هذه السنوات العديدة في أوتاوا، على الجانب القصي من القارة، ظن أن ذاكرته ربما تخدعه. كان يتذكر الحي الذي عاش فيه على نحو مختلف؛ بوصفه مكانًا تنمو فيه الأشنات والطحالب على الأرصفة، وترتفع الأسيجة الشجرية المشبعة بماء المطر لنحو العشرين قدمًا، وتنمو فيه بزَّاقات الحدائق بطول إبهامه. لكنه بدلًا من ذلك خطا فوق رصيف نظيف من الخرسانة تعلوه سماء صافية وشمس حارة. لم يكن ثمة أسيجة شجرية على المرأى، وكانت رشاشات المياه تحاول جاهدة دحر الأوراق الجافة التي غزت هذه المروج ذات اللون الأخضر الزاهي في المعتاد.

«ما رأيك؟» هكذا قال تيري وهو يفرد ذراعيه بصورة درامية.

نظر روب إلى المنزل الذي رأوه على القائمة وامتعض وجهه وهو يرى زخارف جصية بلون المرجان الوردي. لم تكن هذه بداية مشجعة. رد قائلًا: «ما رأيك أنت؟».

- «نيكسيتي». قالها تيري وهو ينقر على نظارته.

- «اللعنة يا بني، هذا مؤلم».

هز تيري كتفيه وقال: «يمكن أن يكون كذلك».

في هذه النقطة من المعتاد أن يدلي روب ببعض التعليقات الساخرة عن استخدام الواقع المُعزَّز [10] من أجل اتخاذ القرارات نيابة عنك، لكن في الحقيقة كان تطبيق نيكسيتي يعمل على نظارته هو. لذا بدلًا من أن يقول شيئًا، تمهل للحظات وهو يفحص الحي من حولهما. «كم يطللبون؟».

- «مائة ألف وخمسة».

- «يبدو السعر قليلًا، أتساءل لماذا ...» ثم استدار ورأى لماذا كانت المنازل في هذا الشارع ذات سعر منخفض. فعلى بعد مربعين سكنيين أوضحت نظارته الهيكل السلكي الافتراضي للبرج السكني الفاخر الضخم مطبوعًا فوق صورة الأبراج الموجودة على الجانب الآخر من خليج إنجليش باي. لقد أخذ تطبيق نيكسيتي البيانات من الخطط المسجلة لدى مكتب تخطيط المدينة وحولها إلى مشهد افتراضي. كان الجزء التاريخي من المدينة، والمباني التي يجري حاليًّا بناؤها أو تجديدها، إلى جانب ما سيوجد مُستقبلًا هنا، كل ذلك كان مرئيًّا من خلال النظارة. ألحق برنامجٌ إضافي بمشروع المجمع السكني الفاخر خطوطًا تبين الطرق التي كان من المرجح أن يسير بها المارة من المشروع إلى خط القطار المعلق الجديد. كانت معظم الطرق تمر بجوار المنزل.

- «لا جدوى من هذا الحي». هكذا قال وهو يغلق باب السيارة. «لا يجدر بك أن تشتري منزلًا هنا».

- «لكن هذا البرج هو المشروع الوحيد يا والدي». لو كانت هناك أي مشروعات أخرى مسجلة لدى إدارة التخطيط فستكون مرئية في تطبيق نيكسيتي.

- «المشاريع السكنية الفاخرة كالصراصير. متى وجدت أحدها، ثق أنه سيوجد الكثير غيره».

كانت مارجريت، زوجة تيري، قد دخلت المنزل بالفعل، لكنها سمعت الحوار. تردد صدى ضحكتها في الردهة وقالت: «تفقدا التجهيزات أيها الشابين!».

بصرف النظر عما كان المنزل يبدو عليه في السابق، فمن الواضح أن القائمين على التجهيزات عملوا بجد عليه؛ فكانت كل الجدران الداخلية مدهونة بلون أبيض ناصع وأزيلت السجاجيد بحيث صار الخشب الذهبي للأرضية واضحًا، ومن الواضح أنهم أتوا بأثاث من أحد معارض التصميمات الحديثة؛ إذ كان يبدو كأثاث المعارض الذي تجده مصورًا في صور مجلة أركيتكتشرال دايجست. كانتِ مارجريت تتحدث مع الوكيلة العقارية التي كانت

تبدو مثل ربة منزل ضجرة. أخذ روب ورقة المعلومات الخاصة بالمنزل منها ووضعها أمام نظارته حتى يتسنى للنظارة أن تمسحها، بعد ذلك غطت النظارة وجه الوكيلة العقارية بصورة وجه تمثل الشركة.

كان الوجه المُخلَّق الظاهر يلخص التقييمات الممنوحة للشركة من جانب آلاف الزبائن. كانت التقييمات السلبية تجعل الوجه أشد قبحًا، فيما تجعله التقييمات الإيجابية أكثر جاذبية. كان الوجه الذي رآه لطيفًا غير موحٍ بأي شيء. على الأقل ليست هذه شركة سيئة.

تعاملت مارجريت بتهذيب مع الوكيلة العقارية، فأخذت منها ورقة معلومات أخرى وتبادلت معها بيانات الاتصال. وبمجرد أن صارت المرأة بعيدة بحيث لا يمكنها سماعهم، قالت مارجريت: «دعونا نشيع بعض الفوضى في المكان ونرى كيف سيبدو».

سألها تيري: «ما الطبقة التي تستخدمينها؟».

- «طبقة «المُجدِّد اثنان»، هل تمتلكانها؟».

- «دقيقة واحدة». فتح كل من تيري وروب متجر التطبيقات ووجدا الطبقة التي كانت مارجريت تستخدمها. وبينما كانا ينزلانها غيرت هي ألوان الجدران وأسطح الطاولات عن طريق الطبقة الخاصة بها، ثم مررتها إليهما. تضمن المشهد الجديد تجسيدًا للوحات التي يمتلكونها في منزلهم الأصلي، لوحات كِنت مونكام أصلية، بطبيعة الحال. أشاح روب بعينيه، لكن في واقع الأمر كان اللون الباذنجاني والأخضر الضارب إلى الصفرة يتوافقان مع المكان على نحو أفضل مما تصور.

بيد أن سروره بهذه النتائج جعله متشككًا، فقال: «إن الشركات العقارية تدفع المال لصانعي هذه التطبيقات أليس ذلك؟ وهم السيطرة. والألوان ليست مماثلة للألوان التي ستحصل عليها في الحقيقة. إن الطلاء الافتراضي ليس طلاءً حقيقيًّا».

- «رُحماك يا أبي».

بينما كانوا ينظرون إلى غرف النوم، كان بمقدوره أن يرى أن تيري كان مقتنعًا بما يرى. كان روب يرى أن بمقدورهم العثور على شيء أفضل، لكنه كان مستعدًّا للاتفاق مع قرار تيري على أي حال، لكن تيري قال فجأة: «كيف يبدو دوريان لديكِ يا ماجي؟».

زمجر روب قائلًا: «رباه، لقد انضممت لهذه الزمرة أنت أيضًا، أليس كذلك؟».

- «أبي، إنه مجرد برنامج آخر يساعد في اتخاذ القرار».

- «تبًّا، وهل تحتاج إلى المزيد من المساعدة كي تتخذ قراراتك؟».

في تلك اللحظة تلقى روب مكالمة، فوقف نحو دقيقة واضعًا يده على أذنه، دون حراك، فهز تيري ومارجريت كتفيهما وذهبا كي يتفقدا الحمام.

قال روب: «يا إلهي».

أخرج تيري رأسه من الحمام الصغير وقال: «ما الأمر؟».

- «هل ينبغي عليَّ العودة إلى أوتاوا؟ كلا، هنا أفضل، صحيح ... ثلاث ساعات». ثم أطرف بعينيه ونظر نحو ابنه وقال: «مهما حاولنا، لا يمكننا الهرب من جذورنا».

- «ماذا تعني؟».

- «لقد جنحت ناقلة نفط لعينة في ممر إنسايد باسيدج الساحلي. هذه أسوأ لحظة يمكن أن يحدث فيها هذا، لأننا على وشك إنهاء المفاوضات الخاصة ببناء خط أنابيب النفط نورذرن جايتواي». كان خط الأنابيب هذا هو الفرصة الأخيرة لنقل النفط المستخرج من رمال ألبرتا النفطية، لأن تكاليف الوسائل الأخرى ارتفعت بشدة، وثمة مشكلات تعترض إقامة خطوط الأنابيب المارة عبر الولايات المتحدة والشرق إلى أونتاريو. «كانت الأمم الأولى [11] هي العائق الأساسي، وكانت على وشك التوقيع، لكن هذه الناقلة اللعينة منحتهم سببًا بيئيًّا ضخمًا يمكِّنهم من الضغط علينا. إنهم يصرون على عقد مفاوضات أخرى نهائية مُلزمة حول الاتفاقيات الأصلية. الأرض مقابل النفط، الأمر بهذه البساطة. وخمِّن مَن يقود الهجوم؟».

- «آه، لا تقل لي ...».

قال روبرت سكاي: «أنت تفخر دائمًا بأن تطلق عليهم «شعبنا». حسنًا، إن شعبنا يريد تسوية تتضمن الحصول على الأرض، وسوف يستخدمون حادثة التسرب النفطي للحصول عليها».

- «هل يعوق شعب الهايدا إنشاء خط الأنابيب؟» كان بمقدور روب أن يرى لمحة من الإثارة في عيني تيري.

تنهد روب وقال: «ليس خط الأنابيب، ولكن مرفأ الناقلات، وهو ليس بالفارق الكبير.

ويبدو أنني سأكون على الطرف الآخر من طاولة المفاوضات معهم».

«الوزن الصافي أربعون ألف طنًا» هكذا قال كريشنامورتي، مدير دائرة الأمن والاستخبارات الكندية وأضاف: «لسنا متأكدين من مقدار النفط الذي كانت تحمله الناقلة، لكنه يكفي للتسبب في كارثة. ونحن واثقون أن الهايدا هم المسؤولون عن الأمر».

كان روب قد ذهب إلى غرفة اجتماعات في وسط مدينة فانكوفر، وخفض الأنوار حتى تستطيع نظارته عرض الصورة أمامه، بحيث أظهرت تمثيلًا لغرفة الاجتماعات في أوتاوا التي يجتمع فيها مجلس الوزراء. كان كريشنامورتي يحضر الاجتماع عن بُعد هو الآخر، شأنه شأن روب.

مال رئيس الوزراء إلى الوراء في مقعده وهو يعقد ذراعيه أمامه، وكان واضحًا أنه غاضب. قال: «لن يتسبب الهايدا مطلقًا في مثل هذه الكارثة البيئية! إنهم حريصون للغاية على حماية الأرض، أليس كذلك؟».

تحوَّلت كل الأعين إلى روب، الذي تنهد وقال: «كيف لي أن أعرف؟» ثم بادلهم النظر إلى أن أشاحوا بوجوههم. بعد انقضاء كل هذا الوقت حريٌّ بهم أن يعلموا أنه لم يعش قط في جزر هايدا جواي.

أيضًا من المفترض أنهم يعلمون أن وراء ما فعله الهايدا في الوقت الحالي تكمن مائتا عام من الإحباط من الحكومة الكندية بسبب عدم ثقتها بهم ونكثها الوعود.

تنحنح كريشنامورتي وقال: «ليس خط الساحل الخاص بهم هو المعرض للخطر. إن هذه المنطقة تتداخل فيها سيادات شعوب الأمم الأولى الأخرى، مثل الأويكينو والإنشوك. ربما خاطر الهايدا بتدمير هذه المنطقة من أجل تحقيق خير أعظم».

قال وزير الخارجية: «بل الأرجح أنهم جميعًا مشتركون في الأمر. والجماعات المتأثِّرة يمكنها أن تقاضينا للحصول على تعويضات».

هز روب رأسه نفيًا وقال: «لكن لماذا تظنون أن الهايدا وراء الأمر؟ هل كانت هناك قنبلة على السفينة؟».

قال مدير دائرة الأمن والاستخبارات: «الأدلة غير مباشرة. الأمر متعلق بالتوقيت».

قال رئيس الوزراء محدثًا كريشنامورتي: «هل يمكنك تمرير الطبقة إليه؟».

- «لا بأس». ظهر علم صغير في ركن الرؤية لدى روب لافتًا نظره إلى أن لديه بريدًا إلكترونيًا جديدًا به ملف مرفق. طرف روب بعينه عند رمز الملف المرفق فتم تحميل الملف على الواجهة. قال: «ما هذا؟».

- «هل لديك نافذة كي تنظر منها إلى الخارج؟ الأمر يعمل بشكل أفضل هكذا».

نهض روب في حذر وفتح الستائر الثقيلة. بالخارج كانت تمتد الأبراج الزجاجية الخضراء لوسط مدينة فانكوفر، وكان بإمكانه رؤية مسارات التزلج على جبل جروس، شبكة متعامدة خضراء تحت شمس الصيف.

على مشهد المدينة أمام ناظريه كان يبرز عدد كبير من الأعلام الافتراضية. نقر على أحدها وبسطه حتى يستطيع رؤية التعليق المصاحب له. كان يحمل اسم رجل، مألوف لديه بشكل ما، ومنه كانت تمتد شبكة من الخطوط. «ما هذا؟».

قال كريشنامورتي: «إنها طبقة من الواقع المعزز تخبرك بأسماء الأشخاص الذين يملكون كل شيء. إنها تجميعة هائلة للمعلومات المتاحة للعامة بشأن العقارات والآلات والبنية التحتية، كل شيء، وجميعها مرتبطة بالمساهمين ومجالس الإدارات والأفراد الذين يملكونها. إنها خريطة تبين مَن يملك ماذا ... وهي ليست قاصرة فقط على البيانات المالية الحديثة، إذ إنها تضم كل مطالبات الأراضي الخاصة بالأمم الأولى، وقد حُمِّلَت على موقع الطبقات الحضارية لفانكوفر منذ ست ساعات، قبيل جنوح الناقلة مباشرة.

- «والشخص الذي حمَّلها فعل هذا من هايدا جواي».

خلال سنوات نشأة روب كانت جزر هايدا جواي لا تزال تحمل اسم جزر الملكة شارلوت. كانت تبعد مسافة ساعة بالطائرة عن فانكوفر، إلى الجنوب من منطقة يد مقلاة ألاسكا. [12] كانت الجزر، الشبيهة بمثلث مقلوب من

الغابات الساحلية المطيرة، معروفة بأشجارها العملاقة وبالفنون التي أوحت بها هذه الأشجار. كان سكان الجزر من أواخر الشعوب التي طالها الغزو الأوربي في أمريكا الشمالية، ومن ثم كانوا على اتصال أكبر بتراث أسلافهم مقارنة بغيرهم من الأمم الكندية الأولى، ولم تخبُ قوتهم إلا نحو عام 1900 حين كاد الجدري يفني سكان الجزر تمامًا.

كان أحد أفرع عائلة روب ينتمي لهذه المنطقة، بيد أن هذا لم يكن يعني له أي شيء على الإطلاق. فشعب الهايدا رغم فنونه لم يترك سوى أثر طفيف في تاريخ أمريكا الشمالية. ومع ذلك فهم لم يختفوا من الوجود تمامًا، ولم ينظروا لأنفسهم قط بوصفهم شعبًا مدحورًا.

ربما كانت هذه الحقيقة البسيطة هي التي جعلتهم مصدر خطر.

نظر روب خلفه. منحت واجهة الواقع المعزز روب وهم أنه لم يكن واقفًا بمفرده في قاعة اجتماعات أعلى مدينة فانكوفر وإنما أنه محاط ببقية أعضاء مجلس الوزراء في أوتاوا. استدار نحو النافذة من جديد وحدَّق في الأفق الممتد أمامه، متسائلًا عن عدد الأشخاص الذين كانوا ينظرون إلى المدينة - البلاد - من خلال هذه العدسات الجديدة عينها. كان هذا التطبيق يتفوَّق على تطبيق نيكسيتي، الذي كان يعرض فقط مستقبل العقارات المحلية. أما هذا ... فكان يجعل عدم المساواة واضحة وضوح الشمس.

لم يكن التطبيق يعرض فقط وسوم المِلكيات الحالية؛ فالمشهد المرئي بالكامل للجبال والساحل كان مقسمًا بواسطة ممرات افتراضية منحنية، تشبه خيوط الأضواء الشمالية، لكنها موسومة بمطالبات المِلكية ذات الصلة. كانت كل أعمال الخيانة التي ارتكبتها الحكومات البريطانية والكندية على مدار قرون ظاهرة في وضوح، تلتمع في السماء. وحتى العملة التي كان يجري الحساب بها لم تكن الدولار الكندي، وإنما عملة الجواي (جوايكوين). وقد صارت هذه النسخة من البيتكوين العملة الأكثر رواجًا في الساحل الغربي، وليس فقط في أوساط الأمم الأولى.

كان هناك المزيد.

تضمنت الواجهة شيئًا يدعى «مشهد النافورة»، وحين جربه روب تبدل شكل الأفق تمامًا، فبدلًا من جدران الضوء اللامعة كان ينظر إلى ... نافورات: نافورات من المال، تنبثق من الجزر الهندية وتتدفق نحو المدينة، نحو الأبراج ذات الجدران الزجاجية التي تزينها شعارات شركات قطع الأشجار والتعدين مثل التيجان. كان بإمكانه متابعة نافورات المال وهي تغادر جزر آيشيهيك وتيميكسو وكلاهوس ونازكو، وتختفي في أقبية الرجال البيض، وهو اتهام واضح بشكل صارخ.

قال: «لا يمكن أن يكون هذا قانونيًّا. من أين يحصلون على البيانات؟».

قال كريشنامورتي: «كلها آتية من مصار قانونية. أغلبها من تقارير المساهمين».

- «وهل نعتقد أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم هم من تسببوا في جنوح الناقلة؟».

- «لا نعلم هذا يقينًا. إننا نفترض وجود صلة بين الأمرين. هناك، سأظهر أمامك الأمر».

تحوَّل روب مجددًا إلى غرفة الاجتماعات، التي ملأتها صور شفافة لزملائه إضافة إلى وافد جديد؛ إذ جلس تمثيل حاسوبي لشخص في أحد المقاعد التي كانت شاغرة من قبل، شاب من السكان الأصليين، مهندَّم وهادئ، وكان يحدِّق في روب عبر عينين ذكيتين داكنتين.

قال روب: «أهو حي؟».

- «ليس بعد. لا نعرف ما يكفي عن سلوك الجماعة التي يمثلها كي نبث في الصورة الحياة. وحين يحدث هذا ربما نستطيع معرفة المزيد».

قال رئيس الوزراء: «في الوقت الحالي، دعنا ننظر إلى الخيارات السياسية المتاحة أمامنا. هل شغَّل رجالك أداة تطوير السياسات؟» أومأ كريشنامورتي وقام بتشغيل برنامج «سيم كندا» (محاكاة كندا). في أوتاوا ستظهر الصورة على الشاشة الجدارية، أما بالنسبة لروبرت فسوف تنبض البيانات بالحياة بينما تظهر أمامه سلسلة من الشاشات الافتراضية داخل حدود الغرفة وخارجها.

أظهر البرنامج ستة عشر صورة مختلفة لما ستكون كندا عليه، وكانت الصور مزودة بألوان تظهر المستويات النسبية للدعم السياسي للحزب، علاوة على الرفاهية الاقتصادية في البلاد، والمؤشرات الصناعية، بل تلك العوامل غير الملموسة مثل «مُعامِلات السعادة»، التي كانت في حالة مبهمة الآن. أظهرت كل خريطة مستقبلًا محتملًا مختلفًا للبلاد. كان البرنامج اللعين يقدم صورًا متعددة للمستقبل، وليس توقُّعًا واحدًا أبدًا، وكان هذا من الأشياء التي كرهها روبرت في البرنامج. كان الأمر يتعلق بالكيفية التي كان التحليل المورفولوجي يعمل بها، لكنه كان أمرًا مزعجًا على أي حال. فما نفع نظام يسمح لك برؤية المستقبل ما دام يعجز عن إخبارك أي مستقبل تحديدًا سوف يتحقَّق؟

أظهرت الخرائط الستة عشر ما ستكون عليه كندا بعد ستة أشهر من الآن، استنادًا إلى الخيارات السياسية المختلفة التي كانت الحكومة تعمل عليها.

اختُبرت هذه البدائل في محاكاة للبلد كله تضمَّنت سلوك المواطنين الأفراد الافتراضيين. كانت المحاكاة تُغذَّى ببيانات الاقتراع والحسابات الاقتصادية طوال الوقت، وكذلك بالبيانات المأخوذة من أدوات تطوير السياسات التي توظفها الأحزاب السياسية بالبلاد. استخدم كريشنامورتي مؤشِّرًا على الشاشة كي يتحرَّك إلى الأمام والخلف عبر الزمن وإلى الجانبين بين الخيارات المختلفة. وقال: «لدينا هنا إذن النتائج في ضوء حادثة جنوح الناقلة ومن دونها، اعتمادًا على حزمة الاستجابات التي نختارها. وكما يمكنكم أن تروا فهناك دعم واسع لحملة لفرض النظام، لكن الأدوات تبين مقدار التدهور في الدعم الجماهيري إن انخفض مستوى التهديد المتوقع ...».

بسط روبرت عدة خرائط كي ينظر إليها عن كثب. كانت مطالبات الأراضي حيلة قذرة، وأظهرت بعض السيناريوهات المتوقعة لكندا التأثير الذي قد تتسبب فيه لو كان هذا مجرد بداية وحسب لحرب معلوماتية أكثر تعقيدًا. كان أكثر السيناريوهات إثارة للفزع كان ذلك الذي يتبيَّن فيه بشكل مفاجئ أن 16 بالمائة فقط من المواطنين الذين يحق لهم التصويت صوتوا لصالح الحكومة الحالية. كان حزب روبرت قد كمم أفواه هيئة الانتخابات الكندية منذ عام 2014 كي لا يتسنى للمسؤولين الحكوميين دراسة الأرقام الفعلية، ناهيك عن إخبار الجمهور بأن أقل من 50 بالمائة من الناخبين ذهبوا للتصويت في الانتخابات الأخيرة. كان روب يعلم ذلك فقط لأن الحزب كان يستطيع تحمل تكلفة إجراء دراسات خاصة.

لكن كلما نظر روب إلى المحاكاة صار أشد حيرة. قال: «السيناريوهات الوحيدة التي نستطيع في ضوئها الفوز بالانتخابات القادمة هي تلك التي نتفاوض فيها حول تسويات مطالبات الأراضي مع الهايدا وغيره من شعوب الأمم الأولى. كيف تسنى لهم أن يبتزونا بهذه الصورة ويؤدوا خدعة دعائية كهذه وفي الوقت ذاته يظهروننا بمظهر الأشرار لو أننا رفضنا الجلوس على طاولة التفاوض؟».

تبادل كريشنامورتي نظرة مع رئيس الوزراء. وقال بيل ميتشنر، الذي شغل منصب رئيس الوزراء منذ أربع سنوات: «العوامل الديموغرافية؛ فتعداد السكان الأصليين يتزايد بمعدل كبير، فيما تنخفض أعداد بقيتنا، وأخيرًا باتوا يشاركون في عمليات التصويت بأعداد غير مسبوقة».

أضاف مدير دائرة الأمن والاستخبارات الكندية: «ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، فمنذ خمس سنوات فقط بتنا نمتلك القوة الحاسوبية التي تمكننا من فعل شيء كهذا». ثم أومأ ناحية خرائط محاكاة كندا، واستأنف قائلًا: «وكنا نحن

فقط من نملك البيانات. لكن الآن ... الكثير من المعلومات متاح للعامة، وقواعد البيانات الموزعة تعمل على شبكات الهواتف المحمولة المتداخلة ... ونحن نعتقد أن الهايدا يديرون محاكاتهم الخاصة لكندا مثلنا تمامًا. لقد تدربوا على هذا السيناريو، ربما منذ شهور. هذا ليس عمل حفنة من الصبية المتحمِّسين الذين قرروا أن يعيقوا عملنا، بل هي لعبة قوة محسوبة جيدًا وموجهة ضد الحكومة الفيدرالية لكندا».

قال بيل: «لا يتعلق الأمر بأي حيلة منفردة من هذه الحيل، بل الفكرة في النمط الإجمالي. إنهم يريدون القيام بوظيفتنا بدلًا منا.

إنهم يمثِّلون خطرًا واضحًا ومباشرًا على السيادة الكندية. ولهذا السبب عقدنا هذا الاجتماع.

لو ربح الهايدا، ستتوالى الانهيارات بعد ذلك. إن الأمم الأولى تطالب بأراضي تعادل ثلث مساحة كندا، وهم يمرون بفترة ازدهار في المواليد وتنمو أعدادهم بمعدل أسرع بكثير من بقية السكان. إننا متقدمون في العمر ومتقاعدون وغارقون في الديون، بينما هم شباب ومتحرِّرون من الديون ولا يزالون في مقتبل حياتهم العملية.

إذا وضعت كل هذه الأمور معًا ستصير الصورة جلية.

إننا بصدد صراع على السلطة».

بعد مطالعة مختلف السيناريوهات لمدة ساعة، أرسل بيل طلب اتصال لروب على قناة اتصال سرية. قبل روب الطلب، متيحًا له ولصديقه القديم قناة اتصال خاصة مشفرة.

قبل أن يبدأ رئيس الوزراء حديثه قال روب: «بيل، ما الذي سنفعله حقًّا بشأن هذا الأمر؟ نحن لسنا في كيبيك، وبغض النظر عمن يكون هؤلاء المتسللون فإنهم ليسوا من جبهة تحرير كيبيك. فهم لا يسعون إلى الانفصال، بل هم يريدون شيئًا آخر، لكن ما هو؟».

- «أجل، بشأن هذا ...» حدق بيل في تدبر إلى يساره، والذي كان يشغله في نظر روب جدار خالي لكنه كان على الأرجح نافذة الاتصال من طرف بيل. «أنت تدرك أنني اعتدت الذهاب إلى مؤتمرات دافوس، ومنذ عامين جاء إلي رئيس دولة باراجواي وقال: «هل لديك أي سلطة؟» لم أكن وقتها رئيس الوزراء بعد، بل كنت أشغل وظيفتك، لكن ... للوهلة الأولى حدَّقت فيه دون

رد، لكنه قال إنه كان يتحدث مع رؤساء الوزراء والرؤساء والمدراء التنفيذيين للمؤسسات، كل الأشخاص ذوي الثقل، وكلهم يقولون الأمر عينه. فمنذ عشر سنوات كان بمقدرهم تنفيذ ما يريدون، لكن الآن؟ هناك معاهدات دولية ورأي عام ومنظمات غير حكومية وكنائس بل وبرامج تليفزيون الواقع، وكلها تتعدَّى على النطاق الذي كان فيما مضى مِلكًا خالصًا لنا. وأهم ما في الأمر هي قواعد البيانات الموزعة، تلك الأشياء التي تدير عملات البيتكوين. فإذا كنت شابًّا صغيرًا يعيش في إفريقيا، وكنت تمتلك هاتفًا ذكيًّا، فلست بحاجة إلى استخدام عملة دولتك، ويمكنك استخدام البيتكوين مكانها. لكن ما هذا إلا قمة جبل الجليد، إذ يمكنك الاحتفاظ بأي شيء في قاعدة البيانات الخاصة بك: ممتلكاتك، حالتك الصحية، القوانين، المواطنة … إن ذلك الفتى في أفريقيا لم يعد يحتاج حكومته، إذ إن لديه الإنترنت.

قال ميجيل إن الجميع يمر بالموقف نفسه؛ فهم إما يصلون في النهاية إلى مكانة يتوقَّعون فيها أن يحصلوا على سلطة حقيقية لكن يكتشفون أنهم لا يملكونها، أو يكون قد مضى عليهم في السلطة عشرون عامًا ويشاهدونها وهي تنسحب من تحت أقدامهم».

هز روب كتفيه وقال: «أجل. أعتقد أن هذا هو السبب الذي دعا وكالة الأمن القومي إلى محاولة السيطرة على شبكة الإنترنت. لأنها كانت تهديدًا».

علت وجه بيل نظرة حزينة وقال: «بالتأكيد. المشكلة هي أن قاعدة البيانات الموزعة، وكل تلك الأمور الأخرى - مثل الطبقة التي تظهر المِلكية التي رأيتها - ليست لها علاقة كبيرة بما يحدث بالفعل. الأمر متعلق أكثر بالاقتصاد والتعليم وسهولة الانتقال …».

جلس روب حتى تتسنَّى له رؤية بيل بشكل أفضل من دون أن تهتز الواجهة، كانا قد تحدثا عن الحاجة إلى تنظيف المشهد السياسي الكندي في السابق، لكن كان أغلب حديثهما عندما كانا يدرسان في الجامعة، ولم يطرأ الموضوع على السطح لأنهما شقا طريقهما بالفعل ليصبحا من قادة الدولة. كان كل منهما يضع الأساس لعملية تنظيف شاملة على مدار سنوات والثقة تملؤه بفضل معرفته أن الآخر يسانده ويحميه. ما إذن كل هذا الهراء عن رئيس باراجواي؟

قال: «اسمع، لا يوجد شيء مما يدور هنا نعجز عن التعامل معه. أنت تعرف أننا نمسك شيئًا على كل شخص: الصحفيين، النشطاء، ربات البيوت … أي شخص استخدم الإنترنت. كل هذا محفوظ في قاعدة بيانات الأنشطة

الإجرامية، وكريشنامورتي يملكه. فما من شخص إلا ودخل مصادفة إلى موقع إباحي يستغل الأطفال أو أقدم على قرصنة فيلم ما أو تبادل رسائل بريد إلكتروني قذرة مع زميلة عمل. فكل شخص فعل شيئًا يمكننا أن نهدده به».

قال بيل: «لا أعتقد أن هذا سيساعدنا». لكن روب ابتسم.

- «ما أقوله هو أننا لا نحتاج إلى فرض قانون الإجراءات الحربية كي نتعامل مع أمر مثل انفصاليي الهايدا هؤلاء. فمنذ بعض الوقت ربطت قواعد البيانات الخاصة بوكالة الأمن القومي الأميركية وهيئة أمن الاتصالات الكندية مع قائمة الأعداء الواردة في منظومة إدارة معلومات الناخبين».

- «فعلت ماذا؟» قالها بيل وهو ينتصب في جلسته وأضاف: «هل دمجت الملفات؟».

كانت منظومة إدارة معلومات ناخبي الحزب عبارة عن قاعدة بيانات سرية مدرج بها قوائم بكل الأصدقاء والأعداء: ففي أبسط صورها، كانت تسجل اسم مَن تبرع للحزب، ومَن طرد جامعي التبرعات قائلًا لهم أن يذهبوا إلى الجحيم. لم تكن الحكومات السابقة تتمتع ببعد النظر كي تقسم الناخبين بشكل واضح إلى أصدقاء وأعداء، وكانت في هذا سذاجة بالغة منها.

- «لقد سعدت وكالة الأمن القومي الأمريكية للغاية بمنحنا البيانات وقامت هيئة أمن الاتصالات الكندية بفلترتها بحثًا عن الأنماط الإجرامية. لقد حميت ظهورنا بأن استخدمت قانون حرية المعلومات كي أقدم طلبًا وزاريًّا مستندًا إلى ذريعة أخرى. لك أن تقول إن البيانات سقطت في قاعدة بيانات الحزب مصادفة. وكل ما نحتاجه الآن هو طلب بحث بسيط كي ننتج قائمة بالأعداء علاوة على الأسباب التي تمكننا من إصدار أوامر بالقبض عليهم. وبإمكاننا حصرهم جميعًا غدًا لو شئت».

هز رئيس الوزراء رأسه وقال: «إن وكالة الأمن القومي لم تنتهك الخصوصية الأمريكية لأنها ظنَّت أن «الشبكة» يمكن أن تصير تهديدًا، فقد كانوا يشعرون بالسلطة وهي تتسرَّب من بين أصابعهم لسنوات قبل هذه النقطة. لقد فعلوا ما فعلوا لأنهم أصيبوا بالذعر، وكان من الممكن أن ينجح مسعاهم خلال فقاعة شركات الإنترنت، لكن بحلول الوقت الذي فعلوا فيه هذا لم تعد السرية هي مكمن السلطة.

وإذا كان الأوغاد الذين نحن بصددهم بإمكانهم أن يصنعوا طبقة مثل تلك التي رأيتها للتو، فبإمكانهم أيضًا أن يصنعوا واحدة بناءً على قائمتِك. ربما هم لا

يمتلكون القائمة بالفعل، لكن سيكون لديهم فكرة جيدة جدًّا عن الأشخاص الذين من المرجح أننا نراقبهم. ولك أن تراهن أن بعض الحثالة يعملون بالفعل على التنقيب في سجلات المقبوض عليهم بحثًا عن أنماط مشابهة لذلك النمط الذي سيظهر لو أننا نفذنا ما تقترحه أنت. سوف يخفون البيانات في قواعد البيانات الموزَّعة، حيث لا يمكننا مراقبتها، حتى لو استعنا بقانون الإجراءات الحربية وبرجالك داخل شرطة الخيالة الكندية الملكية. وبمجرد أن ينقشع الغبار سيكون هناك تصويت بسحب الثقة وسيطاح بنا من السلطة».

ثم ضحك حين رأى التعبير المرتسم على وجه روب وقال: «الحقيقة هي أننا بالفعل سنتفاوض معهم، أعني في البداية. سوف تسوء الأمور، هذا يحدث دائمًا، وحين تصل الأمور إلى ذروتها - وكلانا يعلم أن هذا سيحدث - سيكون لدينا ذريعتنا وسنحظى بموافقة الجمهور حين نحمل عليهم حملًا شديدًا. وستكون مهمتك أنت هي التفاوض».

وإبقاء الوضع على ما هو عليه، هكذا فكر روب. حسنًا، بالطبع كانت المماطلة في تسوية المطالبات المتعلقة بالأراضي تقليدًا حكوميًّا كنديًّا أصيلاً.

- «علينا أولًا أن نضع أيدينا على هؤلاء المتسللين. وهذا ... سبب آخر وراء رغبتي في الحديث إليك».

- «بسبب بيانات هيئة أمن الاتصالات الكندية؟».

- «كلا، اسمع يا روب، لا أعتقد أن لك علاقة مطلقًا بما يحدث هنا، لكنك تعرف شخصًا له علاقة بالأمر، شخصًا هو في الواقع شريك صامت يموِّل جزءًا كبيرًا من أعمال الهايدا جواي. إن المال يُنقَل بالجوايكوين، لكننا تمكنا من تتبعه». ثم أخبره بيل إلى ما انتهى إليه التتبع، وهنا هبَّ روب واقفًا على قدميه وصاح: - «من المؤكد أنك تمزح معي!».

- «ثمة خائن بين صفوفنا يا روب، وأنا واثق أنك ستتولى هذا الأمر جيدًا».

هز روب رأسه. لطالما كان يتوقَّع الخيانة على مدار حياته العملية، لكن ليس هذا ...

- «سأتولى الأمر يا بيل، الليلة».

«لم يكن من الضروري أن تأتي حقًّا، إن أخبار ناقلة النفط تملأ الأخبار». هكذا قال تيري بينما كان يهم بإغلاق الباب، ثم لاحظ أفراد شرطة الخيالة الكندية

الملكية المنتشرين على الدَّرَج وفي الممشى، فأضاف: «آه، أعتقد أنك لن تبقى حتى العشاء...».

ظهرت مارجريت من المطبخ وهي تحمل صينية من البيض المحشو وقالت: «أهلا حماي العزيز، هل علمت أننا اشترينا المنزل؟».

قال روب مخاطبًا تيري: «ليس هذا هو سبب مجيئي. اسمع، أحتاج إلى التحدُّث معك، عن المفاوضات مع الهايدا».

نظر تيري إلى الفريق الأمني ثم سار في الردهة حتى غرفة مكتبه الصغيرة وتبعه روب. وما إن دخلا الغرفة حتى أغلق تيري الباب واستند إلى طاولة الكمبيوتر وهو يعقد ذراعيه.

- «كيف لي أن أساعدك يا والدي؟».

كان روب قد فكَّر في الكيفية التي سيتعامل بها مع الأمر. كان لدى كريشنامورتي بعض المعلومات التي تدين تيري، لكنها ليست دامغة. لم تكن علاقة روب بتيري ... سلسة على مدار الأعوام السابقة. وإذا كان كريشنامورتي مخطئًا قد تفسد علاقة روب مع تيري تمامًا ... لذا فقد حرص على أن يبتسم وهو يقول: «إن الهايدا لا يريدون استخدام صيغة الاجتماع المعتادة، إذ يصرون على أن تحدث المفاوضات على الملأ وعن طريق شبكة الإنترنت. لقد قضيت فترة الظهيرة في تلقي عناوين مواقع إلكترونية ومختصرات عديدة إلى أن أصابني الدوار. لا أفهم هذه الأمور، وأحتاج شخصًا يفهمها».

ابتسم تيري وقد بدا سعيدًا من قلبه وقال: «آه، ما الأدوات التي يستخدمونها؟».

فتَّش روب جيب معطفه باحثًا عن الورقة التي كان يكتب عليها خلال جلسة الإفادة تلك الظهيرة. بطبيعة الحال كان لدى كل من هيئة أمن الاتصالات ومنظومة إدارة معلومات ناخبي الحزب أشخاص يمكنهم شرح الأمر أفضل من تيري. «إنهم يختارون المندوبين عن طريق الاختيار العشوائي من بين مجموعة من الأفراد جرى تجميعهم باستخدام شيء يسمى الديمقراطية الموزعة ديناميكيًّا. ما هذا بحق الجحيم؟» قال هذا وهو ينظر شذرًا.

قال تيري وهو يشيح بيده: «آه، إنه نظام يختار الناس بموجبه أشخاصًا آخرين كي يمثلوهم. فبدلًا من أن تصوت لمرشح ما يحق لك أن تفوضني لأنك تثق بي

ولا تملك الوقت كي تتدبر القضية، وبمقدور الآخرين أن يفعلوا الأمر عينه ويفوضونني، وبإمكاني أن أفوض كل هذا إلى شخص ثالث أثق به. يبدو الأمر مزعجًا لكن يمكنك استخدام بروتوكول تواصل يدعى «نظرية الوعد» كي ترسخ هذه العملية نزولًا إلى مستوى العتاد المادي للحاسبات ...».

- «أيًّا كان. وماذا عن هذا الموقع، Wegetit.com؟ إنهم يصرون على أن أسجل بياناتي عليه، ويقولون إنني سأستخدمه خلال المفاوضات. هل هذا شيء يمكنهم استخدامه كي يتحكموا في عملية التفاوض؟».

هز تيري كتفيه نفيًا وقال: «ليس أكثر مما تتحكَّم القواعد التي تضعها أنت في أي اجتماع، بل ربما أقل في الواقع. يمكنني مساعدتك في التسجيل».

تذمَّر روب قائلًا: «سينتهي الحال بوضع «صورة» لي هناك، ثم سيستخدمونها ضدي. الأمر أشبه بتطبيق صور دوريان الذي كنت تستخدمه أنت وماجي هذا الصباح، أليس كذلك؟».

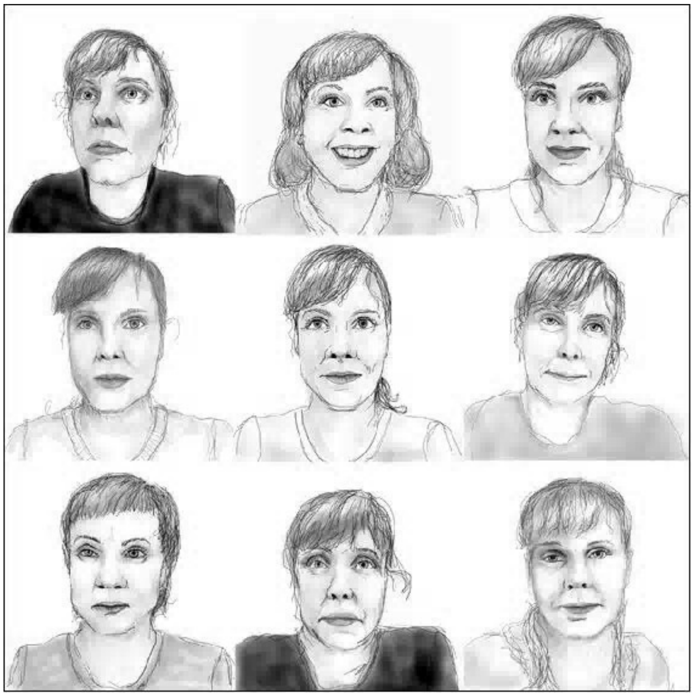

© Nina Miller / ASU ,2013

- «لن يستخدم أحد الصور ضدنا يا أبي. إنها مجرد صور افتراضية لك، واحدة لكل قرار كبير تفكر في الإقدام عليه. لنقل مثلًا أنك تفكر في الإقلاع عن التدخين، حينها سيأخذ تطبيق دوريان الخاص بك البيانات التي تمنحها له - عمرك، وحالتك الصحية، ولو كنت تستخدم برنامج متابعة لممارسة الرياضة

فسيأخذ مستويات لياقتك البدنية، وإذا كنت تشتري البقالة عبر موقع توصيل إلكتروني سيعرف نظامك الغذائي - ثم يقارن هذه البيانات بالنتائج المعروفة الخاصة بشريحتك الديموغرافية. هذه الصور الصغيرة الخاصة بك - الدوريانات - ستبدو أكثر سعادة أو أشد حزنًا، أغنى أو أفقر، اعتمادًا على النتيجة النهائية. فالصورة التي ستنتج لك بعد عشر سنوات لو أنك واصلت التدخين بشراهة ستكون مختلفة عن تلك التي ستكون عليها لو أنك أقلعت تمامًا عن التدخين الآن. كما سيتم الجمع بين الصور المختلفة، بحيث إنك لو أقلعت عن التدخين وبدأت في الاشتراك في سباق الماراثون، ستجري موازنة الجوانب الجيدة بتلك السيئة. الهدف هنا هو أن تجعل صورك تبدو أفضل وأفضل؛ أوفر صحة وأغنى وأشد سعادة. فإذا كنتُ بصدد شراء منزل، مثلًا، أخبر تطبيق دوريان بهذا، وسيبحث عن النتائج الخاصة بأشخاص مثلي ويرسم لي طيفًا من الوجوه استنادًا إلى الخيارات المعتادة».

قال روب: «هذا سخيف». لكن تيري هز رأسه.

- «إن البشر يمتلكون مقدارًا ضخمًا من الروابط العصبية المكرَّسة لقراءة الوجوه، لذا إذا كنت تريد تمثيل مجموعة معقدة من البيانات بطريقة يمكن للناس من خلالها إدراك الفروق البسيطة لكن المؤثِّرة بين النسخ المختلفة، فإن السبيل الأمثل لعمل ذلك هو أن ترسمها على شكل وجهين تتجسَّد فيهما الاختلافات في مقدار تقارب عينيك، أو حجم التجاعيد التي في وجهك. والفارق الضئيل للغاية الذي لن تدركه مطلقًا على أي مخطَّط بياني سيصير مرئيًّا على الفور على شكل وجه.

العلوم الإدراكية هي التي أنبأتنا بذلك. إن تحليل عاداتك الشرائية وتوجهاتك الاجتماعية وصحتك وغير ذلك من العوامل هو عملية معالجة للبيانات على نطاق واسع. ليس الأمر مستغربًا، أليس كذلك؟».

غاص قلب روب بين ضلوعه. كان صوت تيري وحماسته الزائدان يؤكدان شكوكه. لم يكن كريشنامورتي مخطئًا. والسؤال الوحيد الآن يتعلَّق بما يجب عمله.

قال روب: «إنهم يعقدون المفاوضات الخاصة بالمعاهدة على جزر هايدا جواي. سأسافر إلى هناك بعد ثلاثة أيام».

- «أتريدني أن آتيَ معك؟».

كان المطر يغمر مدرج الطائرات غربي جزر الملكة شارلوت حين خطا روب وتيري من طائرة الرحلات اليومية الصغيرة، ولأنهما كانا يعرفان ما سيجدان، فقد ارتديا معطفي مطر وأحضرا مظلتيهما.

لم يكن التغير المناخي قد أثَّر بعد تأثيرًا بالغًا على جواي. إلى الجنوب من المطار الجديد كان يوجد خليج بيرسكين، وهو مسطَّح مائي مرقَّط بالجزر يحفُّه الضباب، بينما إلى الغرب كانت توجد جبال ذات قمم جليدية حادة يحدها خط شاطئ متعرِّج، أما في الشمال والشرق فكانت الأرض مكسوة بأشجار الصنوبر المخروطية العملاقة، غابة مطيرة لا تشبه أي غابة أخرى على سطح الأرض. كانت الشجيرات السفلى خضراء كثيفة وعامرة بالنباتات ذات الأوراق العريضة التي لم تنجح السماوات الرمادية في إطفاء خضرتها اليانعة. كان الهواء منعشًا باردًا رطبًا إلى حد يصيب بالدوار.

لم يتحدَّث روب وتيري كثيرًا خلال الرحلة. استحوذ مساعدو روب على جُل اهتمامه إذ كانوا يعرِّفونه أهم المعلومات عن الأشخاص والأشياء في المكان. كان روب يعلم أن ذلك عُذر لا أكثر، وأنه كان يختبئ خلف مساعديه، بيد أنه لم يكن يستطيع التحدث إلى تيري، خاصة في وقت كهذا.

توقَّف روب قبل أن يبلغا سيارتهما المستأجرة وألقى نظرة حوله. خلف المطر الكئيب كانت الأشجار السامقة تلامس السحب الرمادية الخفيضة. وبعيدًا عن مدرج الطائرات، لكن أمام الأشجار مباشرة، انتصب صف من أعمدة الطوطم. وقد لاحظ روب في لمحة من الرضا عن الذات أنها لم تكن تشبه محاكاة ديزني التي تراها في كل مكان في العالم، بل كانت حقيقية، وكانت صور الحيوانات الموجودة بها قد بلت وتآكلت بفعل الزمن. في وقت ما من الماضي كان ثمَّة رجل يدعى سكاي هو من نحتها.

- «مبهرة، أليس كذلك؟» كان تيري يقف إلى جواره، يبتسم وهو ينظر إلى الأعمدة. هز روب رأسه.

- «مبهرة لو كنا في العصر الحجري، لكن ليس هذا زمننا. وهذه هي المشكلة كلها».

حين وصلا إلى السيارة فتح السائق الباب لروب، إذ لم تكن هناك سيارات ذاتية القيادة في هايدا جواي، على الأقل ليس بعد. وبينما كان يدلف إلى السيارة قال الرجل: «آه، أنا آسف».

نظر روب إليه وقال: «ماذا؟».

- «أنت غاضب. فلتتقبَّل أسفي لو كنت قد أغضبتك». كان وجهه يشبه وجوه أبناء الجزيرة، وكانت بقية جسده مختفية تحت معطف مطر أصفر وقبعة ذات حواف عريضة. لاحظ روب على نحو مفاجئ أنه كان يرتدي نظارة واقع معزز.

- «لماذا تظن أنني غاضب منك؟».

نقر السائق على نظارته وقال: «إنني أعاني من متلازمة أسبرجر [(13)] وتستطيع نظارتي التعرف على المشاعر على وجوه الناس وأن تخبرني بها. وهي تقول إنك غاضب الآن».

قال: «لستُ غاضبًا منك». وبينما كان يضع حزام الأمان فكر: أنا لست غاضبًا على الإطلاق، اللعنة! ثم نظر في عبوس إلى الأشجار الرتيبة بينما كانوا في طريقهم إلى المدينة وكان يجيب عن أسئلة مساعديه واقتراحاتهم على نحو مقتضب بكلمتي نعم ولا فقط.

لكن رغم محاولاته التركيز على ما بين يديه من أعمال، لم يستطِع أن يمنع نفسه من ملاحظة كيف كان تيري يحدق في شوق إلى المشهد الطبيعي المحيط بهم. ووجد روب أنه يفعل الأمر عينه على مضض.

قطعوا طريقًا متعرجًا إلى الجنوب نحو الخليج وخور سكيدجيت، ومروا بلافتة طريق تقول إنهم كانوا على طريق أوشن فيو. قادهم الطريق نحو شريط ضيق من المنازل - لا يتجاوز عمقه ثلاثة أو أربعة منازل - يحف خط ساحل عامر بأشرعة سفن صيد الأسماك.

إلى الشمال من هذا الموضع كانت جزر جراهام تلوح في الأفق، وهي عبارة عن مثلث مقلوب يقع عند مدخل ديكسون، حيث تتقابل يد مقلاة ألاسكا مع ساحل كولومبيا البريطانية. كان وهو في الجو يستطيع أن يرى مضيق هيكتيت، الذي كان يفصل جواي عن كولومبيا البريطانية. إذا نجحت المفاوضات الدائرة حول خط الأنابيب، سريعًا ما ستعبر هذا المضيق مجموعةٌ من أضخم ناقلات النفط الآتية من كيتيمات، متجهة شمالًا ثم عبر المدخل، وبعد ذلك إلى آسيا. ستحمل الناقلات خام النفط فائق الثقل من رمال ألبرتا النفطية، وما من سبيل إلى مرورها من هنا دون تعاون جماعات الأمم الأولى المحلية. لقد قاومت الأمم الأولى هذا الأمر مقاومة مريرة، على مدار فترة طويلة من الزمن. لم تكن سلطتهم رسمية أو نابعة من معاهدات، بل تعيَّن عليهم اكتساب السلطة الحقيقية، وفي مسعاهم هذا انخرطوا أكثر وأكثر داخل

العالم. قد تبدو هذه مجرد جزيرة صغيرة، لكن لم تكن السياسة في جواي محلية على الإطلاق.

عند نقطة ما ضغط السائق على المكابح فجأة، حتى هدأت سرعة السيارة وصارت أقرب إلى الزحف. ولأن روب كان يراقب الغابة، فقد كان يعلم أنه لا يوجد ما يستدعي الرؤية، ومع ذلك بعد دقيقة أو نحو ذلك قفز زوج من الغزلان في حذر على الطريق أمامهم، فسأل السائق: «كيف علمت أنهما هنا؟».

ابتسم الرجل بابتسامة عريضة، وحين صارت الغزالتان خلف السيارة زاد من سرعتها مجددًا، وقال: «أسعيد أنت بعودتك؟».

كان روب على وشك الرد بقوله إنه لم يسبق له أن جاء إلى جواي من قبل، لكن كان السائق من الهايدا ... فأجاب: «أجل».

كانت هذه أرض أجداده، بصرف النظر عن مقدار استيائه من حمل ذلك العبء الثقيل. كان عليه الاعتراف بأن المنازل والمتاجر التي كانوا يمرون عليها بدت ... غير مزدهرة ربما، لكنها ليست بائسة مثلما توقَّع. لقد كاد شعب الهايدا ينقرض بفعل المرض في مستهل القرن العشرين، وهي قصة تكرَّرت في كل أنحاء الأمريكتين، بيد أن هذه الكارثة استغرقت أربعة قرون وكانت جزر الملكة شارلوت آخر من شهدتها. كانت ثقافتهم لا تزال سليمة لم تمس حين ضرب الجدري ضربته، ومن تبعات هذا الأمر أنهم لم ينظروا إلى التكنولوجيا على أنها سلاح للقوة الاستعمارية.

أخبره والده ذات مرة أنه فيما سبق كانوا يستخدمون العبيد في تشييد أعمدة الطوطم شديدة الأهمية، وحين تكون الأعين قد نُحتت بحيث تستطيع الأرواح أن تنظر منها، كانت الأعمدة تُرفع عاليًا، وكان العبيد يقتلون ويُدفنون عند قواعدها. قال والده إن الحال لم يختلف في أيامهم هذه، باستثناء أنهم يستخدمون أدوات فرض السلطة في عملية النحت، وأن هذه الأدوات هي التي تُدفَن في نهاية المطاف.

قال مخاطبًا السائق: «هل تستخدم موقع Wegetit.com؟».

- «أكره استخدام الإنترنت، لكن لديهم كشك بجوار شركة العقارات، وحين أمر به أجيب عن سؤال أو سؤالين أحيانًا. لماذا تسأل؟».

- «لأن قومك يطالبونني باستخدامه. ألديك فكرة عن كيفية ذلك؟».

- «آه، هذا لأنه جزء من عملية اتخاذ القرار لدينا الآن».

- «حقًّا؟».

حين وصل روب إلى الفندق، وضع نظارته جانبًا وأخرج حاسبه اللوحي ودخل إلى موقع Wegetit.com. لم تكن تلك المرة الأولى التي يدخل فيها الموقع، لكن هذه المرة كبح ضجره وأنشأ لنفسه حسابًا عليه. كان تيري هو من موَّل الموقع على أي حال، وكان من حق روبرت أن يكون فضوليًّا حيال ما يفعله الابن.

كان هناك شيء واحد فقط يمكنك فعله على موقع Wegetit.com: إظهار أنك فهمت الصورة التي عرض بها شخص ما فكرته. كان يوجد حقلان نصيان، أحدهما خاص بكلمة أو مفهوم (قصير للغاية) وآخر أطول، يعادل حجم التغريدة على موقع تويتر. يمكنك كتابة فكرتك عما يعنيه شيء ما ثم تنتظر، وبعد فترة يستجيب أناس عن طريق إعادة صياغة تعريفك. إذا رأيت أن إعادة الصياغة تجسِّد المعنى الذي تقصده على نحو صحيح، يمكنك الضغط على زر Wegetit. ولا يوجد زر خاص بعدم الاتفاق.

كانت الأفكار تُقدَّم عادة في سياق قضية أو مشكلة ما، كقضية مطالبات السكان الأصليين بالأراضي كما في حالتنا هذه مثلًا. كان هذا هو النطاق الذي أراد مفاوضو الهايدا منه أن يلتزم به. بدأ روب بأفكار أساسية مثل «الحُكم» و«الاتفاق» وشق طريقه إلى أن وصل لمفاهيم أكثر تعقيدًا مثل «الانعتاق» و«حُسن النية». لم تكن لديه أدنى فكرة عن هوية الأشخاص الذين كان يتفق معهم - إذ كانت الهويات مجهولة - لكن في مكان ما كان هناك آلاف الأشخاص الذين كانوا يتفقون في منظوره للمفاهيم الأساسية، حتى لو كانوا يختلفون معه في آرائه السياسية. كان موقع Wegetit يرسم خطوطًا تربط بين أولئك الناس جميعهم، وكل اتفاق كان يقوِّي هذه الروابط.

وفقًا لتيري فإن هذا هو ما جعل موقع Wegetit مختلفًا عن كل موقع آخر على الإنترنت به منتدى نقاشي، لأن بصرف النظر عن النوايا الطيبة فإن المنتديات النقاشية كانت تولد سوء الفهم بطبيعتها، فكان الشقاق، لا التلاقي، هو القاعدة السائدة في أي منتدى من هذه المنتديات. على النقيض من ذلك إذا عرضت مشكلة ما - خاصة لو كانت مشكلة سياسية شائكة - على مجموعة من الأشخاص المتصلين بموقع Wegetit، فبغض النظر عن التباين بينهم في وجهات نظرهم ومواقفهم، فإنهم على الأقل سيتفهمون بعضهم بعضًا حين يتحدثون عنها معًا.

بدا الأمر في نظر روب محض هراء، لكن في اليوم التالي صار واضحًا أن الأمر شديد الأهمية في نظر الهايدا.

كان من المقرر أن تُعقد المفاوضات في مركز تراث الهايدا في سكيدجيت (أو مدينة «أسد البحر» حسبما يدعوها السكان المحليون). كان المكان يطل على الساحل، وكان مُجمعًا من خمسة مباني كبيرة يذكر المرء بالأكواخ الخشبية العتيقة لكنه كان مشيدًا بمواد بناء حديثة. كانت ستة أعمدة طوطم ضخمة تنتصب على نحو مهيب أمام المباني، وكانت جدران قاعة الاجتماعات مغطاة بمقدار هائل من النحت والصور المطبوعة، جميعها تصور أساطير هذه الثقافة وحكاياتها. وضعت الطاولات على شكل حرف U عملاق، وكانت هناك تلك الفوضى المعتادة إذ يهرع الناس هنا وهناك لعمل تجهيزات اللحظات الأخيرة.

أصر الهايدا على أنهم بحاجة إلى عقد ورشة عمل تجهيزية لمدة يوم كامل استعدادًا للمفاوضات الفعلية، وبما أنهم كانوا الطرف الذي يهدد بعرقلة مشروع خط الأنابيب، قرَّر روب أن يمنحهم ما يريدون. لقد كان يجيد توجيه ورش العمل في الاتجاه الذي يريده أفضل من أي شخص آخر، وترك مساعديه يتولون أمور التجهيزات، إذ كان حريصًا على أن يحيي الأشخاص المهمين قبل بدء الفاعليات الرسمية. لكن قبل أن يفعل أيًّا من هذا سارع كبير مساعديه، جيفري، بالمجيء إليه وقال: «هناك تأخير».

- «بالطبع هناك تأخير». كان سيفاجئه ألا يكون هناك تأخير. كان روب يعد الحاضرين والمقاعد، وكان عدد المقاعد يفوق عدد الحاضرين بكثير. قال: «أين الجميع؟».

قال جيفري: «انصرف بعض المندوبين. وقد أخبروني أنه بسبب شيء فعلته أنت ليلة أمس».

- «ليلة أمس؟ كل ما فعلته هو الخلود إلى الفراش. حسنًا، لقد تصفحت ذلك الموقع لفترة من الوقت ...» هذا إذن ما حدث. أومأ جيفري برأسه.

- «أعتقد أنك قمت بعدد كافٍ من الموافقات على الموقع بالأمس بحيث صار واضحًا مَن مِن الناس سيفهم ما تقول. والمندوبين الذين لا يتوافقون معك إما صُرفوا أو يجري تعريفهم بالاختلافات بينكم، وقد استدعوا عددًا كبيرًا من الأشخاص المؤهلين مهنيًّا ...».

- «ملء قارب حرفيًّا على ما أعتقد».

- «... من مختلف الجزر والبر الرئيسي أيضًا ممن يقعون داخل خريطة موافقاتك. وفي غضون يوم أو نحو ذلك من الاستعداد سيكونوا قد تأكدوا من أن كل شخص جالس على طاولة التفاوض يتحدَّث اللغة عينها على مستوى الأفكار الأساسية».

- «رائع. إذا كانوا يريدون الخداع فنحن أهل لهم». ثم أمسك نظَّارته وارتداها. بعد ذلك أنشأ اتصالًا آمنًا مع أوتاوا واستعرض بعض نسخ محاكاة كندا على مستشعر النظَّارة. كان يريد أن يعرف كيف تسير قضية المطالبات بالأراضي.

خلال الفترات بين كل عملية تقديم وأخرى إلى الرجال أو النساء ممن يحملون أسماء مثل جاندل وإمكينفان وجومسيوا - وهي أسماء ووجوه استثارت داخل روب ذكريات قديمة - كان بمقدوره اختلاس النظر إلى الخرائط التي تمثل النتائج المختلفة للسياسات. كان بمقدوره أيضًا أن يرى تقارير الحالة الآتية من منظومة إدارة معلومات ناخبي الحزب بشأن التحقيقات، لكنه لم يستطِع في واقع الأمر قراءتها وسط كل المصافحات الحارة التي كان منخرطًا فيها. بدا وكأن الناقلة الجانحة لم يتسرَّب منها النفط بعد، لكنها كانت على الصخور ولم يكن باستطاعتهم الاقتراب منها. كان التسرب سيحدث لا محالة، والسؤال الوحيد هو: إلى أي مدى سيسوء الأمر؟

دعنا لا ننسى أن هذا صراع على السلطة، هكذا ذكر نفسه بينما خلع نظارته من أجل التحدُّث إلى الصحفيين. لقد تمكن الهايدا بصورة ما من توجيه تلك السفينة كي تصطدم بالصخور. وقد عملوا على إفساد البيانات الملاحية داخل الممر المائي. ولو كان أولئك الحمقى في هيئة أمن الاتصالات قد استطاعوا أن يعرفوا كيف حدث هذا، ما كان ليضطر إلى المجيء إلى هنا. لكن في واقع الأمر، كان التهديد واضحًا: فلنتفاوض الآن وإلا سيتكرَّر الأمر.

إما أن الهايدا واثقون من أن بمقدورهم تكرار هذه الحيلة، وإما أنهم يائسون بحق. كان عليه أن يعرف أي التفسيرين هو الصحيح.

- «رجاء الانتباه!» كان هذا تود سوانتون، أحد منظمي المؤتمر، وكان روب قد عمل معه من قبل. أحضر تود إلى هنا بالطائرة على عجالة كي يتولى تنسيق أعمال المؤتمر. وأضاف: «ليس كل المندوبين حاضرين بشخوصهم بعد، لكن قيل لي إنهم جميعًا على اتصال وأننا نستطيع الاجتماع عن بُعد أثناء تجهيز بقية الترتيبات. سوف أبدأ بتقديم وزير شؤون السكان الأصليين، روبرت سكاي ...» ثم واصل استعراض نسب روب، بيد أن الطريقة التي شدَّد بها على الاسم، بحيث نطقه بالنطق الصحيح للهايدا، أصابت روب بالضيق. فإذا بدأت الصحف

في استغلال علاقته بالجزيرة، ربما يبدؤون في التشكك في موضوعيته، ومن ثم في قدرته على تمثيل الحكومة على النحو اللائق.

طلب منه تود أن يلقي كلمة، وتحدَّث روب نحو خمسة عشر دقيقة دون الاستعانة بملحوظات أو أي مخطط لكلمته، وكان بارعًا في هذا النوع من الأحاديث. وقد بدأ يسترخي في أجواء المؤتمر المألوفة لديه.

بعد كل الإجراءات التمهيدية بدا أن السكان المحليين يرغبون في البوح بمظالمهم، ولم يثنهم تود عن ذلك، بل إنه في واقع الأمر بدأ في دعوة الناس إلى الميكروفون كي يتحدَّثوا عن قضاياهم. كان هذا أسلوبًا مألوفًا لدى روب، الذي كان مستعدًّا لتجاهل العملية كلها وعدم الانغماس فيها. ستكون هناك أحاديث كثيرة عن التعاسة التي يعانون منها، بينما يتحدَّث العديد من المسنين والآباء عن قلة المال وسوء التعليم ومشكلات المخدرات ونقص فرص التوظيف الجيدة ... لقد سمع كل هذا من قبل. كان يومئ ويظهر الاهتمام، لكن كان بيل قد جعل روب يتولَّى منصب وزير شؤون السكان المحليين لأن روب كان يعرف أن الحكومة ليس بوسعها مساعدة هؤلاء الناس. إن مائة عام من المحاولة لم تسفر عن شيء، وإذا كنت ستنتزع نفسك من هوة الفقر، عليك أن تفعل ذلك بنفسك. كان روب يؤمن بهذا من قلبه، لأن هذا ما فعله هو نفسه.

لكن الأمر لم يسِر على النحو الذي توقعه روب. فالأشخاص الذين اعتلوا المنصة لم يكونوا أشخاصًا عشوائيين لهم مطالب معتادة، بل كانوا أشخاصًا استخدموا موقع Wegetit كي يحددوا قضاياهم. البعض منهم كان يمتلك واجهات متقدِّمة مثل نظارات الواقع المعزَّز، والبعض كانوا مسنين ممن يستطلع المتطوعون آراءهم في متجر البقالة. لكن ما كان يجمعهم كلهم هو أنهم إما حدَّدوا قضية محورية ما في اللغة التي يتفهمها كل شخص آخر - بمن في ذلك روب - أو أنهم أثبتوا أنهم يفهمونها على الموقع، وتم اختيارهم كي يكونوا هنا من خلال عملية التجميع الخاصة بالديمقراطية الموزَّعة ديناميكيًّا.

حتى روب وجد أن عليه الإقرار بأن المشكلات التي وصفوها على مدار الساعة التالية كانت حقيقية. كانت توصيفاتهم مركَّزة وشاملة وتفهمها الجميع على الفور تقريبًا. وفي الواقع كانت الملخَّصات واضحة لدرجة أنه وجد الأمر مثيرًا للشك. في المعتاد حين كان يواجه مثل هذا الوضوح فإن ذلك كان نتيجة جهد دعائي متفق عليه. لكن في هذه الحالة لم يفلتر موقع Wegetit الأفكار أو يشوهها، بل كان ببساطة يربط أولئك الأشخاص الذين هم قادرون على فهم بعضهم بعضًا. كان الموجودون في هذه القاعة يمثِّلون الشبكة ذات الفهم

الأوسع والأكثر اكتمالًا للقضايا المحيطة بمطالبات السكان الأصليين بالأراضي، شبكة كان روب فيما يبدو جزءًا منها.

بد الانتهاء من الملخصات، سلم تود المنصة إلى خبير آخر، محلل من تورونتو، الذي قال: «الآن أود منكم القيام بتدريب بسيط». بينما كان روب يميل نحو جيفري.

- «من هذا الرجل؟».

غمغم جيفري: «إنه أحد مؤسسي موقع Wegetit. وقد حصل على شهادته الأساسية في شيء يدعى (التصميم الحواري المنظَّم)».

- «رائع».

قال الخبير: «سأوجِّه لكم مجموعة من الأسئلة عن القضايا التي حدَّدتموها على موقع Wegetit على مدار الأيام القليلة الماضية. أريدكم أن ترفعوا أيديكم إذا كنت توافقون. أولئك الذين لا يزالون في الطريق إلى هنا يمكنهم أن يبعثوا رسالة نصية بإجابتهم. دعونا نبدأ بالسؤال التالي: هل ترون أن سهولة الوصول إلى البر الرئيسي يمكنها المساعدة في تيسير مشكلة «حاجز العمالة» التي تحدثنا عنها من قبل؟» ارتفعت الأيدي. «الآن، هل ترون أن سهولة الحصول على فرص العمل من شأنه أن يجعل الوصول إلى البر الرئيسي أيسر؟» ارتفعت الأيدي مجدَّدًا.

استمر التدريب لبعض الوقت. رفع روب يده مع الآخرين، إذ كانت معظم الإجابات بدهية إلى درجة التفاهة، ولم يستطِع أن يرى كيف ستساعدهم معرفة أن نقص التعليم يعيق فرص المرء في الحصول على وظيفة.

بعد انقضاء نحو نصف الساعة ضغط الخبير نظارته على أنفه وقال: «صحيح، لدينا ما يكفي من الإجابات. لقد كانت برامجنا الحاسوبية تعمل في الخلفية بحيث تُجري تحليلًا للأسباب الجذرية بخصوص كل القضايا التي تحدَّثنا عنها. وها هي النتيجة».

ثم عرض مُخطَّطًا على الشاشة الجدارية، وهو ما جذب انتباه روب على نحو مفاجئ. فهناك، في مربعات رسومية تربط بينها خطوط - على نحو أشبه بمخطَّط التدفق - كانت تظهر المشكلات التي حدَّدها الهايدا وغيرهم من الأطراف ذات الصلة، مرتبة حسب أي المشكلات تسبَّبت في غيرها. شكل المخطَّط شجرة، تجمَّعت فيها مشكلات مثل معدلات الانتحار وتعاطي

المخدرات على القمة. كانت مرتبطة إلى الأسفل بقضايا الفقر والتعليم المدرسي والإبادة الثقافية وغيرها من القضايا. استمرَّت الشجرة في عرض هذه القضايا إلى أن وصلت في جزئها الأدنى إلى المسبِّب الجذري الذي أوضح التدريب أنه يكمن خلف كل شيء آخر. احتوى مربع التدفُّق ذاك على الكلمات: الهايدا لا يسيطرون على أراضيهم.

شعر روب بسخط بالغ. لقد تدرَّب على سيناريو الاجتماع عدة مرات، لكن ما حدث هنا هو أن القضية عُرضت بسرعة وسلاسة وبوضوح ودقة شديدين. لقد انبثقت شجرة المسبِّبات من سلسلة من الإجابات العقلانية - بل والبدهية - على أسئلة عن الكيفية التي تترابط بها المشكلات الاجتماعية. المعضلة هنا هي أن الشجرة كانت مقلوبة: فكل تلك الإجابات البديهية كان من المفترض أن تفضي إلى نتيجة واحدة بديهية، وهي أنه لا يهم الكيفية التي تُحكَم بها الأراضي اللعينة، وأن الأفراد يجب أن يتولوا مسؤولية حياتهم بأنفسهم. بدلًا من ذلك حدث العكس تمامًا.

كان روب قد وافق على كل إجابة أسهمت في بناء هذه الشجرة، فكيف إذن لا يتفق مع النتيجة النهائية؟

لا ريب أن في الأمر خدعة ما، لكنه لم يكن واثقًا من الكيفية التي حدث بها الأمر، ومع ذلك من المؤكَّد أنه جرى التلاعب في العملية برمَّتها.

حل وقت الاستراحة، وقضى روب معظم هذا الوقت بعيدًا عن الأنظار. صافح عددًا من الوافدين الجدد وهنَّأ المنظمين على التقدُّم العظيم الذي تحقَّق اليوم. وفي النهاية ذهب إلى الحمام، حيث اتفق على أن يقابل جيفري.

استند إلى الحوض وحدَّق في مساعده وقال: «كيف باغتونا هكذا؟».

نظر جيفري في عدم ارتياح وقال: «إنهم يتبعون البرنامج. الأمر فقط ... ما يحدث هنا مرتبط بالأنظمة الأخرى، مثل موقع Wegetit، بطرق لم نتوقعها. أعني لقد رأيت بنفسك ... العمليات التي تستغرق شهورًا في المعتاد باتت تستغرق ساعات».

- «السياسة عملية بطيئة لسبب وجيه، فأنت لا توجه ناقلة عملاقة بالطريقة عينها التي توجه بها قارب تجديف صغير، ولن يتم الأمر دون خسائر. من هؤلاء الأشخاص؟».

- «أتعني القائمين على إدارة النظام؟ حسنًا، هناك موقع Wegetit، لكن ما هذا إلا واجهة. إنه بمنزلة فلتر يُجمِّع الناس معًا حسب مقدار فهمهم بعضهم بعضًا، لكننا علمنا للتو أن البيانات الموجودة فيه يمكن استخدامها بواسطة مجموعة أدوات أخرى داخل نظام يدعى سايبرسين 2».

- «وما الذي يفعله هذا النظام؟».

تردد جيفري للحظة ثم قال: «أعتقد أنه من الأفضل أن تسأل ابنك، فهو الرئيس التنفيذي».

بعد انتهاء فترة الاستراحة ووصول جميع الحضور، استؤنف المؤتمر. وقف تود سوانتون وبدأ في عرض جدول أعمال فترة ما بعد الظهيرة فقال: «الوصف الدقيق لما آل إليه الوضع بعد مائتي عام من الصراع العنيف بين الهايدا والتاج هو أن لدينا مشكلة كريهة، والمشكلة الكريهة ليست مشكلة عادية. فبإمكانك حل أي مشكلة عادية، وعلى الأقل يمكنك وصفها. لكن المشكلة الكريهة - التي تسمى أيضًا بالفوضى العارمة - لا توجد لها صياغة محدَّدة. فلا وجود لما يوقف الفوضى عند حدها، ولا طريقة يمكن أن تثبت بها أنك أصلحت الوضع. والحلول هي الأخرى ليست صحيحة أو خاطئة، بل هي مختلفة وحسب، وكل حل إنما هو «حل متفرد» لا يمكن مقارنته بأي محاولات سابقة لإصلاح الوضع. لا يمكنك أن تصلح الفوضى، وأقصى ما تأمل فيه هو أن تحسن الوضع».

ثم ابتسم في ابتهاج وأضاف: «ونحن هنا اليوم كي نحسن الفوضى التي تكتنف العلاقات بين كندا وشعب الهايدا، إذ سنبدأ في استخدام أحد تلك الأساليب المتقدمة التي كانت مجموعات صغيرة من الخبراء ذوي الأجور الباهظة تستأثر بها لنفسها وتمنحها لعملائها الأثرياء مقابل مبالغ عظيمة. لكن شأن كثير من الأشياء الأخرى التي صارت أرخص وأيسر عملًا بفضل أجهزة الكمبيوتر، فإن التحليلات المورفولوجية باتت شديدة اليسر لدرجة أننا سوف نحولها إلى لعبة، وسوف نلعب هذه اللعبة في الجزء المتبقي من فترة ما بعد الظهر، واسم اللعبة هو «مواجهة السبب الجذري»».

تمتم روب: «ما هذا بحق الجحيم؟». لقد فات وقت الهروب من الأمر - فقد وافق على إجراء ورشة العمل التجهيزية هذه - لذا كل ما بوسعه عمله هو أن يبتسم وأن يبدو وكأنه يستمتع بالأمر، والتفكير في طرد جيفري من وظيفته. وعلى مدار الساعات الأربعة التالية بذل القائم على موقع Wegetit والهايدا أقصى جهدهم، فأنشأوا مصفوفات متعدِّدة الأبعاد كانت نقاط تقاطعها تمثِّل الجوانب العديدة المختلفة للفوضى التي كانت تكتنف العلاقات بين الحكومة

والهايدا. وباستخدام أجهزة العرض الضوئي والنظّارات والحواسب اللوحية وكل شيء آخر يستطيعون الوصول إليه، استمر المنظمون في استكشاف الأبعاد والتوسُّع فيها والتركيز عليها والتعمق فيها، وأزالوا ملايين من التراكيب المحتملة إلى أن وصلوا إلى مجموعة محدَّدة من الحلول الممكنة. كان هذا الأسلوب يدعى التحليل المورفولوجي، وهو الاسم المعقَّد في حدِّ ذاته، لكن لم يكن الاسم هو ما يثير الضيق، فقد كان من شأن الحلول أن تندمج معًا في كتلة صعبة الفهم لولا شيء واحد فقط: فكل حل من الحلول كان يُعرَض على الشاشة على هيئة وجه بشري. كانت دوريانات لعينة، وكان تيري محقًّا، فحتى أدق الاختلافات بين أي حلين من الحلول كانت واضحة على الفور على شكل اختلاف في التعبير أو العِرْق أو المشاعر الظاهرة على الوجوه. وبإمكانك أن تستعرض عشرين حلًّا منها بحثًا عن أفضلها فقط خلال الوقت الذي تستغرقه عيناك في المرور عليها. كانت أفضل الحلول لها وجوه سعيدة وافرة الصحة شابة وتنتمي عرقيًّا إلى شعب الهايدا. وحين كانت تُكشَف البيانات التفصيلية الخاصة بحل ما، كان يتضح دومًا أن التقييم الغريزي الذي مُنح له كان صحيحًا من البداية، من بين ملايين الإجابات الممكنة.

خلال ذلك وجد روب نفسه يتأرجح بين مصفوفته متعدِّدة الأبعاد من ردود الفعل: الانزعاج والانهماك والسعادة والصدمة. كانت المشكلة - أو الفوضى بالأحرى - أكبر من أن يستوعب بشري بمفرده عناصرها وحلولها الممكنة جميعها، بيد أنه لم يكن من العسير على مجموعة من الأطراف المعنية أن تتفهَّمها، ما دامت تتلقَّى الإرشاد الملائم خلال العملية.

وفي النهاية رفع روب يده وسأل الخبير: «ماذا تطلق على ما فعلته للتو؟».

ابتسم الرجل وقال: «إنها تسمَّى «إعادة السياسة إلى طبيعتها البرية «».

حل الليل وانتهت أعمال المؤتمر. أنهى سوانتون الفعاليات بأن لخص ما حدث قائلًا: «أعرف أننا جميعًا متعبون من التدريب الذهني الذي مررنا به اليوم، لكن لحسن الحظ ستكون نوعية العمل في الجلسة التالية مختلفة. كان التركيز اليوم على العثور على المشكلات، لكن في الجلسة التالية - بعد يومين - سنركز على الفهم المشترك الذي توصَّلنا إليه اليوم. لقد ثبت أن الطريق الأمثل للمشاركة في فهم أي قضايا معقدة هو رواية القصص، لذا سيكون هذا بالتحديد ما سنفعله، وهذا هو سبب احتياجنا يومًا للاستعداد. سوف نتشارك القصص، قصصنا، من خلال الحديث والكتابة والغناء والرقص. وبنهاية تلك الجلسة سنكون قد استوعبنا تمام الاستيعاب كل ما استطعنا التوصل إليه اليوم من أفكار».

أثناء الخروج كان الجميع منهكين، لكن شاعرين بالحماسة، وأثير الكثير من النقاشات والجدالات في ساحة انتظار السيارات وما وراءها. توجَّه روب إلى فندقه، واتصل بكريشنامورتي وقال له: «أعرف أن ابني متورِّط في الأمر، لكني أريد أن أعرف مَن أيضًا له صلة بالموضوع، لصالح مَن يعملون، ومن أيضًا يموِّلهم، أريد أن أعرف كل شيء».

كان اتصالًا صوتيًّا فقط، وكان ثمة تأخير بسبب الاتصال عبر الأقمار الصناعية. كان الوقت متأخِّرًا في أوتاوا، لكن لم يهتم روب لذلك، فمن المفترض أن كريشنامورتي يتوقَّع اتصاله.

قال كريشنامورتي: «إن هيئة أمن الاتصالات تعمل على التحقق من أمر موقع Wegetit، وكذلك أمر شبكة الإنترنت كلها في جزر الملكة شارلوت، فقد تبين أنها في معظمها عبارة عن شبكة محلية متداخلة. إن أهل الجزيرة لا يشترون وصلات الإنترنت من شركات روجر أو بِل أو أي شركة أخرى خاضعة للضوابط الحكومية، بل هم يستخدمون هوائيات مدارة بالطاقة الشمسية وموجهات مُشتراة من المتاجر. والكثير من هذه تدخل في عمليات البث التي تقوم بها الشركات، إنهم يتطفَّلون على المعدات التجارية. وهم إما يدفعون بالجوايكوين أو لا يدفعون مطلقًا. إنها شبكة مظلمة، في الواقع إنها شبكة إنترنت كاملة تقع خارج الشبكة الرسمية. وهناك تلميحات بأنهم ربما يستخدمون ناقلات شبكية أوتوماتيكية كذلك».

- «وما هذه؟».

- «أجهزة لبث البيانات عن طريق البلوتوث أو الحقول الكهرومغناطيسية. ومن المستحيل تقريبًا رصدها أو اعتراضها».

- «لكن مَن يقف خلفها؟».

مجددًا تسبَّب التأخير في تعطيل الحوار، وفي النهاية قال كريشنامورتي: «لا أحد. ربما كانت هذه الفكرة في البداية نتاج قريحة شخص بعينه، لكنها الآن تدير نفسها بنفسها».

شكر روب كريشنامورتي وأنهى الاتصال، ثم أجرى اتصالًا آخر.

قال تيري: «مرحبًا؟».

قال روب: «هذا كله من صنع يديك، أليس كذلك؟».

مرَّت لحظات من الصمت كتلك التي شابت اتصاله بكريشنامورتي، وكانت تلك علامة واضحة تمام الوضوح على أن الطرف الآخر كان يختار كلماته بكل عناية.

قال تيري: «لدينا يوم استراحة قبل الجلسة التالية. لماذا لا نفعل أنا وأنت شيئًا ما؟ كنت أفكر في زيارة الغابة القديمة».

نزهة خلوية تجمع الأب والابن؟ كان ذلك أمرًا شديد الابتذال، ومع ذلك ...

تنحنح روب وقال: «اتفقنا».

سلكا طريقًا ترابيًّا قديمًا تحفه الأشجار من الجانبين. كانت الأشجار كثيفة يصعب اختراقها، وأوضح روب هذا إلى تيري قائلًا: «إنها شديدة الكثافة! إلى أين سنذهب تحديدًا؟».

- «هناك متجرِ تجهيزات على بحيرة يوكون، يمكننا الحصول على قارب تجديف خفيف (كَنو) من هناك».

- «كَنو؟» ضحك روب في عدم ارتياح وأضاف: «لقد مرَّ زمن طويل، أنت تعلم ذلك».

- «لا بأس، إنهم يبيعون الأسبرين أيضًا».

وصل بهم الطريق المتعرِّج إلى حافة بحيرة خلابة تظهر من ورائها جبال ذات قمم ثلجية. وعلى الشاطئ وقف رجل يرتدي قميصًا أحمر ذا نقش متصالب وكان يقلب قارب كَنو كما لو كان القارب لا يزن شيئًا. في هذا الهواء المشبَّع ببخار الماء، بدت الجبال البعيدة أشبه بصورة فضية مقصوصة، باستثناء قممها البيضاء. تشتت انتباه روب بفعل هذا المشهد بينما كان تيري يتفاوض مع منظِّم الجولة، وحين عاود النظر إلى ابنه رأى أنه قد خلع قميصه، وكان يرتدي شيئًا بدا أشبه بقميص أزرق أملس، وكان ثمة قميص آخر مطوي على القارب إلى جواره. كان روب قد رأى هذه القمصان التحتية وهي تظهر من تحت ملابس أهل الجزيرة خلال اليومين الماضيين، وقد افترض أنها عازلة للحرارة، كالصوف، لكن منظِّم الجولة ابتسم وهز رأسه قائلًا: «سترى بنفسك».

- «لا أحب ارتداء أحذية البولينج التي يستخدمها آخرون، فكيف أرتدي هذا؟».

قال تيري: «إنه للاستخدام مرة واحدة».

تنهَّد روب. كان هذا مجرد شيء آخر غريب من بين كل الأشياء العجيبة التي قابلها إلى الآن. قال: «لا يهم». ثم ارتداه.

جدَّفا ببطء بمحاذاة خط الشاطئ لنحو الساعة، ثم عبرا إلى الجانب الغربي. وحين وصلا إلى الشاطئ أخرج تيري ترموس به قهوة. نظر روب إلى المسافة التي قطعاها، وكان المشهد مهيبًا.

أمامهما كان يوجد شيء أكثر روعة، فقد كانت الأشجار هنا عتيقة لكنها كانت متباعدة بما يكفي بحيث كانت أعمدة غائمة من الضوء تصل إلى أرضية الغابة. كان غطاء من الأشنات الخضراء الساطعة، عمقه بضع بوصات، يكسو جذور الأشجار والصخور وكأنه بساطٌ مخمليّ مجعد. كانت خيوط طويلة تتدلَّى من الفروع العالية، وحين خطا تيري بين هذه الأشجار الخضراء المهيبة تبعه روب بحماسة.

شعر بما يشبه الأزيز في الجانب الأيسر من جذعه، وفي تلك اللحظة قفز شيء ما من خلف إحدى الأشجار إلى يساره. لم يستطِع أن يراه، لكن بصورة ما توافق الصوت مع إحساس الأزيز.

ضرب تيري صدره وقال: «أشعرت بهذا؟ إنها غزالة».

توقف روب عن الحراك وقد أدرك فجأة أن هذه اللمسة التي شعر بها في جسده لم تكن الوحيدة، فقد كان يشعر بوجود كائن آخر قريب. استدار ببطء إلى اليمين، ثم أشار قائلًا: «ما هذا؟».

- «أنت محق! هناك دب على مسافة نحو كيلومتر من هنا. إن الإحساس مختلف. وهناك في هذا الاتجاه،» ثم أشار بيده، «يمكنني الشعور بنسور. إن إحساسها واخز، لا أدري لماذا».

كان روب مذهولًا، قال: «هل القميص هو ما يفعل هذا؟».

- «إنه أمر يسمى الإبدال الحسي، إذ يمكنك استبدال حاسة بأخرى. وهذه القمصان تفعل شيئًا كهذا، لكنها في هذه الحالة تستخدم المستشعرات الذكية المتناثرة في أرجاء الغابة كي تتعرَّف على الحيوانات، أنواعها ومكانها. بعد ذلك تبث إحساسًا إلى الجِلد. في الحقيقة لا يتكلَّف تصنيعها الكثير، إذ تُستخدم مكبرات الصوت وأدوات الاهتزاز من الهواتف الخلوية القديمة، وتُدمج في نسيج هذه القمصان. لقد منحتك إحساسًا جديدًا. والأمر ينجح على النحو الأمثل

إلا كنت لا تفكر فيه على نحو مقصود. فقط دع الإحساس يغمرك. هيا، لنذهب في هذا الطريق».

سارا عبر الغابة العتيقة، وخلال ذلك شعر روب أن إحساسه بالمكان من حوله، بل وإحساسه بذاته، يتعاظم داخل صدره دون توقُّف. كان «يشعر» بالغزلان والغربان والثعالب والدببة، حتى إن كان لا يستطيع رؤيتها. كان أسلافه يفتقرون لهذه الحاسة، لكنهم ربما عوَّضوا ذلك بالمعرفة، بالأخبار التي يتلقونها من الصيادين والعاملين عن المواطن التي تعيش بها الحيوانات ومدى وفرتها.

لم يشعر قط بأي إحساس بالارتباط بأولئك الأشخاص، إذ كانوا في نظره مثل الظلال، كيانات مظلمة تستعصي على الفهم، شأنهم شأن الظلال الكامنة أسفل أغصان الصنوبر السفلية.

سار خلف ولده وهو يتفكَّر، وخلال مسيرتهما بات يتحدَّث أقل وأقل.

وتدريجيًّا أضحى واعيًا بحياة الغابة. ظهر شيء أمامهما، وافترض أنه البحر، إلى أن وصلا إلى حافة الغابة ورأى المشهد الأليم لبقايا جذوع الأشجار والأرض الجرداء التي تمتد لكيلومترات. إزالة تامة للغابة: كانت أشجار الغابة قد قُطعت في هذا الموضع، وعن طريق الحاسة الجديدة استطاع أن يشعر بمقدار الخواء الذي كانت عليه.

قال تيري: «غراب». فنظر روب حوله لكن كل ما رآه كان طريقًا قديمًا يستخدمه قاطعو الأشجار وشاحنة. سار تيري نحوها، لذا سار خلفه.

كان ثمة رجل يقف إلى جوار الشاحنة. وكان إحساس الغراب الذي أتاه قادمًا من هذا الموضع، فهل كان الرجل يحمل الطير معه؟ كلا، بينما اقترب روب أكثر لم يكن بمقدوره رؤية الحيوان، ومع ذلك أخذت إشارة الغراب تزداد قوة. بدا وكأن الرجل نفسه هو الغراب.

نعم… بالطبع كان هو.

تذكر روب حين كان جده يخبره أن عائلتهم كانت جزءًا من عشيرة النسر. بدا الأمر سخيفًا وأقرب إلى الخرافات في نظره، مجرد جزء آخر من الماضي عليه أن ينبذه لو كان يريد أن يصنع حياة ما لنفسه في العالم الحديث. لم يتغيَّر رأيه إلى الآن. ومع ذلك …

سلّما على الرجل، الذي كان يتعاون مع هيئة المتنزهات الكندية في إحصاء أعداد الدببة المحلية. وبينما كانا يسيران عائدين إلى الأشجار قال روب: «كان يرتدي واحدًا من هذه الأردية الاستشعارية، أليس كذلك؟» كان قد لمح شيئًا أزرق اللون أسفل قميص الحطابين الأحمر الذي كان الرجل يرتديه.

هز تيري كتفيه، فقال روب: «وكذلك كان كل من في الورشة ... كان يمكنهم الإحساس بالعشيرة التي ينتمي إليها كل شخص، أليس كذلك؟ بما في ذلك عشيرتنا؟ هل شاهد ذلك الرجل نسرين يخرجان من بين الأشجار توًّا؟» لم يجب تيري، وكان هذا في حد ذاته جوابًا كافيًا في نظر روب. توقَّف روب، وقد صار واعيًا فجأة بابنه فقط، وليس بأجمة الأشجار المكسوَّة بالأشنات التي كانا يقفان بها. «أعرف كل شيء يا تيري. أعرف أنك أنت الذي تقف خلف كل هذا. أأنت أحد انفصاليي الهايدا؟».

توقَّع نوعًا من المراوغة أو التبرير كذلك الذي كان يلقاه من تيري حين كان صبيًّا. بدلًا من ذلك ضحك تيري.

- «أبي، نحن في القرن الحادي والعشرين. لقد باتت النزعة الانفصالية ضربًا من الماضي».

تردَّد صدى محادثته مع بيل في رأسه. قال: «ماذا؟ أهذا نوع من فرض السيطرة إذن؟ انتقام للأمم الأولى؟» لكن تيري ظل يضحك.

- «أبي، لا يمكننا الانفصال لأنه لا يوجد مكان ننأى فيه بأنفسنا. إن العالم صغير جدًّا الآن. لا أحد بمقدوره أن يفعل هذا. نسيطر على ماذا؟ لم تعد كندا كيانًا محدَّدًا كما في السابق، شأنها شأن الولايات المتحدة وغير ذلك من الأماكن. إننا عالقون معًا. إن العالم قرية كونية، أليس كذلك؟».

- «ما الذي يحدث هنا إذن؟».

عقد تيري ذراعيه وظهرت على وجهه الجدية وهو يقول: «القمصان، الدوريانات، موقع Wegetit ... لقد بات الناس يستخدمون العلوم الإدراكية من أجل تحسين تفاعلاتهم، وتحسين عملية اتخاذ القرار. اللعنة، أنتم أنفسكم تستخدمون هذه الأشياء!».

- «أنا لا أستخدم ...».

- «حقًّا؟ وماذا عن خرائط محاكاة كندا؟ الجميع يستخدمونها في البرلمان الكندي».

- «إنها فقط أدوات للعصف الذهني».

- «أدوات تعين على التفكير، صحيح».

- «هل تقول إن الدوريانات مماثلة تمامًا لمحاكاة كندا؟».

- «مماثلة لها تمامًا يا أبي».

- «لا يعجبني الأمر يا تيري. فأنت تسمح لآلة لعينة بأن تتخذ القرارات نيابة عنك».

- «إن الدوريانات لا تتخذ القرارات نيابة عنك، بل هي تجعل ما هو غير مرئي مرئيًّا: فهي تظهر التفاعل المتبادل بين كل العوامل المعقدة المؤثرة في حياتك، على غرار أي الحيوانات حولنا الآن، وأين يوجد أشقاؤنا وشقيقاتنا النسور في الوقت الحالي».

- «بالإضافة إلى معرفة مَن يمتلك ماذا؟».

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه تيري وقال: «آه، لقد رأيت الطبقة، أليس كذلك؟ انتظر حتى ترى طبقة الأصول المعدومة الخاصة بفقاعة الكربون».

أمعن روب النظر في أعماق الغابة من خلال الفروع الخضراء التي تتقاطر منها المياه، وقال: «لو أنني ارتديت نظارتي الآن، ما الذي سأراه؟».

قال تيري: «نحن الاثنان. سترى ما تتعامل معه حاليًّا».

كانت مطالبات الهايدا والسيمشيان بالأراضي تظهر أعلى الأشجار كالجبال، لكنها ليست مطالبات بأسماء رجال ونساء وحسب، ولكن بأسماء عشيرة الدب والغراب والنسر. كما أنه كان واثقًا من أنه سيرى أشياء أخرى كذلك، مثل امتيازات قطع الأشجار وأسماء الشركات. مَن يملك ماذا، كم كانت الغابة تساوي نقدًا. وفي هذه اللحظة فهم الأمر.

- «أنت لا تحاول أن تبني حكومة جديدة. لقد فعلت ذلك بالفعل».

أومأ تيري ببطء وقال: «ليس فقط انطلاقًا من تطبيقات الواقع المعزز. نحن نرى هذه التطبيقات بوصفها شيئًا مساعدًا وحسب، شيئًا يمكنك من رؤية السلطة والمِلكية. وكما قلت، فهي تجعل ما هو غير مرئي مرئيًّا. لكنها لا تتخذ القرارات نيابة عنا».

- «القرارات ... هذه مهمة موقع Wegetit، صحيح؟».

- «موقع Wegetit والنظام القائم عليه، الذي نسميه سايبرسين. إنه مبنيٌّ على قواعد البيانات الموزَّعة، لذا فهو غير مركزي وقائم على شبكات الند للند تمامًا. إنه يوفِّر اتصالات موثوق بها، وتصويت غير قابل للتزوير، ومشاركة المواطنين وغير ذلك من الخدمات الخاصة بهيكل حاكم جديد. إنه النظام الأكثر حصانة ضد التزوير والفساد، لكنه بالطبع ليس قاصرًا على كندا وحدها، بل هو نظام عالمي».

حدق روب في ابنه وقال: «من حسن حظك أنني والدك يا تيري. فلقد اعترفت لتوك بالخيانة».

- «على الإطلاق. لو أنني رأيت فقاعة الكربون وقلت: «أعتقد أن كندا عليها التخلص من الوقود الحفري» لكنك عجزت عن رؤية ما أراه، ثم حدث بالفعل أن عانت كندا بشدة بسبب انفجار فقاعة الكربون، فهل يعني هذا أنني ارتكبت خيانة؟ كلا، لقد قدمت النصيحة، وكان لديك خيار الاستماع إليها أو لا».

- «لكن ما تفعله هنا ... ليس الأمر مقتصرًا على النصح، فأنت بالفعل تدير الجزيرة بهذا النظام، أليس كذلك؟» كل هذه الخرائط الخاصة بالسلطة

والثروة، كانت لها نقاط تركيز نهائية مرئية، وتلك النقاط ترتبط بأشخاص. وإذا أمكنك أن ترى شبكة السلطة كلها من حولك، ستعرف من ينبغي أن تتحدث إليه كي تحقق ما تريد. وحتى إذا كنت مجرد هندي مجهول في الشارع، ستكون قادرًا على رؤية ما يحتاج إلى عمله، حتى لو لم يكن بمقدورك أن تفعله بنفسك. وباستخدام قواعد البيانات الموزعة يمكن زرع كل هذا بأسلوب غير مركزي تمامًا. فلا وجود لمراكز قوة يمكن إسقاطها ...».

- «نحن ندير الجزيرة لأنه لا أحد غيرنا يفعل ذلك. وإذا كان مسؤولو الحكومة يؤدون وظيفتهم بشكل جيد، لم نكن لنضطر لعمل ذلك». قال تيري هذا في فتور، لكن كانت كلماته صاعقة، وكاد روب يقول له: «نحن نفعل ما في وسعنا»، لكن في ضوء ما رآه هنا لم تلك إجابة ذات معنى على الإطلاق.

بدأ روبرت المشي مجدَّدًا، ولم يعد يلاحظ المشهد الطبيعي الخلَّاب، وقال تيري وهو يسير خلفه ببضع خطوات: «نحن نستخدم موقع Wegetit وبقية النظام كي نطور سياسة عامة يصوغها الجمهور بالفعل ويجري اختبارها إلى جوار السياسة الرسمية في صور الدوريانات القومية، والتي هي مجرد نسخة مفتوحة المصدر من خرائط محاكاة كندا. إن كليهما من تطبيقات مجموعة البيانات الضخمة، وبإمكاننا أن نرى اي سياسة تعمل على نحو أفضل في المحاكاة، ثم ننتظر التطبيق على أرض الواقع كي نرى ما حدث عند التنفيذ الفعلي. إننا لا نجري أي تعديلات على النموذج القومي، كما لا ننشر الخيار السياسي الرابح بوصفه أداة لتطوير السياسات، كتلك التي يملكونها في أوربا منذ عام 2010 على الأقل. يستخدم بعض الأعضاء المحليين بالمجلس التشريعي هذه الأدوات في تصميم السياسات منذ سنوات، وهم يحبونها لأنها تمنحهم في الواقع نصائح سديدة مجانًا.

أترى ما نفعله هنا يا والدي؟ إننا نقدم لكم فرصة عمل الشيء ذاته، لكن على المستوى القومي».

كانت تبعات هذا واضحة. فإذا رفض المسؤولون الانصياع، بمقدور الهايدا تصعيد الأمر، إذ يمكنهم بدء التصويت عن طريق قواعد البيانات الموزعة وإخراج الحكومة من الشبكة تمامًا.

عقد روب ذراعيه وقال: «إنني أمثل البلد باكمله. وأنت تمثل مجموعة صغيرة من المتسللين والناقمين».

هز تيري رأسه نفيًا وقال: «كم عدد الأشخاص الذين صوتوا في الانتخابات الاتحادية الأخيرة؟» ثم ساد صمت محرج إلى أن أضاف تيري: «إننا نشرك الناس في عملية صنع القرار أكثر مما تفعلون. فلتتدبر الأمر».

فكر روب في الأمر للحظة ثم قال: «لماذا؟» وكان يعني: لماذا أنت؟

بدا أن تيري فهم المغزى، فقال: «لأنك ربَّيتني بحيث أرغب في إحداث فارق. إن منطقة الغرب الأوسط في الولايات المتحدة خالية من الناس، لأن المياه الجوفية نضبت والرئيس يقول إنه سيغزو كندا إذا لم نوافق على قلب اتجاه مستجمع أمطار خليج هَدسون. الأمر أشبه بتحويل مياه سد جاريسون لكن على نطاق أكبر بكثير، وهذا يحدث في دولة من المفترض أنها الأكثر استقرارًا وثراءً وديمقراطية في العالم. هناك حروب مياه وهجرات جماعية في كل مكان، ناهيك عن الأمراض والمجاعات والمذابح الطائفية. بيت القصيد أن حل هذه المشكلات سهل من المنظور العلمي والهندسي. إن العلم موجود لدينا منذ عقود، وكذلك التكنولوجيا، فلدينا التكنولوجيا البيولوجية، والنانوية والقدرة على الوصول إلى الفضاء ولدينا روبوتات، وخلايا شمسية بمعدل كفاءة مقداره خمسون بالمائة، وطاقة اندماج نووي، بالله عليك! نحن لسنا في حاجة إلى حل تلك المشكلات، فهناك قضية واحدة تستحق وقتنا وجهدنا في اللحظة الحالية، ولو تغلبنا عليها سنحل كل المشكلات الأخرى.

وهذه المشكلة الوحيدة التي تستحق الحل هي مشكلة الكيفية التي نحكم بها أنفسنا».

لم تصدر أقدامهما أي ضوضاء وهما يسيران بين الأعشاب، ولبعض الوقت سار الأب والابن معًا وحسب. كان باستطاعة روب أن يشعر بشبكة الحياة التي تشع من حولهما، وكأنها ضوء غير مرئي. الحيوانات، الأشجار العملاقة، الأعشاب والبزاقات التي يصل طولها إلى بوصة، كان تبدو وكأنها جزء منه.

كان يعلم علم اليقين كيف كان من المفترض أن يشعره هذا. التوحد مع الطبيعة، هذه هي اللعبة. وقد أغضبه الأمر لأن الأمر كان شديد الوضوح وساذجًا، نسخة سياحية من العالم الطبيعي. فلتجرب أن تعيش هنا من دون التكنولوجيا لمدة أسبوع، ولتجرب أن تنقل سكان فانكوفر إلى الريف كي يجوبوا الغابات وهم عراة. إن السبب الوحيد لبقاء وجود أماكن كهذه على ما هي عليه هو وجود أماكن مثل مدينة فانكوفر. فلن تغير أي تكنولوجيا جديدة من هذا الهراء عن العودة إلى الطبيعة، فسيظل كما هو، محض هراء.

لم تكن ثمة جدوى من إخبار تيري بهذا بطبيعة الحال، فبنظرة جانبية رأى روب التعبير الهادئ السعيد على وجه ابنه، الذي كان يظن أنه يقضي مع والده واحدة من تلك اللحظات الخاصة التي تجمع الأب وابنه. كان هذا من الأمور التي اعتاد فعلها، وكان بمقدور روب أن يتذكر المرات التي حاول فيها استخدام هذا الأسلوب وهو صبي، استخدام سعادته كي يحاول تغيير رأي والده حول شيء مهم. أحيانًا كان روب يدعه يعرف أنه يتصرف بحماقة، وأحيانًا كان يثبت على موقفه ويتجاهل هذه الحيلة.

وصلا إلى مرتفع يطل على شاطئ، وكان بمقدورهما رؤية قاربهما ينتظرهما هناك. أمر عجيب، فلم يشعر به بالطريقة التي شعر بها بالغربان تحلِّق فوقهما، أو بالغزالة على مسافة نصف كيلومتر إلى يمينه. لقد كان القارب مجرد ثقب خاوٍ في المشهد الطبيعي.

قال تيري وهو في طريقه إلى الشاطئ: «يمكننا أن نروي هذه القصة غدًا». تنهد روب، وشاهده للحظات ثم تبعه.

قد يكون كريشنامورتي شديد الإلحاح، لكن في ظهيرة اليوم التالي كان روب ممتنًا لاتصاله، إذ أنقذه من مأزق شديد.

كان الصباح كله قد خُصص للاحتفالات، من فنون وأغنيات ورقصات تقليدية ورواية للقصص. كان روب يعلم ما سيراه، إذ كان يحضر كل عام فعاليات كهذه. لذا فقد ضبط نظارته من أجل مطالعة آخر التقارير عن موقف الحكومة، بحيث يكون مستعدًّا حين تبدأ المفاوضات. لكن ما حدث هو أن العروض واصلت تشتيت انتباهه.

فكل قصة، وكل أغنية، وكل عمل فني كان قد اختير بحيث يعكس الأفكار التي استكشفوها بصورة جماعية في اليوم الأول. كانوا قد أخبروا بهذا في ملخص فعاليات المؤتمر على الإفطار، لكن روب لم يدرك ما كان ذلك يعنيه حقًّا إلا حين بدأ.

حين اتصل كريشنامورتي كان روب قد نسى أمر التقارير تمامًا، بل كان في الواقع يحدق عبرها في صياد أسماك مسن من السيمشيان قادم من منطقة برينس روبرت، وكان يحكي قصة. كان لدى هذا الرجل حكاية واقعية طريفة يرويها عن كل منصب من المناصب الحكومية، بحيث كان يبين كيف أنها بغيضة أو خاطئة أو غير فاعلة وحسب. أسوأ ما في الأمر هو أن روب كان واثقًا من أن هذه ليست حيلة دعائية مخطط لها بعناية، إذ كانت خبرات الرجل العجوز غريب الأطوار عشوائية كغيرها. لكن في الخلفية كان يقبع مِخطط تحليل

السبب الجذري بحيث كان الكل يرونه من وراء نظاراتهم. كان أحدهم قد أعاد رسمه على شكل شجرة حقيقية، ومع انتهاء كل قصة أو أغنية أو عمل فني كانت الأعمال تلصق عليه برابط تشعبي. لقد نجحوا في عرض قضيتهم، وهو ما حدث عندما بنى كل من في القاعة - ومن بينهم روب - الشجرة بشكل جماعي أول أمس. وهذا الصباح كان كل شيء يدور حول استيعاب التبعات، التي لم تكن جيدة من منظور روب.

لم يساعد روب كثيرًا شراؤه قميص الإبدال الحسي من منظِّم الجولة (ودفع مقابله بالجوايكوين)، وقد ساعده تيري في توصيله ببث المؤتمر الذي توقع أنه سيوجد هناك. الآن أمكنه أن «يشعر» بالشبكة المعقَّدة من القرابة والتاريخ المشترك والتحالفات التي عرَّفته بهويات الأشخاص الموجودين أمامه. وعبر نظارته كان يستطيع أن يرى أهرام السلطة والمال واضحة عن طريق الطبقات المتمردة. كانت كل التعقيدات التي تكتنف التاريخ والإلتزام والعمل والحكومة كلها هناك، يكاد باستطاعتك أن تمد يدك وتسحب الخيوط، وتديرها في هذا الاتجاه أو ذاك.

لذا حين اتصل كريشنامورتي وأخبره بما لديه، ابتسم روب في ارتياح. قال: «أشكرك». وهو يحرك شفتيه بأقل قدر ممكن. ثم بحثت عيناه عن تيري، الذي كان جالسًا مع الضيوف قرب الباب، لكن اختفت الابتسامة، فالأمر قد يسير على غير ما يرام.

ربما كان الوحيد الذي لم تدمع عيناه في القاعة بحلول وقت الغداء هو روب. كان عليه أن يقر بأن العروض كانت مقنعة بحق، فما رآه وسمعه هنا كان يصف على نحو تام كل ما هو خطأ بشان قانون الهنود ومائتي عام من الاستعمار، وبفضل التحليل السببي صارت الأسباب واضحة تمام الوضوح. قال تود وقد اعتلى المنصة مجددًا: «إذًا، يمكننا الآن الانتقال إلى المرحلتين الأخيرتين. أولًا: الإلتزام بالتغيير، وثانيًا: تحديد مسار العمل الفعلي الذي سنسلكه جميعنا من أجل علاج السبب الجذري للمشكلة. وهذا سوف يستغرق الجزء المتبقي من اليوم، والغد بأكمله».

- «لكن هذا لن يحدث، لأنني لن أكون هنا كي أوافق موافقة عمياء على أي من هذا». هكذا فكر روب في جدية. نهض روب مع البقية من أجل تناول الغداء بينما مفاصله تئن من رحلة الأمس بالقارب، ثم اتجه صوب الباب وهو يصافح مَن في طريقه كالمعتاد. وبطرف عينه رأى بعض ممثلي الصناعات الرئيسية وهم يتحدثون في هواتفهم الخلوية بحماسة بينما يسارعون نحو الأركان. من الواضح أن أمرًا سيئًا يحدث.

أمسك بتيري من ياقة قميصه في ساحة انتظار السيارات وقال له: «سِر معي».

ابتسم ابنه وأومأ في اتجاه الخليج. كانت المياه رمادية اليوم، وتعكس السحب الركامية المنخفضة. وبينما كانا يسيران قال تيري: «كان ذلك مدهشًا، أليس كذلك؟».

هز روب رأسه وتنهَّد ثم قال: «لقد تلقيت اتصالًا. نحن نعلم أن جنوح الناقلة لم يكن حادثًا عارضًا».

توقف تيري عن المشي، وبدت الصدمة على وجهه وقال: «اللعنة؟».

- «اللعنة لماذا؟ اللعنة لأن هذا كان حادثًا متعمدًا؟ أم اللعنة لأننا عرفنا ذلك؟ كنت تعرف منذ البداية».

- «أبي أرجوك». هكذا قال تيري وقد بدا مجروحًا.

- «ألهذا السبب اتصلت بي كي أبحث عن منزل معك؟ كي تأتي بي إلى فانكوفر في الوقت المناسب لكل هذا؟» - وأشار نحو المركز بكل ما فيه من أعمدة طوطم مهيبة - «كي أنهزم؟».

قال تيري وقد بدا غاضبًا الآن: «أتظن حقًّا أنني سأفعل ذلك».

- «حسنًا، أنت فرد من عائلة سكاي».

حدَّق تيري فيه لبضع لحظات، ثم ضحك وسأله: «إذًا ماذا سيحدث الآن؟».

- «الأمر جد خطير يا تيري، فلو قادتنا الأدلة إليك قد تُسجَن لوقت طويل».

- «لكن هذا لن يحدث، كلانا يعلم ذلك. علاوة على ذلك ...» ثم نظر تيري نحو المحيط وأضاف بجدية: «هناك دوريان لذلك».

- «تيري، لقد انتهى عملي هنا. حين يصير الأمر مُعلنا لا بد أن أنصرف. لا مزيد من المفاوضات. ستقول الحكومة إن هذه عملية ابتزاز، وستفشل مغامرتك الصغيرة».

هز تيري كتفيه وقال: «هناك دوريان لذلك أيضًا. ما الذي تقوله محاكاة كندا عن ذلك؟».

لم يكن يعلم. قال: «أنا ... اللعنة، من يهتم؟».

- «أنت محق، لا يهم الأمر». ثم عقد ذراعيه وبدت على وجهه أمارات التفكير وأضاف: «إذا انسحبتَ الآن سيستمر المؤتمر على أي حال، كل ما هنالك هو أنه لن يكون لديك أي رأي في النتائج. لكن بمقدورك أن تؤدي خدعة بسيطة، بحيث تبعد بعض مندوبي الصناعات الكبرى وذوي التوجه المحافظ وأتباع الحكومة. لكن مع ذلك فالبعض منهم مقتنعون الآن بما ينبغي عمله. أما عن البقية ... سيواصلون العمل ويوفون بالتزاماتهم. ربما تحافظ على قانون الهنود، لكن بعد اليوم لن يكون له أثر فعلي على أرض الواقع».

- «سنرى إن كان كلامك صحيحًا». قالها روب ثم استدار مبتعدًا. لكن ما إن خطا بضع خطوات حتى توقف مجددًا.

ثم سمع نفسه يقول: «هل تعلم لماذا لم آتِ إلى هنا من قبل؟» لم يكن يقصد قول هذا، لم يكن عليه أن يدافع عن نفسه.

انتظر تيري في صبر، لذا واصل روب حديثه في جدية.

قال: «إنها ليست جذوري. إنني أنا من أحدِّد جذوري. وهذه الأشياء التي تدافع عنها في براعة ... إنها ميتة. فلا يوجد شعب في العالم يمكنه أن يتماسك معًا عن طريق مجالس العشائر والرجال المسنين والرقصات التقليدية. لا يمكنك العودة في الزمن، فلقد تحرَّك العالم ولن يعيننا الجلوس حول نار التخييم واتخاذ القرارات بصورة جماعية في إدارة أحوالنا بشيء. الأمر بهذه البساطة».

نظر تيري نحو والده بمرارة وقال: «أتعلم... المرة الأولى التي زرتك فيها في مبنى البرلمان كنت أسير صاعدًا الدَّرج المفضي إلى الباب الرئيسي، وكل ما كنت أفكر فيه هو: «هذا مكان جميل. مصنوع من الحجارة»».

كان يسير في هدوء في اتجاه المياه.

تبعه روب عن بُعد وهو يستشيط غضبًا. ما الذي من المفترض أن يعنيه هذا بحق الجحيم؟ بالطبع مبنى البرلمان مشيد من الحجارة، فقد كان قديمًا ...

توقف بغتة وقال: «مهلًا لحظة!» لكن كان تيري أبعد من أن يسمعه. تعثَّرت الكلمات في فم روب، كان يحاول أن يقول: «أجل إنه قديم، لكنه ليس مجالس العشائر، ليس مثل حكمة المسنين المزعومة» لكن ابنه كان بعيدًا،

كما أن روب شعر بالعالم يدور من حوله، كان إحساسه بما هو قديم يتصادم مع ما هو جديد في قميصه الحسي اللعين.

بإمكانهم حظر الإبدال الحسي، لكن لا يزال أمامهم موقع Wegetit.com. ربما يمكن إغلاقه، لكن كانت هناك مواقع أخرى بالفعل تحاكيه. الشبكة التداخلية، الناقلات الشبكية الأوتوماتيكية، قواعد البيانات الموزعة ... لقد وجدوا سبيلهم إلى النطاقات القانونية بمختلف صورها. وهناك أيضًا الطبقات والتصميم الحواري المنظَّم ونيكسيتي والدوريانات، لقد خرج الجني من قمقمه، وسريعًا ما ستكون هناك تحسينات كثيرة، وسريعًا ما سيكون كل مواطن على اتصال بالإنترنت أو لا قادرًا على الوصول إلى صورة ما للمشهد السياسي لم يكن فيما سبق متاحًا الوصول إليها إلا لقلة قليلة من المواطنين، مثل روب.

لم يكن يرتدي نظارته، لكن كانت الصورة واضحة في خياله: صورة المستقبل الوحيد الذي سيتحقق. كان وجه حكومة جديدة يبزغ كالشمس فوق نار المعسكر وأشجار الصنوبر، فوق الردهات المشيَّدة من الحجر وخشب البلوط، حكومة لا تعتمد على تكنولوجيا وحيدة، ليس حتى على الإنترنت، وإنما على التراكم المتزايد لعشرات الوكزات الصغيرة والتقنيات والتطبيقات، ومئات الأفكار الجديدة في العلوم الإدراكية والسلوكية.

كان الأمر واضحًا الآن: لقد دُعي إلى هايدا جواي كنوع من المجاملة، بالطريقة نفسها التي دعا بها مرات عديدة أشخاصًا مسنين لحضور اجتماعات، كي يجعلهم يشعرون على نحو أفضل بينما العمل الحقيقي كان يدور في الكواليس بعيدًا عن أعينهم.

لم يكن سيخسر المفاوضات، ولم يكن سيغادرها بالمثل، فلم يكن في حقيقة الأمر جزءًا منها من الأساس.

كان جيفري يقف أمام المركز، عيناه زائغتان ونظرة القلق مرتسمة على وجهه. وحين لمح روب أسرع نحوه وقال: «لقد سمعت للتو. ما الذي سنفعله يا سيدي؟».

ندت عن روب تنهيدة أقرب ما تكون إلى الضحكة وقال: «سنفعل ما نفعله دومًا يا جيف.

بطريقة أو بأخرى علينا الحفاظ على استمرارية الحوار. لا يمكننا الاستسلام الآن.

لنعد إلى الداخل».

سيناريوهان عن مستقبل الطاقة الشمسية

أنالي نيوويتز

© 2013, Nina Miller / ASU

مدينة المحاكاة البيولوجية

وأنت تقود سيارتك داخلًا المدينة من الطريق السريع، ستبدو سيارتك أشبه بفيروس يحقن نفسه داخل خلية هائلة الحجم.

كلا، ليس هذا محض خيال؛ فمخطَّط المدينة يحاكي بالفعل هيكل خلية عضوية حية. وفي منتصف القرن الحادي والعشرين كانوا يطلقون على هذا اسم «التصميم الحضري الأيضي».

حين ترى اللافتات الاستشعارية الصفراء المتوهِّجة على جانب الطريق ستكون قد وصلت إلى الغشاء الخارجي. لا تتوافق قوانين الخصوصية على الدوام بشكل جيد مع القوانين البيئية، ولهذا السبب لدينا لافتات كبيرة قبيحة في كل مكان تحذر الناس من أننا نستخدم المراقبة كي نتأكد من عدم إفساد الأنظمة البيئية. إن غالبية تقنيات المراقبة البيئية لا يمكن استخدامها في تعقُّب الناس أو السيارات، لكن لا مفر من حدوث هذا أحيانًا.

لدينا مستشعرات دقيقة مترابطة تختبر مستويات الكربون وبخار الماء في الهواء، وتصور الحياة البرية، وتتشمَّم الهواء بحثًا عن أي مواد كيميائية. تكون المستشعرات صغيرة إلى درجة أنه لا يمكن رؤيتها، أو تكون مخفية ببراعة، لكن في بعض الأحيان ستلمح روبوتات على شكل عناكب أو كلاب تجوب التلال. تنقذ هذه الروبوتات الحيوانات التي فعلت شيئًا غبيًّا مثل التهام أحد المستشعرات، لكنها في أغلب الأحيان تعمل على إصلاح الشبكة وتمنع الناس من السير خارج الطرق الخاصة بهم. وإذا دخل شيء ما إلى الأنظمة البيئية هناك، سنعرف عنه في غضون ساعات قليلة. إن لدينا كمية من البيانات جُمعت على مدار قرنين عن التفاوت المتوقَّع في أشكال الحياة في المستنقعات والمناطق العشبية، وإذا حدث أمر غير معتاد سنعرف على الفور.

قد يصير الأمر مملًا بعد فترة من الوقت، لذا أقترح التحوُّل إلى البث المباشر لكاميرات تصوير الحيوانات. يمكنك أن تجد هذا البث على الصفحة الرئيسية لشبكة المدينة (سيتي نِت)، وهي من أكثر القنوات شعبية. يمكنك أن ترى هنا كل شيء بداية من أعشاش الصقور وكهوف الدببة إلى الثعالب وأرانب البيكا الصغيرة ذات الزغب المنفوش وكلاب البحر وثعالب الماء. لكن عليك بالحذر من الكاميرا التي ترصد الدببة الصغيرة، إذ يمكنها أن تأسرك أسرًا لمدة يوم كامل.

سترى أيضًا أشواكًا معدنية مغروسة في الأرض، وهي جزء من الشبكة الجيولوجية التي تبعث بتحذيرات مبكِّرة إلى المدينة عن الزلازل والبراكين. إلى الآن، أقصى وقت وصلنا إليه هو خمس دقائق قبل وقوع الزلزال، لكن بفضل أجهزة المراقبة الأفضل، سريعًا ما سنتمكَّن من التنبؤ بالزلازل قبل حدوثها بأعوام.

لاحظ أن الطرق مصنوعة من مادة رغوية، وستكون سيارتك متصلة بالشبكة المحلية. وهناك سترى حقول توليد الطاقة الشمسية وطاقة الرياح؛ فهي للخلية بمنزلة البلاستيدات الخضراء (أو الميتوكوندريا لو كنت تفضل الخلية الحيوانية). نحن نعيد استخدام كل شيء، لذا يوجد ما لا يقل عن خمسة أجيال من المولدات هناك. تتحرك أطباق وصفائح وألواح وبلاطات من مستجمعات الضوء ذات اللون الأسود الضارب إلى الزرقة مع الشمس، بعضها يُكبِّر الضوء بواسطة عدسات شفافة فوق أسطحها، بينما البعض الآخر مكشوف للضوء مباشرة. وهي تحوِّل الماء والكربون إلى وقود سائل. لطواحين الهواء نصال تحاكي في تصميمها أجنحة البوم، ولهذا تبدو وكأنه مغطاة بالأشواك. كانت صامتة تمامًا، وبدت وهي تخفق بأجنحتها فوق مولدات الوقود وكأنها طيور عجيبة من العصر الطباشيري.

كانت المياه المستخدمة في ري الحقول تأتي من جزء آخر من الخلية، حلقة من مصانع وورش ومزارع مختصة بإعادة التصنيع تعمل في دأب على الدوام. يمكنك أن تصفها بأنها سيتوبلازم المدينة، إذ إنها مليئة بالبروتينات والعُضَيَّات التي تعالج الطاقة والمخلفات وكل شيء آخر نحتاجه من أجل البقاء. يتم تبريد المصانع عن طريق خزانات المياه المعاد استخدامها والمعلّقة خارج جدرانها الخشبية الخشنة الشبيهة بجدران المستودعات، بينما يخرج بخار الماء من سقوفها. إن بخار الماء هو المنتج الجانبي الوحيد المسموح به في عمليات المعالجة الكيميائية. إلى جوار مصنع للمنتجات الزجاجية سترى حقلًا من أشجار اللوز، وإلى جواره يجري استزراع أنسجة اللحوم، حيث تستزرع شرائح عملاقة من أنسجة اللحم البقري ولحم الدجاج على منصات ترتفع من الأرض إلى السقف ذات لون كريمي. تحلق روبوتات على شكل صحون طائرة على أطراف المزارع الصغيرة، وتجمع المواد المعدنية الفائضة كي تُستخدم في طابعات المواد الخاصة بنا.

هذه هي الأماكن التي يأتي منها طعامنا وشرابنا، علاوة على الكثير من المواد الخام التي نستخدمها في طباعة كل شيء، من أجهزة الكمبيوتر إلى الأطباق وخِلال الأسنان.

معظم الناس يعاملون طابعاتهم وكأنها أجهزة سحرية، كما لو أنها تخلق لفائف ورق الحمام من الذرات العشوائية التي تطفو في الهواء من حولها. ولهذا السبب أنصح الزائرين دائمًا بالقيادة عبر ذلك السيتوبلازم، حتى يتسنى لهم أن يروا من أين تأتي المواد الخام بالفعل. فنحن نحصدها من الأرض، ومن النفايات المعاد تصنيعها. وبصرف النظر عما يقوله أنصار الحركة التفرُّدِيَّة فنحن لا نعيش في عصر ما بعد النُّدرة، إذ إننا نحصل على كل ذراتنا من الأماكن نفسها التي جاءت منها على الدوام، كل ما في الأمر أننا بتنا نستغلها على نحو أفضل مما كان يفعل الناس منذ مائة عام.

أعتقد أن عالِم بيولوجي مسن هو مَن قال إن النواة في حقيقتها ما هي إلا نتيجة غير مقصودة للعلاقات التكافلية الموجودة بين أجزاء الخلية المختلفة. وإذا فكرت في قلب المدينة بوصفه النواة، سيكون هذا صحيحًا بالتأكيد. فكلما اقتربت من الأماكن التي يعيش فيها الناس، رأيت المزيد من المصانع ووحدات إعادة التصنيع، ومن دونها لن تستطيع المدينة البقاء.

إذا وصلت إلى قمة التل الأخير سترى مشهدًا رائعًا للأبراج والقطارات وحدائق أسطح المنازل الموجودة في وسط المدينة، التي تنعكس على المياه الشفافة للخليج. تهيمن أبراج الخوادم على الأفق، وتجعلها مواسير تصريف

المياه التي تزحف على جوانبها تبدو وكأنها أجساد جميلة معروقة. يخترق السوق النهري قلب المدينة، إذ يلتمع سطح النهر بالقوارب والأضواء، وتمتلئ ضفتيه بمئات الأكشاك التي يمكن أن تشتري منها كل شيء، من التفاح إلى الدوائر الإلكترونية. تتدفق مياه النهر إلى الجنوب نحو مستنقع ميشن، حيث ترتفع المنازل والمتاجر الصغيرة حديثة الطراز والأرصفة على ركائز عالية فوق السبخ. يدوِّي صوت القطارات فضية اللون في الشوارع وتغوص في الأنفاق كي توفِّر أكبر مساحة ممكنة. وفي الليل تسطع نوادي الرقص والمطاعم ذات التصميمات الجنونية في منطقة وسط المدينة بأضوائها الحمراء والخضراء.

هذا هو المكان الذي تتلاقى فيه الإشارات، إنها الشفرة التي تنسق أعمال الخلية كلها. لكن سيكون من الخطأ القول بأن الجينوم هو الذي يحكم هذا الجسد المُخلَّق، فمن دون اتصال بينه وبين بقية الخلية، ستتعطل عملية الأيض داخل الخلية.

منذ مائة عام كانت هذه المدينة تتكون من نواة فقط، من دون سيتوبلازم. كان إنتاج الطاقة داخل الخلية، طعامها وغذاءها، يأتي من كل أنحاء العالم، قاطعًا آلاف الأميال في الغالب. كان الناس يستخدمون الطاقة من أجل شحن المزيد من الطاقة إلى الأماكن التي كانت تحتاجها، وفي ظل حالة إدمان الوقود الحفري التي كنَّا عليها، أعتقد أن أي شيء تقريبًا كان يبدو منطقيًّا. كم أحب النظر إلى مجموعات الصور التي تبين ما كانت عليه المدينة وقتها، حين كانت الشاحنات العملاقة تجلب الأشياء من كل مكان دون أن تخضع لأي رقابة.

الأمر الغريب هو كيف تبدو الأمور متشابهة أيضًا، خاصة داخل النواة. فالمباني أطول، وهناك المزيد من المزارع المسوَّرة. لكن منذ مائة عام كان بإمكانك أن ترى منظر الشارع عينه الذي أراه بالخارج الآن، الاختلاف الوحيد هو أن الأسوار مزوَّدة بمستشعرات وكل شخص يملك نوافذ من الخلايا الشمسية بدلًا من النوافذ الزجاجة. أيضًا نظام النقل رائع، وتبقي الروبوتات كل شيء نظيفًا. إن شبكة الطرق الأساسية هي ذاتها، ولا تزال البيوت عبارة عن صناديق مصنوعة من الخشب، وإذا تعثَّرت في مشيك وأنت خارج من حانة في حالة من الثمالة التامة في الثانية صباحًا، ثمة قناة تصريف لتنهار فيها.

نسيت أن أذكر أنه سيكون عليك أن توقف سيارتك خارج منطقة وسط المدينة، على أن تستقل القطار داخلها. توجد في المعتاد بعض الدراجات الكهربائية التي توفرها المدينة للاستخدام العام لو كنت ترغب في إحداها، ولم

يكن الضباب شديدًا لدرجة تمنعك من ركوبها. تذكّر أن تظل على الطريق الرغوي، إذ إن ركوب الدراجة خارج الطريق يفسد تنوع النظام البيئي المحلي. وبالتأكيد أنت لا ترغب في تلقِّي مخالفة قبل أن تصل إلى وسط المدينة!

الحياة في الأطلال

آسف لأنني تأخَّرت.

حين يكون الدور دوري كي أغذِّي المطبخ أستغرق وقتًا أطول في الوصول إلى العمل في الصباح. كانت منظومة الهواء الخاصة بجيراننا في الدور السفلي آخذة في التداعي، وأيًّا كان ما يؤثر على البكتيريا الزرقاء الخاصة بهم فهو يؤثِّر على تلك الخاصة بنا بالمثل. أعتقد أن علينا الاتصال بالبستاني.

حين أكشط الفلتر تنفصل الأجزاء السوداء على صورة قشور. أجهِّز مزرعة جديدة، وأرش طبقة من المغذِّيات وأضع فوقها بعض البكتيريا الزرقاء التي أتيت بها من مصنع التخمير الصغير في أول الشارع. وبمجرَّد أن أعيد الأشياء كلها إلى الفتحة الخاصة بها فوق الحوض يكون لدي وقت بالكاد كي أغتسل لو أنني أردت اللحاق بالقطار الذاهب إلى وسط المدينة. وإذا سار كل شيء على ما يرام، فحين أعود إلى المنزل سأجد مزرعة بكتيرية مزدهرة وسنتنفس هواءً دافئًا عذبًا. كما أننا سنخفض مستويات الكربون مجدَّدًا، وهو ما يعني عددًا أقل من الوجوه الحزينة في شهر أبريل، شهر تقديم الإقرارات الضريبية.

في حوض الاستحمام أغتسل سريعًا، ثم أضع بضع ملاعق من ماء الاستحمام المتسخ في جهاز التفاعل البيولوجي بالحمام. إن إهدار ميكروبات الجلد ليس فكرة طيبة، فلن تعرف مطلقًا متى قد تصير ذات نفع لك. بعد ذلك أنشِّف جسدي، وأرتدي بنطال الجينز الذي ارتديته بالأمس، ثم أطوي الأرصفة طيًّا في طريقي مسرعًا نحو محطة القطار.

حين نظرتُ من النافذة بينما كان القطار يعبر النهر، تذكَّرت مجدَّدًا لماذا انتقلت إلى هنا منذ عشر سنوات. إن المكان رائع. وعلى مسافة كان بإمكاني رؤية المستودعات القصيرة نصف الشفافة التي تضم معامل تخمير البكتيريا الزرقاء، التي تجهِّز لنا الوقود. أحب أن أتخيَّل أنني أستطيع رؤية أعمدة الأكسجين التي تطلقها البكتيريا في الهواء، تلك الجزيئات الخفية التي تجعل كوكبنا صالحًا للحياة.

أمامي توجد التلال القاسية لمنطقة الأعمال، تلك التلال المنحوتة بشكل مثالي بارتفاع أربعمائة متر، ومنحدراتها الطينية مغطَّاة بكتلة متشابكة من النباتات المعترشة والحشائش والهوائيات والسلالم المتحرِّكة البطيئة. أحب المدينة ذات التاريخ القديم، ولهذه المدينة تاريخ يمتد لأكثر من ألف سنة. لا أحد يعلم الكثير عن البشر الأوائل الذين استوطنوا المنطقة، لكن لا يزال بمقدورك أن تزور أطلال التلال البالية الخاصة بهم على الجانب الشرقي من النهر. إنهم لم يعيشوا داخل التلال وإنما بنوا قراهم وميادين مدينتهم في ظلال تلك التلال العملاقة وحولوا مجرى النهر من أجل ري مزارعهم.

لقد سمعت على الأرجح أنه منذ مائتي عام كان ثمة تناقض صارخ بين تلال الشرق ومباني الجانب الغربي. في العصر الصناعي، كانت المدينة كلها تُدار بالكربون الأحفوري - إذ كان الفحم صناعة محلية ضخمة - وكل شيء كان مُصمَّمًا كي يتوافق مع هذا الشكل من التكنولوجيا، لذا كانت توجد مناجم بدلًا من معامل تخمير البكتيريا الزرقاء.

علاوة على ذلك، كانت المباني غبية. فإذا تشققت الخرسانة المصنوع منها الجسر، كان أمره ينتهي. لم يكن بمقدور الجسر إصلاح ذاته، وكان عليك هدمه تمامًا وإهدار كل تلك المواد الخام بالتبعية. كانت الطرق تصنع من القطران، وكانت المنازل ميتة تمامًا من الداخل. كانت هناك صناعات كاملة مكرَّسة من أجل «السيطرة على الآفات»، وهو ما كان يعني في حقيقته تدمير كل الحشرات والعفن والحيوانات والميكروبات التي كرَّست لتوِّي هذا الصباح بأكمله من أجل الحفاظ عليها في حالة جيدة.

تصوَّر عالمًا مختلفًا تمام الاختلاف، عالمًا بنى فيه الناس كل شيء بأيديهم وباستخدام آلات غبية. وكما كان عمِّي المعادي للتكنولوجيا الحديثة سيذكِّرني دون شك، فإن الجميع كان لديهم حرية أكبر، لأنه لم تكن توجد ضرائب على الكربون وضوابط تنظيمية لاستخدام الميكروبات. لكن كانت الرعاية الصحية شديدة السوء، والطعام مقزِّزًا، وكان الجميع يعيشون داخل مبانٍ تنهار بشكل متواصل.

نزلت من القطار في وسط المدينة واشتريت قدحًا من مشروب المتَّة الساخن، وأنا أسير بين العنزات التي أطلقوها في الشارع كي تشذِّب الحشائش. لا بد أنني جائع لأنني أخذت أفكر: جبن الماعز، مممممم جبن الماعز. لم أتناول فطوري مجدَّدًا. كوَّرت القدح الفارغ وألقيته على الحشائش، وانتظرت لحظة كي أرى ما إن كانت إحدى العنزات ستصل إليه قبل أن تبدأ

عملية التحلل. خسرت العنزة هذه المرة، إذ بدأ القدح في التنسل إلى خيوط زغبية من المغذيات النباتية، بعدها تذكرت أنني كنت متأخِّرًا عن موعدي.

اكتسب التل الذي أعمل به سمة غير معتادة منذ نحو ثلاثين عامًا خلال عاصفة موسمية شديدة السوء، إذ كان المطر شديدًا لدرجة أن طبقات التربة بلت وعرضت الخرسانة إلى الشمس. كانت الخرسانة مصنوعة من مادة ذكية من نوع ما مصممة للتفاعل مع الضوء، ثم حدث أمر غير متوقَّع، حيث بدأت المناطق المكشوفة في النمو، وكأنها نوع من السرطان. وحين أوقفت فرق الإصلاح عملية الأيض الخاص بها كانت قد تكوَّنت رقعة ضخمة غير منتظمة الشكل من الخرسانة امتدت من السقف إلى الأرض، وكانت تتخذ الشكل عينه الذي يتَّخذه جدول من الماء الفائض.

يطلق المهندسون الذين يعملون في هذا التل عليه اسم «تل الندبة»، وهي طريقتنا كي نذكِّر أنفسنا بألا نستخدم مواد فيروسية. إننا نصنِّع مستشعرات بيئية دقيقة الحجم من أغلفة فيروسية معدَّلة وراثيًّا، وهذا يعني أننا نعتمد على خيط صغير من الحمض النووي الريبوزي (الآر إن إيه) الذي يستحيل التنبُّؤ بسلوكه أحيانًا في تصنيع منتجنا النهائي. وبالتأكيد نحن لا نريد لمصفوفة استشعار ما أن تعطينا قراءات خاطئة، لأننا نسينا أن نثبط أحد المسارات الرئيسية في تعبيرها الجيني. كنت أفكِّر في هذا بينما أمر بيدي على ماسح موجود إلى جوار بوابة عند منتصف الندبة. ترقَّق غشاء البوابة وسمح لي بالمرور.

إن مكتبي مضاء بضوء معاد توجيهه من فتحات التهوية. لحسن الحظ فإن من كانت تشغل المكتب من قبلي زخرفت السقف بنجوم، وقد استخدمت طحالب ذات ألوان مختلفة كي تنتج حقلًا متوهِّجًا من النجوم الصفراء على خلفية زرقاء داكنة. يبدو المكتب كغرفة نوم طفل، لكنني أحبه. فإذا لم يكن باستطاعتك رؤية النهر، فعلى الأقل يمكن أن تكون هذه الأضواء جميلة. أما السجادة فهي عبارة عن بساط من الحشائش المعدَّلة وراثيًّا بحيث لا تطول عن اللازم أو تصير خشنة. ذات يوم سأتوصل إلى طريقة لتعديل كل شيء هنا كي يمتص كل الأجزاء الميتة، وذلك حتى لا يتعين عليَّ تنظيف جهاز العرض الضوئي من بقايا النباتات المتناثرة كل صباح.

أصعد على المشَّاية الكهربائية وأبدأ المشي. ينبض جهاز العرض بالحياة ويعرض عددًا من الرسائل غير المقروءة في الهواء أمامي، فأبدأ في التنقل بينها واحدة تلو الأخرى بإشارة من يدي.

فندق في أنتاركتيكا

جيفري إيه لانديس

Nina Miller / ASU ,2013 ©

ربما بدأ الأمر في اليوم الذي فشلت فيه شركة الليزر خاصته، اليوم الذي انطلق فيه أقرب أصدقائه - صلاح الدين - إلى الشرق على دراجته البخارية مصطحبًا معه الفتاة التي كان يحلم إيزاك سيرني منذ زمن بأن تكون خليلته. وبينما كان يقف على الرصيف ينتظر المحامين وسيارات الشرطة كي تأخذ كل ما عمل من أجله، أخذ يشاهد شروق الشمس ويتساءل عما سيفعل بعد ذلك.

قضى زاك الليلة في أحد الفنادق. كانت بطاقاته الائتمانية غير ذات جدوى، وإن لم يكن البنك قد أوقفها بعد بدعوى الاحتيال. لم تكن فاتورة الفندق إلا لتضيف بضعة أرقام قلائل إلى إفلاسه الملحمي. كان سيبلغ الثلاثين عامًا بعد بضعة أيام.

لم يكن قد فكَّر قبل ذلك كثيرًا في أمر الفنادق، لكن بعد انهيار شركته ودخوله في دائرة مفرغة من الأفكار عديمة المعنى، كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكنه التشبُّث به. كان بحاجة إلى التفكير في شيء ما وإلا سيجن جنونه، لذا فقد درس الفندق، فندق ميستري ماجستيك في لونج أيلاند، بالتفصيل الشديد. كم سيكون الأمر مختلفًا لو كان الفندق على القمر؟ على المريخ؟ في المدار الخارجي للأرض؟ قرَّر أن الأمر قد يفلح، قد يفلح بحق.

قال: «أنا رجل أعمال مغامر، يمكنني عمل ذلك». كان في منتصف ظهيرة أحد أيام العمل، وكان وحيدًا في غرفة فندق أعلى بثلاث نجوم ما يمكنه تحمل تكلفته، وكان يحدِّث نفسه. سار إلى جوار الفراش الكبير، وفتح الأبواب الزجاجية المنزلقة وخطا إلى شرفة صغيرة، ثم صرخ أمام المحيط: «يمكنني عمل ذلك».

أو ربما بدأ الأمر قبل هذا بفترة طويلة، في الصيف السابق على عامه الثاني في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. كانوا قد غرسوا البذرة، وظل زاك يحملها معه طوال تلك السنوات.

بدأ الأمر في تلك الجلسة التي امتدت الليل بطوله في الردهة الواقعة خارج حجرات مهاجعهم. كانوا أصغر من السن القانوني لشرب الكحوليات، لكن بفضل بعض الخريجين الفرنسيين الذين لم يأبهوا كثيرًا بالقواعد الأمريكية الخاصة بالكحوليات كانت مجموعة صغيرة منهم تقتسم برميلًا صغيرًا من جعة ناراجانسيت. كان زاك يشرح كيفية استيطان المريخ، وهو أمر استفاض فيه بتفصيل كبير، بداية من أنظمة معالجة وإعادة توليد الهواء وصولًا إلى منظومة الصرف الصحي. وفي كل نقطة كان صلاح الدين، المتشائم دومًا، يقول أمورًا على غرار: «أنت لا تعلم ذلك». و«لم يُختبَر هذا من قبل قط». و«ماذا لو تعطّلت المنظومة واحتجت قطع غيار لا تمتلكها هناك؟» وفي النهاية قدَّم صلاح الدين رأيه قائلًا: «انظر يا زاك، إن بيئة المريخ أكثر عدائية بكثير مما تتخيَّل. إنها أبرد من أنتاركتيكا، والهواء بها شحيح للغاية، أقل حتى من قمة جبل إفرست، وهي أشد جفافًا من صحراء موهافي، وأصعب في الوصول إليها من قاع خندق ماريانا. أنت تقول إن الناس سيعيشون هناك، وأن هذا قدرنا، صحيح؟ لا بأس. فإذا كنا بحاجة إلى المساحة إلى هذه الدرجة، فلماذا لا نبني وحدات سكنية في أنتاركتيكا؟ لماذا لا نشيد مدنًا في قاع المحيط الهادئ؟ لماذا لا نستوطن صحراء جوبي؟ هذه الأماكن أيسر استيطانًا بكثير من المريخ، ومع ذلك لا يعيش بها أحد».

- «ثمة أناس يعيشون في صحراء جوبي».

- «ربما بمعدل شخص واحد لكل مائة ميل مربع، أتدري إلى أي مدى صحراء جوبي كبيرة الحجم؟ إنها خاوية».

- «ثمة أناس يعيشون في أنتاركتيكا كذلك».

- «أجل، صحيح، في المحطات العلمية. أعني بحديثي الناس الذي «يعيشون» هناك حقًّا، وليس فقط العلماء الذاهبين إلى هناك في رحلات تخييم مجيدة.

أتظن أن البشرية تحتاج إلى مزيد من المساحة؟ ثمة قارة بأكملها لم نستغلها بعد.

أتظن أن بإمكانك بناء مستعمرة على المريخ؟ فلتثبت ذلك. ابن فندقًا على قمة جبل إفرست، أو في قارة أنتاركتيكا. سيكون هذا أيسر مائة مرة، لكنه سيظل شديد الصعوبة مع ذلك. فندق في أنتاركتيكا، سيبين لي هذا أنك تدري ما تفعل يا زاك. يمكنك أن تسمِّي هذا البرهان الحاسم».

- «لا تكن سخيفًا. من ذا الذي يمكنك إقناعه بالمكوث في فندق في أنتاركتيكا؟».

نظر حوله بحثًا عن الدعم، لكن لدهشته وجد عددًا من زملائه يومئون برؤوسهم استحسانًا للفكرة، ثم قال أحدهم، وهو شاب نسيَ زاك اسمه منذ زمن بعيد: «أنا سأذهب». ثم قال آخر: «بالتأكيد. فالتزلج على الجليد هناك رائع، ولتبن هناك كوخًا للتزلج». وقال آخر: «البطاريق». في الوقت عينه الذي قال فيه رابع: «يمكن ترتيب رحلات لمشاهدة أضواء الشفق القطبي».

قال صلاح الدين: «أرأيت؟ ها هو الجواب. السياحة المتطرفة. [(14)] إن لديك سوقًا، فشيد فندقًا هناك».

قال زاك: «طلاب جامعيون ثملون. أهذا هو السوق؟».

«ابن الفندق وسيأتيك الناس».

بعد نحو اثني عشر عامًا أخرج زاك سيرني من مكتب مصنوع من خشب الماهوجني المقلَّد ورقةً من مجموعة أدوات الكتابة التي يوفرها الفندق، ذلك الفندق الذي لم يكن يستطيع تحمل تكلفة المكوث فيه. وتحت العنوان «فندق ميستري» كتب: «فندق في أنتاركتيكا (1) لأنه أمر رائع. (2) لأن أحدًا لم يفعله من قبل. (3) لأنه يحمل البشرية إلى تخوم جديدة. (4) لأنه خطوة على طريق استيطان المريخ. (5) من أجل كسب المال. (6) لأنه من الرائع للغاية، علاوة على مشاهدة البطاريق». ثم كتب بعد ذلك: «سيرغب الناس في ذلك». ثم رسم دائرتين حول هذه الكلمات وكتب في الهامش: «يجب التركيز على هذه النقطة!».

كان درج المكتب يحوي نسخة مطبوعة من السيرة الذاتية لجاجدار ميستري، مؤسِّس سلسلة الفنادق. كانت نسخة طبق الأصل موضوعة في كل غرفة من

غرف الفندق، وكانت بمنزلة مادة دعائية موجَّهة لرجال الأعمال بعد أن ينتهوا من قراءة صحيفة وول ستريت جورنال. كان شعار المؤسِّس مطبوعًا بخط عريض على الغلاف: «ما يسميه الآخرون عقبات، أسميه أنا خطوات على طريق التقدم!».

تصفَّح زاك الكتاب من أجل الاطلاع على تفاصيل ذات صلة، ثم استدار إلى حاسبه المحمول. كانت لديه ثماني نوافذ مفتوحة بالفعل، تعرض نتائج بحث عن السمات الجغرافية والبيئية لأنتاركتيكا. فتح نافذة متصفح جديدة وكتب: «جاجدار ميستري». جرب جوجل أولًا ثم لينكد إن. كان يعرف الكثير من الأشخاص، وفي موضع ما من شبكة أصدقائه ومعارفه وأصدقاء أصدقاءه كان هناك شخص ما يمكن أن يوصله بجاجدار ميستري.

كان لجاجدار ميستري شعر رمادي ذو لمعة فضية مصفَّف بمجفِّف الشعر جعله يبدو مثل شخصية العم في أفلام الإثارة البوليوودية، لكن بخلاف ذلك كان له جسد رجل أصغر عمرًا بكثير، وعضلات تكشف عن تدرُّبه على نحو منتظم مع مدرب اللياقة البدنية الخاص به. كان يرتدي بنطالًا من الجينز وتي شيرتًا، فحين تكون مليارديرًا يمتلك سلسة فنادق فاخرة في عشرين بلدًا، من الواضح أنك لا تهتم بما يعتقده أي شخص بشأن كيفية ملبسك.

قال ميستري: «أخبرني أصدقائي أنه ينبغي لي الحديث معك. لذا أخبرني، لماذا يجب عليَّ ذلك؟».

- «أريد أن أخبرك عن فكرة ...».

أشاح ميستري بيده وقال: «نعم، نعم. أنت تريد بناء مستعمرة فضائية. لقد قرأت العرض الذي قدمته، الأمر محض جنون».

قاطعه زاك قائلًا: «إنها ليست فكرة مجنونة. المستعمرة الفضائية مجرَّد مثال. الأمر متعلِّق بالمحيط الحيوي القابل لدعم ذاته بما يمكننا من العيش في بيئات معادية. إن أنتاركتيكا ...».

رفع ميستري يده وقال: «ليس لدي مشكلة مع الأفكار المجنونة. وكون فكرتك مجنونة لن يجعلها منفِّرة في نظري يا سيد سيرني ...» توقَّف لحظة ثم أضاف: «سيد سيرني، هذا أسلوب رسمي، وأنا لا أحب الرسميات. هل يمكنني أن أخاطبك بإيزاك؟».

- «زاك فقط».

- «زاك، ممتاز. رجاء خاطبني بجيري. الآن يا زاك، إن أفكارك مجنونة. أنتاركتيكا! فنادق فضائية! مجنونة بحق. لكني أحب الأفكار المجنونة، وسأسمح لك بأن تقنعني. وربما لا تكون فكرتك مجنونة بالكامل في نهاية المطاف».

- «إنها ليست كذلك».

قال ميستري: «دعني أخبرك بأمر. لقد صنعت ثروة صغيرة من بناء الفنادق الفاخرة التي تخدم سوق السياحة المتطرِّفة. كان فندقي الأول في شيانج ماي يخدم السياح المحبين لارتياد الأدغال، أنت تعلم هذا، أليس كذلك؟ لقد قرأت كتابي، رائع، أرى أنك جهزت نفسك جيدًا. إن السياح يحبون الأفيال». ثم أشار بيده نحو جدار مكتبه، والذي كان مغطى بصور ملتقطة في العديد من الفنادق المختلفة، ونصفها تقريبًا يظهر حيوانات برية، ويظهر سياح يركبون أفيالًا في صورتين منها. «لقد بُني فندق شيانج ماي على ظهور الأفيال، ليس حرفيًّا بالطبع. الجميع يحبون الأفيال، إنها حيوانات رائعة. أما عن البطاريق، فأتوقع أن بعض الناس سيدفعون المال للمرح معها، نعم. وهناك التزلج بطبيعة الحال، خاصة حين يحل الصيف في اليابان وأميركا.

أنا غير مهتم بسياحة الفضاء، لكن أنتاركتيكا؟ إنها فكرة مجنونة لكن لها وقع طيب. هذا هو الجنون الذي أحبه».

مال ميستري بظهره إلى الوراء وهو جالس على كرسيه وشبَّك أصابع يديه وأضاف: «لكن السؤال هو: لماذا ينبغي أن أتحدَّث معك من الأساس؟ لقد أعطيتني الفكرة بالفعل».

بدأ زاك في الاعتراض لكن زاك رفع يده طلبًا للصمت مجدَّدًا وقال: «نعم، لقد منحتني الفكرة. إن الأفكار غير خاضعة لحقوق المِلكية، وبمجرد أن أرسلت إليَّ عرضك لم تعد الفكرة ملكك. لقد قرأتُ سيرتك الذاتية. لقد حصلتَ على درجة جامعية في الفيزياء من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، هذا مثير للإعجاب، كما عملت لصالح عدد من شركات التكنولوجيا الصغيرة. بعد ذلك استقلت كي تؤسس شركتك الخاصة، لكنك فشلت وأفلست تمامًا. الآن، ربما تعجبني فكرتك، فندق في أنتاركتيكا، فأنا أحب الجرأة. أجدها فكرة ساحرة في حقيقة الأمر».

ثم مال إلى الأمام وأسند مرفقيه على المكتب وقال: «لكني لا أعتقد أنك تعرف شيئًا عن بناء الفنادق. فلماذا أريدك معي؟».

نظر زاك في عينيه، فبادله ميستري النظر وانتظر جوابه. قال زاك: «أنت لا تعلم. أنت لا تعلم هذا عني». كان ينطق كل كلمة على نحو منفصل، كما لو كانت جملة مستقلة بذاتها. «سوف. أنجح. في. هذا. الأمر».

استرخى ميستري في كرسيه وضحك ثم قال: «ممتاز! حقًّا هذا شيء رائع. يعجبني ذلك اليقين الذي تتمتَّع به. لقد فشلتُ في أول شركتين لي، أتعلم ذلك؟ أنا لا أرى أن الفشل ينتقص منك، ما دمت قد تعلمت ما تحتاج إلى معرفته. وهذا ما أبحث عنه في أي شخص. لقد حصلت على الوظيفة، لقد أقنعتني».

قال زاك: «كنت أفكر في العمل كمستشار. يمكنني أن ...».

قاطعه ميستري قائلًا: «آسف، فما دمت تعمل معي فستعمل تحت إمرتي. وأنا أؤكد لك أنني ما دمت راضيًا عن عملك فستحصل على الراتب الذي يرضيك. إنني أتسم بهذا الأمر يا زاك - ربما يكون عيبًا في شخصيتي وربما لا - فأنا أطالب بالسيطرة الكاملة. وهذا أمر غير قابل للتفاوض».

حدَّق ميستري في زاك بثبات، ولوهلة لم يتحدَّث أيهما. وفي النهاية كسر زاك جدار الصمت وقال: «موافق».

ابتسم ميستري وقال: «رائع. رائع جدًّا. الآن، ثمة أشخاص أريدك أن تقابلهم ...».

اتضح أن «الأشخاص الذي يريده ميستري أن يقابلهم» هم في واقع الأمر امرأة في الستينات من عمرها: السيدة جين بيندر. كانت ترتدي نظَّارة ضخمة، وبدت في نظره متجهمة طوال الوقت. قال ميستري لزاك: «إنني اثق بالسيدة بيندر في كل شيء. وأيًّا كان ما تقوله لك، فلتعلم علم اليقين أنني أقول الشيء عينه».

عاد زاك وميستري إلى مكتب الأخير، في الجناح العلوي بالفندق المصمَّم على طراز آرت ديكو المعماري في مدينة ميامي بيتش، وبينما كان زاك يتحدَّث أخذ ميستري ينجز كومة كبيرة من الأعمال الورقية بوتيرة منتظمة، وحسبما تراءى لزاك فقد كان يوقِّع عليها من دون أن ينظر فيها.

سأله زاك: «ما الذي تفعله جين؟ فيمَ سأحتاجها؟».

قال ميستري: «كل شيء».

- «أهي مهندسة معمارية؟ مهندسة إنشاءات؟ مديرة للفندق؟ ماذا تفعل تحديدًا؟».

- «إذا كان هذا ما ستحتاجه أنت، فالجواب هو نعم».

- «لا يمكن أن تكون خبيرة في كل شيء».

- «بل هي تستطيع بكل تأكيد، فهي تستأجر الخبراء».

- «لكن ما الذي تفعله هي؟».

- «صديقي زاك، قد تكون أفكارك مجنونة، وأخبرتك أنني أحب ذلك. لكن هناك شيئًا واحدًا لا يمكن أن يكون مجنونًا. إنها السيدة بيندر. إن مهمة السيدة بيندر هي التأكد من أن الشيء الذي لا يصيبه الجنون هو المال. فالسيدة بيندر هي المحاسبة الخاصة بك».

قال زاك: «عظيم. محاسبة. وهل هي التي تدير كل شيء؟».

ربَّت ميستري على كتفه وقال: «أنتما الاثنان ستكونان صديقين حميمين».

قبل أن يغادر ميستري - إذ من الظاهر أنه لا يقضي أكثر من بضعة أيام في المكان عينه - أمر بإخلاء طابق كامل من طوابق فندق ميامي بيتش، وحوَّل قاعة مؤتمرات ضخمة إلى غرفة عمليات من أجل الخبراء الذين ستستعين بهم السيدة بيندر، ومنحها مكتبًا ذا نافذة زجاجية كبيرة تطل على الشاطئ، ومنح زاك مكتبًا يطل جهة الغرب على الممر المائي الساحلي، لكن بخلاف ذلك كان معظم الطابق خاليًا. كان زاك يجلس إلى مكتب ضخم خالٍ وهو يتساءل عما يُفترض به عمله حين تأتي السيدة بيندر إلى مكتبه. كان يخط بعض الرسومات لقباب هيكلية حين دخلت عليه وهي تحمل كومة من المنشورات الدعائية الملونة ذات الورق المصقول، ثم وضعتها بحرص على المكتب قبل أن تستدير إليه وتتحدَّث.

قالت السيدة بيندر: «أخبرني السيد ميستري أن عليَّ أن أتأكد من أنك لا تقضي وقتك في استكشاف الفضاء الخارجي. وقد أخبرني أنك ستصمِّم فندقًا في أنتاركتيكا، وهو مكان مقفر. لست واثقة أنه أفضل كثيرًا من الفضاء الخارجي. كم عدد الوحدات التي تتوقَّع بناءها؟ وما نسبة الإشغال التي تعتقد أنك ستستطيع تحقيقها؟ وما تقديراتك بخصوص هامش الربح المتوقَّع لكل وحدة؟».

قال زاك في ثقة: «ستكون نسبة الإشغال مائة في المائة. لا أعرف التفاصيل بعد، لكني أعلم يقينًا أنه سينجح».

نظرت إليه من فوق إطار نظارتها وقالت: «ألا تتضمَّن خطة العمل الخاصة بك عدد الوحدات؟».

- «ليست لديَّ خطة عمل. فهناك متغيرات عديدة ...».

خلعت نظارتها ومسحتها بطرف بلوزتها وقالت: «ليس لديك خطة عمل».

- «آسف، لا. لم أكن يومًا من المغرمين بخطط العمل. أحب الأشياء الملموسة ...».

- «ليس لديك خطة عمل. مممممم، أخبرني السيد ميستري أن مشروعك السابق قد فشل. أعتقد أنني أرى السبب».

أطرق برأسه وقال: «أنا ...».

- «إن خطة العمل شيء حقيقي ملموس يا سيد سيرني. شأنها شأن الجوارب أو الصواريخ».

- «ما العمل إذن؟».

- «ماذا؟ أعتقد أن علينا رسم خطة عمل».

- «لا أجيد هذه النوعية من الأمور».

- «ثق بي يا سيد سيرني». ثم نظرت إلى نظارتها النظيفة تمامًا الآن، ثم وضعتها في حافظة صغيرة وأضافت: «ستكون رائعة».

كانت المنشورات الدعائية التي تركتها على المكتب عبارة عن نشرات إعلانية من الورق المصقول تروِّج لنطاق عريض من الأنشطة السياحية المتطرِّفة، من القفز بالحبال في غابات هندوراس المطيرة إلى القفز بالمظلات من أعلى ناطحة سحاب في سنغافورة. كان هذا هو تصورها للسوق المستهدف.

رغمًا عنه شعر بالإعجاب لصلابتها. بدا أن قائمة اتصالاتها تضم أشخاصًا من كل أنحاء العالم، بما فيهم الوكلاء السياحيين المتخصِّصين في ترتيب الإجازات

في أخطر مناطق العالم وأقلها من حيث الراحة. كما أنها وجدت قائمة بالسفن السياحية التي تقدم جولات في أنتاركتيكا ووضعت جدولًا ممتدًا تحلل فيه أسماء السفن وعدد السفن المبحرة والأوقات التي تبحر فيها كل عام، كما أوردت تقديرات بشأن نسب إشغال القُمرات، ومدة الرحلة، والسعر وهامش الربح لكل مسافر.

قالت له: «أرى أنك عثرت على شريحة سوقية قابلة صالحة للعمل عليها. لم يكن لديَّ فكرة عن هذا الأمر. إن أكثر من ثمانين شركة تقدِّم رحلات بالسفن وجولات في أنتاركتيكا. ومع ذلك فالموسم السياحي هناك قصير؛ إذ يبدأ في نوفمبر وينتهي في أبريل، أي أربعة أو خمسة أشهر وحسب».

قال زاك: «ضوء الشمس. بعد شهر أبريل يصبح النهار قصيرًا للغاية».

أومأت السيدة بيندر وقالت: «هذا صحيح. وبما أنها خدمة قائمة على السفن، فعليهم الانتظار حتى ذوبان الجليد. سنحتاج إلى خدمة انتقال بالطائرات».

- «كنت أفكر في هذا بالفعل».

- «سنبني مهبطًا للطائرات، ورصيفًا لتحميل السفن أيضًا، فنحن نريد تلك السفن السياحية كذلك».

قال زاك: «بالطبع».

- «السوق الحالي للسياحة في أنتاركتيكا يبلغ خمسين ألف سائح سنويًّا. في العام الأول سنهدف إلى اقتناص نسبة عشرين بالمائة من هذا السوق. في حالة الإشغال المزدوج والإقامة لمدة خمس أيام، ستكون لدينا خمسة وعشرين ألف ليلة سكنية، وإذا كان سعر الليلة ألف دولار، سيعني هذا عائدًا سنويًّا مقداره خمسة وعشرون مليون دولار».

- «خمسة وعشرون مليون دولار في العام الواحد؟».

قالت: «إلى جانب الربح القادم من بيع الأنشطة السياحية. وإذا بلغت نسبة الإشغال خمسين بالمائة، في حالة الموسم السياحي الممتد لخمسة أشهر فقط، سنحتاج إلى ما يزيد على الثلاثمائة غرفة بقليل. هذه هي خطتك الأساسية يا سيد سيرني».

شعر زاك أن رأسه يدور، قال: «أأنتِ واثقة؟».

نظرت إليه وأجابت: «بالطبع أنا لست واثقة. لو كانت لديَّ بلورة سحرية لاستخدمتها، لكن إلى أن تصير لديَّ واحدة سأكتفي بالعمل على الأرقام التي لديَّ».

قال زاك: «خمسة وعشرون مليون دولار. ينبغي أن أطلب راتبًا أعلى».

نظرت السيدة بيندر إليه من فوق إطار نظارتها، وهي الإيماءة التي بدأ زاك يدرك أنها تعني أنه قال شيئًا شديد الغباء، وقالت: «هذا هو الدخل الإجمالي يا سيد سيرني، وليس صافي الربح. وراتبك لن يأتي من هذا المال، ولا راتبي. لا توجد عمالة محلية تعمل بالحد الأدنى للأجور كي تشغِّل الفندق، لذا سيكون تشغيل الفندق مكلِّفًا للغاية.

هذا فقط كي ندخل السوق. وبمجرد أن نثبِّت أقدامنا، على المدى البعيد، سنحتاج إلى زيادة هذا السوق، وإطالة الموسم السياحي. ولن يأتي الربح إلا حين نضاعف حجم عملنا عشر مرات. إننا نريد كل متزلِّج في أوربا أن يقضي الشتاء في أنتاركتيكا، وإذا فعلنا هذا سنجني المال الوفير».

قال زاك: «مائة ألف سائح؟».

نظرت إليه وقالت: «ولا تنسَ إسكان الموظفين كذلك. لقد قلت إنك تريد مدينة كاملة. ها هي مدينتك، فقط لو استطعت أن تبنيها».

- «أستطيع أن أبنيها».

قالت السيدة بيندر: «سنرى إن كان هذا صحيحًا. لكن أولًا هناك الكثير من العمل».

قال زاك: «علينا أن نبني الفندق وحسب. إن فعل الشيء هو دائمًا السبيل الأمثل لتعلم كيفية عمله».

خلعت السيدة بيندر نظارتها وقالت: «نبنيه وحسب».

- «نعم؛ فنحن نتعلَّم من الخبرة، وليس من التحليلات اللانهائية».

وجدت أحد مناديل المائدة المتخلِّفة عن الغداء، فشرعت في مسح زجاج نظارتها بها وقالت: «لا يمكنك «أن تبنيه وحسب»».

- «أجل أجل، أعلم هذا. علينا أن نقتل الأمر بحثًا وتحليلًا أولًا. اسمعي، لنبنِ الفندق وحسب. أنتِ تخشين أن تسير الأمور على غير ما يرام، أليس كذلك؟ لَا بأس، قد نخطئ في بعض الأمور، لكننا سنصلحها. وسنتعلم أثناء المحاولة».

- «وأين تحديدًا يمكننا «أن نبنيه وحسب»؟».

هز زاك كتفيه وقال: «نعثر على مكان ما، لا يهم أين، ما دام في أنتاركتيكا».

- «ومن يملك المنطقة؟ مِمَّن سنشتري حقوق المِلكية؟».

- «لا أحد يمتلك أنتاركتيكا. فحين نبني الفندق سيكون الموضع ملكنا، بحق وضع اليد! أتظنين أن شخصًا سيأتي ببلدوزر ويهدم الفندق؟ لا أظن أن هناك أي بلدوزر في أنتاركتيكا».

- «سيد سيرني، أنت لا تفقه شيئًا في القانون الدولي. إن وضع اليد بهذه الطريقة لن يجعل مطلبك قانونيًّا أمام أي محكمة دولية في العالم. وقبل أن يستثمر السيد ميستري مليار دولار في بناء الفندق، يجب أن يكون متأكدًا من أن هناك دولة واحدة على الأقل في العالم تقر بحقنا في البناء على هذه البقعة. وفي الوقت الحالي، أعتقد أن الأرجنتين هي تلك الدولة، فهي تطالب بتبعية جزء كبير من أنتاركتيكا لها، وسنتعاون معهم».

- «لم أفكر في هذا الأمر».

قالت السيدة بيندر: «توقَّعت ألا يكون هذا قد دار بخلدك، ولهذا السبب فقد استعنت بفريق مختص.

حين تكون المليار دولار الموضوعة على المحك أموالك أنت يا سيد سيرني سيكون لك الحق بالتأكيد في «أن تبنيه وحسب»، لكن في الوقت الحالي لدينا عمل يجب القيام به».

لم تكن الأزمة التالية متعلِّقة بحقوق المِلكية. فحين جاء زاك إلى الفندق في اليوم التالي وجد الواجهة الجصية للمبنى وقد كُتب عليها بطلاء أحمر ساطع عبارات مثل: «أنقذوا البطاريق» و«لا تسمحوا للشركات الأميركية باغتصاب أنتاركتيكا» و«اتركوا أنتاركتيكا لحالها».

أخبرته السيدة بيندر: «لقد أعلمنا السيد ميستري بما حدث، وسيأتي بالطائرة من جزر المارتينيك. إنه ليس سعيدًا بما حدث».

وبالفعل لم يكن ميستري سعيدًا. دخل المكتب دون أن يرافقه معاونوه المعتادون، وألقى مجلة رفيعة على طاولة الاجتماع، فتبعثرت كومة من الرسومات التي كان زاك يعمل عليها، وكانت تخص مركبات جليدية بدت وكأنها بيضات كبيرة على عجلات، وقال: «من بحق الجحيم سرَّب خططنا لهؤلاء المهرجين؟».

نظر زاك إلى السيدة بيندر ثم التقط المجلة. كان اسمها «رينبو إيرث!» وكان غلافها يحمل صورة بالألوان الطبيعية لبطاريق صغيرة مغطاة بالزَّغب بدت مرتبكة حين وجدت نفسها تحدق في الكاميرا. كانت هناك ورقة ملصقة وردية اللون تميز إحدى الصفحات في المنتصف، وفتح زاك هذه الصفحة. كان العنوان العريض يقول «فندق في أنتاركتيكا؟» وأدناه كان مكتوبًا بخط أصغر قليلًا: «لو نجح ملياردير الفنادق جاجدار ميستري في مسعاه، فإن آخر قارة بِكر على كوكب الأرض توشك على الخراب». كان الاسم المكتوب أسفل المقال هو «آنيل إيرث». وفي الصفحة المقابلة كانت هناك صورة لبطريق إلى جوار صورة لمكب نفايات، وفي الخلفية صورة لفندق. كان الشعار على الفندق، «ميستري أكابولكو»، ظاهرًا بوضوح.

زمجر ميستري قائلًا: «الصورة معدلة ببرنامج فوتوشوب، فأنا لا أبني فنادقي إلى جوار مكبات النفايات. سأقاضي هؤلاء الأوغاد بتهمة التشهير».

ردَّت عليه السيدة بيندر في هدوء قائلة: «لن تفعل هذا. أنت تعلم أن هذا تحديدًا هو ما يريدونه». ثم التقطت المجلة وتفحصتها عن كثب وأضافت: «إنتاج عالي القيمة، أمر مثير للإعجاب».

- «اللعنة على إنتاجهم عالي القيمة». ثم نظر مباشرة إلى زاك وقال: «من الذي سرَّب خططنا؟».

كان زاك قد نشر لتوِّه ورقة بحثية فنية في دورية أكتا أسترونوتيكا يقارن فيها بين متطلبات إنشاء قاعدة قمرية ومتطلبات إنشاء فندق في أنتاركتيكا، مزودًا بها تحليلًا تفصيليًا لعملية إعادة تدوير الفضلات السائلة. وقد أدرك بغتة أن نشر خططه قد لا يكون فكرة سديدة، فحدق في الأرض وقال في حرج: «أخشى أنني ربما ...».

قاطعت السيدة بيندر حديثه، إذ ألقت المجلة على الطاولة وقالت: «ليست لديهم أي تفاصيل، إنه محض تخمين جامح. إنهم يتصيَّدون الأخبار، فقد سمعوا الشائعات، وها هم يطلقون هذه الاتهامات جزافًا كي يروا إن كنا سنستجيب لها».

- «أي شائعات؟».

هزَّت السيدة بيندر كتفيها وقالت: «أي شيء. إننا نتحدَّث مع جمعية كوستو طلبًا للنصائح بشأن الغوص في مياه أنتاركتيكا، ولا شك أن لديهم صلة بمجلة

رينبو إيرث هذه، أو برابطة أنتاركتيكا لمنظمي الجولات السياحية أو عشرات من الأشخاص الآخرين».

- «أنتِ تقولين لي إن كل شخص قابلتيه يعرف أننا نضع أعيننا على أنتاركتيكا؟».

نظرت السيدة بيندر إلى ميستري من فوق إطار نظارتها وقالت: «إننا نبني فندقًا يا سيد ميستري. ولو كنت تخال أننا عملاء سريون، أخشى أنك ستكون مخطئًا في هذا».

- «على الأقل حاولوا التكتم».

قالت: «لا جدوى من التكتم. في الوقت الحالي ستفيدنا الدعاية، لو كانت في الأماكن المناسبة. وهذا ...» ثم نقرت بإصبعها على المجلة، «هو المكان المناسب بكل تأكيد».

قال ميستري: «كيف بحق الجحيم؟ إنهم يقولون إنني أخطِّط لتجريف الأراضي هناك، اللعنة انظري إلى هذا. إنهم يلمحون إلى أنني سأغتصب الدببة القطبية الصغيرة وأسلخ فراءها عن جثثها كي أجعل السياح يشعرون بالدفء». ثم توقف للحظة وأردف: «هل هناك دببة قطبية من الأساس في أنتاركتيكا؟».

قالت السيدة بيندر: «أعتقد أنها مزحة لا أكثر، وأرى أنك تسيء فهم الأمر. هذا هو الجمهور الذي نريد مخاطبته، وهم يقومون بالمهمة بدلًا منا، بل أفضل مما لو فعلناها بأنفسنا». ثم التقطت المجلة مجدَّدًا وقلبت الصفحة تلو الأخرى، وكانت تظهر جبالًا مغطَّاة بالجليد وصورًا من تحت الماء لبطاريق تسبح في رشاقة أسفل السطح. «هذا منجم ذهب. من يبالي بما يقوله المحرِّر؟ إن هذا يخاطب جمهورنا المستهدف على النحو الأمثل. إنهم يقومون بأعمال الدعاية بدلًا منا».

قال ميستري: «أنتِ مجنونة». ثم التقط المجلة ونظر إليها مجدَّدًا وأضاف: «حقًّا؟».

قالت السيدة بيندر: «إن اعتراضهم في حد ذاته يوضح أنهم يعتقدون أن الفكرة تستحق السعي وراءها».

كانوا يعملون في الفناء المفتوح للطابق الثالث للفندق. كانت السيدة بيندر قد أصرَّت على أنهم ما داموا في ميامي، فحريٌّ بهم أن يعملوا في الهواء الطلق حين يكون الجو ملائمًا. كان تعريفها لوصف «ملائم» محل اختلاف، نظرًا لأن الجو كان حارًّا، حتى في شهر أكتوبر. كان السياح قد رحلوا بالكامل تقريبًا وكان الفناء خاليًا. كانت الأوراق، المثبَّتة في مواضعها بأصداف المحار، منتشرة على عدد من الطاولات، وكل واحدة منها مزودة بشمسية حمراء وبيضاء خاصة بها.

كان المشروب المميز للبار هو المارجريتا، وكان لديهم عشرون نوعًا منه. بيد أن زاك كان يشرب البيبسي، وكانت السيدة بيندر تشرب المياه الغازية المعدنية. كانت ترتدي فستانًا صيفيًّا عليه زهور باللونين الأزرق والأصفر وقد استعاضت عن نظارتها المعتادة بنظارة شمسية ذات عدستين داكنتين مماثلتين في الحجم. كان زاك يرتدي قميصًا فضفاضًا ذا ألوان مبهرجة. بدأ يشعر أنه يحب فلوريدا، بل إنه بات يعتقد أن السيدة بيندر لا بأس بها، مقارنة بغيرها من المحاسبين. لم يستجمع شجاعته قط كي يسألها عن السيد بيندر، ولم تتطرَّق هي إلى هذا الموضوع من نفسها قط.

كانت المفاوضات المتعلِّقة بالمفاعل النووي تسير على نحو سيئ. كانت خطة زاك قائمة على خطط ناسا لبناء مفاعل يدعى SP-100 مصمم لتزويد إحدى القواعد القمرية بالطاقة، الذي اتضح أن حجمه مثالي للفندق. في نسخة ناسا كانت الحرارة الفائضة من المفاعل تُطلَق بعيدًا في الفضاء، لكن في التصميم الخاص به كان من المفترض تدويرها من خلال مواسير للمياه الساخنة بحيث تبقي المسكن دافئًا. لكن للأسف وجد صعوبة بسبب القواعد التي تمنع استيراد التكنولوجيا النووية. وبما أن الخطة كانت تقتضي بناء الفندق في الجزء الذي تطالب الأرجنتين بتبعيته لها من أنتاركتيكا، ورغم أن لا شيء في التصميم كان سريًّا، فإنهم فشلوا تمامًا في مسعاهم للحصول على تصريح التصدير من وزارة الخارجية الأميركية.

إلا أن السيدة بيندر أوكلت بعض معارفها بالعمل على حل المشكلة، ووجدت حلًّا غير مباشر: فقد كانت البحرية الأوكرانية تمتلك طرَّادًا بحريًّا سوفييتيًّا يعمل بالطاقة النووية. كان الطراد ثقيلًا وبطيئًا وفق المعايير الحربية الحديثة، ولم يكن تسليحه كافيًا، ولم يكن مفيدًا في أي معارك بحرية. بيد أنه كان يحمل داخله مفاعلًا نوويًّا من تصميم الجيش السوفييتي: فكان بسيطًا وقويًّا ولا يحتاج صيانة تقريبًا. وأهم ما في الأمر أن السلطات الأوكرانية كانت سعيدة ببيع ذلك الطراد، بعد تجريده من أسلحته، بسعر لا يعلو كثيرًا على سعر الحديد الخردة، مادام تعهَّد المشتري بأنه سيأخذه بعيدًا عنها ولن يعيده إليها مطلقًا.

لخَّصت السيدة بيندر الأمر قائلة: «ليس شديد الكفاءة بالمعايير الأمريكية، لكنه يحل مشكلة نقله إلى أنتاركتيكا».

قال زاك: «إن الكفاءة المنقوصة منفعة إضافية، فهذا يعني أن مزيدًا من الطاقة سيتبدد على صورة حرارة، وسنسعد كل سعادة بالحرارة التي يستطيع توليدها».

قالت: «لكنه فريد من نوعه. وعندما نتوسع سيتعين علينا أن نحل المشكلة من جديد».

قال زاك: «سنحلها بالطريقة نفسها. لا بد أن الروس لديهم أطنان من مخلفات الحرب الباردة التي لا يستطيعون الخلاص منها. غواصات، حاملات طائرات، من يدري؟».

قالت السيدة بيندر: «سأستعلم عن الأمر».

«الموقع ثم الموقع ثم الموقع»، هذا هو شعار عالم العقارات. قالت السيدة بيندر: «وفي حالة الفنادق تكون أهمية الموقع مضاعفة».

على قمة قائمة الخصائص المطلوبة كانت البطاريق؛ فمن شأن الجولات السياحية إلى إحدى مستعمرات البطاريق أن تمثِّل مصدر الجذب الرئيسي. وقد صار ذلك الجزء من البحث أيسر حين عثرا، في مجلة علمية مغمورة، على خريطة لفضلات البطاريق. كانت المخلفات المتراكمة لعشرات الآلاف من البطاريق التي تقضي أربعة أشهر في موقعها الشتوي تترك بصمة طيفية مميزة في صور الأقمار الصناعية. وقد صنع العلماء صورًا موسعة توضِّح مستعمرات البطاريق في أنتاركتيكا.

علاوة على ذلك، كانا يريدان موقعًا به إمكانات تزلُّج جيدة، وكان هذا يعني أن يكون إلى الجنوب بما يكفي بحيث تكون المنحدرات مغطَّاة بالثلوج حتى في ذروة فصل الصيف. احتاج الموقع إلى مرفأ جيد، لاستقبال سفن البضائع والركاب على السواء، ولركوب الزلاجات المائية. وفي النهاية كانا بحاجة إلى سهل مستوٍ يكون كبيرًا بما يكفي كي يستضيف ممر إقلاع وهبوط بطول تسعة آلاف قدم، حتى يتسنى لهم جلب الطائرات النفَّاثة المليئة بالسياح، رغم أن هذا لن يحدث إلا بعد افتتاح الفندق ببضع سنوات.

كانت معارف ميستري في الأرجنتين متحمِّسين بشأن رعاية الفندق بوصفها فرصة للتأكيد على مطالبات الأرجنتين بتبعية هذه المنطقة لها. لكن بعد دراسة

بعض الخرائط وصور الأقمار الصناعية، لم يكن أي من المواقع المرشحة يقع في المناطق التي تطالب الأرجنتين بتبعيتها لها.

كانت المنطقة التي استقروا عليها في النهاية تقع ضمن الأراضي التي تطالب بها نيوزيلندا، على بحر روس جنوب شبه جزيرة آدار. كانت المنطقة تقع في حضن سلسلة الجبال العابرة للقارة القطبية الجنوبية من ناحية، وكان لها مرفأ طبيعي على الجانب الآخر.

قالت السيدة بيندر: «ربما تكون المطالبة بالأرض وفق القانون النيوزيلندي أفضل لنا على أي حال. فمن الأيسر التفاوض حين نتحدث اللغة نفسها».

- «هذا لو كنت تسميها لغة واحدة».

قالت: «لدينا بالفعل ثلاثة فنادق في نيوزيلندا، وبوسعنا معرفة التصاريح اللازمة. وإجمالًا، أعتقد أن الموقع يروق لي». ثم نظرت إليه وأضافت: «لقد حل الصيف في أنتاركتيكا. ألديك خطط لقضاء الكريسماس؟».

في الواقع كان زاك قد تلقَّى خطابًا من كايلا وصلاح الدين. خطاب ورقي! كان أمرًا مستغربًا، لكنه كان قد توقَّف عن استخدام عنوان بريده الإلكتروني القديم بعد إفلاس شركته وضياع ماله، وعلى الأرجح لم تكن أمامهما وسيلة أخرى للاتصال به. وجَّها له الدعوة لقضاء عطلة الكريسماس معهما. لكن لو أنهما كانا سعيدين معًا فمن شأن هذا أن يصيبه بالضيق، ولو كانا قد انفصلا - كان صلاح الدين، رغم كل شيء، لا يزال صديقه الحميم - فسيضايقه الأمر أكثر. ثم ما الذي سيفعلونه؟ يسترجعون ذكريات الأيام الخوالي، حين كانوا يستنفدون كل بطاقة ائتمانية إلى حدها الأقصى ويحصلون على كل قرض يمكن الحصول عليه في محاولة يائسة لمنع شركته من الانهيار قبل إطلاقها؟

قال زاك: «كلا، ليست لديَّ أي خطط».

اكتشف زاك أن الاستعداد لزيارة أنتاركتيكا يشبه كثيرًا الاستعداد لزيارة القمر. كانوا قد نقلوا قاعدة عملياتهم إلى فندق ميستري أوريتي في إنفركارجل بنيوزيلندا، وهو الفندق الواقع أقصى الجنوب من سلسلة فنادق ميستري. سوف يستخدم ميستري هذا الفندق في إرسال السياح إلى أنتاركتيكا، ومن ثم فقد كانت الرحلة بصورة ما بمنزلة تجربة عملية.

استغرقت رحلة الطائرة من ميامي أكثر من ثلاثين ساعة على متن طائرة فيرجين أستراليا، وكانت الرحلة الأخيرة على متن طائرة إير نيوزيلندا، لكن

ميستري حجز لهما في درجة رجال الأعمال بدلًا من أن يجلسا محشورين في المقاعد الصغيرة وكأنهما أنعام تُساق إلى الذبح. هناك مزايا بالتأكيد للعمل مع ملياردير. قضى زاك مدة الرحلة وهو يفكر في الانتقال، هل يمكنهم إرسال السياح إلى أنتاركتيكا في مناطيد. في الماضي كان المنطاد هندنبرج ينقل المسافرين من ألمانيا إلى ريو دي جانيرو، لذا من الممكن نقلهم من ميامي إلى أنتاركتيكا. أجرى بعض الحسابات وخطَّ بعض التصميمات. قضت السيدة بيندر مدة الرحلة هي الأخرى وهي تعمل على حاسبها المحمول، لكن لم يتبيَّن زاك ما كانت تعمل عليه.

بمجرد وصولهما كان أول شيء يخص العمل هو إعداد التجهيزات الخاصة بالرحلة. كانت هناك قائمة بالمعدات «المُقترحة» التي توفرها قاعدة سكوت، تلك المحطة العلمية النيوزيلندية التي ستكون محطة التوقف الأولى لهما. تكونت قائمة الملابس من ثمانية وعشرين بندًا، ابتداءً من الملابس الداخلية الطويلة ثم الصعود طبقة تلو الأخرى حتى الطبقة الخارجية. كان لا بد من تجربة كل قطعة ملابس، من أجل التحقُّق من أنها تتوافق مع طبقات الملابس من تحتها وأنها كانت واسعة بما يكفي حتى تسمح بحرية الحركة.

تذمَّر زاك قائلًا: «إنها أشبه بالبذلة الفضائية».

قالت السيدة بيندر: «هذا هو ما طلبته أنت».

قال: «أفكر في التدفئة عن طريق موجات الميكروويف. بإمكاننا أن نصنع هوائيات ميكروويف ذات مصفوفات مرحلية بحيث ترسل شعاعًا منخفض الطاقة يعمل على تدفئة البذلات. فما من حاجة لأن تكون ملابس أنتاركتيكا أثقل مما ينبغي».

- «قد يجد السياح هذا أمرًا مرعبًا».

- «سنزودها بدائرة للتغذية الراجعة كي نضمن أنها لن تسخن زيادة على اللزوم، كما سنزودها بنظارات حماية عاكسة كي نمنع أشعة الميكروويف من دخول العين. هذا هو الجزء الوحيد من الجسم الذي يتأثر حقًّا بأشعة الميكروويف».

كانت السيدة بيندر تتفقد قفازها. ورغم أنه لم يكن يعتقد بالتأكيد أنها معتادة على التزلج، فقد وجد أنها ارتدت الكثير من الملابس التي تقي من الطقس المتطرف.

قال زاك: «أنت تعلمين أنه ليس من الضروري أن تأتي في هذه الجولة الاستكشافية، أليس كذلك؟».

- «هذا لُطف منك، لكنني أحب أن أرى المنطقة قبل أن نستثمر المال فيها. ستندهش من مقدار الأشياء التي لن تراها إلا إذا ذهبت بنفسك لرؤيتها».

- «سنلتقط صورًا للمنطقة، الكثير من الصور. لست بحاجة إلى الذهاب إلى هناك شخصيًّا».

هزت السيدة بيندر كتفيها وقالت: «سأكون بخير. لا أتوقَّع أنها ستكون أسوأ من الرحلة الاستكشافية الخاصة بفندق جبل إفرست».

قال زاك في دهشة: «هل أردتم بناء فندق على قمة جبل إفرست؟».

- «لقد استكشفنا الموقع. بدت الأرباح المتوقعة هامشية، وكانت هناك تعقيدات سياسية، لذا صرفنا النظر عنه».

قال زاك: «اللعنة، وأنا الذي كنت أظن أن فكرتي مجنونة». كان كلامها هذا يفسِّر عدة الطقس البارد التي ترتديها فأضاف: «لقد اخترتُ أنتاركتيكا لأنني ظننت أن إفرست صعبة للغاية».

على الجانب المقابل من الشارع كانت تنتصب أمام الفندق لوحة إعلانية ضخمة عليها صور لبطاريق وشعار كبير يقول: «أنقذوا أنتاركتيكا من أجل الحيوانات». حدَّق زاك من النافذة وقال: «هذا هو تحالف رينبو إيرث. إن الأشخاص الذين يديرون المجلة معترضون على بناء الفندق. هل يعلمون أننا هنا؟».

قالت السيدة بيندر: «آنيل إيرث هو من يدير هذه المنظمة. وما دام يعرف أننا نخطط للبناء في أنتاركتيكا، فمن الممكن أنه خمَّن أننا سنأتي إلى هنا أولًا».

قال زاك: «لا يمكن أن يكون هذا اسمه الحقيقي».

- «لا يسعني أن أعرف. لكن الأمر لا يحتاج عبقريًّا كي يخمِّن أين سنقيم، وحسب ما يرد في الصحف فإن هذا الرجل شديد الذكاء. أو ربما يكون الأمر كله مصادفة».

قال زاك: «الأمر مثير للقلق نوعًا ما. أليس هو الرجل نفسه الذي أتلف تلك السفينة اليابانية لصيد الحيتان؟».

قالت: «أعتقد أنها كانت مجموعة مختلفة. وأظن أن هؤلاء الأشخاص يضايقون السفن وحسب، فيدورون حول سفن صيد الحيتان بزوارقهم البخارية ويصيحون تجاهها مستخدمين ميكروفونات قوية».

«عظيم».

كانت رحلتهما إلى الجنوب على متن كاسحة جليد تحمل العلم الأسترالي وتُدعى أوبال ستار. خرجت سفينة تابعة لمنظمة رنبو إيرث من الميناء وتتبعتهم من بعيد.

تضمَّن الفريق الذي استأجرته السيدة بيندر كمعاونين مهندسًا مدنيًّا من العاملين بالفندق، وعالمة متخصِّصة في الجيولوجيا القطبية وعالمة أحياء وطيَّارًا. كانت أسماؤهم، كما علم لاحقًا، هي أشانتي وأنيتا وألكسندر وستيف، لكنه نسيَ بالفعل من منهم يفعل ماذا. وحين كان يدور في خلده أي سؤال كان يختار أحدهم عشوائيًّا ويسأله.

أثناء مغادرتهم ميناء بلاف كان الطقس جميلًا وبدا المشهد وكأنه مأخوذ من بطاقة بريدية موضوعها قضاء عطلة في نيوزيلندا. وقف زاك عند حافة مؤخِّرة كاسحة الجليد وشاهد سفينة رينبو إيرث وهي تتبعهم على مسافة ربع الميل. كان طولها يبلغ نحو مائة قدم، وكانت سفينة قديمة لكن من الواضح أنها قوية، وكانت مدهونة باللون البرتقالي وبها نقاط سوداء كجلد الفهد.

كان ستيف - أم تراه كان ألكسندر - ينظر عبر منظار مقرب استعاره من أحد أفراد الطاقم. سأله زاك: «هل يمكنك أن ترى ما هو مكتوب على الرايات؟».

قام ستيف - بفرض أن هذا هو ستيف حقًّا - بضبط بؤرة التركيز وقال: «الراية الموجودة على الجانب مكتوب عليها «الناس قبل الربح»». ثم أنزل المنظار المقرِّب ورفع يده كي يحمي عينيه من أشعة الشمس.

استعار زاك المنظار المقرب. بات الآن بمقدوره أن يقرأ اسم السفينة، «إيرث أفنجر»، وأمكنه أن يرى قاربين بخاريين مطاطيين لونهما أصفر فاقع معلقين على أحد جوانب السفينة. كان قد رأى هذه السفينة على التلفاز. كانت سفينة قديمة لخفر السواحل أعادت منظمة رينبو إيرث تجهيزها بغرض التحرش بناقلات النفط وسفن صيد الحيتان ومراكب الصيد العاملة في المياه

الممنوع فيها الصيد. كان أعضاء منظمة رينبو رجالًا أخيارًا وفق كل الروايات الإخبارية، وشعر بالاستغراب من أنهم يتتبعونه.

قال: «إنهم يتتبعوننا. لا أظن أن هذا من قبيل المصادفة».

قال ستيف: «أجل».

- «تبدو سفينتهم أسرع من سفينتنا».

- «أجل».

ركز زاك المنظار المقرب على الرجل الواقف على مقدمة السفينة. كان في الثلاثين من عمره تقريبًا، له لحية مكتملة وشعر كستنائي طويل ويرتدي قميصًا مصبوغًا به دوائر من اللونين الأخضر والأزرق. قال زاك: «إنه يحدِّق بنا».

- «من؟».

- «آنيل إيرث».

لفت زاك انتباه الطاقم إلى السفينة التي تتبعهم، لكن كان الجواب الوحيد هو: «لقد لاحظنا ذلك». وحين واصل إثارة الأمر أخبره القبطان: «إنه محيط مفتوح. لو واصلوا تتبعنا ليوم آخر ربما أحدِّثهم باللاسلكي وأسألهم عن غرضهم من ذلك».

بمجرد خروجهم إلى المحيط، سرعان ما صارت الرحلة مملَّة. عاد زاك إلى قمرته وأخرج حاسبه المحمول كي يؤدي بعض العمل، لكن في ضوء اهتزاز السفينة وجد أنه لو ركَّز بصره على الشاشة فسوف يصاب بالغثيان. ستكون رحلة طويلة.

خلال رحلة الطائرة السابقة خطرت على بال زاك فكرة جديدة: سيُبنى الفندق من الجليد. ليس مقصودًا بهذا العناصر الإنشائية الأساسية - فستتكون هذه من دعامات مصنوعة من الصلب القوي - ولكن حين يُوضع الجليد كغطاء خارجي بعد طبقة عازلة مفرغة من الهواء فإنه سيوفِّر طبقة ثانية من العزل ويقوي المبنى في الوقت ذاته. سيكون شفَّافًا كي يسمح بدخول الضوء الطبيعي، وسيجعل المبنى يبدو وكأنه جزء من المشهد الطبيعي. كما سيكون شكله مذهلًا وهو يتلألأ تحت ضوء الشمس.

وفي الليل يمكنهم تسليط أضواء الليزر عليه، سيكون المشهد مهيبًا.

شعر أنه بحاجة إلى إجراء بعض التصميمات، وأن يخرج الفكرة في شكل ملموس، لذا تجاهل دوار البحر وعاود العمل على حاسبه.

بعد بضعة أيام بدؤوا في رؤية الجليد. لم يتخيَّل زاك من قبل أن جبل الجليد يتَّسم بهذا اللون الأزرق البللوري المذهل. حدَّق في الجليد بانبهار، بينما جاءت السيدة بيندر ووقفت إلى جواره.

قال: «أهو طبيعي؟ هل لجبال الجليد هذا اللون في المعتاد؟».

- «أعتقد هذا».

أشارت جهة اليسار وقالت: «ومع ذلك فأنت تنظر في الاتجاه الخاطئ، انظر هناك».

حدَّق في الاتجاه الذي تشير إليه وسألها: «أين؟».

«إلى يسار جبل الجليد ذاك، أترى نوافير المياه المندفعة؟».

- «نعم».

- «انتظر لحظة، حسنًا ... الآن، أتراها؟ إنها حيتان».

- «يا إلهي!».

بعد ظهور جبال الجليد الأولى بقليل توقَّفت السفينة إيرث أفنجر عن تتبعهم، ربما لأن القبطان أراد تجنب الجبال الجليدية المدمرة للسفن، أو ربما لأن آنيل إيرث كان مهتمًّا أكثر بتتبع الحيتان.

بينما اقتربت كاسحة الجليد من بحر روس، لاح ساحل أنتاركتيكا من جهة الميمنة، فبدت قمم الجبال وكأنها أضراس بيضاء وامضة لعمالقة قدماء. شقوا طريقهم بين الجبال، كل جبل منها أضخم من السابق عليه، ولم يسبق لزاك، الذي انحصرت خبرته بالجبال في السفوح الخفيضة لجبال الأبالاش، أن رأى شيئًا كهذا.

خلافًا للتوقعات، لم يتعيَّن عليهم تكسير الجليد كي يصلوا إلى قاعدة سكوت. قالت أشانتي (تساءل زاك عما إذا كانت هي متخصصة في الجيولوجيا القطبية

أم الطيارة): «لقد كان الربيع دافئًا». كان البحر مغطّى بقطع متكسِّرة من الجليد، لكن الجليد الوحيد الذي تعيَّن عليهم تكسيره كان يتحطَّم فتاتًا ما إن تمسه مقدمة السفينة. «ليس الجليد رقيقًا هكذا في المعتاد».

قالت السيدة بيندر: «هذه أخبار طيبة لنا». كانت قد قضت معظم وقت الرحلة في قمرتها، ربما تعاني من دوار البحر، أو ربما كانت تنجز أعمالًا متراكمة لا نهاية لها. وقد انضمت لهم على السطح وهم في الطريق إلى قاعدة سكوت.

بعد أن غادروا السفينة نُقلوا عبر الأميال الأخيرة إلى قاعدة سكوت بواسطة ما أُطلق عليه «التاكسي». وقد اتضح أن هذا التاكسي كان في حقيقته ناقل جنود من صنع شركة تويوتا، مدهونًا باللون الأحمر الساطع، ويسير على قضبان على الثلوج بدلًا من الإطارات. كانت قاعدة سكوت عبارة عن مجموعة من المباني المدهونة باللون الأخضر الضارب إلى الصفرة والمتناثرة بلا انتظام عند سفح أحد التلال. تساءل زاك بصوت مرتفع: «لماذا بحق السماء اختاروا هذا اللون؟».

قالت السيدة بيندر: «كي تسهل رؤيتها، ويصير من الصعب أن تتوه عنها».

- «كيف لأحد أن يتوه؟ إنها جزيرة».

هزت السيدة بيندر كتفيها.

قال ستيف: «إذا كنت تعتقد أن هذا المكان قبيح، عليك برؤية قاعدة ماك موردو».

قالت السيدة بيندر: «لقد اتخذنا قرارًا صحيحًا من الناحية الجمالية حين استبعدنا هذا الموقع من المواقع المرشحة لبناء الفندق».

استقبلهم في قاعدة سكوت رجل ضخم الجثة ذو لحية كثة يكاد لونها البرتقالي يناهز لون الجاكت عديم الأكمام الذي كان يرتديه. كان ينادي كل واحد منهم بكلمة «صاح» وقدم لهم نفسه بأنه الدكتور كذا أو كيت، وكان يتحدَّث بلكنة قوية بدت وكأنها دمدمة أسكتلندية. حملوا أمتعتهم إلى مهاجعهم، حيث كانت الحجرات الصغيرة مزوَّدة بأسرَّة مثبَّتة في الجدران ومعلَّقًا عليها زينة كريسماس قديمة.

إلا أنهم لم يعتزموا البقاء طويلًا في القاعدة. وفي الصباح - بقدر ما كان هناك صباح في ذلك المكان الذي لا تغادر فيه الشمس الأفق - كان عليهم الذهاب إلى التدريب الميداني القطبي، وهي دورة تدريبية إجبارية للأشخاص الذين يصلون إلى القاعدة. بعد ذلك كان عليهم أن يركبوا طائرة صغيرة من طراز توين أوتر من أجل رحلتهم الاستكشافية.

بعد اكتمال التدريب أوصلهم العالِم ذو اللحية البرتقالية إلى ممر الإقلاع، وهو قسم من الجليد تمت تسويته بواسطة الجرَّارات. ألقى العالم بتعليق عابر استطاع زاك أن يفهمه بعد أن تأقلم مع أحرف العلة القصيرة للكنة التي يتحدَّث بها. كان فحوى تعليقه أنه يحب أنتاركتيكا، ويحب فكرة وجود فندق بها، وكان يرى أن على كل شخص في العالم أن يزورها، كما قال إن الطقس دافئ للغاية بالنسبة لهذا الوقت من العام. قال: «إذن ستذهبون لإلقاء نظرة على تلك المرتفعات، أليس كذلك؟ يوم جميل يا صاح، هذا يوم جميل».

لم يكن زاك ليصف اليوم بأنه «جميل» لكنه رأى أن التحذيرات الشديدة التي مفادها أن عليهم ارتداء سترات الفراء الثقيلة متعدِّدة الطبقات وإلا سيموتون من البرد كان مبالغًا فيها، وأنها تؤدي إلى إخافة الناس وإبعادهم عن أنتاركتيكا بدلًا من أن تكون نصائح سفر عملية. لم يكن الجو في قاعدة سكوت أشد برودة من شتاء بارد في بوسطن.

كانت رحلتهم الأولى مجرد رحلة طيران فوق الموقع على ارتفاع منخفض، بحيث يصور زاك والسيدة بيندر الموقع من الجو، بينما يقود ستيف الطائرة بوصفه الطيار ومعه أشانتي كمساعدة طيار. وبهذا صار واضحًا أن كلًّا من ستيف وأشانتي طياران.

كانت الطائرة قديمة من طراز توين أوتر، وكانت مزودة بزلاجات بدلًا من العجلات ومطلية باللون الأخضر الفاقع شأنها شأن كل شيء آخر في المعسكر. قال ستيف وهو يضرب جانب الطائرة بقبضته: «طائرة رائعة، شديدة المتانة. لا تضاهيها طائرة أخرى في الاعتمادية». ثم نظر إلى السماء وأضاف: «أتمنى لو حصلت على تقرير وافٍ عن حالة الطقس، لكنه يبدو طيبًا على أي حال. لنذهب».

سأله زاك: «ما مشكلة تقارير حالة الطقس؟».

قال ستيف: «خدمات الأحوال الجوية لا تمنحنا تنبؤات لأكثر من ست ساعات، كم يثيرون ضيقي».

- «حقًّا؟».

أجابت أشانتي: «اتضح أن قمرًا صناعيًّا خاصًّا بالطقس يغطي أمريكا الشمالية خرج من الخدمة، ولم يكن ثمة قمر آخر متاح عوضًا عنه بسبب تخفيضات الميزانية. لذا فقد حولوا نطاق القمر الذي من المفترض أن يغطي منطقتنا هنا إلى المنطقة هناك إلى أن يطلقوا قمرًا صناعيًّا جديدًا. وبهذا تكون المحصلة النهائية هي أن علماء الأرصاد الجوية لا يستطيعون الحصول على لمحة عما يوجد وراء الأفق».

سألها زاك: «لمحة؟».

قالت: «المعذرة، استخدمت المصطلح الدارج في لغة أهل البلد».

قال زاك: «إذن، تلك مشكلة؟».

قال ستيف: «كلا، لن نغيب لمثل هذه الفترة الطويلة».

كانت لديهم خطة للطيران، لكنها كانت غامضة على نحو متعمَّد، «مراقبة جوية على امتداد الرف الجليدي والساحل في اتجاه كيب آدار». كان ميستري قد منح تعليمات مشدَّدة بعدم الكشف عن الموقع المحدَّد الذي يضعون أعينهم عليه. لا شك أن هذا الحذر مبالغ فيه - فلا توجد سلسلة فنادق أخرى تعتزم المزايدة على شراء هذا الموقع - لكن السيدة بيندر بدت متقبِّلة لهذا الأمر كواحد من الإجراءات المتبعة المعتادة.

كانت مشاهدة أنتاركتيكا من الجو أكثر إبهارًا من مشاهدتها من السفينة. حلَّقوا بمحاذاة سلسلة الجبال العابرة للقارة القطبية الجنوبية، فوق الأنهار الجليدية والحقول الثلجية. بدت المنطقة من الجو مختلفة تمامًا عمَّا كانت تبدو عليه على الخريطة وفي مشاهد الأقمار الصناعية التي درسها زاك. رصد زاك عدة مواقع ممكنة لم يكن قد لاحظها من قبل، وقد أبقى الخريطة وجهاز تحديد المواقع العالمي على حجره بينما كان يدوِّن ملحوظات في كل مرة يرى فيها موقعًا مناسبًا للفندق، أو لجولات سياحية ممكنة.

بعد نحو ساعتين من الطيران وصلوا إلى موقع الفندق الذي كانوا قد حدَّدوه سلفًا. وبينما كان ستيف يدور بالطائرة فوقه، التقط هو وزاك صورًا من النوافذ وتبادلا التعليقات. كان المنحدر الشمالي الذي كتبوا فوقه على الخريطة «جبل التزلج» عبارة عن صخور رمادية قاحلة، لكن المنحدر الجنوبي بدا رائعًا، إذ كانت تغطيه طبقة كثيفة من الثلوج الملساء. إلى الأسفل، كان المنحدر

يستوي على صورة رقعة من الأرض تنتهي بمرفأ خالٍ من الجليد إلى الشرق، ونهر جليدي مغطى بالثلوج إلى الجنوب.

قال ستيف: «يمكنني الهبوط هنا لو رغبت في ذلك».

قال زاك: «الهبوط؟».

- «أجل، لا مشكلة، إن الطائرة مصمَّمة لهذا. هذا النهر الجليدي مستوي تمام الاستواء، وهو المكان عينه الذي كنت تخطِّط فيه وضع مهبط الطائرات، أليس كذلك؟».

قال زاك في تشكُّك: «بلى».

قالت أشانتي: «هذا النهر الجليدي عمره اثني عشر ألف عام، ويبلغ سُمكه مائة متر، لو كنت تقلق بشأن هذا. سوف يتحمَّل وزن الطائرة، وزن مائة طائرة في واقع الأمر».

سأل زاك: «كيف تعرفين هذا يقينًا؟».

نظرت أشانتي إليه وقالت: «أنا متخصِّصة في الجيولوجيا القطبية. هذا عملي».

- «كنت أظن أنكِ طيارة».

قالت: «حسنًا، وهذا أيضًا».

قال ستيف: «علاوة على ذلك فضغط الزيت الخاص بالمحرك الأيمن منخفض قليلًا. سيكون من الأفضل أن أتفحّصه».

كان الهبوط سلسًا لدرجة أن زاك لم يكن واثقًا متى تحديدًا مسَّت الزلاجات الأرض. انزلقت الطائرة على زلاجاتها لنحو الميل قبل أن تتباطأ سرعتها وتتوقَّف، وفي النهاية أطفأ ستيف محركاتها.

كانت هناك طبقة من الثلج عمقها نحو القدم، لكن أسفلها كان الجليد صلبًا. لم يكن الجو أبرد مما كان عليه في قاعدة سكوت، لكن الرياح التي تعصف بالنهر الجليدي كانت شديدة، نظرًا لعدم وجود تلال أو أشجار تحجبها. الآن بات زاك مدركًا ضرورة معدات الطقس البارد. ارتدى القلنسوة الصوفية التي مُنحت له في القاعدة، والتي كان يحملها طوال الوقت دونِ أن يضطر إلى

ارتدائها، ثم رفع غطاء الرأس الخاص بالسترة الثقيلة. وبعد أن ارتدى منظار الوقاية، لم يعد ظاهرًا من وجهه إلا أرنبة أنفه. نظر إلى السيدة بيندر ورآها وهي تنزل على السلالم القابلة للطي الخاصة بالطائرة. قال: «كان علينا أن نجلب معنا أحذية الثلج».

رفعت السيدة بيندر حقيبتها وقالت: «لقد أحضرتُها».

في الوقت ذاته كانت أشانتي تساعد ستيف في حمل سلم قابل للطي، ثم وضعاه إلى جوار المحرك في الجانب الأيمن للطائرة. صاح ستيف: «من الأفضل ألا تبتعدا عن هنا. لا يعجبني هذا الطقس، سألقي نظرة على هذا المحرك ثم نستأنف الطيران».

- «مفهوم». هكذا قال زاك وهو يمشي على الثلوج. كان المشهد أمامه مؤلفًا من درجات من اللون الأبيض. قال: «أنتاركتيكا، كم أحبها».

نظرت السيدة بيندر إلى ستيف وأشانتي ثم استدارت نحو زاك وقالت: «إذا كان متعجِّلًا في العودة إلى هذه الدرجة، فلماذا هبط بنا من الأساس؟».

وعلى حين غرَّة تردَّد صدى قرقعة مدوِّية. أدار زاك رأسه نحو الطائرة لكن الصوت لم يكن آتيًا من هناك. كان ستيف واشانتي ينظران حولهما، متحيِّرين شأنه تمامًا. وعلى امتداد المنظر الطبيعي أمامهم لم يتحرَّك شيء. قال: «ماذا كان هذا بحق الجحيم؟».

قالت السيدة بيندر: «ليست لديَّ فكرة. بدا أشبه بمدفع».

عند الطائرة استدار ستيف وأشانتي إلى المحرِّك مجدَّدًا، وبدا أنهما يزيلان بعض الأجزاء منه.

قالت السيدة بيندر: «لا أظن أن هذا أمر طيب».

حين عادا إلى الطائرة كان ستيف وأشانتي داخلها، وكان ستيف يتحدَّث بجدية عبر اللاسلكي قائلًا: «كلا، إنها ليست حالة طارئة، فنحن آمنون. لكننا سنقدر لكم مساعدتكم حين ترسلوها».

استدارت أشانتي إليهم وقالت: «مضخَّة الزيت».

سألها زاك: «ما الذي يعنيه هذا؟».

- «لقد تلفت. اتضح أن الزيت كان يتسرَّب منذ خمسة عشر ميلًا أو نحو ذلك. المحرِّك بخير، بخلاف ذلك، لكننا لا نستطيع الطيران».

قال زاك: «عظيم، تعنين أننا عالقون هنا؟».

- «ليس بشكل دائم». ثم أمالت رأسها نحو ستيف وقالت: «إن سكوت ليس لديه الجزء المطلوب، لكنهم أوصلونا بقاعدة ماك موردو، وهم يملكون هذا الجزء. سوف يرسلون ميكانيكيًّا بواسطة طائرة هيلوكبتر. إنها مهمة يسيرة، من المفترض إصلاح الضرر في وقت وجيز».

- «لدينا إذن توقف غير مخطَّط له. أعتقد أنه يمكننا استكشاف الموقع. كم من الوقت لدينا؟».

- «يقولون إنهم سيرسلونه بمجرد انتهاء العاصفة».

- «أي عاصفة؟».

أشارت إلى الأفق، حيث أخذت سحب داكنة تتحرَّك وقالت: «تلك العاصفة».

قاموا بطي السلالم وأغلقوا باب الطائرة عليهم. حلت العاصفة بسرعة فائقة، ففي لحظة ما كانت السماء صافية، وفي اللحظة التي تليها اختفت الشمس خلف جدار من اللون الأبيض.

ومع العاصفة جاءت سلسلة صاخبة من الأصوات الراعدة. قال زاك: «الأمر يبدو وكأننا نتعرَّض لقصف بالقنابل».

قالت أشانتي: «هذا أمر غير مألوف. أنتاركتيكا في المعتاد أبرد من أن تعاني مثل هذا البرق الشديد».

انخفضت الحرارة داخل الطائرة لدرجة أنه بات بمقدورهم رؤية بخار الماء يتصاعد مع أنفاسهم. بدأ ستيف تشغيل المحرك الأيسر، واتخذت أشانتي موقعها في مقعد الطيار المساعد.

- «أنت لا تنوي الإقلاع في هذه العاصفة، أليس كذلك؟» هكذا قال زاك وقد تعيَّن عليه الصياح كي يجعل صوته مسموعًا في ضوضاء العاصفة. بدا الزجاج الأمامي للطائرة وكأنه مدهون باللون الأبيض.

هز ستيف رأسه نفيًا وقال: «بمحرك واحد؟ وفي هذه الرؤية المعدومة؟ أنا لست مجنونًا. لكن لا يثبتنا شيء إلى الأرض، وإذا لم أوجِّه مقدمة الطائرة في اتجاه الريح فمن المرجح أن تنقلب الطائرة». كان يوجه الطائرة باستخدام قدميه في الغالب، مُجريًا تعديلات طفيفة بينما تهز الرياح الطائرة. «والآن اصمت ودعني أركز».

سمعوا دويًّا آخر، واهتزت الطائرة بعنف. «ماذا بحق الجحيم ...».

وفي ضوضاء عنيفة مالت الأرض من تحتهم وانزلقت الطائرة إلى الوراء، ثم إلى الجانب. جاهد ستيف بأقصى قوته كي يحوِّل اتجاه مقدمة الطائرة، لكن من دون سرعة هوائية لم يكن لديه سوى تحكم محدود. مالت الطائرة بزاوية خطيرة، فغاص الجناح الأيسر إلى أن لمس الأرض، وانثنى ثم تجعَّد. ضربت مروحة المحرك الجليد بقوة وشعر زاك بهذا الارتطام إذ زلزلت الطائرةَ سلسلةٌ متقطعةٌ من الهزات العنيفة.

توقَّف المحرك بشكل مفاجئ، وهو ما مكنهم من سماع أصوات التحطُّم من حولهم. لم يكن بمقدورهم رؤية شيء في الخارج عدا ضوء باهت يتخلل زجاج النوافذ، لكن كان بإمكانهم أن يشعروا بالطائرة وهي تنزلق، وأحد جناحيها يحتك بالجليد. كان ستيف متيقنًا من أنه فقد التحكم بالطائرة تمامًا، لكنه مع ذلك ظل يحاول تعديل معدات التحكم، محاولًا بلا جدوى تغيير اتجاه مقدمة الطائرة.

انزلقوا إلى الوراء حتى توقفت الطائرة، في عنف، بعد ارتطامها بشيء من خلفهم.

بصرف النظر عما كان وراءهم فقد ثبَّت الطائرة في موضعها بإحكام. جرب ستيف استخدام اللاسلكي لكنه لم يعمل، شأنه شأن بقية أجهزة الطائرة.

بدت درجة الحرارة داخل الطائرة وكأنها هبطت إلى ما دون الصفر بكثير. كانوا جميعهم يرتدون عدة الطقس شديد البرودة ودخلوا في حقائب النوم كذلك. ورغم أن الشمس لم تكن لتختفي من الأفق إلا بعد شهر آخر، فقد كان الجزء الداخلي من الطائرة مظلمًا. ومع ذلك فقد كان هناك من الضوء ما يكفي كي يرى زاك أن ستيف وأشانتي يتشاركان حقيبة النوم نفسها.

فلنحتفل بالعام الجديد، هكذا اقترح زاك في تهلُّل.

قالت السيدة بيندر: «لست واثقة أن الطاقم في حالة مزاجية مواتية يا عزيزي. ربما علينا الانتظار حتى نعود».

تمتم ستيف قائلًا: «هذا لو عدنا من الأساس».

حاولوا النوم. ورغم أن العاصفة قد زادت حدتها، فقد تأقلموا في نهاية المطاف مع الأرجحة العنيفة للطائرة وناموا.

بحلول وقت الظهيرة بدأ صخب العاصفة في التراجع. كانت النوافذ مغطَّاة تمامًا بالجليد، لكن حين هدأ صوت العاصفة حتى بات يشبه الصفير لا أكثر، خمنت أشانتي أن الوقت ملائم لفتح الباب.

كانت الطائرة مائلة إلى درجة جعلت الباب ينفتح إلى الأسفل لا إلى الخارج. نظرت أشانتي ثم تراجعت في حذر وقالت: «ما من سبيل للخروج من هذا الطريق».

كان الجانب الأيمن للطائرة به مخرج طوارئ صغير معلق به مطفأة حريق. تعيَّن على أشانتي أن تتسلَّق لأعلى كي تصل إليه، ثم سحبت نفسها إلى الخارج بذراعيها. حذا زاك حذوها، ثم السيدة بيندر، ثم غادر ستيف على مضض تاركًا موقعه عند أجهزة التحكم عديمة النفع.

كان تيار رقيق من الرذاذ الثلجي يهب على وجوههم، لكنهم رأوا ضوءًا ساطعًا في الأفق - أتراه الشرق؟ لقد فقد زاك حس الاتجاه تمامًا - بما يشي بأن العاصفة في طريقها للخمود.

كانت الطائرة مائلة ونصف مدفونة في صدع من الجليد القاسي. كانت جاثمة في وضعٍ مُنذر بالخطر على منحدر بزاوية قدرها عشرون درجة، وجناحها الأيمن مرفوعًا إلى الأعلى بينما بقايا جناحها الأيسر المدفونة بقوة في الجليد كانت تمنعها من الانزلاق مسافة العشرون قدمًا التالية إلى المياه التي لا ترحم.

كان السطح الثلجي المستوي قد اختفى، وفي كل اتجاه، على مسافة لا تبعد أكثر من مائة قدم، كانوا محاطين بمياه المحيط.

قال زاك: «نحن على جبل جليدي».

كانت المياه داكنة ومتلاطمة، ترتفع موجاتها إلى أن يتكسَّر زبدها على الجليد، مطلقة رذاذًا أبيض في الهواء، ثم تنحسر مجددًا. الآن وقد صار واعيًا له، بات زاك يشعر بالتهادي الرقيق للجليد من تحته بينما يستجيب جبل الجليد لدفع المياه. ومن حولهم كانت توجد عشرات، بل مئات، الجبال الجليدية الأخرى، حوافها حادة كالألماس، بعضها صغير في حجم الحافلة المدرسية والبعض الآخر عظيم الحجم كالطود.

وجد بقعة مستوية فجلس، وهو ينظر إلى الطائرة المتغضِّنة وقال: «ما الذي حدث؟».

قالت السيدة بيندر: «سيكون من الحصافة أن نخرج معداتنا من الطائرة، بأسرع وقت ممكن».

نظروا إلى الطائرة. بدت مغروسة في ثبات داخل الجليد، لكنهم صاروا يرون الآن أن بدنها ينثني قليلًا مع حركة جبل الجليد.

قال ستيف: «لست واثقًا أن هذا فعل حكيم».

سارت السيدة بيندر إلى الطائرة وقالت: «نحتاج الخيام على الأقل، وكذلك معدات الطوارئ». ثم تسلقت الطائرة واختفت داخلها.

قال ستيف: «هل هذه المرأة على هذا القدر الهائل من الشجاعة حقًّا؟ أم أنها لا تدرك خطورة الأمر؟».

قال زاك: «إنها تدرك خطورة الأمر أكثر منا، لأنه لو انزلقت الطائرة إلى الماء سنموت من دون تلك الخيام». ثم وقف وتبعها إلى الطائرة.

احتاج نحو دقيقة كي تعتاد عيناه الظلمة. وبالداخل بدا اهتزاز البدن منذرًا بالخطر الشديد. ظهرت السيدة بيندر من الظلام ووضعت مجموعة من الأشياء بين ذراعيه وقالت: «خذ هذه الأشياء».

رفع نفسه نحو الباب فوجد ستيف. رفع الأشياء نحوه قائلًا: «ها أنت ذا!» ثم عاد إلى الداخل من أجل دفعة ثانية.

فجأة مال الجليد تحتهم مصدرًا دويًا قويًّا. فقد زاك توازنه وتعثر في الظلام. تحطم شيء ما وانزلقت الطائرة نحو خمسة أقدام ثم توقَّفت. صاح: «ماذا كان ذلك؟».

صاح ستيف مجيبًا: «لقد ارتطمنا بجبل جليدي آخر. اخرجا، بسرعة!».

بيد واحدة جذب زاك أقرب شيء وجده إليه وبالأخرى رفع نفسه نحو فتحة الباب، لكن قبل أن يصل إليه غاصت الأرضية تحت قدميه. كان يشعر بالاهتزاز المتولد عن تصادم الجبلين الجليديين معًا، ثم اهتزت الأرضية لأعلى مجددًا مع انفصال الجبلين. انتفضت الطائرة لأعلى.

كادت انتفاضة الطائرة تغلق الباب، فدفع نفسه خلال الفتحة واستدار نحو السيدة بيندر.

كانت تحمل مصباحًا يدويًّا بين أسنانها بينما ذراعاها ممتلئتان بالمعدات. أشارت برأسها نحوه واستغرق ثانية كي يفهم المقصود: ابتعد عن طريقي. دفع نفسه إلى الخارج وألقى بجسده نحو ستيف ثم مد يده ليساعدها.

تبين له أن الحقيبة التي أخرجها كانت تحتوي على ستة سترات نجاة. لم تكن ثمة جدوى منها، لأنه لو سقط شخص في المياه فسيموت من انخفاض درجة الحرارة قبل أن يغرق. استطاعت السيدة بيندر أن تخرج خيمة الطقس البارد، وحقيبتي نوم، وحقيبة من مؤن الطوارئ.

بعدها بعشر دقائق انزلقت الطائرة نحو المحيط. انحرف جبل جليدي آخر وانزلقت الطائرة في الفجوة بين الجبلين، ولدقيقة ظلت عالقة بينهما. بعد ذلك تسبَّبت حركة المياه في تحرك الجبلين اللذين اعتصرا الطائرة بينهما اعتصارًا، ثم غاصت بقاياها المعدنية في المياه المظلمة.

وجدوا ركنًا خلف نتوء جليدي، به بقعة مستوية تصلح للمكوث فيها. كانت الرياح قد تسارعت مجددًا، واندفعت السحب المنخفضة فوقهم، وكان صوت

ارتطام الجليد بالجليد يحيط بهم طوال الوقت.

استدارت السيدة بيندر لستيف وقالت: «هل تعرف أين نحن؟».

صمت ستيف لبرهة ثم قال: «لست متأكدًا. كان من المفترض أن نعاود إرسال إحداثياتنا حين يكونوا مستعدين لإرسال الميكانيكي».

مالت السيدة بيندر برأسها نحو الموضع الذي ابتلعت فيه المياه الطائرة.

قال ستيف: «أجل، لن نتصل بهم».

استدار زاك إلى أشانتي وقال: «الآن، هلا أخبرتني ماذا حدث بحق الجحيم؟».

تنهدت أشانتي وقالت: «لقد تكسَّر النهر الجليدي».

- «ماذا؟».

أراحت أشانتي ظهرها على النتوء الجليدي وقالت: «النهر الجليدي هو نهر متجمِّد، وكان الرف الجليدي يمنع هذا النهر من التدفق إلى البحر، وكأنه سد طبيعي.

لكن مع ارتفاع الحرارة بشكل مستديم - ربما لعقد أو عقدين لأن الرفوف الجليدية لا تذوب بسرعة - يذوب الرف الجليدي من أسفل. وفي النهاية يتكسر.

لا تتكسر الرفوف الجليدية ببطء، فما إن تبدأ في التكسر حتى يتسبب كل شق في الضغط على جزء آخر. تتعاظم الشقوق بمعدل تصاعدي مرتفع، وحين تتكسر فإنها تتكسر دفعة واحدة».

قال زاك: «لكنك قلتِ إن عمره اثنا عشر ألف عام».

هزت كتفيها وقالت: «من الواضح إذن أن المناخ الآن أدفأ مما كان عليه طيلة الاثنتا عشر ألف عام الماضية».

فكر زاك في الأمر وقال: «إذن ما الذي ... أهي العاصفة التي تسببت في كل هذا؟».

قالت أشانتي: «تلك مصادفة لا أكثر. مجرد سوء حظ. أو ربما لا؛ فمن المؤكد أن اندفاع العاصفة سبب جهدًا إضافيًّا على الرف الجليدي. ربما أدى هذا إلى تكسر الجليد.

وبمجرد أن يتكسَّر اللوح الجليدي فإنه يضغط على النهر الجليدي. تتكسَّر الحافة المواجهة للبحر، وهذا هو الصوت الذي نسمعه، تلك الأصوات التي تشبه الانفجارات. إن الجليد يتهشَّم، في كل مكان حولنا».

قال زاك: «لكنك قلتِ إن سُمك الجليد مائة متر!».

هزَّت أشانتي كتفيها ثانية وقالت: «حين يتهشَّم الجليد فإنه يتهشَّم بسرعة. لقد حدث الأمر من قبل، في نهر جليدي مختلف، ورف جليدي مختلف، في عام 1995. سمع فريق علمي أرجنتيني يعمل على الجليد صوته، وقالوا إنه بدا أشبه بثوران بركان. بدا الأمر أشبه بنهاية العالم».

- «وما الذي حدث لهم؟».

- «لقد أنقذتهم طائرة هيلوكبتر قبل أن يتهشم اللوح الجليدي».

نظر زاك إلى أعلى. كانت السحب كثيفة وداكنة وكأنها مخفوق الشوكولاتة، وكانت منخفضة للغاية لدرجة أن قمم جبال الجليد على مبعدة كانت تقطعها أثناء مرورها السريع بها.

قال: «لا طائرات هيلوكبتر لنا. لقد تقطَّعت بنا السبل».

فجأة خطرت على باله فكرة. نظر إلى ستيف في تشكُّك. أليس الأمر كله مثيرًا للشكوك؟ مشكلة المحرِّك التي سمحت لهم بالهبوط بكل سلاسة لكنها منعتهم من الإقلاع، حقيقة أنهم أقلعوا قبل العاصفة مباشرة، قبل عاصفة لم يتم التنبؤ بحدوثها ...

قال زاك: «أنت تعمل معه».

- «ماذا؟».

- «آنيل. منظمة رينبو إيرث. لقد كان الأمر كله فخًّا، لقد تعمَّدت فعل هذا بنا. من أجل تخريب الفندق».

- «هل أبدو كشخص انتحاري في نظرك؟».

حدَّق فيه زاك ثم قال: «تلك ليست إجابة».

قال ستيف: «حسنًا، إليك بإجابة: كلا. لم أتعمَّد أن تنقطع بنا السبل هكذا. هل أنا غبي؟ بالقطع لم أتعمَّد حدوث ذلك. ربما أكون عضوًا في رينبو إيرث، لكنني لم ...».

قالت السيدة بيندر: «أأنت عضو في رينبو إيرث؟ هذا يفسِّر سبب معرفتهم لما كنا نفعل طوال الوقت».

- «حسنًا أنا عضو بالمنظمة، لكنني لم أخرب الطائرة. وعلى أي حال ليس آنيل إيرث بالشخص البغيض. فلتحسنوا الظن به».

قال زاك في مرارة: «ماذا تعني بأن نحسن الظن به. إننا في عداد الموتى. لن نحسن الظن به أو بغيره، لقد انتهى الأمر. لقد انتصر».

قال ستيف: «اسمع».

بينما كان ستيف يقول ذلك كان صوت آخر أكثر خفوتًا يجد طريقه إلى إدراك زاك. كان يسمع الصوت على نحو متقطع، حين تهدأ الرياح، لكنه لم يتعرف عليه، إذ كان مجرد ضوضاء أخرى مدفونة وسط ضوضاء الرياح وهدير جبال الجليد المتلاطمة.

استدار زاك وأخرج واحدة من سترات النجاة من الحقيبة التي استعادها من الطائرة وفتح الغطاء البلاستيكي ثم جذب الحبل القصير بقوة. انتفخت السترة البرتقالية بصوت مكتوم واخترق الضوء الوامض الصغير عند ياقتها الظلام مثل ومضة البرق.

لوح زاك بالسترة فوق رأسه. هدأت حدة الرياح للحظة، وخلال ذلك الصمت المفاجئ سمعوا جميعهم الصوت. وعلى مبعدة تناهى إليهم صوت محركات بخارية آخذ في الارتفاع.

ومن وراء الجبل الجليدي المقابل لهما رأوا قاربين بخاريين مطاطيين أصفرا اللون، واحدًا تلو الآخر، وهما يطويان صفحة الماء نحوهم.

بعد أن جلبهم القاربان إلى السفينة، رحَّب بهم آنيل إيرث على متنها. بدا بلحيته الكستنائية وعيناه الثاقبتين مرتاحًا تمام الارتياح في هذا الجو، كما لو أنه وُلد كي يعيش في أنتاركتيكا. صبَّ لكل منهم قدحًا كبيرًا من الشاي الساخن من ترموس ضخم، وطلب منهم أن ينادوه «آنيل» وحسب، وصحَّح لهم النطق، ثم اصطحبهم إلى قمرة كبيرة في مؤخِّرة السفينة كي يتدفؤوا.

كان الشاي باللبن حُلوًا، وهي ليست الطريقة التي اعتاد زاك شرب الشاي بها، ومع هذا فقد رأى أنه أفضل شاي تذوقه في حياته على الإطلاق.

بعد أن خلعوا ملابس الطقس البارد ودفؤوا أنفسهم بألحفة ثقيلة منحهم آنيل إياها، نظر ستيف إلى زاك، ثم رنا ببصره إلى السيدة بيندر التي أومأت له كي يبدأ الحديث. نظر إلى الحوائط، وكانت مغطَّاة بملصقات بعضها يحمل عبارات مثل «لتفعلوا شيئًا قبل فوات الأوان» و«أنقذوا الكوكب» وغيرها بها صور للغابات المطيرة وزهور الصحراء.

قال: «حسنًا. نحن ندين لك بالكثير يا سيد إيرث. نشكرك على إنقاذك لنا».

ابتسم آنيل وقال: «أجل. في مناطق كهذه نتعلَّم كيفية الاعتناء بعضنا بعضًا».

قال زاك: «ومع ذلك فإنني مندهش. لماذا أنقذتنا؟».

قال آنيل وتعبير الصدمة يعلو وجهه: «لا بد أنك تظن أننا مجموعة من الهمج. لقد تحدَّثنا مع قاعدة ماك موردو، وقد أخبرونا أنهم فقدوا إشارة جهاز الإرسال والاستقبال الخاص بطائرتكم، وأن الثلوج حاصرتكم وأنهم يخشون أن تكونوا في مشكلة. قلت لهم إننا سنلقي نظرة، ونقدم المساعدة التي نستطيع تقديمها».

- «أشكرك على هذا».

- «حسنًا، على الرحب والسعة». ثم توقَّف قليلًا وأضاف: «أنت تعمل لصالح السيد ميستري، صحيح؟» أومأ زاك، فواصل آنيل قائلًا: «فندق». ثم توقف وبدا أنه فقد تسلسل أفكاره، ثم قال: «فندق في أنتاركتيكا، عجبًا».

قال زاك: «نعم، إنها فكرة غبية. يمكننا جميعًا أن نرى ذلك الآن. ليس هذا المكان ملائمًا، فالبيئة عدائية أكثر ما ينبغي».

أشاح آنيل إيرث بيده وقال: «هراء. انتظر بضعة أيام وستكون السماء زرقاء صافية إلى درجة تثير انبهارك. لن تصدق أنها القارة ذاتها. ستغيِّر رأيك».

حدَّق زاك فيه وقال: «لكني كنت أظن أنك …».

أكمل آنيل قائلًا: «لقد قرأتُ الورقة التي نشرتها في دورية أكتا أسترونوتيكا». وحين وجد نظرة الحيرة على وجه زاك قال: «ماذا؟ أتظن أنني أقرأ المجلات المعنية بالطبيعة وحسب؟ إن لديك بعض الأفكار الطيبة. أحب طريقة تفكيرك. الفكرة هنا أن علينا أن نتعلم كيف نجعل النظام البيئي يعمل بنجاح. وربما لو فعلنا هذا يكون بوسعنا أن نتفهَّم مدى روعة كوكبنا، وكيف يعمل كل شيء في تناغ».

ثبت آنيل نظره على زاك وقال: «حين سمعتُ للمرة الأولى الشائعات الخاصة بفندقك لم أكن واثقًا. كتبت المقال في مجلتي محاولًا استكشاف رد الفعل السليم حياله … هذا ما أفعله، فأنا أكتب كي أصفي ذهني. وقد أدهشني رد الفعل الذي حصلت عليه من القراء؛ فالبعض عارض فكرة الفندق، لكن تقريبًا نصف الخطابات تساءلت عن المكان الذي سيُفتتح فيه الفندق، وعن مكان الحجوزات.

لقد أراد قرائي فندقك يا سيد سيرني. ففكرت: ماذا لو كانوا محقين؟ ربما يكون أمرًا طيبًا أن تجعل الناس يحصلون على خبرة فعلية بأنتاركتيكا وبالنظام البيئي وبالجليد وبالكيفية التي يرتبط بها كل هذا معًا … أليس هذا هو ما نعمل من أجله؟ من الخطأ أن نبعد الناس عن أنتاركتيكا، وأن نجعلها محمية لا يراها أحد. ولو تم الأمر بصورة صحيحة، بحيث يكون الفندق أشبه بقاعدة قمرية مكتفية ذاتيًّا، ودون تلويث الأرض بالطريقة التي يفعلها البشر منذ آلاف السنوات، سيكون ذلك نموذجًا يُحتذى به للعالم أجمع.

فلتبن فندقك يا سيد سيرني». ثم نظر آنيل في عيني زاك في تمعن وأضاف: «امنحنا نموذجًا يُحتذى به. إننا نحتاجك».

خفض زاك رأسه. ماذا كان شعار ميستري؟ عقبات. خطوات على طريق التقدم.

من النافذة كانت السماء لا تزال مظلمة، لكن عند الأفق مباشرة ظهر خط أزرق ساطع، فوق جبال الجليد البيضاء المتلألئة في ضوء الشمس.

قال زاك: «سأحاول … سنحاول».

المدار المنخفض

جيمس إل كامبياس

بعد أن بلغتُ السابعة عشر من العمر بيومين ذهبتُ إلى القمر المريخي ديموس من أجل خوض المسابقة. قابلني والدي عند بوابة بافونيس كي يودعني، وهو ما كان أمرًا طيبًا نظرًا لأن كل وسيلة إعلام على الكوكب كانت حاضرة، وكان الجميع يأملون في التحدث معي.

كان والدي يقود رافعة إنشاءات، وكان قوي البنية كالثور. خفض رأسه وأخرج مرفقيه إلى الجانبين وشرع يخترق الحشد المجتمع. بقيتُ على مقربة منه بينما كان الأشخاص والأعين المتطفلة تحاول الوصول إليَّ.

قبل أن أمر من نقطة التحقُّق استدرتُ إلى والدي وقلت له: «أشكرك على مجيئك، كان من الطيب رؤيتك».

قال وهو يشير برأسه إلى الحشد المجتمع خلفه: «يقول الناس إنه لا يُفترض بك أن تذهب».

«أعرف هذا». كنت قد سمعت عن الاستنزاف العقلي خلال الشهر السابق أكثر مما أريد سماعه في حياتي كلها. «ثمة أشياء أريد عملها، ولا يسعني عملها هنا على المريخ».

أومأ وقال: «هل ستعود؟».

- «سأعود بعد أسبوع إذا لم يقع الاختيار عليَّ».

قال: «لا تعد إذن. كن الرابح، حظ سعيد يا يِنج». دامت مصافحته لحظة ثم استدار ومر عبر الحشد دون أن ينظر إلى الوراء. عبرت نقطة التحقق، وبعدها بساعة كنت على متن المصعد المتجه إلى القمر ديموس.

كان ديموس محطة رئيسية، مثل جاكرتا أو مكسيكو سيتي على الأرض. كان بمنزلة بوابة الدخول إلى المريخ، ونقطة الانطلاق نحو الجزء الخارجي من المجموعة الشمسية، كما كانت تنطلق منه رحلات نحو القمر الأرضي ونقاط

لاجرانج [15] كان «مجتمع القمر ديموس» يتحكَّم في كل شيء يخرج من المدار المنخفض للأرض إلى حزام كويبر.

تَوافد الأشخاص الأذكياء الطموحون الجذَّابون على القمر ديموس، إذ أراد الجميع أن يكونوا هناك. لم يكن السبب هو البحث عن الثراء وحسب، بل كان ثمة دافع آخر يتمثَّل في أن تكون حاضرًا في هذا المشهد، أن توجد حيث تحدث كل الأشياء الرائعة. أن تكون هناك وحسب.

حدَّد مجتمع القمر ديموس التعداد السكاني هناك بمليوني شخص، وفرض هذا الحد بصرامة. والسبيل الوحيد كي ينضم أحد إليه هو أن يحدث خلل في النسبة بين المواليد والوفيات؛ إذ نادرًا ما كان أحد يغادر طوعًا.

في أغلب الأعوام لم تكن تتاح إلا أماكن قليلة، وكان المجتمع يملؤها عن طريق دعوة العلماء والفنانين أو غيرهم من الأشخاص الموهوبين إلى الانضمام إليه. وأحيانًا كانوا يقيمون مزادًا على عدد من الأماكن، وهو ما جعل القمر ديموس أغنى بهذا الشكل.

لكن من حين لآخر يترك مجتمع القمر ديموس بضعة أماكن مفتوحة للشباب ذوي الإمكانات الواعدة بدلًا من الكبار الذين يمتلكون الشهرة بالفعل، فقط عليك أن تكون ما بين السادسة عشر والخامسة والعشرين، ومستعدًّا لترك أسرتك وراءك، وواثقًا من نفسك إلى درجة تجعلك تدخل مسابقة من دون أن تعرف ما سيتعيَّن عليك فعله. تقدَّم الشباب من كل أنحاء المجموعة الشمسية لهذه الفرصة، وجاء أعلى ثمانية متنافسين إلى القمر ديموس من أجل التنافس.

كنت أنا الشاب الوحيد من المريخ الذي نجح في الوصول إلى هذه المرحلة من المسابقة. كانت مؤهلاتي الأكاديمية جيدة لكن ليست عظيمة، إذ كانت تقديراتي في الفيزياء والرياضيات في حدود التسعين ونيف بالمائة، لكنها لم تتجاوز 75 بالمائة في اللغات. كنت قد فزت ببطولتين في المصارعة، وكنت أعزف الأورج. كنت أعلم أن فرصتي ضعيفة حين تقدمت.

لكن كانت لدي مزية واحدة: فقد قضيت العام السابق محطة إيوس للطاقة، أعمل على منظومات دفع غير تقليدية مع نادي كافوريت. كان ذلك النادي عبارة عن مجموعة من العباقرة الشباب المجانين ذوي التمويل المحدود يقودهم عبقري عجوز مجنون يُدعى تشو يو، يحاولون العثور على طرق لكسر قوانين الطبيعة. كنت أنام أربع ساعات يوميًّا على فراش مشترك، وأختلس

الوجبات وتعلمت عن الهندسة والفيزياء المتقدمة أكثر مما كان يمكنني تعلمه في مدينة هاربين الصينية أو مونتيري المكسيكية.

لم أكن أدري هل كوني جزءًا من نادي كافوريت سيُعد في صالحي أم ضدي حين تقدمت للانضمام إلى ديموس. كانت معاهدة بافونيس تمنح القمر ديموس احتكارًا لنقل الأشياء من المريخ إلى الفضاء، ولم يكن مجتمع ديموس يحب فكرة أن يبني سكان المريخ سفن فضائية. أعتقد أن كوني عالم صواريخ مراهقًا، كان جذابًا بما يكفي لتعويض هذه النقيصة.

ما إن ذاعت الأنباء حتى قُوبلت بمعاملة عدائية ممن حولي بسبب رغبتي في التنافس على موضع هناك. كان الارتقاء إلى هذا المستوى بمثابة خيانة، وتسببت حقيقة أن أفضل سكان المريخ وألمعهم واصلوا عمل هذا في جعل الأمر أسوأ. فقدتُ الكثير من الأصدقاء حين تقدمت للالتحاق، ثم فقدت البقية حين قُبلت.

وضع مجتمع ديموس المتنافسين الثمانية جميعهم في فندق إلدورادو، وهناك قابلت صوفيا كومو في الردهة. نعم، هي صوفيا كومو بعينها. كانت المرة الأولى التي قابلتها فيها عندما ارتطمت حقيبتها بباب غرفتي بعنف. بدا وكأن كارثة مريعة قد حدثت، لكن لم يكن هناك أي إنذار، وحين خرجت لألقي نظرة وجدت فتاة عمرها وطولها مقاربان لعمري وطولي، تحاول تحريك حقيبتين عملاقتين. ترتدي ملابس فضفاضة توحي بالدفء تغطي جسدها كله عدا وجهها.

أمسكت بإحدى الحقيبتين وكادت أنفاسي تتقطع من حملها، سألتها: «ما الذي تضعينه فيها؟».

قالت: «الأشياء الأساسية وحسب، كتبي وملابسي».

- «هل أحضرت كل هذا من كوكب الأرض؟ إن أغراضي تزن اثني عشر كيلوجرامًا فقط ومع هذا فقد ركبت المصعد!».

قالت: «هذه الأشياء مهمة، وهي أشيائي».

لم يقل أي منا شيئًا بينما أخذ ينظر أحدنا للآخر. كانت صوفيا كومو من منطقة رابتا الاقتصادية الخاصة، وكانت سيرتها الذاتية مهيبة: إذ تخرَّجت في جامعة شرق أفريقيا المفتوحة بدرجات شبه نهائية في كل من تاريخ الفنون والكيمياء الحيوية والأنظمة البيئية وعلم التطور الثقافي والتحليل الإحصائي، كما كانت

راقصة من الدرجة الأولى وفازت بمسابقة لتصميم الحدائق تابعة لمتنزه المنجروف التابع لمنطقة رابتا، وتمتلك براءتي اختراع. كان لها عشرات الأقرباء المهمين في حركة النهضة الأفريقية. باختصار كانت منافِسة مهيبة الجانب.

الأسوأ من هذا أنه بدا أننا واقعان في الحب. فوفق مؤشراتي الحيوية كانت دقات قلبي ومستويات هرموناتي تتصاعد حين أتحدَّث إليها، بمقدار أربعة انحرافات معيارية أعلى من المعتاد حين أتحدَّث إلى أي فتاة أخرى من عمري. أكدت شبكة كواشف الردهة أيضًا أن لديها رد فعل إيجابيًا قويًا تجاهي؛ إذ كانت حدقتا عينيها تتسعان وكأن الضوء قد انطفأ، وكان معدل تنفسها ودرجة حرارتها يرتفعان.

كأي ابن أصيل من أبناء المريخ اتخذتُ بعض الخطوات كي أهدِّئ من حدة الأمر. كان من شأن احتشاد عدد كبير من الناس في بيئات هشة أن يجعل هذا التقارب مسألة حياة أو موت للمستوطنين الأوائل، وظلت هذه العادة باقية. أفرطتُ في تعاطي مثبطات الدوبامين كي أمنع نفسي من الافتتان بها. وكنت أعلم أنني سأحتاج إلى هرموني السيروتونين والتستستيرون كي أحافظ على قدرتي التنافسية. وأعتقد أنها كانت تفعل الأمر عينه.

قلت: «حسنًا ... أراكِ في الافتتاح إذن».

قالت: «حظ سعيد». ثم أدخلت حقيبتيها واحدة تلو الأخرى إلى غرفتها.

بدأت المسابقة باحتفال صغير في غابة لوبيتا.

حين استقر أفراد مجتمع القمر ديموس عليه للمرة الأولى، أنشأوا فقاعة ضخمة بقطر كيلومتر واحد أدنى القطب الشرقي وملأوها بالهواء، وأمدوها بأشعة الشمس، ثم منحوا ألمع مصممي الكائنات في المجموعة الشمسية الحرية الكاملة لفعل ما يشاؤون، كي يخلقوا أرض عجائب حقيقية. كانت القطعة المركزية بالحديقة شجرة باوباب استوائية عملاقة، تمتد جذوعها في جميع الاتجاهات حتى جدران الكهف. ارتفعت الأغصان والدعامات والتفت حول بعضها، بحيث شكَّلت غابة خضراء على شكل مجرَّة حلزونية تمتد بعرض نصف كيلومتر. امتدت كرمات غير معدلة جينيًّا في أنحاء المكان وكأنها شباك عنكبوت جامحة. كانت الأفرع السميكة منها مزودة بمواطئ للأقدام وبإرشادات بحيث تؤدِّي عمل الجسور أو السلالم، اعتمادًا على أي اتجاه ستسلكه نسبةً إلى جاذبية القمر ديموس الواهنة. كانت الورود عديمة الشوك وأزهار الأوركيد والبروميليا تنمو من الأفرع والكرمات، وكانت غالبية الزهور

مصمَّمة بحيث تمتلك صبغات منتجة للضوء، حتى إذا دخل القمر ديموس في حالة خسوف خلف المريخ عند منتصف الليل يتحوَّل الكهف إلى دوامة خلابة من الألوان الساطعة.

كان الحفل مقامًا عند مركز الشجرة تمامًا، حيث وُضعت منصات من مستويات متعددة مثبتة إلى الجذوع والأغصان الكبيرة المحيطة. وصلنا جميعًا، نحن المتنافسون، في الوقت المحدَّد تمامًا، ما عدا صوفيا كومو؛ إذ لم أرها هناك.

سألتُ مايكروميجاس، منظومة الذكاء الاصطناعي لديموس: «أين صوفيا كومو؟».

- «الآنسة كومو موجودة حاليًّا في غرفتها».

أهي مريضة؟ أم ستنسحب من المسابقة قبل أن تبدأ؟ كان التوتر شديدًا.

تجوَّلنا لنحو نصف الساعة، وقد حاولت ألا تظهر على وجهي علامات توتري الشديد. وبسبب استخدامي المفرط لمثبطات الأدرينالين كان جذع المخ لديَّ يحاول أن يقنع جسدي أنه حان وقت اصطياد فيلة الماموث أو شيء من هذا القبيل، إذ أخذ يفرز مواد كيميائية خاصة باستجابة القتال أو الهروب لم تكن تعينني في موقفي هذا على الإطلاق.

«مساء الخير!» في منتصف المنصة السفلى تركَّزت بقعة ضوء على رجل طويل نحيف يرتدي سترة سوداء، موشَّاة بخيوط ذهبية قليلة عند الرقبة والرسغين. عرَّفت مربعات نصية ظهرت في مجال رؤيتي الرجل بأنه بيرز تيانا، أحد المحكمين. «أنا سعيد للغاية لرؤيتكم هنا، وأنا واثق أن جميعكم متحمِّسون بشدة للمسابقة. ستكون هناك ثلاث مسابقات، وسيجري تسجيل نتائج كل متسابق منكم بشكل فردي من جانب جميع الأفراد المعنيين بمجتمع القمر ديموس. وفي النهاية، سينضم الشخص صاحب النتيجة الأعلى إلى ديموس بوصفه عضوًا كاملًا».

كان المتسابقون الفاشلون في مسابقات الشباب السابقة ينتهي بهم الحال دائمًا باستنزاف أنفسهم، أو الانغماس في ثقافات فرعية غير مألوفة، أو يستخدمون قدراتهم الابتكارية في قتل أنفسهم.

وبينما أخذ تيانا يتفاخر كم هو من العظيم أن يكون المرء جزءًا من مجتمع القمر ديموس، كنا نحن المتسابقين ننتظره كي يصف لنا الاختبارات. تنوَّعت

الاختبارات في الماضي، فلم يكن ثمة نمط قابل للتنبؤ. لكن ما إن يصف ما سنفعله، ستعمل أدمغة ثمانية من الشباب اللامع بنشاط بالغ.

استدار جميع الموجودين في القاعة ذات الجدران الغصنية في منتصف شجرة الباوباب كي يروا صوفيا كومو، وهي تسير برشاقة إلى أحد المقاعد الرئيسية خارج بقعة الضوء مباشرة. كان من المستحيل ألا تلاحظها، إذ تزامن دخولها مع دخول ديموس فترة الخسوف. وبينما بدأت الأزهار من حولنا في التوهُّج، فاقها رداء صوفيا سطوعًا. كانت ترتدي فستانًا محكمًا، به بعض الأجزاء الشفافة التي تظهر أجزاءً من جسدها الممشوق، وأشرطة متلألئة تتدلى من ذراعيها وساقيها وتدور حولها حين جلست، وكأنها أجنحة لطائر خيالي عجيب. وحين جلست بأناقة في مقعدها تجمعت الأشرطة على صورة تنورة وياقة عريضة.

سيكون الأمر أصعب مما ظننت. كنت أنظر إلى المسابقة على أنها مشروع، بحيث أظهر ما أعرفه، وأحل المشكلات، وأعمل بجد، وأحقِّق نتائج طيبة. هذا أمر في وسعي القيام به. لكن صوفيا كانت ترى الحدث بوصفه عرضًا فنيًّا.

استأنف تيانا حديثه وكأن شيئًا لم يحدث قائلًا: «والآن نأتي إلى الموضوع الذي يهمكم جميعًا بحق؛ طبيعة المسابقات. هذا العام قرَّرنا أن نختار المتسابقين على أساس القدرة الإبداعية والخيال والقدرة على حل المشكلات».

أمر طيب، إنهم هكذا يلعبون على نقاط قوتي.

«المسابقة الأولى مسابقة تكوين حر: فعلى كل متسابق أن يبتكر شيئًا ما من الصفر. سيكون هناك احتفال آخر في هذا المكان بعد دورة شمسية واحدة، وسيعرض المتنافسون علينا ما صنعوا. فلتبهرونا. وبمجرد أن تنتهوا من هذا ستتعرَّفون على طبيعة المسابقة الثانية. طاب مساءكم، سأراكم بعد أربع وعشرين ساعة وثمانٍ وثلاثين دقيقة». وأنهى حديثه بينما كانت الساعة تشير إلى دقيقة واحدة بعد منتصف الليل.

كنا جميعًا نملك تصريحًا باستخدام أجهزة تصنيع غير محدودة، لذا سيكون صنع أيٍّ ما نقرِّر صنعه أمرًا هينًا. كان الاختبار الحقيقي هو قدرتنا على التفكير في شيء متميز.

كم أود أن أقول إنني طوَّرت فكرتي عبر عملية صارمة من التفكير المنطقي والبحث، لكن بينما كنت في طريقي إلى منصة العمل قفزت الفكرة بغتة في رأسي: القناع الأجمل على الإطلاق. لا يزال مجتمع القمر ديموس يجني أموالًا

وفيرة كل عام من خلال بيع حقوق استخدام قناعي. (نعم، كان علينا أن نتخلى عن حقوق أي شيء ابتكرناه من أجل المسابقة. لم يكن مجتمع القمر ديموس ليصل إلى هذه الدرجة من الثراء عن طريق السماح للناس بالاحتفاظ بأفكارهم.) كان المفهوم بسيطًا لدرجة أن أول ما فعلته كان البحث من أجل التأكد من أن شخصًا آخر لم يسبقني إلى التفكير فيه. كان رائعًا، قناعًا من اللدائن الذكية يغير شكله ولونه، وبه دماغ صغير متصل بالشبكة المحلية. يستخدم القناع المستشعرات المحيطة كي يرصد الشخص الذي يتفاعل معه مرتدي القناع أيًّا كان، ويتغيَّر استجابة لردود فعله. وهكذا بينما تتحدَّث إلى شخص ما، يصير القناع أكثر جاذبية بدرجة متزايدة في نظره. يعمل القناع على نحو أفضل مع الأشخاص الذين لا يُخضِعون انفعالاتهم للتنظيم عن طريق العقاقير، لكن في حالة سكان المريخ الذين يخفون انفعالاتهم يستطيع القناع تتبع مسارات العين وزمن الانتباه.

وفَّروا لنا قسمًا كبيرًا بسيط التجهيز من نفق عرضه عشرة أمتار له أرضية من الشباك المعدنية كي نعمل به، وكان مزودًا بأربعة أجهزة تصنيع وثمانية منصات عمل بها أدوات من مواد ذكية. منحتنا فواصل العمل الرقيقة وهمًا بالخصوصية لكن بالطبع كان كل من في ديموس يستطيع رؤية ما نفعل عبر الشبكة.

أثناء إعداد منصتي كنت قد شارفت على الانتهاء من التصميم، وقد وضعت تصوُّرًا بالفعل للبرمجيات الحرة الخاصة بمعظم الأنظمة. بحلول الساعة الرابعة صباحًا كنت قد أنهيت الآلية الأساسية، ثم أخذت قيلولة لمدة ساعة ثم باشرت العمل على البرمجيات، ثم أرسلت التصميم إلى جهاز التصنيع قبل الحادية عشرة صباحًا بدقيقة واحدة.

لم أستطِع مقاومة إغراء اختلاس النظر إلى ما يفعله الباقون. كانت منصة عمل صوفيا عليها عبوتان كبيرتان، ينمو في سائل ما داخلهما شيء له مظهر مزغب. كانت متكوِّمة في مقعدها تأخذ قيلولة، وقد غيَّرت ملابسها المصنوعة من مادة ذكية وبدت أكثر راحة في رداء العمل الفضفاض المصنوع بالكامل من أنسجة نباتية غير معدَّلة جينيًّا.

كان لدى هاروكو ساتو، من الجانب البعيد للقمر الأرضي، المشروع الأكبر حجمًا على الإطلاق، أسطوانة طويلة مزوَّدة بمداخل طاقة ضخمة تعمل عليها أربعة عناكب آلية. نظرت إليَّ في إرهاق، فلوَّحت بيدي محييًا إياها، لكنها استدارت نحو عناكبها الآلية دون أن تبادلني التحية.

أبقيت قناعي ملفوفًا إلى أن عدت إلى منصة العمل الخاصة بي. ظل الوجه الأبيض الفضِّي ساكنًا لحظة، ثم بدأ في التبدل استجابةً لي. في البداية عمل بصورة مثالية؛ إذ كان الوجه يضيق والعينان تتسعان ودرجة لون الجلد تتغيَّر من الفضي اللامع إلى لون داكن أكثر واقعية. لكن بعد ذلك ... صار مرعبًا، حيث بدأت العينان تتذبذبان بصورة عجيبة، فتتسع إحداهما بينما تضيق الأخرى، ثم تتبادلان الشكل. استجابت بقية الملامح لمشاعر الذعر التي انتابتني عن طريق التلوِّي وكأنها في أحد أفلام الرعب.

من الواضح أنها مشكلة برمجيات. كان بإمكاني أن أجري بعض الاختبارات كي أتبيَّن أي جزء من الخوارزمية المرتجلة لم يكن متوافقًا مع بقية الأجزاء ... أو يمكنني فقط أن أعيد كتابة الكود كله من الصفر، وهو ما اعتزمت فعله لأنني كنت أعلم أن هذا ما سينتهي الأمر عليه على أي حال، وكان من المنطقي أن أبدأ في الحادية عشرة والنصف صباحًا بدلًا من أن أجاهد في إتمامه في الحادية عشرة والنصف مساءً.

بعد ست ساعات من كتابة الكود احتجتُ بعض الراحة. كانت لنا حرية استخدام قاعة الطعام في فندق إلدورادو، لذا ذهبت إلى هناك وأسرفت في تناول البروتينات: دجاج محمر وجمبري مطهو على البخار وكرات سمك وطبقات البيض الملفوفة (تاماجوياكي) أما عن الخضروات فاكتفيت ببعض الفلفل الأخضر المحشو بالنقانق.

- «أتمانع أن أنضم إليك؟».

رفعتُ عيني من الطبق ورأيت متسابقة أخرى، راينيت لوتز من القمر ديموس نفسه. كانت «مسافرة»، واحدة من الزوار الدائمين الذين يقيمون في الفنادق والأماكن المستأجرة لكنهم لا يمثلون جزءًا من مجتمع القمر.

قلت: «بالتأكيد».

بينما كانت تجلس على المقعد المقابل لي تفقدتُ المعلومات الخاصة بها. كانت أكبر سنًا مما ظننت، إذ كان عمرها عشرين سنة معيارية، رغم أنها كانت تبدو في الخامسة عشر. كانت خاضعة لتعديل جيني شديد، وما كنت أحسبه وشمًا معقدًا اتضح أنه في حقيقة الأمر جلدها، إذ تتغير ألوانه في أنماط معقَّدة تجذب عينيك دائمًا إلى وجهها مجددًا.

تزايدت دقات قلبي ومستويات هرموناتي قليلًا رغم المثبطات التي عكفت على تعاطيها. قررت ألا أتلاعب بها. كانت دقات قلبها ومستويات هرموناتها

مرتفعة هي الأخرى.

سألتني: «هل نطعمك بما يكفي؟».

- «إنه أفضل من أي شيء لدينا على سطح المريخ». كان سكان المريخ يفكِّرون في الطعام (هذا حين يفكرون به من الأساس) على أنه وسيلة تغذية لا أكثر، وليس أمرًا ممتعًا.

بينما كنت أتحدَّث أرسلت لي رسالة خاصة قالت فيها: «كنت أتابع الأخبار. ثمة أقاويل كثيرة عنَّا نحن الثمانية». في الوقت عينه قالت بصوت مرتفع: «لدى مجتمع القمر ديموس بعض من أمهر الطباخين قاطبة. كيف حال مشروعك؟».

قلت: «شارفتُ على الانتهاء. ماذا عنك؟».

قالت: «انتهيتُ منه بالفعل». ثم بعثت برسالة صامتة قالت فيها: «علينا أن نقع في الحب».

رددتُ عليها في رسالة قائلًا: «ماذا؟» بينما تمكنت من أن أقول بصوت مرتفع: «أنتِ تعملين بسرعة».

ردت على رسالتي قائلة: «ليس هذا محض اختبار. إنه عملية ترفيهية. هذه الفتاة الأفريقية تفهم الأمر، لقد أحببتُ الطريقة التي دخلت بها الحفل بالأمس. لكن علينا أن نرتقي بالأمر إلى مستوى أعلى من هذا. الجمهور يريد بعض الدراما».

رددت عليها برسالة قلت فيها: «تريدين الوقوع في الحب كي تلفتي انتباه الناس؟».

- «نعم، فقط بما يكفي لأن يلاحظ الناس. بعض الإثارة من نوعية: أتكتمل قصتهما أم لن تكتمل؟ وبينما نقترب من القرار النهائي يمكننا اللعب على وتر الصراع: حبيبين ومتنافسين. وربما ينشب خلاف. ما رأيك؟».

ثم أضافت بصوت مرتفع: «سيحب الناس ما صنعت».

أرسلت لها رسالة قلت فيها: «هذا يتطلَّب تفكيرًا كثيرًا». ثم قلتُ بصوت مرتفع: «لا بد أنك تريدين الفوز بشدة».

قالت: «بالتأكيد. لقد عشت هنا منذ أن كنت طفلة صغيرة، لكني أريد أن أكون بالداخل. إنني أنتمي إلى هذا المكان. ماذا عنك؟» ثم سألتني بعد لحظة: «لماذا يحاول أحد سكان المريخ الانضمام إلى مجتمع القمر ديموس؟ كنت أظن أنكم تكرهون القمر ديموس».

ربما كانت أنماط الرسوم على جلدها تبعث برسائل لا شعورية، أو ربما كنت أريد إبهارها وحسب، لا أدري. أرسلت لها: «لديَّ فكرة. إنها كبيرة، كبيرة للغاية. أكبر من أن أنفِّذها على المريخ. أحتاج إلى مساعدة مجتمع القمر ديموس كي أحقِّقها في الواقع». وأمام الكاميرات اكتفيت بهز كتفيَّ.

سألتني في رسالة خاصة: «ما هي؟» وكانت عيناها تلتمعان.

كدت أبوح لها بفكرتي، لكني لم أكن أدري مع من قد تتحدَّث. يوجد الكثير من الأشخاص الأذكياء هنا، ويمكن للمحة واحدة أن تمكِّن شخصًا ما من التوصل إلى الفكرة التي توصَّلت أنا إليها حين كنت في إيوس.

قلت: «عليَّ أن أعود إلى العمل».

بدت عليها الدهشة، وفي صمت بعثت برسالة تقول فيها: «ماذا عن الوقوع في حبي؟».

رددت عليها برسالة قلت فيها: «سأخبرك الليلة عند الكشف عن مبتكراتنا» وقلت بصوت مرتفع: «سعدت بلقائك» ثم غادرت المطعم.

استغرقت نحو ثلاث ساعات أخرى حتى أجهِّز القناع بشكل سليم، وبحلول ذلك الوقت كان الوقت قد حان كي أعود إلى غرفتي وأستحم. بعد أن أغلقت الباب ووضعت جميع إعدادات الخصوصية على أعلى درجة، فتحت الصندوق ونظرت مجدَّدًا إلى القناع. تغير الجلد الفضي الناعم إلى لون البشرة الطبيعية، واتسعت العينان، ثم تغير شكل الخدين والفك. وبعد نحو ثانية أمكنني أن أتعرف على الوجه. كانت الملامح مبالغًا فيها قليلًا وكانت النسب طفولية درجة ما، لكن كان بوسعي أن أدرك أن الوجه كان يحمل ملامح صوفيا كومو.

وضعته مجددًا في الصندوق وأعدت ضبط كل شيء.

كنت أنا وصوفيا الوحيدين الواقفين في قلب غابة لوبيتا عند بدء حفل الليلة الثانية.

وصلت مبكرًا لأن قناعي كان جاهزًا مائة بالمائة، وكانت صوفيا هناك لأنها تنبأت على نحو دقيق بما سيفعله الآخرون جميعًا، أن يحاكوا دخولها المتأخِّر ليلة أمس، ومن ثم أرادت الاستحواذ على انتباه مجتمع القمر ديموس. كان ثمة مائة شخص حاضرين بأجسادهم، وكانت شريحة كبيرة من بقية أفراد المجتمع تشاهد ما يحدث عبر الشاشات. بدا مظهرها خلابًا في ردائها الواسع وبنطالها الحريري، الذي تبيَّن أنه مصنوع بواسطة حيوانات لا فقارية.

وضعت صوفيا مشروعها، الفلتر الفطري، على حامل قرب المدخل. كانت قد جهَّزت فطرًا هوائيًّا، سحابة من الغصينات الفطرية الزغبية تعمل على تنقية الهواء من الرطوبة والغبار وخلايا الجلد والعث وغير ذلك من الفتات. وحسب المربع النصي الذي كتبته فمن شأنه أن ينتج جرامًا واحدًا من البروتين يوميًّا وينظف مليون لتر من الهواء. حاولت أن تجعل شكله جميلًا بأن استغلت خاصية التلألؤ البيولوجي على خلفية سوداء، لكن تحت الضوء الكاشف بدا أشبه بكتلة من الخيوط الرمادية. توقَّف بعض الأشخاص ممن تبدو على وجوههم الجدية من أجل التحدث معها عنه، لكن أغلب الحضور اكتفوا بالنظر إليه وتجاوزه.

ظلَّ القناع الخاص بي في الصندوق. وحين كان الناس يتوقَّفون عند طاولتي كنت أقول لهم: «ستعرفون عند منتصف الليل» وأبتسم. وحين تفقَّدت مواقع التواصل الخاصة بالقمر ديموس شعرت بالسرور لرؤية إحساس بسيط بالترقب.

ظهرت راينيت لوتز بعد حوالي عشرين دقيقة، وكانت ترتدي زيًّا أشبه بأزياء العصور الوسطى مصنوعًا من القطيفة والجلد. كان لون جلدها ذهبيًّا الآن، تتخلله بعض التشقُّقات، ومن ثم بدت أشبه بلوحة قديمة في كنيسة.

سألتها: «ماذا لديك إذن؟».

قالت: «إنها خطة عمل. أنا أكثر ميلًا إلى التخطيط الإستراتيجي من المنتجات التكنولوجية».

كان لديها جهاز عرض ضوئي يظهر خطة إنشاء مستعمرة من الروبوتات على أحد الكويكبات القريبة من الشمس، بحيث تسلط أشعة الشمس عليه باستخدام مرايا شمسية وهو في فترة الحضيض الشمسي، ثم تستخدم المرايا نفسها كي تدفعه نحو مدار قريب من المريخ، وفي الختام تضع كتلة الحديد النهائية في إحدى النقاط الطروادية [(16)] على امتداد مدار المريخ.

قالت: «يمكنني منح مجتمع القمر ديموس مخزونًا من المعادن رخيصة التكلفة يكفيه لمدة قرن كامل، فالمعادن هي أكبر وارداتنا. إن تحليلاتي تبين أن عائد الاستثمار سيتراوح بين 65 و200 بالمائة على مدار عشر سنوات، وهذا المشروع سيجعل القمر ديموس يستغني عن المواد المعدنية الآتية من المريخ والقمر الأرضي».

وهو ما من شأنه أن يثبت دعائم هيمنته إلى الأبد. بدا الأمر منطقيًّا في الواقع، لكني لم أستطِع مقاومة إغاظتها قليلًا، فقلت: «أنت تدركين أنك سلَّمت خطتك إلى المجتمع بهذه الصورة، أليس كذلك؟ وحتى لو لم تفوزي سيظل بمقدورهم استخدامها».

لم تهتز ابتسامتها مليمترًا واحدًا وقالت: «لا أمانع مطلقًا». ثم أرسلت لي رسالة نصية صامتة قالت فيها: «لقد أعددت خطة بديلة يمكنني عرضها على مستثمرين من القمر الأرضي لو أراد مجتمع القمر ديموس الاستمرار في هذه الخطة. كما قلت، أنا أهتم بالتخطيط الإستراتيجي».

استعرضتُ بعضًا من المعلومات والملفات المساعدة الخاصة بمشروعها وعرفت وقتها لماذا استطاعت أن تنتهي منه بهذه السرعة، إذ كانت تعمل على الفكرة منذ عامين، والشيء الوحيد الذي فعلته ذلك اليوم هو تجهيز بعض وسائل العرض البصرية وتعديل النص كي يروق لمجتمع القمر ديموس. هذه براعة منها. لم تخطر على بالي قط إعادة تكييف واحدة من أفكاري القديمة.

خلف راينيت رأيت صوفيا تشرح فلترها لبعض الحاضرين. تصادف أن نظرت في اتجاهي وقتها، وللحظة بدا أن تعابير وجهها الواثقة المتحمِّسة خانتها.

في هذا الوقت كان جميع المتسابقين قد وصلوا ويجهِّزون مشروعاتهم، لذا بدا هذا وقتًا ملائمًا للتحرك. سألت راينيت: «أتسمحين بثانية؟ يمكنك أن تكوني أول من يجرِّب مشروعي».

قالت: «يسعدني هذا». ثم تبعتني إلى حيث أضع الصندوق المحتوي على القناع في دائرة الضوء. تجمَّع حولنا حشد صغير مع اقترابنا منه.

تنحنحتُ وربَّتُّ على الميكروفون وقلت: «أعضاء مجتمع القمر ديموس والسادة الضيوف، أقدم لكم إسهامي في الجولة الأولى لهذه المسابقة: القناع الأجمل». ثم فتحت الصندوق بأكثر صورة استعراضية ممكنة وأخرجت منه القناع. بدت راينيت متحيِّرة قليلًا وهي تحدِّق في الوجه الفضي عديم التعابير، لذا رفعته أمام وجهها وقلت لها: «ارتديه».

ارتدته بالفعل، وكان واضحًا أنها تتابع ردود الفعل لترى كيف كان يبدو. لم أكن أريد للقناع أن يتحوَّل إلى وجه صوفيا مجدَّدًا، لذا تعمَّدت النظر بعيدًا بينما كان القناع يضبط نفسه كي يتوافق مع الصحفية التي كانت تقف إلى جوار راينيت وتنتظر التحدث إليَّ. في نظرها تحوَّل القناع ليتخذ شكلًا خنثويًّا له شفتان لعوبتان. أما في نظر الرجل الأكبر سنًا الذي وقف أمامها بعد ذلك فقد صار للقناع وجه أشبه بجني صغير وله عينان مستديرتان وفم دقيق.

«الآن دعونا نرى كيف سيكون رد فعله تجاهك». هكذا قلت وأخذت القناع من راينيت. ارتديتُ القناع وشاهدت ردود الفعل. بينما نظرت راينيت إلى عيني عدَّل القناع نفسه إلى أن ... صار نسخة طبق الأصل من راينيت.

أثار هذا الأمر بعض الضحك المهذب. ناولت «القناع الأجمل» إلى الرجل الأكبر سنًا، وحين نظرت إلى القناع على وجهه وجدته يتغير إلى ذلك الوجه ذي الوجنتين المرتفعتين والبشرة الداكنة والذقن الضيقة. كان وجه صوفيا مجددًا.

- «أعتقد أن هذا يعني أن اقتراحي لم يرق لك». هكذا قالت راينيت في رسالة خاصة حين شاهدتْ ما يبدو عليه القناع.

رددت عليها قائلًا: «لم أحسم أمري بعد».

ردت قائلة: «أعتقد أن عقلك حسم أمره. أتساءل عما ستفعله هي بهذه المعلومة».

صوَّت مجتمع القمر ديموس على مبتكراتنا، لكن أبقيت النتائج سرية. بطبيعة الحال كان بإمكان الناس التخمين. كانت هناك سوق رائجة للتوقعات، وقدر كبير من المراهنات الصريحة. أظهر جدول الترتيب في مستعمرة هيليوم على المريخ أنني في المركز الثاني بفضل استعراضي القوي للقناع. وحتى بفرض وجود قدر من التحيز لي فمن المؤكد أنني كنت في النصف الأعلى من جدول المتسابقين.

بعد منتصف الليل بثمانٍ وثلاثين دقيقة طلب تيانا من الجميع الانتباه وتحدث عبر المنظومة الصوتية قائلًا: «والآن إلى التحدي الثاني. نعرف جميعنا المقولة الشهيرة بأنك لا تستطيع صنع العجة من دون أن تكسر بعض البيض. حسنًا، هذا ما نود من متسابقينا فعله. بحلول هذا الوقت غدًا نريد منكم أن تأتونا بعجة مُعدة من دون كسر البيض. سيكون هناك أربعة متذوقين لكل عجة، وسيرى الناس ويسمعون ردود فعلهم، لذا فإن النكهة والقوام مهمان. سيُحكَم عليكم أيضًا على أساس الإبداع والتشويق الذي تتسم به حلولكم للمشكلة».

عظيم، تحدي في الطبخ، وأنا مجرَّد شاب مريخي عديم المعرفة بهذه الأمور. ما من سبيل إلى تحقيق فوز سريع وسهل في هذه المرة. قرَّرت مواجهة المشكلة على نحو مباشر: كيف أخرج محتويات البيضة من القشرة دون أن أكسرها؟ ربما كانوا يأملون ان يخترع أحدنا جهازًا لنقل الأشياء عن بُعد أو طي الفضاء.

كان أول ما أحتاجه هو ساعتين من النوم. فسواء كانت الاختبارات مبنية على الابتكارية أو البراعة الفنية أو القدرة على الترويج، فكل هذه الأمور تتطلب تنظيم النوم بشكل ممتاز. أتساءل ما إذا كان مجتمع القمر ديموس قد ابتكر هذه المسابقة كلها من الأساس كجزء من خطة لتنشئة نوع فرعي من جنسنا البشري لا يحتاج للنوم مطلقًا.

أخذت قيلولة، ثم احتسيت قدحًا من الشاي لضبط حالتي المزاجية، ثم ذهبت إلى منصة العمل للبدء. استغرقت أربع ساعات حتى أتوصَّل إلى المقاربة الأساسية التي سأتَّبعها، ثم اثنتي عشرة ساعة أخرى كي أنفذها. لقد توصلت إلى كيفية الدخول إلى البيضة من دون أن أكسر القشرة.

إن قشر البيض يتسم بالنفاذية، وحتى مادة سريعة التهشم مثل كربونات الكالسيوم تتسم ببعض اللدونة. ومن ثم فقد زودت أداة سحب دقيقة متعدِّدة المحاور بمستشعر ضغط وأدخلتها في واحد من المسام الميكرونية الصغيرة وبدأتُ ببطء في فتحه، موسِّعًا إياه نانومتر تلو النانومتر، متوقِّفًا على مراحل من أجل السماح للمادة بالاستراحة، إلى أن تمكَّنت من إدخال ماصة صغيرة وسحب البياض والمُح. يبدو الأمر بسيطًا لكني جربت نحو خمسين بيضة إلى أن حصلت على ست بيضات لم تتكسَّر فيها كربونات الكالسيوم بالفعل.

بعد ذلك كان عليَّ أن أصنع العجة. في الوقت الحالي يمكنني صنع واحدة دون التفكير في الأمر، لكن وقتها لم يكن قد سبق لي في الواقع أن طبخت كثيرًا. فحين كنت صغيرًا كانت أسرتي تأكل في الكافتيريا الخاصة بالمسكن الذي نعيش فيه أيًّا كان، أو كنا نتولى مهمة غسل الملابس للجيران مقابل أن يعدوا هم الطعام لنا. وحين كنت صبيًّا تعلمت أن أصنع الشاي، وأسلق الرز و... حسنًا هذا كل شيء في الحقيقة.

كنت بحاجة إلى رؤية شخص آخر يعد العجة. فكرت في الاتصال بأحد في المنزل، لكن حتى أفضل تواصل عن طريق الهاتف لا يعادل الوقوف إلى جوار الشخص. كما واجهتني مشكلة الجاذبية، إذ لن يكون صنع العجة على القمر

ديموس مماثلًا لصنعها على المريخ. لذا أخذت البيض في قنينة مغلقة بإحكام وذهبت إلى مطبخ إلدورادو.

كانت صوفيا هناك بالفعل، وتحمل في يديها شيئًا أشبه بالبيض. كانت تتدرب على صنع العجة الخاصة بها لذا وقفت أشاهدها. وحين انتهت من آخر طيَّات العجة التفتت ونظرتْ إليّ.

- «هل أتيت كي تطبخ؟».

- «لم يسبق لي صنع العجة من قبل. أتمانعين أن أشاهدك؟».

- «الأمر صعب في هذه الجاذبية المنخفضة، إذ يتناثر البيض في كل مكان حين تصبه. لكن من ناحية أخرى الجاذبية المنخفضة تجعل من السهل قلب العجة، فبإمكانك قلبها بيد واحدة كالمحترفين».

سألتها: «كيف إذن أخرجتِ البيض دون كسر القشرة؟ أعدك أنني لن أخبر أحدًا».

- «هذا البيض ليست له قشرة. لقد صنعته من بروتين نباتي».

- «رائع! لقد وجدتُ طريقة لإخراج البيض دون كسر القشرة».

- «حقًّا؟».

قلت: «الفضاء متعدِّد الأبعاد. عليكِ بلف البيضة داخل الفضاء متعدد الأبعاد بحيث تنقلب البيضة فتصير القشرة في الداخل والبيض في الخارج».

أعتقد أنها صدَّقتني للحظة.

قالت وعلى وجهها ترتسم ابتسامة خلابة: «أنت شخص بغيض! بسبب هذه المزحة لن أخبرك كيف تعد العجة».

- «أعتقد أني عرفت الأساسيات من مشاهدتك. سوف أتدرب على بعض بيضات الفندق قبل أن أستخدم بيضات الفضاء متعدد الأبعاد الخاصة بي».

في تلك اللحظة لاحظتُ أن استجاباتها كانت جامحة، إذ كانت تظهر الاهتمام مع لمسة من الإثارة، والإرهاق، وجرعة ثقيلة من الخوف.

سألتها: «أنت لا تنظمين عمل هرموناتك؟».

قالت: «لا أفعل ذلك».

- «ألا توجد أي أجزاء مزروعة داخلك؟».

- «بالطبع لديَّ أيها السخيف، لكن الهدف منها هو أن تبقيني بصحة جيدة، لا أن تغير مشاعري. إذا لم تشعر بالإغراء فلن تتخذ خيارات أخلاقية. الآن شاهد: عليك بخفق البيض إلى أن تظهر به بعض الفقاعات، لكن لا تكثر من خفقه. أترى؟».

حفظت الصور التي التقطها المستشعر لما يبدو عليه البيض. «إذن ... أنت معجبة بي؟ أنت لا تتعمدين إبداء هذا الإعجاب بشكل متعمَّد؟».

قالت في صبر: «نعم، أنا معجبة بك. ما رأيك بي؟».

- «حسنًا، لقد ثبَّطت استجاباتي بشدة كي أحافظ على تركيزي؛ فليس هذا وقتًا مناسبًا للبدء في علاقة».

قالت وهي تهز رأسها: «عجبًا لكم أيها المريخيين! على أي حال بمجرد خفق البيض بالشكل المناسب، عليك أن تحرص على أن تكون المقلاة ساخنة بدرجة ملائمة».

- «على أي درجة حرارة؟».

- «لا أدري». هكذا قالت بينما ارتسمت ابتسامة على وجهها كما لو أنها لم تدرك هذا إلا الآن. «فقط ... حين تبدو ملائمة. حين يبدأ الزبد في اكتساب اللون البني».

- «متى تعلمين أن الوقت مناسب لعمل شيء ما؟».

- «بالخبرة، والتدريب ... والرائحة! حين يتصاعد الدخان بهذه الصورة اعلم أن المقلاة أسخن مما ينبغي!» ثم رفعت المقلاة من على النار ووضعتها في الحوض، وبدأت استخدام مقلاة أخرى.

لقد سجلت درجة الحرارة، أعلى من 130 درجة بقليل.

قالت: «يبدو هذا صحيحًا». ثم بدأت صب البيض في المقلاة وأضافت: «صب الأشياء يستغرق وقتًا طويلًا هنا».

- «ألم تغادري كوكب الأرض من قبل قط؟».

- «ذهبت في رحلة للفضاء عبر مصعد كينيا الفضائي ذات مرة، لكن لم يتَح لي الوقت لطبخ شيء ما هناك» ولسبب ما ارتفعت مستويات الخوف لديها وهي تتحدث.

سألتها: «ألم تحبي السفر إلى الفضاء؟».

- «ماذا؟ حسنًا، لقد أحببت المشهد، والجاذبية المصغرة بالأعلى رائعة».

أرسلت لها رسالة خاصة قلت فيها: «مِمَّ تخافين؟».

نظرت إليَّ ثم إلى العجة وقالت: «يا إلهي، لقد أفرطت في طهيها. أترى؟ لقد صارت مطاطية القوام. لم نكن منتبهين لها». وبينما كانت تكشط قرص العجة المطاطي وتلقيه في سلة النفايات العضوية، أرسلت لي رسالة خاصة قالت فيها: «إذا كنت تصر على أن تعرف، فأنا أخشى أنني لن أفوز».

رددت عليها: «ولماذا تهتمين بذلك؟ يمكنك العودة إلى أفريقيا وإدارة المنطقة، أليس كذلك؟».

قالت بصوتٍ مرتفع: «أنت لا تعرف شيئًا». ثم طرقت على المقلاة وقالت: «فلتصنع عجتك!» وأخذت حاجياتها وانتقلت إلى الجانب المقابل من المطبخ.

بينما كنت أخفق بعض البيض على سبيل التدريب وأجهز المقلاة مجددًا تفقدتُ تاريخها. من الواضح أن حديثي مس وترًا حساسًا لديها. جمعت منظومة مايكروميجاس المعلومات كلها. كانت عائلة صوفيا في الماضي من أهم رموز النهضة الأفريقية، قبل ان تولد صوفيا، بيد أنهم أخذوا يفقدون قوتهم السياسية منذ ذلك الحين. كان من سوء حظهم أنهم جزء من مجموعة أقلية ثرية، وهو الأمر الخطير على الدوام. كان أقرباؤها البالغون من خارج منطقة رابتا الاقتصادية الخاصة إما مسجونين أو قُتلوا في ظروف مريبة. وتظهر التوقعات أنهم في سبيلهم إلى فقدان السيطرة في رابتا كذلك. ومن شأن وجود أحد أفراد عائلة كومو في مجتمع القمر ديموس أن يمنحها صديقًا ذا ثقل كبير.

جربتُ قرصي عجة آخرين، وراقبت درجة الحرارة والوقت بحرص. رغم الفشل في كل مرة فقد تحسن أدائي، لكن لم يكن الطعام صالحًا بعد للاستهلاك الآدمي.

بعد محاولتي الثالثة أخذت استراحة وذهبت إلى صوفيا. بدأت حديثي قائلًا: «اسمعيني».

قالت: «آسفة أنني احتددتُ عليك. كنت متوترة وتحدثت دون تفكير، هلا سامحتني؟».

- «كلا ... أعني نعم! أسامحك، لكن الغلطة غلطتي في واقع الأمر. آسف لو كنت قد قلت شيئًا ضايقك. لم أكن أعلم بشأن عائلتك».

قالت: «فلنتجاوز الأمر من فضلك». كان الجميع على القمر ديموس يتفقدون أمر عائلة صوفيا الآن على الأرجح. عدت إلى البيض ثانية.

فاز المتسابق من كويكب سيريس بهذه الجولة، دون منافسة. كان قد التزم بالصيغة الحرفية لعبارة «دون كسر البيض» وعمد إلى إذابة القشرة في الحمض، لكن المنتج النهائي كان مذهلًا. اتضح أنه كان خبيرًا في الطهيُ في الجاذبية المصغرة وأعد عجة إسبانية بدت أشبه بالسحابة. وقد جعلتنا تعبيرات النشوة المرتسمة على وجوه الحكام نشعر بإحباط شديد.

أبلت صوفيا بلاءً حسنًا. كان مُنتجها المُخلَّق له مظهر وطعم العجة الفرنسية الكلاسيكية. سلكت راينيت لوتز نهجًا مبتكرًا وصنعت عجة حُلوة بحلوى المرزبان، وحصلت على رد فعل طيب.

أثمرت جهودي عن بعض إيماءات الاستحسان حيال الطريقة التي تمكنت بها من إخراج البيض، لكن رد الفعل حيال طبقي النهائي كان فاترًا. لم يبصق أحد العجة، وهو ما حدث بالفعل مع الفتاة المسكينة من القمر الأرضي التي حاولت تخليق بديل للبيض من الخميرة، لكنها ابتكرت شيئًا غير صالح للأكل على الإطلاق.

حين تفقدتُ المراهنات على موقع مستعمرة هيليوم وجدت أن نسبتي تبلغ خمسة إلى واحد. كانت صوفيا في الصدارة بنسبة ثلاثة إلى واحد، وكانت راينيت الآن متعادلة معها.

منحونا يومًا شمسيًّا على سبيل الراحة قبل الإعلان عن التحدي الأخير، ومن ثم حصلنا جميعًا على قدر وفير من النوم.

ذهبت في جولة لمشاهدة بعض معالم القمر ديموس: أكاديمية لاجادو، وباحة المركبات الفضائية، ومتنزه المنحوتات المائية. عثرت على أحد المقاهي في طريق كانديد وجلست أشاهد حشود الناس.

بعد ساعة من جلوسي هناك وجدني بيرز تيانا. كان يرتدي سترة غير رسمية ذات بطانة، لكني حين نظرت عن كثب رأيت أنها سترة جسدية مصنوعة في الواقع من الحرير المنسوج، وأنها مفصلة ومصبوغة بحيث تعطي تمامًا مظهر سترة راقية ذات بطانة. قال لي: «هل تنتظر أحدًا؟».

- «فقط أشاهد المكان».

قال: «هل تسمح لي؟» وجذب مقعدًا قبالتي، ثم خبا صوت الحشود حين قام بتشغيل عباءة الصوت.

- «هل ثمة خطأ ما؟» هكذا سألته وقد شعرت بالخوف فجأة من أن أكون قد خرقت قاعدة ما غير معروفة.

- «آه، كلا كلا». هكذا قال بابتسامة مُطمْئِنة. «لست هنا بوصفي أحد المحكمين. هذه زيارة غير رسمية تمامًا».

وصل أحد الروبوتات حاملًا كأسًا من النبيذ الأبيض وبعض السمبوسك من أجله، فأخذ قضمة وارتشف بعض النبيذ قبل أن يكمل حديثه.

قال: «أنت شاب موهوب للغاية. لم يكن متذوقو الطعام منبهرين للغاية بطهوك، لكن أعضاءنا الأكثر حصافة لا يزالون يعتبرونك مرشحًا قويًّا للغاية».

قلت: «أشكرك».

أخذ قضمة أخرى من السمبوسك وقال: «ما فكرتك الكبيرة؟».

حدقت فيه ثانية وقلت: «كيف سمعت بهذا الأمر؟».

ابتسم وارتشف بعضًا من النبيذ وقال: «أعضاء مجتمع القمر ديموس يتمتعون بالسرية الكاملة في اتصالاتهم وأنشطتهم على الشبكة. هذا أحد حقوقنا الأساسية. أما الزوار فربما يخضعون للمراقبة من أجل صالح المجتمع. حتى

على مستوى الرسائل الخاصة. والبعض منا ينتابهم الفضول، فما فكرتك الكبيرة؟».

- «حين كنت أعمل في إيوس بدأت العمل على بعض مبادئ الدفع المتقدمة. وأعتقد أنني وجدت وسيلة كي ...».

ثم توقَّفت. كنت أعمل على مفهوم مشغل ألكوبيير القديم - الخاص بانضغاط الزمكان من أجل التحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء من دون خرق القواعد الأساسية - وتوصلت إلى طريقة للالتفاف حول المشكلات التي وأدت الفكرة في مهدها منذ نحو قرن. اطلع تشو على أفكاري ولم يجد أي خطأ بها، لكنها ستستغرق وقتًا طويلًا للغاية في تطويرها.

«كي ...» هكذا استحثَّني.

أنهيت عبارتي قائلًا: «كي أغير الطريقة التي تتحرك بها المركبات الفضائية». كنت أشعر بنفسي وأنا أتعرَّق وأزداد توترًا، ومنحت نفسي جرعة كبيرة من مثبطات الأدرينالين. لم يكن هذا ذا نفع كبير، إذ كان بمقدور تيانا على الأرجح أن يسمع نبضي من حيث يجلس.

انتظر لحظات ثم أكمل تناول قطعة السمبوسك الأولى وقال: «أنت عضو في ثلاثة مشروعات خاصة بمجموعة الدكتور تشو ...».

قلت: «ليست للفكرة علاقة بأي من هذه المشروعات».

- «كما قلت، أنا لست هنا بصفة رسمية، وسنمنحك الخصوصية الكاملة. ليس عليك أن تقلق من أن يسرق أحدهم فكرتك».

لا بأس بهذا، لكنه كان يستمع إليَّ، وبالطبع كانت منظومة مايكروميجاس تستمع بالمثل، وكذلك أي شخص «يحتاج أن يعرف بهذا الأمر» من أجل صالح المجتمع. وعلى أي حال ما أنا سوى زائر عابر لا أكثر.

كانت فكرتي ستغير مفهوم السفر بشكل جذري، لا شك في هذا. فالمركبات الفضائية المزودة بمشغل ألكوبيير لن يكون عليها أن تقلق بشأن المدارات ذات الحد الأدنى من الطاقة أو أجهزة الدفع المتاحة. هذه الفكرة ستوصلنا إلى النجوم! لن يظل القمر ديموس مركز السفر عبر الفضاء بعد اليوم، بل يكون مجرد صخرة أخرى داخل مجموعة شمسية عادية.

ما لم يتحكّم مجتمع القمر ديموس في المشغل بطبيعة الحال، ففي هذه الحالة سيمتلكون الكون كله.

قلت: «لا تزال الفكرة مجرد مفهوم غير مكتمل. ليست جاهزة للنشر بعد».

أنهى قطعة السمبوسك الثانية ونظر إليَّ، فبادلته النظر بنظرة مفادها «لو كنت تريد الحصول على ما بداخل الصندوق اللامع، عليك أن تسمح لي بالدخول إذن. وإلا سأعرض صندوقي اللامع على شخص آخر».

قال: «هنا على القمر ديموس نحن مجتمع واحد حقًّا. ونحن لا نسمي أنفسنا مجتمعًا من فراغ، فالكل يجب أن يسهم بشيء».

قلت: «أعتقد أن لديَّ الكثير لأسهم به».

سادت فترة صمت طويلة بينما كان ينتهي من مشروبه. ثم قال لي: «حسنًا، أشكرك على هذا الحديث القصير». ثم نهض ومضى في طريقه، وتلاشى الصمت من حولي.

عدت إلى غرفتي وطلبت لنفسي وجبة دفعت ثمنها من حسابي الائتماني الفندقي. لكن حتى بعد أن جهز الروبوت الطاولة لي شعرت بالوحدة الشديدة.

لذا حملت طعامي عبر الردهة وطرقت على باب صوفيا، وقلت لها: «أتودِّين تناول بعض الطعام؟ لديَّ طبق كبير من السمك المحمر والبطاطس ولا يمكنني تناوله كله بمفردي».

قالت: «كنت أفكر في تناول بعض السلاطة».

قلت لها: «كما تحبين». ثم شرعت في الاستدارة.

فقالت: «لكن ربما أتناول القليل». وتراجعت إلى الخلف كي تسمح لي بالدخول.

كانت غرفتها ألطف كثيرًا من غرفتي. كانت الغرفتان متماثلتين بطبيعة الحال، لكنها أجرت بعض التعديلات اللطيفة في إعدادات الغرفة، فكانت الجدران تعرض منظر مدينة ذات أبراج بيضاء وذهبية اللون في دلتا نهر خضراء تغمرها أشعة الشمس المتوهجة. جلسنا على بساط ملون. لم يكن مصنوعًا من مادة ذكية وإنما كان بساطًا طبيعيًّا من شعر الحيوانات، حملته

معها عبر الجاذبية الأرضية وقطعت به نصف وحدة فلكية فقط كي تجلس عليه هنا.

كان السمك مقبولًا، بمعنى أنه كان أفضل طعمًا من معظم الأشياء التي تناولتها في حياتي قبل ذلك، لكن صوفيا أخرجت مرطبانًا صغيرًا به بعض الفلفل الحار كي نغمس السمك فيه. وقد تمنيت لو كان لدينا شيء أقوى من الشاي كي أهدِّئ به الحرارة في حلقي.

أكلنا في صمت، رغم أنها ضبطت الغرفة على وضع الخصوصية الكاملة. فمنذ محادثتي مع بيرز تيانا تلك الظهيرة صرت أعلم أن كل ما أتفوَّه به وكل نشاطي على الشبكة مُراقَب من شخص ما.

- «من في اعتقادك سيفوز؟» هكذا سألتني حين لم يعد باقيًا سوى البطاطس.

- «ليست لدي فكرة. ربما أنت؟ إن سوق التوقعات تضعك في المرتبة الأولى».

قالت: «المسابقة لا تزال مفتوحة أمام الجميع. وإذا أسأت الأداء في الجولة الأخيرة من الممكن أن تفوز أنت، أو راينيت لوتز».

- «راينيت؟ ليس راكيش؟».

- «كلا ليس هو. فكل ما يجيده هو إعداد الطعام».

أنهينا البطاطس، ثم قررت أن أثير الموضوع الذي كنا نتجنَّبه، فقلت: «حين قابلتك، اعتقدتُ أننا سنقع في الحب».

قالت: «لاحظت هذا أيضًا. لكنك تتناول عقاقير من أجل ذلك».

تحلَّيت بالشجاعة وقلت: «حين ينتهي كل هذا، هل ...؟».

- «ماذا؟».

- «هل تريدين أن نكون معًا؟».

سألتني: «هل ستسمح لنفسك بأن تحبني؟».

أوضحت قائلًا: «فقط واحد منا سينضم إلى مجتمع القمر ديموس».

قالت: «أنت قاسي، أتعلم هذا؟ هل أنت قادر حتى على الفهم؟ أحبك بالفعل. أنا لا أتعاطى أي عقاقير كيميائية كي تضبط هرموناتي، ومنذ أن رأيتك وأنا في هذا الصراع العنيف. لو أنني فزت، سأنضم إلى مجتمع القمر ديموس، وأساعد عائلتي في موطني ... وأخسرك. ولو فزت أنت، سينتهي الحال بي في المنفى في مكان ما، أو أن أخون عائلتي كي أظل في أفريقيا، وسأخسرك أيضًا».

- «ماذا لو لم يفز أينا؟».

- «حينها سنكون شابين لامعين فشلا في تحقيق أهم آمالهما. أعتقد أننا سنكون تعيسين معًا».

- «هل تظنين أنهم خططوا لهذا؟».

- «ربما. أعتقد أن لمجتمع القمر ديموس أهدافًا خاصة به، قد لا يتفهمها حتى أعضاؤه أنفسهم. قد لا تكون هذه الصخرة المليئة بالأشخاص البارعين الذين عزلوا أنفسهم عن بقية البشرية هي أفضل وضع للأعضاء، لكنها جيدة لمجتمع القمر ككل».

كنت آمل أن يسمعها أحد وهي تقول هذا. قلت لها: «أراكِ في المساء». ثم عدت إلى غرفتي.

استخدموا غرفة اجتماعات متواضعة في أحد الفنادق كي يعلنوا عن المسابقة الأخيرة. خُصصت لنا مقاعد وكان لكل مقعدين اللون نفسه: مقعدان أحمران، واثنان أخضران، واثنان أزرقان واثنان ذهبيان. جلستُ على أحد المقعدين الأخضرين وجلست صوفيا إلى يساري على الآخر. جلس بيرز تيانا على رأس الطاولة، ورغم أن المجتمع كله كان يشاهدنا، فإننا كنا نشعر بقدر من الخصوصية.

بدأ تيانا بالحديث عن كيف أننا جميعًا رائعون وكيف أن خبرة المسابقة من شأنها أن تثرينا بصرف النظر عن من يفوز. وفي النهاية تطرَّق إلى الجزء المهم.

- «هذه الجولة الأخيرة ستختبر قدرتكم على العمل مع الآخرين. إن مجتمع القمر ديموس يقدر الإبداع والمبادرة، لكن من المهم للغاية أن يكون أعضاؤنا جميعهم قادرين على التعاون».

كنا نحن الثمانية أشخاصًا أذكياء، وتبادل كل شخصين جالسين على مقعدين باللون نفسه النظر.

- «كما خمَّنتم فقد قسَّمناكم إلى أزواج من أجل هذه المهمة. إن التقسيم ليس عشوائيًّا، إذ توصلت منظومة مايكروميجاس - بالتحليل - إلى الأشخاص الذين يحملون الاستجابة الشعورية الأقوى نحو بعضهم، ومن ثم فقد اخترنا لكل منكم الشريك الأصعب كي يعمل معه».

فكرت في نفسي قائلًا: الأوغاد، لقد وضعوني مع الفتاة التي تحبني، وهذا من شأنه أن يشتت تركيزنا لأقصى درجة.

- «والآن إليكم المهمة. إن القمر ديموس مكان رائع، فهو دُرة المجموعة الشمسية، لكن لا يوجد عالم مثالي. إننا نريد أن نضيف شيئًا، لذا عليكم تحديد إحدى الاحتياجات أو أوجه النقص، ثم تبتكرون شيئًا لعلاجها. لديكم يوم شمسيّ واحد لإكمال المهمة. هل من أسئلة قبل أن نبدأ؟».

تحدَّثت صوفيا قبل أي شخص آخر قائلة: «هل هناك أي قيود على ما يمكننا فعله؟».

أومأ برأسه وقد بدا عليه السرور وقال: «ليس كثيرًا. لا يمكنكم استخدام أي مساحة أو مواد يجري حاليًّا استخدامها في أغراض أخرى، ومسموح لكم باستخدام عشرة كيلو واط من الطاقة لا أكثر. وبخلاف ذلك لديكم الأولوية في استخدام أجهزة التصنيع، والروبوتات، ومعالجة المواد خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة. فلتنتبهوا للحد الزمني، فالمشروعات غير المكتملة تعتبر فاشلة».

لم يكن لدى أي شخص آخر أي أسئلة. أمكنني أن أرى الآخرين وقد بدؤوا بالفعل في التفكير معًا، لذا أنشأت اتصالًا خاصًّا مع صوفيا.

أرسلت أقول لها: «أنتِ فنانة. فلتختاري شيئًا تبهرينهم به».

كانت عيناها تتحركان في جنون بينما كانت تتفاعل مع مايكروميجاس، لذا انتظرت حتى أرسلت لي ردها الذي قالت فيه: «أعتقد أن لديَّ فكرة ما. لنذهب إلى مكان يمكننا فيه التحدث على انفراد».

انتهى بنا المطاف في مؤخرة منطقة العمل وقد خفضنا الأصوات المحيطة بنا إلى أقصى درجة. قالت: «من صغري وأنا أفكر في القمر ديموس. هل

نظرت إلى الناس هنا؟».

- «ماذا عنهم؟».

فتحت نافذة تظهر شارع فولتير وقالت: «إذا نظرت يمكنك أن تميِّز أفراد المجتمع عن الزائرين. أترى ما أعني؟».

- «أتعنين النوافذ المنبثقة التي تعلوهم؟».

- «كلا، بل أعني مظهرهم من الناحية البدنية. لا يتعلق الأمر بالمظهر الموروث - فثمة تنوُّع جيني قوي هنا - ولا يتعلق الأمر بالجاذبية كذلك. إن العمال الأجراء والمسافرين يتعرَّضون لخبرة الجاذبية المصغَّرة بشدة هم أيضًا، لكنهم لا يبدون مثل أفراد المجتمع».

خمَّنت قائلًا: «الملابس؟».

- «كلا، انظر. هذا الرجل يرتدي رداء عمل قابلًا للاستخدام مرة واحدة، ومع ذلك يمكنني أن أعرف أنه من أفراد المجتمع، بينما هاتان السيدتان ترتديان أزياء شديدة التأنق، لكنهما ليستا من هنا. على الأرجح هما من الأرض».

قلت بعد لحظة تفكير: «أرى ما تعنين. لكن لا يمكنني وضع يدي على ما أراه».

قالت: «الثقة بالنفس. إنهم لا يسرعون في مشيتهم، ولا يجفلون. وأيًّا كان ما يفعلونه فهو الشيء الأكثر أهمية وإثارة على الإطلاق. إنهم يتَّسمون بثقة كاملة في النفس».

نظرت إلى الأشخاص وأخيرًا فهمت ما كانت تعني. كان أفراد المجتمع يمشون في خطوط مستقيمة بالسرعة التي تلائمهم، بينما كان الزوار والعمال يسيرون حول أفراد المجتمع وكأنهم رياح تدور حول الصخور.

قالت: «إنه قمرهم، إنها مجموعتهم الشمسية بالكامل، والباقين مجرد زوار ومعاونين مستأجرين». بدا أن الفكرة تضايقها أكثر مما ضايقتني.

أوضحت قائلًا: «ما زلت لا أرى كيف يمكن لهذا أن يمنحنا مشروعًا».

- «إنهم ينظرون إلى داخل عالمهم وحسب. وباستثناء الردهة الخاصة بالمصعد الفضائي ومناطق المشاهدة في المرفأ الفضائي لا توجد أي نوافذ في القمر ديموس. أريد أن أمنحهم عيونًا يرونا بها الكون».

- «مرصد؟».

- «بالضبط!».

قلت: «حسنًا، هذا ... سهل للغاية. مرآة، وعدة تثبيت، وبعض البرمجيات الجاهزة. لا بد أن لديهم تليسكوبات بالفعل، ويستخدمون الأشعة تحت الحمراء لرصد الأجسام المعادية، وأجهزة استهداف لمنظومات الدفاع، وربما يراقبون المريخ والقمر الأرضي».

- «أجل، لكن كل هذه أمور تقنية بعيدة عن العامة. أعني مكانًا يستطيع الناس فيه رؤية النجوم».

- «أحب هذه الفكرة. يمكننا تقسيم المهمة، بحيث تصمِّمين أنت منطقة المشاهدة والواجهة، بينما أبني أنا التليسكوب».

كان متبقيًا من الوقت المتاح اثنتان وعشرون ساعة، لذا شرعنا في العمل على الفور. وجدت صوفيا حيِّزًا غير منتظم من الجليد قرب طريق لاجادو وحصلت على إذن من مايكروميجاس لتفريغه. وبينما كانت هي والروبوتات يعملون على ذلك انتقيت أنا فوهة بعرض عشرة أمتار على الجانب القصي من القمر ديموس وشرعت في العمل على تجهيزها.

كان من الأبسط أن أبني مرآة على شكل قطْع مكافئ وأضعها على ركيزة مرتفعة وحسب، لكن أعتقد أن القليل من حِس صوفيا الجمالي البصري قد تسلل إليَّ، لذا أردت شيئًا أجمل. مهَّدت الفوهة الصغيرة على شكل منحنى دائري بسيط وبطنتها بمادة ذكية مفرغة مزودة بسطح بصري عاكس. وضعت كاميرا ذات جودة عالية على ذراع وبرمجت المادة الذكية، بحيث تشكل مرآة قطع مكافئ في المكان المقابل للكاميرا أينما تحرَّكت. كانت النتيجة بركة فضية تعيد تشكيل نفسها بدلًا من أن تتحرك.

كانت هناك بعض العيوب: فقد كان بإمكانها فقط أن ترصد الأشياء في حدود ست درجات من السَّمْت [(17)]، لكن بما أن القمر ديموس كان يدور حول المريخ مرة كل يوم شمسي، يمكنك أن ترى أغلب مناطق السماء لو اخترت توقيتك بعناية. كانت النقاط العمياء الوحيدة هي تلك المحيطة بالقطبين السماويين للمريخ، وهي ليست بمناطق مثيرة للاهتمام على أي حال.

بدا الأمر بسيطًا، لكن العمل الفعلي استغرق كثيرًا من الوقت. كان عليَّ ارتداء بذلة فضائية من أجل الإشراف على الروبوتات، لأن المهمة كانت

مختلفة عن عملها المعتاد. على سبيل المثال: حين حاولت الروبوتات تمهيد الفوهة للمرة الأولى فإنها بدأت من الحافة الخارجية وعملت نحو الداخل، وكانت النتيجة أنها أفسدت عملها حين حاولت الزحف خروجًا من الفوهة. أيضًا وجدتُ صعوبة في لصق المادة الذكية على السطح، إلى أن تمكنت أخيرًا من جعلها تلتحم بالزجاج في السنتيمترات العشرة الأخيرة.

بعد نحو ست عشرة ساعة من العمل في المشروع كانت عاكفًا على كتابة الكود البرمجي للمرآة، وفي الوقت عينه الإشراف كذلك على الروبوتات التي تبني ذراع الكاميرا، بينما أنا داخل بذلتي الفضائية التي ملأها العرق ومؤشر خزان البول بها يومض إشارةً إلى الامتلاء.

سألتُ صوفيا: «كيف الحال لديك؟».

- «ألقِ نظرة». ثم أرسلت لي صورة لمسرح المشاهدة الذي جهزته. كانت له سمة الحميمية، إذ يتكون من اثني عشر مقعدًا موضوعة تحت شاشة مقببة الشكل. كان التصميم الإجمالي مبنيًّا على المعمار المغولي، ومستوحى من مرصد جاي سينج في جايبور، بالإضافة إلى عناصر معمارية من طراز آرت ديكو تحاكي القباب السماوية في أمريكا الشمالية.

قلت لها: «هل يمكنك المجيء إلى هنا؟ هناك أشياء أحتاج منك عملها».

بعد نحو ساعة جاءت وهي تتقافز عبر السطح نحوي. كانت تتحرَّك بيسر داخل بذلتها، وهو ما كان أمرًا مهمًّا.

- «ما الذي تحتاجه؟» هكذا سألتني وهي تهبط في سلاسة على مسافة متر مني.

قلت لها: «لو أمكنك تولي أمر برمجة التحكم في الحركة سيكون بوسعي إصلاح ذلك المشغِّل الغبي».

قالت: «بالتأكيد». ثم نظرت لأعلى وقالت: «آه ...».

- «ماذا؟».

قالت: «السماء». كنا في ظل المريخ حينها، لذا فقد كنا نقف على سطح أسود بينما نتطلَّع إلى الكون. امتد شريط مجرة درب التبانة أمام ناظرينا،

وبدت النجوم قريبة للغاية، بحيث يمكننا أن نلمسها بأيدينا. شاهدنا المنظر في صمت لنحو دقيقتين.

وفي النهاية أطلقت صوفيا تنهيدة أسف وقالت: «أعتقد أننا بحاجة إلى العودة إلى العمل».

- «نعم، صحيح». منحت نفسي جرعة أخرى من المنشطات وذهبت لتولي أمر المشغِّل.

ما حدث بعد ذلك بدا أشبه بواحدة من سلاسل الإخفاق المعقَّدة التي نراها في معظم الحوادث الفضائية. لم تكن صوفيا تعلم أن ذراع الكاميرا لم يكن في موضعه الأساسي حين حمَّلتْ الكود. كنت قد تركت حبل السلامة الخاص بي يلتف حول الذراع، وكانت الرَّزة المثبت بها الحبل مغروزة في قطعة هشة من الصخور. كانت كل عناصر الكارثة مجتمعة.

لذا بعد أن استبدلتُ المشغل المعيب وأعدتُ توصيل الطاقة، عاد ذراع الكاميرا إلى موضعه الأساسي على الفور، بحيث كانت الكاميرا بزاوية قدرها تسعين درجة أعلى المرآة. جذبني الذراع من مكاني وانتزع الرَّزة من الصخور بحركة سريعة.

شعرت بجذبة قوية حين شُد الحبل بأقصى طوله بينما كنت اندفع نحو الفضاء، وتبع ذلك بضع ثواني من السقوط الحر. بعدها وصلت إلى نهاية الحبل، وشعرت بهزة بسيطة بينما علقت الرَّزة في الذراع. لوهلة ظننت أنها ستصمد، لكنها انزلقت بعيدًا واندفعت أنا نحو الفضاء الخارجي دون أي شيء يربطني.

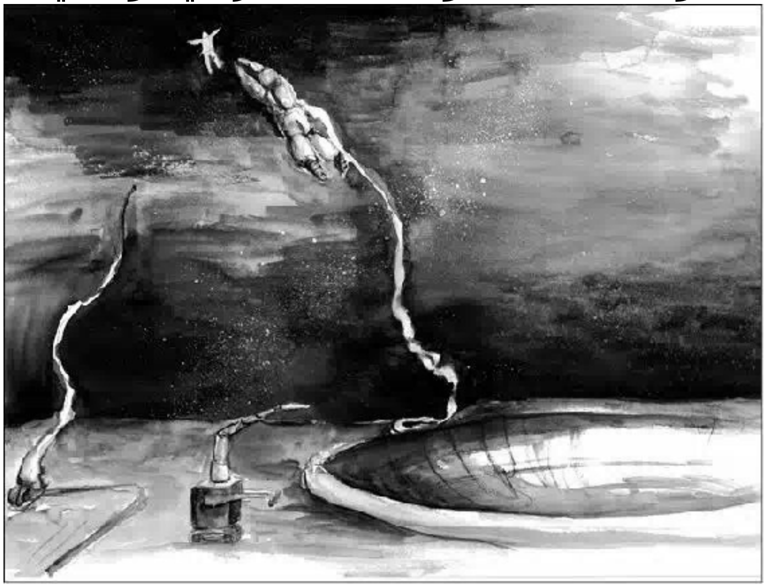

Haylee Bolinger / ASU ,2013 ©

خاطبتني صوفيا عبر اللاسلكي قائلة: «وو يِنج! أأنت بخير؟».

- «ما مقدار سرعتي؟».

صمتت لحظة ثم قالت: «ستة أمتار في الثانية».

سرعة الإفلات. [18] كنت الآن قمرًا من أقمار المريخ. عليَّ أن أتصل طالبًا الإنقاذ، ما لم يساعدني أحد. قلت لها: «صوفيا، سأبلغ عن هذا الحادث بنفسي! فلتنتهي أنتِ من التليسكوب!» ثم انتظرت.

بعدها بعشرين ثانية ارتطم بي شيء. كانت تلك صوفيا بالطبع. استخدمت صوفيا الذراع كي تقفز نحوي، مجرجرة وراءها حبل السلامة الخاص بها. أمسكت بي من ركبتي ثم جذبت نفسها للأعلى إلى أن تمكنت من الإمساك بعدة السلامة الخاصة بي.

قالت: «ثبِّت نفسك في الحبل!» ثبتُّ نفسي في حبل السلامة الخاص بها ثم لففت ذراعي حولها بقوة. بعدها بثانية شعرنا بالجذبة القوية للحبل حين وصل أقصى طول له، ثم صمد. تنفس كلانا الصعداء.

لم أفلتها من بين ذراعي. «نحن على قناة اتصال مباشرة، لن يستطيع أحد سماعنا. كم من المال تمتلكين؟».

- «ماذا؟ لا أدري. المال كله مجمَّد على صورة مبانٍ وبنية تحتية».

- «هل يوجد ما يكفي لتمويل مشروع تقني؟ عشرة أو عشرون ميجا واط-ساعة؟».

- «لماذا تسألني هذا الآن؟».

كنا نقترب من سطح ديموس، ولم أكن يومًا سعيدًا بالسقوط إلى هذه الدرجة. «فكرتي الكبيرة. سفن فضائية! يمكنني تنفيذها، فقد أحتاج بعض العون. فلتنسي أمر المسابقة، وانسِ أمر ديموس. هل تثقين بي؟».

سألتني: «هل ستحبني؟».

- «نعم!».

بعدها بثانية ارتطمنا بالسطح، وتقافزنا، ثم استكنَّا أخيرًا. واصلتُ احتضانها إلى توقفنا عن الحركة. كان بإمكاني رؤية أيقونة الشبكة المحلية في ركن عيني. قلت: «مرحبًا مايكروميجاس».

سألتني منظومة الذكاء الاصطناعي: «هل تحتاج أي مساعدة؟».

- «كلا، نحن بخير». ثم أخذت شهيقًا ونظرت إلى صوفيا عبر الخوذة وقلت: «نحن منسحبان».

فازت راينيت، لكن لم يهتم أحد بالأمر تقريبًا. بعنا حق قصتنا كي ندفع ثمن الرحلة إلى الأرض، ودخلنا في سبات اصطناعي داخل ناقلة بطيئة للبضائع. كاد جدك وجدتك يقتلانا عند خروجنا من المصعد الفضائي، إلى أن أوضحت لهما صوفيا ما كنا نعمل عليه.

هذه هي القصة كلها، حقًّا. والآن ينبغي أن تنام. لدينا يوم حافل بالعمل غدًا.

الرجل الذي باع النجوم

جريجوري بينفورد

العبث كلمة يستخدمها الفيلسوف، لكنها لا تداوي أي معاناة للإنسان.

إبيقور

2016

أوقف هارولد سيارة الأجرة التي يقودها عند أحد المنعطفات وشاهد رجلًا ضخمًا وهو يخرج من دار سينما تعرض أفلامًا للبالغين متجهًا نحو دراجته النارية من طراز هارلي.

كان هارولد في وظيفته الثانية - وهو لا يزال في الخامسة عشر، مُستخدمًا بطاقة هوية مزورة -يقود سيارة أجرة في شارع ساوث جيفرسون في سانت لويس. كان العمل بطيئًا في ذلك الوقت المتأخر من هذه الليلة الحارة الرطبة. كانت الدراجة النارية الخاصة بالرجل الضخم الملتحي متوقفة تحت عامود إنارة وإلى جوارها كانت تقف دراجة نارية من طراز هوندا هوك. صاح الرجل الذي يرتدي بنطالًا جلديًّا وتي شيرت أسودين في الشارع بأعلى صوته: «من الذي أوقف ذلك الخراء إلى جوار دراجتي؟».

ثم جذب الدراجة الهوندا وزمجر بينما كان يرفعها من موضعها، وأطاح بها إلى الجانب الآخر من الشارع. ارتطمت الدراجة بدراجة نارية أخرى صفراء اللون، يابانية من طراز كاوازاكي، وتردد صدى الارتطام في تلك الليلة الرطبة.

تسرَّب بعض البنزين من خزان وقود الدراجة الكاوازاكي ومشى الرجل نحوها، وهو يدخن سيجارة شيرمان ضخمة، ثم ألقى سيجارته. اشتعل الوقود مُرسلًا السنة اللهب نحو الرصيف. حدق الرجل في هارولد ثم مشى نحو نافذة السيارة الأجرة، ثم أخرج سكين قتال كبير وهو يبتسم ابتسامة عريضة. نظر هارولد إلى الأمام وسمع النقر على النافذة.

- «ما رأيك في هذا؟» تحدث الرجل الضخم بهذه الكلمات ثم بصق على الإسفلت.

أنزل هارولد النافذة ونظر إلى الوجه العبوس المتعرق وقال: «لا أعتقد أنك ألقيت تلك الدراجة اليابانية الحقيرة بالقوة الكافية».

حملق الرجل في سخط وقال: «حقًّا؟».

- «على الرجل أن يلقي الأشياء بقوة في حياتنا هذه».

مشى الرجل مبتعدًا وهو يضحك بينما أخذت الدراجتان تحترقان. حين انتهى هارولد من ورديَّته ذهب إلى محطة التشغيل، وقدم استقالته. فكر قائلًا: ربما ليس هذا مجال العمل الأمثل لي.

بعدها بخمسة أشهر بلغ هارولد من العمر ستة عشر عامًا، وكانت لديه بطاقة هوية أخرى مزورة مسجل عليها أنه في الحادية والعشرين. قام بترويج أحد التطبيقات البرمجية الذكية لشركة ناشئة في سانت لويس، حيث دخل الشركة مباشرة وطلب مقابلة نائب الرئيس. كان هذا التطبيق يساعد الروبوتات في تحديد موقعها واتجاهها أثناء العمل في الجزء المنخفض من مدار الأرض، وبهذا كان بمقدورها تجميع الأجزاء الخاصة بأول فندق مداري.

كان مفتاح التطبيق هو استخدام عوارض الكربون المركَّب الجديدة المزودة بفتحات كل نصف متر. بإمكان الروبوتات الاعتماد على وجود نقطة ارتكاز مزدوجة على مسافة لا تزيد عن الخمسين سنتيمترًا، وذلك لتوفير العزم أو الدعم لها. وقد زاد هذا من إمكانياتها الحركية وقدرتها على حمل الأوزان.

كان نائب رئيس الشركة متحمِّسًا للفكرة. وبينما عكف مهندسوه على فحص التطبيق، سأل هارولد عن شهاداته. منحه هارولد شهادة تقول إنه تخرَّج في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وأنه متخصِّص في الملاحة الفضائية، وعلَّق قائلًا إنه البرنامج نفسه الذي حصل فيه باز ألدرين [(19)] على درجة الدكتوراه. كانت الشهادة الإلكترونية حقيقية، لكن هارولد عبث بها بمهارة بحيث حذف التفاصيل التي تشير إلى أنه حضر الدروس كلها عن بُعد على مدار ثلاث سنوات من دون أن يوجد قط في بوسطن.

اشترت الشركة الناشئة منه ذلك التطبيق وحصل على وظيفة بها. وفي غضون سنتين أصبح هارولد الرئيس التنفيذي للشركة، وطُرحت أسهم الشركة للاكتتاب العام. بلغ عدد أسهمه نحو المليون، لأنه كان يتقاضى معظم راتبه على صورة أسهم.

وخلال عودته إلى المنزل تلك الليلة رأى قائد الدراجة النارية القديم نفسه وهو يخرج من إحدى الحانات. أوقف هارولد سيارته واشترى مشروبًا للرجل، دون أن يخبره بسبب ذلك قط.

تذكَّر هارولد وظيفته الأولى بينما كان يشاهد الفيديوهات المرسلة من أحدث تليسكوبات الأقمار الصناعية الكبيرة. كانت الصور ذات الدقة العالية مذهلة، وجلبت إلى عقله لحظة مرت به حين كان يبلغ من العمر عشرة أعوام.

كان يؤجِّر مقاعد الشاطئ للسائحين على شاطئ أورانج في ألاباما. وطوال اليوم لم يكن يترك أحد يمر به دون أن يقول له في إلحاح ودود: «أتريد مقعدًا كي تقضي وقتًا أكثر راحة؟ الرمال ساخنة. فقط خمسة دولارات في اليوم».

كان يقابل الرفض بعبارة: «إنه يقيك حشرات الرمال يا سيدي». وفي المعتاد كان هذا يكفي لإقناع السائح، خاصة لو كانت معه امرأة، إذ تظهر المرأة امتعاضها وتحض الرجل على استئجار المقعد.

كان يجني أموالًا طيبة، وكان في العاشر من العمر وحسب. رأى والده أن هذا كان تدريبًا جيدًا، وكان هارولد يشاركه الرأي، فعلى أي حال لم يكن الركود العظيم بعيدًا عن الأذهان. رسميًّا، كان السياح يستأجرون المقاعد حتى الغروب، لكن كثيرين منهم كانوا يطيلون المكوث ويحتسون الجعة ويشترون المحار المقلي من أحد الأكشاك القريبة. كان هارولد يجلس لوقت متأخر، يقرأ روايات الخيال العلمي المستعملة تحت أضواء كشك البرجر. كان يدمن القراءة، خاصة كتابات الخيال العلمي. وحتى وهو يشعر بالإرهاق كان يحرص على التعامل في تهذيب، فيبتسم ويستخدم الكلمات «نعم سيدي» كثيرًا، وبهذا كان يحصل على الكثير من الإكراميات.

كان البعض يترك المقاعد مبعثرة في الأرجاء، لذا كان عليه أن يعيدها إلى السقيفة، وكان يجر مقعدين في كل يد. وذات يوم، بعد أن انتهى من تكديس المقاعد، أخذ يتهادى في السير إلى محطة الحافلات كي يستقل الحافلة إلى بلدته، ثم استدار ناظرًا إلى الأمواج المتكسرة، وهناك رآها.

رآها حقًّا، للمرة الأولى. كانت النجوم متناثرة كالجواهر على خلفية من اللون الأسود الضارب إلى الزرقة فوق مياه الخليج المالحة. كانت مجرة درب التبانة تملأ السماء وصولًا إلى الأفق، تتوهج أضواؤها الزمردية والياقوتية والبيضاء الماسية في السماء.

فكَّر: نحن جزء من هذا. هذا هو الكون الحقيقي في جوهره، وليس فقط ذلك الحجاب الباهت الذي يعلو الرمال. إنه الواقع، الواقع الكبير والعجيب والرائع.

2023

في الثانية والعشرين قرر أن يصبغ شعره الأسود باللون الرمادي جزئيًّا من أجل حضور أول اجتماع عمل له، عن استخلاص الموارد من الكويكبات. وإلى جانب النظارة السوداء والسالفين الطويلين، جعله الشعر الرمادي يبدو أكبر سنًا. كان منظم الاجتماع هو مدير الموارد الكوكبية الشهير بيتر دياماندِيس، وقد حافظ على تدفق الحوار من دون انحراف عن الموضوع.

دخلت امرأة متجهِّمة ترتدي سترة زرقاء حديثة الطراز في جدل مع أحد الحاضرين، وكان من ناسا، قائلة: «يبدو أن هدفكم الرئيسي هو عدم الفشل، فيجب أن تنجح شركات الفضاء الكبيرة والأكاديميات في المهمة. لكنكم بهذا تعقِّدون الأمور، وترتفع الأسعار بسببكم».

رد الرجل عليها بصوت مرتفع قائلًا: «وأنتم لا يعنيكم سوى الربح لا أكثر».

- «الناس يمنحوننا المال، باختيارهم، ونحن ندفع لهم أرباحًا. أما أنتم فتأخذون ضرائب بحكم القانون».

قال في بطء: «لوكهيد، نورثورب جرومان، وبقية الشركات ... لديهم سجل عمل رائع».

- «إنها شركات عفا عليها الزمن، نحن بصدد حركة جديدة».

غمغم الحاضرون وبدؤوا يتجادلون. تفقَّد هارولد حالة عدم الرضا بابتسامة مرتبكة.

كان قد رأى أمثالهم من قبل، فما هم إلا منتجات يحركها النفع لصناعات اختبارية، مجرد تروس تجيد عملها. ومع ذلك فقد كانوا يؤدون مهمتهم وهم يظنون أنهم متمرِّدون مخالفون للثقافة السائدة. كان جيلهم يحب القصة النموذجية: متمرِّدون يحاربون المؤسسة الراسخة، تلك الجماعة البليدة القصية التي تمثِّل الآخر دائمًا. كانوا أشخاصًا لامعين متخرِّجين في أعلى الجامعات بالبلد، كجامعات رابطة اللبلاب [(20)] وستانفورد ومعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا. كان هذا التوجه اللاشعوري يسود غرف مجالس إدارات المؤسسات، بحيث كانوا يلومون المؤسسة بينما هم يحتسون النبيذ الأحمر في المساء.

وبينما كان يشاهد هذه المرأة أخذ يفكِّر في الطريقة التي حقق بها أهداف الحياة التي علمها له والداه، غالبًا عن طريق القدوة. لقد وجد طريقة طيبة لكسب العيش، وأسَّس شركة، وكان يستمتع بالأمر. كان يستيقظ كل صباح وهو متحمِّس للذهاب إلى المكتب، لكن هذه المرأة جعلته يدرك أن لديه أهدافًا أخرى عليه تحقيقها في الحياة.

قالت المرأة شديدة العزم: «إذا كنت يافعًا وأخضر العود، يمكن للأمور أن تفشل. أما بالنسبة لشركات الفضاء الكبيرة فالمنافسة كلها تدور حول الفوز بالعقود الحكومية، وبعد ذلك كل ما يهمهم هو تجنُّب المخاطر. الأمر لا يدور على الإطلاق حول القيام بشيء جديد، بحيث تسوِّق فكرتك أولًا ثم تجني المال حتى يمكنك القيام بالمزيد من العمل. هذا هو ما أحبه: الإقدام على المخاطرة. أن تغيِّر مسارك، وأن تتبع حدسك».

بدت عليها الدهشة حين صفَّق لها الحاضرون. أومأ هارولد ناحيتها وابتسم لها. كان هو من سيتحدَّث بعدها، وكان حديثه فنيًّا في الأساس، عن نقاط الاتصال المشتركة، والروابط التي يديرها الذكاء الاصطناعي، وتطبيقات الفضاء، لكنها استمعت إليه في تركيز بينما كان يتحدَّث عن فريق من الروبوتات المنقبة في الصخور جرت تجربته بنجاح في صحراء أريزونا.

بعد ذلك علق ديامانديس قائلًا إن العمل في الصحراء ربما يكون أيسر للروبوتات من العمل في الفضاء. وفي الختام تساءل عما سيفضي إليه كل هذا العمل. قالت المرأة: «الرخاء!» وقال آخر في القاعة: «إلى النجوم!» وصاح صوت ثالث: «النجوم؟ مستحيل! لماذا نفعل هذا على أي حال؟».

نظرت المرأة إلى منظِّم الجلسة وقالت: «لماذا نذهب إلى النجوم؟ لأننا منحدرون من تلك الرئيسيات التي اختارت أن تنظر في ما وراء التل الماثل أمامها. لأننا لن نحيا على هذه الصخرة إلى الأبد. ولأن النجوم موجودة هناك».

التقى فريق العمل في الحانة مع ديامانديس لتناول بعض المشروبات بعد ذلك. لم يستطِع هارولد أن يرفع عينيه عنها، حتى حين كانت تتحدَّث إلى ديامانديس. عرف أن اسمها سارة، سارة إرنزبرج. وحين انفض الجمع قال لها في عفوية: «أتودين أن نرقص معًا؟».

عادا إلى الفندق في الثالثة صباحًا. نام بين ذراعيها حتى الظهيرة، وفوتا الجلسة الصباحية كلها، بما في ذلك الكلمة التي كان سيلقيها.

2029

«هذه مخاطرة شديدة». هكذا قالت سارة بينما كانا يجلسان في مكتبه ذي النافذة العريضة المطلة على متنزه بايك. كانت سحابة رعدية أرجوانية منخفضة تحيط بمنحدرات الجبل النحيل، بينما البرق يومض في أحشائها. فكر هارولد في نفسه قائلًا: «أعلم هذا».

قال لها: «يمكنني كسب مليار دولار في العام لو أمكننا تكرار التجارب الاختبارية التي أجرتها القوات الجوية في الماضي، وأن أجعلها تنجح. إنها مخاطرة محسوبة».

- «اسمعني، إن الجمهور يعارض صناعة الصواريخ النووية».

- «هل تساءل أحد حقًّا؟ إن الصاروخ النووي سيطير إلى الأعلى دون تشغيل. باستطاعة شركة سبيس إكس توصيله إلى الفضاء. وسوف نشغله بعد أن نرسل خزانًا من الهيدروجين إلى الفضاء بحيث يتصل بالصاروخ النووي الحراري. وهذه التجميعة سترسل فريق الروبوتات الخاص بي إلى الكويكب المرشح وتوفِّر مصدرَ طاقة نوويًّا لعمليات الاستكشاف الخاصة به».

مطت شفتيها في تشكُّك، وهي الحركة التي كان يعشقها وقالت: «لن يعود ثانية إلى المدار المنخفض للأرض؟».

- «مطلقًا. سنستخدمه في عمليات الصهر في المدار الواقع خلف القمر».

قالت سارة: «أفضِّل استثمارًا أكثر تحفُّظًا ...».

- «بعد خمس سنوات سيكون ذلك متحفِّظًا. ستمطر السماء ذهبًا وسنمتلك نحن دلوًا منه».

- «إذن هذه مقامرة مبنية على حقيقة يقينية».

- «إطلاق صاروخ نووي، وتجميعه على مرحلتين في المدار، الأمر منطقي من الناحية الاقتصادية».

- «صواريخ نووية. باستطاعة الأمم المتحدة أن تعيق عملك».

- «يقول إيلون إن باستطاعته إطلاق صاروخنا من منتصف المحيط الهادئ. إن منصته ليست جزءًا من الأمم المتحدة، أو خاضعة لسيطرة الدول القومية». إيلون ماسك، جيف بيزوس، ريتشارد برانسون، كان هؤلاء أشبه بكارنيجي وروكفلر لكن في عالم الفضاء، كانوا أبناء الجيل السابق ولا يزالون من كبار اللاعبين.

قالت بصوت عميق وهي عابسة: «أي مستشار قانوني متشكِّك سيقول إنه من الممكن مقاضاتك على أي شيء سيحدث بعد ذلك مهما كان تافهًا».

نقر هارولد على مخطَّط تدفُّق قانوني معقَّد وقال: «آه، تلك الحالة القديمة المتعلِّقة بـ «السبب المباشر»؟ كلا، من المفترض قانونًا أن تجري مقاضاتنا على سطح القمر. فالشركة الأم هي بلو سكاي نيوكلير ومقرها، اعتبارًا من اليوم، على القمر».

- «القمر؟ لكن لا يوجد ...».

- «أرسلتُ أنا وبعض أصدقائي المستثمرين موظفًا روبوتيًّا مكتبيًّا إلى هناك. سيتعين عليهم التجادل لسنوات حول قانونية التسجيل من عدمها. ويسعدني تركهم يخوضون هذا الطريق».

- «آسفة، لكن لا يزال لديك حدًّا أدنى من الاتصالات مع كوكب الأرض بما يمكنهم من الحصول على صلاحية قضائية شخصية. قد يستغرق الأمر بعض الوقت وحسب، أو قد ينتهي بك المطاف بخسارة مهمة لاجونا تلك».

هز هارولد كتفيه وقال: «سيسعى كيجان من «المجموعة المتحدة» إلى مقاضاتنا بكل تأكيد».

- «وهناك أيضًا معاهدة الفضاء الخارجي، لقد وقَّعت الولايات المتحدة على هذه المعاهدة».

- «أجل، ستفعل المجموعة المتحدة ذلك. هذه هي الطريقة التي تعاون بها أعداء مايكروسوفت على نحو شائن مع إدارة كلينتون من أجل مقاضاة مايكروسوفت».

- «لقد رتبت الأمر كله إذن».

- «كلا، فقط الأجزاء المسلية. أما الباقي فسأتركه لك».

- «لي؟».

- «أحتاج إلى شخص له وجه جميل وعقل حاد كي يقدم الكويكبات المستهدفة إلى جمهورنا من المستثمرين المتحمسين».

- «لم أقل بعد إنني سأشارك في هذه المهمة المحفوفة بالمخاطر ...».

- «فلتختاري ما يعجبك». ثم بإشارة من إبهامه عرض على الجدار قائمة بالكويكبات المستهدفة.

الأوفر من حيث التكلفة: الكويكب 2000 BM19، كويكب صغير من النوع O (قطره أقل من كيلومتر واحد). يقترب من الأرض عدة مرات. القيمة المُقدَّرة 18.50 تريليون دولار والربح المتوقع 3.55 تريليون دولار (أمريكي).

الأيسر في الوصول: الكويكب 2009 WYZ7، كويكب صغير يقترب بشكل دوري من الأرض حتى مسافة لا تزيد على وحدة فلكية واحدة، وهو جرم حجري له تصنيف مرتفع وفق معيار تصنيفات التنقيب مقداره 7.6577. ثمة إشارات تفيد بوجود مياه على سطحه. الربح المتوقع 1.53 تريليون دولار.

الأعلى قيمة + الأعلى ربحية: الكويكب ماتيلدا 253، كويكب كربوني قطره 52.8 كيلومتر. القيمة المعدنية/الفلزية المقدرة تزيد عن 100 تريليون دولار. بعد عمليات التنقيب بالروبوتات والنقل، يبلغ الربح المتوقع 9.53 تريليون دولار.

هزَّت رأسها وقالت: «إن جمهورك المستهدف مكوَّن من مستثمرين يخاطرون برأس المال، لا علماء فلك».

- «أريد أن أخاطب طموحهم الاقتصادي، لا عقولهم. وبإمكانك إزالة الفارق بين الأمرين بسلاسة. والآن، تعالي معي إلى اجتماع مجلس الإدارة». ثم فرد ذراعيه ومنحها ابتسامة مشرقة.

قالت بارتياع: «ماذا؟!»، وهو ما جعلها تبدو جذَّابة بشكل ما.

بعدها بخمس دقائق كان هارولد يشير إلى شريحة باور بوينت ثلاثية الأبعاد دون أن ينظر إليها، إذ كان يتْبع دومًا القاعدة التي تقضي بأن عليك دائمًا أن تواجه الجمهور.

كان قد أعد مجلس الإدارة لفكرة صاروخ الانشطار النووي، لذا لم يحتَج سوى بعض التشجيع من طرف سارة وختامًا سريعًا بعد عرض التفاصيل الفنية: «حسنًا، أتذكرون عقدي التسعينات والألفينات؟ كانت أجهزة الكمبيوتر تطيح بصناعات وتعيد بناء صناعات أخرى: البيع بالتجزئة، مثل وول مارت وأمازون. العمليات المصرفية، كماكينات الصرَّاف الآلي وخدمات الإنترنت. التمويل، كالاستثمار عالي السرعة عبر الإنترنت الذي لا يتجاوز زمنه بضعة مللي ثوانٍ، والأسواق العالمية التي يحتاج المرء إلى دقة شديدة كي يعمل فيها. الترفيه، كالبث والتنزيل عبر الإنترنت ويوتيوب. النشر، حيث أطاحت الكتب الإلكترونية بالوسائط الإعلامية القديمة المطبوعة، وأطاح جامعو الأخبار بالصحف الورقية، بحيث لم يعد أحد يلجأ إلى «المطبوعات» على الإطلاق. إنها مسيرة الزمن».

تجهَّم أحد المتشكِّكين القدامى في التكنولوجيا - كان هارولد قد دعاه إلى الاجتماع لعلمه بأن اسمه وحده من شأنه أن يرفع قيمة الأسهم - ونظر إليهم بارتباك وقال: «شكرًا على درس التاريخ، لكن كيف لهذا أن ينبئنا بما سيأتي لاحقًا؟».

وقف هارولد وفرد ذراعيه وهو يقول: «الطلب المرتفع على المواد الخام. سوف نتخطَّى المناطق التي كانت تعمل بها شركات التنقيب القديمة عن طريق استحداث موارد جديدة، الكويكبات. بعد ذلك نتولى عمليات الاتصال، بحيث نوفِّر طرقًا رخيصة سهلة لإصلاح أقمار الاتصالات الصناعية التي توقَّفت عن العمل. أما عن الطاقة، فسنحصل على الهيليوم-3 الموجود في الأمتار القليلة الأولى أعلى سطح القمر، إلى جانب العديد من الغازات الأرضية كمكسب إضافي».

أثار هذا الحديث ساعة كاملة من النقاش، بعضه محتدم. خرج المتشكِّك من الغرفة غاضبًا، ثم عاد بعد خمس عشرة دقيقة وقد احمر وجهه، وزعم أنه ذهب إلى الحمام وحسب. تدخلت سارة في بضعة مواضع تدخلًا مؤثرًا، بل، وأثارت الضحكات في بعض الأحيان. وأخيرًا اقتنع الحضور بسيناريو مقبول لعملية التنقيب. كالمعتاد، كان يوجد العديد من المخاطر والأمور المجهولة، كما هو الحال في عمليات الاستثمار هذه. ابتسم هارولد وقرر أن يزيل مخاوفهم بشكل نهائي.

- «أصدقائي، من المسلم به أن من شأنِ كتلة من المعدن عالي القيمة قطرها عشرون مترًا أن تولد انفجارًا تصادميًّا يقدر بالميجا طن. ومع هذا فلن تسبب أي غبار إشعاعي، ولن تسبب تناثرًا كبيرًا عند الاصطدام، خاصة لو

اصطدمت بالرمال». ثم نقر على رسغه فظهرت صورة بالأقمار الصناعية للأرض على شاشة الجدار. مال الحاضرون إلى الأمام وهم يمعنون النظر في مواقع مميزة بنقاط زرقاء باهتة. أظهر رسم جرافيكي نقطة حمراء نارية وهي تخترق المجال الجوي، ثم تضرب الصحراء المكسيكية.

«هناك الكثير من الصحاري النائية التي يمكننا توجه كتل المعادن إليها كي نجعل الاصطدام آمنًا. كل ما يحتاج المنقبون لفعله هو العثور على كويكب معدني في تكوينه موجود في مدار ملائم، ثم يمنحونه دفعة محسوبة. سندع الروبوتات تعمل على المعادن والعناصر الأرضية النادرة الموجودة على سطحه، ثم سنجمع المخلفات مع الحطام المداري المعدني، ونلحمها كقشرة فوق المعدن المُنقى. سنقوم باللحام في المواضع التي تستطيع فيها الروبوتات تصريف المخلفات بحيث تحملها الرياح الشمسية إلى الفضاء النجمي البعيد. سنقوم بهذا بينما الكويكب في نقطة انتقالية. ثم سنخرج الروبوتات عن طريق مكوكات فضائية غير مأهولة. بعد ذلك سنوجه قطعة المعدن إلى مدار الأرض بحيث تحف الغلاف الجوي العلوي للأرض، وكأنها حجر يتقافز على سطح بحيرة. وبعد ذلك سننزلها إلى الأسفل، ونجعلها تصطدم بالموقع المحدد، ثم نستخرج منها المعادن».

أنهى حديثه بعرض ميزانية ثلاثية البعاد، توضح ثلاثة محاور بالتفصيل: الربح والخسارة والتكلفة، وقال: «سأصطحب الحاضرين إلى ليبيا، مثلًا، كي نشاهد عروض الألعاب النارية».

رفع ميرمين يده وقال: «على أرض الواقع، لن يمكنك الحصول على تصريح بذلك».

- «لست بحاجة لذلك. إن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة هيئة تداولية. والأفكار الرائجة تتبخَّر في المجتمعات التي تجاهد من أجل إطعام أبناءها. ولو أمكن لدولة صحراوية أن تكسب صناعة جديدة عن طريق السماح للصخور بالسقوط على أراضيها، فستفعل ذلك. لقد أبدت ليبيا استعدادها بالفعل».

قال أحد المستثمرين في هدوء: «حقائق الواقع السياسي تتفوق في أيامنا هذه على أمنيات الواقع السياسي».

عدَّلت بو دوك أنتون، الرئيسة التنفيذية لشركة أستروبروسبكتس، رداءها الصيني التقليدي وقالت: «ابدأ على نطاق صغير».

سألها هارولد: «كيف؟».

- «تمتلك شركتي تعاقدًا فضائيًّا للعثور على الحطام وإعادته إلى الأرض. بإمكاني ضغط بعض النفايات الفضائية التي نجمعها بواسطة الروبوتات: صواريخ دفع، معدات مفقودة، كتل جليدية، أقمار صناعية معطلة. لقد استنقذنا بالفعل المركبة إكسبلورر 1! ليس هذا بالأمر المعتاد لكننا سنعيدها إلى الأرض ونبيعها لهواة التجميع. من الممكن تجميع النفايات الفعلية معًا وإسقاطها على سبيل التجربة، في الصحراء».

قال أحدهم: «أليس من المفترض أن يسقط كل هذا في المحيط؟».

هزت بو دوك كتفيها وقالت: «أحيانًا نخطئ الهدف». وعم الضحك. غمزت بعينها، فقد خرج الكلام من فمها قبل أن تفكر فيه بتأنِّي. كان هارولد يعرف كيف يبقي الزخم حيًّا. وحين وجد اعتراضًا آخر عن الدعاية السلبية هز كتفيه وقال: «في بعض الأيام أنت الحمامة، وفي بعض الأيام أنت التمثال».

قالت سارة: «لنجعلها كتلة صغيرة، فنحن نحتاج أن نختبر عملية التوجيه على أي حال».

قالت امرأة أخرى: «من الأفضل أن نبدأ على نحو نظيف، وأن نبرم تعاقدًا مع ليبيا. إنهم بحاجة للمال وإلى أعمال التنقيب».

تحدَّث محامي الشركة قائلًا: «المخاطرة مرتفعة للغاية بما يمنع ...».

لكن هارولد قاطعه قائلًا: «اللجان لا تقتحم التخوم الجديدة، بل الناس. علينا أن ننظر إلى ما وراء المستقبل الرسمي الذي يَدْرُسه الناس في كليات إدارة الأعمال. فالخطر الحقيقي هو ألا نقدم على فعل ذلك».

2031

هوت الكتلة التجريبية بدوي مفزع، وضربت الأرض على مسافة مائتي متر من الموقع المنشود، وحين ضربتهم الموجة الصادمة بدوي هادر على مسافة كيلومترين صرخت سارة. ارتفعت الرمال في سماء الصحراء الليبية وتهاوت أمامهم وكأنها زَبَد قذر.

كانت هي وهارولد الوحيدين اللذين جرؤا على الوقوف على هذه المسافة القريبة. كانت مجموعة المحاكاة التابعة لهارولد واثقة من أنه بفضل التغليف الذي توفِّره شركة سارة، والمصنوع من الحطام الفضائي، ستتخلَّص الكتلة من الحطام شديد السخونة وتسير في مسارها المتوقَّع. وعلى العكس من الأقمار الصناعية السابقة التي كانت تهبط وهي مشتعلة، كانت هذه الكتلة كثيفة وصلبة، ما مكَّنها من الحفاظ على مسارها المبرمج.

تسبَّبت الموجة الصادمة في إزاحة شعر سارة إلى الوراء، وضحكت بينما قبَّلها هارولد.

لقد أدرك وقتها أن الآخرين لهم هوايات عادية كالجولف، أو هوايات للأثرياء كالتحليق في طائرات تجريبية، أو مجرد الدخول في علاقات نسائية متعدِّدة … لكنه كان مختلفًا؛ فقد كان يحب العمل، وكانت سارة توفِّر له الحب المتَّزن الذي كان يحتاج إليه، لا أكثر.

وكلما احتاج إلى الشعور بالإلهام، كان بمقدوره التحول عن الاجتماعات والتفاصيل الهندسية وعقد الصفقات … ويكتفي بالنظر إلى سماء الليل، حيث تلتمع النجوم بضوئها الشاحب مانحة إياه الإلهام الأبدي.

2032

كان لدى شركته منتجع من نوع مختلف مخصَّص للمسؤولين التنفيذيين في أعالي جبال سييرا نيفادا. انطلقوا جميعًا على الأقدام من ماموث ليكس، وبعد بعض التذمر والشكوى خيَّموا حول بحيرة دير على ارتفاع عشرة آلاف قدم. كان هارولد يحب رؤية ما يفعله الناس وهم لا يجلسون إلى مكاتبهم. كان البعض يرى العالم الطبيعي مكانًا عجيبًا عدائيًا، وشكا أحدهم من غياب خدمات الهاتف المحمول.

وبينما كان هارولد يستلقي في الخارج وهو يحدِّق بكسل في سماء الليل الصافية، تذكَّر إحساس الرهبة نفسه الذي انتابه وهو صبي حين رأى مجرة درب التبانة. لم يكن باستطاعته رؤية نجم رجل القنطور من هنا. هل يمكن أن يكون هناك نجم أقرب، لكنه غير مكتشف بعد؟ هل يمكنه الذهاب إلى هناك؟ باستطاعته الوصول إلى الكواكب بالطبع، لكن ماذا عن النجوم؟

حين كان صبيًّا، في عام 2013، قرأ كتابًا عن السفن الفضائية وكيف يمكن بناؤها، في أعقاب قرن من التجارة المزدهرة بين الكواكب. على أي حال، لقد عثر كولومبوس على العالم الجديد، وهو مبحر في مركب كبير مصمم لخوض مياه البحر المتوسط الهادئة، وليس مياه المحيط الأطلسي. لكن في غضون جيل واحد أطلق وعد الذهب والأراضي العنان لحرفة قوية نمت على نحو مطرد مع مرور الزمن.

من شأن الذهاب إلى النجوم أن يكون أصعب من أي شيء حدث من قبل، ربما أصعب مما حدث حين شقَّت الحياة طريقها من المحيط إلى اليابسة. كان المدى الشاسع للمشكلة هو مصدر سحرها أيضًا.

في الليلة التالية بينما كانوا متحلِّقين حول نيران المخيم إلى جوار مسار جون موير، تحدَّث هارولد عن تطوير القدرة على الوصول إلى النجوم. ستجري هذه العملية خطوة بخطوة، وستتحقق كنتاج جانبي لتطوير اقتصاد المجموعة الشمسية.

حدَّق المسؤولون التنفيذيون في رئيسهم التنفيذي كما لو أنه شخص مجنون. فكر: حسنًا، ربما أنا مجنون بالفعل، في الوقت حالي وحسب.

2033

بعدها بعام واحد اختبر الصينيون صاروخًا نوويًّا في الهواء الطلق، تمامًا مثلما فعلت الولايات المتحدة الأميركية في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته. لم يتسرَّب سوى مقدار ضئيل من الإشعاع، بل إنهم فجروا قنبلة نووية ولم ينتج عنها سوى قدر قليل للغاية من الإشعاع، وهو ما فعله الأميركان أيضًا. وقد كشفت الاستخبارات أن الصينيين اشتروا ببساطة البرنامج الكامل الذي طوَّره السوفييت في سيميبالاتينسك، إذ كانت الدولة الروسية تقيم معرضًا للأسلحة. والآن أخذ الصينيون يعملون بسرعة على تحسين التصميمات القديمة.

أنذر هذا الحدث العالم بالخطر وصار بمنزلة «لحظة سبوتنيك» الثانية. [21] بدا الأمر وكأن النظام الصيني شبه الديمقراطي الجديد، الذي يجاهد من أجل تهدئة الفصيل القومي، كان يسعى إلى استخدام المنافسة الخارجية في تهدئة الصراعات الداخلية. وسريعًا ما بدا هذا جليًّا للغاية.

وفجأة، انهمر رأس المال من السماء، وكان هارولد مستعدًا بدوره. كان قد عقد صفقاته كي يدشِّن أحد البرامج من أجل شركته، فار فويجر، وكانت النتائج الخاصة بمعداتهم مبشرة. وبعد نحو نصف العام أطلقوا أول صاروخ نووي اختباري في مداره.

كان الصينيون لا يزالون في مرحلة التعافي بعد الإطاحة بالنظام الشيوعي القديم، وكانت سياساتهم غير مستقرة. وقد قرَّروا ألا يطلقوا الصاروخ النووي الاختباري من الأرض، رغم أنه لم يتسرَّب من الإشعاع سوى النذر اليسير. ومن ثم استقروا على التصميم الأمريكي الخاص بالجمع بين الرأس النووي البارد ووحدة التحكم المزودة بأنابيب وقود متصلة بحجيرات كبيرة من الوقود السائل. وقد صارت هذه هي الطريقة النموذجية لنقل الصواريخ الانشطارية.

كان هارولد من النوع المتحفِّظ الذي يحرص على ألا يتبسَّط معه أحد في الحديث، حتى سارة، إلى درجة أن يناديه هاري. ومع هذا فخلال الاحتفال بأول انطلاق نووي من مدار الأرض المنخفض ترك العنان لنفسه. سار الأمر بسلاسة تامة، إذ اندفع الهيدروجين شديدًا براقًا كي يدفع حمولة وزنها أطنان من أقمار الاتصالات وعدد من المختبرات العاملة عديمة الجاذبية إلى مدارات مرتفعة. لقد أُثبِتَت صحة المبدأ، والآن بدت المجموعة الشمسية متاحة للاستكشاف أخيرًا.

اللجان لا تقتحم التخوم الجديدة، بل الناس.

علَّق أحد معاونيه لافتة تحمل هذه الكلمات دون أن يستأذنه. رأى هارولد أن هذا أمرًا طيبًا. بعد ذلك طفق يغني أغنية ألفها بنفسه تقول كلماتها:

أي حقيقة دون نظرية هي أشبه بسفينة دون شراع... بقارب دون دفة.

بطائرة ورقية دون ذيل.

أي حقيقة دون نظرية هي أمر شديد البؤس. لكن لو كان هناك شيء أسوأ في هذا الكون،

حقيقة لا يمكنك الاستفادة منها،

فهي نظرية

غير مبنية على حقيقة.

ورغم أنه غنَّى اللحن بشكل مثالي، فإنه لم يغن مجدَّدًا في العلن.

سريعًا ما أوصلت شركة سبيس إكس أنبوبًا رماديًّا طويلًا من الهيدروجين السائل كي يحلِّق إلى جوار محرك فار فويجر. أوصلت روبوتات مصمَّمة خصيصًا، تابعة لشركة أسترومايننز، أنبوب الوقود بالمحركات. انطلقت المركبة وغادرت المدار، متجهة إلى كويكب قريب من الأرض كي تنفذ مهمة تنقيب عليه، وفي الطريق زارت المركبة خمسة كويكبات غنية بالماء كان الوصول إليها أيسر كثيرًا من الوصول إلى القمر. وقد عرضت شركتا أوربيتال ساينسز وفيرجين كالاكتيك، المهتمتان بتطوير أعمالهما الفندقية المدارية، خدماتهما للقيام برحلة ثانية.

كان الصينيون قد بنوا إمبراطورية صناعية بطرق استبدادية، لكنهم لم يقتحموا تخومًا جديدة من قبل. كانوا يجدون صعوبة في السماح للشركات الخاصة بالتنافس، إذ كان من الصعب مغالبة الغرائز الماركسية القديمة. من ناحية أخرى، كانوا يمثِّلون سوقًا واعدة للمنتجات الآتية من الفضاء. وقرب نهاية العِقد كان المليارديرات الصينيون يتنافسون على إقامة حفلات الكوكتيل الباذخة في فندق هيلتون سفيريكال المداري.

2037

انطلق هارولد وسارة في أولى رحلاتهما إلى فندق سفيريكال معًا. كانت رحلة المكوك ذات المرحلتين سلسة، داخل قمرة ضخمة غليظة المظهر. من الكوة الجانبية كان بمقدورهما رؤية مدينة فينيكس، الأكثر شبهًا الآن بمدينتي أريحا أو أور العتيقتين، بما فيها من بقايا ضامرة لملاعب الجولف والهياكل المغبَّرة لحمامات السباحة المجاورة للمنازل المهجورة.

كان فندق سفيريكال أنيقًا. كانا يقطنان جناحًا، عبارة عن فقاعة كبيرة يمكنهما الطفو داخلها ومشاهدة الكون يدور حولهما. وبينما هما معلَّقان وسط محيط الليل مارسا الحب، وفي كل مرة كان يشعر معها بعمق جديد، نكهة غير متوقَّعة. كانت جسدها رطبًا باردًا، وكانت النجوم ماسية الشكل تنساب من ورائها. تدفَّقت الطاقة عبر جلديهما، حرَّرها بصورة ما انعدام وزنيهما. أجل، هنا كان مركز وجودهما، إذ قالت الأجساد ما تعجز الكلمات عن قوله.

كانا يحبَّان السباحة هناك، إذ كان هارولد يلقي بنفسه داخل الكرة الباردة الوامضة البالغ قطرها عشرة أمتار وكان يشعر بها تلتف من حوله بصورة لا تفعلها المياه على الأرض. تدلَّى رأسًا على عقب وقبَّل قدمها وهو يبتسم بشدة. وبعد ركلة وجذبة عاد إلى الهواء ثانية وهو يلهث.

كان أثاث الفندق خفيفًا كالهواء، إذ كانت ألياف الكربون والدعامات الماسية منفوخة بحيث تتخذ شكلًا رغويًّا. كانت المقاعد المثبَّتة إلى الأرضية تواجه النافذة الضخمة التي كانت الأرض تمر أمامها. كانت المشاهد الخلابة تعقد لسانيهما بينما يرتشفان كرات النبيذ. حينها كشفت له سارة أنها كانت طرفًا حُرًّ في علاقة زوجية ثلاثية.

- «وتخليت عن هذا من أجلي؟».

- «كلا، بل من أجلي أنا. فبهذه الطريقة حصلت عليك».

على العشاء حملته سارة أخيرًا على الحديث عن طفولته العجيبة. ربما شجَّعه على هذا الارتفاع الكبير. قطب جبينه وقال: «انظري، إن عصر المعلومات يكافئ الناس الذين ينضجون بسرعة، الذين يتمتعون بقدرات اجتماعية ولفظية قوية، ويستطيعون السيطرة على نزواتهم. كانت الفتيات أفضل في هذا الصدد. كانت المدارس تمتدح التنوع لكنها كانت متماثلة من

الناحية الثقافية، لون جلد مختلف، لكن لهم الآراء نفسها. كانت الفتيات يدرن فصلي وكنت أنام خلال الدروس».

- «وهكذا تركتَ المدرسة». شاهدا إعصارًا دوارًا، هو الخامس بالفعل هذا الصيف، وهو يجتاز الأطلسي.

ابتسم وقال: «كانوا يريدون أن يعلمونني كيف أتشارك مع الغير، بينما كنت أريد منهجًا يعلمني كيف أفوز، وكيف أخسر. لقد حصلت على نصيبي من الخسارة أيضًا».

استدارت كي تنظر إليه وقالت: «كتب المعلمون إلى والداي يقولون إنني «فتاة جامحة صعبة المراس»، وبعد فترة وجدوا أنهم لا يستطيعون ترويضي عن طريق حملي على قراءة تلك الروايات المرهفة الحاصلة على جائزة نيوبيري».

- «أجل، ليست الهندسة الاجتماعية بتلك البساطة. سيوجد دومًا بعض المستائين الذين يفضلون المال والحركة أكثر من حياة الدعة والسكون».

- «أتسعى وراء المال؟».

لاحظ أنها أدارت دفة الحديث في براعة نحوه، لكنه سمح بذلك. قال: «آه، تعنين تلك الاستثمارات في التكنولوجيا النانوية والطباعة ثلاثية الأبعاد؟ بالتأكيد، كي أحصل على المال من أجل محطة الروبوتات المدارية هناك».

- «ماذا عن كل تلك المعارضة التي تواجهها التكنولوجيا النانوية؟ لقد اتحد المعارضون مع تلك الحملة الفاشلة التي استهدفت منعك من إطلاق الصواريخ النووية الباردة».

- «المسيرات الاحتجاجية لا توقف الأسواق. حسنًا، ربما تثير التكنولوجيا النانوية ضيق البعض. إن لها تأثيرًا اجتماعيًا كبيرًا بكل تأكيد. هكذا هي الحياة. إن العالم يزداد غرابة، وسوف أزداد غرابة معه».

حين استقلا المكوك المداري إلى محطة الروبوتات في مدار أعلى، كانت أستراليا تشتعل مجددًا. حجبت غلالة سوداء كثيفة شمالي ملبورن الأراضي الجافة بالفعل. كانت عمليات التعديل الهندسي لطبقات الهباء في الجزء الأعلى من الغلاف الجوي الأرضي تعمل على إعادة توزيع سقوط المطر من أجل مواجهة هذه المشكلة، لكن لم يكن الأمر يسير بشكل مثالي. على الأقل

كانت تعمل على تبريد العالم وتجنيبه موجات الجفاف المروِّعة التي شهدها في أوائل العقد الرابع من القرن الحادي والعشرين. في الوقت عينه كانت النباتات الكيميائية تعمل بثبات على معادلة القلوية المتزايدة في المحيطات.

استخدم هارولد هاتفه على الفور كي يتَّصل بمقر شركته، أسترومايننز إيه يو، في ملبورن، وقال مخاطبًا مدير العمليات هناك: «اصرف تعويضات إضافية للعاملين في منطقة الحرائق. وقدَّم تبرعًا باسم الشركة كذلك، لنقل مائة مليون، للمنطقة المتضرِّرة».

خمَّن من التعبير المرتسم على وجه سارة أنها تشعر بالدهشة. قال: «أتعلمين ما أكثر شيء أفتقده في هذا العالم المتزايد الاحترار؟ القطب الشمالي». ثم أشار إلى الجنوب، حيث تستقر القارة القطبية الجنوبية، أنتاركتيكا، بحجمها الأصغر وبياضها الناصع. أما في الشمال، لم يتبقَّ أي جليد في البحار.

أومأت قائلة: «ربما علينا نشر المزيد من الهباء الجوي، وأن نعيد جليد الصيف مجددًا؟».

تنهد قائلًا: «يريد الروس الحارات البحرية مفتوحة على اتساعها. إنها مقايضة».

كانت محطة الروبوتات يخدمها مجمع نووي كبير إضافة إلى الصاروخ المصاحب، الذي كان يطفو إلى جوارها وكأنه سمكة قرش تجاور حوتًا ضخمًا. كانت أسترومايننز قد اقتنصت كويكبًا صغيرًا قطره خمسون مترًا ووضعته في ذلك المدار المرتفع، وكانت الروبوتات تتكالب عليه، توجهها مركبة إدارية ثمانية الأضلاع مثبَّتة إلى الصخرة الداكنة بواسطة برج من ألياف الكربون. كانت الروبوتات تسير على هذه الصخرة، بحيث تنتقل أقدامها السميكة من موطئ قدم إلى الذي يليه بسرعة فائقة. بعد ذلك كانت تنتشر حول شبكة تحيط بالكويكب، بحيث تساعد وحدات اللحام في الشحذ والتسخين. وكان المفاعل النووي يوفر الكهرباء وسوائل اللحام الساخنة عبر مصفوفة من المواسير البيضاء المرنة شديدة الصلابة.

قالت سارة: «تبدو وكأنها شبكة عنكبوت تحيط بفريستها».

قال هارولد: «ليس تشبيهك بعيدًا عن الصواب. لدى الصينيين شيء كهذا، لكن به أشخاص أكثر بكثير. أترين تلك القمرة أعلى سفينة القيادة؟» ثم أشار

إلى السفينة ثمانية الأضلاع وأضاف: «بها طاقم عمل من ثلاثة أفراد، جميعهن من النساء. يبدو أنهن يعملن معًا على نحو أفضل هنا».

- «تقول الصحيفة إن الصينيين يقدمون سعرًا أقل من ذلك الذي تقدمه».

هز هارولد كتفيه وقال: «إنهم لا يريدون أن يربحوا سباقًا فضائيًّا، وإنما ماراثون فضائيّ. لقد تعلّموا درسًا قيمًا من أحداث العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين. فالتصنيع هو كل ما يهم على المدى الطويل، بينما الاقتصاد الخدمي ينقل المال من شخص لآخر وحسب. إن التصنيع يخلق الثروة، بينما الخدمة توزعها».

- «تريد دول الاتحاد الأوربي إبقاء الفضاء متاحًا للجميع، شيء يشعر كل مواطن أنه على صلة به، منفعة عامة وليس ساحة لعب خاصة».

قال هارولد: «أجل، لقد رأيت ذلك الخطاب. «ينبغي ألا يكون الفضاء متاحًا فقط للمليارديرات الذين يودون ممارسة القفز بالحبال»، كلمات قوية، لكن منطق معيب».

كانت النساء الثلاث بالأعلى يشعرن بالإثارة لأن الرئيس التنفيذي خرج لرؤيتهن. ارتدت سارة وهارولد بذلات جلدية وسحبتهما «الفتيات» في أرجاء الكويكب، مشيرات إلى الروبوتات وهي تنفِّذ مهامها المعقدة. كانت الروبوتات كلها مزودة بذكاء اصطناعي يدرك كيفية تنفيذ المهام الحركية بأدق تفصيل، ولم تكن الروبوتات تكل قط. علق هارولد قائلًا: «إنها لا تحصل على خطط تقاعد».

كانت هدية رحيلهما قطعة من المعدن الخام. تشمَّمتها سارة وقالت: «إن لها رائحة تشبه البارود».

قال هارولد: «بل إن لها رائحة المستقبل».

بعد أن غادرا قالت سارة: «عجبًا، لقد تجمَّلن من أجلك. تنورات في الفضاء؟».

هز كتفيه وقال: «إنها لمسة لطيفة».

- «لم يكن لديهن علم بأنني سآتي، أليس كذلك؟».

- «ربما أغفلتُ ذكر هذا الأمر».

- «كدت أضحك حين رأيت تعبيرات وجوههن. ألم يرسل فريق معاونيك بيانًا مسبقًا؟».

- «لا أستعين بفريق المعاونين كثيرًا. أحب أن أباشر العمل بنفسي».

- «شخصية موسوسة، كما قالت الصحيفة».

- «الناس يبالغون».

تلك الليلة، ليلتهما الأخيرة في المدار، قالت له: «لن أتزوجك».

طرف بعينه مرة واحدة فقط وقال: «كيف تعلمين هذا؟».

- «عشاء خاص، مشهد رائع، نادل لا يقول شيئًا، لمعة في عينيك، كلها إشارات بسيطة».

- «إذن ... أترفضين؟».

- «أنا المديرة التنفيذية لثلاث شركات، وأنت تدير شركتين. وبيننا عقود عمل تفرض التزامات قانونية. وحتى لو تزوجنا زواجًا تعاقديًّا ...».

- «كنت أنوي زواجًا تقليديًّا».

- «زواج تقليدي؟ أنا لست عتيقة الطراز إلى هذه الدرجة».

أعاد الخاتم الذي كان قد وضعه في راحة يده بالفعل إلى جيب سترته بينما كانت تحتسي النبيذ، وقال: «حسنًا، ماذا عن زواج تعاقدي لمدة خمس سنوات...».

مالت إلى الأمام وقبلته ببطء وقالت: «إنها فكرة رائعة، ونحن واقعان في الحب بالفعل، لكن انظر إلى حياتنا. إننا دائمو الحركة، نعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم، حياتنا مزدحمة».

- «على الأقل لا يمكن لأحدنا أن يشهد ضد الآخر».

- «هذا حافز طيب! هذا ما تريد أي فتاة أن تسمعه». وابتسمت ابتسامة عريضة.

- «ما دام لم يرتكب أحدنا أي جريمة، سيبعد هذا المحامون عنا».

- «كلا، أحب الأمر أكثر على هذا الحال. إنني هنا لأنني أريد أن أكون هنا، وأنت تدرك أن ذلك الشخص الذي أراه لن يبعدني عنك، اتفقنا؟».

رفع حاجبيه وزمَّ شفتيه وقال: «كان الأمل يراودني».

- «لا أحتاج خاتمًا كي أبقى معك، وأنت كذلك لا تحتاج خاتمًا كي تبقى معي. نحن نقابل أشخاصًا آخرين، ونعيش حياة ثرية، حياة رائعة».

أومأ موافقًا. قضيا أغلب الوقت وهما في طريقهما من المدار في حالة استرخاء، يناقشان كيف يمكن لهارولد أن يجعل الدول مجرد «بوابات» للمادة الخام الموضوعة في سبائك اسطوانية وليس باعة بالجملة لها. ولأنها بهذه الطريقة لن تمتلك السبائك، وهو ما يعني أنها لن تدفع ضرائب عليها، باستطاعة أحد الوكلاء في فرنسا أن يبيعها نيابة عن شركة تابعة لهارولد في دولة سنغافورة ذات الضرائب المنخفضة، رغم أنه لم يطئها بقدمه من قبل. أيضًا لن ترى السبائك المعدنية سنغافورة هي الأخرى، إذ ستهبط في كبسولات يتم توجيهها مباشرة إلى أرضيات مصانع التجميع، وبمجرد هبوط السبائك هناك تأخذها الروبوتات إلى أجهزة المعالجة.

وبفضل هذه المناورة استطاع الحصول على المال من أجل تمويل المزيد من الدراسات الفلكية، والعثور على كويكبات جديدة لزيارتها واستكشافها والتنقيب فيها عن المعادن، وكذلك تمويل تصميمات هندسية جديدة. علاوة على ذلك كان بمقدوره التدخل حين تكون الحكومات بطيئة التصرف، كما حدث في حالة الحرائق الأسترالية. إن رأس المال سريع الحركة.

بعدها ببضعة أشهر قرَّر بدافع من شعوره بالإرهاق من العمل أن يأخذ بعض الراحة، فقضى أسبوعًا في ماوي مُستخدمًا خدمة دشنتها شركة لايف كود للتو لتأخير الشيخوخة.

إن الشيخوخة في جوهرها ما هي إلا فشل الجسم في صيانة نفسه. وكانت أحدث الابتكارات تستخدم المعلومات الوراثية من أجل تحديد جينات الإصلاح، ثم تحفيزها على العمل بشكل أفضل. وبينما كان فريق طبي ينكزه وينخسه، ويجعله يتناول مشروبات غريبة لزجة صعبة البلع، ويجبرونه على أداء بعض

التدريبات على غرار فئران التجارب، ترك هارولد عقله يهيم، متذكِّرًا أحلام طفولته.

لقد حان وقت تمويلها.

كان مبرره لإنفاق المال هو الاحتفال، إذ وافقت سارة أخيرًا على عقد زواج مدته خمس سنوات. وقد ارتفعت قيمة أسهم شركته بنسبة عشرة بالمائة.

2040

رفعت د. كاثرين آماني رأسها عما كانت تفعله ونظرت إلى هارولد الذي قال: «لديَّ موعد ...».

- «أنت بالفعل هارولد مان بشحمه ولحمه. كنت أظن أنها مزحة».

- «آه، هذا ما قلته يا سيدتي ...».

- «كنت أظن أنها ... محاولة للتفاخر».

- «بل أقرب إلى الاعتراف».

كان يعرف سبب نظرتها الساخرة التي تقول: ألا يعلم هذا الرجل أنه في الثلاثينيات لم يكن أي شخص راقٍ يفصح بهذه الصورة عن ثروته أو موهبته أو قدراته؟ كان ذلك أمرًا غير ملائم وغير مريح وفظًّا.

- «أو مقلبًا، كان هذا تخميني الثاني».

- «هل يحب أصدقاؤك التنكر في شخصيات الآخرين؟».

- «الأسبوع الماضي قام صديقي ... لا عليك. ماذا تريد؟».

- «أريد أن أعرف آخر الأخبار عن قمر الاستكشاف المسحي بالأشعة تحت الحمراء ذات المجال العريض».

- «ماذا؟ أتعني ذلك القمر الذي نسميه اختصارًا بـ «وايز»؟».

- «آه، كان ينبغي لي أن أعلم. لم يعد أحد يستخدم الأسماء الكاملة، لقد فاتني هذا الأمر تمامًا».

- «القمر الصناعي وايز، هذا قمر عتيق ... ولا توجد أخبار جديدة عنه».

- «أخبرني بعض المعارف أن ثمة قمر بُني بالفعل، لكنه لم يُطلَق».

- «آه، تعني هذا. كان إطلاقه مكلفًا للغاية في تلك الحقبة الصعبة. ولا يزال كذلك. إنه على الأرجح مستقر على أحد الأرفف في ماريلاند».

- «لقد وافقت على النتيجة النهائية، ألا توجد أي نجوم في مرحلة الأقزام البنية على مسافة أقل من خمس سنوات ضوئية؟».

- «نهضت من مقعدها وشغَّلت عرضًا رسوميًّا على الجدار وقالت: «ها هي الخطة النهائية ثلاثية الأبعاد. لقد مسحنا السماء ... حسنًا، كلها تقريبًا ...».

- «ما المقدار الذي لم تغطوه؟».

- «نحو اثنين بالمائة، كما أذكر. بسبب بعض عيوب التدوير».

- «كيف أنتم واثقون من رقم الخمس سنوات ضوئية؟».

ابتسمت وقالت: «أتعني التناقض مع الكثافة المتوسِّطة للأقزام البنية؟ لقد كان هذا في الحقيقة لغزًا محيِّرًا. كان من المفترض أن يوجد عدد منها على مسافة أقرب، لكننا لم نرها».

قرَّر أن يستخدم طريقة تؤتي ثمارها في التخطيط للعمل فقال لها: «لو افترضنا أنني أخبرتك أن هناك نجمًا منها، ما الذي يفسِّر عدم عثوركم عليه؟».

- «مممممم ... لطالما تساءلت عما إذا كانت طريقتنا صحيحة. أترى، لقد مسحنا ثلاث حزم طيفية واستخدمنا نسبة السطوع بين تلك الحزم كي نرى إذا ما كانت هناك أي أقزام».

- «كيف علمتم بشأن نسب السطوع؟».

- «باستخدام نماذج الغلاف الجوي للنجوم القزمة. إن النجوم الداكنة لديها سحب من الميثان أعلى طبقات الغلاف الجوي الباردة، وقد استخدمنا نسبة كتلة المعادن الأخرى خلاف الهيدروجين والهيليوم إضافة إلى الميثان وحزم امتصاص الماء كي نختار من بين ملايين النقاط الخافتة التي لدينا».

- «ماذا لو كان هناك نجم قزم من الهيدروجين الخالص؟».

نظرت إليه بتلك النظرة الساخرة مجدَّدًا وقالت: «لقد قرأتَ عن هذا الأمر إذن. من شأن النجم المكوَّن من الهيدروجين الخالص ألا يتم رصده بواسطة عمليات الرصد النموذجية هذه».

- «أخبار طيبة. كم سأتكلف من أجل إعادة فحص كل البيانات مجددًا، باستخدام نموذج حزم أضيق؟».

طرفت بعينها وقالت: «تمويل كهذا ... ربما مليون، على الأقل».

- «هل يمكنك أن تقومي بهذا برفقة فريق معاون؟ سأقدم المال هدية للجامعة».

- «مممممم نعم، يمكننا هذا. يا إلهي ... لم نعد نتلقّى مثل هذه المنح على الإطلاق».

- «إنها أوقات عصيبة، وهذا أمر مثير للأسف، أمر غبي». ثم استند إلى خزينة ملفات وأضاف: «كيف يمكن لعالمة فلك مثلك متخصصة في الرصد بالأشعة تحت الحمراء أن تحصل على البيانات الجديدة؟».

- «في الغالب لا نحصل على أي بيانات جديدة».

ترك هارولد نفسه يبتسم. كانت لا تزال تحاول استيعاب عرضه. كان يحب إخراج الناس عن توازنهم، فهم يبوحون بالكثير بهذه الصورة. قال: «كم سنتكلف كي نسحب القمر وايز القديم من على الرف، ونحدِّث معداته الإلكترونية، ثم نطلقه؟».

طرفت بعينها مرة أخرى، ونظرت إلى السقف بينما شفتاها تتحرَّكان ثم قالت: «حسنًا ... لم نحرز تقدمًا كبيرًا في تطوير المعدات الإلكترونية، وتكاليف الإطلاق انخفضت بفضل ...» توقَّفت لحظة ثم أضافت: «بفضلكم أنتم يا رفاق على ما أعتقد».

- «ومائة مليون شخص آخر».

- «وأشخاص يعيشون حيواتهم بالكامل بمعزل عن العالم أيضًا». كان بمقدوره رؤية السؤال في عينيها: لماذا يأتي أحد كبار رجال الأعمال في العالم لزيارة عالمة فلك؟ ما الدافع؟

- «ماذا عن تكلفة تصنيع قمر صناعي جديد ذو قدرة أكبر على التحليل؟».

- «ربما مائتا مليون».

- «حسنًا، لنستعيد البيانات القديمة أولًا، ثم نتوصَّل إلى تقدير أدق لتكلفة إعادة الإطلاق».

كانت لا تزال تحاول استيعاب الأمر كله حين غادر هارولد لحضور غداء عمل وبريق الفرصة الجديدة يلتمع في عينيه. أنهت الجامعة الأعمال الورقية في ثلاثة أيام، إذ استعادت شعور الإثارة الناتج عن الأبحاث طويلة المدى. قدم هارولد الشيك بنفسه ثم اصطحبها هي وطلبة أبحاث ما بعد الدكتوراه العاملين معها لتناول العشاء، وهناك أسرفت في احتساء الشراب.

2041

أثَّر الركود الممتد لسنوات عديدة - والذي فاق في حدته الركود العظيم - تأثيرًا كبيرًا على مشروعاته. كان يعلم أن التخلص من بعض البرامج والموظفين جزء لا يتجزأ من العمل، شأنه شأن البستنة. وفي الواقع، بدأ يمارس البستنة كي يبعد تفكيره عن الإخفاقات.

كان أهم هذه الإخفاقات هو الصدام مع الدول المسلمة التي اعتمدت لقرن من الزمن على عوائد النفط. كانت احتياطياتهم آخذة في النفاد، وكانت التكنولوجيا الخضراء تعمل على تخفيض الاستهلاك، وكان الانفجار السكاني فيها يتزايد بشكل قبيح. بدأت الدول العربية في الانهيار، إلى جانب إندونيسيا. بطبيعة الحال لم يؤثر هذا على باكستان وغيرها من دول آسيا الوسطى، أو الأغلبية المسلمة في السويد. شدَّدت الدول الأقدم من قيود الهجرة، بحيث سمحت لقلة قليلة فقط من العمالة الماهرة بالهجرة إليها. سارت الأسواق المالية بسرعة السلحفاة، على غير هدى.

علاوة على ذلك وضع هارولد بعض ماله الخاص في دراسة خاصة ببناء مصعد فضائي. بدت فكرة عظيمة، وسيلة أساسية للوصول إلى الفضاء بسعر رخيص وعلى نحو فعال. كانت هناك منشآت شديدة القوة، جزء منها مصنوع من الماس، وجعلت روبوتاته ذاتية الإدارة العاملة بالذكاء الاصطناعي الأمرَ كله يبدو ممكن التحقيق.

استخدم مهندسوه كتلة من الحطام المتخلف عن عمليات التنقيب في بناء الأجزاء الأولى، وكانت مزودة بالعديد من الكابلات الفائضة والدعائم المتقاطعة من أجل توزيع الأحمال. وحين يرتطم بالأرض نيزك أو قمر صناعي متوقِّف عن العمل سيكون عليهم استبدال بعض الأجزاء وحسب.

بيد أن برج الإطلاق العالي الأول جرى تجهيزه بسرعة كبيرة للغاية، بحيث جرى تقليص تكاليف المصعد تقليصًا كبيرًا إلى ما دون المرحلتين التقليديتين للإطلاق في المدار. لكن كانت هناك إخفاقات تكنولوجية وتبين أن أمين خزانة المؤسسة كان يختلس المال. كانت تلك ضربة قاصمة أخيرة، ولم يستطِع هارولد وحده حث التحالف الاستثماري على مواصلة البناء.

كان عليه أن ينسحب، وأن يتحمَّل خسارة كبيرة جرَّاء ذلك. صار الكابل غير المنتهي مصدرًا للإحراج، وفي النهاية باع الأجزاء النافعة منه كي تستخدم في

تنقية المدار من النفايات، فقط كي يمنع الناس من التقاط صوره ثم السخرية منه.

لثلاث سنوات كان يتلقَّى راتبًا سنويًّا مقداره دولارًا واحدًا وكان يرسل أرباح الأسهم التي يمتلكها إلى علماء الفلك من أجل عملهم على قمر الأشعة تحت الحمراء. عرضت سارة المساعدة، لكنه رأى أن من الأمان أكثر إبقاء أصولهما منفصلة. غضبت سارة لذلك وتوقفا عن رؤية بعضهما لمدة شهرين.

بعد ذلك ظهرت سارة في ناطحة السحاب المكتبية الخاصة به وقت الاستراحة، مرتدية ثوبًا أحمر جديدًا. كان اللون الأحمر على الدوام يمثل إشارة خاصة بينهما، وكان له وقع أفضل من الورود.

قال لسارة تلك الأمسية: «تبًّا لأمين الخزانة اللعين هذا. أتعامل مع كل أنواع البشر ومع هذا ...».

ابتسمت وهي تعدِّل ثوبها الأحمر وقالت: «يجب أن يحدث هذا. ستتعامل مع جميع أنواع البشر، سواء أحببت هذا أم لا».

2043

كان هدفه الأول في عشرينيات القرن الحادي والعشرين هو اقتناص كويكب غني بالعناصر الأرضية النادرة، إذ كان من شأن هذا أن يسدد تكاليف بدء العمل في شحنة واحدة.

بإمكان دوران الكويكب حول ذاته أن يطيح بالروبوتات من أماكنها، لذا فقد استعان هارولد بخبراء جيولوجيين، بتليسكوبات الأقمار الصناعية الخاصة بهم وببراعتهم في البحث السريع، كي يعثروا على كويكب يدور حول نفسه ببطء وبه عناصر مفيدة. كان الابتكار الأساسي عبارة عن فلتر للصخور يعمل على النحو الأمثل في أجواء الجاذبية المصغَّرة، وليس على الأرض مطلقًا. كان هذا الفلتر يفصل الجزيئات وفق شحنتها وكتلتها، مستخدمًا الفصل الكهربي المستحث بواسطة الاحتكاك البسيط، وهي العملية نفسها التي تجعل الشرارات تنطلق نحو يدك على مقابض الأبواب بعد أن تمشي على سجادة. تسبَّبت أول بضعة كويكبات في تحقيقه الثراء، بعد ذلك بدأ العمل على الأفكار الجريئة بحق.

وبمجرَّد أن امتلك روبوتات يمكنها العمل على نحو جيِّد حتى على سطح الصخور التي تدور حول نفسها حول محاور متعدِّدة، جعل من هذا الدوران مصدر قوة له. كانت هناك معارضة قوية، لكنه اعتمد على جمائل قديمة وحقق ما يريد عن طريق تصويت مباشر بمجلس الإدارة.

كانت هناك فئة جديدة من الروبوتات مزوَّدة بدروع طويلة صلبة من ألياف الكربون تشكل ذراعًا قاذفًا. كانت الشحنة تُرفع على الذراع، ثم تُطلَق. وقد مكنت الحسابات الدقيقة للدوران والاتجاه من إرسال الحزم في مسارات دقيقة إلى مدار الأرض العلوي. وبفضل دفعة تتلقاها في منتصف الطريق، كانت تتجه إلى شبكات تنتظرها، عملية نقل مجانية يوفِّرها الانخفاض الطفيف في دوران الكويكب حول ذاته. وقد صارت خزَّانات الوقود والمصانع والمستعمرات المدارية تحصل على بضائعها بأقل مشقة عن طريق التقاطها وهي تمر إلى جوارها.

انطلقت صناعة «الحق في التنقيب» عندئذٍ. تبادل السماسرة تلك الحقوق وجمعوا رأس المال. وفقط حين كانت الشحنات تصل كان هارولد يمتلك بالكامل الصخرة التي دفع مقابل حقوقها. كان هناك العديد من الحيل المحاسبية، خاصة في ظل التغير المتواصل للقواعد. كانت إدارة المسح

الجيولوجي الأمريكية، التي تشكّلت في الأساس عام 1879 بهدف اكتشاف المعادن الخام وتنشيط صناعة التنقيب، لا تزال تابعة لوزارة الداخلية، وسرعان ما صارت وكالة معنية بالتنقيب على الكواكب. بعد ذلك، بموجب قواعد مجتمع أمريكا الشمالية، صارت الضرائب والخصوم أكبر بكثير.

كان هناك خطر إضافي: إذ بإمكان المختطفون انتزاع الشحنة وهي في الطريق. ولم يمر وقت طويل حتى تمكنت الشركات الأخرى العاملة في الفضاء القريب من الأرض أن تجد حلًّا لذلك. كان هؤلاء القراصنة يوفرون دون قصد دفاعًا ضد الخطر الأساسي: أن تخطئ الكتل الضخمة أهدافها وتندفع عبر الغلاف الجوي للأرض. لكن في وجود أنظمة إرشاد وتتبع أفضل، انخفضت عمليات القرصنة بشدة.

صُنعت ثلاثة مسلسلات متعددة المواسم عن عصابات قراصنة الكويكبات العجيبة وعُرضت على شبكات البث العالمية ثلاثية الأبعاد، وذلك قبل أن يأمر هارولد بتسليح الروبوتات المرافقة للكويكبات الخاصة به.

2045

في غضون ساعة كان قد دخل مكتب كاثرين آماني وقال: «أين هو؟».

ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: «على بُعد أقل من سنة ضوئية. صغير وبارد، لكنه موجود هناك».

- «كيف؟».

طرفت بعينها، وقد باتت معتادة على أسئلته المباغتة، وأجابته: «كان لدينا شكوك، أتذكر؟ تنبأت التقديرات المبدئية بوجود عدد من الأقزام البنية يعادل عدد النجوم العادية، لكن المسح الذي أجراه القمر وايز أظهر وجود قزم بني واحد فقط مقابل كل ستة نجوم عادية. كيف إذن فاتنا العثور على بعضها؟ لو كانت قريبة منا فمن الممكن أن تعبر في المدة الفاصلة بين عمليتي المسح، فمجرد عدم ظهورها كان يجعلنا نستبعد وجودها».

أومأ بحماسة وقال: «إذن فقد بحثت عنها مرة أخرى».

أومأت وأرته خريطة نجمية بها العديد من اللطخات الصغيرة، ثم رسمت دائرة حول واحدة منها وقالت: «لقد استغرقنا بعض الوقت. إن درجة حرارة الغلاف الجوي أعلى بدرجة طفيفة من درجة حرارة هذه الغرفة».

زم شفتيه ومال إلى الأمام وقال: «عجبًا، عند الطرف الأدنى من النطاق Y للأقزام البنية. وقريب!».

ابتسمت وقالت: «كما تمنيتَ تمامًا».

نهض هارولد، وبدأ المشي عبر الغرفة جيئة وذهابًا، ثم نظر إليها بتمعُّن وقال: «هل رأيت اكتشاف الشهر الماضي، ذلك الكوكب الشبيه بالأرض الذي به طبقة من الأوزون؟».

- «أجل، من المؤكد أنه يملك مجالًا حيويًّا، وهو يبعد نحو مائة سنة ضوئية. إن الانتباه كله مركز عليه. ويريد الصينيون وكذلك التحالف الأمريكي الأوربي وضع أقمار صناعية جديدة من أجل التقاط أكبر عدد من البكسلات له، وتحليل الغلاف الجوي، وربما التقاط صورة له».

توقّف عن الحركة وجلس ثم قال: «سيحظى بكل الاهتمام. لنتحرَّى الهدوء في الوقت الحالي. ماذا عن إطلاق القمر الصناعية وايز 2؟».

اتسعت عيناها وقالت: «نتكتم ...؟ آه، أرى ما تعني. لندعهم يتجاهلون دراسات الأشعة تحت الحمراء بينما نحصل نحن على المزيد من البيانات».

قال: «هذا إذا لم تمانعين». كان دائمًا يسأل نفسه: ما عنصر العمل الذي يهم هنا؟ ثم أضاف: «إنني أحب المفاجآت المدوِّية، لكن لا بد أن تكون مُحقَّقة».

- «ليست هناك فرصة كبيرة أن يعاود أي شخص دراسة هذه البيانات القديمة قريبًا. وإذا كان لديك المال الكافي لإرسال قمر آخر أفضل تجهيزًا ... أعتقد أن ...».

- «اتفقنا إذن». طرفت بعينها، وفغرت فمها لكن دون أن تنطق ببنت شفة. لقد حصلت على مائة مليون دولار على أي حال. أعرف رؤساء تنفيذيين يمكنهم الاحتفاظ بصوابهم في لحظات كهذه، لكنهم قليلين. لذا ... لنحافظ على رباطة الجأش ... «دعينا نتحرَّى الهدوء مؤقتًا. وفي الوقت الحالي أريد أن أخصِّص بعض المال لموضوع كيفية وصولنا إلى هناك».

- «لكن صواريخنا ستستغرق ...».

- «وسيلة أفضل من الصواريخ. لن نحتاج محركات من الأساس».

2052

اكتشف هارولد قاعدة مفيدة: إذا أردت أن تعرف ما يدور، لا تسأل الشخص المسؤول. فللحصول على الحقيقة، خاصة من الهيئات الحكومية المتحفِّزة التي تنظم صناعات الفضاء، عليك أن تبدأ من الإدارة العليا، ثم تشق طريقك إلى الأسفل.

هذه هي الكيفية التي عرف بها بمصدر جديد للربح، بأن سأل علماء الفلك الفعليين وليس المدراء في ناسا. كانت الفوهات الموجودة قرب القطبين الشمالي والجنوبي للقمر بمنزلة غرفة الخزين المغبَّرة للمجموعة الشمسية، غرفة في حالة متجمِّدة. ففي المساحة البالغة مائة كيلومتر مربع كان هناك مليار جالون من الماء في المتر العلوي من التربة، بل والأفضل من هذا أن هناك أيضًا المقدار عينه من الزئبق. كان الماء يجعل المكان قابلًا للحياة للبشر القلائل الذين كان عليهم إدارة فريق الروبوتات الذي ينقب عن المعادن هناك. كان الهيدروجين الصافي يتدفَّق حين كانت الحرارة الفائضة للمفاعل تدفئ التربة، وكان يجري اقتناص الغاز في بالونات عملاقة، وكان وقود الصواريخ هذا منتشرًا في جميع مواقع أساطيل التنقيب الآخذة في الازدياد.

كانت كل هذه الثروة جاثمة في الفوهات المظلمة. وبعد استنفاد مخزون مئات الكويكبات التي كانت أيسر في الوصول إليها من القمر، مثل القطبين المتجمِّدين آخر المواقع الاقتصادية المرغوبة.

2055

بحلول هذا الوقت صار هارولد مان أحد الصفوة، ذلك النادي الحميم والبعيد في الوقت ذاته من التريليونيرات. يقول البعض إن هناك آخرين لا يعرف بشأنهم أحد، يسمونهم «خارقي الثراء»، لكن لم يكن هارولد يظن أن لهؤلاء وجود. ولو كان لهم وجود فإنهم لم يخلفوا أي أثر يدل عليهم داخل أسواق التداول الشاسعة سريعة الحركة. لم تكن منظومات الذكاء الاصطناعي التي تحكم تلك المناطق لتقول إن لخارقي الثراء هؤلاء وجود، لكنها كانت شديدة التحفُّظ على أي حال.

لم تكن المسميات تعنيه في شيء. كان كهلًا شديد العزم الآن، ثري ويحمل داخله الطموح الذي يمتلكه مَن يعرفون يقينًا أن لديهم وقت قليل لتحقيق ما هو أكثر ... ما هو أكثر بكثير.

قالت سارة: «أنت تعتمد على بيع خيارات الأسهم إلى الحد الأقصى، في ظل كل هذه التشريعات الجديدة».

كانا يسبحان قبالة شاطئ ماوي، لذا بدا الموضوع غريبًا. قال: «أريد المال السائل من أجل الأبحاث والتطوير».

قالت: «لقد اكتشفت البعض ممن يتشمَّمون الأخبار حول عملياتي. إن مجتمع أمريكا الشمالية يحتاج المال السائل، لذا ...».

- «إنهم يحتاجون المال دائمًا. مهلًا، حاولي أن تجتازي الموجة القادمة من دون لوح الأمواج!».

أخبره مستشاروه ألا يناقش طموحاته كثيرًا، وبالتأكيد ليس تفاصيل موقفه المالي المعقَّد، في ضوء كل تلك المعاناة التي يشهدها العالم. كانت الفوارق الشاسعة بين المستويات الاقتصادية قد أدت إلى الرأي الرائج القائل إن البشر قد أفسدوا ما يكفي من العوالم بالفعل. لذا لو رُصدت الحياة في عالم بعيد شبيه بالأرض، فمن الأفضل أن تتركها البشرية وشأنها.

نشب الجدل ذاته حول الحياة التي جرى اكتشافها تحت سطح المريخ منذ عقود خلت. كانت تلك الحياة، التي تنظِّمها نباتات جرثومية، عجيبة للغاية وأظهرت علامات واضحة على الوعي. كانت لا هوائية بالكامل وغير معتمدة

على الأكسجين بالمرة، وكانت أصولها أقدم من الحياة على الأرض ومنفصلة عنها. رأى العديد من العلماء أن الصلات المؤكدة بين الدي إن إيه الأرضي والمريخي، الذي يعود إلى عصور البكتيريا القديمة المعروفة بالعتائق، تثبت يقينًا أننا مريخيون في الأصل، ومن ثم فنحن لا نسبب ضررًا لشعبة منفصلة بالكامل عنا من الحياة. لم يكن هناك ضرر على أي حال، نظرًا لأن المستعمرات المريخية البشرية لم تجرِ بها أي معاملات بيولوجية مع كائنات مريخية على الإطلاق والتي كانت قابعة في مكان عميق أسفل السطح.

ومع هذا لم يكن هارولد يخفي أن لديه خططًا للاستكشاف المستقبلي، لكنه لم يفصح عن ماهيتها قط. كان يموِّل الدراسات المعنية بصواريخ الدفع عن طريق بيع خيارات الأسهم في العديد من الشركات الصغيرة، بحيث يأخذ أرباحه ثم يوزعها على شركات تتحرَّى السرية تعمل على تطوير تكنولوجيات منخفضة الاحتمالية/عالية العائد.

داخل اقتصاد المجموعة الشمسية المتوسِّع شديد التعقيد كانت الأسرار تجد جمهورًا متشوِّقًا. وقد فوجئ هارولد بشدة حين وجد أن هالة الغموض المحيطة باسمه جعلت العامة يحبونه بشكل أكبر، فقد كان الناس يريدون ألغازًا محيِّرة، ويحبِّون شعور الترقُّب.

2059

بعض الكويكبات كانت جليدية، تتكوَّن في نحو عشرين بالمائة منها من الماء وثاني أكسيد الكربون المتجمِّد، وكان المنقِّبون يطلقون عليها كويكبات الجليد. وإذا أذيبت صخور الكويكب عن طريق رأس نووية فأول ما يخرج منها هو المياه، بعد ذلك يمكنك تكثيف هذه المياه وفصلها، ثم ضغطها داخل كرات قابلة للتمدُّد من أجل إرسالها إلى الأرض، ثم يمكن ترْكها تتجمَّد في الفضاء. يمكنك تعليق الكرات على أُطُر تحمل محركًا نوويًّا، دون الحاجة لأي درع. بعدها يمكنك شحن هذه التجميعة العجيبة إلى المستعمرات القريبة من الأرض من أجل دعم الحياة بها أو استخدامها في محركات الدفع مع ثاني أكسيد الكربون.

كانت الكويكبات الصخرية الغنية بالمعادن تُرسَل إليها فرق من المنقِّبين الذين ينشرون روبوتات تنقيب دقيقة، بإمكانها فصل المعادن عن الصخور عن طريق الوزن ودرجة المرونة. كان البلاتين هو الجائزة الكبرى، لذا كانت روبوتات التنقيب تسعى إلى العثور عليه أولًا حين تمس أي كويكب جديد. كان «البلاتين السمين» عبارة عن معدن صافٍ يمكنه الدخول مباشرة في المحوِّلات الحفَّازة الأرضية، حيث كان بمقدور الطابعات الأوتوماتيكية ثلاثية الأبعاد تصنيع الأجهزة الإلكترونية أو حتى المجوهرات منه.

كانت المعان الخام المشحونة في مدارات منخفضة الطاقة تصل إلى مدار العمل الأرضي وقد تحدَّدت بالفعل قيمتها السوقية - التي لم تكن تقل عن 50 ألف من الدولارات الجديدة للكيلوجرام - وذلك لأنها خضعت بالفعل للفرز حسب طيف الكتلة بواسطة الروبوتات وهي في الطريق. كان بإمكان آلات الفرز الغليظة هذه أن تأخذ كل ما تحتاجه من وقت كي تؤدِّي المهمة بشكل صحيح. كانت تتبع جهات مراقبة الأسواق، وكانت أكثر أمانة في عملها مما قد يتظاهر به أي بشري على الإطلاق. أما عن المواد الأقل قيمة - كالحديد والنحاس والألومنيوم - فكانت تُرسَل إلى مصانع مدارية من أجل تصنيع تجهيزات المركبات الفضائية وأبدانها في مسابك جافة مفرغة من الهواء. وخلف كل هذا كانت توجد شبكة التواصل الليزرية التي تعمل على التنسيق بين الروبوتات والحفاظ على المعايير.

تعاظمت العوائد وفق ما بات يعرف بقانون مور الفضائي [22]، رغم أن التشابه بين القانونين كان سطحيًّا. كان المحرك الأساسي هو وفرة كتل

المعادن الخام الجديدة المتاحة، التي تتهادى في الفضاء بين الكواكب.

لم تكن شركة هارولد أول شركة تنقيب تصل إلى حزام الكويكبات الرئيسي، بل لم تكن العاشرة حتى، بيد أنها ظلت باقية.

الأمر عينه انطبق على ميزانية هارولد الخاصة للأبحاث والتطوير. وقد فوجئ ذات صباح حين وجدت مقالًا إخباريًّا يصفه بالممول الأكبر للأبحاث بعد الصين والولايات المتحدة وأوربا.

2060

كانت د. كاثرين آماني تجيد التعامل مع الصحافة. جلس هارولد في نهاية القاعة وشاهدها وهي تعلن لا عن اكتشاف نجم قزم واحد بل نجمان، بالقرب من نجم رجل القنطور. وقد قالت إنها استغرقت أعوامًا في دراسة الموضوع كي تتأكَّد من أن هذين النجمين موجودان بالفعل. فكر: وهذا أحد مناقب عدم التبعية للهيئات الحكومية، لكنه لم يتحدَّث بشيء.

كان انتباه الصحافة لا يزال متركزًا على الكوكب البعيد الشبيه بالأرض الذي يسميه الجمهور «جلوري». بطبيعة الحال لم يكن من الممكن إرسال بعثات استكشافية، ولكن تساءل المراسلون على الفور عن النجم الجديد. هل النجم الأحمر، أقرب النجمين المكتشفين إلينا، يملك أي كواكب؟

اعترضت د. أماني قائلة إنه من المبكِّر للغاية أن نعرف هذا، ولكن ثمة «متبرِّعين مجهولين» يجهزون دراسة أكثر دقة بالأشعة تحت الحمراء للمنطقة المحيطة بالنجم الأحمر.

لم تلقَ احتمالية الذهاب إلى هناك اهتمامًا كبيرًا من الصحافة؛ إذ كان الكساد العالمي الحالي قد استنزف قدرة العامة على الاهتمام بالاحتمالات الجديدة، وهم الذين يكافحون من أجل اجتياز أيامهم الصعبة.

ومن الذي أطلق على هذا النجم الخافت اسم «النجم الأحمر» على أي حال؟ هل يملك الاتحاد الفلكي الدولي حقوق التسمية؟

فتحت د. آماني فمها ونظرت إلى نهاية القاعة، لكن هارولد كان قد رحل بالفعل. كان يعرف أن سبيل الحصول على تغطية إعلامية أفضل هو أن تترك وسائل الإعلام تكشف القصة بنفسها، وبعد ذلك يمكنك أن تروي فضولهم.

2063

تنهَّد هارولد وقال: «هل خطر على بالك من قبل قط أننا مجرد مادة، نوع عجيب من المادة صار يملك وعيًا، ويتكاثر، ويسبح في هذا الكون، ثم يموت، ولا شيء أكثر من هذا؟».

قطبت سارة جبينها وقالت: «أنت نفسك لا تؤمن بذلك».

- «كلا، لا أؤمن بذلك. لكن يمكنني تفهمه».

كانا داخل قمرة ضيقة بالمحطة القمرية مون كريت، التي كانت تقيهما عاصفة شمسية شديدة الوطأة. لم تسر رحلتهما الأولى هذه إلى المحطة القمرية بشكل طيب وشعر هارولد برهاب الأماكن المغلقة، وهو أكثر المشاعر شيوعًا لدى من يسافرون في أعماق الفضاء.

قبلته وقالت: «فلتحتس كأسًا أخرى من النبيذ».

2069

حين كان يستلقي في حوض الغمر بينما يتم العمل على فحص جسده وتحسين عمله، كثيرًا ما كان يفكِّر في أن اللقاء الذي دار حول القمر وايز 2 كان النقطة التي عندها تسارعت وتيرة حياته بقوة. بطبيعة الحال كان إحساس الرتابة أمرًا شائعًا مع التقدم في العمر، وكان نابعًا من قلة التجديد في الحياة. كانت أمور مثل السفر وعقد صداقات جديدة وممارسة الهوايات كلها مفيدة، بيد أنه ذهب بالفعل إلى كل بلد كان يستهويه، وحين توقَّف عن السفر كان قد زار سبعة وثمانين بلدًا. كان من الطيب عقد صداقات جديدة، لكنه لم يكن من أصحاب الهوايات. كانت له اهتمامات قوية بأشياء خارج مجال العمل، لكنها كانت موجَّهة جميعًا إلى السماء، إلى المجموعة الشمسية، وإلى النجوم.

في البداية جاءت الأشرعة. كان رواد أعمال قد طوَّروا بالفعل أساسيات الإبحار الشمسي، وهي وسيلة موفِّرة لمسح الكويكبات العديدة واستكشافها. كانت فوتونات الشمس مجانية، لكنها شحيحة، وكان من الأفضل تركيز شعاع من الليزر أو الموجات الدقيقة على شراع وإطلاقه من مدار الأرض المنخفض، بحيث توفِّر عليه سنوات من الصعود عبر بئر الجاذبية الأرضية. كما يمكننا أيضًا أن نطلي سطحه الداخلي بطلاء خاص من شأنه، حين يتعرض للسخونة من الشعاع، أن يشتعل، فيكون أشبه بصاروخ.

لكن الدفعة الحقيقية جاءت من الاقتراب الشديد من الشمس. كانت المركبة صَن دايفر 1 قد اقتربت من الشمس بدرجة كبيرة، وتخلَّصت من الكويكب الذي كان يحميها، ثم فردت أشرعتها أمام ذلك النجم الملتهب. كان قرصها المفرود مزوَّدًا بطبقة معقَّدة التصميم تسخن بدرجة عنيفة. كانت هذه الطبقة المطلية تشتعل عند درجات الحرارة العالية، وكأنها صاروخ مؤقَّت يستغل بعض قوانين نيوتن الفيزيائية: بحيث إنه عندما تتغيَّر السرعة بينما تنطلق المركبة بأقصى قوتها، تتعاظم الدفعة المتحقِّقة. اندفع تيار ذو لون أبيض مائل إلى الزرقة لنحو عشر دقائق، وبمجرد أن اختفى كشف الوقود المطلي عن شراع أبيض متوهِّج. وهذا تسبَّب في دفع المركبة بعيدًا عن الشمس بسرعة لم يكن علماء الصواريخ يحلمون بها.

وحين دخلت المركبة صَن دايفر 1 النطاقات البعيدة لحزام كويبر، كان هارولد قد أتم تجميع منظومة الشبكة الداخلية من أشعة الليزر والموجات الدقيقة.

حقَّقت هذه المنظومة ربحًا كبيرًا عن طريق خفض تكاليف الاتصال بين مجتمعات التنقيب ومستعمرات الكويكبات والقواعد المريخية، بل وحتى فرق الاستكشاف الجديدة على قمر المشترى جانيميد.

تسارعت وتيرة تطوير الأشرعة، وجعلت استكشاف النطاقات الخارجية من المجموعة الشمسية أكثر كفاءة. اشترى هارولد العديد من الشركات الناشئة العاملة في تكنولوجيا الأشرعة، وحين عثرت على بعض الكويكبات الجليدية الصالحة للتوجيه إلى النطاقات الداخلية للمجموعة الشمسية من أجل حصاد ما بها من مواد خام، باع هارولد بعض أسهمه وجنى بعض الأرباح على خلفية توقُّعات الارتفاع التي تلازم أسهم التكنولوجيا عادة، ولو لبعض الوقت.

وحين كانت المركبة صَن دايفر 11 تنطلق مسرعة بعد تزودها بدفعة قوية من الشمس، كانت منظومة الشبكة الداخلية جاهزة لتوجيه الإشعاعات إلى شراعها البالغ حجمه كيلومتر كامل كلما مرت بجوارها. كان التوقيت أمرًا معقدًا شديد الحساسية، وشبَّهته وسائل الإعلام برقصة الباليه. كان أحد العناوين يقول: منظومة الشبكة الداخلية تنطلق بكل قوتها. وكان الهدف هو النجم الأحمر.

2073

صارت الصواريخ العاملة بالاندماج النووي وسيلة النقل الأساسية في المجموعة الشمسية، وكان قطبا القمر الأرضي هما المحطتين الرئيسيتين لها. وقد تسبَّبت تقنية المجال المغناطيسي المعكوس أخيرًا في جعل حجيرات الاندماج النووي الضخمة ذات حجم عملي، وتمتعت هذه الصواريخ بقوة دفع أكبر مقارنة بالصواريخ العاملة بالانشطار النووي. لقد صار الشحن أرخص.

كان هارولد مهتمًّا بتطوير منطقة القطبين، وكان دافعه في الأساس هو الحصول على صواريخ أكبر تعمل بالدفع النووي. جرَّب الصينيون والعرب الذين دخلوا الساحة النهج نفسه، لكن كانت استجابتهم أبطأ للمشكلات العديدة التي طرأت. كانت المناطق القطبية باردة، ولم تكن المعدات تعمل دون الحرارة التي تنتج عن مخلفات مصانع التقطير النووية. كان هارولد يستثمر في المفاعلات النووية وفي عمليات تنقية مخلفات المفاعلات، لذا فقد استفاد من كلا طرفي المشروع.

وسريعًا أقلَّت صواريخُ نووية يديرها الذكاء الاصطناعي فرقَ التنقيب إلى الكويكبات. صارت أماكن العمل أكبر حجمًا، وهو ما تطلَّب وجود بشر من أجل الإشراف على الروبوتات العاملة بالذكاء الاصطناعي التي تتسم بالذكاء لكنها لا تملك الحدس أو الحس المنطقي.

على كوكب الأرض، ذو انبعاثات الكربون المحدودة، تم تقليل عمليات التنقيب والصهر عديمة الكفاءة التي تتسم بالهدر وتسبب التلوث. كان هناك قدر أقل من الحفر والطحن وإطلاق غازات الدفيئة، وكانت لذلك منافع اجتماعية كبيرة، فجرى توزيع الثروات عن طريق المِنَح، وقصر أسبوع العمل. هاجر مدمنو العمل إلى الفضاء، حيث كانت فرص العمل وأسابيع العمل الممتدة لمائة ساعة وفيرة. كل هذا النشاط والثراء تحقَّق عن طريق المستعمرات التي تدور حول الأرض والمرايا الشمسية التي تذيب الصخور في أعماق الفضاء.

2074

فرض هارولد قواعد صارمة على الكيفية التي يجري بها توصيل المؤن وقطع غيار مستعمرات الكويكبات. كانت المواصفات تحدِّد الأحجام الدقيقة لعبوات التخزين، علاوة على مواضع مسامير التثبيت، وكيفية غلق مفاتيح التأمين، وشكل الأركان، وسُمك العبوات بالمليمتر. كان المورِّدون مستائين من ذلك لكنهم انصاعوا، وهم يتساءلون عن سبب هذه الدقة المبالغ فيها.

وحين يقول أحدهم: «إن منافسيك ليسوا بهذا التدقيق».

يرد هارولد: «لكني أدفع المزيد في المقابل، هل تريد العقد أم لا؟»، وكان يبتسم حين يومئ المورِّد منصاعًا على مضض.

لم يخبر أحدًا عن سبب ذلك. كانت فرق العمل التابعة له تقوم بتفريغ المؤن وقطع الغيار في جاذبية منعدمة، وتسلمها إلى الروبوتات التي كانت تقوم بتجميع المثاقب وأدوات الصهر. بعد ذلك كان يأتي دور فريق الروبوتات الثاني، الذي يقوم بتفكيك عبوات الشحن ثم يصل جدرانها المصنوعة من ألياف الكربون الخفيفة معًا، وبهذا ينتج الجدران الخارجية الفعلية للمستعمرة. وبعد لحامها معًا، تصير الوصلات المحكمة قادرة على الحفاظ على الضغط الجوي الكامل. وبهذا يكون هارولد قد أوصلها إلى حيث يريد على حساب المورد، لا على حسابه هو.

قالت لين: «يمكننا تعطيلهم لبعض الوقت، ولكن ليس إلى الأبد».

- «لقد فعلتِ ذلك لعقود حتى الآن». هكذا قال هارولد ويداه معقودتان أمامه على طاولة الاجتماعات. كانت سارة تجلس إلى جواره، وكانت تهز رأسها.

قالت سارة: «عقود؟ لقد نسيت التفاصيل ... إلغاء جميع تكاليف التطوير ...».

- «بوصفها استثمار عمل، أجل» أنهت لين العبارة نيابة عنها. تجمَّعت شبكة ثلاثية الأبعاد في الهواء فوق الطاولة، وأظهرت ثلاثة محاور للزمن والمال بالدولار وسبل الإنفاق القانونية. ربطت خيوط متعدِّدة بين نقاط كبيرة برتقالية اللون. فكَّر هارولد في نفسه: وكأنها ميدوسا من عالم الكوابيس.

- «كان هذا كله قانونيًّا، وقابلًا للخصم حين ...».

- «بدأتما، نعم». ابتسمت لين له ابتسامة فاترة وأكملت: «لكن ليس الآن».

بدت سارة متحيِّرة وهي تتابع التشابكات المليئة بالمعلومات وقالت: «وفق هذه الخرائط الطبوغرافية للمال السائل ومؤشرات التقدم، هناك خط تطوير كامل للمحركات الأيونية وحدها!».

تجهَّمت لين وقالت: «هذا لم يعد يعفينا».

أومأ هارولد وقال: « لقد شهد كوكبنا المسكين الكثير: ضررًا بيئيًا، تأثير الدفيئة الذي لم يتحقَّق بالسرعة التي كنا نتوقعها، وندرة في الموارد، وأنظمة جماعية كبيرة. إذن فهم يسعون خلف المال القادم من خارج كوكب الأرض».

قالت لين: «كما غيروا القواعد في منتصف اللعبة. أنت مشارك في اللعبة منذ وقت طويل، لذا سيتعيَّن عليك أن تكون أكثر من يتأثَّر بالتغييرات».

- «إذن ...» هكذا قالت سارة وهي لا تزال مفتونة بالخطوط الساطعة المعروضة أمامها « ... يمكنك أن ترد بعض الضرائب».

قال هارولد: «بالتأكيد، لو جرَّدت نفسي من معظم ما أمتلك. أو ...».

أنهت لين العبارة نيابة عنه قائلة: «أو يمكنك القتال». كان من الواضح أنها تعرف رئيسها جيدًا، هذا ما كان هارولد يدركه، وكانت تعرف ما سيفكر فيه. «مراوغات قانونية، أدلة على رأس مال محتجز بالخارج، عدم القدرة على الشهادة ...».

أكملت سارة حديثها قائلة: «جميع التحركات التي على كل شركة تعلمها بالطريقة الصعبة. دعيني أخمن، استردادات ضريبية تتضاعف كل ثلاث سنوات، عقوبات بأثر رجعي، كابوس متأخر».

تساءل هارولد: «هل بإمكاني العودة إلى الأرض؟».

- «لا أنصح بهذا».

انتفضت سارة كما لو أنها استيقظت للتو وقالت: «ماذا؟».

قالت لين وهي تهز كتفيها علامة على الأمر الواقع: «يمكنهم القبض عليك. ليس هذا مرجَّحًا ولكنه أمر محتمل، وهو يعتمد على مَن يدير دفة مجتمع أمريكا الشمالية حين تهبط على الأرض. لديك أعداء في الفصيل المكسيكي».

تذكَّر هارولد التوتر الذي شاب عملية تبنِّي دستور المجتمع. أجل، أراد المكسيكيون أن يدرجوا فيه حق المصادرة، وأنفق هارولد الكثير كي يمنعهم من هذا. كان الدستور المكسيكي منذ أكثر من قرن مضى يمنع الأجانب من تملك الأراضي في المكسيك، والآن هناك ضريبة مفروضة على صافي الثروة كذلك. «الصغار يحملون الضغائن دومًا».

قالت لين برفق: «لقد انتقدك الرئيس الحالي علانية بسبب إنفاقك أموال المؤسسة على ممارسة «هواياتك» بالأمس».

قال هارولد: «كنت أظن أن الهوايات يُفترض بها أن توسِّع أفقك. إن هواياتي هي البحث والتطوير».

زمَّت سارة شفتيها علامة الحذر وقالت: «أحيانًا يكون الصمت هو الجواب الأمثل».

قالت لين: «لقد بدأت بالفعل في تجهيز الدفاعات القانونية».

- «ماذا عن مدخراتي - ومدخرات سارة - في الحسابات الأرضية؟».

- «لقد نقلتها إلى حسابات قمرية ليلة أمس، وقد سبب هذا انخفاضًا في عدد من الأسواق هذا الصباح».

قالت سارة: «لا مكان للاختباء حين تكون كبيرًا بهذه الدرجة على ما أظن».

أومأت لين وقالت: «كان عليَّ أن أضحِّي ببعض المعاملات الجارية، أتخلَّى عن بعض الموارد، أتخلَّص من سند قابل للتحويل أو اثنان».

وقف هارولد على قدميه في الجاذبية البالغ شدَّتها أربعة أعشار الجاذبية الأرضية المعتادة وقال: «أظن أن هذا من تدبير كيجان في المجموعة المتحدة».

قالت لين: «أشاركك الرأي. تقول الشائعات إنه يكرهك. وهو يريد إضعافك وربما خلق تيار معارضة ضدك في مجلس إدارة مؤسستنا».

هز هارولد كتفيه وقال: «سأتعامل مع مجلس الإدارة. أحيانًا تسير الأمور على هواك وأحيانًا لا. لنذهب للسباحة».

كانت كرة السباحة الجديدة يبلغ قطرها أربعون مترًا، ولأغراض الأمن تدلَّى حبل أسود من مركزها، حتى يتمكن السبَّاحون البعيدون عن الهواء جذب أنفسهم للخارج بسرعة. وقد حرص هارولد على استخدام الحبل ودار بغضب حول المحيط الخارجي، تاركًا قطرات المياه تتناثر في كل مكان. كانت المياه الفيروزية تتماسك مجدَّدًا، إذ كانت قوى التوتُّر السطحي المعززة تجمع القطرات من وسط تيارات الهواء. لم تكن سارة بمثل هذه الغطرسة، إذ كانت تسبح أسفل السطح مباشرة في معظم الأوقات، مستعينة بمعزز أكسجيني. وحين ظهرت فوق سطح الماء كانت متجهِّمة، وبعد أن التقطت أنفاسها قالت: «لا تقلق، لقد واجهت مثيري متاعب مثل هؤلاء من قبل».

كان من علامات شعوره بالقلق عودته إلى استخدام لكنته الجنوبية، قال: «أكبر مثير للمتاعب سيتعين عليكِ التعامل معه على الإطلاق هو مَن ترين وجهه في المرآة كل صباح».

2085

كان الأمر بسيطًا في ظاهره: عليك بالبقاء في المدار، والاستفادة من قوة الطرد المركزية البالغة أربعة أعشار قوة الجاذبية الأرضية، والتي بيَّن المتخصِّصون في شؤون المريخ أنها تقلِّل بالفعل من التلف الواقع على الجهازين الدوري والعصبي للجسم. لكن بعض الناس لم يحلِّقوا في المدار على الإطلاق، وبهذا خسر هارولد وسارة بعض الأصدقاء. كان كلاهما قد سَئِم الحياة في المدار، وكذلك إدارة أعمالهما إلكترونيًّا عن بُعد، ولهذا سخَّرا كتائب من المحامين من أجل مقاومة المراسيم التي فرضها مجتمع أمريكا الشمالية. وقد منحهما هذا بعض الحصانة من المقاضاة والقبض عليهما وهما على الأرض. ومع ذلك كانت زياراتهما قصيرة، واقتصرت في الغالب على أحدث الأبحاث المتعلقة بتصميم الروبوتات ومتابعة العلماء العاملين على رصد النجم الأحمر القزم، وهو النشاط الذي ظل هارولد يؤكِّد لمحاميه أنه هواية لا أكثر.

2093

دنى مراسل صحفي من هارولد وسارة قرب منزلهما المطل على وادي كينجز كانيون. كانت تلك «فرصة لقاء عفوية مدبَّرة»، كما سمَّاها مستشاروه الإعلاميون، لذا تصنَّع هارولد المفاجأة.

قال الصحفي: «بالتأكيد أنت من يقف وراء إعلان د. آماني عن اكتشاف النجم الأحمر يا سيد مان، وأنت الآن تطلق مجسًّا لفحصه». ثم أضاف وهو يتصنَّع الانبهار، كما هو مطلوب: «إذن فقد كنت تعلم بشأنه منذ أعوام!».

قال هارولد بوجه جامد: «بل منذ عقود في حقيقة الأمر». فكَّر: ضم سارة إليك، وابتسم بحق الجحيم! على أي حال كانا يحتفلان بتجديد عقد زواجهما ذو الخمسة أعوام لمرة لا يحصي عددها. ابتسمت سارة، مجبرة أيضًا. لم يستطِع هارولد الاحتفاظ بابتسامته طويلًا، وركَّز على المشهد أمامه. لم تكن أشجار الصنوبر البعيدة والقمم الجرانيتية الأنيقة واضحة كما في الماضي، لأن الاحترار سبَّب موجة حارة في كل مكان.

- «لماذا لم تعلن أنت وعلماؤك عن ...».

- «كنت أريد أن أرتب أموري أولًا. والآن يدير الجميع تليسكوباتهم نحو النجم الأحمر، ليخبرونا بما يمكن معرفته. لكني سأمنح الجميع نظرة مقربة إليه».

- «هذا سلوك متعجرف!».

- «أعتقد هذا. إنها ليست هواية، بل شغف تملَّكني طوال حياتي. كنت أريد أن أقوم بالأمر على طريقتي».

- «المؤسسة العلمية على مستوى العالم كله ...».

- «هي كذلك حقًّا، مؤسسة، تموِّلها الحكومات ... أي يموِّلها مواطنو دول عديدة. كنت أريد أن أتحرَّك على نحو أسرع من ذلك، إلى جانب تحقيق الربح بينما أشيِّد منظومة الشبكة الداخلية».

قال المراسل وقد بدا عليه الإحباط: «ما الذي ستجده المركبة صَن دايفر[11]؟».

- «لا أدري. هذا هو هدف الاستكشاف أليس كذلك؟».

بينما كانا يسيران فيما بعد قالت سارة: «أتعلم، يقول الناس إنك قرَّرت التقاعد بعد انتهاء كل هذا. لقد حقَّقنا أخيرًا كل شيء شرعنا في تحقيقه، لذا ...» ثم نظرت إليه وهي ترفع حاجبيها.

- «لا أعتقد أننا آمنون، فقط متقاعدون».

- «آه، أتعني قواعد «الحقوق العالمية»؟».

كان الصدام الحتمي بين كوكب منهك مستنزف الموارد وبين مجموعة كبيرة من الأثرياء المتقاعدين لكنهم يتَّسمون بالنشاط يتَّخذ مظهرًا قبيحًا. بدت الرسالة السياسية الأساسية تقول: لديكم أموال كثيرة، وأنا أملك السلاح ... وكذلك المحامين.

قالت سارة: «إذن سيلاحقوننا من أجل المزيد من الضرائب. يمكننا أن نتعايش مع ذلك».

- «صار العيش على الأرض أصعب وأصعب، فلم يعد يوجد برنامج فضائي حكومي، ولا أستطيع انتزاعه من بين ثنايا الروتين الحكومي. كما أن «ضريبة الاحتياجات الاستثنائية» هذه وحدها ...».

ربَّتت عليه سارة وقبَّلته وقالت: «كفاك قلقًا! لا تدع الغد يستنزف طاقتك اليوم. لنذهب في جولة تمشية على مسار جون موير».

كانت محقة. ذهبا للتمشية، وكانا سيقابلان بعض الأصدقاء في وقت لاحق حيث سيتذوَّقون بعض النبيذ الطيب، كانت الحياة طيبة. عليه الاستمتاع بالحياة كما هي. ومع هذا خلال تلك الظهيرة أخذ يفكِّر في المركبة صَن دايفر 11 وقال في نفسه: من الأفضل أن أتفقَّدها بنفسي. كلا هذا سخف. لا يمكنني ذلك حتى لو أردت، فأنا عجوز للغاية.

2100

وصل هارولد وسارة إلى محطة التحكم في الروبوتات في مركبة فضائية. كانت الجاذبية المنعدمة نعمة لمفاصله.

بينما كان يسبح عبر قاعة الانتقال نظر من خلال الجدران المرشحة للأشعة فوق البنفسجية ورأى مجموعة من الروبوتات المصنوعة من ألياف الكربون والخزف تنتظره. كان الهدوء السلس للسفر في أعماق الفضاء يجعل العمليات الصناعية الروتينية تبدو كرقصة باليه بطيئة بارعة.

كان يعرف تصميماته عن ظهر قلب، بل إنه عمل على تصميم بعض الوصلات الجامعة بنفسه. استقرت روبوتات قصيرة مكتنزة على ظهورها وهي تسحب الطاقة من رأس نووي خامد على مسافة أمتار قليلة.

لم تكن الروبوتات العاملة في الجاذبية المنعدمة مقيَّدة بمحور الحركة الأمامي/الخلفي؛ فكان بإمكانها أن تدير رؤوسها في كل اتجاه من أجل استخدام أعينها الرقمية أو مستشعراتها المعدنية، والمركبة جميعها في منصة دوارة تضم هوائيات للموجات الدقيقة وأشعة الليزر كذلك. إن خبراء التكنولوجيا يصفونها بأنها كلية القدرة، وكان هارولد فخورًا بكونه أحد المستثمرين التسعة والخمسين المدرجين على براءة اختراعها، وقد منح نسبته لسارة في واحدة من المرات التي كانا يحتفلان فيها بتجديد عقد زواجهما الممتد لخمسة أعوام.

كانت أجساد الروبوتات مكوَّنة من مكابس مكتنزة متداخلة وأذرع جاذبة، يحرِّكها سائل هيدروليكي. لم يكن منظرها جميلًا لكنها كانت ملوَّنة بالأصفر والأزرق والأحمر على حسب مهمتها، حتى يتسنَّى لروبوتات التحكم التفريق بينها. يميل الناس في الفضاء إلى جعل مستعمراتهم وأماكن عملهم مبهرجة، كرد فعل ضد السواد المحيط بهم. وكان من شأن لطخات الألوان أن تثير حنق أي مصمم ديكورات أرضي.

ثم ظهرت بوابة الضغط الانتقالية البرتقالية اللون في نهاية الأنبوب، وانفتح الباب.

- «ضابط على السطح!» هكذا أعلنت امرأة شابة بحزم بينما خطا عبر الباب. كانت الشارة التي تحمل اسمها مخيطة في بذلتها المرنة ومكتوبًا عليها

اسمها، إنجوين. ابتسمت محيِّية إياه وقالت: «إنه بروتوكول متَّبع يا سيدي، أعلم أنك لست ضابطًا».

قال: «سيكون من الأنسب تسميتي الأب سبيس باكس» [23]

ضحك الرجل الواقف إلى جوارها، لكن لم يكن من المرجَّح أن يدرك أحد المقصود بالمزحة، وقال: «أمرك سيدي». كان مكتوبًا على قميصه «القميص نفسه، يوم مختلف». تشمَّم هارولد الهواء وشعر بالامتنان لأن أجهزة تنقية الهواء كانت تعمل بشكل جيد. قالت سارة الواقفة إلى جواره: «من المؤسف أنك لست أبًا في الحقيقة».

- «مممم، ماذا؟ آه ... لم أرغب في هذا قط. أظن أنني سأكون سيئًا في هذا الأمر».

- «أشعر بالأمر نفسه بالنسبة لي. نحن نجيد صنع الأشياء وإدارتها بنجاح».

«من المؤسف ألا نمرِّر جيناتنا لجيل قادم».

قهقهت وقالت: «وما الذي يجعلك تظن هذا؟».

لم يستطِع منع نفسه من الابتسام وقال: «حسنًا، إن كل شيء مُخَزَّن. نحن نعيش حياة محدَّدة كمِّيًّا وهناك نسخة احتياطية من خلايانا. ماذا عن بويضاتك ...؟».

- «ربما أود استخدامها يومًا ما، أو تستخدمها سيدة أخرى».

- «حسب سير الأمور، ربما تستخدمينها مع رجل آخر».

هزت كتفيها وقالت: «وهو كذلك».

- «نحن هنا كي نوفِّر الرفاهية لنوعنا البشري. فنحن نبسط الآفاق، لكن أغلب الناس يعيشون داخلها. مهلًا!» ثم تلفَّت هارولد حوله، وهو يشعر بالضيق من الكلام المجرد كعادته دومًا وأضاف: «أنا هنا كي أتابع العمل الجديد».

لاحقًا شاهدا المنجنيق المغناطيسي وهو يقذف أسطوانة داخلها شحنة من الجليد بسرعة عالية. اكتسبت الأسطوانة سرعة كبيرة وبدت أشبه بعبوة جعة عملاقة تحمل شحنة ثلجية. بعد ذلك سقط ذراع المنجنيق بعيدًا بينما انطلقت

المحركات الأيونية النفَّاثة للأسطوانة. انكمشت الذراع بسرعة كبيرة، وجرت عملية الإقلاع أسرع كثيرًا مما سبق لهارولد مشاهدته من قبل.

سألت سارة إنجوين: «على أي سرعة يمكنه التقاط الأجسام؟».

قالت إنجوين: «مائة كيلومتر في الثانية، وربما أكثر».

- «مممم، وما التطبيق التجاري له؟».

قال هارولد في اقتضاب: «تزويد مستعمرة ما بمؤن الطوارئ. لقد موَّلت هذه العملية بنفسي».

ابتسمت وقالت: «مكانك الحقيقي هنا، أتعلم هذا؟».

- «لطالما كنت هنا، بصورة أو بأخرى، منذ أن كنت أقود سيارة أجرة».

فكَّر في نفسه: على الرجل أن يلقي الأشياء بقوة في حياتنا هذه.

2102

في البداية أحسَّ بالسنوات تمر بسرعة، والآن صارت العقود تمر بسرعة.

خضع هو وسارة لكل التقنيات الصحية الجديدة إضافة إلى تلقِّي سلسلة من جزيئات «لايف كود» الموجهة لجيناتهم، والتي كانت تعمل على تسريع عمليات ترميم الجينات وتساعد الجسم في إصلاح المشكلات المتعدِّدة التي تسبِّبها الشيخوخة. كانت عملية مضجرة في بعض الأحيان، لكنها كانت ناجحة. كانا يريدان أن يكونا موجودين حين تصل المركبة صَن درايفر 11 إلى وجهتها. لم يقل هارولد هذا، ولا سارة، لكنه كان يريد ما هو أكثر من ذلك.

تعيَّن عليه أن يخبر مستشاريه مرارًا وتكرارًا: أكون مجرَّد حارس على ممتلكاتي؟ هذا أمر ممل!

لم يكن الحساب البنكي الكبير يعني وجود ثروة من الأفكار، بل العكس عادة هو الصحيح. فكلما كبر حجم ممتلكاتك، تميل إلى التقوقع من أجل حمايتها.

كانت الخطوة التالية هي صائدات المذنبات.

يهتم المستثمرون بالعائد على رأس المال المستثمَر أكثر مما يهتمون بالمعدات المحسنة او التكنولوجيا الجديدة. لكن لو منحتهم أرباحًا فسيمنحوك التكنولوجيات الجديدة التي تريدها. ابدأ دائمًا بشيء جذَّاب من الناحية الاستهلاكية.

كان القمر من نواحٍ عديدة مكانًا مناسبًا، فهو يبعد مسافة ملائمة عن الشمس، وقريب من الأرض، وله جاذبية ملائمة. بيد أنه كان شديد الجفاف، ولو كان للأرصفة الأرضية العادية وجود هناك، لتكالبت روبوتات التنقيب عليها كي تمتص الرطوبة منها.

في وجود الماء والهواء، سيزور الناس سهول القمر وجباله الخلَّابة. وفي الوقت الحالي ستكفي الفقاعات الموضوعة في المناطق المستكشفة للطيران، وهي الرياضة الأفضل على الإطلاق. كانت فقاعة الاحتجاز في حقيقتها مصنوعة من مادة الماس المرن الجديدة، وهي عبارة عن كربون سائل مضغوط على نحو شديد الإحكام. ومن ثم فقد استثمر هارولد في الفنادق القمرية الجديدة، وهنا تدخَّل الحظ، إذ صادف موقعهم الأول عِرقًا غير

متوقع بالمرة من الجليد، وبهذا لم يعانوا من مشكلة المياه، وصار المشروع مربحًا. وخلافًا لما هو متعارف عليه، تبيَّن أن القمر كان أشبه بإسفنجة حجرية رخوة.

سدَّد هارولد قروض الدعم في أبكر وقت ممكن دون دفع أي غرامات تأخير، وحين وصلت أنوية المذنَّبات التي طلب إرسالها مما وراء كوكب أورانوس بواسطة فريق من الروبوتات، لم تكن لها ضرورة بفضل المياه المكتشفة، فأمر بصنع بحر للسباحة منها. ارتطمت الأنوية بالسطح، لكن ماكينات الامتصاص اقتنصت الكثير من مياهها.

لم يكن أحد يعلم ذلك، لكن كانت هذه بداية عملية تعديل المناخ القمري التي استغرقت عقودًا عديدة إلى أن تكوَّنت غلالة رقيقة من الهواء الرطب حول الفوهات القمرية. بإمكان الجاذبية الضعيفة أن تحتفظ لعشرة آلاف عام بالغلاف الجوي الذي ارتطم بالقمر آتيًا من مجموعة من المذنبات. لكن الغلاف الجوي الكامل قد يحتاج بعض الوقت، فمن شأن الرياح الخفيفة أن تهب عبر حقول الحمم القديمة في نهاية المطاف، ومع هذا فقد كان الفندق القمري يجني الربح الآن بالفعل.

كذلك كان الربح يتحقَّق بفضل إلقاء الجليد والهيدروكربونات نحو الشمس. كانت فرق الروبوتات التي انتزعت الجبال الطافية من الكويكبات الجليدية ووجهتها إلى داخل المجموعة الشمسية تعاني من مشكلات، لكن الروبوتات تعمل على مدار الساعة، دون تكاليف صيانة، ودون إجازات أو رعاية صحية أو خطط تقاعد. كانت تفيد البشر الذين يحبِّون روعة الفضاء الكوكبي الذي يرونه على شاشاتهم، ثم يذهبون إلى الشاطئ الرملي المشمس بعد انقضاء أسبوع العمل الذي لا يزيد على عشرين ساعة فحسب.

مكَّنته الأرباح من تمويل الفرق البحثية. وقد طوَّرت هذه الفرق طريقة لتشكيل الكويكبات الجليدية وإطلاقها بسرعات عالية للغاية، بحيث تلتقطها الصواريخ العاملة بالدفع النووي. توهَّج البخار في الحجيرات النووية وانبعث بسرعات هائلة، وقد أدت منظومة المجانيق المغناطيسية إلى توجيه المذنَّبات المرشَّحة بكفاءة إلى داخل المجموعة الشمسية. ومع الوقت زاد هذا من ربحية توجيه الجزيئات الخفيفة المجمَّعة على شكل كرات وامضة إلى المستعمرات الموجودة في الجزء الداخلي من المجموعة الشمسية.

إلا أن هذه العجائب البعيدة لم تكن الهدف الأساسي، رغم أن المساهمين كانوا يظنون هذا، وكان هارولد يقول هذا رغمًا عنه. كان يمتلك الحصة الأكبر

من الأسهم لكنه كان يحكم عن طريق تحالف من أعضاء مجلس الإدارة. ومع هذا فقد كان يدير أحدث شركاته، فار سكيب، واضعًا أهدافًا أكبر نصب عينيه.

قالت سارة متنهِّدة: «لقد بعت شركات الحطام الخاصة بي. قمنا بمعظم المهمة بالفعل، وصار التنظيف عملية مملة، بما فيها من تصنيع ألواح كبيرة من أجل التقاط الأشياء الصغيرة. حان وقت الخروج».

- «عظيم، لقد خطَّطتُ للقيام برحلة، يمكننا الذهاب وقتما نشاء».

استلقى بينما كانت ممرضة تقوم بتركيب المحلول الوريدي اليومي له. لم يسمح لها بأن تحرِّك يده التي تمسك بكأس من النبيذ الأحمر المعتَّق، فقد كان هذا جزءًا من العلاج أيضًا بالنسبة له. كل هذه التكاليف يمكن خصمها من الضرائب، هكذا خطر له رغم أنه توقَّف عن التفكير في الأمور المحاسبية منذ عقود مضت. بعد ذلك سيسبح فترة طويلة في حمام السباحة الكروي، أجل. كانا في المستوى الذي تبلغ فيه الجاذبية أربعة أعشار جاذبية الأرض من الفندق الأسطواني العظيم، وبدا هذا المقدار من الجاذبية مثاليًّا لإطالة العمر. تبيَّن أن الدراسات التي أجريت على فئران وخنازير المختبرات صحيحة، وكانت سارة تحديدًا تهرم ببطء شديد، وكان عليه أن يجاهد كي يجاريها.

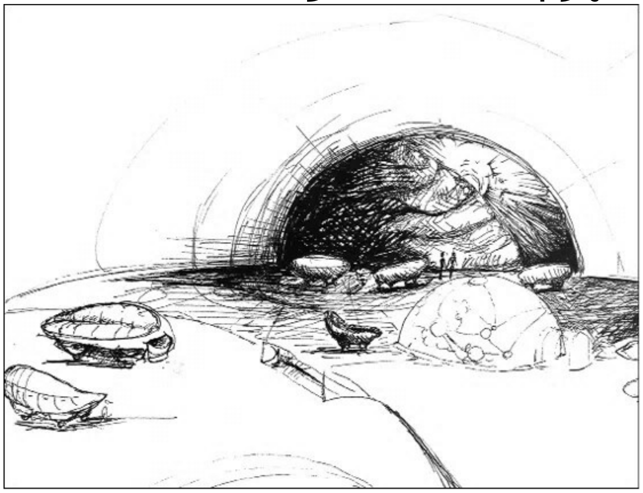

Haylee Bolinger / ASU ,2013 ©

ابتسمت له. كان الزمن رحيمًا بتجاعيدها، بل في الواقع لم تكن تعاني سوى من بضع تجاعيد. كانا قد احتفلا منذ وقت قليل احتفالًا مطولًا بعيدي ميلادهما المائة، اللذين تفصلهما فترة ثلاثة أشهر، وحتى على بُعد آلاف الكيلومترات من الأرض ظلت وسائل الإعلام تلاحقهما. لقد كان من الصعب الإفلات من قبضة الأرض.

سألته: «إلى أين؟».

- «إلى أي وجهة متاحة».

2103

دفع النجم الأحمر المركبة صَن درايفر 11 في أقل من يوم. كانت تُدار بواسطة محرك أيوني عالي الكفاءة يعمل بالطاقة النووية كان يجمع الجزيئات من أمام الشراع. تسبب هذا المزيج في اختصار قرون عديدة من زمن الرحلة، وكان يعني أيضًا أن الشراع الكبير يعمل بمنزلة قذيفة نسبوية تندفع في سرعة، بينما يحرك كاميراته ومستشعراته كي يلتقط تيارات البيانات المتاحة.

شاهد هارولد ما يحدث في اهتمام بينما كان يقف بين سارة وكاثرين آماني. كان الشراع الذكي يغيِّر اتجاهه على أفضل نحو ممكن، وهو يمر إلى جوار النجم. حدث كل هذا منذ نحو عام بطبيعة الحال، لكنه استغرق هذه المدة كي يروه بسبب الزمن الذي يستغرقه الضوء في الانتقال.

كان الفريق الموجود أسفلهم يدرس الشاشات، وفجأة صدرت عن أفراده صيحة دهشة. فعلى الشاشة الكبيرة ظهر كوكب مائل للحمرة تحيط به غلالة رقيقة عاجية متلألئة من الغلاف الجوي. رأى هارولد وميضًا لا تخطئه الأعين من ضوء الشمس قادمًا من الحافة اليسرى، وكانت القمم القطبية ذات لون رمادي مغبَّر.

قال: «محيط. على كوكب مقيد مَدِّيًّا» [(24)]

قالت كاثرين آماني: «لقد التقطنا له صورًا في وقت سابق لكن هذه أحدث صورة له. هناك العديد من البصمات الطيفية، وثمَّة انقطاع غريب في الطيف عند الطرف البعيد للأشعة تحت الحمراء، ما يشبه الحافة التي نراها في الضوء المنعكس من الكواكب الأرضية. وهذا الطيف يتدرَّج من الأحمر القاني إلى البني المحمر وصولًا إلى الأسود».

أظهرت الصورة التالية قارات واضحة المعالم وبحارًا داكنة اللون، بل بحيرات كبيرة وبعض الجبال ذات القمم البيضاء. تدفَّقت البيانات عبر الشاشات الموزَّعة في القاعة بينما واصل الشراع أداء مهمته.

قالت كاثرين: «سيكون لدينا الكثير لدراسته ...».

قال هارولد: «أنا ذاهب إلى هناك. الآن».

قالت سارة: «كلا كلا، بل سنذهب معًا».

2104

قالت لين على عجل: «لم تعد آمنًا هنا بعد الآن. لقد انهارت الأسوار القانونية التي كانت تحميك».

قال هارولد: «هل الأمر بهذا السوء؟».

- «لقد توصَّل مجتمع أمريكا الشمالية إلى اتفاق في منتصف الليل مع الأوربيين. وقد وضعوا قوانين جديدة تمكنهم من مصادرة الممتلكات ثم تقديم الدفوع لاحقًا. وهذا ينطبق على أي شخص خارج كوكب الأرض كذلك، مهما كان عظيم الشأن».

كانت لين تعمل لدى هارولد منذ عقود، وكان يعلم أنها تحتفظ بأسوأ الأنباء للنهاية، فقال لها: «وماذا عن المستوى الشخصي؟».

- «إنهم بصدد توجيه اتهامات جنائية ضدك». هكذا قالت بهدوء، لكنه كان يعلم أنها لم تكن كذلك في داخلها.

- «هل يمكنهم المجيء إلى هنا ومعهم أمر بالقبض علي؟».

- «أعتقد أن هذا وارد الحدوث لكليكما، إضافة إلى نحو خمسين شخصية أخرى. سيحصل الموجودون على القمر على المزيد من الوقت كي يأخذوا حذرهم ...».

قالت سارة: «لكننا على مسافة ساعة واحدة فقط».

- «أخشى هذا».

سألتها سارة: «هل يمكن أن يكون هذا من قبيل الترهيب لا أكثر؟».

- «لا يبدو الأمر كذلك». هكذا قالت لين وهي تعرض أمامهما ملخَّصًا للتشريع الصادر. وبعد أن قرأ هارولد ما يكفيه من هذه اللغة ذات الصياغة الركيكة أدرك أن المصيدة الحقيقية تكمن في الحواشي، وبنقرة من أصابعها أظهرت لين اسميهما.

هارولد مان، متهم.

سارة إرنزبرج، متهمة.

مطلوب وضعهما رهن التحفظ الوقائي.

بدت سارة غير قلقة وهي تقول: «لقد حزمنا حقائبنا لرحلة طويلة، ولديَّ بالفعل كل ما يلزمني في هذه الحقيبة من ملابس وأدوية وغير ذلك من الأشياء».

شاهد هارولد المرأتين وهما توجِّهان العاملين بعجالة. لم يندم على تقدمه في العمر، فقد كانت هذه مزية لم ينلها كثيرون، لكنه كان يجد صعوبة في فهم الافتراضات غير المنطوقة التي تتبناها هذه المجتمعات الجديدة. كان يعاد ترسيم الحدود بحد السيف، ثم يوضع الإطار القانوني بعد ذلك. في صباه كان المبدأ السائد هو «العدالة والحرية للجميع»، لكن الآن في ساحة عالمية مليئة بحشود البشر الذين تضنيهم الحاجة، بدا أن المبدأ السائد هو «كل ما ستحصل عليه هو ثلاث وجبات وفراش للنوم».

قالت لين بشكل عابر: «لقد كنت محقًّا، منذ عقود خلت، في قرارك بتطوير المحركات عالية الكفاءة، وكذلك في بناء مجمع التطوير ذلك على الكويكبات، حيث تقوم فرق الروبوتات بعمليات التجميع».

قالت سارة: «الروبوتات لا تفشي الأسرار».

ابتسم هارولد وقال: «سيكون هذا أكثر إمتاعًا من قضاء فترة التقاعد داخل سجن».

2105

الآن وقد جاوز عمره المائة عام، بدأ هارولد يسمح للناس بأن تناديه هاري.

نقلوه إلى السفينة داخل حجيرة مقفلة عديمة الجاذبية. كانت الحجيرة كبيرة ومزودة بمعدات طبية وشاشات للمراقبة، وكلها داخل ذلك الغلاف الليِّن المتين.

ابتسمت سارة إلى جواره وقالت: «هل سنسافر بالدرجة الأولى؟».

- «إنها الدرجة الوحيدة، فلا أحد غيرنا».

- «ماذا عن الطاقم؟».

- «سيتركوننا عند كوكب نبتون، وبعد ذلك ستتولى الروبوتات المهمة».

- «لقد خطَّطت للأمر بهذه الصورة، أليس كذلك؟ من البداية؟».

- «كان هذا الخيار الأسوأ. بإمكان الروبوتات الاعتناء بالبشر أثناء السبات خلال رحلات السفر الطويلة. وقد جربنا الجينوم الخاص بنا بالفعل في العديد من عمليات المحاكاة والتجارب المعملية». ثم هزَّ كتفيه وأضاف: «هذا أفضل ما يسعني عمله».

خلال التحضيرات المسبقة رفض هارولد أن يتلقَّى خليطًا جينيًّا مشتقًا من جينات الخُلد العاري والعُقبان من أجل تحسين قدرته على السمع والبصر. كما رفض أيضًا، بحدة، اقتراحات بتخضيب جلده البني متعدِّد الأعراق باللون القرمزي الذهبي الرائج. كتب في عجالة على الاقتراح المقدم: يترك كما هو!

- «عجبًا، تبدو هذه مثل التوابيت إلى درجة لا تروقني». هذا كان تعليق سارة الوحيد حين عاونهما فريق الغمر على تجربة حجيرات السبات التي تتخذ شكل أنابيب معدنية زرقاء كبيرة. كانت شركة هارولد، لونج سليب، قد اختبرت على مدار عقود كبائن السبات الصناعي التي سيستخدمها هو وسارة. وباستخدام كبريتيد الهيدروجين ودرجات الحرارة المنخفضة، تمكَّنت السفن الفضائية المنطلقة في رحلات طويلة من حمل مسافرين في حالة سبات إلى النطاق الخارجي للمجموعة الشمسية لأكثر من عقد. ستكون هذه الرحلة توسُّعًا منطقيًّا، لكن غير مجرَّب من قبل.

كانت وسائل الإعلام بالمجموعة الشمسية كلها مشغولة الآن بـ «الوهم الخيالي» الذي يطارده هارولد، لكنه ترك كل هذا خلفه دون اكتراث. بعض هذا اللغو كان مسليًّا، فمثلًا كان بعض المخابيل يحذِّرون من أن مسبار هارولد السريع من شأنه أن يعلن عن وجودنا لكائنات فضائية مجهولة، والتي ستُسرُّ بالمجيء لغزونا. كانت شروحهم التفصيلية للأسباب توضِّح بشكل كبير المشكلات التي يعاني منها هؤلاء المخابيل، وكانت مسلية في الغالب. كان أكثر الأسباب شيوعًا هو أن الكائنات الفضائية ستتمكن من التعرُّف على حالة التكنولوجيا الخاصة بنا، ونقاط ضعفنا، وأعمق أسرارنا. ومن ثم ستأتي طمعًا في الحصول على ثرواتنا.

قال هارولد مازحًا: «ربما تلتهمنا آكلات اللحوم التي تعيش على النجم الأحمر».

قالت سارة بمرح: «سيكون عليها أن تمسك بنا أولًا، هذا لو كان لها وجود».

كانا يرقدان في حجيرتين بينما كان الفريق يعمل على التوصيلات الخاصة بهما.

بدا كل شيء كالحلم في نظر هارولد، ومع ذلك لم يكن يريد تفويت أي جزء منه. فعلى أي حال ربما لا يستيقظ مجدَّدًا. حين غادر الفريق ومالت كاثرين آماني نحوهما، شعر باشتياق إلى العالم، بل العوالم، التي كانا سيتركانها. قالت كاثرين: «لن أنساكما أبدًا». ثم قبَّلت كلًّا منهما. الآن ستعود إلى الأرض كي تساعد معاونيه وشركاته في مواجهة العواقب. ولأول مرة لم يكن يعرف ما يمكن قوله.

غطَّ في سبات عميق مع اشتعال المحركات.

بينما غادرت المركبة مدار المشتري أيقظتهما النظم الأوتوماتيكية من أجل إجراء عملية فحص. وحين عبرا زحل أصر هارولد على النهوض والنظر في الشاشة القريبة منه. كان زحل يومض بخفوت، بينما كانت الشمس تبدو كعملة معدنية بيضاء ساطعة. رفع يده بطول ذراعه وأدرك أنه كان يغطي المدار الكامل الذي قطعته الأرض. لقد تحققت الأعمال العظيمة للتاريخ البشري كلها في هذا الحيز.

ثم بدءآ نومهما الطويل، إذ تدفق كوكتيل كبريتيد الهيدروجين ذو الرائحة النتنة عبر فتحات أنفيهما، وأخذ الخدر يتسلل إليهما.

2192

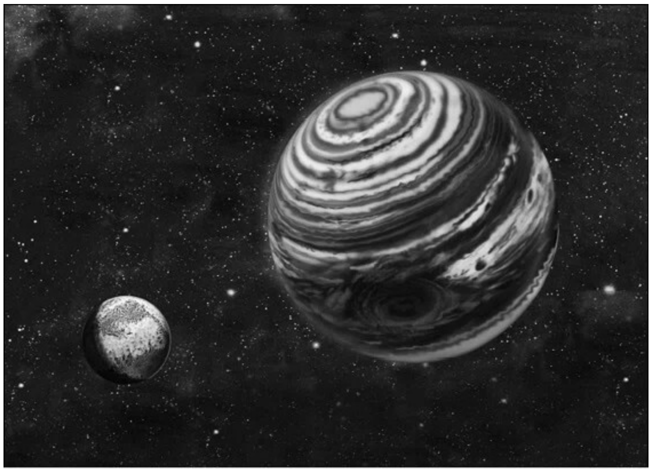

© Jon Lomberg ,2013 سمع صوتًا يقول: « … اكتملت عملية فك ارتباط كبريتيد الهيدروجين بأكسيداز السيتوكروم بنجاح. كل أكسجين الدم عاد لمستواه الطبيعي. بدء التنبيه العصبي! … استيقاظ».

قال بصوت خفيض: «فلتراهن على هذا … سارة؟».

«إنعاش». كان الصوت دقيقًا ورخيمًا، وبالطبع كان ميكانيكيًّا، بدا أن روبوتًا مزودًا بذكاء اصطناعي يتحرَّك أمام عينيه الغائمتين. كان له عينان وفم شبكي، لكن كان هذان هما وجهي الشبه الوحيدين بالمظهر البشري.

قال هارولد: «لقد نجحنا». كانت لديه شكوك كامنة بطبيعة الحال، لكن غمره شعور قوي بالانتصار.

قال صوت ميكانيكي: «بعد التهيئة سنرافقك إلى سطح الكوكب. لكن عليك أن تمر أولًا بالعلاجات التجديدية».

قال هارولد: «سأنفِّذ كل ما يقوله الطبيب الآلي، أي شيء. حاولوا أن تكون الأمور ممتعة».

ما تلك العبارة التي اعتاد قولها في شبابه؟ اللجان لا تقتحم التخوم الجديدة، بل الناس. باستخدام الآلات الذكية.

غمرتهما الشمس الحمراء الكبيرة بضوءٍ بلون الرمان. كانت ثمة سحب من الميثان تحيط بالنجم الأحمر تشبه تلك التي تحيط بالمشتري، وكانت تدور

حوله في دوَّامة متواصلة.

قال مخاطبًا منظومة الذكاء الاصطناعي: «لنراه بشكل أفضل. لنضبط مرشحات الضوء بالخوذة بما يلائم أعيننا». فكر في نفسه: عالم جديد غريب.

أضافت سارة: «استشعار كامل رجاءً».

رغم أن خوذتيهما كانتا تضخمان الطيف المرئي من الضوء، فقد كان التأثير عجيبًا. كانت النجوم تسطع بلون رمادي شاحب على خلفية ذات لون أسود ضارب إلى الزرقة الداكنة، وظهر البدن الضخم للنجم الأحمر وكأنه قرص أرجواني. وفي أرجاء المشهد العريض الذي يغمره ضوء الشفق الدائم كانت أشعة مائلة لها لون أحمر قانٍ تُظهِر نباتات طافية، تتهادى على الأمواج في هدوء كئيب. كان كل شيء يشع بوهج جهنمي.

قالت سارة: «من الطيب أن نجلس». كانت الروبوتات قد أحضرت لهما مقعدين منخفضين مائلين من مركبة الهبوط. كانت الجاذبية التي تبلغ شدتها 1.34 مرة قدر الجاذبية الأرضية تجعل السير صعبًا وغير طبيعي، رغم أنهما خضعا لعملية تنشيط لعضلاتهما لمدة خمسة أيام على متن السفينة الأم قبل الهبوط. وقد تعلم هارولد أن يتجاهل ألم المفاصل.

من جهة المنحدر المقفر إلى اليسار تردَّدت صيحة طويلة وبطيئة. وفي الهواء الثقيل حلَّق شيء أشبه بفراشة برتقالية عملاقة مخملية الأجنحة في تثاقل. قطع هذا الكائن السماء العامرة بالسحب كهرمانية اللون واختفى، مُحدثًا خفقات طويلة قوية بأجنحته العملاقة، خلف تل متآكل خفيض.

- «غلاف جوي سميك، كيف لشيء كبير كهذا أن يطير!» هكذا قال هارولد وهو لا يزال يحاول استيعاب المشهد. كان هذا الكوكب أكثر غرابة بكثير من المريخ، وكانت منظومته البيئية قائمة بالفعل. كانت أغلب النباتات قليلة الارتفاع ولزجة.

قالت سارة: «أتساءل ...» ثم توقَّفت حين رأت شيئًا يتحرك على الشاطئ.

بدا لها ذلك الشيء أشبه بصخرة حمراء في البداية، إلى أن تبينت الأرجل وهي تتحرَّك بسلاسة وبطء. كان ذلك كائنًا ضخمًا أشبه بالسلطعون له قرون استشعار طويلة. وبعد أن تكيَّفت عينا هارولد مع الضوء العجيب صار بمقدوره أن يرى صور الحياة الأصغر. ظهر شيء كبير على السطح الزلق، ثم انسل مبتعدًا.

كانت ثمة صور عديدة للحياة البطيئة موجودة على هذا الشاطئ الصخري. قالت سارة للروبوتات القريبة منها: «اختيار جيد لموقع الهبوط». ظلت الآلات على صمتها، كما لو كانت تفهم أهمية هذه اللحظة.

تذكَّر هارولد أنه خلال العاصفة الإعلامية التي سبقت رحيلهما، ذهب البعض إلى أن زيارة العوالم الحية الأخرى أمرًا مشينًا من الناحية الأخلاقية. كان هؤلاء الناس يرون أن الحياة على الكواكب الأخرى يجب أن تُترك كما هي دون تدخل، لكنهم لا يدركون أن أفكارهم هذه تقتل الدافع الأساسي الكامن خلف الفضول الفلكي. فلماذا نعثر على الحياة ما دمنا لن ندرسها بدرجة أكبر؟

إنهم لن يروا عجائب كهذه أبدًا. تردَّدت ذكرى أخرى في عقله.

ثم شعر بها. كانا جالسين على مقعدين يميلان إلى الوراء كأسِرَّة الشاطئ، وعاودته الذكرى القديمة مرة أخرى؛ إذ ذكره هذا المشهد القرمزي الكئيب بشاطئ أورانج في ألاباما، حيث كان يؤجِّر المقاعد للسائحين. في تلك الليلة رأت عيناه الفتيتان النجوم حقًّا للمرة الأولى، وتداعت الأفكار في رأسه. تعلم القيام بوظيفة، وكسب المال ... وفي نهاية العمل استوعب النطاق الهائل المفاجئ للمجرة نفسها، فيض من النجوم المتناثرة كالمجوهرات على بساط مخملي أعلى المياه المالحة. كان بإمكانه رؤية مخطَّط حياته كله في مشهد واحد، وصولًا إلى هذا الشاطئ.

قال: «لقد عادت حياتي إلى نقطة البدء». أمسكت سارة بيديه عبر قفازي بذلتيهما.

جالت ببصرها عبر أرجاء المشهد أمامها. كان الكائن الشبيه بالسلطعون لا يزال يسير ببطء على الشاطئ، باحثًا فيما يبدو عن طعام بين الأمواج المتكسِّرة الواهنة. قالت: «أتساءل كم من الوقت سنتمكَّن من العيش هنا».

قال الروبوت القريب منها باقتضاب: «سيتعيَّن علينا جمع الموارد من هذا العالم، والبدء في التوسُّع في أماكن المعيشة. أعتقد أنكما ترغبان في العيش على السفينة بطبيعة الحال».

قال هارولد: «في الوقت الراهن. لكن هدفي النهائي هو العيش هنا على سطح الكوكب».

نظرت إليه سارة بتمعن وقالت: «أتدري، لقد شارفنا على بلوغ المائتي عام من العمر».

قال: «لم تنتهِ حياتنا بعد».

قرَّرا الاستراحة قليلًا، أن يغفوا وهما في بذلتيهما بينما يجلسان على الشاطئ. بشكل ما كان المشهد باعثًا على الاسترخاء.

لذا فوجئ هارولد حين أيقظه الروبوت من نعاسه.

قال له: «هناك أنباء. إشارة».

- «ماذا؟ اعرض ما لديك».

في لغة إنجليزية ذات لكنة عجيبة قال الصوت الوارد: «... نحيي مركبة مان، نحن نقترب من المدار. هل بعثة هارولد مان هناك؟ نحن في منتصف مناورة الدوران حول الكوكب من أجل تقليل السرعة».

قال هارولد وقد صار منتبهًا: «ماذا؟ من أنتم؟».

قال صوت المرأة حاد النبرة: «البعثة الاستكشافية ترانس لايت يا سيدي. هل أنت بشري أم روبوت؟».

- «بشري، أنا هارولد مان».

- «ماذا؟ إذن فقد ظللت حيًّا! لم نتوقَّع ... لا عليك، هذه أنباء عظيمة». وقد بدا الصوت مبتهجًا.

قالت سارة: «كيف ...؟».

- «كنا نأمل أن نصل إلى هنا وقت وصول بعثتكما، لكن كانت تحركات المركبة محيِّرة أحيانًا. إذن أنتما هناك! يبدو أنكما ... على السطح؟».

أدرك هارولد أنه من المؤكد وجود بث فيديو مرفق بهذا الاتصال أيضًا، قال: «نعم، يوم استرخاء على الشاطئ. مقاعد استراحة. بعد ذلك سيأتي وقت احتساء المشروبات».

- «نحن غير مجهزين للهبوط. هذه حاملة مدمجة وحسب، تجريبية. سيتعين علينا الالتقاء بكما ...».

- «مهلًا، كيف بحق الجحيم وصلتم إلى هنا بهذه السرعة؟».

- «ترانس لايت يا سيدي، إنه تأثير انحناء نسبوي، نعمل عليه منذ عقود. لقد قام فريقنا برحلات قصيرة إلى سحابة أورت، والآن هذه الرحلة. أعترف أن احتمال نجاحنا في اللحاق بكما كان ضعيفًا. إننا نتلقى تمويلنا من إحدى شركاتك، شركة جالاكسي نوتيكس».

كان هارولد يجد مشقة في متابعة اللكنة الغريبة السريعة التي تتحدَّث بها المرأة، قال: «إذن ... يبدو أنني تركت الأشخاص المناسبين في موقع المسؤولية».

- «ولا يزال بعضهم موجودًا، فنحن نعيش لفترات أطول الآن. سيد مان، أنت الأول. لقد سبقتنا إلى هنا ربما بفارق بضعة أسابيع. نحن لا نزال نعمل على ضبط تقنية ترانس لايت».

تدخَّلت سارة في الحوار، وقالت بصوت بطيء من أثر النعاس: «إذن هناك ... طريقة جديدة؟».

- «فيزياء جديدة، مباشرة من شركة نيو إنسايت. هل هذه ... السيدة مان؟».

أصدرت سارة ضحكة جافة وقالت: «بل السيدة إرنزبرج. لقد انتهى عقد زواجنا الممتد خمسة أعوام منذ نحو قرن».

- «كلاكما على قيد الحياة! أخبار رائعة. كانت الاحتمالات المتوقَّعة أقل من عشرة بالمائة، لذا كنا نتوقع أننا سنتحدث فقط مع الروبوتات، معذرة. ستتعين علينا إعادة التفكير في إجراءاتنا ...».

قال هارولد بحزم: «أعتقد أنك تعملين لديَّ يا سيدتي».

- «أنا ... أعتقد ذلك». ظهر بعض التردُّد في صوتها ثم أكملت الحديث بنبرة أكثر خضوعًا قائلة: «بإمكاني تفهُّم لغتكما الإنجليزية! أنتما ... أكبر معمرين على الإطلاق. حتى أكبر معمرينا لم يعيشوا هذا العدد من السنوات. لم نكن نظن حقًّا ... حسنًا، على أي حال، لقد أحضرنا معنا معدات حديثة من أجل ترقية جسديكما. لقد أصر رئيس الشركة التنفيذي على ذلك».

- «أهو مارك مارتن؟».

- «حسنًا، كلا، إن مارك هو رئيس مجلس الإدارة الآن. لكن ربما كانت هذه فكرته. يمكننا القيام بإصلاحات ميكروسكوبية، وتنظيم التأثيرات الجينية

المترتبة على السبات الطويل ...».

قال هارولد: «عظيم، جهِّزي معداتك بكل سرعة لنا. إن مفاصلي تؤلمني وأحتاج إلى فحص شامل».

ضحكت المرأة. كان من الطيب العودة إلى مباشرة العمل.

تمدَّد هارولد في الجاذبية القوية لهذا الكوكب وقال: «أتعلمين، كان الاسم الرسمي لهذه البعثة هو بعثة فوروارد. لنطلق عليها هذا الاسم، متفقين؟».

نظرت إليه وقالت على قناة الاتصال العامة: «سرعان ما سنجعل روبوتاتنا تغادر هذا الشاطئ ونطير إلى المدار. ليس لديكم مذكرة بالقبض علينا، صحيح؟».

- «ماذا؟ كلا ... آه، إن منظومة الذكاء الاصطناعي الخاصة بنا تظهر تاريخ الوثائق ...» كان بإمكانهما سماع المرأة وهي تغمغم لأحدهم: «كلا، هذا النظام قتل أناسًا كثيرين. لا توجد سجلات فعلية. لا عجب أنكما سافرتما على عجل! لم يستمر النظام طويلًا».

ضحكت سارة وقالت: «حين غادرنا كانت لدى الأرض مشكلاتها، كان بشر كثيرون على الكوكب يستخدمون تكنولوجيات مدمرة كي يعيشون. هل تغير ذلك؟».

- «آه، تغيَّر كثيرًا. هناك عدد أقل من البشر الآن، نعمل على إصلاح المناخ، ونستورد الكثير من خارج كوكب الأرض».

أراد هارولد أن يعرف كل شيء حدث خلال ذلك القرن، لكنه كبح جماح نفسه وقال: «ماذا حدث لكيجان من المجموعة المتحدة؟».

سادت فترة صمت طويلة، ثم ردت المرأة قائلة: «كنت أتفقد سجلاتي الداخلية. كلاهما دُمِّرَ مستقبله نتيجة بعض الفضائح».

ربما كان هذا تصرفًا طفوليًّا من هارولد، لكنه ابتسم وقال: «آه، جيد. فلتلتقوا بنا بعد دورتين حول الكوكب».

- «آه، نعم سيدي، نحن نعمل على تعديل مناورة الدوران الآن. وبمجرد أن ...».

- «فلتفعليها وحسب. أريد أن أتفقد مواصفات النظام بمجرد أن نصعد على متن المركبة».

- «آه، نعم، أعتقد ... يا إلهي، إن هناك تماثيل مقامة لك على الأرض يا سيدي! لا أعرف كيف ...».

- «أجل، هذا التمثال يتحدَّث، وهو ليس ساكنًا بحيث يستقر الحمَامُ عليه. أسرعي، فلدينا الكثير من العمل».

تشابك

فاندانا سينج

أخذ يضرب بجناحيه

... متجهًا نحوها مباشرة. انحنت، مشيحة بنظرها بعيدًا. كان العالم كله قد أصابه الدمار؛ فكان الحُطام يتطاير في كل مكان، والرياح تهدر في عنف. اندفع شيء حاد مرتطمًا ببطنها، فرفعت رأسها لترى الوحش وهو ينهض من بين السحب، ملاك الدمار، صرخت: اركض! اركض! اعثر على أرض منخفضة! أرض منخفضة!

ثم استيقظَت. كان المركب يتهادى على صفحة الماء بنعومة، وكانت ألواح القمرات الصغيرة مدهونة بخطوط زرقاء وحمراء رفيعة. وفي الخارج، كان الفجر القطبي الشاحب يملأ السماء بضوء برتقالي. كان كل شيء طبيعيًّا.

«ما عدا أنني لم أكن نائمة». هكذا قالت بصوت عالٍ، وقد بردت قهوتها الصباحية. أضافت: «أي نوع من الأحلام هذا؟».

فركت السوار البرتقالي، فاشتغلت واحدة من الشاشات مظهرة صورة متشظية لكسر من الثانية قبل أن تخبو الشاشة: سماء رمادية، سحب دوارة، أشياء متساقطة. اعتدلت في جلستها.

ثم ظهر الجني الخاص بها في ركن الشاشة.

قال لها في مرح: «إيرين، لقد أوصلتك للتو بخمسة أشخاص حول العالم، اختيروا بعناية على سبيل التجربة. نحن لا نريدك أن تشعري بالوحدة الشديدة».

قالت: «فريج، أتمنى ألا تفعل أشياءً كهذه».

كانت هناك رسالتان من توم. كانت تفكر فيه وهو في قاربه على مسافة ثلاثمائة كيلومتر، والراسي على جبل جليدي تجريبي، وكانت تأمل أن تسير الأمور بينه وبين محمود على نحو طيب. عظيم، إنه يبلغ عن بعض الأمور الروتينية. تفقدت الرسائل الآتية من «مبادرة العلوم القطبية»، ومن مشروع «مليون عين»، وثلاثة من زملائها العاملين قبالة الساحل الشمالي لفنلندا. لا شيء من لوسي.

أطلقت تنهيدة طويلة بطيئة. حان وقت النهوض، وإعداد القهوة الطازجة. من النافذة الصغيرة بمطبخ القارب الصغير تلألأ السطح الناعم للمحيط في ضوء الصباح. كانت المظلة تطفو أعلاه وكأنها شبح جاثم، لا تبعد أكثر من مائتي متر، وكانت قمتها الشبيهة بالباراشوت تسطع تحت الشمس المنخفضة، وأعينها الإلكترونية تدور ببطء بينما الوحدة الذكية في الصندوق أسفلها تمتص المعلومات من العالم حولها. كانت وحدات جمع المعلومات تجوب المياه بالأسفل، ترصد المشاهدات وترسلها إلى الوحدة، حتى يمكنها تعديل سلوكها حسب الحاجة. شعرت بقدر بسيط من الفخر؛ فقد كانت المظلة فكرتها هي، حلم مجنون لمتخصِّصة في الكيمياء الحيوية، حقَّقته الهندسة على أرض الواقع. صنع توم النموذج الأوَّلي بنفسه، في السنة الأولى من دراساته العليا. وحين تذكرت شعره الأحمر الذي يحيط بوجهه ذي الملامح الصبيانية ابتسمت، كم كان فتى رائعًا! المرة الأولى التي شاهد فيها مستعمرة للفقمة كاد أن يسقط من على القارب من فرط الحماس، حتى إنك لتظن أن الفتى لم يذهب إلى حديقة الحيوان من قبل قط. كان ابنًا أصيلًا لكاليفورنيا، وكان هذا أمرًا فاتنًا. نشأتها في المناطق المتجمدة من شمال كندا تعني أنها كانت قادرة على تحمل البرودة أكثر منه، وكانت ترى أنه يكثر من ارتداء الملابس الثقيلة، بحيث يدفن نفسه تحت طبقات من الملابس ذات القماش العازل ثم يرتدي فوق كل هذا سترة من الفراء ذات قلنسوة. عبر بعض زملائها عن شكوكهم بشأن اصطحاب مهندس حديث التخرج إلى القطب الشمالي، لكنها فرضت كلمتها عليهم. لقد ولَّى عصر التخصص وفات، وعليك أن تجمع بين المعارف المنهجية والمهارات لو أردت أن تتعامل بذكاء مع التغير المناخي، ومن يمكن أن يكون

مؤهلًا لمراقبة نشر المظلات في المنطقة منه؟ كما أن محمود يمكن أن يعتني به جيدًا. كان توم شابًّا لطيف المعشر.

ارتدت سترة الفراء الخاصة بها وخرجت إلى سطح المركب كي تحتسي قهوتها بالطريقة التي تحبها، شديدة السخونة. حدقت في الماء، وفكرت في موطنها. لم تكن جزيرة بافين على الجانب الآخر من القطب الشمالي مباشرة من موقعها في بحر سيبيريا الشرقي، لكن كان هذا أقرب ما ذهبت إليه خلال السنوات الخمسة عشر الماضية. هزت رأسها. الوطن؟ فيم كانت تفكر؟ كان مكانها الحقيقي شقة مشمسة في ضواحي سان فرانسيسكو، على بُعد محطات قليلة من الجامعة، حيث قضت عشر سنوات تربي لوسي، التي تبلغ من العمر الآن أربعة وعشرين عامًا وتعمل كاتبة سيناريو في هوليوود. لقد مضى أكثر من عام منذ أن تبادلت حوارًا حقيقيًّا مع ابنتها. توقفت رسائل البريد الإلكتروني ومكالمات الهاتف الثرثارة وحل محلها صمت شبه دائم، تحفظ غامض. وفي عزلتها الحالية بدت تلك الحياة الأخرى، سنوات التقارب تلك، لا تعدو كونها محض حلم.

تحركت المظلة فوق الماء. كان ثمة اضطراب على مسافة ليست بعيدة عن المظلة؛ بعض الأمواج الهائجة، ثم ظهر ذيل وأخرج حُوت طوله نحو خمسة أمتار كان يسبح على مقربة رأسه من الماء، حُوت بلوجا أبيض [25]. حسنًا، ربما لم تكن بعيدة عن طريق هجرتها. تخيلت إيرين المشهد من منظور الحوت: مظلة تبدو وكأنها قنديل بحر عملاق محلق في الهواء، وقارب، وكائن بشري، منظر مألوف.

كانت الحيتان البيضاء مهتمة بالمظلة، وتساءلت إيرين عما كانت الحيتان تراه فيها. أحد الأمور التي يهتم الباحثون بشأنها هي أن المظلات والوحدات المتحركة المكملة لها ستتعرض للهجوم والالتهام من جانب الكائنات البحرية. من الممكن أن تضغط المظلة نفسها في وحدة مكتنزة وتغوص حتى قاع المحيط أو تستخدم الطاقة الشمسية كي تعلو بضعة أمتار فوق السطح. في الوقت الحالي بدت فقط أنها ترصد الحيتان والدلافين وهي تتواثب حولها. ربما كان شخص ما، في مكان ما، يراقب المحيط عبر الأعين الإلكترونية للمظلة ويعلق على الإنترنت حول مشاهدة مجموعة من الحيتان البيضاء. كان مشروع «مليون عين على القطب الشمالي» أكبر مشروع علمي يشارك به المواطنون في العالم. ومن خلال المظلات، ومحطات الرصد المتعددة، وصور الأقمار الصناعية، بإمكان أكثر من مليوني شخص الحصول على ومتابعة المعلومات المتعلقة بذوبان الجليد البحري، وحوادث تسرب غاز الميثان، ومشاهدات الكائنات البحرية، والبقاع الساخنة بالمحيط.

خطر لإيرين أن هذه الحيتان ربما تعرف الشواطئ التي قضت عليها طفولتها، بل إنها ربما أتت من أرخبيل القطب الشمالي الكندي. عاودتها ذكرى مفاجئة: الخروج في المحيط شمالي جزيرة بافين مع جدها في قاربه. كان يعلمها استخدام الأدوات التقليدية من أجل الصيد في خليج جليدي. لا بد أنها كانت صغيرة للغاية وقتها. تذكرت الفجر القطبي المصطبغ باللون الوردي، ووجه جدها العجوز المنهك. وبينما هما في طريق عودتهما مع غنيمتهما، ظهرت مجموعة من الحيتان البيضاء على السطح بالقرب منهما بحيث جعلت القارب يهتز. تحلقت الحيتان حول القارب، مخرجة رؤوسها من الماء، ناظرة إلى البشريين بعيون فضولية ذكية. اقتربت أنثى ضخمة من القارب. قال الجد في رفق: «كيلالوجاك» وكأنه يحييها. وقتها شعرت إيرين الصغيرة - كلا، كانت كبيرة بما يكفي بحيث تدعى إنوسيك - بأنها منومة مغناطيسيًّا. وقد أخبرها جدها أن الإسكيمو لا يمكنهم البقاء من دون الحيتان البيضاء والأيائل والفقمات. وقد حرص على تعليمها كيف تصطاد الفقمات والأيائل قبل أن تبلغ الثالثة عشر. طفت الذكريات على السطح: حفيف الزلاجات التي تجرها الكلاب على الجليد في الصباح، الانتظار عند الفتحات التي تخرج منها الفقمات للتنفس، القتل السريع. يقول كلاهما كلمات اعتذار فوق الذبيحة، بينما تشكل أنفاسهما سحبًا في الهواء القارس.

توفي جدها وهي في عامها الأول بالمدرسة الثانوية. كان هو من سماها إنوسيك، وهو من أسماء شعب الإسكيمو، على اسم أخيها الأكبر المتوفى منذ فترة طويلة. «إنوسيك»، همست بالاسم الآن مجربة إياه. ترى كم عامًا مضى منذ أن ناداها أحد بهذا الاسم؟ تذكرت اجتماع العشيرة في كل مرة يجلب فيها الصيادون صيدًا كبيرًا، وطعم اللحم النيئ مع قليل من الصويا. كم من الوقت انقضى منذ تلك الأوقات؟ كانت قد زارت موطنها منذ خمسة عشر عامًا حين توفي والدها (كانت والدتها قد توفيت وهي في الجامعة)، وبعد ذلك اقتصر الأمر على بضع مكالمات هاتفية ومحادثات عبر الإنترنت مع ابنة عمها ماجي في بلدة إيكاليت.

ابتعدت الحيتان البيضاء عن مجال بصرها. بردت قهوتها، وتضايقت إيرين من نفسها. كانت قد تطوعت للمجيء إلى هنا، وهو ما يرجع جزئيًّا إلى أنها ارادت الفرار - إذ كانت تحب العزلة - لكن وسط العزلة كانت الذكريات القديمة تطفو على السطح، وتتحدث الأصوات الميتة منذ زمن بعيد.

عملت طيلة الجزء المتبقي من الصباح بتركيز شديد، حيث أرسلت البيانات إلى معاونيها في السفينة الروسية البحثية كولموجوروف، وعقدت اجتماعًا عن بُعد مع ثلاثة علماء، ورفضت بتهذيب دعوتين لإلقاء الكلمة الرئيسية في

اجتماعين. لكن وقت الظهيرة عاودها شعور بعدم الارتياح؛ فقررت أن تغطس وصولًا إلى قاع المحيط الضحل وأن تصور لقطات من مقطع فيديو كانت قد وعدت مشروع «مليون عين» به. كان الغطس في عدم وجود أحد على القارب يتابعها مخالفًا للبروتوكول المتبع، لكنها كانت مسافة اثنتين وعشرين مترًا وحسب، وهي لم تصل إلى ما هي عليه من خلال الالتزام الأعمى بالبروتوكولات المتبعة.

بعد قليل وقفت على سطح المركب مرتدية بذلة الغطس، وجذبت غطاء الرأس في إحكام، وتفقدت كمبيوتر البذلة وحركت كتفيها حتى يستقر خزان الأكسجين على ظهرها بشكل أكثر راحة، ثم غطست في الماء.

هذا هو الهدف من وجودها هنا؛ إذ كان هذا الغطس في الماء أشبه بالوقوع في الحب، بل وأفضل منه. وفي الأعماق الزرقاء الغائمة غاصت عبر الثلوج، تلمح هنا وهناك المراوح نصف الشفافة لفراشات البحر، وسربًا صغيرًا من الكريل، وقناديل البحر الصغيرة العابرة. مر كائن عنب الثعلب البحري بجسده الرخو الشبيه بالزجاج المكون من فصين أمام وجهها. كانت بعض هذه الكائنات رقيقة للغاية لدرجة أن من شأن لمسة بسيطة أن تقتلها، ولم يكن بمقدور شبكة صياد أن تقتنصها من دون أن تلحق بها ضررًا. كان عليك أن تكون هناك بنفسك، في عالمها، كي تعرف أنها موجودة. ومع هذا كانت توجد مشكلات في هذه الجنة البحرية. غاصت أكثر وأكثر في الأعماق، وكانت شاشة بذلة الغوص تظهر زمن الغوص ودرجة الحرارة، والضغط، ومعدل الأكسجين. كان البحر ضحلًا بما يكفي على عمق اثنين وعشرين مترًا، بحيث يمكنها قضاء بعض الوقت في القاع دون أن تقلق بشأن إزالة الضغط وهي في طريقها على الأعلى. كان الجو مظلمًا في ذلك القاع المغطى بالأعشاب البحرية، فشغلت مصباحها وكاميرتها. سبحت بامتداد القاع نحو مصفوفة من المعدات، وتسببت في إخافة سلطعون أبيض مرقط. كان السلطعون مستقرًّا على سطح إحدى المعدات، يستكشفها بمخالبه. فضول ... حسنًا، هذا شيء يمكنها تفهمه. تراجع السلطعون حين سبحت إيرين فوقه، ثم عاود التمحيص. حسنًا، لو كان عملها يسلي الحياة البرية المحلية، فهذا في حد ذاته إنجاز طيب.

على مسافة بضعة أمتار رأت الخطوط الرفيعة التي تشكل الشبكة الكهربائية الحرارية الموضوعة على القاع. كانت هناك بضعة كائنات في هذه المياه المشبعة بالميثان، وكان غاز الميثان يتصاعد من الفتحات الموجودة في السطح المتجمِّد الآخذ في الذوبان في القاع، بل وفي بعض المواضع كان من الممكن رؤية فقاقيع الغاز. سبح أحد الكائنات أمام عينيها مباشرة: آلة ذكية من صنع الإنسان، هي واحدة من الوحدات المرافقة للمظلة. كان جسدها

الاسطواني الصغير والحواف البارزة والخطم الطويل يجعلها تبدو وكأنها سمكة تسبح في كوكب غير أرضي. كانت هذه الآلة تحقن الفتحات بسائل غني بالمغذيات (وصفة وضعتها إيرين بنفسها) من أجل البكتيريا التي تتغذى على الميثان. ذُهلت إلى أي مدى كان الأمر يبدو طبيعيًّا في المياه العميقة. قالت مخاطبة صورة الحياة المفضلة لديها: «تغذي جيدًا يا عزيزتي». كانت البكتيريا أليفة الميثان تتمتع بكفاءة هائلة في التمثيل الغذائي للميثان، مستخدمة مسارات لا نزال في بداية تبينها. معظم هذه العمليات لم يكن بالإمكان تكرارها في المختبرات، لذا ظل الكثير منها مجهولًا ... اللعنة، لقد وجدوا خمسة أنواع جديدة من البكتيريا منذ أن بدأ المشروع. وشأن أغلب الكائنات الأخرى لم تكن البكتيريا أليفة الميثان توجد على نحو منعزل، وإنما كانت تشكل شراكات مع كائنات أخرى. وقد حددت الشبكة المعقدة للتبعية المتبادلة كلًّا من السلوك والتركيب الكيميائي.

قالت مخاطبة وحدة التسجيل: «لو أزالت البكتيريا أليفة الميثان معظم غاز الميثان، فستساعد في إبطاء الاحترار الكوكبي. ستمنحنا بعض الوقت إلى أن يقلل البشر انبعاثات ثاني أكسيد الكربون. إن الميثان أقوى أثرًا بكثير كأحد غازات الدفيئة من ثاني أكسيد الكربون، وإن كان لا يبقى في الغلاف الجوي مثله، وقد تؤدي كثرة الميثان في الغلاف الجوي إلى الدخول في حلقة مفرغة، بحيث يؤدي مزيد من الميثان إلى المزيد من الاحترار، ومن ثم إلى المزيد من ذوبان الجليد، ومن ثم إلى المزيد من الميثان، وهكذا ... وهذا قد يؤدي بالعالم إلى الدخول في حالة احترار كارثية». لا تزال احتمالية حدوث هذا من عدمه محل خلاف بين العلماء، لكن هبات الميثان المنبعثة من قيعان البحار في جميع المناطق الضحلة بالقطب الشمالي من شأنها أن تثير قلق أي شخص لا يدفن رأسه في الرمال.

ربما تستطيع البكتيريا إنقاذ العالم. فمع المغذيات الكافية ربما تستطيع البكتيريا ومجتمعات الكائنات المصاحبة لها في التخلص من معظم غاز الميثان، وفي الوقت الحالي كانت الشبكة الكهربائية الحرارية مجرد تجربة كي نرى ما إذا كان من شأن تبريد البقاع الساخنة أن يبطئ من انبعاث الغاز. كانت الطاقة التي تولدها الشبكة تُختزن في بطاريات، وكان يجب استبدالها حين تصل إلى معدلاتها القصوى. كانت مصفوفة المعدات تقيس البيانات البيوكيميائية وترسلها مجددًا إلى المظلة.

أصدر كمبيوتر بذلة الغوص صفيرًا، فقد حان وقت العودة إلى السطح، وإلا سينفد الأكسجين. أطفأت إيرين الكاميرا ووحدة التسجيل، ثم سبحت في بطء وحرص نحو الضوء. قال الجني الخاص بها: «رسالة من توم، ليست عاجلة

ولكنها مثيرة للاهتمام. رسالتان من مشروع مليون عين، واحدة لك يطلبون فيها مقطع الفيديو والأخرى خاصة بأخبار المشروع. رصدت راقصة باليه من إستونيا سفينة استكشاف للغاز والنفط تعمل بصورة غير قانونية في بحر لابتيف. أثار الأمر صخبًا. وهناك رسالة شخصية من ابنة عمك ماجي في إيكاليت. إنها في سان فرانسيسكو وتتساءل عن مكانك».

اللعنة، ألم تخبر ماجي أنها ستذهب في بعثة استكشافية؟ لم تغادر ماجي كندا إلا قليلًا، لذا من المؤكد أن الرحلة إلى سان فرانسيسكو كانت أمرًا خاصًّا مميزًا.

قالت: «أنا في طريقي للصعود»، وفي اللحظة ذاتها شعرت بألم حاد في ربلة ساقها اليسرى. أخذ البرد يتسرب إليها عبر جزء متمزق من البذلة، وأطلق كمبيوتر البذلة صافرة تحذير. تقصلت ساقها في عنف. نظرت إلى الأعلى وهي تتمنى ألا تصاب بالذعر، لكن بدا السطح بعيدًا للغاية، وكان البرد يملأ جسدها، جاعلًا صدرها يتقلص من الألم. حرَّكت ذراعيها بأقوى ما تستطيع، إذ كان عليها أن تصعد على السطح قبل أن ينتشر البرد في جسدها، كانت قد جربت الإصابة بنوبة حاجة من انخفاض الحرارة ذات مرة من قبل. لكن بينما كانت تصعد في بطء موجع، عرفت على الفور أنها ستموت هنا، واستولى عليها الخوف. قالت: لوسي، لوسي، سامحيني، أحبك، أحبك. كانت ذراعاها متعبتين، وساقاها مثل الهلام، وتسلل البرد إلى عظامها، وأراد جزء منها أن تستسلم وحسب للضياع. كان فريج يصرخ في أذنها كالمجنون - طالبًا النجدة، وكأن هناك شخصًا قريبًا في المنطقة يمكنه الوصول إليها في الوقت المناسب - ثم قاطعه صوت آخر، وقالت جدتها: باركك الله، خذي حذرك هناك، إنني أصلي من أجلك. كان هذا غريبًا بحق لأن جدتها كانت ميتة، وكانت اللكنة عجيبة. لكن الصوت تحدث بوضوح واهتمامًا كبيرين، وكان هناك تركيز كبيرة على الكلمات: خذي حذرك - علاوة على ذلك، ألم تكن هناك أصوات المطبخ في الخلفية، كصوت ارتطام مقلاة بالحوض، أصوات معتادة ومألوفة؟ - لدرجة أنها انتزعتها من ظُلمة الروح التي غمرتها. بدا أن ذراعيها هما الجزء الوحيد من جسدها الذي لا يزال تحت سيطرتها، ورغم أنها شعرت بهما ثقيلين كالرصاص، فقد بدأت تحركهما ثانية.

جاءها صوت توم يقول في هستيريا: «أنا قادم إليك، أنا قادم بأقصى سرعة، تماسكي». ثم صوت محمود الأكثر هدوءًا يقول: «لقد اتصلت بالسفينة كولموجوروف طلبًا للطائرة الهليكوبتر الخاصة بهم، واتصلت بخفر السواحل». لكن الطائرة الهيلوكبتر كانت قد أُرسلت في ظهيرة ذلك اليوم إلى إحدى المحطات في النرويج. رأت الموت بعينيها بوضوح شديد. ثم شعرت بشيء

يرفع جسدها - كيف لتوم أن يأتي إلى هنا بهذه السرعة؟ - ثم لاح ظل أبيض ضخم، وابتسامة على وجه منتفخ، وجه حوت بلوجا أبيض. حوت أبيض؟ شعرت بجسد الحوت الصلب أسفلها، فحاولت الإمساك باللحم الطري، لكن ما كان عليها أن تقلق نفسها، لأنه أخذ يدفعها إلى الأعلى في توازن وقوة، إلى أن خرجت من سطح الماء على مقربة من القارب. بدت لها عملية جذب نفسها على درجات السلم مستحيلة، إذ كانت ترتجف في عنف وكانت ساقاها خدرتين. رفعها الحوت إلى أعلى إلى أن صار ما عليها فعله هو التدحرج من فوق الحافة إلى سطح المركب. انهارت على السطح، وخلعت قناع الغوص وهي تنتحب، واستنشقت كميات ضخمة من الهواء بينما كانت بذلة الغوص تصدر صفيرًا حادًّا.

«جففي نفسك على الفور». هكذا قال فريج بصوت محمود، أو ربما كان هذا محمود نفسه. زحفت إلى قمرتها، وخلعت كل ما عليها، ثم جثمت تحت ماء الدش الدافئ إلى أن هدأت رجفتها. أنبأها الألم الحاد في ساقيها أن الدم عاود التدفق فيهما مجددًا. كان هناك شق بالي في البذلة، فهل تمزق بفعل مسمار بينما كانت تخرجها من الخزانة؟ ما كان عليها تجاهل البروتوكول المتبع، وما كانت لتفعل هذا لو كان الأمر يتعلق بأحد الزملاء أو الطلاب. لا تزال ربلة ساقها اليسرى تؤلمها، ولم تتوقف دموعها عن الانهمار. في النهاية جففت نفسها بمنشفة وأخرجت ملابس دافئة، ووضعت كيسي تدفئة تحت إبطيها وآخر على معدتها. تفحص الروبوت الطبي علاماتها الحيوية بينما كانت تعد الكاكاو الساخن.

«فريج، أخبر توم ومحمود بألا يأتيا، إن علاماتي الحيوية طيبة». هكذا قالت، لكن كان صوتها مرتعشًا. «أخبرهما أن يلغيا عملية الإنقاذ». لا يزال صدرها يؤلمها، لكن بينما كانت تحتسي الكاكاو بدأت تشعر أنها بخير. وبعد قليل استطاعت الوقوف دون أن تشعر أنها ستسقط.

خطت بحذر شديد إلى سطح المركب. كانت الشمس آخذة في الانخفاض ببطء نحو ماء المحيط وكأنها خوخة ناضجة، وبدأت النجوم الأولى ترصع السماء القطبية مع حلول المساء. كانت الحيتان البيضاء تدور حول القارب. أنهت إيرين الكاكاو في بضعة رشفات كبيرة وشعرت بقوتها تعود إليها. أخرج أحد الحيتان رأسه من الماء إلى جوار القارب ونظر إليها في فضول ودود.

مدت ذراعيها من بين قضبان الحاجز ولمست رأس الحوت. كان الرأس أملس وكأنه بيضة صلبة مسلوقة. همست قائلة: «كيلالوجاك» وانهمرت الدموع على خديها واهتز كتفاها. «أشكرك، أشكرك على إنقاذ حياتي؟ هل

أرسلك إيتوك؟» أدركت أنها كانت تتحدث بلغة الإسكيمو، وكانت المقاطع المألوفة تخرج من فمها في سلاسة وكأنها لم تغادر موطنها قط. همست: إيتوك. كانت صغيرة السن حين توفيَ جدها، ومن فرط الصدمة لم تسمح لنفسها بأن تحزن عليه كما ينبغي. والآن، بعد تسعة وثلاثين عامًا، انهمرت الدموع من عينيها.

في النهاية وقفت، واستندت إلى الحاجز وهي شاعرة بالإنهاك، ولوَّحت لمجموعة الحيتان وهي تبتعد.

في وقت متأخر من تلك الليلة، بعد أن تناولت حساء الدجاج الساخن، تحدث مع توم عبر مكالمة فيديو مصورة. كان سعيدًا من قلبه إنها بخير ومتحمسًا بشأن إنقاذ الحيتان البيضاء لها. قالت إيرين: «لا تذيع الخبر، اتفقنا؟» لم تكن بها رغبة في أن ترى الإنترنت كله يتحدث عن حماقتها. ولحين الحظ كانت لدى توم أخبار مثيرة يود إطلاعها عليها.

قال: «انظري! التقطنا هذه الصورة اليوم وقت الظهيرة». ظهرت صورة على جانب الشاشة، وكانت تظهر جزءًا من الجبل الجليدي الصناعي الذي يرسو عليه القارب، وفوقه ظهرت كومة غير محددة الملامح.

قال وهو يبتسم: «دب قطبي. لا بد أنه كان يسبح منذ وقت طويل، ويسعى لبعض الراحة. لقد نام الدب المسكين كي يهضم وجبة الغداء المتأخرة التي تناولها. لقد ألقيت له آخر مجموعة اصطدتُها من الأسماك».

قالت إيرين في حدة: «ابتعد عنه! الحيوانات البرية ليست حيوانات منزلية أليفة، تذكر ما تدربت عليه!».

- «أنت أفضل من يجيد الحديث النظري يا إيرين». هكذا قال وهو يبتسم، ثم أضاف حين شعر أنها قد تعترض: «نعم نعم، أعرف هذا، لا تقلقي. إذا ذهبت إلى الجبل الجليدي وكان الدب هناك، سيلاحظ أحد الفتيان هذا ويرسل لي رسالة. هذا الصباح خرجتُ من دون نظاراتي الواقية ولاحظ فتى عمره اثنا عشر عامًا من أوزبكستان هذا وأرسل رسالة إلى الجني الخاص بي. فبفضل مشروع مليون عين لم يعد بإمكان المرء أن يقضي حاجته في سلام ... آه، آسف ...».

- «أنت لست بهذا الإهمال». لم تستطع منع نفسها من الابتسام. هذه لفتة طيبة من ذلك الفتى من أوزبكستان. يشرد ذهن توم أحيانًا، وصور الجبل الصناعي كانت شديدة البياض، إذ كان مطليًّا بطلاء مشع عالي السطوع

مصنوع بالتكنولوجيا النانوية وكان يعكس الأشعة تحت الحمراء مباشرة إلى الغلاف الجوي، بينما يظل سطحه باردًا بحيث يمكن لمسه.

قال في عفوية مصطنعة فضحت شعوره المكتوم بالإثارة: «شيء آخر مثير للاهتمام حدث اليوم. هل تعرفين أن لدينا ثماني مظلات فوق بيج لومب؟» كان بيج لومب هو الجبل الجليدي الأكبر في أسطول من الجبال عرضه نحو خمسين كيلومترًا شمال محطة توم. «كانوا يفحصون برك الماء الناتج عن انصهار الجليد بفعل الشمس، ويعيدون تجميدها قبل أن تذوب بعمق كبير يتسبب في إحداث شقوق. حسنًا، وصلت ثلاث مظلات هائمة من محطة لومونوسوف، فقط تركت مواقعها من تلقاء نفسها وأتت للانضمام للبقية. لقد أبلغ محمود عن الأمر».

قالت: «أمر مثير للاهتمام».

لم يكن غريبًا أن تتخذ المظلات قراراتها بنفسها، فقد كان هذا يعني أنها - بوصفها كيانات ذكية قادرة على التعلم ومتَّصلة بقوة ببيئتها وببعضها بعضًا - قد انتقلت إلى المرحلة التالية من التعقيد. كانت مظلتها تراقب على نحو متصل البيئة البيوكيميائية، وكانت تعلم الوقت المناسب لمنح مجموعات الكائنات أليفة الميثان تغذية إضافية والوقت المناسب لعدم عمل ذلك. كان تصورها الأصلي عن الذكاءات الصناعية التي تتمتع بحلقات تغذية استرجاعية للمعلومات مبنيًّا على المحاكاة البيولوجية، واستوحته من أنظمة الطبيعة مثل الأنظمة البيئية والأجهزة الداخلية للجسم. كانت مظلتها معتادة على العمل كمجتمع من العقول، لذا فقد تصورت أن هذه القدرة يمكن الارتقاء بها. إن كل مظلة قادرة على التواصل مع نظيراتها، ومتصلة بقواعد البيانات المناخية حول العالم، بحيث تمنح المعلومات وتتلقاها، وتستطيع التعلم منها. جال بخاطرها فجأة رؤية لشبكة مترابطة متعددة المستويات، كيان حساس يمتد عبر القارات والأنواع، وكأنها شبكة جايا [(26)]، وقد دبَّت فيها الحياة.

- «كم من الوقت أمامها حتى تتفوَّق علينا في الذكاء؟» هكذا قالت نصف مازحة، وأضافت: «هذه أخبار عظيمة يا توم».

بعد ذلك شاهدت أضواء الشفق القطبي المهيبة وهي تزيِّن السماء. جلست في قمرتها ورفعت عينيها عن البيانات المتوافدة على شاشتها. كانت درجة الحرارة في قاع المحيط آخذة في الانخفاض، إذ تباطأ معدل انبعاث الميثان على نحو ملحوظ منذ أن بدأ المشروع. كان هذا إنجازًا ضئيلًا مقارنة بحجم المشكلة، لكن بالاستعانة بمليون زوج من الأعين تراقب خرائط الميثان في

القطب الشمالي، ربما يحصلون على التمويل اللازم لمعرفة كيفية علاج المناطق الأشد تضررًا التي لا يزال بالإمكان السيطرة عليها. بشكل جزئي، كان انبعاث الميثان جزءًا طبيعيًّا من عملية تجري منذ آلاف السنين، لكن البحار الآخذة في الاحترار فاقمت حدة المشكلة. ألم يعرفنا العلم في نهاية المطاف بما كانت الشعوب الأصلية في العالم أجمع تعرفه حق المعرفة، أن كل شيء مرتبط ببعضه؟ يصل رجل من العمل في مدينة نيويورك ويضيء النور، فيحترق المزيد من الفحم، وينطلق المزيد من ثاني أكسيد الكربون المسبب للاحترار في الغلاف الجوي. أو تحرق شركة منتجات زراعية بقعة من غابات الأمازون المطيرة، ومن ثم يختفي مصرف من مصارف الكربون في لمح البصر. أو يشتري أحد المصانع في الولايات المتحدة زيت النخيل كي يستخدمه في عمل الكعكات، وتختفي غابات مطيرة في جنوب شرقي آسيا كي تفسح الطريق لمزيد من مزارع النخيل. كان الناس وحيواتهم مرتبطين عن كثب في كل أنحاء العالم لدرجة أننا نحتاج جهود الملايين حول العالم كي نحدث فارقًا.

مسَّت السوار البرتقالي وأضاءت الشاشة. «فريج، اتصل بماجي».

- «إيرين، إيرين؟» زاد الشعر الرمادي في رأس ماجي، لكن ظل صوتها كعهده عاليًا، وحازمًا. «أين كنتِ؟ أخبروني في حرم الجامعة أنك في القطب الشمالي، وظننت أنك عدت إلى موطنك أخيرًا، لكنني أسمع أنك في مكان ما من سيبيريا».

- «ألا تتابعين الأخبار؟» هكذا ردت إيرين وهي تتذمَّر، وحاولت ألا تبتسم لكنها فشلت، ودمعت عيناها قليلًا. أضافت: «سيبيريا هي المكان الأهم الآن. أنا على متن قارب، أدير تجربة على قاع المحيط. أحاول وقف تسرب غاز الميثان وإنقاذ العالم كما تعلمين، هذا يوم عملي الطبيعي».

- «عظيم عظيم، لكن من المؤسف أنني أتيت كل هذه المسافة إلى هنا دون أن أجدك. لا بد أن أخبرك، لقد قابلت لوسي. نعم، لقد سمعتيني على نحو صحيح. إنها ذاهبة في رحلة لتصوير بعض الأفلام الوثائقية، رحلة إلى نيبال ...».

نيبال!

قالت إيرين: «حسنًا، يسرني أنها تتحدَّث معك». ثم أضافت بعد لحظة صمت: «هل هي ... هل هي بخير؟».

- «إنها بخير حال يا إيرين، فقط هي تحتاج إلى العثور على طريقها الخاص، أنتما الاثنتان كنتما وحيدتين لوقت طويل ...».

- «وحدنا! في منتصف الشوارع الخالية لمنطقة الخليج!».

- «أنت تدركين ما أعني. المدن الكبيرة يمكن أن تشعرك بوحدة شديدة. لماذا تظنين أنني عدت إلى بلدتي بعد الجامعة؟ اسمعيني يا إيريني، الحياة في أسرة صغيرة مرهقة، ويصير الأمر أصعب لو كانت الأسرة بها أحد الوالدين فقط. الناس يحتاجون أشخاصًا آخرين بالإضافة إلى آبائهم. يجد أبنائي بعض الصعوبات في العيش هنا في إيكاليت، لكن على الأقل فهم محاطون بأعمام وأخوال وعمَّات وخالات، وأبناء عمومة وجدود ...».

- «كيف حال والديك؟ كيف حال الجميع؟».

- «الكل ينتظر عودتك إلى موطنك. تعالي للزيارة يا إيرين، فقد مر وقت طويل. كنا جميعًا نظن أنك انت من ستمكثين هنا بسبب كل ما تعلمتيه عن الطرق القديمة من جدك».

- «آخر مرة أتيت فيها، حين توفي والدي ... رمتني والدتك بسمكة وطردتني من المكان».

ضحكت ماجي.

- «وهو ما أرى أنك نجحت فيه بشكل جيد. لقد أدهشتيني. الآن عليك أن تأتي يا إيرين! تعالي وتحدَّثي مع ابني. إن بيتر عضو في فريق يجمع طلاب المدارس من الإسكيمو وعلماء، وهناك صيادون أيضًا. إنهم يخرجون مع وحدات تحديد المواقع عبر الأقمار الصناعية، ويسجلون معلومات عن ذوبان الجليد ومشاهدات الحياة البرية».

أرادت إيرين أن تقول: ماجي، لقد كدت ألقى حتفي اليوم، لكن الحيتان البيضاء منحتني هبة الحياة، وهذا يعني أن عليَّ تغيير طريقة عيشي. أحتاج مساعدتك. بيد أن هذه الكلمات لم تخرج من فمها، وبدلًا من ذلك قالت: - «ماجي، عليَّ الذهاب. لنتحدث غدًا ... يجب أن نتحدث».

- «إيرين، هل أنت بخير؟ إيرين؟».

- «نعم ... كلا، لا يمكنني الحديث عن الأمر الآن. نتحدَّث غدًا؟ لو ... لو رأيت لوسي أخبريها، أخبريها أنني أحبها».

- «سأقابلها يوم الجمعة على الغداء قبل أن تغادر. سأبلغها سلامك، لا تقلقي. نتحدث غدًا بكل تأكيد. تشجَّعي يا فتاة!».

لوَّحت إيرين مودعة إياها ثم انطفأت الشاشة. انعكست أضواء الشفق القطبي على جدران الغرفة المظلمة والمكتب الموجود فيها. كان المركب يتمايل في رفق، يحلق فوقه الغلاف العلوي للمظلة. تناثر الماء بفعل حركة أحد الحيتان ذات الظهر الأملس. تذكرت المنزل الصغير في إيكاليت، حيث نشأت في كنف والديها وجدها واثنتين من خالاتها وأبنائهما. تذكَّرت منظر السماء العظيمة فوق الجليد، سماء تعكس الجليد الذي يعكس السماء في دورة لا نهاية لها. كان جدها رجلًا عمليًّا، لكنه علَّمها أيضًا أن تنتبه للأشياء غير الملموسة، الأشياء التي لا يمكن عدها أو وزنها، أشياء كالحُب الذي تشعره نحو شخص ما، أو نحو الأرض، أو الحيتان والدلافين. لقد أنقذها حوت بلوجا أبيض، حوت من موطنها. أي علامة تحتاج أكثر من هذا؟ لقد ابتعدت في البداية لأن هذا كان التصرف الملائم، ثم لأنها كانت منشغلة بشدة، تؤدي عملًا مهمًّا، وبعد ذلك لأنها كانت تشعر بالحيرة والخزي. كيف لها أن تواجههم جميعًا، وهي تعلم أنها فقدت طريقها رغم كل نجاحاتها، وابتعدت عن ذاتها الحقيقية؟ كيف لها أن تعود إلى موطنها من دون لوسي، وهي تعلم أنها فشلت في جوانب عديدة؟ الآن صارت ترى أن الرحلة إلى موطنها كانت جزءًا من الخلاص، ومثلما كانت الحيتان والدلافين تهاجر وتقطع دورات كبيرة مغلقة في المياه الجليدية للقطب الشمالي، بحيث تزور الأراضي القديمة وتعاود زيارتها من جديد، عليها هي أيضًا أن تفعل المثل. همست: إنوسيك، وكأنما تدرب نفسها على نطق الكلمة. فكرت في وجه ابنتها الرقيق المتلهف في طفولتها بينما كانت تستمع إلى قصة تروى على مسامعها، وفي السعادة التي تشوبها بعض المرارة التي شعرت بها حين دخلت لوسي الجامعة، لوسي الشابة الجميلة التي يشع الذكاء واليقظة من عينيها، وهي على أعتاب حياة الكبار. فكرت في نفسها حين كانت طفلة صغيرة، تشاهد والدتها تحيك السجاد على النول المشترك: الصوت والإيقاع والألوان، ويدي والدتها. كان العالم الذي تحبه يُنسَج إلى الوجود لحظة بلحظة عبر شبكات ديناميكية معقدة من التفاعلات: الحيتان في جماعاتها، البكتيريا أليفة الميثان والكائنات المصاحبة لها، المظلات والوحدات التابعة لها، ملايين الأعين الشابة المتحمسة التي تحاول إنقاذ العالم.

قالت بصوت مرتفع: «إيتوك، سأعود إلى موطني».

في الأمازون

... توجد مدينة في قلب الغابة المطيرة، غابة ماناوس، أصابها الجفاف هذا العام، وشح المطر. وحين يسقط المطر فإنه يسقط في اتجاه الرياح على مسافة كيلومترات من المدينة...

في هذه الحرارة، وخارج الفنادق والحانات الجذابة، تشيع رائحة الفاكهة الفاسدة والأسماك والقمامة والزهور والعادم. يسير الأغنياء والفقراء في الشوارع وهم يحملون هواتفهم المحمولة أو حقائب المستندات أو حقائب اليد ماركة جوتشي أو السلال المصنوعة من أغصان أشجار الجينيبابو أو الكامو كامو [27]، وبين هؤلاء يهيم الفنان على وجهه. إنه يبحث عن جدار غير مدهون، عن جانب أحد المباني. فأي سطح أملس خالي هو قطعة من قماش الكنفاه في نظره.

وقته المفضل هو الصباح الباكر. وفي ذلك الضوء الشاحب، حين تبدأ القردة والطيور في الصياح، يكون هناك ومعه قطعة طباشير سوداء وسلم، ويرسم في نشاط بضربات قوية من ذراعه، ثم يملأ بعد ذلك التفاصيل الدقيقة لعمله. إنه لا يعرف مطلقًا أي حيوان سيظهر على الجدار، فأولى الضربات لا تخبره بشيء، أو التي تليها، ولكن كل ضربة تقلل نطاق الاحتمالات إلى أن يصير واضحًا أي روح تملَّكَته، ثم تظهر الصورة إلى النور. حين تكون صورة نمر مرقط يشعر هو، الفنان، بالزئير من بين أوراق الأشجار، وكأن النمر يمرق بين الدغل على أقدامه في صمت. وحين تظهر صورة خروف البحر على الجدار الخالي، يدرك الفنان الأعماق السبخة للنهر، الجغرافيا الغامضة أسفل الماء. وحين تظهر صورة طائر، يدرك الفنان المسارات السرية بين الأغطية الشجرية العالية للأدغال.

بعد ذلك ينتهي عمله. ينظر حوله فلا يجد أحدًا، ويتنفَّس الصعداء. ينسل مبتعدًا بين الشوارع الغافية إلى ذات أخرى، إلى حياة أخرى.

حدَّقت فرناندا من نافذة الطائرة في المدينة التي كانت موطنها يومًا ما. كانت بمنزلة لطخة بيضاء وسط غابة الأمازون المطيرة الخضراء. فكرت: بل هي جزيرة حرارية حضرية في حقيقة الأمر [28]. كانت المدينة قد نمت إلى حجم ضخم في العقد الماضي، في ظل ازدهار أعمال استخراج الغاز الطبيعي وتصنيع مكونات التكنولوجيا العالية - كانت العودة إليها مفاجأة على الدوام - إلى أن صارت مستعمرة بشرية كثيفة السكان ذات اقتصاد قوي تقبع في

منتصف أكبر غابة في العالم. وعلى الرغم من الغابات الحضرية التي كانت تشكل جزرًا خضراء في بحر الخرسانة الأبيض، كانت المدينة تبدو في نظرها وكأنها ندبة في جسد الغابة. كان نهر ريو نيجرو يجري في تثاقل وكأنه حبيب منهك القوى، وكانت مياهه أشد ضحالة مما كانت تذكر منذ الجفاف السابق. لم تنسَ ما كان الحال عليه، وهي طفلة، حين كانت تقف على القاع الجاف للنهر خلال الجفاف الكبير، تشعر وكأن العالم على وشك الانتهاء. اقتربت أسطح المنازل البيضاء منها بينما انخفضت الطائرة، وحاولت أن ترى ما إذا كانت هناك أي أسطح خضراء، لكن كان من الصعب معرفة ذلك من هذا الارتفاع. لا يهم، فستعرف قريبًا، حين تنضم إلى المشروع الجديد.

«هل كُنتِ في إجازة؟» هكذا سألها الرجل الجالس إلى جوارها بود.

فوجئت فرناندا بهذا السؤال. كانت قد أمضت ثلاثة أشهر في الدغل الساحلي تدرس الجفاف، وتحصي الأشجار الميتة، وتأخذ قياسات لدرجة الحرارة والرطوبة وسقوط المطر، وفي إحدى المرات كافحت حريقًا كبيرًا في الغابة بدأته شركة زراعية تريد إزالة الغابة. لا يزال ساعدها الأيسر يؤلمها من حرق ألم بها. خيَّم الفريق في الرقعة الواسعة الحارة الجرداء، وبعد شهرين انفصلت هي عن كلاوديو، ولهذا السبب كانت عائدة وحدها. كانوا قد أثبتوا بما لا يدع مجالًا للشك أن الأراضي القاحلة الجرداء كانت أشد حرارة من الغابة وافرة الصحة، وأن قدرًا أقل من المطر يسقط هنا، وأن الوضع كان شبيهًا بالجزر الحرارية الحضرية. وبعيدًا عن محاولة إعادة زراعة الغابة، بل كان عليهم محاربة الناهبين الجشعين كي يمنعوا تدمير المزيد منها. ظل كلاوديو مع فريق إعادة الزراعة، وارتحل بقيتهم عبر البرودة العميقة للجزء وافر الصحة المتبقي من الغابة إلى أن وصلوا إلى الحضارة. كانت تلتزم الصمت بينما الغابة تتمتم وتنادي وتضحك وتزأر من حولها، وقد استشعرت إيقاعاتها في جزء قديم مدفون داخلها، وصمت ألمها بحيث صار أقرب إلى ضوضاء خفيفة في الخلفية. نظرت إلى الرجل الذي يرتدي سترة عمل ورأت وجهه الحليق الجاد وابتسامته الخجول، وبطنه المنتفخ قليلًا من أثر احتساء الجعة، وفكرت كيف بدا منظرها غريبًا كلما عادت من الغابة.

«عمل». هكذا ردَّت ببرود، آملة ألا يستفسر عن المزيد. بدأت الطائرة الهبوط.

بدت المدينة على حالها، ومختلفة في الوقت ذاته. وقد وجدت في غضون الأيام القليلة التالية أن التجمُّعات العائلية المرحة في منزل الخالة آنَّا، التي طالما استمتعت بها، كانت أكثر صعوبة بكثير من دون كلاوديو، وسبب هذا

بالأساس هو الأسئلة الكثيرة ونظرات التعاطف. كانت الخالة آنَّا تحمل بالفعل تلك النظرة التي تشي بأنها تفكِّر بالفعل في محاولة التوفيق بينها وبين خطاب جدد. كانت لدى والدتها تذكرتان لحضور أوبرا عايدة في مسرح الأمازون، بجلال قدره، وهو ما كان أمرًا تتطلَّع إليه بشدة. وفي نهاية المطاف فكَّرت في ذلك الشجار الأخير مع كلاوديو، حين اتهمها بأن علاقتها بآلة الساكسفون أكثر حميمية من علاقتها به. كانت قد أحضرت آلة الساكسفون معها بالفعل، لكنها لم تخرجها من صندوقها بعد.

الشيء المختلف هو أنه لم يكن هناك ما يكفي من المطر. فحين تتجمَّع السحب كانت تسقط زخَّات مطر خفيفة على المدينة، لكن أغلب المطر كان يسقط على مسافة خمسين كيلومترًا. في الوقت ذاته كان البشر يتصبَّبون عرقًا في مساكنهم المصنوعة من الخرسانة أو الخشب - كان من يملكون أجهزة تكييف هواء يشغلونها بأقصى طاقتها - واضطر الفقراء في الجانب الشرقي من المدينة إلى معاناة ذلك الحر الشديد، وسقط كثير منهم ضحايا للإنهاك الحراري. لكن في الغالب سارت حياة معظم الناس من الطبقات المتوسِّطة والعليا على حالها باستثناء التذمُّر العارض. بدا غريبًا في نظر فرناندا أنه حتى في هذه المدينة الواعية بذاتها والعامرة بمصادر الجذب السياحية البيئية كان بمقدور أشخاص كانت تعرفهم وتحبهم أن يعيشوا مثل هذه الحياة الغافلة، بعيدًا عن التحذيرات العظيمة الرهيبة التي كان المجال الحيوي يبعث بها إليهم.

الشيء الآخر المختلف كان الفنان.

كان فنان جرافيتي مجهول الهوية يجوب شوارع ماناوس، وقد غيَّر برسوماته الفنية شكل جوانب المباني والجدران لدرجة أبطأت حركة المرور وأوقفت المحادثات. علمت بشأن هذا الأمر من الأحاديث المتداولة عنه لكنها لم تنتبه للأمر إلا حين ذهبت لممارسة الجري في اليوم السابق على بدء مشروعها الجديد. كانت ترتدي شورتًا أبيضًا وتي شيرت عديم الأكمام، وشعرها الأسود غير معقوص، وكانت تجري في طريق الميناء، حيث الأسواق المزدحمة بما فيها من مظلات ملونة وسياح متجمعين، تجري بين الناس محاولة التعرف على عالمها مرة ثانية. توقَّفت لبرهة عند كشك لبيع الفاكهة، وصدت عن نفسها في ود مغازلات شابين وسيمين بينما كانت تشرب العصير بتلذُّذ. كالمعتاد كانت هناك معديات تعبر نهر ريو نيجرو، وكانت المياه كما تذكرتها دائمًا، داكنة ولا نهائية، في طريقها للالتقاء بالبقاع الشمالية كي تشكل دلتا نهر الأمازون، الأمازون الذي عرفته وأحبته طوال حياتها.

تحوَّلت نحو شارع جانبي وهناك رأت رسم لنمر مرقط على الجانب عديم النوافذ لأحد المباني، على وشك أن يثب عليها. توقَّفت وحدَّقت في الرسم. كان رسمًا مجرَّدًا، رُسم بضربات سلسلة مقتصدة، لكن الفنان كان يعلم أن التفاصيل مهمة، وبصرف النظر عن من يكون هذا الفنان فقد عرف كيف يقتنص روح الوحش، النار في عينيه، ما سمَّاه الشاعر نيرودا «حضوره الوامض». وللحظة وقفت أمام الرسم مسحورة، وشعرت كما لو أن الدغل يحيط بها مجددًا.

بعد ذلك بحثت عن المزيد من الرسومات، في نواصي الشوارع وأكشاك السوق. كانت الرسومات في كل مكان، ببغاء مكاو يطير، أو كسلان يرقد على فرع شجرة، أو ثعبان أناكوندا على وشك النزول من على الجدار إلى الشارع. وأينما كانت هذه الرسومات كان هناك حشد من الناس يشاهدها. كانت التفاصيل ثلاثية الأبعاد للرسومات مذهلة: انقباض العضلات، الخيوط الدقيقة للريش، الروح الحية داخل الأعين. كانت تتأمل رسمًا مدهشًا لأحد القردة ذات اللونين وكان نابضًا بالحياة لدرجة أن قردًا حقيقيًّا قد يظن خطأ أن هذا أحد أقربائه، وحينها مرت إلى جوارها سيارة بها عدد من طلاب الجامعة وتخرج منها أصوات الموسيقى العالية الرائجة هذه الأيام (كانت تشعر بالتقدم في العمر بالفعل وهي في السابعة والعشرين!). توقَّفت السيارة مصحوبة بصوت احتكاك الإطارات بالإسفلت وخرج منها الشباب، صامتين، وفكرت فرناندا في انتصار: هذا هو علاج الحياة الغافلة. كان الفن شديد الروعة لدرجة أنه جلب الغابة مجدَّدًا إلى المدينة، وأجبر الناس على تذكر أمم الحيوانات المحيطة بنا.

لكن في اليوم التالي، حين كانت تطالع البيانات الآتية من مختبرها على سطح المنزل لم تشعر بالتشجيع. كانت أسطح البيوت الشاحبة تتوهَّج تحت أشعة الشمس. ما الأثر الذي خلَّفته الجزيرة الحرارية للمدينة على المناخ المحلِّي، مقارنة بالقطاعات التي تعاني الجفاف في الغابة؟ كان الجفاف راجعًا بالأساس إلى التأثيرات واسعة النطاق المرتبطة بالمحيطات الآخذة في الاحترار وإزالة الغابات عند السواحل، لكنها كانت مهتمة بمعرفة ما إذا كانت التأثيرات صغيرة النطاق كانت مهمَّة بالمثل، ووفق هذا المنطق، ما إذا كان بإمكان عمليات الإصلاح صغيرة النطاق أن تحدث فارقًا. كانت هذه نقطة بحثية محل جدل. قضت عدة أيام منكبة على دراسة الخرائط على شاشة الكمبيوتر، خرائط ولَّدتها نماذج حاسوبية ضخمة للمناخ، على المستويين المحلي والإقليمي. هل بإمكان تجربة الأسطح الخضراء المقترحة أن تكون كبيرة بما يكفي بحيث تختبر هذا النموذج؟ كيف ستقنع الناس والمؤسَّسات بتركيب الأسطح الخضراء؟ من المعروف عن العلماء أنهم لا يجيدون أمور العلاقات العامة، وتقول الخالة آنَّا إنهم لا يجيدون أنواع العلاقات الأخرى كذلك، رغم أن

هذه ليست قاعدة صارمة. كان المشرف السابق عليها، د. أجيلار، متزوجًا وعاش حياة زوجية سعيدة لنصف قرن.

كان هناك منزل خاص في منطقة سيداد نوفا مزودًا بالفعل بسطح أخضر، نباتات محلية مختارة لقدرتها العالية على النتح التبخُّري، بحيث تحاكي السمات الإشعاعية لأشجار الغابات المطيرة. ولو أنهم استطاعوا إقناع ما يكفي من المسؤولين والمشاهير وغيرهم بالمجيء ومشاهدة هذا السطح، ربما يؤدي هذا إلى رواج الفكرة. كان المنزل يقع في جزء ثري من البلدة وكان مالكه، ويدعى فيكتور جوميز، يعمل في الجامعة. وقد ذهبت لمشاهدته في ظهيرة يوم حار.

كان من الرائع حقًّا الوقوف في حديقة على سطح المنزل، حيث الأشجار داخل أصص والشجيرات في مزاهر مرتفعة غير مرتبة في خطوط مستقيمة، وعدد كبير من النباتات المعترشة المحلية تغطي الجدران بغزارة. كانت هناك فاكهة وخضروات تنمو هناك بين الشجيرات كذلك. كان هذا هو النموذج عينه الذي كان فريق الإصلاح يستخدمه في الغابات المحلية بحيث يوفر مساحات لحدائق الخضروات الصغيرة وأشجار الكاكاو والمطاط والبابايا، وكان مستوحى من حركة كابروكا: الزراعة صغيرة النطاق التي تطعم الأسر وتحفظ الغابات المطيرة. نظرت فرناندا من فوق السور ورأت أن الأوراق كانت تغطي تقريبًا جانب المنزل. كان ثمة رشَّاش يعمل، وأخذت مجموعة خفية من الأدوات تسجِّل درجات الحرارة والرطوبة والبيانات الإشعاعية. كان الجو أبرد بكثير هنا. بطبيعة الحال سيكون الماء مشكلة، في ظل التقنين الذي كان يلوح في الأفق. اللعنة على المطر، لماذا لم يهطل؟

لكنها تشجَّعت. وفي طريق عودتها وردتها رسالة على هاتفها المحمول من كلاوديو تفيد بأن عمليات الغرس المبدئية قد اكتملت في البقعة التجريبية، داخل الغابة التي ضربها الجفاف، وأن سكان القرى المحليون كانوا يعتنون بالشجيرات. من شأن المنحة أن تساعد في سداد تكاليف الاعتناء بالأشجار، وحين تصير الأشجار أكبر عمرًا ستوفِّر الثمار والأوراق للناس. كانت هناك حالات قليلة للغاية على مستوى العالم جرت فيها استعادة الغابات المطيرة جزئيًّا - كل عمليات الاستعادة كانت جزئية لأنك لا تستطيع تكرار نوعية التنوُّع البيولوجي نفسها التي حدثت على مدار ألف عام - لكن كان من المذهل رؤية كيف أن الأشجار ستنمو لو أنك اعتنيت بها في المرحلة الحرجة الأولى. والشيء الوحيد الذي من شأنه أن يضمن نجاح الأمر هو مشاركة السكان المحليين فيه.

بدا كلاوديو سعيدًا. ربما يؤدي تعافي الغابة إلى تعافيه هو الآخر.

استمرت الموجة الحارة دون هوادة. شاهدت فرناندا الناس في الشوارع وهم يحدِّقون في السماء، ناظرين إلى السحب القليلة التي تكوَّنت فوقهم كما لو كانوا يتضرَّعون لها أن تمطر. كان النهر ضحلًا بطيء الحركة، وبدت الحياة بالنهار كئيبة؛ إذ خبا وهج الحياة الليلية هو الآخر وتوقَّفت ضحكات الناس. قضت ليلة مع ابنتي خالتها ليلا وناتاليا في حانة بار دو أرماندو، حيث يسهر الجميع، سواء أهل المعرفة أو المال. بدا أن الحرارة أثَّرت على الفنان بالمثل، إذ لم تكن هناك رسومات جديدة لعدة أيام.

وجدت فرناندا نفسها تزور رسومات الجرافيتي في أمسياتها. كان هناك مرشدون سياحيون يصطحبون الزوار إلى أماكن الرسومات، وإلى جوارها ظهرت أعمال صغيرة، مثل بيع طعام الشارع والهدايا التذكارية. كان هناك غضب عارم حين طمس أحد المتاجر بالطلاء صورة ببغاء المكاو كانت مرسومة على جداره الجانبي. وفي كل مرة كانت فرناندا تذهب لمشهدة الأعمال الفنية كانت تجد أناسًا يقفون ويحملقون ويلتقطون الصور بكاميراتهم، ومجموعات من الأصدقاء تثرثر كالقردة في الأدغال. وذات مرة رأت بالصدفة الرجل الذي كان جالسًا إلى جوارها في الطائرة. كان يقف وحقيبته تستند إلى ساقيه بينما كان يحاول التقاط صورة. فكرت في إلقاء التحية عليه والاعتذار عن حديثها الجاف على الطائرة، لكنه لم ينظر في اتجاهها.

رأته بعد ذلك في ثلاث مناسبات في أماكن مختلفة من المدينة، وكان يلتقط صورًا لرسومات الجرافيتي بكاميرته، يلتقط صورًا للحشود مثلما يلتقط الصور للرسومات. مجرد رجل أعمال يهوى التصوير، هذا ما قالته لنفسها. لكن ذات يوم أسقط الرجل حقيبته وتطايرت الأوراق منها. كانت هناك أوراق حسابات، تصطف فيها أرقام صغيرة أنيقة في صفوف، ومفكِّرة، وحاسب محمول، ونصف شطيرة ملفوفة بإهمال، وقطعة من الطباشير الأبيض. تدحرجت قطعة الطباشير إلى حيث تقف فرناندا. تعاون الأشخاص القريبون من الرجل في جمع حاجياته المتناثرة، لكنه كان ينظر إلى الأرض من حوله بجنون. من دون تفكير وضعت فرناندا قدمها على قطعة الطباشير، ثم أنزلت حقيبتها وانحنت للإمساك بقطعة الطباشير ووضعتها في محفظتها بسلاسة أدهشتها هي نفسها. كانت صلبة وزيتية الملمس، لا تشبه الطباشير العادي. كانت هناك ورقة على مقربة منها لم يلتقطها أي من الناس، فالتقطتها هي ودونت عليها عنوانًا في عجالة، ثم وضعت بطاقة العمل الخاصة بها وقطعة الطباشير خلف

الورقة ثم ناولت الرجل كل هذا، وهي تنظر إليه نظرة مواطن صالح بريء. شاهدت التقدير في عينيه. العرفان. ثم حول نظره عنها وأسرع في طريقه.

أمضت الجزء المتبقِّي من اليوم وشعور القلق يساورها. كانت تتمنَّى أن لو طمأنته! إنها لا تعتزم فضح أمره. كانت قد رأت اسم الشركة التي يعمل بها على الأوراق. تمنَّت فقط لو …

في المنزل، مسَّت سوارها كي تشغل جهاز الكمبيوتر. تصفَّحت الأخبار. ثمة إعصار في إحدى ولايات شرقي الهند. مجادلات في مجلس الشيوخ الأميركي حول إستراتيجية الطاقة الجديدة. فيضانات في هذا المكان وجفاف في ذاك، كان نسيج المجال الحيوي يتمزَّق. فكَّرت في غابات الأمازون المطيرة، التي كثيرًا ما تُوصف بأنها الرئة الخضراء للأرض. بل إن بعض المرشدين السياحيين في المدينة، الذين يصطحبون في الغالب سياحًا من أميركا الشمالية إلى الأدغال، يستخدمون هذا المصطلح. هل كان يعلم أي شخص ما كانت هذه الكلمات تعنيه؟ فكَّرت في التنبُّؤات التي تطرحها عدة نماذج، أن الغابة العظيمة، التي تُعدُّ حاليًّا بمنزلة حوض تصريف كبير لثاني أكسيد الكربون، ربما تتحوَّل إلى مصدر لثاني أكسيد الكربون لو أُنهكت بما يكفي بفعل الجفاف وقطع الأشجار. ما الذي سيحدث حينئذٍ؟ «جحيم على الأرض». هكذا قالت بصوت مرتفع. تساءلت كم من البشر نظر إلى السماء وتخيَّل، مثلها، نهر الرطوبة الخفي الذي يهدر فوق الأمازون من المحيط الأطلسي. استهواها التفكير في الأمر: نهر طائر، أناكوندا السماء، يحمل من الماء مقدار ما يحمله الأمازون نفسه، يسير ويستمد قوته بفعل جاذبية الغابة بحيث يتدفَّق عبر البرازيل كلها، ويرتطم بجبال الأنديز، ويتحوَّل إلى الجنوب، جالبًا المطر وكأنه مانح للبركة. ما الذي فعلته الحماقة البشرية له بحيث ضرب الجفاف الأمازون؟ لقد أصيبت الرئة الخضراء بالسرطان. تذكَّرت وجه كلاوديو في ضوء مصابيح المعسكر، يتحدَّث بشغف عن الغابة الأطلسية المنتهكة، غابة ماتو جروسو المشوَّهة، وحقيقة أن نحو سبعة آلاف فدان من الغابة تجري إزالتها كل عام.

«ما رأيك، أنحن نوعٌ غبي أم ماذا؟» هكذا سألتْ السحليةَ المتعلِّقة بالحائط. نظرت إليها السحليةُ نظرة تشع غموضًا.

أراحت رأسها على ذراعيها، وأخذت تفكِّر في كلاوديو، حضوره الجسدي، طيبته. كان العمل الذي قاما به معًا قد قرَّب بينهما، ربما لم تكن العلاقة التي جمعتهما تزيد عن ذلك. ومع هذا … كان العمل مهمًّا. كان من المهم للغاية معرفة ما إذا كان من شأن أعمال الإصلاح أن تحدث فارقًا. كانت في المعتاد

متفائلة كثيرًا، وعاقدة العزم رغم صعوبة المهمة. ربما كان الجفاف، وقلة المطر في مناطق كان المطر الغزير لا ينقطع فيها كل يوم، هما ما جعلاها تشعر بهذا الشعور. تساءلت بصوت مرتفع: «ما الذي عليَّ فعله كي أجلب المطر؟» صدر صفير عن السوار، ثم خرج صوت صبي، يشوِّهه برنامج الترجمة الإلكترونية. وعلى شاشة الكمبيوتر كان الصبي يجلس في سرير بأحد المستشفيات، له وجه جاد وأذنان كبيرتان.

«عليكِ بالغناء»، هكذا قال. خلف الترجمة كان بإمكانها سماع صوت الصبي الحقيقي وهو يتحدَّث بلغة غير مألوفة. كان يبدو متعبًا. ما الذي قاله؟ عليكِ بالغناء، هذا ما قاله. فلتغني للسحب، من أجل المطر. بدأ الصبي يغنِّي بصوت موسيقي مذهل. كان واضحًا لها أنه غير مدرب على الغناء، رغم كون الأسلوب الموسيقي غير مألوف لها. لكن كان غناؤه حماسيًّا، من شأن هذه الموسيقى أن تجلب المطر. أرادت منه أن يواصل الغناء أكثر وأكثر، رغم النشاز الذي يتسبَّب فيه برنامج الترجمة. بعد ذلك أظلمت الشاشة بشكل مفاجئ.

من أين أتى ذلك الصبي؟ كانت قد اشتركت في شبكة تجريبية للتواصل الاجتماعي بإلحاح من صديق، لكن لم يكن هذا الصبي على قائمة معارفها. كانت الاتصالات سيئة معظم الأوقات، وكانت تأمل أن يكون الصبي على ما يرام.

في اليوم التالي ظلَّت فكرة جلب المطر عن طريق الغناء تطاردها. بطبيعة الحال لم تكن مثل هذه الأمور تحدث في العالم الواقعي، وبوصفها عالمة كانت تعلم هذا. كانت تقلبات المناخ خارجة عن نطاق سيطرتهم، وكانت عمليات الإصلاح الجزئي، تلك الرقع في النسيج الأخضر للغابة، لا تزال في مهدها. المشكلة في إصلاح الغابة هي أنه لن يكون كافيًا وحده على الإطلاق من دون حدوث مليون شيء آخر، مثل العمل على القمم الجليدية القطبية، والحركات الاجتماعية، والتزام الناس العاديين بتغييرات في نمط الحياة، سن القوانين من جانب الحكومات، وذلك حتى يكون لأبنائنا وأحفادنا مستقبل. كان العامل الحاسم هو خفض صافي انبعاثات ثاني أكسيد الكربون العالمية إلى الصفر، وهذا قد يستلزم مشاركة الجميع تقريبًا. لقد ولَّى زمن البطل المنفرد، فهذا عصر المليون بطل.

ومع هذا، في اليوم التالي فتحت صندوق الساكسفون ومرَّت بيدها على المعدن البارد. كانت تجتذبها، الموسيقى التي تخرجها من داخلها. لم تجِب على رسائل البريد الإلكتروني الواردة من رفاقها في الفرقة الموسيقية. والآن كان

عليها أن تهرع إلى المختبر. ربما هذا المساء، هكذا أخبرت الساكسفون، سنجتمع معًا، أنا وأنت.

بيد أنها لم تذهب إلى المختبر، لأن زميلتها ماريا اتصلت بها والإثارة تملؤها. ونتيجة لذلك ذهبت مباشرة إلى منزل سيداد نوفا ذي السطح الأخضر التجريبي الجديد. دارت حول المنزل إلى الجدار الجانبي، حيث كان حشدٌ من الناس قد تجمع بالفعل. كان الناس يخرجون من السيارات، بل وكانت هناك شاحنة للبث التليفزيوني. ومن خلف الأوراق التي تغطِّي جدار المنزل ظهر رسم لنمر مرقط، نمر هادئ، بل نائم، في حالة من السلام مع العالم. شهقت فرناندا في دهشة. لقد فهم الفنان رسالتها. وكان مالك المنزل، العجوز فيكتور جوميز، واقفًا بين الحشد فاغرًا فاه.

وفي غضون بضع ساعات انتشرت الأنباء وتضاعف حجم الحشد إلى أن سبَّبَ أزمة مرورية. استشعرت فرناندا الفرصة وتحدَّثت في إيجاز وعجالة مع فيكتور جوميز، الذي اصطحبها في جولة مرتجلة في حديقة سطح منزله. فجأة صار الجميع يتحدَّث عن الأسطح الخضراء. تخيل، لو أنك حصلت على واحد منها في بيتك (وثمَّة منحة متوفِّرة تساعدك في النفقات لو لم تكن قادرًا على تحملها)، فلن تنخفض فاتورة تكييف الهواء لديك وحسب بل ربما، ربما فقط، يأتي الفنان للرسم على جانب منزلك.

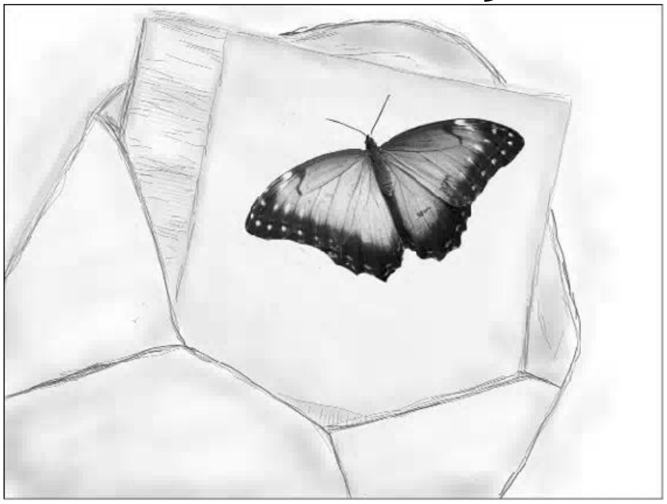

© 2013, Nina Miller / ASU, adapting content from 2005, Bibloq / Wikimedia Commons / Public Domain

بعد يومين أقيم احتفال لجمع التبرعات وحدث لرفع الوعي في فندق أمازوناس، وهناك عزفت فرناندا مع فرقتها القديمة. وضعت شفتيها على آلة الساكسفون ومع كل نغمة موسيقية صبَّت توقها الشديد للمطر، لرجوع العالم إلى ما كان عليه. تدفَّقت الموسيقى منها، صافية كالضوء، سلسة كالماء الجاري، وشعرت بالجمهور يتحرَّك مع الصوت، مع تنفسها. خلال الاستراحة استندت إلى الجدار الجانبي لخشبة المسرح، تشاهد أصابع سانتياجو وهي تعزف الأورج، اقترب منها نادل وناولها مظروفًا. فتحت

المظروف في فضول ووجدت بالداخل منشفة ورقية، مرسوم عليها فراشة أمازونية، وكان الرسم حيًّا لدرجة أنها توقَّعت أن تطير الفراشة خارجة من المنشفة الورقية. بحثت عنه بين الحضور لكن كان هناك أناس كثيرون. صدر صفير عن سوار معصمها. همست: «فراشة». وهي تشعر بأجنحة التغيير تخفق في الهواء الذي يملؤه الضوء من حولها.

«قد يتسبب في إعصار».

« ... لكن العلماء يعرفون في الوقت الحالي أكثر مما كانوا يعرفون منذ خمس سنوات. سنتحدَّث الآن إلى أحد الخبراء ...».

هلا أطفأت التلفاز؟ لا يمكنني أن أتحمَّل رؤية أي شيء عن العاصفة ... إنه البرنامج نفسه الذي عُرض صباحًا.

أشعر بالحزن الشديد لأنني سأروي هذه القصة. عليك أن تنتظر لحظة.

أنا حزين لأن جدي، الأستاذ، توفيَ. لم يكن جدي في الحقيقة لكنه كان يعاملني وكأنني حفيده. كنت أناديه داداجي. كان يسمح لي بالنوم في شرفة بيته على فراش صغير. كنت أشعر بالأمان هناك. كنت أنظف المنزل وأطهو الطعام له، وكان يتحدَّث معي ويخبرني عن كل شيء في الحياة. لقد علَّمني القراءة والكتابة. ومن مكان نومي كان باستطاعتي النظر عبر منحدر خفيض إلى القرية، قريتي.

هل تترجم ما أقول إلى الإنجليزية؟ هل هذا يعني أنني سأكون مشهورًا في الهند؟

أريد أن أساعد قريتي. أريد أن يعرف الناس عنها، رغم أنها مجرد قرية فقيرة لأبناء طبقة المنبوذين تستقر على أرض صخرية. أريد أن يعرف العالم أجمع أننا فعلنا أمرًا طيبًا.

دعني أخبرك عن قريتي. يبعد النهر عنَّا مسيرة عدة ساعات، لكن الفيضانات صارت أسوأ وأسوأ. العالم الماضي خلال هبوب الرياح الموسمية دخلت المياه إلى الأكواخ والحقول وأغرقت كل شيء سوى ما استطعنا حمله. الأرض التي توجد بها قريتنا صخرية، ولا تنمو المزروعات بها جيدًا. ليس لدينا حقول خاصة بنا في الواقع. أغلبنا يعمل في البلدة، أو نخدم في قرية سونجاون الكبيرة التي تبعد مسافة ميلين، التي ينتمي أبناؤها لطبقة راجبوت الأعلى مكانة. نحن نقوم بكل العمل القذر، حيث نكنس وننظف المراحيض وما إلى ذلك من أمور. أنا

محظوظ لأن الأستاذ جعلني أعمل لديه، إذ يعتني بي ويعاملني كما لو لم أكن من الخدم. إنه لا يهتم بشأن الطبقة التي أنتمي إليها رغم أنه هو نفسه من طبقة الراجبوت، إذ يقول إن هذه المنظومة آخذة في الاحتضار بالفعل في البلدات والمدن. كما يقول إن القوانين الحكومية تحمي الناس أمثالنا، لكني لا أدري بشأن هذه الأمور لأنه لو غضب أبناء طبقة الراجبوت حينها يمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤون بنا ولن يستطيع أحد أن يمنعهم. لكن الأستاذ كان من نوعية مختلفة، أقرب إلى تجسيد إلهي (ديفاتا). بل إنه سمح لي بأن أطهو طعامه، وكان يربِّت على رأسي استحساناً حين أؤدي دروسي جيدًا، وفي أوقات الاحتفالات كنا نتشارك طبقًا من الحلوى معًا.

أترى هذا الشيء الذي أرتديه حول رسغي، كالساعة؟ منحني الأستاذ إياه. لقد علَّمني استخدام الكمبيوتر، وهذا الشيء يشغله بحيث نتمكن من مشاهدة والحديث مع أشخاص من حول العالم. ذات مرة تحدَّثتُ مع رجل في مدينة تشيناي البعيدة، كان أمرًا مثيرًا. كان الأمر أشبه بالسحر لأن الرجل لم يكن يعرف لغة البوجبوري أو اللغة الهندية، وترجم الكمبيوتر كلماته وكلماتي بحيث يفهم أحدنا الآخر. كان صوت برنامج الترجمة غريبًا، ولم يكن الصوت الذي يترجم عني يشبه صوتي مطلقًا.

أكثر ما أحبه هو الموسيقى. في الصباح الباكر حين تغشى الشبورة النهر، أول ما أسمعه هو الطيور في أجمة نبات الجهنمية. وحين آتي بالشاي إلى الشرفة ونشرب أول أكوابنا، يمنحني الأستاذ آلة الطنبورة الموسيقية الخاصة به كي أضبطها. بعدها يبدأ في غناء «بايراف»، وهي ترنيمة صباحية. حين أستمع إليه أشعر وكأنني أصعد وأهبط سلسلة جبال مكوَّنة من الضباب والسحاب. أشعر أنني أستطيع الطيران. أغني معه، كما لو كان صوتي ظلًّا لصوته. يخبرني أن لديَّ أذنًا جيدة. ليس ذلك شبيهًا بنوعية الغناء التي نراها في الأفلام، بل هو شيء أعمق ينادي روحك. وحين أخبرت الأستاذ بذلك بدا مسرورًا وقال إن الموسيقى الطيبة تجعلنا شعراء. لم أفكِّر قط أن بمقدور أي شخص أن يكون شاعرًا.

من منزله كان بمقدوري أن أرى حتى النهر الواقع على مسافة بعيدة من القرية. في السنوات القليلة الماضية كنَّا نعاني إما من الجفاف أو الفيضان. في هذا العام يبدو أن الجفاف سيضربنا. دائمًا ما توجد صعوبة ما علينا التعامل معها، لكننا تغيَّرنا نحن أيضًا، منذ أن جاء الأستاذ وبدأ في العيش في منزله. كان بينه وبين أبنائه بعض المشكلات، ولم يكن ثمَّة توافق بينهم لذا كان يعيش وحيدًا، دون أحد إلى جواره سواي. كان هو وبعض الأشخاص الآخرين يعملون في قريتنا الفقيرة. كان هؤلاء من أبناء طبقة متدنِّية شأننا لكن كان بإمكانهم

القراءة والكتابة، وكانوا يعلمون كيف يجعلون الحكومة تمنحهم حقوقهم. لقد سافروا في أرجاء البلاد يخبرون قرى كقريتنا أن المناخ آخذ في التغيُّر، وأن علينا أن نتغيَّر نحن أيضًا وإلا فلن يُكتب لنا البقاء. لذا لدينا الآن مجلسًا للقرية وثمة ثلاث نساء ورجلين يتحدَّثون باسمنا جميعًا. لقد حل وقت جديد، وقت صعب، وقت صارت فيه الطبيعة ضدنا لأننا البشر بدلًا من أن نعاملها كالأم صرنا نعاملها كخادمة. إن معظم من يفعلون هذا موجودون في أمريكا وما شابهها من أماكن، لكنهم هنا أيضًا، في المدن الكبيرة. هذا أمر غريب لأننا في البداية كنا نظن أن هذه الأماكن هي الأفضل في العالم، بسبب ما كنَّا نراه على شاشات التلفاز، لكن أوضح الأستاذ أن العيش هكذا، دون أي مراعاة للطبيعة الأم، سيكلِّفنا الكثير. لماذا لا تعاقبهم الطبيعة الأم إذن؟ هكذا سألته ذات مرة. لماذا تعاقبنا نحن الفقراء، الذين لم نتسبَّب في المشكلة؟ تنهَّد الأستاذ وقال إن الطبيعة الأم تعاقب الجميع. لذا يسأله الناس طوال الوقت: ماذا عسانا أن نفعل؟ وهذا يسعد الأستاذ لأنه يقول إنه في وقت سابق كان أغلب الناس في منطقتنا يقبلون بنصيبهم وحسب، فعلى أي حال كان قدرهم منذ آلاف السنوات أن يعانوا. وهو سعيد لأننا نريد الآن أن نفعل شيئًا كي ننقذ أنفسنا ونجعل العالم مكانًا أفضل. ولو كان كل هؤلاء الأثرياء، وأبناء الطبقات الأعلى مخطئين طيلة هذا الوقت بشأن الكيفية التي ينبغي أن نعيش بها، ربما يكونون مخطئين بشأننا نحن أيضًا. ربما حان وقتنا أخيرًا.

لكن بوجو كاكو - الذي كفلني حين مات والداي - يقول إن توجيه أصابع الاتهام لن يفيد أحدًا. فحتى البيض يغيِّرون طريقة معيشتهم. والسؤال الآن: ما الذي يسعنا فعله من أجل شفاء الطبيعة الأم؟ كيف لنا أن يساعد بعضنا بعضًا كي نجتاز هذه الأوقات العصيبة التي حلَّت بنا؟ لذا في القرية يتناوب الناس في مراقبة الطقس حين يكون من المتوقَّع حلول طقس سيئ، كما يساعد بعضهم بعضًا بشكل أكبر، وثمَّة معلم يأتي إلى القرية مرتين أسبوعيًّا كي يعلمهم القراءة والكتابة. لقد أرسلوا باركي كاكي - القابلة - إلى المدينة كي تتدرَّب على يد طبيب، وذلك حتى تستطيع مساعدتنا على العيش بصحة أكبر. كان عليك رؤية وجهها حين عادت إلى القرية، كم كانت فخورة، لقد أتيحت لها فرصة مشاهدة الكيفية التي يعملون بها في المستشفى الكبير وقد عادت حاملة صابونًا ورديًّا للجميع. لدينا الآن مضخَّات يدوية ولسنا بحاجة إلى الشرب من مياه النهر. كل هذا حدث بفضل الأستاذ، وبفضل حب الناس لبوجو كاكو وباركي كاكي ودولاري ماي، رغم أن معظم الناس يخافونها بسبب حدة طبعها. إن الناس يعاملون الأستاذ ويعاملونني وكأننا ضيفان ملكيان متى ذهبنا إليهم في زيارة. إن الأستاذ يَدْرُس الناس - علم الأنثروبولوجيا - ورغم أنه متقاعد فهو لم يتوقَّف عن العمل. إنه يجوب القرى المحلية مستندًا إلى عكَّازه - إذ لديه ساق متضرِّرة بشدة - ويخبر الناس عن العالم.

وبهذه الوسيلة عرفنا أن العالم يزداد احترارًا، وحتى البيض يشعرون بالحرارة المتزايدة في مدنهم بسبب كل تلك السيارات وأجهزة التلفاز. لكن ليس هذا كل شيء. أنت تعلم أن هناك شركة كبيرة لتعدين الفحم تريد شراء كل الأراضي من حولنا، أليس كذلك؟ يغضب الأستاذ بشدة كلما ذُكرت شركة الفحم أمامه، يغضب لدرجة أنه لا يستطيع التحدُّث بالكاد. إن الشركة تحرق الفحم والنفط اللذان يجعلان العالم أكثر احترارًا، ويجعلان الطبيعة الأم غاضبة للغاية منا. يقول الأستاذ إن الحكومة لا تبحث عن حلول لاستخدام أشياء أخرى، بل بدلًا من ذلك تستخرج المزيد من الفحم وتشيد المزيد من مصانع الفحم حتى يستطيع أبناء المدن الحصول على الكهرباء والسيارات وأجهزة التلفاز، وهو ما يسبب المزيد من الاحترار بدوره. يبدو الأمر لي أشبه بما يحدث حين يثمل السكِّير، فحينها يريد أن يواصل شرب الخمر. لذا ربما كانت الكيفية التي يعيش بها أغنياء العالم أشبه بالمرض، حيث لا يستطيعون منع أنفسهم من العيش بهذه الطريقة. ورغم أن قريتنا صغيرة وفقيرة وصخرية فإن معظم أبناء قريتي لا يريدون التخلِّي عن أراضيهم التي ورثوها عن أسلافهم لصالح شركة الفحم، مع أن الحكومة قد وعدت بمنح تعويضات. إن هذه الرقعة الصغيرة من الأرض هي كل ما نملك. لكن بعض الشباب يظنون أن المال أمر طيب، وأن بإمكانهم الذهاب إلى المدينة الكبيرة وتحقيق النجاح هناك. أخبرهم الأستاذ أن هناك بالفعل أشخاصًا كثيرين يحاولون تحقيق النجاح في المدينة، لكن من وراء ظهره يتذمَّر الشباب ويتحدَّثون عن الحياة الطيبة التي من الممكن أن يحظوا بها. في الغالب هم أشخاص مثل الابن الأكبر لجينجور كاكا، الناقم على الدوام. إن قرية الراجبوت - سونجاون - لا تحب فكرة التنقيب عن الفحم هي الأخرى، وقد أقنعهم الأستاذ بأن يسمحوا لنا بالانضمام إليهم في إرسال وفد احتجاجي إلى البلدة، وإن كان علينا أن نحافظ على ابتعادنا عنهم بمسافة. لقد جلس الأستاذ معنا وهاجم شركة الفحم هجومًا شديدًا. كان عليك أن ترى كم كان الراجبوت غاضبين! إنهم يحترمون الأستاذ من أجل تعليمه والطبقة التي ينتمي إليها، رغم أنه لا يهتم كثيرًا لأمر الطبقات، بيد أن طرقه تغضبهم. ولاحقًا، حين كنَّا نسير عائدين، أخبره أحدهم: «لو لم تكن رجلًا كبيرًا، ومتعلمًا أيضًا، لكنت ضربتك بعصاي لأجل ذلك المثل الذي تضربه لأطفالنا». أعلم هذا، لأنني سمعته. كان هذا رانبير سينج. إنه الرجل صاحب الشارب الأضخم والعصا الأغلظ، والأشد في حدة الطبع. تتغيَّر حالته المزاجية بسرعة كبيرة، والكل يخشاه. بل إن لديه أسلحة نارية. وقد قال الأستاذ بهدوء إنه لو فعل رانبير سينج هذا مع كل راجبوت في المدينة لم يأبه لقيود الطبقة التي ينتمي إليها، فسينفد مخزونه من العصي سريعًا.

في اليوم الذي وقع فيه ما وقع، كنا متجمِّعين في الصباح حول الراديو نستمع إلى البرنامج الموسيقي الصباحي المعتاد لأن الأستاذ كان يريد أن يسمع

ترنيمة جديدة كانت تُعزف. كانت هناك سحب في السماء لكن لم تكن ثمَّة علامة على المطر. فجأة سمعنا صوتًا هادرًا، ثم صوت طقطقة من الراديو وقال المذيع شيئًا عن تجمع غير معتاد للسحب. صار صوت الرياح قويًّا لدرجة أننا لم نعد نستطيع سماع صوت الراديو. أظلمت السماء، لكن ليس فوق النهر. كان هناك صوت طرق على رؤوسنا: بَرَد! انتابني شعور قوي بالإثارة، إذ لم يسقط البَرَد على قريتنا إلا مرة واحدة طوال عمري. جريت إلى الشرفة كي أجمع بعضه، وحينها رأيت العاصفة.

لم يسبق لي أن رأيت شيئًا كهذا من قبل قط. رأيت دوامة هوائية عملاقة تدور في الحقول الواقعة خلف المنزل، وكأنها غطاء مصنوع من السحب والرياح. بدا القلق على وجه الأستاذ، وقال إنه سمع بحدوث أشياء كهذه في مناطق أخرى، وأن هذا يسمَّى «إعصارًا». قال إننا سنكون على ما يرام في منزل قوي كهذا، لكنه حدَّق على مسافة نحو قريتي. كان الناس يخرجون من منازلهم ويستعدون للسير إلى سونجاون أو غيرها من البلدات استعدادًا ليوم العمل الطويل.

قال لي: «بولا، سأبحث على الكمبيوتر عما يجب علينا فعله. استعد للجري نحو القرية وتحذير الناس».

- «دادجي، هل ستكون بخير؟» إنه رجل عجوز ضعيف. لكنه دفعني بعجالة قائلًا إنه سيكون بخير حال. كان هذا آخر ما سمعته منه.

عدوت نحو القرية. كانت الرياح قوية ورأيت غرابًا في السماء يكافح من أجل الحفاظ على سيطرته على جناحيه. هوى إلى الأسفل في قوس كبير نحوي، وهو يخفق جناحيه، وضربني في معدتي. أمسكته وضممته إلى صدري، كان غرابًا كبيرًا. ظننت أنه ميت لكني لم أستطِع أن ألقيه بعيدًا وحسب. لذا ضممته إلى صدري وركضت.

اكفهرَّت السماء وعوت الرياح في أذني. نظرت خلفي إلى المنزل. كان الإعصار قد ولَّى، وكانت الشرفة مظلمة فلم أستطِع رؤية الأستاذ. رأيت الشاشة المضاءة للكمبيوتر تختفي حين دخل إلى المنزل، وفوقنا بدا الإعصار كوحش مخيف. لم أكن خائفًا بهذا القدر في حياتي. بعد ذلك صدر صفير عن سوار معصمي، وسمعت صوت امرأة يقول: «اعثر على أرض منخفضة، أرض منخفضة». ثم: «اركض! اركض!» أردت أن أرى ما إن كان الأستاذ بخير، لكنه كان قد طلب مني تحذير القرية. لذا ركضت نحوها.

ثمة وادٍ ضيق على مسافة قريبة من القرية، يقول العجائز إنه شَقّ انفتح في الأرض خلال أحد الزلازل. في الرياح الموسمية يمتلئ هذا الوادي بالماء، لكنه كان الآن جافًّا، مليئًا بالشجيرات الشوكية والصخور. تحب الماعز المكوث هناك. كان هذا هو المكان المنخفض الوحيد الذي خطر ببالي، وقد بدأت في الصراخ وأنا أقترب منه محذِّرًا الناس كي يتوقَّفوا عن التحديق في بلاهة، ومحاولًا أن أقودهم إلى الوادي. لم يكن بمقدوري سماع صوتي بسبب الرياح، لكن دولاري ماي بدأت تصرخ في الناس وتجميعهم وأشارت إلى الوادي. تحرَّك الجميع بسرعة، إذ كانوا يخشون حدة طبعها. بل كان هناك شخص يحمل جوتي ما، والدة جوبيند كاكا العجوز، على ظهره، وكان الأطفال المذعورين يمسكون بأيدي بعضهم بعضًا، وكان البعض يحمل الأطفال الرضع. من خلفي تراقص الإعصار عبر الحقول، مقتلعًا كل شيء في طريقه. شق طريقه عبر الأرض. ورأيت أناسًا يندفعون نحو الوادي، بعضهم يحملون صُررًا معهم. كان هناك الكثير من الصراخ لكن كان الجميع يتحرَّكون. فكَّرت: لا حاجة إليَّ هنا، كان بإمكاني البقاء مع الأستاذ. خطر لي أن أرى إن كان بإمكاني الالتفاف حول الإعصار كي أصل على منزله. شققتُ طريقي عائدًا عبر الحقول، مُراقبًا العاصفة بحذر شديد.

في منتصف الطريق إلى هناك رأيت الطفلين؛ الابنة الكبرى لرانبير سينج وابنه عائدين من المدرسة على ممشى بين الحقول. في المعتاد يصطحبهم شخص من سونجاون إلى البلدة على دراجة، لكنهم كانوا اليوم يسيرون عائدين إلى المنزل. الفتاة أكبر سنًا مني، عمرها نحو الرابعة عشر، والفتى عمره نحو خمسة أعوام. ذات مرة ضرب والدها ابن بوجو كاكو لأنه قال إنه - كانكاريا بهاي - جرؤ على أن يرفع عينيه وينظر إلى ابنته. قبل أن أولد حدثت مشكلات لا أحد يتحدَّث عنها وجاء الراجبوت إلى قريتنا وحرقوا بعض الأكواخ، ومات ثلاثة أشخاص. هذا ما أعنيه حين أقول إن بمقدورهم فعل أي شيء بنا. تردَّدتُ لأنني لو قلت للطفلين أي شيء لا يعجبهما، فمن الممكن أن يجلدني والدهما ويحرق القرية.

بدا الطفلان مذعورين. كانت الفتاة تحاول أن تستخدم هاتفها المحمول لكنها فقدت الأمل ووضعته في حقيبتها المدرسية وقد بدا عليها الضيق الشديد. نظرت إليَّ ثم أشاحت ببصرها، وقالت مخاطبة شقيقها في إلحاح: «تعال» ثم جذبت ذراعه. كان متعبًا وعلى وشك البكاء.

فكَّرت: لماذا عليَّ أن أساعدهما؟ لكني أشرت إلى الإعصار الهادر خلفنا وقلت: «أختاه، هذا طوفان شديد. أخبرني الأستاذ أن علينا الاختباء. نحن جميعًا في الوادي القريب من قريتي. يمكنني اصطحابكما إلى هناك».

حرصتُ أشد الحرص على التحلي بالتهذيب، فأنا لا أريدها أن تتهمني لاحقًا بعدم التهذيب وأن توقع القرية كلها في المتاعب. تردَّدت الفتاة، لكن الصبي قال: - «لماذا تحمل غرابًا ميتًا؟».

حسمت الفتاة أمرها وقالت: - «أرني هذا المكان».

تبعاني كلاهما. كانت الأوراق والأغصان الصغيرة تتطاير، ورأيت السقف المصنوع من القش يُقتلع من على أحد المنازل ويختفي بعيدًا. طار قالب طوب في الهواء نحونا وأخطأنا بمسافة شبرين لا أكثر. لم أجرؤ على النظر إلى الوراء، إذ كنا نقطع الحقول عدوًا. تعثَّر الصبي الصغير وأعانته الفتاة على الوقوف، ثم تبعتني وهي تلهث. كنا سنعدو بشكل أسرع لو كنت أحمل الصبي، لكنها لم تكن لتسمح لفتى من طبقة متدنِّية مثلي بأن يلمس شقيقها. بعد ذلك تعثَّرت هي نفسها، وقالت: «انتظر!» سمعتها بصعوبة وحين نظرت إليها كانت تبكي. دفعت شقيقها نحوي وقد تحوَّل بكاؤها إلى نحيب. كان شقيقها يبكي هو الآخر.

- «أتريدين مني أن أحمله؟ سيكسر والدك رقبتي!».

كانت تنتحب وتهز رأسها، لكن كان الإعصار قريبًا للغاية، لذا حملت الصبي على جانبي وناولتها جثمان الغراب الذي لا يزال دافئًا.

قالت عابسة: «لن أمسك هذا».

قلت لها وقد فقدت أعصابي: «إذن احملي شقيقك. هذا الغراب هو تجسيد الإله شاني، وعلينا ألا نزدريه. ألا تربون الحمام؟».

أبدت اشمئزازها لكنها وضعت الغراب في منديلها وركضنا بقية الطريق إلى أن وصلنا إلى الوادي.

كان الجو مظلمًا بالداخل، لأن الأجمات الخفيضة الشوكية التي تنمو على الحواف العليا للوادي كانت تحجب السماء. عوت الرياح فوق رؤوسنا وسمعنا أفظع الأصوات، كما لو كان العالم يتمزَّق شر ممزق.

ثم ساد الصمت.

تبادل الجميع النظر. رأى بوجو كاكو والآخرون أنني كنت أحمل ابن رانبير سينج بين ذراعي، وأن ابنته كانت تقف إلى جواري، ممسكة الغراب الميت

في منديلها، بينما عيناها متسعتان من الخوف.

قال أحدهم، ربما كانت باركي كاكي: «بولا، ما الذي فعلته؟» وشهق الجميع.

قلت: «لم أستطع تركهما يموتان». تملَّص الفتى من يدي وذهب إلى شقيقته. ناولتني الفتاة الغراب وضمت شقيقها إليها والدموع تغمر وجهها.

قال بوجو كاكو: «سنرافقك إلى المنزل. تعالي، لا يوجد سبب للفزع».

وهكذا رافق الحشد الطفلين إلى سونجاون؛ إذ لو ذهب بوجو كاكو بمفرده ربما سيكون عليه أن يتحمَّل ثورة غضب رانبير سينج وحده. لم تكن ثمة سبيل إلى معرفة هل سيكون ممتنًا أم غاضبًا، لذا قالت باركي كاكي إنها ستذهب، ثم دولاري ماي (لكن كان علينا أن نرفض طلبها لأنها لو فقدت أعصابها فقد تسب الآلهة نفسها، وسيضر هذا بنا جميعًا.) وهكذا ذهب نحو خمسة عشر شخصًا.

صعدنا جانب الوادي. كانت القرية قد سُوِّيت بالأرض، وقد تناثرت القدور والمقالي في أرجاء الحقول، وكذلك قوالب الطوب. كانت الشجرة القوية المنتصبة منذ مائتي عام عند أحد التقاطعات على الطريق إلى سونجاون قد اجتُثت اجتثاثًا، وكان الطريق مغطًّى بفروع الشجر الكبيرة. اختفت منازلنا. قد تقول: وما قيمة المنزل المصنوع من الطمي والقش؟ لا شيء. لكن لشخص فقير كان هذا هو منزله. لقد صنعنا منازلنا بأيدينا، ونسجنا الأسقف القشية بأنفسنا. إنه المكان الذي تعيش فيه أحلامنا. حين يكون لديك القليل، فكل ما تملكه يصير ثمينًا. بكينا وفي الوقت نفسه شكرنا الآلهة لأنها أنقذت حياتنا.

لم أذهب معهم. كان لديَّ واجب نحو معلمي، وكان ينمو داخلي خوف شديد. ذهبت إلى المنزل أعلى التل، وفي منتصف الطريق ارتعش الغراب بين ذراعي، ورأيت أنه كان دائخًا وحسب، وليس ميتًا. توقَّفت في الحقل ووجدت بركة صغيرة تكونت بفعل ذوبان بعض البَرَد، وتركت بضعة نقاط من الماء تنساب من أصابعي إلى حلقه. فجأة بدأ الغراب يقاوم وخفق بجناحيه، ففتحت يدي وتركته يطير. كان غير متزن في البداية، لكنه صار أقوى مع التحليق، إذ دار دورتين حول رأسي ثم انطلق مبتعدًا. بعدها ذهبت إلى ما تبقَّى من المنزل.

كانت الأبواب والنوافذ قد اختفت، وأمكنني رؤية السماء من السقف، كما تحطم جداران. فكرت: هذا منزل خرساني، كيف لهذا أن يحدث؟ كيف يمكن هدم الطوب والملاط هكذا؟ كان ثمة غبار في الهواء، وهو ما جعلني أسعل. تناثرت صفحات منتزعة من الكتب في كل مكان وكأنها أوراق شجر، ورأيت أن جهاز الكمبيوتر الخاص به سقط أسفل المكتب وكان على ما يرام.

تساقطت قوالب الطوب بينما كنت أتفقد المنزل، ثم سقطتُ أنا أيضًا، متسببًا في كسر ذراعي وإيذاء ساقي. ولهذا السبب أنا في المستشفى.

كنت أنا من عثرت على الأستاذ، وكان قرب نافذة حجرة الرسم أسفل كومة من الحجارة.

كان جدي، بصرف النظر عما يقوله أي شخص عن الطبقة والدم. لقد منحني كل شيء أملكه، لقد كان إلهًا بالنسبة لي. كنت على استعداد أن أمنحه حياتي، لكن بدلًا من ذلك كان هو مَن رحل. قال إنني سأكبر وأكون طالبًا ومُنشدًا؛ شخصًا يستطيع تغيير العالم. صبي من طبقة دُنيا مثلي، لم يسبق لأحد أن قال لي هذا. أقول لك: إنه جدي، ولا يهمني ما يقوله الناس.

جاء أبناؤه من أجل استعادة الجثمان. لم يكن مسموحًا لي بالوجود في الطقوس الأخيرة، لكني أعلم، وهو يعلم، أنه من المفترض أن أكون هناك. كان يقول لي إنك لو نظرت إلى الأشياء من الظاهر فقط فلن تعرف طبيعتها الحقيقية. فعليك أيضًا أن تستخدم عين عقلك. لقد كان ينظر إليَّ بعين عقله. لقد كان جدي، والآن قد رحل.

هذا هو الكمبيوتر الخاص به على الطاولة. لم يسأل أبناؤه عنه.

لم يأتِ أحد لرؤيتي، وأشعر بالذعر الشديد.

ماذا تقول؟ نصف قرية سونجاون دُمر؟ هذا أمر رهيب. مات سبعة أشخاص.

أسعدني أن طفلا رانبير سينج تحدَّثا عنَّا حديثًا طيبًا، كان شعورًا غريبًا عليه أن يكون مدينًا لنا.

في وقت مبكر من اليوم كان هناك برنامج تليفزيوني عن الإعصار استضافوا فيه خبيرًا، والذي قال إنه رغم أن الإعصار كان قويًّا، فإنه كان حميدًا بشكل ما. أعتقد أنني أدرك ما يعنيه. فقبل مولد الإعصار يكون مجرد خليط من الرياح والسحب، ولا يحتاج إلا للمسة بسيطة هنا وهناك كي تتحوَّل السحب والرياح إلى وحش مريع يمكنه تدمير البيوت. وحتى بعد تكوُّنه لا يكون بإمكانك أن تعرف إلى أين سيتجه، لأنه سريع التأثر للغاية لدرجة أن من شأن ورقة شجر على شجرةٍ ما، أو زفرة عامل أجير نائم في الحقل، أن تقنعه بالذهاب في هذا الطريق بدلًا من ذاك.

حين أغادر المستشفى سأساعد في إعادة بناء قريتي. سوف أجمع كل صفحات كتب جدي المتناثرة في الحقول. أتخيَّل أنني سأجد خواطر عالم أو فيلسوف، أو كتابات شاعر، ملتصقة بأفرع الأشجار، أو تطير وسط الرياح رفقة الغبار. سوف ألتقط كل صفحة أجدها وأجمعها معًا.

عليَّ أن أعرف كيف أواصل التعلم. كان جدي ينوي تعليمي حتى أكون رجلًا متعلمًا مثله حين أكبر. كيف للإعصار أن يكون قويًّا ورهيفًا في الوقت عينه؟ كيف نخبر الطبيعة الأم أننا آسفون؟ كيف نمنع شركة التعدين التي تريد الاستيلاء على أرضنا؟ اطبعوا هذه الكلمات في صحيفتكم رجاءً، فلا يمكننا أن نسمح لهم بالتعدين وحرق المزيد من الفحم، لأن هذا يدمر العالم. أرجو أن تخبروا الأشخاص المهمين في مدن مثل دلهي والمناطق البعيدة مثل أمريكا. إنهم لن يهتموا لأمر شخص مثلي، لكن اسألوهم لو أنهم يهتمون لأمر أبنائنا. لقد رأيت بالأمس أنه ليس الفقير وحده هو من سيعاني في هذا العالم الجديد الذي نصنعه. أخبروهم أن يتوقفوا.

كنت أشاهد الغربان من النافذة طوال فترة ما بعد الظهيرة. كانت تحط على عتبة النافذة وتنعق. يقول العجائز إن الإله شاني غمرني بنعمته بسبب الغراب الذي أنقذته. الكل يخاف الإله شاني لأنه يجلب لنا أوقاتًا عصيبة. لكن الغربان لا تنسى، وهي تخبر بعضها بمن هو الصديق، وربما ستساعدنا الغربان، فهو عالمها هي الأخرى.

لا يصيبني التعب مطلقًا. ذات يوم فقدت جدي، وخبأت قومي من الإعصار، وأنقذت طفلين من أطفال الراجبوت، وصرت صديقًا للغربان.

حدث أمر غريب بعد العشاء. كنت نصف نائم، وسمعت امرأة تقول بحزن: «ما الذي عليَّ فعله كل أجلب المطر؟» ثم رأيت أن هذا ليس حلمًا، لأنه كانت هناك امرأة جالسة إلى شاشة الكمبيوتر، امرأة أجنبية. فكرت أنها بالتأكيد واحدة من الأشخاص الذين اعتاد الأستاذ التحدث معهم. بدت حزينة ومتعبة. أخبرتها أن عليها الغناء للسحب، أن عليها الغناء لاستجلاب المطر. بين سماع الراديو وحضور دروس جدي تعلمت قليلًا من الترنيمة الجالبة للمطر. غنَّيتُ سطرًا أو سطرين لها قبل أن ينقطع الاتصال.

أخبرني جدي ذات مرة أن الصوت مجرد ارتجافة في الهواء، وما الأغنية إلا ارتجافة تنطلق من الروح إلى الهواء، ومن ثم إلى آذان العالم. إن الإعصار اضطراب في الهواء، لكنه مثل الزلزال. ربما هي أغنية الأرض المكروبة، الطبيعة الأم. ذات يوم سأؤلف أغنية كي أهدِّئ روْعها.

في تكساس

... كان ذلك أحد الأيام التي لم يكن زوج دوروثي كارترايت ليسمح بها. ألم يحدث منذ عام ونصف العام أن غضب بشدة بسبب موجة الحرارة التي ضربت وقت الكريسماس لدرجة أنه شغَّل مكيف الهواء بأقصى طاقته إلى أن صار عليها أن ترتدي كنزة صوفية؟ ومع ذلك فقد شغلوا نيران المدفأة التقليدية ليلة الكريسماس دون أن يأبهوا بالطقس. كان اليوم بعيدًا عن أعياد الكريسماس، إذ كانوا في أحد أيام شهر مارس، لكن كان الطقس أشد حرارة مما ينبغي. كان ذلك أحد الأيام التي كان روب ليشغِّل فيها مكيف الهواء ويغلق النوافذ. كانت المنازل المغلقة دائمًا ما تشعرها برهاب الأماكن المغلقة، رغم أن منزلها القديم كان يمتد على مساحة تزيد عن أربعة آلاف قدم مربع، وكان يسكنه هما الاثنان فقط بعد أن كبر ولدهما، مات، وغادر المنزل. لكن روب توفي بأزمة قلبية منذ أكثر من عام مضى، وكانت دوروثي تعيش في شقة صغيرة من غرفتين في منشأة لرعاية المسنين، وكان بمقدورها فتح النوافذ لو رغبت في ذلك. فتحت النوافذ بالفعل وشغلت المراوح وتفقدت الكعكات الصغيرة التي تخبزها في الفرن. كان النسيم خفيفًا، وكانت شجرة الماجنوليا الكبيرة في المرج الأمامي تلقي بظلال كثيفة حتى إن المرء يظن أن الليل قد حل مبكرًا. رتبت المقاعد في غرفة المعيشة للمرة الخامسة ونظرت إلى الساعة. سيصلون بعد خمس عشرة دقيقة.

بينما كانت تخرج الكعكات من الفرن دق جرس الهاتف، فكادت أن تسقط الصينية. وضعت الصينية بيدين مرتجفتين على الطاولة وأمسكت الهاتف. كان كيفن هو المتصل.

- «جدتي! خمِّني من أين يتصل حفيدك المفضل؟».

كان يظهر المرح بتلك الطريقة المصطنعة التي يكون عليها حين يكون متضايقًا. وهو ما يعني ...

- «أنا في مصحة علاجية، وهذه المرة سأقلع إلى الأبد».

قالت: «بالطبع يا عزيزي». من ذا الذي سيصدق الفتى بعد أن دخل المصحة وغادرها ست مرات خلال عامين؟ تذكرت غضب روب المكتوم في المرة الأخيرة التي جاء فيها الفتى إلى هنا. كان حفيدها جانحًا، وكانت هي عاجزة وغير ذات نفع. منذ يومين شاهدت برنامجًا على شبكة التلفاز العامة عن البشر الأوائل، وكيف أن الجنس البشري لم يكن ليُكتب له البقاء من دون كبار السن

- بخلاف الآباء والأمهات - الذين ساعدوا في تنشئة الصغار ونقل معرفة الأجيال السابقة إليهم. كان للجدات على وجه الخصوص أهمية كبيرة.

هذا أمر طيب، لكن في عصر الكتب وأجهزة الكمبيوتر وما إلى ذلك، من كان يحتاج الجدات؟ كان العجائز يعيشون في منازل للمتقاعدين، أو في منازل كبير خالية على هامش المجتمع، يشغلون أنفسهم بأي شيء وينتظرون الموت. لقد تغير الحال. لم يكن بمقدور أحد مساعدة كيفن. أمسكت حافة الطاولة بيدها الحرة وقد اعتمل ألم حاد في صدرها، وللحظة شعرت بالدوار.

قالت: «سأرسل لك بعض الكعكات» كل ما كانت تستطيع فعله لمن تحبهم هو تقديم الطعام لهم، كما لو كان من الممكن حل مشكلات العالم ببعض السكر والزبد والشوكولاتة. ودَّعته على الهاتف وهي تشعر بالقنوط.

كان قد أرسل إليها سوارَ معصم برتقالي اللون، وكان جميل الشكل. كان مرصعًا بأزرار بيضاء تشبه المجوهرات والتي كانت تمكنها من التواصل مع حاسبها الدفتري الجديد (وهو هدية من ابنها) بلمسة واحدة. نظرت إليه وفكرت كم كان لطيفًا من كيفن أن يحضر لها هدية. مسَّت أحد الأزرار فأضاء حاسبها الدفتري، وأظهر صورة امرأة ترتدي بذلة غوص تؤدي عملًا ما في مياه زرقاء مظلمة، بينما صوت إلكتروني رفيع أشبه بالشخصيات الكارتونية يقول شيئًا عن المياه القطبية الباردة ويكرر اسمًا: د. إيرين آرياك، إيرين آرياك. بالتأكيد كانت قد سمعت الاسم في برنامج ما من قبل. كانت د. إيرين عالمة تعمل في المناطق القطبية، ويا له من عمل خطير يقوم به المرء وسط البرد والظلام. قالت: «باركك الله، خذي حذرك هناك، إنني أصلِّي من أجلك». قال الصوت الكارتوني: «أشكرك سيدة كارترايت!» ثم أظلمت الشاشة. تساءلت دوروثي ما إن كانت قد سمعت ما سمعته فعلًا. حسنًا، كان ذلك عالمًا جديدًا بكل تأكيد.

دق جرس الباب بينما كانت تضع الكعكات على طبق. مرت بيدها على شعرها وهي تنظر في المرآة الصغيرة البيضاوية إلى جوار طاولة الطعام الصغيرة (كان أحمر الشفاه مضبوطًا)، ثم اتجهت صوب الباب.

كانوا جميعهم هناك، يبتسمون. قالت ريتا، التي كانت تعقص شعرها الأبيض غير المصبوغ في ضفيرة باستخدام شرائط بألوان قوس قزح (كان من شأن روب أن يراها فاقعة): «كم هو لطيف منك أن تستضيفي الاجتماع يا دوروثي!» ثم جلست على المقعد المريح ذي المسندين. جلس الآخرون، ماري آن وجيرتا ولورانس وبراد وإيفا وثلاث نساء لا تعرفهن، في غرفة المعيشة الصغيرة. قدمت دوروثي الكعك وصبت الشاي والقهوة بينما كانت تشعر بالارتباك، وكأنها زوجة جديدة تستضيف أول حفل عشاء لها. وبخت نفسها قائلة: اهدئي، انت تعرفين هؤلاء الأشخاص منذ ثمانية أشهر، وقد استضفت في حياتك من الحفلات أكثر مما تستطيعين التذكر! كان الأمر يتعلق بإعادة اكتشاف نفسها، بالخروج من نطاق راحتها وتعلُّم أشياء جديدة. ما كان روب ليسمح بدخول هؤلاء الأشخاص إلى المنزل، إذ كان ثمة شيء غير مريح في انفعالهم الشديد. كان روب ليقول: «هيبيون عجائز». كان ليخبرها بمكمن الخطأ في كل شخص منهم، وما كانت لتدعوهم إلى منزلها مجددًا. ذات مرة دعت مجموعة من الأمهات لشرب الشاي، وحدث أن عاد روب إلى المنزل مبكرًا. حياهن في تهذيب ثم صعد إلى الدور العلوي. كانت الأمهات متضايقات بسبب فصل ناظر المدرسة الابتدائية، ورفعت واحدة منهن صوتها على نحو لافت للنظر كي تشدد على وجهة نظرها. قرع روب باب غرفة النوم في الدور العلوي بشدة لدرجة أن الصدى تسبب في رجرجة النوافذ. لم تجرؤ دوروثي على دعوة تلك النسوة إلى المنزل مجددًا.

جلست ساكنة وتركت المحادثة تنساب من حولها، محاولة أن تتجاهل شعور الضيق المعتمل في صدرها، وقد صار من العسير عليها أن تبقي الابتسامة على وجهها.

قالت ريتا: «حسنًا، لقد سارت حملة توفير الطاقة على نحو أفضل مما توقعنا. لقد توقفت الإدارة عن التذمُّر، ووفَّرنا عليهم 14504 دولارًا في فواتير الكهرباء سنويًّا!».

- «المصابيح الجديدة والمزيد من العزل، وتقليل شدة مكيف الهواء حتى لا نصل إلى درجة التجمُّد في منتصف الصيف، ومجموعة من ألواح الطاقة الشمسية ... من كان ليفكر في هذا؟».

- «لقد انخفضت انبعاثات ثاني أكسيد الكربون بمقدار ... لنر ... 18 بالمائة ...».

- «إذا ضاعفنا تلك الأفعال الفردية مليون مرة، أو مليارًا، فسنحدث فارقًا على مستوى العالم ...».

كانت المتحدثة واحدة من النساء الجديدات، امرأة شقراء ذات عينين شديدتي الزرقة. لم تكن من مجمع الشقق هذا، وقد نسيت دوروثي بالفعل اسمها. والآن كانت المرأة تبتسم لها ببعض التردد.

- «سيدة كارترايت، نحتاج إلى حشد الناس من أجل الاحتجاج. إن خط الأنابيب قادم إلينا. إن أرض جانا هلمهولتز تتعرض للانتهاك، فقد حصلوا على أمر من المحكمة بشق طريق عبر غاباتها من أجل خط الأنابيب، وسننظم مظاهرة احتجاجية. هل يمكننا الاعتماد عليكِ؟».

- «نعم نعم، بالطبع» هكذا قالت دوروثي وهي تشعر بالحمق، إذ لم تكن تدري ما الذي وافقت عليه.

- «... إنهم يقولون إن تكسير التربة بحثًا عن النفط الصخري سوف يقلل انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، لكن هل تصدقين أنهم يبنون طرحهم هذا وهم متجاهلون بالكامل انبعاثات الميثان الناتجة عن عمليات التكسير؟».

- «الميثان أسوأ عشرين مرة من ثاني أكسيد الكربون ... إنه يشوي الكوكب ...».

- «اعتراضي على التكسير مبني بالكامل على أساس آخر، فتقليل مقدار الفحم المحروق هنا يعني انخفاض أسعار الفحم، ومن ثم يتم التنقيب عنه في مكان آخر، وبذا يرتفع استهلاك الفحم في مكان آخر لو حدث التكسير هنا في الولايات المتحدة، إن هؤلاء الأغبياء لا يدركون معنى كلمة «عالمي» ...».

- «أجل، لكن هناك قضية أخرى، لقد أخبرته بذلك، أخبرته لأنك تعمل في شركة تكساس للنفط والغاز، حاول أن تتمتع بعقل منفتح بحق الجحيم، أخبرته أن يفكر في التحوُّل إلى الطاقة النظيفة. إن التكسير الصخري بحثًا عن النفط والغاز يعني وحسب تأجيل ما علينا القيام به. كما لو أن عليك الإقلاع عن تعاطي المخدرات، لكنك تقلع عن الكوكايين ... كي تتعاطى الأمفيتامين!».

ما كان روب ليوافق على استخدام هذه اللغة المسيئة. أخبرت دوروثي نفسها أن عليها التوقُّف عن التفكير في روب. لقد استخدم روب الكلمات النابية كما يحلو له، لكنه لم يكن يتحمل رؤية امرأة تستخدمها. في المعتاد كان

يقول إن هذا يعني أنهن نساء وضيعات الشأن، أو يحتجن إلى المضاجعة. قالت لنفسها: توقفي عن التفكير في روب.

- «حسنًا سيدة كارترايت؟».

تنحنحت. ما الذي كانوا يتحدثون بشأنه؟

قالت: «لا أدري». ما الذي بإمكانها فعْله؟ إن حياتها خلفها بالفعل ... شعرت بموجة مفاجئة من التعاسة التامة.

- «ما الذي بإمكاني فعله؟ أنا لست مدربة ...».

قالت ريتا بصوتها الهادئ: «دوروثي، لست بحاجة إلى أي تدريب من أجل هذا». كانت ريتا امرأة معتدة بنفسها، ترى العالم من منظورها وحده، وقد قالت لها إيفا ذات مرة بلهجة منتقدة: ريتا، إن الكون في نظرك يدور حولك أنت، أين مساحة الرب؟ نشب بينهما شجار عنيف بسبب هذا، لكنهما بقيتا صديقتين. كان روب يقول دومًا إن بمقدورك فقط عقد الصداقات مع الأشخاص الذين يفكرون مثلك.

- «عزيزتي، هناك أشخاص متقاعدون في كل أرجاء البلاد مثلك ومثلي ممن يهتمون لأمر العالم الذي يعيش فيه أحفادنا...».

- «... اللعنة، الكل يظن أننا عجائز رجعيون، بقايا لا نفع لها، لكني أقول إننا مصادر لم تستغل بعد، ثورة على وشك الاندلاع ...».

أومأ لورانس («ليس لاري») وقال: «نحن نمتلك الخبرة، والمعرفة بالطبيعة البشرية يا دوروثي، فقط حين تكونين على طبيعتك يمكنك إحداث الفارق ...».

وجدت نفسها توافق على تجميع خمسة أشخاص وأن تذهب إلى مكان الاجتماع بعد ثلاث ساعات. اتصلت جانا هلمهولتز كي تقول إن البلدوزرات ستكون عند منزلها كي تقتلع الأشجار التي غرسها جدها، وأنها كانت بحاجة إليهم هناك. ثلاث ساعات! (حسنًا، إن شركة التكسير لن تنتظر حتى تتحرَّك في الوقت الذي يلائمنا يا عزيزتي، أيضًا تخيلي لو كنتِ في منتصف يوم عمل، وقتها لن يكون بمقدورك القيام بالأمر. لكننا نمتلك الوقت والتصميم! عليكِ بالحضور وإلا لن تكوني بحق جزءًا من المجموعة! كانت هذه كلمات إيفا، مدرسة الرياضيات المتقاعدة في مدرسة باين تري الابتدائية.) بعد أن غادر الجميع وجدت دوروثي نفسها تضع الأطباق في حوض المطبخ وهي في حالة

من القنوط. كيف لها أن تذهب إلى الجناح رقم خمسة وتحشد خمسة أشخاص؟ لم تستطِع تصوُّر أنها قادرة على إقناع أي شخص. كان الحديث إلى الناس صعب على كل حال، خاصة وهم لا يرتدون وسائل المساعدة السمعية أو يأخذون غفوة. سمعت صوت روبرت يقول: أنت تتصرَّفين بحماقة يا دوروثي. نحن آل كارترايت لا نتدخَّل في شؤون الآخرين. هل تظنين حقًّا أنك تستطيعين إحداث أي فارق؟

كان من الصعب أن تتذكَّر أنها كانت المتحدثة الثانية التي ألقت خطاب الوداع في مدرستها، وأنها ارتادت كلية مرموقة وكانت عضوة في فريق المناظرات. وبعد أن قابلت روب - الذي دأب على مطاردتها والإطراء عليها دون كلل - رأت إمكانية عيش حياة مختلفة، نوعية الحياة التي لمحتها وحسب من بين فرجات البوابات الشبكية الحديدية لبيوت المعارف الأثرياء، حياة ارتياد المسارح ومتاحف الفنون وتربية الأطفال من أجل إرسالهم إلى أفضل المدارس. من في العالم يمكن أن يحبها مثل روب؟ تذكرت حين كانا شابين وفقد وظيفته الأولى، تذكرت كيف كان يتطلَّع إليها، ويحتاجها. بدأت في كشط صينية الخَبز، وهي تفكر في مقدار حُب روب لطبخها. لطالما امتدح مهارتها في الطهو أمام أصدقاء العمل كلما أقاما حفلًا. تنهدت. ما كان روب ليسعد بانخراطها في هذه القضية، لكنها وعدتهم، ما الذي حملها على الموافقة على الحديث إلى خمسة أشخاص؟ مسحت يديها المغطاتين برغوة الصابون في الفوطة وهي شاردة الذهن، حينها صدر صفير عن سوار معصمها. قالت بصوت مرتفع: «أنا لست ذات فائدة لأي شخص. لا أدري ما سأفعل». ثم سمعت صوتًا من الكمبيوتر الصغير الموضوع على الرف يقول في اقتناع تام: «سيحدث أمر طيب لك اليوم». كانت لغة إنجليزية سليمة لكن بلكنة غريبة. ذهبت إلى الكمبيوتر لكن الشاشة كانت قد أظلمت.

أعادت تصفيف شعرها ووضعت أحمر الشفاه ثم اتجهت عاقدة العزم إلى ردهة الجناح رقم خمسة. كان هناك أشخاص عديدون في الردهة. ذكرت نفسها مجددًا بحقيقة أنها كانت المتحدثة الثانية التي ألقت خطاب الوداع في مدرستها ثم حملت نفسها على الابتسام وإلقاء التحية. بنهاية الساعة كانت قد أقنعت ثمانية أشخاص بالانضمام إليها. كان من الممكن أن يكون العدد تسعة لو لم تكن مولي مشغولة في الفحص البدني السنوي لها تلك الظهيرة. وحين اتصلت بريتا كي تخبرها ردت الأخيرة قائلة: اللعنة أنت بارعة، وفكرت لدوروثي في سرها وهي مندهشة: نعم أنا كذلك.

بعد ساعة كان الجميع يركبون سياراتهم ويقودون عبر الطرق الطويلة الخاوية التي سرعان ما ستملأها حركة المرور في ساعة الذروة متجهين إلى

منزل جانا. كان منزل جانا كبيرًا ويقع في منتصف ضيعة مساحتها مائة فدان، وكان هناك بالفعل حشد من الناس في منتصف أحد الحقول، ونحو ستة سيارات، وشاحنة نقل تليفزيوني. كانت جانا واقفة، بشعرها المموج وابتسامتها العريضة، تلوح للقادمين الجدد الآتين إليها. كانت الشمس حارة، وعلى جانب الحقل كان يمتد خط مظلم من الأحراش، وهو المكان الذي يُفترض أن يعبر منه خط الأنابيب. مشت دوروثي في عزم، متجاهلة شعور الانبهار الذي كان يأسرها في بعض اللحظات، وهي تصر على أسنانها، وتجاهد كلا تستمع إلى صوت روب الذي يتردد في عقلها: تلك المرأة لا ينبغي أن ترتدي شورتًا، إن ساقيها بدينتان، وهذه المرأة ترتدي زيًّا أشبه بزي العاهرات، وهذا ينبئك بما تريده حقًّا. هؤلاء الهيبيون الجدد أضحوكة؛ فهم لا يكادون يستطيعون المشي، ومع ذلك فهم يريدون تغيير العالم! حسنًا، كانت هذه الجزئية صحيحة بالنسبة لبعض المحتجين، سيدات عجائز بعكازات للمشي، ورجال على كراسٍ متحركة. كانت ريتا واقفة هناك، وقد لوحت بيدها لتحييهم. وجدت دوروثي نفسها تقف على حافة الحشد، شاعرة بالامتنان لأنها جلبت معها قبعتها. كان البلدوزران يهدران أمامهم، وقد جلس شابان على مقعدي القيادة، أحدهما كان يبتسم ابتسامة عريضة، بينما كان الآخر متوترًا، وقد تلألأت الشمس على الزجاج الأمامي.

كانت امرأة سمراء تلقي خطابًا. وكزت إيفا دوروثي وهمست قائلة: «مايرا جاكسون، إنها أستاذة بالجامعة».

قالت المرأة: «ليس الأمر متعلقًا بالأرض وحسب. إن الاحترار العالمي حقيقة واقعة، وعلينا أن نفعل شيئًا لمواجهته الآن، وليس غدًا. إن النفط الصخري من شأنه أن يرجئ وحسب ما نحتاجه فعلًا، وهو الطاقة الخضراء النظيفة، والاقتصاد القائم على مصادر طاقة بديلة جديدة. لقد سبقتنا ألمانيا في مجال الطاقة الشمسية بالفعل، ونحن في حاجة إلى ما يشبه مشروع مارشال [(29)] من أجل مواجهة هذه الأزمة الاقتصادية البيئية!».

هتف الحشد مؤيدًا كلامها.

بعد ذلك سمعوا صوت سارينات الشرطة. بدأ المحتجون في ترديد شعاراتهم، وبدأ قلب دوروثي يخفق بعنف. ما الذي ورطت نفسها فيه؟

وقفت جانا تصرخ فوق هذه الضوضاء.

- «عليكم أن تأخذوا معداتكم وترحلوا من هنا، فلن أسمح لكن بإزالة غابات عائلتي! لا مزيد من التكسير!».

ارتفعت اللافتات وأضواء فلاشات الكاميرات وأخذ الناس يصيحون: «توقفوا عن تكسير تكساس!» وواصلت الماكينتان الصفراوان التقدم في بطء. قفزت الأستاذة الجامعية من على الطاولة - إذ كانت شابة وتتمتع بلياقة بدينة جيدة مقارنة ببقية العجائز - وحرك أحدهم الطاولة بعيدًا. وصل رجال الشرطة وهم يشيرون للمحتجين بالتحرك إلى الجانبين حتى يتمكن البلدوزران من الوصول إلى الأشجار. هاج الحشد وماج دون أن يتراجع. لوح الرجل الجالس في الكرسي المتحرك بعكازه في وجه أحد رجال الشرطة وصاح بشيء ما. بدأ رجال الشرطة القبض على المحتجين وصورت الكاميرات ما حدث. واصلت الماكينتان العملاقتان التحرك ببطء إلى الأمام. وجدت دوروثي نفسها محل تجاهل من الجميع، حتى رجال الشرطة. شعرت بالهواء البارد القادم من الغابة في ظهرها، وهو يمر عبر ثوبها القطني الرقيق. كانت واقفة أمام أحد البلدوزرين مباشرة، فأخذت تحدق في الشاب الجالس على كرسي القيادة مباشرة. كان يشبه كيفن. تساءلت عن سبب تلك النظرة الجامدة على وجهه، رباه، لقد كان الصبي قلقًا! فجأة خطر في بالها أن هذا الشاب مجرد كبش فداء، شأنه شأن كل الشباب الذين قابلتهم في حياتها، مثل ابنها الذي خاض الحرب ثم عاد منها وهو مجرد ظل صامتٍ لما كان عليه في السابق، وحفيدها الذي تطارده الهواجس، كل هذا الشباب وهذه القوة التي سارت في الطريق الخطأ. فكرت في المرأة المسكينة التي تعمل في أعماق المحيط القطبي محاولةً إنقاذ العالم حتى يستطيع أحفادها، أحفاد دوروثي وأحفاد الجميع، العيش في هذا العالم. كما فكرت في مدى القسوة التي يتسم بها هذا العالم الذي يجعل الشباب يضعون فوهات المسدسات على أصداغهم، والسكاكين على رقابهم، حتى تستطيع أيديهم تسميم الأرض وكائناتها التي خلقتها يد الرب - بينما كان صوت روب يتردد في أذنها يقول: دوثي، أنت تتحدثين كالمخبولة - ثم انكسر شيء داخلها.

كانت واقفة تحمل بين يديها عُلبة بلاستيكية بها كعكات محلاة، فأخذت تلوح بحماقة أمام الصبي وكأنها تعرضها عليه. مشت نحوه بوجه عازم، كما لو أن بإمكانها إنقاذه، كما لو أن بإمكانها، دوروثي كارترايت، الحاصلة على ليسانس الفنون والأرملة، أن تفعل أي شيء. اتسعت عينا الشاب ولوح لها في هلع، فاستدارت ورأت الذراع الأصفر العملاق للماكينة الأخرى يتأرجح نحوها والوجه المرتعب للشاب الآخر، الذي رآها في اللحظة الأخيرة، ثم ارتطمت الذراع بكتفها، وجانب رأسها، فسقطت أرضًا وتناثرت الكعكات في كل مكان.

استيقظت في المستشفى. كان الضوء ساطعًا، فأغلق أحدهم ستائر النافذة. كان باستطاعتها سماع بعض الجلبة خارج الغرفة. نامت مجددًا.

استيقظت بعد ساعات وهي أفضل. أخبرها طبيب ذو وجه نحيل أشبه بنسخة شديدة الإرهاق من وجه كلينت إيستوود أنها تعاني من ارتجاج خفيف بالمخ وكسر بإحدى عظام الكتف. لقد توقف سائق البلدوزر في الوقت المناسب، لكن تسبب القصور الذاتي في ارتطام الذراع بها. لولا ذلك لقضت نحبها. لقد كانت محظوظة. كانت الفحوصات تظهر أنها على ما يرام، لكنهم قرروا إبقاءها هذه الليلة تحت الملاحظة. وبعد ذلك عليها أن ترتاح ستة أسابيع كي يشفى كتفها.

قال الطبيب وهو يبتسم: «من الواضح أنك امرأة متمرِّدة يا سيدة كارترايت، لكن عديني أن تتوقَّفي عن تلك التصرفات المتهوِّرة لبعض الوقت».

لدهشتها ردت عليه وهي تبتسم قائلة: «فلتقم أنت بمهمتك، وسأقوم أنا بمهمتي».

اتصل ابنها مات، وأخبرها أنه سيأتي لزيارتها غدًا. بدا عليه الارتباك أكثر من أي شيء آخر، وخطر لها ببعض السرور أنها تمكنت أخيرًا من القيام بشيء يفاجئ شخصًا ما.

بعد ذلك جاءت مولي لزيارتها، وامتدحتها كما لو أنها فعلت شيئًا بطوليًّا.

قالت لها في لهفة: «أتمنى لو كنت هناك. إن ريتا وإيفا محبوستان، وتلك الأستاذة السمراء أيضًا، وعشرة أشخاص آخرون. من المرجح أن يوجهوا لك اتهامات أنت الأخرى».

لم تكن دوروثي قادرة على تصور فكرة الذهاب إلى السجن، لكن مولي جعلت الأمر يبدو كأنه حتميًّا. حسنًا، لقد كان يومًا حافلًا. قررت ألا تقلق بشأن أي شيء. ورغم اعتراض الطبيب سمحت دوروثي لاثنين من الصحفيين بإجراء حوار معها والتقاط الصور لها. كانت والدتها تصفها بأنها ثرثارة، وهي الخصلة التي تبددت مع الوقت وبفعل زواجها من روب، لكنها الآن لم تعد تستطيع التوقف عن الحديث.

قالت: «حين كان زوجي حيًّا اعتاد أن يخبرني أنه من غير المجدي القلق بشأن البيئة. ثمة أشخاص عمليون يديرون الاقتصاد، ويحرصون على سير الأمور على ما يرام. وذلك التوجه، بالإضافة إلى الجشع، أفسد الأرض إلى

درجة باتت تهدد أحفادنا. أنا ربة منزل لا أكثر، لكني أعرف أننا بحاجة إلى الهواء النقي كي نتنفس، وإلى الأشجار، وإلى الكائنات البرية حولنا. وكجدة، لا يسعني التفكير في جد أو جدة لا يريدان الأفضل لأحفادهما. لهذا السبب أؤمن أننا بحاجة إلى حماية ما منحنا إياه الإله العظيم، هذه الأرض المباركة، وكيف لنا أن نعيش بخلاف ذلك؟ هل من شيء عملي أكثر من هذا؟

بعد انصراف الجميع، وحين عم الصمت الغرفة، وضعت رأسها على الوسائد وهي منهكة تمامًا. تسلل إليها الشك. ما الذي فعلته؟ لو كان روب هنا لقال إنها حاولت طوال اليوم التباهي بنفسها. راحت السكرة. دفنت وجهها في الوسائد.

ثم دق جرس الهاتف. كان ذلك كيفن هذه المرة.

«جدتي! لقد رأيتك على التلفاز! كنت رائعة!».

ضحكت بشدة. كان لطف منه أن يتصل. تحدثا لنحو نصف الساعة، إلى أن أتت الممرضة وعبست في وجهها.

قال كيفن: «سوف أتعافى تمامًا هذه المرة يا جدتي». أخذت دوروثي نفسًا عميقًا.

- «كيفن، بمجرد أن يسمحوا لي بالخروج من هنا سآتِ لزيارتك، وهذه المرة سوف تتعافين بحق، أحبك. لديك حياة يجب أن تعيشها».

فكَّرت وهي تنهي المكالمة: وكذلك أنا.

استلقت في الغرفة المظلمة، وحين نظرت إلى الساعة الرقمية الموضوعة على الطاولة المجاورة للفراش علمت أنها في منتصف ليلة السادس عشر من مارس. بحق السماء، لا عجب أن روب ظل يراود تفكيرها طوال اليوم، فقد كان هذا يوم ميلاده! وقد نست تمامًا. حسنًا، على الأقل لقد خبزت الكعكات التي كان يحبها. فكرت في الكيفية التي تغيرت بها حياتها في يوم واحد، والعمل الذي لا يزال عليها القيام به. لن يكون الأمر سهلًا، ولم تكن تتوهم أنها بطلة من نوع ما، أو أن هذه الدقائق القليلة من الشهرة ستؤدي إلى أي تغييرات كبرى. لكن مولي أخبرتها أن حملة «توقفوا عن تكسير تكساس» وردتها مكالمات عديدة من منشآت أخرى لرعاية المسنين وروابط المتقاعدين. بدا أن المسنين، المنسيين، كانوا في سبيلهم إلى الظهور إلى النور. في الماضي، كان الشباب يطلبون النصح من المسنين، لكن الآن صار على المسنين أن يتحملوا مسؤولية تدمير كوكب الأرض، وبالمثل صار عليهم

أن يتحملوا مسؤولية إصلاح الأمر. أطلقت الصحافة على الأمر مسميات مثل «ثورة المسنين» و«ربيع المتقاعدين» وهي مسميات قد تفتقد إلى الاحترام، لكن من شأنها أن تبرز عملهم بوضوح. وقد ساعدت هي، دوروثي كارترايت، في تحقيق ذلك. فلتحيا الثورة، وأنت يا روب المسكين فلترقد في سلام، يوم ميلاد سعيد.

النهاية

تبدأ القصة

أم تراها تنتهي هنا؟

إنها النهاية، هكذا فكر الشاب بينما كان يتسلق الجبل الأخير وصولًا إلى آخر الوديان الجبلية. تنتهي القصة بينما حياته على وشك الانتهاء وهو يتسلق الجبال إلى أعلى قمم العالم. تبددت القوة التي مكنته من مغادرة شوارع شنغهاي المزدحمة والوصول إلى هذا المكان البعيد في جبال الهيمالايا وكأنها وهْجٌ خاطف لفراشة التهمها اللهب. راودته أخيرًا رؤيا استلقى فيها على العشب الأخضر المرتفع، وخلد إلى النوم، ثم شعر بسويقات العشب وهي تنمو مخترقة جسده، آلاف الوخزات الدقيقة، إلى أن صار مجرد قشرة خارجية.

توقف ليلتقط أنفاسه في مواجهة الجدار الصخري للمنحدر، وقد شكلت أنفاسه سُحبًا من البخار المتكثف في الهواء البارد. شعر أن حقيبة الظهر أثقل وأثقل، وعجز عن تذكر المرة الأخيرة التي تناول فيها طعامًا. ربما كان ذلك في القرية التي غادرها هذا الصباح. أخرج زجاجة مياه وشرب، ثم ووجد كيسًا صغيرًا من الفاكهة المجففة فتناول ما به ثم عاود السير.

حين خرج من الممر الضيق وجد نفسه على ارتفاع يصيب بالدوار. أسفل منه كان ثمة وادي قاحل يتلوى خلاله نهر فضي، لكن كان من الصعب رؤية كل هذا بسبب المسافة البعيدة والضباب. على الجانب الآخر كانت الحبال هزيلة عارية، تظهر ألسنة الأنهار الجليدية الذائبة على منحدراتها. بيد أن المكان الذي يقصده كان على يمينه مباشرة، حيث يقوده المسار. ظهرت الواجهة الحجرية للدير أمامه، وكر صخري من المستحيل تصور وجوده في مكان كهذا - فمن ذا الذي يبني شيئًا كهذا على هذا الارتفاع الشاهق؟ - لكنه كان موجودًا هناك، وصامدًا. وهكذا واصل المشي، على المسار الضيق، نحو درجات السلم المرتفعة. كانت النوافذ الموجودة بالأعلى خالية، وكان ثمة فتحة ضخمة في

سقف ردهة المدخل كان بمقدوره أن يرى منها النسور وهي تحلق في السماء الزرقاء. هل من الممكن أن يكون الملاذ الأخير قد دُمِّر على أي حال؟ كان قد حلم بوجود جامعة عظيمة في أعماق جبال الهيمالايا، مكان يستطيع فيه أناس أمثاله الاجتماع ونسج الشبكة التي من شأنها أن تنقذ العالم المحتضر. لقد حلم بدمارها أيضًا، على أيدي الجشع والسلطة. هل حدث ذلك بالفعل؟

استلقى في ارهاق على الأرضية المغبرة أعلى درجات السلم. ووسط الصمت المحيط كان يسمع أنفاسه تتسارع، وصوت قطرات المياه المتساقطة على مسافة. كان يدرك أن هناك من يراقبه.

كان هناك رجل واقف على عمود ساقط. كان طويلًا ويلبس رداءً أسود مهلهلًا. وعلى كتفه وقف حيوان صغير من نوع ما، بني اللون وله ذيل طويل غليظ، أهو سنجاب أم نمس؟

انحنى يوان، وتنحنح.

قال بالإنجليزية آملًا أن يستطيع الراهب تفهمه: «لقد حلمت بهذا المكان، وجئت إلى هنا كي أحاول فعل شيء ما قبل أن أموت. لكن الوقت قد فات كما أرى».

أشار الراهب إليه، فسار يوان في صعوبة فوق قطع الأحجار المتكسِّرة، وتبعه إلى ساحة صغيرة مرتفعة مفتوحة للشمس والسماء.

«اجلس» هكذا قال الراهب وهو يشير إلى مقعد خشبي خفيض. كان هناك بعض الشاي في الغلاية السوداء الموضوعة أعلى نار صغيرة. «أخبرني عن حلمك بهذا المكان». كانت جذور الشعيرات البيضاء قد شقت طريقها عبر ذقنه الحليق، بينما ظهرت على وجهه الداكن تجاعيد غائرة. كانت لغته الإنجليزي طلقة، وبها لكنة مألوفة على نحو مبهم. تنحنح يوان ثم بدأ يتحدث.

«كان ديرًا في البداية، ثم جامعة. كان مكانًا لأولئك الذين يسعون إلى فهم العالم بطريقة جديدة، وبعثه من جديد. رأيت أكثر الناس تواضعًا وهم يأتون إلى هناك كي يتشاركوا فيما يعرفونه، وكان من يمتلكون المعرفة يستمعون. لم يكن ضروريًّا أن يتمتع الدير بنفس الهدوء والسكينة اللتين كان عليهما من قبل، ففي كل ركن، في كل تجمع، سمعت مناقشات واختلافات، لكن السلام الحقيقي أمر ديناميكي، وليس جامدًا، ويرتكز على آلاف الجدالات.

لم يكن سرًّا، رغم أنه لم يعلم كثيرون بشأنه. كان شائعة، وكان حقيقيًّا كذلك، لأنه في الجامعة التي كنت أدرس بها في شنغهاي كانت هناك امرأة - عالمة من نيجيريا - تتحدث عن هذا المكان. لقد جاءت ودرَّست لنا خمسة أيام وليالٍ. وبعد ذلك تغيرنا جميعًا. تملكتني فكرة جديدة، ورغم أنني كنت أحتضر فقد حرصت على تحقيقها. بعد ذلك فكرت أنني بحاجة إلى العثور عليها، معلمتي، وعلى هذا المكان. سمعت هنا وهناك شائعات تفيد بأن المكان قد دُمِّر، لأن هناك أشخاصًا سيحاولون التسريع بنهاية العالم من أجل تحقيق الربح. وكان هذا المكان يقف في طريقهم.

كان هذا المكان أمل العالم، وقد سمعت أن له فروع في عدد قليل من الأماكن الأخرى. كانت هناك فكرة تقضي بربط هذه الأماكن عن طريق معمارية عالمية صغيرة من شبكات المعلومات، شبكات من المعارف والأشخاص، من أجل توليد أفكار جديدة، ومن ثم ضمان البقاء».

خفت صوته ثم ترنح وسقط على الأرض. أمسكه الراهب وحمله دون عناء عبر ردهات طويلة إلى غرفة حجرية يوجد بها فراش خشن. استيقظ من إغماءته ليرى الكائن البري جالسًا على المقعد المجاور للفراش، محدقًا فيه في الظلام بعينين مستديرتين. ساعده الراهب على النهوض كي يحتسي بعض الشاي المخلوط بزبد لبن الياك، وكان غنيًّا ورائحته ذكية. بعد ذلك نام يوان.

تحدث يوان والراهب على مدار خمسة أيام وليالي، أحيانًا في هذه الغرفة ذات النوافذ الضيقة وأحيانًا في الساحة الفسيحة المشمسة.

«دُمِّر هذا المكان بفعل انهيار جليدي». هكذا أخبره الراهب وهو يشير إلى الجبل الجاثم خلفهما من شرفة الدير المرتفعة وأضاف: «ذاب النهر الجليدي وجلب الجبل معه، وكأن السماء أخذت تمطر جلاميد صخر. قُتل كثيرون وهُجر المكان. إنني أعيش هنا بمفردي، باستثناء الفريق العلمي الغريب الذي يأتي لدراسة النهر الجليدي».

ظل يوان صامتًا. ها قد ذهبت فكرة الجامعة التي ستنقذ العالم أدراج الرياح. لكن كيف كانت الأحلام التي راودته مفعمة بالحياة بهذه الصورة لو لم تكن حقيقية؟

حين شعر يوان أنه بحال أفضل ذهب مع الراهب إلى شرفة مرتفعة تتمتع بأفضل إطلالة على النهر الجليدي. كانت الشرفة متهدمة في بعض المواضع، إذ انتُزعت منها بعض الأجزاء، وكانت الغرفة الواقعة أسفلها مليئة بقطع

ضخمة من الأحجار. وكانت الأجزاء التي لا تزال سليمة توفر مسارًا آمنًا متعرجًا عبر الشرفة.

كانت الشرفة مفتوحة للرياح والشمس، وأربكته ضخامة الجبل للحظة. ضيق عينيه ونظر عاليًا إلى الجبل، وكاد أن يفقد توازنه. أسنده الراهب.

فوقهما على مسافة بعيدة كان الجزء المتبقي من النهر الجليدي عبارة عن تجويف من الثلج أعلى جدران صخرية عمودية. انتصب جلمود صخري ضخم يفوق حجمه حجم المنزل على حافة التجويف، وكان محاطًا بالثلوج.

قال الراهب: «لا تقلق: لو سقط هذا فسيسقط هنا، ويجهز على هذه الشرفة وما بقيَ من الجناح الغربي. أما الجزء الذي ننام فيه في الدير فلن يتأثر، أترى هذا النتوء الصخري؟».

رأى يوان نتوءًا صخريًّا على ارتفاع كبير إلى جهة اليمين، وكان يبرز من الجانب شديد الانحدار للجبل. كان من شأنه أن يحجب أي وابل من الثلوج أو الجليد أو الصخور ينهمر عبر المنحدر، بحيث لا يمس الجانب الشرقي للدير، ولهذا السبب ظل هذا الجانب سليمًا.

بدأ يوان يرتجف، فأرشده الراهب في صمت عبر الأرضية المحطمة إلى أن عادا إلى غرفته. غاص يوان في فراشه.

صاح: «لماذا ظللت في هذا المكان البغيض؟».

جلب له الراهب بعض الشاي.

ثم قال: «مات ثلاثة وثلاثون شخصًا في الانهيار الجليدي، وكان معلمي من بينهم. لذا ظللت هنا، بينما غادر الآخرون إلى دير آخر».

رأى يوان أن هذا لا يجيب سؤاله. كان يتعجَّب بشأن الراهب ولغته الإنجليزية الممتازة. وبعد فترة من الصمت قال الراهب: «أخبرني عن نفسك. قلت إن لديك فكرة ما».

بحث يوان في حقيبته الموضوعة إلى جانب الفراش، ثم أخرج حفنة من إسورة المعصم البرتقالية، كل منها مزود بشاشة ومزين ببعض الحُلي الرخيصة.

قال: «أنا أدرس هندسة الحاسب. وفي جامعتي في شنغهاي كنت أعمل على بعض الأفكار المثيرة للاهتمام في الاتصالات الشبكية. ثم جاءت - د. أمينة إسماعيل، أستاذتي - وغيَّرت كل شيء أعرفه عن العالم.

معظمنا يظن أنه ليس بوسعنا عمل شيء بشأن الاضطراب المناخي، ومن ثم نعيش لعبة معقدة من الإنكار والتظاهر، كما لو أن شيئًا لن يحدث، رغم أن كل يوم يردنا مزيد من التقارير عن وقوع كارثة وشيكة، وعن انقراض المزيد من الأنواع وعن المزيد والمزيد من المشردين بسبب المناخ. لكن ما تعلمته من أستاذتي هو أن العالم شبكة متصلة من العلاقات، علاقات بين البشر والبشر، وبين البشر والحيوانات والنباتات، وعلاقات بين الأجزاء الحية وغير الحية. كنت أشعر بالوحدة في العالم بعد أن توفي والداي، حتى وأنا مع أصدقائي أو مع خليلتي، لكن أستاذتي قالت إن الوحدة ما هي إلا وهم خلقته الثقافة الحضرية الحديثة. لقد قالت إنه حتى المعرفة جرت تجزئتها وتقسيمها إلى نطاقات منفصلة تفصل بينها جدران، مما أدى إلى تعزيز الوهم وأتاح ظهور الخبراء مفرطي التخصص الذين لا يفهم أحدهم الآخر. لقد حان وقت هدم هذه الجدران وأن نعرف كيف ندرس التعقيد الذي يتسم به العالم بطرق جديدة. كانت أستاذة في علوم الحاسب، لكنها علَّمت نفسها البيولوجيا وعلم الاجتماع حتى تستطيع تفهم العموميات العظيمة التي تقوم عليها النظم المختلفة للعالم».

قال الراهب: «تبدو أشبه بفيلسوفة».

قال يوان: «في الماضي كانوا يطلقون على العلماء اسم فلاسفة الطبيعة. لكن على أي حال لقد تعلمت منها أننا سواء كنا ندرك هذا أم لا، فإننا مرتبطون أشد الارتباط بالعالم من حولنا. ونتيجة لهذا تتسم الأنظمة الاجتماعية البشرية بملامح فوضوية، أشبه بالطقس. بالتأكيد أنت تعلم استعارة لورينز، تلك الخاصة بتأثير الفراشة؟».

قال الراهب: «لقد سمعت بها».

توقف يوان لبرهة.

ثم استأنف قائلًا: «قالت لي - د. أمينة إسماعيل - إننا ربما لم نستطع منع التغير المناخي لأننا لم نتصرف في الوقت المناسب، لكن من المحتمل أن نكون قادرين على منع التغير المناخي «الكارثي» حتى يكون من الممكن في مستقبل أحفادنا - أستاذتي لديها حفيدان - أن تبدأ الأمور في التحسن. ومن الممكن ألا ينقرض الجنس البشري.

لذا ذات يوم كنت أسير في الشارع وأنا شديد الضيق بسبب انفصالي عن خليلتي، ولم أكن انظر إلى أين أتجه، وحينها صدمتني دراجة بخارية صغيرة. صاح قائد الدراجة في. لم أكن مصابًا إصابة شديدة - بعض الكدمات والسحجات لا أكثر - لكنه لم يتوقف حتى كي يسألني ومضى في طريقه. جرجرت نفسي إلى الرصيف بينما واصل الناس السير من حولي كما لو أنني لم أكن شيئًا سوى عائق. فكرت: ما الذي يدفعني إلى مواصلة حياتي؟ ثم خرج رجل ما من أحد المتاجر وانحنى نحوي وساعدني على الوقوف. وفي متجره اعتنى بجروحي وأعطاني طبقًا به حساء معكرونة ساخن ولم يقبل ان أدفع له ثمنه. ظللت هناك إلى أن صرت قادرًا على الذهاب إلى المنزل وحدي.

أبعدني هذا الحادث عن أفكاري السوداوية. أدركت أنه رغم أن الأصدقاء والعائلة مهمون، أحيانًا يكون بمقدور كرم الغرباء تغيير حياتنا.

لذا ابتكرت هذه الأداة التي يمكنك ارتداؤها حول معصمك، وسوف تقيس مستوياتك الانفعالية وحالتك المزاجية عبر الجلد. يمكنها أيضًا الاتصال، عبر الجني الخاص بك، بجهاز الكمبيوتر أو الهاتف المحمول الخاص بك، من خلال برنامج خاص صممته لها».

ثم تنهَّد.

«لقد صممته في البداية كعلاج للوحدة. كان علي أن أبتكر نظرية للوحدة، بها قياسات ومحددات كمية. كان عليَّ أن أبتكر نظرية للتعاطف. يمكِّن البرنامجُ الجنيَ الخاص بك من البحث على الإنترنت عن الأشخاص الذين يمتلكون قيمًا مشابهة لك ... وهو يقيس الأمن والأمان أيضًا. وفي الأحيان التي تكون في أمس الحاجة إليه، استنادًا إلى تقييمك الانفعالي في هذه اللحظة، سوف يربطك البرنامج بشخص عشوائي في دائرتك».

قال الراهب: «وهل يعمل بنجاح؟».

قال يوان: «لا يزال مليئًا بالأخطاء، لكن هناك أشخاصًا يعملون على تحسينه. إن المعمارية الشبكية المثلى لم تُؤسس بعد. وأحلم أنها في يوم ما ستستطيع المساعدة في رفع وعينا إلى مستوى يتجاوز الأسرة والأصدقاء والجيران والدين والمدينة والدولة. وخلال رحلتي كنت أمنحه للناس مجانًا، في كل بلدة وقرية».

ثم نقر على السوار البرتقالي الملتفِّ حول ذراعه الأيسر.

«إنني متصل الآن بسبعة أشخاص آخرين، سبعة غرباء. الاتصال سيئ، لكن أحيانًا أسمع أصواتهم أو أراهم على شاشة الكمبيوتر الخاص بي. في طريقي إلى هنا توقفت في مرج يانع تقطعه جداول الماء، كان مكانًا جميلًا للغاية. لا بد أن الاستقبال كان جيدًا لأنني في الوقت ذاته رأيت امرأة عجوزًا على شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص بي. كانت تقف إلى طاولة مطبخها تشعر وكأنه ليس لديها ما تمنحه للعالم. كانت تشعر بالعجز وعدم النفع لأنها مسنة. لذا قلت لها - لم أكن أدري ما عليَّ أن أقوله لها لأنني شعرت بألمها - لكن في النهاية قلت لها عبارة تشجيع تقليدية. قلت لها: «سيحدث أمر طيب لك اليوم». لا أدري ما إن كان هذا قد تحقق بالفعل أم لا، بل لا أعرف من الأساس من هي هذه المرأة، كل ما أعرفه أنها كانت من بلد آخر، ومن ديانة وثقافة مختلفتين، وشعرت بألمها كما لو كان ألمي أنا».

استمع الراهب في حرص شديد وهو يميل إلى الأمام، بينما خلد الكائن الصغير إلى النوم في حجره.

قال: «ربما تعاني من إفراط في التعاطف».

- «وهل هذا أمر سيئ؟ أفترض أنه لا بد أن يكون كذلك، في ضوء ما انتهي بي الحال عليه. بينما تتقدم في العمر من المفترض أن تصير أقوى وأشد احتمالًا، وتتمتع بمزيد من الحكمة أيضًا. لكن يبدو أنني صرت أقل قدرة مع مرور الوقت على احتمال المعاناة، خاصة معاناة الأبرياء. لقد رأيت صورة لطفل ميت في كومة من القمامة، لا أدري أين. كانت أسرة الطفل جزءًا من موجة مهاجرين، ولم يكن السكان المحليون يريدونهم هناك، ومن ثم نشبت اعمال عنف. لكن ما الذي كان بمقدور هؤلاء الأشخاص أن يفعلوه؟ لقد أغرق البحر موطنهم. كانوا فقراء.

رأيت ذات مرة صورة لدب قطبي ميت في القطب الشمالي، كان قد مات من الجوع. كان مجرد كومة من الجلد والعظام، وكان دبًّا شابًّا. كانت عجول البحر التي يعتمد عليها في غذائه قد هاجرت حين اختفى الجليد.

هناك أشخاص لا يبالون بشأن الدببة القطبية الميتة، أو حتى الأطفال الميتين في أكوام القمامة. إنهم لا يرون كيف أن مصائرنا مترابطة. ثمة رابطة تجمع كل شيء. لكن معرفة تلك الحقيقة تسبب المعاناة. وفي كل مرة يموت فيها أشخاص أبرياء يموت جزء صغير مني».

قال الراهب في غلظة: «ألهذا أنت مريض بهذه الدرجة؟ ما النفع الذي سيتحقق حين تحمل على عاتقك معاناة العالم؟ أتخال نفسك بوذا أو

المسيح؟».

بُهت يوان، وهز رأسه نفيًا.

«لا أتخيل أمورًا كهذه مطلقًا، بل أنا لست متديِّنًا. إنني أحاول أن أتعلم ما سمَّته أستاذتي بالمعرفة الحقيقية التي ترينا كيف تتصل الأشياء جميعها. ليست لمرضي علاقة بكل هذا. لقد عجز الأطباء عن تشخيص مرضي - حمى متوسطة الشدة، التهاب دوري، فقدان الوزن - كل ما أعرفه هو أنه لن يفلح معي أي علاج. إنني أحتضر».

خرج الراهب من الغرفة.

جلس يوان في فراشه بوهنٍ، وأمسك بقدح الشاي البارد الموضوع إلى جوار الفراش واحتسى بعضه. كان يشعر بالحيرة، لماذا كان الراهب متضايقًا هكذا؟

لاحقًا عاد الراهب.

قال: «منذ اليوم الثالث الذي أتيت فيه إلى هنا لم تصب بالحمى. وبمجرد أن تسترد قوتك ينبغي أن تعود أدراجك، إلى العالم. هناك أمور يجب أن تفعلها هناك».

شعر يوان بالحيرة.

قال بعد لحظات وهو يشعر بالمرارة: «حتى لو كان ما تقوله صحيحًا، كيف لي أن أثق في نفسي؟ الرؤيا التي أتتني عن هذا المكان، أتذكر؟ الجامعة التي حلمت بها، أمل العالم. إنه السبب الذي دفعني قدمًا. لقد كان كله زائفًا».

قال الراهب في رفق: «ربما كانت تلك الرؤيا عن المستقبل. فعلى أي حال كانت أستاذتك حقيقية. ولو أنها ذكرت هذا المكان لك، لا بد أن هذا يعني أن ثمة آخرين تأتيهم الرؤيا عينها. عد أدراجك، وأد عملك. أعتقد أن سقمك هذا لا يختلف عما يصيب الجميع بالأسفل. في أغلب الأحيان هم لا يدركون هذا من الأساس».

أشار بغضب إلى العالم بالأسفل والتزم الصمت.

لوقت طويل لم يكن يوان ممن يسمحون لأنفسهم بالشعور بالأمل، وهذا جعل من الصعب عليه التعرف على ذلك الشعور الذي بدأ يعتمل في صدره.

لكنه كان آخذًا في التزايد، ويفور داخله. نظر إلى وجه الراهب المشيح بعيدًا، وإلى الطريقة التي كان الحيوان يستكين بها على كتفه.

- «لو أنني شفيت، إذن فقد كنت أنت من أنقذ حياتي. لقد آويتني واعتنيت بي إلى أن استرديتُ صحتي. كرم الغرباء. كم أنا محظوظ».

هز الراهب رأسه، ثم خرج من الغرفة كي يجِّهز وجبتهما التالية.

بينما أخذت حالته تتحسن، بدأ يوان استكشاف الدير المُدمَّر. كان هناك العديد من الغرف في الجناح الشرقي الذي لا يزال سليمًا. كانت المياه المتخلفة عن ذوبان الانهيار الجليدي قد ملأت الغرف السفلى من الجناح الغربي. وعلى سطح تلك البحيرة الداكنة كانت هناك بقع من ضوء الشمس المار عبر فتحات في السقف.

قال الراهب: «لقد أخرجنا جميع الجثث».

في ظهيرة أحد الأيام، وبعد أن شعر يوان بالإنهاك من عملية الاستكشاف وذهب إلى الفراش، أيقظه الحيوان الأليف الصغير الخاص بالراهب. كان الحيوان يحك كتف يوان في جنون وهو يزوم. جلس يوان في الفراش ونظر حوله باحثًا عن الراهب، لكن لم يجد له أثرًا. دوَّى صوت هدير عميق بدا أنه قادم من الأرض نفسها.

ظن يوان في البداية أن هناك زلزال، لأن الجبل كان يهتز، لكنه أدرك بعد ذلك حقيقة الأمر. أسرع بالخروج من الغرفة، مُدركًا لوقع خطوات الحيوان الصغير على الأرضية من خلفه، وجرى صاعدًا الدرج الحجري إلى الشرفة المدمرة الواقعة في مسار النهر الجليدي مباشرة.

كان الراهب يقف على الشرفة، ناظرًا إلى أعلى، بينما رداؤه الأسود يتطاير من خلفه بفعل الرياح. لقد تزحزح الجلمود الضخم الواقف عند حافة النهر وكان يهدر هابطًا جانب الجبل، جالبًا الثلج والصخور معه.

«ما الذي تفعله؟» هكذا صاح يوان وهو يمسك بالرجل. «ابتعد عن هنا، ستقتل نفسك!».

جذب الراهب من ردائه قرب الحلق وهزه في عنف. كانت عينا الراهب هائجتين. وبمشقة بالغة جذبه نحو الدرج الحجري عبر الأرضية المتشققة المهتزة للشرفة.

صاح قائلًا: «لو مت أنت هنا سأموت أنا أيضًا!».

في النهاية وصلا إلى درجات السلم وركضا عبر الأروقة المحطمة إلى أن وصلا إلى الجناح الشرقي. وحين وصلا إلى الشرفة سمعا صوتًا أقرب إلى الانفجار، واهتزت الأرض في عنف. بدا ليوان وكأن الدير كله سينهار، لكن بعد لحظة بدت طويلة بلا نهاية توقف الاهتزاز. نظرا حولهما فوجدا أن الجناح الشرقي لا يزال سليمًا. قفز الحيوان الصغير متسلقًا رداء الراهب واستكان على كتفه. ربت الراهب عليه.

كانت الدموع تملأ عينيه، وتنهمر على وجهه المليء بالتجاعيد. أجلسه يوان على المقعد الخشبي الخفيض. كانت الغلاية قد انقلبت، فجلب يوان الماء من الجرة الحجرية الكبيرة وصب بعضه في الغلاية، وأشعل النار تحتها.

بعد أن شرب الراهب أول قدح من الشاي توقف عن الارتجاف، ثم بدأ الحديث: - «أنا لست راهبًا، بل أنا مجرد خادم. لقد استضافوني حين أتيت إلى هنا، وكنت مريضًا مثلك، لكن بينما جعلك العالم تشعر أنك ستموت من الحزن، فقد جعلني أستشيط غضبًا. كنت أحد أبناء المدينة، أعيش ما كنت أرى أنه الطريقة الوحيدة للعيش، كنت أعيش حياة طيبة. ثم وقعت بعض الأمور وانقلبت حياتي رأسًا على عقب. لقد فقدت كل شيء، وكل شخص. هربتُ إلى هنا حتى أكف عن سماع الأصوات التي تصرخ في رأسي. كنت مليئًا بالغضب والألم. كان من شأن سقمي أن يقتلني لو لم يخفف الرهبان من حدته، ويهدؤوا روعي. لقد مات ثلاثة وثلاثين راهبًا منهم بسبب الانهيار الجليدي، ومن بينهم معلمي. وعشت أنا».

قال يوان: «إذن لقد كنت تنتظر سقوط هذه الصخرة الأخيرة، حتى تلحق بهم».

شرع الرجل في قول شيء ما لكن الدموع ملأت عينيه، فمسحها بظهر يده. وأخذ الحيوان الرابض على كتفه يتحرك في هياج.

قال يوان: «إن حيوانك الصغير يحتاج إليك كي يحيا. لقد جاء إليَّ ونبهني، ولهذا السبب أنت على قيد الحياة».

ضم الرجل الحيوان إلى خده وهو يبكي.

قال يوان: «الحياة هدية. لقد أهديتني حياتي، وأهديتك أنا حياتك. هذا يعني أن ثمة دَيْنًا مشتركًا يربط بيننا، رابطة لا يمكن محوها. عُد معي».

بعدها بعدة أيام عاد يوان، وقد تعافى كثيرًا، أدراجه. كان رفيقه قد قرر أن يبقى في المدينة الأقرب إلى الدير. وهنا، تحت سماء مرصعة بالنجوم، سمع يوان قصة الرجل. وقبل أن يغادر يوان منحه سوارًا برتقاليًّا، رغم أن الاتصال عبر الأقمار الصناعية كان متقطعًا هنا، وافترقا على أمل أن يلتقيا مجددًا.

قال صديقه: «في المستقبل الذي حلمت به. آمل ألا يمر وقت طويل!».

قال يوان: «سأعود بأسرع مما تتخيل».

بعد أن قطع يوان الصحراء الجبلية المرتفعة، هبط إلى وادٍ جبليٍّ فسيح. استلقى على العشب اليانع وشعر بوزنه، شعر بشَدة الجاذبية الخفيفة التي تربطه بالأرض. ومن حوله كانت جداول الماء تتدفق مصدرة أصواتًا شجية. غالبه النوم حينها، ورأى أحلامًا، لكنها لم تكن عن الموت. صدر صفير عن سوار معصمه، واستيقظ. لا بد أنه عاد إلى نطاق تغطية الأقمار الصناعية. سمع صوت موسيقى خافتًا، وصوت احتفال. تحدث صوت امرأة إليه، صوت شاب تملؤه الفرحة. قال الصوت كلمة واحدة: « ... **فراشة** ...».

ملائكة الأفيال

بريندا كوبر

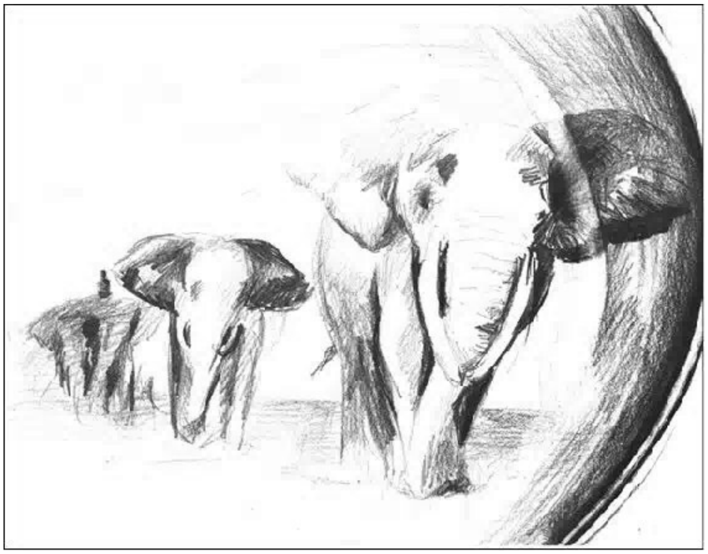

© Haylee Bolinger / ASU ,2013

فتحت فرانسين نافذتها، فامتلأت شقتها الصغيرة ببرد رطب ارتطم بخديها وساعدها على أن تستفيق. شمَّت رائحة القهوة من شاحنة الأطعمة الواقفة بالأسفل وأخذت شهيقًا كي تملأ رئتيها بالرائحة المالحة لخليج بوجيت ساوند. كان الناس يسيرون مسرعين عبر الضباب الرقيق للصباح الباكر، وهم يُحكمون شد معاطفهم الصوفية حول أجسادهم بينما أيديهم ذات القفازات تمسك في إحكام بحقائب اليد أو المستندات الخاصة بهم.

واصلت فرانسين النظر إلى أن لمحت حفيدتها ذات الوجه الأسمر المستدير والعينين الداكنتين والشعر الأسود الطويل الذي ينتهي عند حافة سترتها الصفراء الفاقعة.

بعد بضع دقائق دخلت أراسيلي مندفعة وهي ترسم على وجهها ابتسامة. أظهرت حقيبة قماشية صغيرة من وراء ظهرها وقالت: «لقد أحضرت لك شيئًا».

- «كيف حالك؟» هكذا قالت فرانسين وهي تأخذ الحقيبة وتفتحها. أخرجت منها قميصًا لونه أزرق سماوي عليه صورة فيل. حدَّقت بدهشة. كانت تلك علامة على القبول لم تكن تتوقعها.

- «أنت واحدة منا الآن. لقد قبلوا طلب التحاقك». كانت أراسيلي تقفز حرفيًّا لأعلى وأسفل من الفرحة، ذلك التقافز الذي تتسم به الفتيات البالغ أعمارهن تسعة عشر عامًا وحدهن. كانت قد ساعدت فرانسين في ملء الاستمارات عبر الإنترنت وقضت ساعات معها تريها كيف تكون في مكان آخر، وجرَّبت معها المحاكاة التدريبية مرتين قبل أن تخوض فرانسين الاختبار الحقيقي.

كانت صورة الفيل على القميص تخص إحدى أمهات الفيلة في السافانا، وهو أمر لم تكن فرانسين تعرفه قبل شهر، وقد طُرِّزَت الكلمات «ملائكة الأفيال» على طول حاشية الكُم الأيمن للقميص.

- «جرِّبيه».

دخلت فرانسين غرفة نومها وارتدت القميص، وكان مقاسه مناسبًا لها بدرجة لم تتوقعها. بدا جميلًا عليها.

حين خرجت وجدت أراسيلي في المطبخ، تقلب الشاي الخاص في أحد الأقداح. نظرت أراسيلي لأعلى وابتسمت قائلة: «الآن، ستبدأ ورديَّتك الأولى الآن».

- «حقًّا؟» جف حلق فرانسين وشعرت بالدوار.

- «اشربي الشاي».

أخذت فرانسين القدح إلى المقعد المريح الخاص بها وجلست. كانت أراسيلي قد وضعت سماعات دقيقة حول مسند الرأس، نظرًا لأن سماعات الأذن كانت تسبب بعض التداخل مع وسائل المساعدة السمعية التي ترتديها فرانسين. وعلى طاولة صغيرة وضعت قدح الشاي، ونظارات الواقع الافتراضي الخاصة بها، ودفترًا ورقيًّا وقلمًا أزرق.

جلست أراسيلي على مقعد في الجانب الآخر من الغرفة، وقد أراحت ساقيها الطويلتين على ذراع المقعد بينما كان حاسبها الرفيع مفتوحًا على حجرها. من شأن أراسيلي أن ترى ما تراه فرانسين وتسمع ما تسمعه، لكن دون أي تحكم من طرفها. سيكون العرض ثنائي الأبعاد، وكأنه فيلم سينمائي. كانت فرانسين قد شغلت هذا الموضع كجزء من التدريب، أن تكون في موضع مراقب المراقب، وذكرها هذا بالماضي حين كانت الأفلام ثنائية الأبعاد فقط.

بعد الرشفات القليلة الأولى بدأ الشاي المُر ينعش حواس فرانسين، مُبرزًا وخْز الأسلاك الدقيقة التي كانت تعلو فمها وتنعقد خلف أذنيها.

كانت الخطوة الأخيرة أن تضع نظارتها أمام وجهها، وأن تحتسي ما تبقَّى من الشاي.

همس صوت بشري قائلًا: «مرحبًا، هل الصوت مسموع بوضوح؟».

- «أشكرك». خبا صوت المرشدة الأخرى بمجرد انتهاء تبادل العبارات، وكان الانتقال فوريًّا بحيث لا تعلِّق المرشدتان في لحظات من الارتباك. وكما تعلَّمت، فقد كان متاحًا لها برهة قصيرة لالتقاط أنفاسها، واثقة في أن المرشدة الأخرى التي تحل محلها قد تركت المركبة في مسار مستقر.

كانت شمس الصيف الساخنة تضرب بقوة، وكأن القارة الأفريقية اقتربت لتقبيل منطقة الشمال الغربي.

حشرات زيز الحصاد. كان هذا أول ما تلاحظه دائمًا، إذ كان الصوت غريبًا للغاية على سياتل وشديد الارتباط بأفريقيا. مرت الريح بين الأشجار، وكان صوتها لا يكاد يعلو على صوت حفيف أقدام الأفيال على العشب. كانت الصورة مقربة بشدة، إذ كانت رؤيتها تشبه رؤية سائقة الأفيال. فردت أصابعها على

اتساعها ورفعت يديها، آمرة الماكينة الصغيرة الموجودة على الجانب الآخر من العالم بالارتفاع.

كان الطيران يسعد فرانسين، وقد كان بسيطًا مثل ألعاب الفيديو التي اعتادت أن تلعبها في صغرها، حيث كانت حركتها تخبر الشخصيات الكارتونية على الشاشة بما عليها فعْله.

ارتفعت الدرون الصغيرة لأعلى.

سارت الفيلة الأم في مقدمة مجموعة من ستة أفيال، أربعة إناث بالغات وصغيرين، أحدهما عمره نحو عامين والآخر أصغر من ذلك. وحدها الفيلة الأم كانت تركبها سائقة، وكانت فتاة نحيلة الخصر طويلة الساقين لها ثديين مستديرين لم يتخذا شكلهما البالغ بعد. كانت ترتدي حلقًا طويلًا مزينًا بالريش وبدت مسترخية، كما لو كانت تجلس على مقعد على الشاطئ وليس على ظهر حيوان ضخم بما يكفي بحيث يسحقها تحت قدمه في خطوة واحدة.

أدت فرانسين مهمتها وأدارت الدرون دورة كاملة. منحها هذا رؤية مهتزة قليلًا للمشهد في جميع الاتجاهات. على مبعدة كان قطيع من الزرافات يسير في مهابة. كانت طائرة ورقية تطير وسط السماء الزرقاء المغبرة عديمة السحب، ولم يكن شيء آخر يتحرك عدا الأفيال، رغم أنه كانت توجد أشجار كثيرة يمكن أن تأوي كل أنواع الطيور والحشرات الطنانة والفرائس الغافية.

كان الملائكة الآخرون يراقبون الإحصائيات ويقيمون البيانات الواردة من جحافل المستشعرات التي تناهز في أعدادها حشرات زيز الحصاد. شاهدت فرانسين انعكاس الشمس على المعدن واستمعت للمحادثات أو للنداءات المتقطِّعة للحيوانات البرية.

كانت الأفيال تهيم على وجوهها. في مرتين تعاونت معًا في إمالة أشجار السنط من أجل التهام قممها الغضة حلوة المذاق. السائقة تستقر على الفيلة الأم في أريحية حتى حين كانت الفيلة الضخمة تنحني نحو أغصان الأشجار ويهتز جسدها. ورغم أن فرانسين كان بإمكانها أن تسمع وترى حشائش السافانا، فإن الإحساس الوحيد الذي كانت تشعر به هو إحساس الحركة الذي كان يأتي من البث الذي ترسله الدرون، حركة مبهمة لأعلى وأسفل وإلى الجانبين بدت أشبه بصدى يتردد في عظامها، وبشعور طفيف بالغثيان في معدتها.

ستكون هذه الأفيال أفيالها هي، عما قريب. كان الأمر مخيفًا لدرجة أن فرانسين انتابتها رجفة عابرة. فهي لم تكن مسؤولة قط عن أي شيء أو شخص بخلاف نفسها لما لا يقل عن عشرين عامًا. لا بمفردها ولا بالاشتراك مع شخص آخر، هكذا ذكرت نفسها. كان كل قطيع يتمتع ببعض المساعدة على الأرض، وفي الجو، وعن بُعد. كان هناك كون كامل من ملائكة الأفيال.

© Haylee Bolinger / ASU ,2013

حلَّقت فوق الكتف الأيمن للسائقة، خلف الريشات المتدلية التي كانت تمس كتفها الأسمر العاري. تذكرت فرانسين إحساس الجلد الطري، تذكرت حين كانت مفاصلها تنثني وتتحرك في سلاسة.

شاهدت الفيلة الأم الفيلة التالية لها في الحجم وهي تميل إلى الأمام وتدفع شجرة عرضها مقارب لعرض ساقها.

ثم دوَّى انفجار.

لم تنفجر الشجرة نفسها، وإنما انفجرت الأرض حولها.

استغرقت لحظة كي تستوعب الهجوم. كان شيئًا نادرًا، لكن كان هذا هو السبب وراء تحكمها في الدرون في أفريقيا.

تحركت الدرون مبتعدة إلى الوراء، ثم إلى أعلى، ثم عادت إلى موضعها، في رد فعل لاستجابة فرانسين غير المقصودة للمفاجأة. صارت صورة الأفيال أصغر حين ابتعدت الدرون. تسبب الدخان الناجم عن الانفجار في خط رفيع ملطخ من اللونين الأبيض والأسود ارتفع مع الرياح. لوت فرانسين يدها اليمنى

ورفعت اليسرى، لكنها بالغت في تصحيح موضعها بحيث صارت الكاميرا موجهة إلى السماء وإلى الأرض وإلى الأفق البعيد في الاتجاه الخاطئ. أخذت نفسًا عميقًا ثم حاولت مرتين أخريين إلى أن عاودت كاميرا الدرون التقاط صورة الأفيال.

كان رأس الفيلة الأم يتحرك إلى الأمام والخلف، بينما كانت أذناها العريضتان تخفقان. كانت تحرك ذيلها بعيدًا عن جسدها بينما أخذ كتفاها يرتجفان.

أمسكت السائقة مقود العنق بقوة.

كانت الفيلة الجريحة مستلقية على جانبها وخرطومها يتلوى، بينما تقشر الجلد من على صدرها وساقيها الأماميتين كما لو أنها سُلخت بسكاكين عملاقة. وفي مواضع الجروح كان اللحم الوردي ظاهرًا بوضوح.

أدركت فرانسين أنها تسمع صراخ الأفيال لكنها فشلت في الانتباه إلى الأصوات بسبب المشهد الذي من فرط بشاعته كاد يفقدها التحكم في الدرون.

طارت بالقرب من الفيلة الساقطة، التي كانت تجاهد كي تقف لكن دون جدوى.

ظهرت رسائل على نظارة فرانسين، وسمعت أصواتًا تتحاور بعضها بعضًا.

صرخت الأفيال ثانية، وكان صوت الفيلة الأم هو الأعلى.

ألم. كان ذلك صوت الألم.

أو الغضب.

شعرت فرانسين بما سمعته في أصوات الحيوانات، شعرت بالغضب والرعب والصدمة الحادة التي يسببها الانتقال من ظهيرة هادئة إلى الموت.

كان التفكير أمرًا صعبًا. لم يكن هذا يشبه من بعيد الهجوم الافتراضي الذي شاهدته في جلسات المحاكاة التدريبية، الذي صوَّر رجلًا يمسك بندقية ويركب سيارة جيب، بحيث كانت قادرة على توقُّع حدوثه. حاولت تجاهل الفوضى للحظة، وأن تمنح عقلها متنفَّسًا لمراجعة الموقف.

سيعلم الصيادون غير القانونيين أن الفخ قد انفجر.

كانت الأفيال في خطر داهم. كانت تعلم من تدريبها أن الأفيال السليمة تظل إلى جوار الأفيال المصابة.

اقترب أحد الفيلين الصغيرين من الفيلة الراقدة على الأرض، ومسَّها بخرطومه. ربما كان ابنها. جعل هذا المشهد فرانسين تشعر أنها تود البكاء أو الصراخ، أو كليهما.

رفعت الدرون عاليًا، ولمحت سحب الغبار الخاصة بثلاث مركبات على الأقل.

كانت السائقة تجد صعوبة في البقاء على ظهر الفيلة الأم، إذ كانت تمسك بإحدى أذنيها بيد وتتلوَّى كي تظل على السرج بينما كانت الفيلة تصرخ معبِّرة عن مزيج معقَّد من المشاعر.

اقتربت فرانسين بالدرون قدر استطاعتها، مستخدمة أقل قدر من الحركة حتى لا تخيف الفيلة أكثر. احتاجت ثلاث محاولات قبل أن تقترب بما يكفي بحيث همست بكلمة «زنابير» في أذن الفتاة اليمنى.

استدارت الفتاة وأومأت، وقد اتسعت عيناها السوداوان. حلقت فرانسين على ارتفاع أعلى وشاهدت الفتاة وهي تضغط على أحد الأزرار في حزامها. انتشر سرب من الدرونات المستقلة التي لا تزيد في حجمها على حجم أظافر الأصابع خلف الفتاة. أصدرت الدرونات أصواتًا على تردد منخفض لا تستطيع الأذن البشرية سماعه وحثت الفيلة على الفرار.

جثت الفتاة على ركبتيها.

صرخت الفيلة الأم، وضربت الأرض بقدمها وهي تتحرك يمنة ويسرة، وضربت الأرض مجددًا.

شعرت فرانسين بالقلق.

تذكَّرت فرانسين تدريبها وبدأت في لف الدرون في جميع الاتجاهات، بحيث شاهدت سحب الغبار تتكشف عن سيارات جيب مغبَّرة. سجلت مَن جاء وشاهدت، في هلع، خمسة رجال يرتدون ملابس مموَّهة وهم يقطعون خرطوم الفيلة العريض بالقرب من عينيها، واستخدموا مناشير وسلاسل من ألياف الكربون كي ينتزعوا الأنياب العاجية من اللحم.

شاهدت اللحظة التي فارقت فيها الحياة عينا الفيلة، وكم مزَّق هذا نياط قلبها.

ظهرت ثلاث سحب جديدة من الغبار، ثم سحابة رابعة. الملائكة، هكذا أشارت الدرون. إن لديهم التسجيلات بالفعل.

الآن يمكنها الذهاب.

حلَّقت فرانسين للحظة، والحيرة تمزقها. كانت تريد أن تعرف ما سيحدث بعد ذلك، لكن كل تأخير كان يزيد المسافة بينها وبين قطيعها. ومع ذلك فقد تردَّدت. هل سيفلت الصيادون غير القانونيين بفعلتهم؟ هل سيندلع قتال؟

ثم حدث الانفجار.

ظلت إحدى عدسات الدرون سليمة وأرسلت الصور إلى نظارتها، وكانت الصور تتقلب في سرعة بين السماء الخضراء والعشب الأخضر إلى أن استقرت قرب الجثمان الرمادي المغطى بالدماء. لم يتح الوقت لفرانسين كي تستوعب المشهد الجديد، أو أن تفهم أن النار قد أُطلقت عليها من السماء، ثم تبددت طاقة الدرون.

رفعت أراسيلي النظارة من على رأس فرانسين وأطفأتها.

أغمضت فرانسين عينيها وفتحتها عدة مرات كي تزيل أثر الصورة السوداء المتخلفة عن تدمير الدرون ثم حدقت في حفيدتها. انهمرت الدموع على وجنتيها. كانت أراسيلي قد رأت ما رأته هي. ارتجفت يد فرانسين وهي تمدها كي تمسك يد حفيدتها وقالت: «لقد فقدت قطيعي».

أومأت أراسيلي وقالت: «اللعنة على هؤلاء الصيادين».

- «لا داعي للسباب».

- «حتى في هذا الموقف؟» عبست أراسيلي وجففت وجنتي فرانسين وقالت: «لنحضر لك بعض الطعام».

كانت فرانسين منغمسة في أجواء ما بعد الظهيرة، في فصل الصيف، وكانت صدمة لها أن عادت إلى صبيحة أحد أيام الشتاء. ارتجفت وأحكمت التدثُّر بالبطانية. لقد خذلت قطيعها، وفشلت في وظيفتها الجديدة.

وفقدت إحدى الدرونات.

كان جسد فرانسين بحاجة إلى الاعتناء، إذ كان يرتجف في رفق بفعل مشاعر الأسف والارتفاع المفاجئ في مستوى الأدرينالين.

أحضرت لها حفيدتها بعض الشوفان وشريحة من الخبز. دب الدفء في أوصال فرانسين بحيث صارت من القوة بحيث تسأل: «ما الذي سيحدث الآن؟».

نظرت أراسيلي إلى الأضواء التي تظهر على الشاشة التي ترتديها فرانسين على معصمها. كانت أكثر تمرسًا على قراءتها بسرعة مقارنة بفرانسين، وقالت لها: «ستستريحين. وسأبقى معك بقية اليوم. لديك وردية عمل أخرى غدًا».

- «أريد أن أعرف بشأن هؤلاء الصيادين. هل أمسكوهم؟ ماذا عن سائقة الأفيال الصغيرة؟».

أومأت أراسيلي وقالت: «سأتقصَّى عما حدث».

- «أريد أن أعرف الآن».

أطاعتها أراسيلي وتفقدت الشبكة الخاصة بملائكة الأفيال إلى أن وجدت المعلومات المنشودة. «الأفيال الباقية في مأمن. توجد درون مراقبة جديدة تطير برفقتها الآن. لقد أمسكوا بأحد الصيادين لكن البقية فروا. ثمة حالة تأهب في جميع الموانئ المحلية ترقبًا لمحاولة تهريب العاج».

مالت ماكينا إلى الأمام وانزلقت من خلف أذن ديلبا، ممسكة بحبل الرقبة إلى أن استطاعت دفع نفسها بعيدًا عن الجانب الضخم للفيلة، ثم هبطت في خفة على باطني قدميها القاسيين. بدت ديلبا متحيرة. حدقت الفيلة الأم نحو الطريق الذي جاؤوا منه. لو كان لنظرة ما أن تعيد الماضي، بالتأكيد كانت نظرتها لتفعل ذلك. بعد ذلك استدارت نحو الصغيرين، وأطلقت دمدمة طويلة خفيضة، ثم اتجهت صوب بركة الماء الصغيرة التي قادتها ماكينا إليها. انتظرت الفيلتان الأخريان تحرك الصغيرين ثم سارتا خلفها.

تحوَّلت ماكينا إلى الأراضي العشبية كي تجد مكانًا تتبوَّل فيه بينما لا توجد درون لتسجل ذلك. من الممكن مشاهدتها عبر الأقمار الصناعية لكن ستكون صورتها صغيرة للغاية في نظر من يشاهد. كانت قد أصرت على رؤية ما كان

ملائكة الأفيال يرونه بعد أن قُبلت بالوظيفة واجتازت فترة التدريب البالغة ستة أشهر. في الغالب كانوا يرون الأشياء في صور كبيرة، على خرائط بها نقاط متحرِّكة تميز الحيوانات المنفردة العديدة. كانوا يراقبون الطقس ومواقع سياح السفاري من على مسافة. كانت الدرون هي مصدر التطفل الوحيد على خصوصيتها. كانت تكرهها، رغم أنها أنقذت حياتها وحياة الأفيال ما لا يقل عن ثلاث مرات.

كان شخص جديد يوجِّه الدرون اليوم، هذا ما أُخبرت به في بداية ورديتها. لم تكن قائدة الطائرة بارعة بما يكفي كي تمنحها تحذيرًا، وإن كانت ذكَّرت ماكينا بالفعل بأن تطلق الزنابير.

لم يكن يجدر بها أن تُصاب بالهلع. خطت فوق عظام خرتيت جرى تنظيفها من اللحم منذ وقت طويل ونظرت إلى القطيع. كانت خرطيم الأفيال الكبيرة تتحرك إلى جانب الفيلين الصغيرين.

تعجَّبت ماكينا لأن المتفجرات كانت موضوعة بهذا القرب من الأشجار، ولم تذكر أنها واجهت موقفًا مماثلًا قط. كانت المنطقة تبدو طبيعية وبدت رائحتها طبيعية بالنسبة للفيلة فلاور، وهذا أمر مستغرب؛ فالأفيال معروفة بقدرتها على أن تشتم رائحة العواصف قبل هبوبها بأيام.

كان الصيادون غير القانونيين ماهرين بحق.

عادت إلى موضع الماء وغسلت جسدها ووجهها بحرص وببطء في البركة. كان الماء نظيفًا بالكاد.

سمعت صوت لويس في أذنها يقول: «ماكينا؟».

- «أمسك بهم».

- «سأفعل. هل أنت بخير؟».

أخبرته: «سأكون بخير حين تمسك بهم».

- «يؤسفني حدوث هذا».

- «توقَّف عن التحدث إليَّ وأمسك بهؤلاء الصيادين».

أنهى الاتصال. أمر جيد، إذ لم تكن تريد التحدث إلى أي شخص، ولا هؤلاء الملائكة الوسيمين الآتين من بلاد أجنبية. ولا الملائكة الجذّابين، خصوصًا ليس هؤلاء.

في المعتاد كانت بركة الماء مكانًا سعيدًا يلعب فيه القطيع ويسترخي. لكن ليس هذه الظهيرة. لقد قطع القطيع مسافة كبيرة جريًا، وكانت حركة أفراده بطيئة وحزينة مثل حركة ماكينا نفسها.

كانوا يرثون مقتل رفيقتهم.

لقد ماتت فلاور. كانت ماكينا تكره هذا الاسم الذي منحه شخص أمريكي بدين ما للفيلة منذ عقد مضى. يدفع المتبرعون مبالغ كبيرة من أجل تسمية الأفيال الأفريقية، وفي واحدة من لحظاتها المريرة القليلة فكرت ماكينا أنها ربما كانت محظوظة لأن أحدهم لم يدفع مالًا كي يختار لها اسمًا آخر.

لم تكن تكره فلاور نفسها، فقط الاسم. كانت فلاور فيلة قوية ومطيعة، وتجيد الاعتناء بالصغار.

خطت ماكينا إلى داخل البركة وربَّتت على ظهر بي. كان ابن فلاور الصغير قد توقَّف عن الرضاعة منذ وقت قليل، وربما يكتب له البقاء رغم وفاة والدته، هذا إن لم يمت من كسرة القلب أولًا. شرعت في صب الماء على جلده الثخين ووجدت نفسها تبكي. لم تبكي منذ أن ماتت والدتها بسبب الإيدز منذ عام مضى، وأدهشتها الدموع للغاية، لدرجة انها مالت على جسد بي بنصف ثقلها وتركت دموعها تنساب على ظهره.

مد خرطومه ومس كتفها برفق.

قبل أن تخرج الأفيال من الماء كانت ماكينا قد عاودت الركوب على ظهر ديلبا في موضعها المعتاد خلف رقبة الفيلة، وقد فردت قدميها وراء أذني ديلبا الكبيرتين. حثَّت الفيلة الأم على السير إلى الأمام، فقادت ديلبا القطيع الصغير ليخرج من الماء واتجهت صوب أقرب أجمة من أشجار السنط.

كانت حشرات زيز الحصاد تطن والطيور تصيح في تلك الظهيرة التي لم تخف حرارتها بعد.

استخدمت ماكينا سوارها الهاتفي كي تتصل بسعد. قالت له: «احذر، فالأفيال تشعر بالاضطراب، وقد قل عددها، إذ قُتلت فلاور». أخبرته بقية القصة وسألها عما إذا كان لديها تسجيل فيديو لما حدث لكنها نفت ذلك، رغم أنها كانت واثقة أن باستطاعتها الحصول عليه لو أرادت ذلك. لم تكن تريد مشاهدة الأمر ثانية. قالت له: «أنت متعطش للدماء».

قال: «كلا. أنا آسف بحق».

بعد أن هدأ روعها تساءلت عما إذا كان من الأمان له أن يأتي إلى هنا.

بدأت شمس المغيب تصبغ أحراش السافانا والأشجار بضوئها الذهبي. لن ترى فلاور غروبًا آخر للشمس، ومن ثم وجدت ماكينا صعوبة في الاستمتاع بالسلام المعتاد لهذه اللحظة الأخيرة التي تسبق بدء نشاط الصيد الليلي.

لم تكن الشمس ترتفع بالكاد فوق خط الأفق حين أرسل شقيق ماكينا الأصغر رسالة لها قال فيها: «أنا قريب منك».

عضَّت شفتها السفلى وهي تشاهد الطريقة التي كانت تمشي بها الأفيال وتحرِّك بها آذانها وخراطيمها وكيف كانت قريبة بعضها من بعض. لم تتبقَّ لديها أي زنابير، لكن كانت ديلبا تحت سيطرتها إلى أقصى درجة ممكنة تسمح بها هذه الفيلة الأم. في المعتاد كانت ديلبا تنفِّذ ما تطلبه ماكينا، لكنها لم تتخلَّ قط عن حق الاعتراض. لكنها بدت مطيعة بدرجة كبيرة الآن. قالت ماكينا: «حسنًا، فلتخرج».

وقف سعد في مكان يستطيع القطيع فيه رؤيته ويكون بمقدور الرياح أن تجلب رائحته إليها.

أوقفت ماكينا ديلبا وانتظرت حتى تتأكَّد من أن الأفيال رأت شقيقها الصغير، الذي لم يكن أقصر منها وحسب وإنما كان لا يزال يتَّسم بنحول الصبية. ساعدته على الصعود على ظهر ديلبا وجلس خلفها. ناولها كيسًا به لحم بقر وحشي مقدَّد. سألته: «عملية صيد غير قانونية؟».

- «هاري بولسن».

تذمَّرت لكنها أخذت اللحم، كان قاسيًا ومالحًا وذا طعم رائع.

أغاظها قائلًا: «أنا أحد الملائكة».

- «ليس بعد».

- «سأكون كذلك».

- «ربما». كان سعد قد قُبل كمرسال لصالح الملائكة، وكان مسموحًا له بأن يجلب لماكينا الأجزاء أو الإمدادات التي تحتاجها من وقت لآخر. لم يكن مفترضًا به أن يركب الأفيال، أو يلمسها، لكنهما كانا يستغلان الفرصة في كل مرة لا تكون الدرون موجودة فيها. «لو أنك تقبل اللحم المقدَّد من الصيادين غير القانونيين، كيف أعرف أنك لن تقبل منهم رشوة كي تساعدهم في الحصول على العاج؟».

- «لن أفعل ذلك».

- «عليك أن تتوقَّف عن التحدث إلى أي صياد عن أي شيء».

- «أنت تأكلين اللحم المقدد».

تمنت لو أنها لم تأخذه منه، لكن كان طعمه رائعًا.

- «سأركب الأفيال حين تذهبين إلى المدينة».

- «ربما».

زمَّ شفتيه لكنها ضحكت برفق وقالت: «أنا أحبك يا شقيقي الصغير. وحين أتعلَّم ما يكفي كي أذهب إلى بريتوريا سأخبرهم أن عليك أن تأخذ مكاني. لكن هذا لن يحدث إلا حين تكبر. سيكون عليَّ الانتظار».

- «يمكنك أن تفعلي هذا من أجلي. حينها ستكونين ملاكي الحارس أنا أيضًا».

قالت: «أنا بالفعل ملاكك الحارس».

- «هذا صحيح».

في وقت لاحق، كانت ماكينا تجلس مع جدها على الشرفة الخشبية. كان وقت صيد الحيوانات الليلي قد ولَّى، وكان الجو هادئًا حول منزلهم الصغير. كان جدها هو من ربَّاها وعلمها عن الأفيال والحُمُر الوحشية والأسود والضباع والخراتيت البيضاء. كان قبل تقاعده يعمل حارسًا في حديقة دزانجا نوديكي الوطنية، وكانت تأمل أنه سيتفهمها أكثر من سعد. قالت له: «لقد أخذوا إحدى الأفيال مني اليوم. لم يسبق لي أن فقدت واحدة».

انعكس الضوء الشاحب المتقطع الصادر عن مصباح خفيض على التجاعيد المحيطة بعينيه، قال: «أخبريني عن الأمر».

وفعلت ذلك.

- «أنت محظوظة أن ديلبا لم تخطُ على تلك العبوة الناسفة. ربما حينها كنت ستفقدين الفيلة الأهم».

كانت هذه طريقته في إخبارها أنها كان من الممكن أن تتعرَّض للأذى. قالت: «لقد فشلت. من غير المقبول خسارة فيلة واحدة».

- «لقد فقدتُ قطيعًا بأكمله ذات مرة. كانت عاصفة شديدة قد تسببت في حصارنا في منطقة داخلية، لكن الصيادين لم يخشوا الفيضانات مثلنا. تسبب المطر في إبقائنا بالداخل ليوم ونصف اليوم. تعطَّلت مركبتنا بسبب المياه وتعيَّن علينا القيام بدورياتنا سيرًا على الأقدام في اليوم التالي. وجدت سبعة

أفيال ميتة، وخلال الأسبوعين التاليين توفيَ صغيرين آخرين. لم نستطِع أن ننقذ إلا الأفيال الأكبر سنًا». تنهد وحدق في الفراغ للحظة، وكأنه لا يزال يستطيع رؤية الأفيال الميتة. «وكل هذا لأننا لم نكن نريد أن تبتل ملابسنا».

قالت في رفق: «كيف قُتلت؟».

- «بنادق خاصة بصيد الأفيال. في أيامي كنا نقاتل الصيادين بالبنادق، وليس بأدوات المراقبة والمواقع الإلكترونية والأقمار الصناعية. إنهم لا يمنحونك بندقية الآن».

- «أعلم هذا» كان قد شجعها على أن تأخذ بندقيته، لكنها رفضت. فستتعرَّض للفصل لو وجدوا معها سلاحًا شخصيًّا.

ارتشف مشروبه المسكر، وهو مزيج من الشاي والبراندي كانت رائحته نفاذة لدرجة تثير غثيان ماكينا، وقال: «ثمة عدد مضاعف من الأفيال الآن، وربما أكثر» ثم ابتسم وأضاف: «هناك المزيد من الأرض لها، والمزيد منها. هذا تقدم».

تناولت رشفة من كوب الماء وقالت: «أعلم هذا، لكني ما زلت أشعر بالحزن».

قال لها: «انظري إلى أعلى».

- «لماذا؟» هكذا قالت، لكنها فعلت ما طلبه منها، وغاصت ببصرها في أعماق النجوم التي تعلو رأسيهما، والتي كانت تبدو مثل سجادة مرصعة بالماس في هذه الليلة غير المقمرة.

- «كانت جدتي تعيش في الدغل الأول، الدغل البري. وقد كانت تقول لي إنه حين يموت أحد الأفيال كانت نجمة تسقط من السماء. ربما لو نظرنا عن كثب لرأينا النجمة الخاصة بفلاور وهي تسقط».

لفت ماكينا ذراعينها حول ركبتيها وواصلت التحديق إلى الأعلى. بدت السماء قريبة بحيث يمكن لمسها، حتى عبر شبكات البعوض. قالت: «ماذا كانت جدتك ستقوله لو أنها علمت أن الأفيال البرية يركبها بشر الآن كل يوم؟».

- «ما دمت أنت من تركبينها ستكون هي مسرورة».

قالت ماكينا: «أنت تكذب».

نهض وقبَّلها على جبينها بشفتيه الباردتين النحيلتين وقال: «كانت ستفخر بأنك تعتنين بالعائلة. هل ستخلدين إلى الفراش الآن؟».

- «ليس قبل أن أرى نجمة فلاور أولًا».

كانت رائحة سعد تشبه رائحة الأفيال. استلقى على فراشه وشاهد أستاذًا صينيًّا يتحدَّث بلغة انجليزية مقبولة وهو يجوب المنصة، جيئة وذهابًا، ويشرح بحركات معبرة من يديه اقتصاد المشاع. كان الفصل الدراسي نفسه مجانيًا وكان بمقدور سعيد أن يدفع القليل من المال، وأن يجتاز اختبارًا لو أنه أراد شهادة. دورة دراسية من جامعة أكسفورد. كان يتوقع الحصول على تقدير ممتاز رغم أنه في الثالثة عشر من عمره ويعيش في منطقة مسكونة حديثًا من أفريقيا. كان اقتصاد المشاع أيسر في الاستيعاب بالنسبة له من التجارة الدولية أو فيزياء المصاعد الفضائية.

كانت شقيقته، ماكينا، تكسب مالًا يكفي ثلاثتهم للعيش، إذ كانت تقود حيوانًا صار على قمة هرم الحيوانات العاشبة في أشهر الأراضي المشاع قاطبة: الأدغال البرية. إنها الأراضي نفسها التي سُرقت من قومه منذ فترة طويلة، والآن صارت مكانًا مختلقًا. ومع هذا فقد كان يتوقع أن تحضر ماكينا العرض الذي قدمه الأستاذ جيانج.

ربما يجدر به أن يرسل للرجل صورة لشقيقته.

لم يفعل ذلك. كان يدون ملحوظات تفصيلية بخط يده. وعند انتهاء الدرس كان يضع الأوراق في الدرج الخاص به ويغلقه بالمفتاح ويضع المفتاح في خيط ويضعه حول عنقه.

كان قد تعلم أن يستخدم الملحوظات الورقية في الدروس، كي يبتعد عن أجهزة اللعب ويركز على الدراسة. في بعض الدروس كان يغلق على نفسه باب غرفة النوم ويضع كل الأجهزة خارج الغرفة، وبهذه الصورة كان عليه أن يأخذ خطوة إضافية من شأنها أن تجعله يتوقف ويتذكر إلى أي مدى كانت الدروس مهمة.

لم يكن مسموحًا له بتوجيه الأسئلة إلى الأستاذ لأنه لم يكن مُسجلًا بصورة رسمية، لكنه كتب الأسئلة التي كان يريد طرحها.

أمسك هاتفه وفتح نافذة دردشة. اتصل بأحد الملائكة، كانت ماكينا قد عرفته عليه بوصفه معلمًا خاصًّا، وكان يدعى لويس كاستانوفا. كان لويس يساعده في هذه الدروس.

كان لويس منغمسًا أشد الانغماس في البيانات العالمية وعملية تحليل البيانات، لكن دائمًا ما كان سعد يستطيع الوصول إليه. كتب يقول: «لويس، اسأل لماذا كان من الصعب بيع الأرض المشاع في منتصف أميركا».

كتب لويس يرد قائلًا: «لأن الأرض المشاع لم تكن لها قيمة في المجتمع الرأسمالي الجشع. ماذا لو سألتك عن السبب في أنها تزداد قيمة الآن؟».

- «حسنًا» حدق سعد في النافذة ثم كتب: «لو أنها تزداد قيمة الآن، فهل هذا يعني أن ماكينا ستحصل على زيادة في الراتب؟».

- «بل سيعني توظيف المزيد من الأشخاص».

- «لقد فقدنا فلاور اليوم».

أجاب لويس: «نعلم هذا. إنني أتتبَّع النابين العاجيين الخاصين بها».

- «ماذا؟».

- «سأريك. سنذهب معًا ويمكنك أن تكون شاهدًا عليَّ».

ضغط سعد على الأزرار الصحيحة بحيث صار الكمبيوتر الخاص به متصلًا بكمبيوتر لويس وفتح نافذة حوارية كذلك. ظهرت صورة لويس على الشاشة. بدا إسبانيًّا كما يوحي اسمه، له شفتان عريضتان وابتسامة دمثة وشعر أسود طويل، وكان نحيلًا. كان سعد متأكدًا من أن ماكينا معجبة به، لكن شقيقته كانت عازمة تمامًا على ألا تبوح بشيء حين كان سعد يسألها.

حدَّق لويس في شيء ما بشدة لدرجة أنه بدا وكأنه سيسقط إلى داخل الشاشة، لكنه لاحظ بعدها الاتصال المكتمل وابتسم.

قال سعد: «خذني معك».

- «حسنًا، سنذهب إلى كوتونو. إنني أبحث عن سفينة هناك».

زمَّ سعد شفتيه وقال: «لقد مرَّت اثنتا عشر ساعة منذ مقتل فلاور. هل من الممكن أن يقطع العاج المسافة بهذه السرعة؟».

ظهرت خريطة على الشاشة. أظهرت علامة x حمراء الموضع الذي قتلت فيه فلاور، ربما على مسافة عشرين ميلًا من منزل جد ماكينا وسعد. أجبرت اللكنة الإسبانية الثقيلة للويس سعدًا على رفع الصوت وأن يظل ساكتًا قدر الإمكان. «لقد التقطت موجهة الدرون صورًا لثلاث عربات جيب، لكنهم أطلقوا النار على الدرون قبل أن نعرف أي العربات تحمل العاج. لقد أمسكنا بإحداها لكن لم يكن العاج فيها. ذهبت العرباتان الأخريان في اتجاهين معاكسين تقريبًا، واحدة إلى الجنوب والثانية إلى الغرب».

سأله سعد: «هل اقتسموا النابين؟».

اختفت العربات بعد مقتل فلاور بلحظات. كان بمقدورنا تتبعها ما دامت تثير الغبار، لكن من دون تبيُّن أي تفاصيل. وقد اختفت بالكامل حين وصلت إلى الطريق الأسفلتي. لم نكن قادرين على معرفة عدد الأشخاص الذين كانوا داخلها.

وهكذا انتهى الحال بالعربتين في المدينة. توقَّفتا في بضعة أماكن وكان بالإمكان نقل الشحنة إلى أي مكان دون أن ندري. أو ربما كان النابان ملفوفان في قماش مموه ... لا أدري. لم يبلغ أحد عن رؤية أي عاج ولم ير أي من الملائكة أي شيء». ثم رفع لويس حاجبه وأضاف: «لكن لدينا مفتاحًا لحل اللغز».

كان لويس يعابثه، كي يثير حماسه، لكن سعدًا كان يتقبل ذلك. كان يتعلم الكثير في كل مرة يتحدث لويس إليه. وقد لعب دوره في اللعبة وسأل: «ما هو؟».

- «نعرف من يخطِّط لشراء العاج».

- «من؟».

- «سيدة في شارلستون تعمل لصالح عملاء صينيين. إنهم يدفعون مالًا كثيرًا مقابل العاج. كما أنها اتفقت أيضًا على بيع بعض العاج إلى قَسٍّ في شيكاجو».

- «وكيف علمتم بهذا الأمر؟».

- «إن سكرتيرة القس تحب الأفيال أكثر من المشغولات العاجية».

- «نحن محظوظون».

ضحك لويس وقال: «أجل يا سعد، نحن محظوظون. لقد أخبرتنا عن هذا الأمر منذ ستة أشهر، وعن مكان وجود الأموال. لقد أخبرتنا أن علينا مراقبة المال. وقد تم تحويل المال بعد خمسة عشر دقيقة من مقتل فلاور».

يا للهول. قال سعد: «حسنًا، إذن نابا فلاور في طريقهما إلى الولايات المتحدة، لكن هناك الكثير من الموانئ في الولايات المتحدة». هذا أمر معروف حتى لصبي من أفريقيا.

سأله لويس: «إذن كيف تظن أننا توصَّلنا إلى الحل؟».

- «لا أدري».

- «فكِّر في الأمر. أخبرني بالحل وسأخبرك ببقية القصة».

زمَّ سعد شفتيه. لم يفعل لويس هذا من قبل، أن أختبره بهذه الطريقة. ربما لو نجح سيتمكَّن من الحصول على وظيفة كمحقِّق تابع للملائكة مثل لويس. لو عمل لدى لويس فسوف يفتقد الأفيال، ومع هذا فقد يتغيَّر الأمر. إنها فرصة طيبة. «دعني أفكر في الأمر لدقيقة».

- «حسنًا، سأذهب لأتابع قضيتنا». ثم أظلمت الشاشة.

بالطبع لن يستطيع الوصول إل جواب سريع. ربما سيذهب لويس للاتصال بفتاة ما. جعلت هذه الفكرة لويس يرتجف للحظة، لكنه أجبر نفسه على التركيز على المشكلة التي بين يديه.

بعدها بعشرين دقيقة أرسل رسالة نصية ينبه فيها لويس ثم أعاد الاتصال قائلًا: «أعتقد أن لديَّ الجواب».

- «أخبرني».

- «لقد استعنت بشبكة جلوبو نِت كي أتتبع كل سفينة متَّجهة من أفريقيا إلى أميركا على أساس الميناء. وقد استخدمت إطارًا زمنيًّا يسمح بنقل العاج إلى الموانئ المحتملة، وهذا خفض العدد إلى سبع وثلاثين سفينة».

كان لويس يبتسم.

أكمل سعد وقد شعر بمزيد من الثقة: «عشرون من هذه السفن هي من النوع غير الملائم لنقل العاج؛ سفن سياحية أو ناقلات نفط. على الأرجح ستوضع الأنياب العاجية في حاوية، وهذا يترك لنا خمس سفن، واحدة منها ستنطلق من جنوب أفريقيا متجهة إلى ميامي. أعتقد أن هذا هو الرهان الأرجح».

ارتسمت على وجه لويس ابتسامة عريضة ثم قهقه ضاحكًا وقال: «ليس صحيحًا. لكن تفكيرك سديد مع هذا. ماذا لو أخبرتك أن من الممكن رصد العاج داخل الحاويات الآن؟».

- «عندئذٍ سأقول إنه لا بد أن يكون موجودًا على متن إحدى ناقلات النفط». تخيَّل نابي فلاوي وهما مربوطان إلى السطح المستوي لناقلة عملاقة ومغطيان بقماش مقاوم للماء يتطاير بفعل الرياح.

هز لويس رأسه نفيًا وقال: «إنها أكثر السفن خضوعًا للرقابة على مستوى العالم».

- «ماذا إذن؟».

- «ما المتبقي؟».

- «سفينة سياحية؟ أليست هذه السفن مزدحمة في المعتاد؟».

توقَّف لويس عن الضحك وقال: «هل لاحظت السفينة «روبي سي»؟».

ضم سعد حاجبيه وقال: «كلا، لقد نحَّيت السفن السياحية جانبًا».

- «كنتَ محقًّا حين جنَّبت السفن السياحية التجارية جانبًا. الأمر ممكن لكنه سيتطلب تعاون أكثر من مجرد فرد واحد من أفراد الطاقم من أجل إخفاء شيء بهذا الحجم. أعتقد أن العاج على السفينة روبي، فهي سفينة خاصة لا تضم سوى بضع مئات من القمرات، وكلها أكبر حجمًا من منزلك. إن تكلفة قضاء عشرة أيام على متنها تساوي ثمن منزلك. على متن السفينة توجد أشياء مخفية كثيرة، من الأموال إلى الفتيات».

- «أي ميناء ستقصده السفينة؟».

- «لا يهم، فنحن سنحصل على العاج قبل أن يغادر أفريقيا».

- «ستأتي إلى هنا؟».

- «كلا، لكن لدينا حراس نثق بهم. سأخبرك عن الأمر بعد أن يحدث».

- «أتمنى أن تجدوا العاج».

- «سنجده».

- «هل سيساعدك شخص من هنا؟».

- «يجب أن تكون أكبر سنًا؟».

- «هذا ليس منصفًا! أنت أكبر بالكاد من ماكينا، وماكينا أكبر بالكاد مني».

ضحك لويس وقال: «الفارق لا يقل عن أربعة أعوام».

قال سعد: «أستطيع الحساب بنفسي». لكنه لم يكن يريد أن يبدو بمظهر المتذمر في نظر لويس فسأله: «هل حصلت على الجواب؟».

- «الأرض المشاع تصير أعلى ثمنًا، لأنها صارت أجمل وأجمل في ظل تمتُّعها بالحماية المتزايدة. حتى القطع الصغيرة منها الموجودة في المدن».

- «أريد أن أفعل ما تفعله أنت». هكذا قال سعد مذكرًا لويس.

- «انتهي من دراستك أولًا».

- «أمامي عام واحد».

- «حسنًا، يجب أن يكون سنك ستة عشر عامًا كذلك».

- «ربما ستكون لديَّ درجة ماجستير في هذه السن».

- «ربما».

- «قلت لي إن باستطاعتي أن أتبعك إلى الميناء».

ابتسم لويس ثم أطفأ الكاميرا وقال: «ستتابعني من هذه النافذة على حاسبك».

لم يكن هذا جيدًا مثل متابعة لويس بواسطة إحدى الدرونات. فلن يمتلك سيطرة على حركة الكاميرا.

قال لويس: «شاهد».

كانوا في حوض سفن صغير، وكانت السفينة روبي سي مستقرة في أحد المراسي تتدلّى من جانبيها سلالم مدهونة بلون فاقع، وكانت ثمة فرقة موسيقية تعزف على السطح.

على متن السفينة كانت هناك مجموعة من الرجال داكني البشرة وفتيات محجَّبات ومنتقبات يرتدين ملابس تغطي كامل أجسادهن، وبين الحين والآخر كان يلمح وجهًا أوربيًّا لرجل أو امرأة أو زوجين.

كان رجال الحراسة يقفون عند كل مدخل، يتفقدون بطاقات الهوية في هدوء ويثرثرون، وبين الحين والآخر يمسكون بأيدي الركاب كي يعينوهم على الصعود أو يحيوا البعض بقبلات على الخدود.

أحب سعد شكل الملابس. كان الرجال والنساء جميعهم يلبسون أردية فضفاضة وأحزمة وأوشحة ذات ألوان زاهية.

تنقلت كاميرا الدرون التي تنقل الصورة لسعد ولويس بين ثلاثة أشخاص مختلفين. واصل سعد تخمين من يكونون، لكنهم كانوا محترفين، وكلما نظر إلى موضع يفترض أن شخصًا كان موجودًا فيه كان يجد المكان خاليًا. لم يجرؤ على التحدث إذ لم تكن لديه فكرة عما إذا كان الصوت سيكون مسموعًا هناك.

كان بمقدوره سماع عزف الفرقة والحوارات الدائرة، أغلبها بلغات لا يتحدثها. وقد خمَّن أن هؤلاء الناس كانوا عربًا أو مصريين، وربما بعض الأمريكيين.

بعد نحو ساعة كان الجميع قد ركب السفينة.

سأله سعد: «هل عرفت شيئًا؟».

قال لويس: «أعتقد أن العاج هناك. أنا متأكد من ذلك مائة في المائة، لكن لا توجد علامة عليه إلى الآن».

- «ما العمل إذن؟».

- «سأواصل المراقبة إلى أن تبحر السفينة، وأثناء الإبحار، وأثناء الرسو».

- «أشكرك على اصطحابي معك».

- «على الرحب».

أنهى سعد الاتصال وذهب كي يرى شقيقته. سألته: «كيف حال الدرس؟».

- «عظيم، درسنا الأدب الأفريقي». كان يجاهد محاولًا تذكر موضوع ذلك الدرس، الذي حضره بالفعل منذ عدة أشهر. وأضاف: «درسنا تشينوا أتشيبي».

- «لا أحب كتاباته».

- «أحب فيه ذكاءه». وفكر قائلًا في نفسه: «مثلي. أنت لا ترين براعتي بعد، لكنني سأحقِّق أمورًا رائعة ذات يوم». لم يقل هذه الكلمات بصوت مرتفع، لكن كانت هذه طريقته لتذكير نفسه بأنه سيتفوق على ماكينا في أمور عديدة حين يكبر. عليه أن ينتظر إلى أن يحين وقته، لكن يومًا ما سيسعدها حين يصير أعظم مما تتخيل هي، تمامًا كما كان يساعدها على أن توفر له ثمن تعليم أكثر تقدمًا بكثير مما تخيله أبوهما. قال بصوت مرتفع: «لقد تحدثت إلى لويس. ربما يعرف مكان العاج».

- «سمعت بهذا». هكذا قالت بينما علت وجنتيها حمرة الخجل. كانت قد اغتسلت. ورغم أن رائحتها الآن كانت أقرب إلى رائحة الشامبو المنعش من رائحة الفيلة التي كانت تركبها، فقد شعر سعد أن ديلبا تنظر إليه من وراء كتف شقيقته.

جلس لويس على أحد المقاعد يحتسي القهوة السادة، بينما كانت السفينة روبي سي تقترب من ميناء شارلستون. كانت المياه التي تفصله عن السفينة تعكس سماءً صافية وتشكيلات دوارة من الطيور البحرية.

كان في شارلستون منذ ثلاثة أيام يبلغ كل وكالة قد تهتم بالأمر بما لديه من معلومات.

كان يرتدي زي عمل أزرق اللون مكون من بنطال جينز وقميص قصير الأكمام وقد أغلق أزرار معطفه في مواجهة البرد، وقد أخذ يفك الأزرار

ويعقدها مرارًا وتكرارًا. ورغم أننا كنا في بداية الشتاء فقد كان الهواء ثقيلًا شديد الرطوبة. لحسن الحظ لم يكن الجو حارًّا، فقط شديد الرطوبة.

كان كل ما يراه يُنقَل عبر نظارته إلى مجموعة من المراقبين في خمس نقاط حول العالم. تحدث إليهم قائلًا: «لقد وصلت السفينة».

سمع صوت سعد يقول: «إنه يوم حظنا».

قالت ماكينا من فوق ظهر ديلبا: «أمسكوا بهم. إن ديلبا تعرف أن شيئًا ما يحدث. لقد رفعت خرطومها في الهواء وتلوِّح لكم».

التقط لويس صورة حية بالأقمار الصناعية لماكينا الجميلة الذكية ووضعها في النافذة اليسرى لنظارته، وتركها هناك حتى يتسنَّى له مشاهدتها. كان خرطوم ديلبا بالفعل مرفوعًا، وكانت تسير وهي تتمايل بهدوء. «من أجلكما» هكذا همس محدثًا كل من الفيلة وراكبتها.

جلست ماكينا وكأنها ملكة السافانا على عرشها الرمادي الضخم. كان جمالها دائمًا ما يجعله عاجزًا عن الحديث. لم يكن قد قابلها بصورة شخصية من قبل قط، وربما لن يقابلها أبدًا. ومع هذا فقد صارت أيقونة المشروع كله، هي وشقيقها، الذي كان على الأرجح أكثر ذكاءً من ماكينا.

قال صوت جديد: «أريد هؤلاء الرجال. من أجل جدتي».

- «مرحبًا أراسيلي». هكذا قال لويس ثم تحقَّق من خط سير روبي سي. لم تكن قد رست بعد، وإن كانت قد اقتربت كثيرًا. «كيف حال جدتك؟».

- «لا تزال الكوابيس تعاودها، فقد رأتهم وهم ينتزعون النابين من لحمها. لقد تولَّت ورديتين أخريين، ولم يحدث شيء فيهما، لكنهم لم يمنحوها تصريحًا بالعمل بعد. إن هؤلاء المراقبين الحمقى من الملائكة يظنون أنها لن تتحمل العمل تحت ضغط، وهم يريدون مني أن أتابعها عبر رحلتين تاليتين».

قال مذكرًا إياها: «هكذا ستحصلان أنتما الاثنان على أجر العمل مرتين أخريين».

- «فقط أمسكوا هؤلاء الأشخاص».

قال: «إما أنني أمسكت بهم بالفعل أو أنهم أفلتوا مني. فلقد انتهى العمل». ومع هذا فقد كان يتحسَّس المسدس الذي يحمله في جيبه. كان يعرف كيف يستخدمه، وهو الذي قضى في بدايات فترة المراهقة بضع سنوات على الحدود الغارقة في المخدرات وأعمال العنف بين الولايات المتحدة والمكسيك. وقد أعاره صديق له هنا هذا المسدس.

لكنه يأمل ألا يحتاج إلى استخدامه.

كان لديه سكين أيضًا يضعه في حذائه عالي الرقبة، وكان مقبضه يحتك بسمَّانة ساقه. بدت كلتا الفكرتين سيئة.

قال مخاطبًا كل المتابعين: «برجاء الصمت». فبالإضافة إلى الأشخاص الثلاثة السالف ذكرهم كان يتابعه اثنان من الأعضاء الكبار بمنظمة ملائكة الأفيال علاوة على محامٍ. جعله هذا يشعر بثقل الحركة دون سبب منطقي.

بينما استدارت روبي سي بحيث يكون جانبها العريض مقابلًا للرصيف، أصدرت محركاتها صوتًا عميقًا متحشرجًا. أمسك عمال الميناء بالحبال الطويلة وبدؤوا في ربطها بالرصيف، منادين على بعضهم البعض.

كانت الطيور البحرية تهبط على سطح السفينة وهي تصيح وتبحث عن فتات الطعام.

كان سطح السفينة السياحية عبارة عن شبكة من الممرات بحجم المربع السكني. وقف لويس على الشاطئ. انفتح جانبا السفينة كي يقابلا تكوينين ضخمين أبيضي اللون لهما مزوَّدين بأوتاد في حجم ذراع لويس. لقد رست روبي سي أمام سفينة أخرى أكبر حجمًا، وقد أقيمت حواجز مؤقَّتة للتأمين، يحرس كل منها رجل مسلح يرتدي زيًّا مدنيًّا له هيئة رسمية.

بدأ بعض المسافرين وأفراد الطاقم يحدِّقون من فوق حواجز السطحين الثاني والثالث. سيكون هذا توقفًا مؤقتًا وحسب، لكنه مثَّل أيضًا أول الساعات التي يقضيها المسافرون على الشاطئ منذ أن غادرت السفينة أفريقيا.

انفتحت الأبواب وبدأت معابر برتقالية اللون في الانفتاح.

سأل سعد: «هل يمكنك الاقتراب؟».

- «سأمنعك من المتابعة لو لم تلتزم الصمت».

- «وحش قاسٍ» هكذا همست ماكينا مغيظة إياه. كانت كلمتها آخر كلمة تُنطَق؛ إذ صمت المراقبون جميعًا وشاهدوا كما يُفترَض بهم.

اندفعت مجموعة مختلطة من خفر السواحل ورجال أمن الميناء بزيِّهم الرسمي إلى المرسى، وقد تعرف لويس إلى بعض الوجود من الوكالات التي طلب منها العون. ارتسمت على وجهه ابتسامة.

تركوا خمسة أشخاص ليشكلوا حاجزًا بشريًّا على الجانب البعيد من الحاجز، بينما مشى الخمسة الآخرون من البوابة واجتازوا الحراس، واتجهوا صوب ضابط المحاسبة الخاص بالسفينة. عرض رجل شرطة على ضابط المحاسبة بعض الأوراق.

هز ضابط المحاسبة رأسه نفيًا.

كان هناك حوار متبادل لكن لويس لم يتبيَّن فحواه، لكن بدا كلاهما عاقد العزم.

اتصل ضابط المحاسبة بشخصين آخرين. فيما يبدو كان يريدهما أن يراقبا رجلي الشرطة، لأنه اختفى بعد ذلك في جوف السفينة.

كان الموقف متوترًا.

كانت المعابر جميعها مفرودة الآن، تتأرجح بين الوضع المستقيم إلى المائل قليلًا، بينما كانت روبي سي تستجيب للدفعات الدورية الطفيفة من محركاتها.

بدأ الركاب في الخروج من أقرب معبر، فسمح لهم الحراس المجاورون للحاجز بالعبور دون أسئلة، لكن الخمسة الموجودين على المرسى أوقفوهم. تعالى صوت نقاشات محتدمة بلغات مختلفة.

بدأت الدرونات الإخبارية في التوافد، وكان الكثير منها لا يتجاوز حجمه حجم قبضة يده، بل كان بعضها أصغر من ذلك. تزاحم عدد من الدرونات على احتلال مواقع للمشاهدة، وكان بعضها يطيح ببعض في الهواء بحيث يسقط في الماء ويطفو فوقه.

استمرت المواجهة طيلة عشر دقائق يشوبها التوتر الشديد.

خرج أربعة رجال ضخام يرتدون بذلات من السفينة، وتوقف اثنان منهم كي يتحدثا إلى السلطات بالخارج بينما شق اثنان آخران طريقهما بين الحشد نحو رجال الشرطة الذين يمنعون الناس من الخروج.

نقل لويس ما يجري بأفضل ما يستطيع قائلًا: «هؤلاء رجال حراسة شخصية، وربما محامون أيضًا». ولدهشته، لم يتحدَّث الرجال إلا بعبارات مقتضبة مع رجال الشرطة، بعدها غادر رجال الشرطة المرسى، يليهم طابور من الركاب.

همس لويس محدثًا المشاهدين: «أيعلم أحدكم ماذا حدث؟».

تحدث المحامي قائلًا: «حصانة دبلوماسية».

أطلق لويس صفيرًا وقال: «اللعنة، على أي أساس؟».

قال المحامي في مرارة: «إحدى النساء على السطح هي السفيرة الجديدة لدولة بنين».

سأله لويس: «لكن لا يزال بمقدورنا تفتيش منطقة البضائع، أليس كذلك».

- «لو أنهم وضعوا ختمًا دبلوماسيًّا عليها، حينها لن نستطيع. عدا ذلك، ربما. سنرى».

غادر بقية الركاب، وكان بعضهم لا يزال يغالب النوم بينما البعض الآخر مفعم بمشاعر الإثارة. بضعة ركاب فقط كان معهم أطفال صغار. كانت النساء يحملن حقائب يد صغيرة، فيما حمل الرجال والأطفال حقائب ظهر، لكن لم يكن أيهم يجر حقائب سفر ثقيلة.

لن يكون بالإمكان تهريب النابين بهذه الطريقة.

كان واثقًا بشدة من أن النابين هنا، وواثقًا من أن الحصانة الدبلوماسية ربما تفلح في حمايتهم، اللعنة عليهم جميعًا. لم تكن هناك أي معلومات عن السفينة على شبكة جلوبو نِت، لكن من الممكن إخفاء أسماء الركاب وجنسياتهم وحساباتهم المصرفية بموجب القانون الدولي.

توقَّفت حافلة وسيارتا أجرة وركب فيها الركاب، بينما حلَّقت الدرونات الإخبارية مبتعدة، فلم يكن هناك ما يستدعي المشاهدة.

كان مستعدًّا للانتظار حتى مغادرة السفينة لو لزم الأمر، إذ كانت السفينة سترسو هنا حتى التاسعة مساءً وحسب. كان قد أحضر معه تفاحة وبعض الجبن في حقيبته، ورغم أنه كان جائعًا فقد خمن أنه سيكون أشد جوعًا فيما بعد. فكر في التحدث إلى ماكينا، لكنها كانت تحب الحفاظ على خصوصيتها، لذا قرر الانتظار وأن يلتزم الهدوء قدر الإمكان بينما يحمل نفسه على مشاهدة الإحصائيات الواردة من برامج الملائكة الأخرى. كانت النمور والخراتيت تبلي بلاءً حسنًا، لكن العالم فقد أربعة حيتان في ثلاث حوادث منفصلة، إذ قُتل حوتان على يد أسطول ياباني لصيد الحيتان، بينما جنح آخر إلى شاطئ باها كاليفورنيا، وقُتل آخر في عملية صيد قانونية على يد السكان الأميركيين الأصليين قبالة ساحل واشنطن.

كان قد تقدم بطلب لمتابعة الحيتان، لكن لم يكن ثمة مكان شاغر بعد. ربما لن يوافق على الذهاب الآن حتى لو طلبوا منه ذلك، فقد كانت الأفيال تحتاج إليه.

على المرسى، سُحبَت جميع المعابر عدا واحدًا.

لم يكن ضوء الصباح الباكر قد تسلَّل بعد من نافذة فرانسين، وبينما كانت تنظر إلى شاشتها على طاولة المطبخ كانت أراسيلي ترنو ببصرها إلى جدتها من حين لآخر. كانت فرانسين تحلِّق بالدرون ببراعة الآن، وبكل رشاقة. كانت تعرف الأفيال بالاسم كذلك.

شاهدت أراسيلي ماكينا عبر كاميرا الدورن. كانت شمس الغروب تغمر الأفيال بضوءٍ برتقالي دافئ، بينما كانت أراسيلي ترتجف وهي ترتدي سترة ذات قلنسوة وخُفًّا من الفراء.

أظهرت خرائط تتبع الحيوانات وجود غزلان الإمبالا قرب القطيع، وتجمع للثيران البرية، لكن لم يكن هناك أي أسود أو نمور أو بشر يمثلوا تهديدًا.

لاحظت أراسيلي وجود حركة في النافذة الخاصة بلويس. كان الوقت صباحًا في شارلستون، وأوحى لها التغير في زاوية المشهد حين وقف لويس بأن شيئًا قد تغير. وبالفعل، كان ثمة قارب صغير يقترب في الماء من مؤخرة السفينة روبي سي.

همست قائلة: «ماكينا، شاهدي لويس».

قالت ماكينا في هدوء: «نعم، أنا أشاهده بالفعل. ثمة قاربان آخران يقتربان».

كان من الصعب عليها أن ترى، إذ كانت الرؤية مرتبطة بما يراه لويس، الذي بدا وكأنه يعدو، إذ كان المشهد أمامها يهتز بشدة لأعلى وأسفل. بعدها سمعت صوتًا عاليًا يقول: «توقف! خفر السواحل».

كان قاربان أكبر حجمًا يطاردان القارب متوسط الحجم الذي اقترب من مؤخرة السفينة السياحية.

كانوا على مسافة ليست ببعيدة من المرسى، مسافة لا يمكن اجتيازها قفزًا، ولكن يمكن قطعها سباحةً.

- «اللعنة».

لم يسبق لها أن سمعت لويس يسبُّ من قبل.

خرج رجال يرتدون زيًّا موحدًّا أسود اللون من منتصف القارب وهم يطلقون النار. كان عددهم ستة على الأقل.

أطلقت بعض الرصاصات من قاربي خفر السواحل.

سقط بعض الأشخاص بأسلحتهم في الماء.

حلَّقت الدرونات الإخبارية فوق رأس لويس.

خفق قلب أراسيلي في عنف، كما لو أنها كانت هناك. كانت تريد من لويس أن يتراجع حتى لا يصاب، لكن لم تكن لها سيطرة عليه.

ظهرت ماسورة مسدس في مجال بصرها، وبدا لها وكأنها هي التي تصوب المسدس. صاحت أراسيلي: «إياك أن تفعل!» قد ينتهي الحال بلويس بالسجن، أو الوقوع في متاعب. علاوة على ذلك، كيف له أن يعلم على من سيطلق النار؟

انضم لها صوت ماكينا.

اهتزت يد لويس ثم زفر قائلًا: «أنتما محققتان».

ثم اختفى المسدس من الصورة.

كان تبادل إطلاق النار قد توقف على أي حال. كانت قوات الشرطة وخفر السواحل ينسقان العمل بينهما الآن، وقد تحرك أحد قاربي خفر السواحل مبتعدًا بينما وقف الآخر بمحاذاة قارب التهريب ودفعه نحو المرسى. أمسكت يد لويس بأحد الحبال وجذبه، ثم أخذ شخص آخر الحبل منه. غادر لويس المكان، إذ تغيرت الصورة التي تصل إلى أراسيلي إلى صورة الرصيف الموجود أمامه. وبعد بعض الوقت استدار لويس كي يمكنهم جميعًا مشاهدة الموقف عن بُعد.

قالت: «لويس، هل حصلوا على النابين؟».

همس لويس: «أجل، حمدًّا لله».

أخرج أحدهم إحدى الجثث من الماء، وكانت تتقاطر منها مياه البحر، والدماء. وقد أوحت الطريقة التي كانوا يتعاملون بها مع الجثث بأنها جثث مهرِّبين.

تدافعت سيارات الشرطة واحدة تلو الأخرى بأضوائها وسارييناتها، ثم سيارتا إسعاف وسيارة إطفاء.

زاد عدد الروبوتات الإخبارية مجددًا.

انتقلت أراسيلي إلى إحدى القنوات الإخبارية، حتى تستطيع أن ترى أكثر مما يستطيع لويس رؤيته. كانت محقة في هذا، فقد كانت القناة تعرض بالفعل صورًا لجوف السفينة ويظهر بها العاج. صاحت بصوت مرتفع: «لقد عثروا عليه!» تفقدت فرانسين، فوجدتها تبتسم ابتسامة عريضة. وقفت ماكينا على رقبة ديلبا وهي ترفع ذراعيها على السماء، وكأنها محارب قديم منتصر. كانت أراسيلي تبتسم ابتسامة عريضة هي الأخرى. وبدا وكأن شعورًا مشتركًا بالسعادة قد قطع المسافة والزمن وغمرهم جميعًا بضوئه.

نظرت فرانسين إليها ثم عادت إلى دوريتها، والدموع تملأ عينيها في مشهد يتعارض مع الابتسامة العريضة المرتسمة على وجهها. شعرت أراسيلي بالتحرر، وقالت مخاطبة ماكينا: «لقد فعلوها، لقد حصلوا على العاج!».

قال سعد مخاطبًا الجميع: «إنه يوم حظنا».

تحولت أراسيلي إلى صورة ماكينا، التي كانت تجلس في هدوء الآن، وإلى صورة الأفيال. كان الصغيران يدفع أحدهما الآخر بينما يتلامس خرطوماهما، ويرفرفان بآذانهما ويندفعان أحدهما نحو الآخر في هجمات زائفة. جلست

ماكينا على ظهر ديلبا تشاهد لعب الصغيرين بينما ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة.

ثم قبَّلت آخر بقايا شمس أفريقيا الصيفية الشمال الغربي البارد.

العهد

إليزابيث بير

يمكن لهذا البرد أن يقتلني، بيد أنه ليس أسوأ من الذكريات. من الممكن احتماله ما دمت أواصل التحرُّك.

ارتطمت قدماي بقارعة الطريق بينما أمر بقسم الشرطة أعلى التل. اندفع كل زفير خارجًا من قناعي، لكن النسيج العازل كان يدفئ شهيقي بما يكفي كيلا يؤذي رئتاي. كنت أركض مسرعةً إلى درجة منعتني من التنفُّس من أنفي، أركض بأسرع ما أستطيع، أركض نحو العاكس المائي التالي الظاهر فوق ضفة قذرة من الجليد. كانت الرياح تدفعني في ظهري، مخترقة النسيج الصوفي المبتل لسترة التدفئة التحتية والسترة العازلة التي تعلوها، وفي ظل هذه المساعدة المتجمدة لم أكن أركض مثلما اعتدت من قبل. وبمجرد أن اجتزت المنعطف نحو ساحة المدافن صارت الرياح في وجهي.

كم أفتقد السرعة التي كان جسدي يركض بها فيما مضى. كنت أسرع من هذا، وكانت عضلاتي أقوى وقتها. إن للذكريات وزنًا ملموسًا، فهي تثقل كاهلك. ومع كل خطوة كنت أخطوها كانت أحمل ثلاث عشرة فتاة ميتة. كانت ذاتي الأخرى تركض خلفي بخطوة أو خطوتين. كنت أشعر بثقل حضورها الخفي غير المادي.

ما دمت تواصل الحركة، ليس الأمر بهذا السوء. لكن أحيانًا يتآمر كل شيء في العالم ضدك كي يمنعك من التحرك بالسرعة الكافية.

اجتزتُ القوس الحجري القديم ودخلت ساحة المدافن، تحت الأشجار التي يتلألأ عليها الجليد، ومررت من البوابة الحديدية التي يبقيها الثلج الساقط مفتوحة. كانت الرياح شديدة كما توقعتها، بل أشد قوة، فرفعت درجة التدفئة

التي توفرها سترتي. من شأن هذا أن يستنفد البطارية، لكن لا يزال أمامي خمسة كيلومترات لأقطعها وكنت بحاجة إلى الدفء. كان الجو يزداد برودة مع شروق الشمس، وأخذت السحب تنزاح في الأفق جهة الغرب: كانت ثمة جبهة هوائية باردة آتية. أطفأتُ ضوء الأكمام بإشارتي التالية، رغم أن هذا لن يحدث أي فارق. كانت السماء توفر من الضوء ما يكفي كي أركض لنحو نصف الساعة، وكان لضوء الأكمام بطاريته الخاصة. إن مصباح لِيد صغير لا يستهلك كثيرًا من الطاقة.

© Haylee Bolinger / ASU ,2013

تخيلت الدوائر المرنة المزروعة في دماغي وهي تدخل في حالة من السكون في الوقت عينه. وحتى أضواء الليد الأصغر ذات خلايا الطاقة الأكثر تقدمًا أُطفئت. إن المنظمات الضوئية تغلق نفسها حين يعمل دماغي على نحو سليم. في المعتاد تحافظ المعالجات الصغيرة على سلامة تفكيري وتبقيني في حالة آمنة، إذ تراقب نشاطي الدماغي وتنشِّط أجزاء اللحاء العصبي المعنية بالأخلاقيات والتعاطف والحنو. لكن حين أركض يتولى دماغي - دماغي المختل القاتل «المُعالَج» - حماية نفسه بينما يجري تنشيط المسارات العصبية بواسطة الإشارات الكيميائية العصبية الخاصة بي.

فقط كان الجزء العلوي من جسدي يشعر بالبرد، ورغم أن الرياح كانت تجمِّد فخذيَّ وساقيَّ وكأنها حمام ثلجي، فقد كانت العضلات ساخنة بفعل المجهود. كما أن السترة كانت تقيني شر الرياح التي ترتطم بظهري.

كان حذائي يومض باللونين الوردي والأصفر على امتداد الطريق الضيق الذي يصعد التل. كانت شواهد القبور تبرز من الأراضي التي جرفتها المياه وكأنها

أسنان مُدَخِّن، بينما العفن الأسود يغطيها كما لو كانت مرشوشة بدهان، فيما تراكمت أعلاها ثلوج بيضاء لامعة. بعض هذه الشواهد يعود إلى القرن الثامن عشر، لكنني كنت أركض هناك فقط في أوقات الصيف أو حين لا يسقط الثلج. لا تطال عمليات الصيانة هذا الجزء من باحة الكنيسة، فلا أحد يأتي لزيارة أولئك الموتى مطلقًا.

تمامًا مثل الرجل الذي كنتُ عليه.

مثل أولئك اللاتي قتلتهن، رغم أن بعضهن لا يزال يحظى بالزيارة كل عام. كنت أعرف أنه من الأفضل لي ألا أحضر، رغم أن ذاتي القديمة كانت ستحب التحديق في حبور، كي أعاود الإحساس بشعور الإثارة الناجم عن موتهن. أما شخصيتي الجديدة ... فتشعر بنوع من ... الالتزام. لكن أحباءهن لا يعرفون هويَّتي الجديدة، ولا أحد يدين لي بالخلاص.

عليَّ أن أرضى بما أجد. غرقتُ في ذلك المكان الجميل الهادئ الذي يلائمني، تلك السماء الزرقاء التي يستحيل أن توجد في مكان آخر، وتلك الحركة المتباهية لطائر مغرد، حيث يموت جسدي لكن يظل عملي باقيًا.

كنت أركض، ولا أزال أركض.

حين التقت عيناه بعينيها تخيَّل حلقها بين يديه. جلدها الشبيه بجلد العجول الناعم المدبوغ، حرارة وصوت تهشُّم عظام رقبتها بينما يضغط بإبهاميه على شرايينها العنقية. تخيل كيف ستتلوَّى وتقاتل وتُهزَم.

أصدرت السلاسل الملتفة حول وسطه صوت صلصلة حين انتفضت يداه، محرِّكة الأصفاد المشدودة بإحكام حول معصميه.

رفعت عينيها عن ملاحظاتها. كانت عيناها ذاتا لون كستنائي متغير؛ بحيث تبدو زرقاء اللون في هذه الإضاءة، ورمادية ضاربة إلى الأخضر في غيرها. أخفت الضواء المنعكسة على نظارتها الركن الذي كان النص يظهر عليه. سيكون الخط صغيرًا للغاية بحيث لا يمكن رؤيته على أي حال، كما أنه معكوس، وكانت الطاولة المقيَّد إليها تخلق مسافة بينهما.

انتظرت في تهذيب، وبدت غير مدركة أنه يتخيل هاتين العينين الكستنائيتين وهما تمتلئان بالدماء، وهذا الجلد الفاتح الجميل وهو يتحوَّل ببطء إلى اللون الأرجواني. ترك الصمت يخيم على الأرجاء إلى أن صار له ثقل ملحوظ.

«هل ترغب في قول أي شيء؟» هكذا سألته بلهجة هادئة ومشجِّعة بقدر ما.

فكَّر في نفسه: أشيري إليَّ.

ثم هزَّ رأسه نفيًا وقال: «أنا أستمع».

نظرت إليه بلطف للحظات. شعر بحكة في أصابعه، وأخذ يخمش القماش الخشن للزي البرتقالي بأطراف أظفاره، لكنه توقَّف. فبسبب صمتها كان صوت الخمش مسموعًا.

أكملت قائلة: «المحكمة مدركة أن جرائمك ما هي إلا نتيجة لخلل عصبي يجعل اللوزة الدماغية تعمل بشكل غير صحيح. لدينا في الوقت الحالي التكنولوجيا القادرة على إصلاح التلف. هي ليست تكنولوجيا تجريبية، وقد استُخدمت بنجاح في عشرات الآلاف من الحالات بغرض علاج حالات الخلل العصبي المتنوِّعة مثل الاكتئاب والوساوس والاضطراب ثنائي القطب واضطراب الشخصية الحدِّي علاوة على مجموعة الاضطرابات التي يُشار إليها عمومًا بمتلازمة انفصام الشخصية».

كان التكوين الرقيق لعظم ترقوتها يبهره. يلزم الضغط بقوة أربعة عشر رطلًا، على الموضع المناسب، من أجل كسر ترقوة الشخص، وهو ما يجعل الذراع عاجزة لوقت طويل. فكر في التطبيق الملائم لهذا الضغط، ثم قال: «أخبريني المزيد».

- «إنهم يأخذون خلاياك العصبية، المستزرعة من خلاياك الجذعية في ظروف معقَّمة داخل مختبر، ثم يعدِّلونها باستخدام جينات ميكروبية أوبسينية. هذا الأوبسين هو صبغة حساسة للضوء شبيهة بتلك الموجودة في الشبكية البشرية. بعد ذلك يُعاد زرع الخلايا العصبية في مناطق محورية بالدماغ. إنها عملية شديدة الإحكام. وبمجرد زرع الخلايا، وتحفيزها على تكوين روابط عصبية ملائمة، تُجرى جراحة ثانية بهدف زرع أداة طبية عبارة عن مجموعة من المعالجات والمستشعرات والصمامات الباعثة للضوء تتصف بكونها مرنة وفائقة الصغر. هذه الأداة تراقب الكيمياء العصبية والنشاط الكهربي في دماغك، وتعدله كي يحاكي النشاط الصحي الطبيعي». ثم توقَّفت وشبَّكت أصابعها على الطاولة.

قال ساخرًا: «صحي؟».

لم تتحرَّك.

- «هذا وصف تمييزي ضد من يعانون شذوذًا عصبيًّا».

قالت: «ربما». كانت أظافر أصابعها متصلة بمخطَّطات للتوصيل الكهربائي. «لكنك قتلت بالفعل ثلاث عشرة فتاة، وقُبض عليك. إن حقوقك المدنية تسقط عنك حين تقترف شيئًا كهذا».

ظل صامتًا. لم تكن مستشعرات النبض مشكلته من قبل قط.

قالت: «ليس سبب إعادة التأهيل هو مرضك العصبي، وإنما جرائم القتل التي ارتكبتها».

قال: «تحكُّم دماغي».

قالت: «بل إصلاح دماغي. لا يمكن أن يُحكَم عليك بالخضوع لهذا العلاج الطبي، لكن يمكنك التطوُّع. يُفسَّر هذا عادة على أنه دليل على الندم والرغبة في إعادة التأهيل، وعلى الأرجح سيأخذ القاضي هذا في اعتباره قبل الحُكم عليك».

قال: «يا إلهي. أفضل أن أصاب برصاصة في دماغي عن أن تزرعوا فيها كمبيوترًا لعينًا».

- «لم تعد الرصاصات تستخدم منذ وقت طويل». هكذا قالت وهي تهز كتفيها، كما لو أن الأمر لا يعنيها، وأضافت: «كانوا فيما سبق يستخدمون الحقنة القاتلة أو غرفة الغاز، أما الآن فلدينا عملية التصحيح الدماغي، أو يمكنك قضاء بقية حياتك في زنزانة مساحتها ثمانية أقدام في اثني عشر قدمًا. الخيار لك».

- «يمكنني التغلب عليها».

- «التغلب على عملية التصحيح الدماغي؟».

فقط أشيري إليَّ.

- «ماذا لو أمكنني التغلب عليها؟».

- «إن نسبة النجاح تبلغ مائة في المائة، عدا قلة قليلة لم يستفيقوا من التخدير قط». ثم رسمت ابتسامة على وجهها وأضافت: «لو كان هناك شخص مرضه يستعصي على العلاج بهذه التقنية فمن المؤكد أنه من الذكاء الكافي بحيث يحتفظ بهذه الحقيقة لنفسه. وبالذكاء الكافي بحيث لا يتم الإمساك به للمرة الثانية».

قال لنفسه: إنها تتلاعب بك، أنت أذكى منها. أنت أذكى بكثير من أن تنطلي عليك هذه الحيلة.

إنها تلعب على غرورك. لا تسمح لها باستفزازك. إنها تظن أنها ذكية، لكنها مجرد فريسة، وأنت الصياد. أنت أكثر تطورًا منها. لا تسمح لها بالتلاعب بك ...

لكن شفتاه قالت: «فلتسجِّلي اسمي يا سيدتي».

كان الثلج يصدر صريرًا تحت خطواتي. قد تُقتلع أشجار الليلة. أؤلف قصيدة في رأسي.

الموضة الرائجة في الشعر هي الاعتراف. لم يكن الحال كذلك على الدوام، لكننا الآن نحكم على القيمة من واقع مقدار تلصُّصنا، من واقع مقدار العُري الذي نظن أننا مدعوون للتجسُّس عليه. لكن هذا هو الفن: أستار وأكاذيب.

لو أنني كتبت قصيدة اعترافية فستبدأ على النحو التالي: كان رداؤها فيروزي اللون، لكنني قتلتها على أي حال.

يجب أن تكون القصيدة الاعترافية حقيقية. ليست حقيقية على النحو الذي يضرب به الهواء المتجمِّد رئتي رغم ارتدائي القناع، وليست حقيقية على النحو الذي توجد به المدافن والطير المغرِّد والأحجار البالية.

لم تكن هي الوحيدة، بل كانت هناك اثنتا عشر فتاة أخرى مثلها. مثلها بمعنى أنه ولا واحدة منهن كانت المنشودة، ولهذا كان لا بد دومًا من أن تموت فتاة أخرى.

إن قدرتي على النظر إليهن بهذه الصورة لهو انتصار في حد ذاته لذاتي القديمة، انتصارها الوحيد ربما، رغم أنها من العجرفة بحيث تتوقَّع العديد من الانتصارات الأخرى. إن ذاتي القديمة تظن أن بمقدورها التغلب على عملية التصحيح الدماغي.

هذا هو السبب الوحيد الذي دفعها للموافقة عليها.

لو أنني كتبت قصيدة، فسيود الناس قراءتها. سوف أبيع مليون نسخة، وستجذب اهتمامًا أكبر بكثير مما أفعله.

لن أكتبها. لا أريد حتى أن أتذكرها. كانت المحكمة العليا قد حكمت بأن استئصال الذاكرة صورة من صور حُكم الإعدام، ومن ثم فهو أمر غير دستوري منذ عام 2043.

لم يستطيعوا استئصال ذاكرتي كجزء من العقوبة، بدلًا من ذلك سلبوني المتعة التي كنت أستقيها منها.

ليس معنى هذا أنهم كانوا يقرُّون أن هذا إجراء عقابي، إذ كانوا يصفونه بأنه «إصلاح». عملية «تصحيح دماغي»، إصلاح للمشكلات. إن السيكوباتية مرض يمكن الشفاء منه.

منحوني وجهًا جديدًا، ودماغًا جديدًا، واسمًا جديدًا. ومن خلال عملية إعادة تعيين الكروموسومات اخترت لنفسي شخصية جديد تبعد كل البُعد عن ذاتي القديمة.

رأت ذاتي القديمة كذلك أن هذا سيثبت حسن النيات: مستويات تستوستيرون مُخفَّضَة، عدوانية مُخفَّضة، قوة بدنية مُخفَّضة. قليل من النساء يصرن سفاحات.

بدا كل هذا في نظر ذاتي القديمة كذبة مقنعة.

كانت ذاتي القديمة تظن - كلا بل في الواقع أنا؛ إذ إن إبعاد الأفعال غير المريحة عن الذات لهو شيء يفعله السيكوباتيون - أنني أقوى من علم البيولوجيا، وأقوى من عملية التصحيح الدماغي. كنت أظن أن بمقدوري تعاطي الستيرويدات الابتنائية كي أعيد عضلاتي وغضبي إلى ما ينبغي أن يكونا عليه. كنت أظن حقًّا أن بمقدوري الإفلات بهذا.

وما زلت أظن حقًّا أنني أريد هذا.

يمكنني كتابة هذه القصيدة، لكن ليست هذه هي القصيدة التي أكتبها. إن القصيدة التي أكتبها تبدأ كالآتي: شواهد القبور تشبه أسنان المدخنين ... عدا أنني لا أدري ما سأكتب في الشطر الثاني من البيت، ومن ثم أنشغل بهذا الأمر بينما أركض.

أنهيت الدورة الأولى ثم شرعت في دورة ثانية لأن الرياح كانت قد توقَّفت ولأن قلبي كان يدق وكنت أشعر بالخفة واليقظة والطاقة والرغبة. وحين هبطتُ التل كنت أقفز قفزًا. قطعتُ قوسًا طويلًا مرورًا بالجسر متَّجهًا نحو حافة البلدة، واختلستُ نظرة سريعة إلى المياه المتجمِّدة. كان الهواء يزداد دفئًا مع شروق الشمس، ولم تعد أصابعي تشعر بالخدر في قفازي.

حين مرَّت شاحنة التوصيل البيضاء إلى جواري ثم توقَّفت، استغرقتُ لحظة كي أدرك أن السائق كان يريد جذب انتباهي. ضغط السائق على بوق السيارة فتوقَّفت عن الركض، وأوقفت عداد الركض الخاص بي وأخرجت السمَّاعة من أذني. وقفت على مسافة بضع خطوات من النافذة. نظر السائق إليَّ، ثم أجفل في حرج وأشار إلى شاشة نظام الملاحة الخاصة بالسيارة وقال: «هل يمكنك أن تساعديني على العثور على شارع جرين؟ إن وضع القيادة الآلية ليس مجديًا».

قلت وأنا أشير بيدي: «بالتأكيد. الشارع الثالث إلى اليسار. إنه شارع غير مُطوَّر بعد، ربما لهذا السبب ليس له وجود على خريطتك».

- «أشكرك». هكذا قال، ثم فتح فمه وكأنه يوشك على قول شيء آخر، اعتذار من نوع ما، لكنني قلت: «حظًا سعيدًا يا رجل!» ثم لوَّحت له في مرح.

لم يكن وجود الشاحنة هنا شاذًّا كما قد يكون في أحد شوارع المدينة، حتى بعد أن عُدِّلَت نصف المدن كي تلائم الزراعة الحضرية إلى درجة أنه لم تعد توجد بها شوارع إلا نادرًا. لكن ما أثار ارتباكي هو المفارقة التي انطوى عليها الموقف، لذا بعد أن انطلق بالشاحنة أدركت أنه كان ينبغي عليَّ أن أكون أكثر حذرًا، وأن أدرك أن رد فعله لم يكن الحرج الناجم عن اضطراره للسؤال عن الاتجاهات، وإنما الحرج الذي يصيب أي شخص طبيعي محترم أدرك أنه وضع امرأة في موقف ربما تشعر فيه بعدم الأمان. حين فكرت في كل هذا، وهو شيء أعتقد أن أغلب الناس سيتفهمونه بصورة غريزية، كانت الشاحنة في سبيلها للدوران حول أحد المنعطفات.

تمنَّيت لو أنني ركضت خلف الشاحنة وأخبرته أنني لم أكن قلقة قط، أنه لم يخطر على بالي أن عليَّ أن أقلق. من الناحية الديموغرافية لم يكن من المرجح أن السائق يسعى إلى إلحاق الأذى بي، فقد كان أسود البشرة، وأنا بيضاء.

كما أن خوفي المبكر من الاختلاط بالبشر بدأ يتبدَّد على أي حال.

وبينما كان انتباهي لا يزال مركزًا على الشاحنة المبتعدة شعرت بغطاء داكن ثقيل ذي رائحة نفَّاذة يوضع على وجهي.

شهقت في دهشة، وأنقذني قناعي المزود بفلتر لوهلة قصيرة. تبينتُ الرائحة الكحولية للمخدر وشعرت بالعالم يدور من حولي، لكن القناع منحني لحظات قليلة إضافية كي أدرك ما يحدث، كنت ضحية هجوم مباغت. كان أحدهم يريد اختطافي. أمسك المختطف بذراعيَّ وجذب مرفقي إلى الوراء كي يمنعني من إزاحة القناع عن وجهي.

حاولت الإفلات وأنا أركل بقدمي، لكنه كان قويًّا للغاية.

هل كنتُ بهذه القوة؟ بدا وكأنه لا يبذل أي جهد في السيطرة عليَّ، ورغم أنني ضربته بكعب قدمي في قصبة ساقه بينما كان يرفعني فإنه لم يتأوَّه. لن يستطيع القناع مساعدتي إلى الأبد …

… ولن يساعدني حتى لفترة كافية.

يقولون إن الأحلام التي تراودك وأنت تحت تأثير المخدر تكون شديدة الوضوح.

كانت أولى ضحايا ذاتي القديمة فتاة ذات رداء فيروزي اللون، أعتقد أن اسمها كان إميلي، أو جيسيكا، أو غير ذلك. تقابلنا في إحدى الحانات. كانت السيارات الخاصة وقتها نادرة، لكني كنت أستعير سيارة والدي هذه الليلة. ركبت معي السيارة رغم أنني كنت بذيئًا معها - أو ربما بسبب ذلك - كما لو كانت تعرفني منذ زمن بعيد. شاهدنا شروق الشمس فوق أحد حقول الذرة، وبعدها بدقائق خنقتُها في المقعد الخلفي للسيارة.

صرخت الفتاة وقاتلت وتقيَّأت. أدركت لاحقًا أن هذه كانت حماقة مني. كان عليَّ أن أخفي الجثة لأن عددًا كبيرًا من الأشخاص شاهدونا ونحن نغادر الحانة معًا.

لم أنجح في إزالة الرائحة من السيارة، وقد ضربني والدي ضربًا مبرحًا ومنعني من استخدامها ثانية.

كلنا نرتكب الأخطاء ونحن صغار.

استيقظتُ وأنا أشعر بدفء سترتي المشبعة بالعرق، وأشم رائحة القيئ الجاف بين خدي والأرضية الإسمنتية. على الأقل لم آكل شيئًا سوى الشوفان، فالمرء لا يأكل الكثير قبل ركض مسافة طويلة. كان جسدي يئن من الألم، لكن أكثر ما يؤلمني كان كتفي وردفي الملاصقان للأرضية الإسمنتية. عليَّ أن أكون ممتنة لأنه تركني في وضع التعافي، ولهذا لم أختنق.

كان الظلام حالكًا لدرجة أنني لم أكن أعرف ما إن كان جفناي مفتوحين أم مغلقين، لكن كان الغطاء قد أزيل من على رأسي ولم تتبقَّ إلا آثار يسيرة من الرائحة النتنة. رقدت ساكنة، أستمع وآمل أن يتوقَّف دماغي عن محاولة شق جمجمتي.

كنت أرتدي الزي نفسه، بما في ذلك حذائي. كان قد قيَّد يدي خلف ظهري لكنه لم يربط إبهامي معًا. لا بد أنه هاوٍ. استنتجت أنه ليس في الغرفة عينها معي، وعلى الأرجح ليس في مكان قريب. لم أستطِع سماع أي شخص يسير على أرضية الطابق العلوي.

لم يكمِّم فمي، وهو ما أنبأني بأنه واثق من أنه ليس بالإمكان سماعي لو صرخت. هل يمكن أن يكون هذا هو السبب الذي يمنعني من سماعه بالمثل؟

كان وجودي بمفردي يعني أنني ضحية عملية اختطاف غير مخطّط لها، ويعني أن عليه أن يكون موجودًا في مكان آخر. مراجعة لإطلاق السراح المشروط؟ عشاء مع والدته التي تدعمه ماليًّا؟ مقابلة مع سمسار الأسهم؟ يبدو أنه شخص منظَّم، من الممكن أن يكون أي شيء. لكن بصرف النظر عما يشغله فمن المؤكد أنه أمر مهم، وإلا ما كان ليغادر.

حين تكون لديك دمية جديدة، هل يمكنك مقاومة اللعب بها؟

بدأت أتحسَّس ما حولي بيدي. ليس الأمر صعبًا لو كنت تتمتع باللياقة البدنية والمرونة، كحالي، رغم أنني لم أكن مواظبة على التدريبات البدنية. لست خائفة، رغم أنه ينبغي لي أن أكون كذلك. أعرف أكثر من غيري ما سيحدث بعد ذلك، لكنني أكثر هدوءًا مما كنت عليه حين كنت شخصًا آخر. لا يزال الأدرينالين يهدِّئني، كما كان الحال من قبل. الفارق الوحيد هذه المرة ... حسنًا، لقد ذكرتُ المفارقة بالفعل.

وعلى الأرجح ليست حتى الصمامات الضوئية المزروعة في دماغي هي ما يهدِّئ من روعي.

لطالما كان لتاريخ التكنولوجيا تبعات غير متوقَّعة. فمن كان ليظن أن ذروة استخراج النفط سترتبط على نحو واضح بارتفاع السلوك السيكوباتي؟ أغلب الناس لا يفكِّرون في الأمر كثيرًا، لكن الناس لم يعودوا يتحرَّكون كما اعتادوا فيما سبق. نحن نعيش في تجمُّعات سكانية ذات كثافة متزايدة أيضًا، ونسافر بمعدَّل أقل. وكل هذا يؤدي بنا إلى معرفة بعضنا بعضًا بدرجة أقل.

إن الناس أمثال ذلك الشخص الذي اختطفني - الناس أمثالي - يحتاجون قدرًا من غموض الهوية، سواء غموض هويتهم في نظر الغير أو غموض هوية ضحاياهم.

أشعر بالأرض الباردة تحت ردفي. لقد خُلع قفازي. يحتك معصماي بباطن حذائي بينما أحاول تمرير الحبل منه. حذائي مبلل والمياه ليست متجمِّدة أو أبرد من الأرضية. لقد كنت هنا بالأسفل لبعض الوقت، هذا بفرض أنني بالأسفل فعلًا. في المعتاد يكون للأقبية نوافذ، لكن الأشخاص أمثالي - أمثال الشخص الذي كنت عليه - يقضون وقتًا طويلًا في التخطيط مقدَّمًا. إنهم يتدرَّبون، وينسجون شِباكهم ويجهِّزون الشراك وكأنهم عناكب خفية.

كنت أرتجف، وكان جسدي على وشك التشنُّج استجابة للبرد القارس. واصلت الجذب. وبعدِ التملُّص مرة أخرى والشد صار ذراعاي أمامي. جِلست

وفردت جسدي، آملًا أن يكون الخاطف قد ارتكب خطأ واحدًا إضافيًّا. كان الظلام حالكًا لدرجة أنني لم أرَ سترة الركض الخاصة بي ذات اللونين الأصفر والأخضر الزاهيين، لكن عن طريق الإحساس بجسدي استطعت أن أمس معصمي بأنفي. وهناك، داخل الجيب الصغير الخاص به، وجدت ضوء الأكمام الصغير الذي يأتي ملحقًا بالسترة.

لقد حصل على القناع، أو ربما انتُزع القناع مع الحقيبة. كما حصل على هاتفي، الذي يحوي عداد الركض ونظام التموضع العالمي (جي بي إس). لم يرتكب الخاطف الخطأ الذي تمنَّيت أنه ارتكبه.

ضغطت الزر الموجود على الكم بأنفي.

كان الضوء ساطعًا على نحو صادم، فمددت أصابعي حوله كي أحيط به على أفضل ما أستطيع. أضاء لحمي باللون الأحمر بين عظامي.

أجل، أنا في قبو.

بعد ثماني سنوات من جريمتي الأولى أرشدت ذاتي الجديدة المحسَّنة رجال المباحث الفيدرالية إلى القبر الذي حفرته للفتاة ذات الرداء الفيروزي. لم أنسَ مكانه قط، ولا الشجرة الوارفة التي كانت تميل فوق الحجر الصغير الذي وضعته فوقها من أجل إبعاد الحيوانات، ولا كرمة اللبلاب التي سحبتها فوقه، مسببًا لنفسي التهابًا حادًّا بالجلد.

هذه المرة كنت أنا من تقيأ.

كيف يمكن للمرء أن يعترف بأنه ارتكب شيئًا كهذا؟ كيف لي أن أفعل هذا؟

آه، ها هو الخوف. ليس الخوف تحديدًا، لأن المنظمات الكيميائية والجينية الضوئية التي تؤثِّر على جهاز الغدد الصماء لديَّ كانت تبقي مستويات الانفعال لديَّ منخفضة للغاية. إنه القلق، لكن القلق صديق قديم.

إنه شيء يشغل بالي بينما أعمل على تحرير نفسي من الحبال والشريط اللاصق بأسناني. كان الضوء يسطع قرب أنفي كاشفًا الأوردة المارة بين الغضاريف واللحم بينما أقرض بأسناني. كنت حذرة، فقد كنت أقرض وأمزِّق دون أن أجذب الحبال بأسناني، إذ لا يسعني المخاطرة بكسرها، لأنها أفضل سلاح وأفضل أداة أمتلكها حاليًّا. لذا عملت في حرص وحذر، رغم قلبي الذي

كان يدق في عنف والصوت الذي يتردَّد في عقلي ويقول: «أسرعي، أسرعي، إنه قادم».

لكنه ليس قادمًا، على الأقل لم أسمعه بعد. استغرق تمزيق القيود وقتًا طويلًا، كم أتمنى لو كانت لي أسنان ذئب، أسنان للقطع والتمزيق، أسنان يمكنها أن تخترق أي مادة كما لو كانت شطيرة من الجبن. تخيَّلتُ مدى سرور ذاتي الأخرى بمشقتي هذه، بقلقي. أتساءل لو كانت ستستمتع بالأمر لو عاد الخاطف، رغم أنها حبيسة هذا الجسد معي.

هل لها وجود حقًّا، ذاتي الأخرى؟ من الناحية العصبية نمتلك جميعنا شخصيات عديدة داخل رؤوسنا طوال الوقت، ولن نستطيع سماع أغلبها. ربما غيروها بالفعل، ودمروها. ربما حولوها إلى شخصيتي الحالية، أو ربما هي موجودة في مكان ما، حبيسة ومقيدة، لكنها تراقب.

مهما يكن، أعلم يقينًا رأيها في هذا. لقد قتلت ذاتي الأخرى ثلاثة عشر فتاة، وستود أن تقتلني أنا أيضًا.

كنت أرتجف.

كانت السترة باردة الآن، وقد صارت مشبَّعة بالماء، مثلي تمامًا. لا يزال الصوف يعمل كمادة عازلة حتى وهو مبتل، لكن ليس بما يكفي. لم يكن للسترة ولا لسروالي الرياضي الضيِّق أي تأثير.

أتساءل إن كان الخاطف يدرك ذلك، أتساءل إن كانت تلك هي اللعبة.

بوضع كل الاحتمالات في الاعتبار، ليس التجمد حتى الموت بهذا السوء.

أمن الممكن ألا يكون مدركًا للخطر وحسب؟ فليس كل شخص يعلم بشأن تأثير البرد.

انقطعت آخر لفات الشريط اللاصق، والتصقت بشفتي السفلية المتشقِّقة وانتزعت معها بعض بقايا الجلد حين انتزعتها متحرِّرة. إن حمضي النووي متناثر الآن في أرجاء هذا القبو. بصقت في أحد الأركان كذلك. اتركي آثارًا تدل على وجودك، حتى إن كنت تعلمين أنك ستموتين، بل حين تعلمين أنك ستموتين. افعلي كل ما في وسعك كي تتركي آثارًا تدل على وجودك.

كان جلدي الموجود تحت أظافر واحدة من ضحاياي هو ما أوقع بي في السابق.

الفترة التي خضعت فيها ذاتي القديمة لعمليات التعديل البدني والعقلي التي حوَّلتها إلى شخصيتي الجديدة منحتني شعورًا جديدًا ... ليس شعور التعاطف، لأنهم عدلوا الجسد قبل مباشرة عملية التصحيح الدماغي، ولم يسبق لي أن خبرت شعور التعاطف قبل أن يصبح عمري ثلاثة وثلاثين عامًا ... لكنها منحتني، ومنحت ذاتي القديمة، شعورًا جديدًا لم يراودني من قبل.

كان ذلك الشعور يؤرِّقني بشدة، وكأنك في فترة البلوغ.

في أحد الأفلام القديمة التي شاهدتها يعود بعض الأشخاص من المستقبل في الزمن ويزورون أحد المستشفيات. أحد هؤلاء الزوار طبيب، وقد أنقذ حياة امرأة كانت تنتظر إجراء غسيل كلوي أو زراعة كلى بأن منحها حبة دواء تسبَّبت في نمو كلية جديدة لها.

هذه تقريبًا هي الكيفية التي حصلت بها على مبيضين، رغم أن الأمر تضمَّن خلايا جذعية واستخدام الإبر، بالإضافة إلى الحبوب.

كنت لا أزال «هو»، لأنهم لم يصلحوا التلف الدماغي بعد. كان عليهم أن يبقوه تحت السيطرة خلال عمليات التعديل البدنية التي كانت تجري. كان رهن الإقامة الجبرية، لكنها إقامة جبرية كيميائية. إذ غرسوا داخله اضطراب القلق ورهاب الخلاء.

لا يبدو الأمر سيئًا لهذه الدرجة إلى أن تدرك أن الأصفاد العصبية قوية للغاية لدرجة أن حتى مجرد الخطو خارج باب منزلك يمكن أن يتسبَّب في انهيارك على الأرض. من المفترض وجود بعض الإجراءات الوقائية، لكن كلنا سمعنا عن مجرمين كانوا رهن الإقامة الجبرية الكيميائية احترقوا حتى الموت، لأنهم لم يستطيعوا حمل أنفسهم على الخروج من مبنى محترق.

كانت ذاتي القديمة تظن أن باستطاعتها التغلب على عملية التصحيح الدماغي، والإقامة الجبرية الكيميائية. التغلب على كل شيء.

اللعنة، كم كنت متعجرفًا.

كانت لدى ذاتي القديمة أسباب أكثر لهذه العجرفة. أرى أن هذا أمر مثير للشفقة. بعد هذا ضحكت، فقد كانت ذاتي القديمة هي التي جاءت بي إلى هذا

القبو في المقام الأول.

حريٌّ بي أن أترك الأمر يجري دون معارضة مني، سيكون هذا عادلًا. أمر باعث على المفارقة، لكنه عادل.

كما أن موتي هنا سيعني أن مزيدًا من النساء سيلحقن بي في هذا القبو. واحدة تلو الأخرى.

فككتُ وثاق كاحلي أسرع مما فككت وثاق يدي. بعد ذلك وقفت وبدأت السير في أرجاء القبو، وأديت بعض تمارين الوثب والجري في المكان، وسلطت الضوء من حولي. خفَّف النشاط حدة الارتجاف، والآن صار رعشة خفيفة، وليس رعدة تهز الكيان. كانت عضلاتي متيبسة، وعظامي تئن، وثمة شد عضلي في ربلة ساقي اليسرى.

ثمة باب مغلق بمزلاج، أما النوافذ فقد سُدت بقوالب طوب حديثة لا تتوافق مع بقية الجدار. هذا هو أفضل خيار متاح أمامي، فقط لو أمكنني أن أجد شيئًا أدق به، شيئًا أحفر به، ربما أستطيع كسر الملاط وعمل فتحة بها.

أملك يداي وأسناني وضوئي الصغير الذي عليَّ إطفاؤه كي لا أنبه المختطف.

كما أن درجة حرارة جسدي تعلو بالكاد نقطة الخطر.

حين دخلت مكتب المعالِجة التي عينتها المحكمة للمرة الأخيرة - قبل إعادة تسكيني في مكان جديد - نظرتُ إلى بشرتها الوردية، وإلى الطريقة التي ينعكس بها الضوء على عينيها من خلف النظَّارة. تذكرت ما فكرت فيه ذاتي القديمة.

كم تمنيت وقتها لو أنني انتزعت جلدي عن جسدي وتركته يسقط على الأرض كشيء فاسد مقزز، لكن بالطبع لم يكن جلدي هو ما تلف وتعفن، بل شيء آخر في أعماق دماغي.

سألتني: «ما شعورِك بعد أن صارت اللوزة الدماغية تعمل لديكِ؟».

قلت: «شعور سيئ».

ابتسمت في هدوء ثم قامت لتصافحني، للمرة الأولى، كي تنهي هذا الفصل من حياتي، فهذا هو المفترض فعله.

قلت لها: «أشكرك من أجل كل الحيوات التي أنقذتها».

قالت: «ولكن ليس من أجل حياتك أنتِ؟».

ضغطتُ على أصابعها برفق وهززتُ رأسي.

كانت ذاتي الأخرى تنتظر في الظلام معي. كم أتمنى لو كنت أتمتع بقوتها البدنية، بصلابتها، باقتناعها أن كل شخص آخر في العالم أبطأ منها وأغبى وأضعف.

في قاعة المحكمة، بينما كنت لا أزال في ذاتي الأخرى، نظرت من منصة الشهود إلى وجوه أمهات وآباء الفتيات اللاتي قتلتهن. أذكر أنني رأيت أحد عشر امرأة وسبعة رجال، وأذكر كيف كانوا يركزون بصرهم عليَّ، وكيف كانوا يجلسون، ويستكينون، وينتبهون.

كنت أفكر في الفتيات بينما أدلي بشهادتي. كان الشيء الوحيد الذي يدفعني في التفكير فيهن كأفراد هو معرفة أي أب وأم ينتميان إلى أي جثمان، وهو أمر مهم لأنه كان ينبئني بمن يجب أن أراقب كي أحصل على الاستجابة المثلى.

أتمنى لو أنني لم أعرف ما يكون عليه شعور الضحية. قلت لنفسي إن البرد وحده هو ما يجعل أسناني تصطك، البرد وحده هو ما سيتسبَّب في مقتلي.

لكن بإمكان الفريسة أن تقاتل. لقد قُتل أناس من قبل بواسطة كائنات جبانة غير عدوانية كالغزلان بيضاء الذيل.

أتمنى لو كان لدي سلاح، حتى لو كان مجرد قطعة من قالب طوب مكسور، لكن كان القبو نظيفًا.

مارست القفز في المكان، وكنت أهبط على أصابع قدمي تحريًا للصمت، كما حرصت على تحريك ذراعيَّ. فكرت في ممارسة بعض التدريبات الهوائية لكني خشيت أن تحتك يدي بالأرض. فكرت في خلع حذائي الرياضي. إن أحذية الركض طرية ولا تصلح للركل، لكن لو حدث أن خرجت في هذا الجو البارد فستتجمَّد قدماي من دونه.

هذا إذا خرجت من الأساس.

إن يديَّ وأسناني هي السلاح الوحيد الذي أمتلكه.

بعد فترة بدت كالدهر سمعت وقع خطوات مكتومة بالأعلى، ثم صوت ارتطام شيء بالأرض. بعدها سمعت صوت مزيد من الخطوات، ذات وقْع أعلى، تقترب من أعلى الدرج الواقع خلف الباب.

جثوت إلى جوار الباب، على مسافة حتى لا يرتطم بي الباب إذا فتحه الخاطف بعنف. كم أتمنى لو كان معي سلاح - لكني أنا السلاح - وانتظرت.

شعرت بطعم معدني في فمي. كنت خائفة حقًّا.

كان لخطواته وقع ثقيل على الدرج. ليس شخصًا صغير الحجم. لم يكن ثمة ضوء يتسلل من أسفل الباب، لا بد أن فتحاته أغلقت بإحكام لمنع تسرب الصوت. سمعت صوت المزلاج المكتوم وحركة القضيب الحديدي، ثم دار المقبض وتسلل شعاع من الضوء بينما انفتح الباب. أدار المختطف ضوء كشافه اليدوي إلى اليمين، حيث تركني ملقاة على الأرض، لكنه سقط على بركة القيئ وحسب. سمعت صوت أنفاسه.

فكرت في أمهات الفتيات اللاتي قتلتهن. فكرت: هل سيردن لي أن أموت بهذه الطريقة؟

لا شك أن ذاتي القديمة ستستمتع بالأمر، سيكون هذا انتقامها لما فعلته بها.

كان هدفي أن أجتازه - خاطفي أو ذاتي القديمة، فقد ذابا في كيان واحد في نظري - وأن أهرب، وأركض إلى الخارج، على أمل أن أجد طريقًا، جيرانًا، ضوء النهار الساطع.

لم تكن ملامح الخاطف واضحة في هذا الظلام، لكن بدا أنه غير مسلح، باستثناء المصباح اليدوي، وكان من تلك المصابيح المعدنية الطويلة التي تصلح كهراوة. لم أكن واثقة أنه لا يحمل سلاحًا آخر. تردد قليلًا. ربما يغلق الباب ويتركني هنا إلى أن أموت جوعًا ...

اندفعتُ نحوه.

أمسكت بمعصم اليد التي تحمل المصباح اليدوي، وكدت أنتزعه منه، لكنه كان أقوى مني. كنت أعلم أنه سيكون كذلك. حرَّر معصمه من قبضتي وطوح يده الممسكة بالمصباح اليدوي نحوي. صرخت وتراجعت على الوراء، فضربني المصباح في كتفي بدلًا من عنقي. شعرت بألم حاد في ذراعي، ثم خدر. لم أسمع ترقوتي وهي تنكسر. لكن هل سأسمعها لو كُسرَت؟

حاولت ضربه بركبتي بين فخذيه لكني أصبت فخذه وحسب. تحرَّرت تقريبًا من قبضته، لكنه أمسك بسترتي، فاستطال القماش وتمزق. طوح بالمصباح اليدوي مرة ثانية فارتطم بجدار الدرج وأحدث فتحة في الجدار الجصي. كنت أوشك على اجتيازه بالفعل، واستخدمت قبضته كمرتكز لي بينما ملت إلى الخلف وركلته في أنفه تمامًا. لا يهم إن كان الحذاء الرياضي طريًا أم لا!

أفلتني من قبضته وسقط على ظهره. صعدت الدرج على يدي وقدمي وأنا أتخبَّط، وكلي ثقة أنه ورائي. كنت أنتظر أن يمسك بي من كاحلي في أي لحظة. بعد أن اجتزت نصف الدرج أدركت أنه كان ينبغي لي أن أغلق الباب وأحبسه بالداخل. وصلت إلى الباب الموجود أعلى الدرج ووجدت نفسي في ردهة عادية تمامًا، تحتاج إلى تنظيف. كان الباب الأمامي مغلقًا ففتحت المزلاج، لكن تعثرت قدماي في شيء على الأرض فتدحرجت هابطة الدرجات الأمامية وسقطتُ على الثلج.

كان وقت الشفق. وقفت على قدميَّ وركضت مترنِّحة نحو الطريق. كان الجاروف الذي تعثرت فيه لا يزال عالقًا في قدمي فأمسكت به واستندت إليه لأرفع نفسي وسرت مستندة إليه نحو الممشى الخارجي.

نظرت خلفي وأنا واثقة أنني أسمع صوت أنفاس.

لكن لم يكن هناك أحد. كان الباب المفتوح يتأرجح بفعل الرياح.

آه، ها هو الطريق. لم يكن ثمَّة مرور. أعرف أين أنا. كنت خلف منطقة المدافن والجسر. كنت أركض في هذا المكان كل يومين، لكن كان هذا المنزل بعيدًا بحيث لم يكن سوى مخطَّط أبيض شاحب من وراء الأشجار. كان بيتًا لأحد الحرفيين، وكانت تحيط به أشجار البلوط الذابلة بفعل برودة الشتاء.

ربما لم يكن الهجوم عفويًّا إذن، ربما شاهدني الخاطف وقرر أن يتربَّص بي.

سرت نحو البلدة وأنا أعرج، وكان الهواء شديد البرودة لدرجة أن رئتيَّ كانتا تؤلماني وتصدران صريرًا عند التنفس. كنت أشعر بالبرد، البرد الشديد، وكانت الرياح حادة كالسيف. أسدلتُ أكمامي فوق يديَّ بينما كان جسدي يحاول الانسحاب إلى حالة غيبوبة حتى بينما كنت أركض. كانت الشمس منخفضة في الأفق.

فكرت: ربما يجدر بي وحسب أن أستسلم للشتاء.

سيحقق هذا العدالة للأمهات الإحدى عشرة والآباء السبعة. سيحقق العدالة للثلاث عشرة فتاة اللواتي لا يزلن يبدين متشابهات للغاية. هذا التشابه الشديد كان يؤرقني جدًّا الآن.

سرت على الجسر بصعوبة، ثم استدرت في مواجهة الرياح التي تهب من ناحية النهر، وأمسكت الحاجز بيدي وتوقفت. استدرت إلى اليمين لكني لم أره آتيًا. تجمَّدت أصابعي المبتلة على الحاجز المعدني.

إن نقطة شرطة الولاية على مسافة نصف ميل، بعد المنعطف التالي أعلى التل. لو أنني ركضت فلن أتجمد قبل أن أصل إلى هناك. هذا لو أنني ركضت.

صبغ ضوء غروب الشمس الجليد بلون قرمزي. استدرت ونظرت في الاتجاه الآخر، نحو السماء الداكنة، وكان القمر البازغ يصبغ السحب بألوان قوس قزح.

كنت مبتلة حتى النخاع. وحتى لو بدأت الركض الآن فربما لا أنجح في الوصول إلى نقطة الشرطة. حتى لو بدأت الركض الآن فربما يلحق بي الخاطف. لا أظن أنني ضربته بقوة تكفي لإفقاده الوعي. لقد أسقطته أرضًا فقط ولم أفقده الوعي.

أما لو ظللت حيث أنا فلن يمر وقت طويل حتى يتوقف البرد عن إيلامي.

لو ظللت حيث أنا لن يكون عليَّ أن أتذكر ذاتي القديمة ثانية. سأتخلص منها. أخيرًا، أخيرًا، سأتمكن من إسكات تلك الفتيات، إميلي، أو جيسيكا، والأخريات.

يبدو الأمر سهلًا. رائع.

لكن لو أنني ظللت هنا فلن أكون المرأة الأخيرة التي ستجد نفسها تستيقظ في قبو ذلك المنزل.

كانت الرياح تشتد، وكل نفس آخذه كان يصدر صفيرًا. عبر غرابٌ الطريق وكأنه قميص رث، واختفى في المدافن التي يغمرها ضوء الشفق.

باستطاعتي السير مسافة أخرى، ليس الأمر بهذه الصعوبة. ثلاث عشرة جثة، زائد جثة أخرى. لكن لا يهم، فلقد حملت كل جثة منها فيما مضى على أي حال.

تسلَّخ الجلد عن أصابعي الملتصقة بالحاجز المعدني حين جذبتها بعيدًا، ومشيت عائدة نحو البلدة، مترنحة في البداية، ثم صرتُ أقوى وأقوى.

تخاطرٌ كَمِّي

رودي روكر

«ما رأيك في صاحبنا هذا؟» هكذا سألني صديقي القديم كارلو. كنا في أحد أيام فصل الخريف في لويزفيل، وكنت أجلس مسترخيًا على مقعدي الوثير في الجزء الخلفي من متجر الكائنات المنزلية المعدَّلة جينيًّا الخاص بي. كان كارلو يحمل في يده فأرًا معدَّلًا جينيًّا يطلِق عليه الفأر ذي الدماغ الكَمِّي، وكان يدفع بهذا الشيء نحو وجهي. كان فأرًا ذا شعر رمادي مرقع، وأسنان صفراء وذيل وردي طويل.

قلت وأنا أضحك: «إنه قذر للغاية، من ذا الذي يريد أن يشتري شيئًا كهذا؟».

ردد كارلو: «قذر!» وهو يبتسم ابتسامة عريضة كتلك التي يستعين بها في مؤتمرات المبيعات، وأضاف: «هذا وصف مثالي». ثم رفع الفأر في الهواء كما لو كان يعرض فازة ثمينة. كانت عينا الفأر السوداوان تشعان بالذكاء، بينما أخذت أذناه الورديتان الصغيرتان تصدران حركات دقيقة، محاولة تتبع أصواتنا، وصوت احتكاك أوراق الأشجار بسطح متجري، والطنين الضئيل للكاميرات الطائرة الدقيقة التي في حجم البعوض التي تبعت كارلو بعد دخوله.

سألته: «أهذا الفأر هو النموذج الأوَّلي حقًّا؟».

كان كارلو غريب الأطوار قد تمكن من الحصول على وظيفة بإحدى الشركات الناشئة التي يديرها أحد أصدقائنا من المدرسة الثانوية ويدعى جافن جرابر. وبحكم وظيفته الجديدة كمسؤول تسويق كان كارلو يرتدي سترة حريرية مزركشة مصنوعة من أحدث الأقمشة المنسوجة من حرير النمل الأبيض. كان يحصل على علاجات تنظيف جينية، وكان له مظهر شاب.

«الفكرة الأولى هي الفكرة الأفضل». هكذا قال كارلو وهو يخفض الفأر إلى مستوى نظري، وأضاف: «خاصة من شخص صريح لدرجة الوقاحة مثلك. اللعنة، سنستخدم بالفعل كلمة سكانجي [30] في الترويج لخط إنتاجنا من الفئران ذات الأدمغة الكَمِّية».

- «مصطلح غريب».

- «الأدمغة الكَمِّية، له وقع مؤثر، أليس كذلك؟».

- «أنتم مجانين». هكذا قلت مخاطبًا الكاميرات الدقيقة علاوة على كارلو، وقد تصوَّرت أن جافن جرابر كان يتابعنا بالتأكيد عبر هذا السرب من الكاميرات.

كنت أبيع كائنات منزلية معدَّلة جينيًّا ذات مظهر عجيب في متجري المسمى «لايف آرت». كانت منتجاتي كلها مصمَّمة - أو على الأقل مُحسَّنة - على أيدي فنانين مستقلين أمثالي. كنا نبذل جهدًا كي تبدو منتجاتنا مألوفة وظريفة في أعين الناس. على سبيل المثال كانت بزَّاقات تنظيف المنازل التي في حجم الكلاب ذات لون وردي فاقع، وكانت تهتز في حركتها، كما كانت مجسات أساور المعصم المصنوعة من جلد الحبار، التي تعمل كشاشات محمولة، صغيرة الحجم وذات ألوان فاتحة هادئة، أما اليقطينات السحرية التي يتقاطر منها مشروب البوربون فكان لها مظهر أخرق مبهج، إذ كانت تتحرَّك في الهواء وكأنها بالونات حفل ثقيلة. وكانت مقاعدنا المصنوعة من شباك العنكبوت معدَّلة بحيث تتخذ أشكالًا أنيقة وكأنها منحوتات راقية. لكن في حالة هذا الفأر كان الأمر مختلفًا.

قال كارلو: «الأمر كله متعلق بتوجيه المُنتَج. يريد منا جافن المخاطرة، فهو يرغب بشدة في أن يُري العالم أن بمقدور لويزفيل أن تنافس كبرى الشركات. والسماح بإطلاق منتج كهذا يُعد خطوة طيبة». ثم ربَّت بخفة على رأس الفأر وأردف مخاطبًا إياه: «فلتجلب لنا الحظ السعيد يا سكانجي! اجلب لنا الربح الوفير».

حملق الفأر في كارلو ثم أطلق سلسلة من الصيحات السريعة المستنكرة تبينتُ تدريجيًّا أنها كانت في حقيقة الأمر كلمات فعلية. بل كان بإمكاني سماع بعض الإهانات. أحمق، ربما، وأبله غبي. كان يتحدَّث بلكنة أهل كنتاكي.

قلت: «وتقنية الأدمغة الكَمِّية الخاصة بجافن تتسم بالخصوصية بسبب ...؟» لكن قاطعتني صرخة صدرت عن كارلو، إذ عض الفأر طرف إصبعه.

- «اللعنة!» هكذا قال كارلو. يمكن لعضَّات الكائنات المعدَّلة جينيًّا أن تكون لها آثار جانبية بغيضة.

خرجت من الجرح نقطة من الدم الأحمر القاني. قفز الفأر بعد تحرره على نضد البيع، الذي كان ينمو من أرضية المتجر وكأنه فطر عملاق.

- «لديَّ حقوق!» هكذا صاح الفأر الهائج وهو يقف منتصبًا على قدميه الخلفيتين وأضاف: «أنا لا أقل عنكما ذكاءً، لا ينبغي عرضي للبيع!».

لم يكن من الصعب فهم ما يقوله سكانجي. وتساءلت بقلق عمَّا إذا كان سيدخل في حالة من الهياج المخرِّب. إن هذه الأمور تحدث بمعدل مرتفع يفوق ما يود تجار الكائنات المعدَّلة جينيًّا الإقرار به، خاصة في ظل التغير السريع الذي تشهده تقنية الأدمغة الكَمِّية. فلم يخضع أي من منتجاتنا إلى اختبار مسبق على نحو كافٍ.

© Haylee Bolinger / ASU ,2013

قلت للفأر: «اهدأ». وقمت من مقعدي وجذبت عصا الصعق الكهربائية الخاصة بالسيطرة على الكائنات المعدَّلة جينيًّا من أسفل النضد. كانت العصا في حجم هراوة الشرطة، لوحت بها قائلًا: «سأذيب مخك لو واصلت التصرف هكذا يا سكانجي، فلتحسن التصرف. أليس مفترضًا بك أن تكون معاون كارلو؟».

دارت الكاميرات الدقيقة حولنا، مصورة المشهد من كل الزوايا. كان من شأن الجمع بين المشاهد التي تصورها الكاميرات أن يمنح المشاهد صورة تفاعلية ثلاثية الأبعاد.

وجد كارلو عَلَقَة فودو شافية على أحد الأرفف فوضعها على موضع عضة الفأر.

تمتم كارلو قائلًا: «أرجوك يا إلهي، لا تدعني أصاب بالعدوى. تبًّا لهذا الفأر، إن عمره يومين وقد أصابه السعار بالفعل. لكن لا تصعقه بعد يا زاد. لقد استثمر جافن مليوني دولار في هذا النموذج الأولي. أتدرك ما سينتج عن الصعق أيها الفأر القذر؟ ستتفتَّت جزيئات بروتيناتك وحمضك النووي بحيث تصير أشبه بكتلة من المخاط، ونحن لا نريد أن نتلف دماغك الكَمِّي اللامع هذا. فلتكن شاكرًا لنا إذن أيها الحقير. يجب أن تنظر إلى جافن بوصفه إلهًا، وأنا رسول هذا الإله». خفقت الكاميرات الطائرة الصغيرة أجنحتها علامة على الموافقة.

قال الفأر: «فلتضرب رأسك في الحائط!» كانت شواربه تتحرك في توتر وكأنها قرون استشعار لإحدى الحشرات، إذ كانت دائمة الحركة، متحفزة لأدنى انتهاك لمساحته الخاصة.

ضحكتُ بشدة. كنت أحب السلوك المشاكس لهذا الفأر المعدل جينيًّا. كان أكثر شراسة من أي شيء سبق أن رأيته منذ عنكبوت الطريق الأول الخاص بي المسمى زيكس، الذي لم يعش إلا لفترة قصيرة.

قال كارلو بابتسامة متوترة: «يعجبك سلوك هذا الفأر، أليس كذلك؟ أنت مثير للمتاعب، فنان، وهذا أحد الأسباب التي دعتنا إلى اللجوء إليك في المواقف الصعبة، ناهيك عن أنك صاحب المتجر الوحيد المسجل للكائنات المعدَّلة جينيًّا في لويزفيل. وبفضل القوانين العجيبة لولاية كنتاكي مسموح لك أن تبيع هذه الكائنات دون الحصول على موافقة إدارة الأبحاث الجينومية الاتحادية. سنمنح متجرك «لايف آرت» الحق الحصري لبيع خط إنتاج هذا الفأر لمدة شهر. ستخلق لنفسك سوقًا مربحًا».

- «لست واثقًا أنني أريد بيع هذا الفأر يا كارلو. ما مقدار الخصم الذي ستمنحني إياه؟».

كان كارلو مستعدًّا للرد على هذا السؤال فقال: «يقول جافن إن بمقدورك الحصول على أول دزينتين من هذه الفئران دون مقابل، كعينة تجريبية. ستطلب من زبائنك الثمن الذي يعجبك، وتحتفظ بالمال لنفسك. ومع الظهور الحتمي للأخطاء والمشكلات السلوكية سنمدك بالتحديثات اللازمة لإصلاحها. في الوقت ذاته ستتمهَّل سلاسل المتاجر بحيث تراقب الوضع تحسبًا لظهور دعاوى قانونية، وتنتظر تصديق إدارة الأبحاث الجينومية على بيع الفئران ذات الأدمغة الكَمِّية في السوق الأوسع».

كان سكانجي يجري على النضد، ينظر إلى المتجر ويتشمَّم الروائح الخافتة للطعام والمنبعثة من مقر إقامتي بالخلف. كانت زوجتي، جين، قد طردتني

من مسكني الفاخر في منزل الأشجار، لذا هيأت لنفسي مسكن عزوبية بسيطًا في الجزء الخلفي من متجري. كنت أضع فراشي هناك، إلى جانب كومة مما تبقى من مجموعة لوحات بعنوان «يوم بارد في الجحيم» كنت قد رسمتها بالعفن الغروي.

كان بعض هذه اللوحات معلق على حوائط متجري كذلك، لكن لم يعد أحد يرغب في شرائها. وفي حقيقة الأمر فقد أسقطني معرض «آيدي ديد» في شارع باردستاون من قوائمه. طوال سبع سنين حقَّقت شهرة طيبة كفنان، وتزوَّجت من الفتاة الثرية جين، التي ورثت ثروة كبيرة من بيع أغذية رولر المعدَّلة جينيًّا. لكن الإثارة تبدَّدت الآن، وبداية من هذا الربيع سئمت جين مني. كانت لديها حياتها الخاصة، إذ كانت تدير وكالة العلاقات العامة «جين سيز» التي تمتلكها. أما أنا فقد كنت ميتًا وفارغًا من الداخل في نظر جين.

عدت إلى أرض الواقع. لم يبدُ هذا الفأر القذر أنه مخصَّص لأداء أي مهمة محدَّدة. كان أقرب إلى حيوان كسول ينجرف وراء أفكاره الخاصة. وبعد أن لاحظ الفأر أنني أراقبه، تعمَّد التبرُّز على النضد.

قلت لكارلو وأنا أزن العرض: «لا أدري، ماذا لو قتل هذا الفأر قطًّا أو عض طفلًا رضيعًا؟».

قال كارلو: «في الأحوال الطبيعية يتكفَّل جافن بأية مشكلات قانونية». ثم أخرج ورقة مجعَّدة مطوية من جيب سترته المنسوجة من حرير النمل الأبيض وناولني إياها قائلًا: «هذا إقرار منه بتحمُّل المسؤولية القانونية. إن جافن يحب بحق فكرة أن يطلق ثلاثتنا هذا المنتج. يبدو أنه يحن إلى الأوقات الخوالي، حين كان في لويزفيل، بعد أن حقَّق نجاحه الكبير في بيع منازل جافن جرابر الشجرية».

وجه كارلو تحية في اتجاه الكاميرات الدقيقة. في الوقت الحالي كانت هذه النقاط الخضراء الساطعة متجمِّعة في كتلة متحرِّكة بالقرب من السقف.

- «لا أظن أن جافن كان يحبني ونحن في المدرسة الثانوية». هكذا قلت وأنا أطالع إخلاء المسؤولية. على حد علمي كان من الممكن أن تحتوي الورقة على أي هراء مكتوب برموز هيروغليفية لا أدري كنهها؛ فعلى أي حال ما أنا إلا فنان.

وذلك على العكس من جافن. تذكرتُ المرات العديدة التي عاملناه فيها بعدم احترام في الماضي فعبست في مواجهة سرب الكاميرات الطائرة

المتجسِّسة التابع له. كنت أرسم أحد تعبيرات وجهي التي اعتدت رسمها أمامه، بحيث رفعت ذقني ووضعت لساني بين أسناني ونفخت وجنتي. اقترب سرب الطائرات الدقيقة من رأسي، ربما كان يقصد أن يبدو هذا مضحكًا.

سألني كارلو في جدية: «هل رأيت جافن بشحمه ولحمه منذ أن عاد إلى البلدة؟».

قلت: «مرة واحدة، في حفل الترحيب الكبير الذي أقيم في نادي بيندينيس في شهر مارس. إنه ابن لويزفيل الأثير. لكن لم تتح لي فرصة التحدث معه. لقد كنت أنت أيضًا هناك، وكنت ثملًا بسبب كل ذلك الويسكي الذي احتسيته من اليقطينات التي كانت تدور في أرجاء القاعة».

قال كارلو: «لا أتذكَّر».

قلت بنبرة حادة: «لكننا نتذكَّر، خاصة جين. كنت لا أزال أعيش معها وقتها، أليس كذلك؟».

قال كارلو بسرعة: «يحزنني أمر انفصالكما. جين اللطيفة. لماذا تنظر إليَّ بهذا الشكل؟ هل قلتُ شيئًا سيئًا لجين في حفل جافن؟».

قلت: «لقد سألتها عن شعورها وهي متزوجة بفاشل مثلي. كانت تلك هي القشة الأخيرة، نقطة الانهيار. وفي اليوم التالي طردتني جين. أنت أحمق».

رغم أنني كنت أعني كل كلمة مما قلت فإنني لم أكن أتحدَّث بغضب. لقد اعتدنا، كارلو وأنا، انتقاد أحدنا الآخر بقسوة على مدار ثلاثين عامًا. وكنا نشعر بالراحة معًا لأن بمقدور أحدنا إهانة الآخر وقتما شاء. كان من ذلك النوع من الأصدقاء.

كان الفأر يواصل تحريك أنفه في اتجاه غرفتي بمؤخرة المتجر. قال كارلو: «إن عُشَّك رائحته طيبة».

قلت وأنا أبتسم: «فكر فيه على أنه مكب نفايات. موقع مستقبلي للتنقيب الأثري».

- «ما الطعام الطازج لديك اليوم؟» هكذا تساءل سكانجي وهو يهز ذيله مُسقطًا بعض الأشياء الموضوعة على النضد.

قلت: «لدينا اليوم طبقنا المحلي المتميز». وأشرت نحو القشرة الدهنية لما يسمونه بيتزا الدربي. كان الجبن الموضوع فوق هذه البيتزا مصنوعًا من حليب خيول برائحة البوربون. قلت للفأر: «بيتزا شهية، هَم هَم».

أخذ سكانجي يسلي نفسه، بفضل الدماغ الكَمِّي الذي يمتلكه، وتصنع الضجر والإرهاق فاستلقى على بطنه وجرجر نفسه عبر النضد، وكأنه مسافر يقطع الصحراء مجرجرًا قدميه. وحين وصل على الحافة قفز من عليها، وتشقلب في الهواء، ثم ارتطم بالأرض بقوة وشرع يركض. بعدها بلحظات عاد إلى النضد وذيله يتلوَّى وهو يحمل جائزته بينما يأخذ قضمات من قطعة بيتزا في حجم جسده. بدا أن الحليب المصنوع منه الجبن يهدئه. وانتشرت بركة صغيرة من البول أسفل قدميه، مبللة شَعر جسده.

قال كارلو وهو يلوح بيده: «على أي حال، أنت لا تكنُّ لي أي مشاعر ضغينة بسبب جين، أليس كذلك؟ في الحفل، كنت فقط أحاول المساعدة. أنت لا تنصفني هكذا. أقصد أنك بحاجة إلى تغيير طريقة عرضك. عليك بعرض حزمة تحديثات على العملاء، وإلا ...».

- «إياك أن تحاول التقرب من جين!» هكذا صحت وقد تصوَّرت فجأة أنني لمحت الشوق القديم في عينيه.

قال كارلو في هدوء: «على العكس، أنا عن نفسي أود أن تعود أنت وجين كما كنتما».

- «لماذا؟».

- «جين رولر امرأة ثرية، وأحب أن تكون من ضمن دائرة أصدقائي. كما أنني أهتم لأمرك أيها المخبول. يحزنني أن أراك تمر بهذه الظروف العسيرة. لكن ضع في حسبانك أن مشاعر جافن جرابر نحو جين ربما تكون أعقد من ذلك».

- «بعبارة أخرى، لقد قُضيَ عليَّ».

- «زاد، سبب وقوعك في المشكلات هو أنك تمضي وقتًا أكثر مما ينبغي جالسًا على مقعد الأحلام. إنه الهوس المفرط بالويب أيها الفتى. لكل عصر أمراضه وجنونه، ففي الماضي كان لدينا المالنخوليا، ثم الإنهاك العصبي، ثم الفصام، ثم الاضطراب ثنائي القطب، والآن الهوس المفرط بالويب. أجب عن هذا السؤال يا زاد: حين تنام، هل تحلم بأنك على شبكة الويب؟ إنها علامة خطر حقيقية».

لم أكن أحب أن يحدثني أحد عن استخدامي لمقعدي الخاص. هوس مفرط بالويب؟ لم أسمع بهذا الأمر من قبل. من الواضح أنه مفهوم حديث ليس له معنى. كنت أحب الساعات المرحة المزدحمة التي أقضيها على الويب. ومن حين لآخر كنت أبيع بعض منتجاتي أو أعمالي الفنية بهذه الطريقة، أو حتى أقنع زبونًا بالمجيء وزيارة متجري بنفسه. كانت الويب هي المكان الذي أعيش به هذه الأيام، ولم أكن أريد أن يبعدني الناس عنها.

قلت بحدة: «بل أنت المهووس، لا أنا. فأنت مهووس بتلك العلاجات التي تتلقاها من أجل استعادة الشباب. اللعنة، أنت تبدو كما لو كنت في الثامنة عشر».

أمال كارلو رأسه إلى الجانب، ومنحني ابتسامة شفقة صامتة. والآن كان الفأر ينظر إليَّ هو الآخر من فوق شريحة البيتزا، كما لو كان يجدني مثيرًا للشفقة هو الآخر. هل من الممكن أن يشعر حيوان معدَّل جينيًّا بالسوء لأمري؟

صحت في كارلو وقد فقدت أعصابي: «يجب أن أحشر هذا الفأر القذر في حلقك!».

قال كارلو بهدوء: «إن القذارة التي يتَّسم بها فأرنا ما هي إلا مزية تسويقية». كان يستمتع برؤيتي وأنا أفقد أعصابي، وكان هو الرابح في هذه اللعبة اللانهائية. حين يرى الناس فأرًا بغيضًا سيفكرون في مدينة نيويورك، وهذه مزية إضافية».

- «بل يبدو وكأنه من ولاية كنتاكي».

- «حسنًا، هذا يتعلق بالكيفية التي برمجناه بها. كان علينا أن نتجاوز عن بعض الأمور، لكن في وقت لاحق نأمل أن تبدو فئراننا ذات الأدمغة الكَمِّية وكأنها من أبناء نيويورك بالكامل. إن مانهاتن لها شعبية كبيرة للغاية في وقتنا الحالي، بسبب مدينة الملاهي».

- «مدينة الملاهي». هكذا رددت وأنا ألتقط أنفاسي. «أجل، أود الذهاب إلى مانهاتن مرة أخرى. لقد مضى عامان منذ آخر مرة زرتها. كنت أتابع التجديدات التكنولوجية هناك وأنا جالس في مقعدي: السيارات المعدَّلة والديناصورات الطائرة التي تحلق في سلاسة بين ناطحات السحاب، أجل. إنها مدينة مستقبلية مبنية على طراز عتيق الشكل. وحين أشاهدها كنت أشعر أنني هناك بالفعل».

- «أنا متأكد من أنك شعرت بهذا، وأنت جالس على مقعد الأحلام».

انكسر شيء داخلي فقلت: «حسنًا، أجل، أقر بالأمر! لقد سئمت حياتي. أنا لا أحقِّق أي تقدم، وأحتاج إلى تغيير».

تمتم كارلو: «إنه يشعر بتوق حزين إلى عيش حياة حقيقية، والإجابة هي: فأر قذر! فأر ذو دماغ كَمِّي يفوق في الذكاء أصدقاءه من البشر!».

تمتمت قائلًا: «أذكى منك ومن ريبا رانشتري. هذا أمر مؤكد».

- «لماذا نتجادل في المقام الأول يا زاد؟ الأمر يسير على ما يرام. إنها صفقة رابحة لكلا الطرفين. هل ذكرت لك أننا سنسمي شركتنا سلايجرو؟ إن لويزفيل في سبيلها لاحتلال مكانة بارزة. يكفي هذا القدر من البوربون والتبغ والخيول وأغذية رولر المعدَّلة جينيًّا. فمع وجود جافن هنا سيكون بمقدور لويزفيل أن تنتج وتسوق بعض الكائنات المعدَّلة جينيًّا الثورية. هناك خط إنتاج كامل من فئران سلايجرو ذات الأدمغة الكَمِّية، ويمكن لهذه الفئران أن تعمل بمنزلة جواسيس أو رسل أو لصوص ...».

قاطعته قائلًا: «وماذا عن ميل هذه الفئران إلى العض؟».

نظر كارلو إلى أصبعه وأقر قائلًا: «أنا قلق بدرجة ما بشأن هذا. إن جافن ليس واثقًا تمامًا بشأن ما يمكن لهذا التعديل الجيني الكَمِّي أن يتسبَّب به. لكن لا عليك، إننا نعمل على هذا الأمر».

لوَّحت بعصا الصعق نحو سكانجي وقلت موبخًا: «لا أحد يريد كائنًا معدَّل جينيًّا يعض. والوضع أسوأ حين يكون هذا الفأر العضَّاض ذكيًّا».

- «أنا لست عضاضًا». هكذا صاح الفأر بفم مليء بالبيتزا. «ليس في المعتاد. لقد ضربني صديقك على رأسي، لقد تسبَّب في هذا لنفسه. بمجرد أن يجري تخليق مجموعة كبيرة من الفئران ذات الأدمغة الكَمِّية سنحصل على الاحترام الذي يليق بنا».

حملق كارلو في سكانجي وقال: «لو واصلت هذه التصرفات الحمقاء ستكون آخر فأر يجري تخليقه في سلايجرو. جافن وأنا بحاجة إلى أن نلمس لديك الرغبة في إسعاد المستهلك. والآن أيها القذر عليك أن تبدأ في تقبيل مؤخرتي».

- «هذا تشبيه مجازي، أليس كذلك؟» هكذا قال الفأر وهو يخرج قطعة جديدة من البراز على نضدي. ثم بدأ يهز وسطه ويغني بصوت أخنف، وكأنه يؤدي في برنامج جراند أو أوبري الإذاعي، قائلًا: «أريد أن أعيييييش ... أريد أن تكون لي أسرة كبيييييرة!».

كان المتجر بالكامل قد تشبَّع برائحة الفأر، كما جذبت أغنيته الحزينة انتباه الكائنات الأخرى، سلة لاعقات الأرضية، والمقاعد المتحركة المصنوعة من نسيج العنكبوت، وأساور المعصم المصنوعة من جلد الحبَّار واليقطينات السحرية الطافية، بل وانتباه مجموعة من البذور المنزلية المسطَّحة الجلدية الملمس؛ إذ كانت جميعها تتمايل وتهتز تعاطفًا مع غنائه، بينما أخذ سرب كاميرات جافن يشكِّل نفسه على صورة كعكة.

ذكرني المشهد بالرسوم المتحركة البدائية التي كانت تُرسم بالأبيض والأسود، حيث تبدأ كل الأشياء الموجودة في المزرعة في التمايل استجابة للنغمات. حتى أنا كنت متأثِّرًا بسحر الموسيقى. كانت لدى سكانجي قدرة على الاستحواذ على انتباهنا جميعًا. هل هذا جزء من تعديل الأدمغة الكَمِّي؟ بدا الفأر أطول مما سبق، وبدا شعره أغزر ومصفَّفًا على نحو جميل، وكانت حركاته أنيقة وتنضح بالرفق والذكاء.

شرع سكانجي، وقد أحس بتأثيره علينا، في غناء مقطع أخير، ثم انحنى بقوة فاردًا يديه. سرت همهمة استحسان في المتجر. كنا نحبه.

حسنًا، ربما باستثناء كارلو الذي قال بصوت بارد: «بشأن موضوع الأسرة، هذا ليس محل نقاش على الإطلاق، فأنت عقيم، شأنك شأن كل الكائنات الأخرى المعدَّلة جينيًّا».

قال الفأر وهو يتصنَّع المفاجأة على نحو مبالغ فيه: «هذا أمر قاسٍ يا رجل».

- «فكِّر في الأمر». هكذا تدخَّلت في الحوار إذ اعتقدت أنني بحاجة على تهدئة الفأر. «لو بدأتم أنتم معشر الكائنات المعدَّلة جينيًّا في التكاثر، فما الذي سيبيعه شخص مثلي؟ كيف يمكن لمنتجين أمثال شركة سلايجرو أن يدفعوا نفقات التطوير؟».

قال كارلو: «إنه يعلم علم اليقين أنه عقيم، إنه فقط يعبث معك».

قال الفأر: «سيكون لديَّ أبناء. أنا لست أداة بسيطة مثل الباقين. إنهم ماكينات بيولوجية، أما أنا فلديَّ إرادة حرة، كما أنني واسع الحيلة».

تنهَّد كارلو وانتزع علقة الفودو الشافية من على أصبعه. كان الجرح قد اختفى، ونما الجلد في موضع العضة مجدَّدًا. قال كارلو وهو يتفحَّص إصبعه: «أخبرت جافن أن علينا برمجة شخصية هذه الفئران، لكنه يرفض ذلك، إذ يريد أن يترك انطباعًا قويًّا على السكان المحليين، من أجل كسب احترامهم».

- «لا ضير من شراء أي شيء في رأيي، فأنا أوشك على الإفلاس».

- «آه، هل ذكرت لك أمر الحافز المادي؟» وضع كارلو يده في جيب سترته وأخرج لفافة سميكة من الأوراق النقدية فئة مائة دولار. «هذا من أجل مساعدتك على حل أي مشكلات طارئة قد تواجهك أثناء توزيعك دفعات الفئران».

خطرت لي فكرة غريبة فقلت: «أتظن أن جافن سيقبل أن يصنع دفعة إضافية من أجلي؟ لو أنني حصلت على تحديث للشخصية بعد البيع حينها ...».

قاطعني كارلو بابتسامة متكلِّفة قائلًا: «الحب يصنع المعجزات. هذه الكمات مأخوذة من مسرحية موسيقية تعرض في برودواي».

- «مسرحية موسيقية تعرض في برودواي؟ أنت تقول هذا؟».

«إنني أواعد فتاة تعشق الموسيقى، إنها مهووسة تكنولوجيا نوعًا ما، ودرست في جامعة ستانفورد في كاليفورنيا حسب ظني. إنها كبيرة مهندسي التعديل الدماغي في سلايجرو، وتُدعى ريكي شيمانو. إن سلايجرو شركة صغيرة، ونحن نعمل في إسطبل بمزرعة خيول جافن. لقد قابلت ريكي في اليوم الأول الذي التحقت فيه بالعمل كمسؤول تسويق بالشركة، وفي الليلة عينها كنت أنا وهي نتشارك الفراش. إنها تبدو الفتاة الملائمة لي، فهي مندفعة وواثقة بنفسها وبريئة بالكامل، أما أنا فرزين وكيِّس. نحن نتحدَّث هنا عن علاقة جنسية جامحة مع فتاة مهووسة بالتكنولوجيا، أعتقد أن لدي تسجيل فيديو هنا يمكنني أن ...».

بدت الكاميرات الدقيقة غاضبة، بالقدر الذي تستطيع الحشرات إظهاره من المشاعر.

قال كارلو وهو يلاحظ الحركة المضطربة لسرب الكاميرات: «ماذا الآن؟ أنت تغار يا جافن، أليس كذلك؟ من جدَّ وجد يا صديقي. تعلم منَّا هذه الأمور، وتوقَّف عن الانغماس في أكوادك».

تنهَّدتُ قائلًا: «أنا عن نفسي أمرُّ بفترة ركود، وأحتاج إلى ضوء ساطع، إلى إنجاز كبير، قبل أن أذوي وأسقط كورقة شجر في فصل الخريف».

قال كارلو وهو يهز رأسه: «الكل أصبح تعيسًا وجادًّا! أهذا بسبب أنك بلغت من العمر ثلاثين عامًا؟ سنمنحك عشرة من هذه الفئران يوم الإثنين يا زاد، ويمكنك الاحتفاظ بهذا الفأر لنفسك، فأنا أشعر بوجود توافق ما بينكما».

نظرت إلى سكانجي فوجدته مستلقيًا على النضد وكأنما أصابه الإنهاك من كثرة ما تناوله من البيتزا ومن الغناء. أهو نائم؟ لم يعد يبدو بغيضًا في نظري، بل بدا منسجمًا مع المكان. إنه لن يعضني، فأنا لست أحمق مثل كارلو.

قلت: «اتفقنا. سأحتفظ بالفأر، لكني أحذِّرك من أن هذا العمل لن يحقِّق نتائج طيبة. أعلم أنك منحتني مكافأة تشجيعية، لكنها ستغطِّي فقط نفقات تسكين هذه الفئران لمدة شهر مثلًا. وإذا لم تبع بنهاية شهر أكتوبر سأحصل على المزيد من المال وإلا فليستعدها جافن».

- «مكافأة تشجيعية». هكذا ردد كارل، مستمتعًا بالوقْع القوي للمصطلح. «حسنًا، لو لم تفشل في بيع المجموعة التجريبية الأولى قد يسمح لك جافن بتسويق المزيد من الكائنات المعدَّلة جينيًّا الجديدة. بل والأفضل من هذا أنه قد يسمح لك بتسويق هذا العلاج التجريبي الذي يود في بدء بيعه للناس. إن

لديه مجموعة من المنتجات الجذابة التي يود إطلاقها. إن لويزفيل محظوظة بوجوده هنا. يقول جافن إننا سنكون مركز موجة التعديل الدماغي الكَمِّي».

قلت وأنا أشعر بعدم الارتياح حيال الخطط المفرطة في الطموح: «لكن أجبني أولًا: هل تتذكَّر أول عنكبوت من عناكب الطريق التي سوَّقتها؟ زيكس؟ حين تفشل الكائنات المعدَّلة التي لم تُختبر جيدًا فمن الممكن أن تتسبَّب في كوارث لا يمكن تخيلها. إنها خرقاء على نحو بالغ، وقد تهدِّد حياة الناس، والناس يعلمون هذا. ومن الصعب للغاية بيع كائنات غير مرخَّصة عُدِّلت جينيًّا في إسطبل بإحدى المزارع».

قال كارلو: «إن متجرك يبيع للأشخاص الهامشيين، لغرباء الأطوار، لشباب مستقلين أذكياء، لأناس متميزين عن من سواهم في التفكير. يمكنك بيع الفاكهة المحرَّمة لهم، لكنهم يشعرون بالأمان لأنهم يحصلون عليها منك أنت، فأنت فنان هذا المجتمع، أنت واحد منهم. إن متجرك يقع في الجزء القديم الراقي من المدينة، هنا في الشارع الرئيسي، وتحيط به مبانٍ مشيدة بالطوب الأحمر علاوة على منازل جافن جرابر الشجرية المرتفعة الحديثة التي تطل على النهر. يمكنني أن أسمع صوت رنين مكعبات الثلج في المشروبات المسكرة التي يحتسيها الناس في تلك الشرفات. أنت في قلب المدينة يا صديقي، قلب المدينة النابض». كان كارلو يتحدَّث بصدق. كانت لديه تلك المقدرة على التعبير بحرارة عما يتحدَّث عنه.

قلت في لهجة محايدة: «أنا أعيش في الجزء الخلفي من متجري، وأفضل ما حدث لي اليوم هو شعوري بتلك الرابطة العجيبة من التعاطف مع ذلك الفأر المعدل جينيًّا».

رغم شكوكي كنت أشعر في داخلي أن ذلك الفأر سيكون ذا قيمة كبيرة لي. كانت ثمة رابطة ألفة تتكون بيننا، وفي هذه اللحظة أدركت أن سكانجي لم يكن نائمًا حقًّا.

أوضح لي كارلو الأمر في جدية قائلًا: «إنه يستخدم حالة عقلية كونية كي يمزج موجاته الكَمِّية مع موجاتك. من شأن الفأر ذي الدماغ الكَمِّي أن يفعل هذا مع مالكه الجديد. إنه نوع من التخاطر. أنت تشعر بهذه الرابطة، أليس كذلك يا صديقي؟».

لم أكن أنا نفسي من قارئي الأفكار، لكن حين أخذ هذا الفأر يصب تركيزه عليَّ تصوَّرت أن بمقدوري أن أشعر بأنفاسه الدقيقة، والخفقات السريعة

لقلبه الصغير، بل إنني شعرت بالأفكار الدقيقة التي تدور في دماغه: أنوف قطط، فروج أناث الفئران، أطراف قطع الجبن.

تمتمت قائلًا: «إنني أشاركه موجة التفكير نفسها بالفعل».

- «ها هو طعامه الخاص». هكذا قال كارلو وهو يناولني كيسًا من المكعبات ذات اللونين البني والذهبي، أغذية رولر المعدَّلة جينيًّا التي يدمنها. كان الطعام له رائحة التبغ، وكان التبغ بالفعل أحد المكونات. وما دمت أنا المتحكِّم في غذاء الفأر، سأظل محور حياته.

كان كارلو مستعدًّا للانتقال إلى الموضوع التالي، فقال: «إذن، في ظل خروج جين مؤقتًا من الصورة، كيف حال حياتك الجنسية؟ هل تستعين بتلك المنتجات المعدَّلة جينيًّا؟» أدار كارلو رأسه متفحصًا متجري وأضاف: «أنت لا تزال تحتفظ بها، أليس كذلك؟ الكرات ذات الشقوق والحشوات الرخوة، أشياء كهذه؟».

- «كلا أيها المخبول. لقد انتهى زمن هذا الأمر. إن متجر لايف آرت معروف بالجودة والرقي، وحين أشعر بالتوتر أذهب إلى الجزء الخلفي من المتجر وأعمل على سيارتي الجديدة. إنني أسمو برغباتي وأنفِّس عنها على صورة عمل فني. وبهذه الصورة أرتقي بنفسي».

قال كارلو دون تعبير: «سيارتك؟».

قلت: «لقد اشتريت سيارة أثرية من طراز السيارة المكشوفة نفسها التي كان يستقلها جون كينيدي حين اغتيل منذ مائة عام. ذلك الرئيس، أتعرفه؟ كانت زوجته ترتدي قبعة عريضة، أليس كذلك؟ لقد اشتريت سيارتي طراز لينكولن كونتيننتال من متحف مفلس للسيارات يقع على طريق شيلبيفيل. اشترى سيزلر جونز ذلك المكان، هل تذكره من أيام المدرسة الثانوية؟ إنه يعمل في بيع الأراضي حاليًّا. وقد منحني السيارة مقابل لوحات العفن الغروي. لقد سمحت له باقتناء مجموعة «يوم بارد في الجحيم: لماذا تؤمن بالله».

- «أنت تستخدم هذا العنوان دائمًا، أليس كذلك يا زاد؟».

- «إنه علامتي التجارية المميزة، ولا يزال يحقِّق بعض النجاح. أحيانًا. وقد حقَّقت هذه العلامة لابن لويزفيل المتمرِّد صفقة بيع طيبة».

صحَّحني كارلو قائلًا: «قلت إنها كانت عملية مقايضة مع سيزلر جونز وليس صفقة بيع».

قلت بصبرٍ نافدٍ: «الأمر سيان. على أي حال سيهدم سيزلر جونز المتحف ويزرع روضة من أشجار جافن جاربر التي تستضيف المنازل. توجد حقول وبحيرة، كما أن سيزلر وضع بضعة حيوانات غير معدَّلة في المرعى. بعض الخيول في حقيقة الأمر، لكن لا يهم».

قال كارلو وقد بدأ يفقد اهتمامه: «اسمعني، عليَّ الذهاب الآن».

- «دعني أكمل حديثي! أنت تريد التعامل معي، لذا يجب أن نتحدَّث معًا، أليس كذلك؟ ندردش معًا حول السيارات مثلًا! تمامًا كما اعتاد أجدادنا أن يفعلوا». كنت أشعر بحماسة عجيبة، وأتحدَّث بسرعة، وأمرر بيدي فوق الشعر الرطب للفأر النائم في الآن عينه. كنت أربِّت على رأسه، وألتقط شذرات من أحلامه. ثمة شيء عجيب في هذا الفأر. واصلت الحديث قائلًا: «بل إن سيارتي اللينكولن كونتيننتال لديها محرِّك احتراق داخلي. أعرف أنه ما من سبيل للحصول على البنزين، ولكن المحرك موجود في مكانه، من حديد ديترويت الخام، معدن ثقيل».

كان كارلو يقف عند الباب الأمامي، يستعد للخروج. قال وهو يشير إلى السماء بأصبعه: «عناكب الطريق والديناصورات الطائرة هي ما يهم الآن. ها هي ريبا رانشتري تركب ديناصورها الطائر. إنها واحدة من المستثمرين في شركة سلايجرو».

لبعض الوقت بعد المدرسة الثانوية كانت ريبا خليلتي، وقد جُن جنونها حين تركتها وبدأت في مواعدة جين. بعد ذلك بدأت هي في مواعدة كارلو. دائمًا الدائرة الضيقة نفسها من الأشخاص في حياتي، لا شيء يُنسى على الإطلاق، كل شخص فينا يواصل التلاعب بغيره إلى ما لا نهاية. هكذا هو حال لويزفيل.

خرجت وراء كارلو إلى الشارع العشبي، ونظرت إلى أعلى نحو المنازل الشجرية المتمايلة بجوار النهر. كنا نقترب من مساء أحد أيام شهر سبتمبر الطويلة، يوم خميس، وكانت الشمس منخفضة وذات لون نحاسي، والحرارة معقولة، وبدأت نسمات المساء تهب.

كان منزل ريبا الفاخر في الشجرة نفسها التي كنت أعيش عليها أنا وجين. كان بإمكاني مشاهدة ريبا وهي مستلقية على بطنها على ظهر الديناصور المُخلَّق جينيًّا ذي الأجنحة الجلدية الذي كانت تمتطيه. ورغم المسافة البعيدة

التي تفصلها عنا فقد استطاعت بصورة ما أن تراني أنا وكارلو ولوَّحت لنا. ربما كانت التلويحة ودودة، لكني رأيت فيها قدرًا من الغطرسة. وكأنها ملكة تحيي رعيتها.

قلت بمرارة غير متوقَّعة: «ها هي ريبا وديناصور رامفورينكوس الطائر الذي تمتطيه، ذلك الديناصور العنيف ذي المنقار المسنن والمخ الذي لا يتجاوز حجمه حبة الجوز». أما وقد صرت شخصًا فاشلًا، فقد كنت أكره أي شخص يبلي بلاءً حسنًا في حياته.

قال كارلو وهو يوافقني الرأي: «إنها متغطرسة دون سبب واضح، هذا ما كان يثير حيرتي دائمًا حين أراها هذه الأيام. لماذا تظن أنها أفضل مني؟ لأن والديها توفيا وتركا لها ثروة؟ أعني لقد واعدها كلانا منذ نحو عشر سنوات، هذا يجب أن يترك لدينا ذكريات سعيدة، أليس كذلك؟».

قلت: «في الواقع ريبا تعاملني بشكل طيب، لكن يبدو كأنها تشعر بالأسف حيالي. إنها لا تدرك مدى لطف الحجرة الإضافية في متجري. إنها لا تستوعب أنني ربطت حلزون حدائق كبيرًا معدَّلًا جينيًّا إلى الجزء السفلي من سيارتي المعدنية عتيقة الطراز. لقد قدت السيارة في أرجاء المربع السكني الأسبوع الماضي، هل سمعت بهذا الأمر؟».

- «ربما، نعم». كان كارلو يستعيد اهتمامه مجددًا، وتركني أجذبه ثانية إلى داخل المتجر.

قلت ومعنوياتي ترتفع: «ركوبتي المبتكرة، هذا الحلزون يترك مخاطه اللزج في كل مكان. إنه بطيء للغاية. ها أنا أركب سيارة ليموزين فاخرة تسير على حلزون زاحف. ربما أبدأ في مشروع جديد وأبيع السيارات القديمة المعاد تجديدها».

- «اللعنة على كل ما هو قديم. أما فكرة الحلزون الضخم فهي جيِّدة. أريد أن أركب تلك السيارة حين يُتاح لي بعض الوقت».

كان سكانجي يتمسَّح في يدي، شقيقي الفأر، وقد نام على ظهره كاشفًا عن بطنه الأبيض. مسَّدته بطرف أصابعي.

- «قبل أن تذهب يا كارلو، أعطني بعض المعلومات كي تساعدني في الترويج لهذه الفئران ذات الأدمغة الكَمِّية داخل هذا السوق المفتقد للعقلانية. مثلًا، ماذا بحق الجحيم يعني مصطلح «الأدمغة الكَمِّية»؟».

- «حسنًا، إن لأجسادنا كيمياء معينة، ويوجد بها جينات وهرمونات وخلايا دماغية. إنها أشبه بأجهزة كمبيوتر رطبة. يُزرع في الدماغ محول بسيط يسميه جافن «السوط السحري»».

- «ماذا؟».

- «إنه وصف مجازي. هذا المحول عبارة عن قطعة من الخشب مثل اللعبة الخشبية التي تباع في مهرجان مقاطعة شيلبي. لقد رأيت هذه بالتأكيد. إنها عبارة عن عصا صغيرة مسننة مزودة برقَّاص عند أحد طرفيها. وحين تحتك عصا أخرى بالأسنان التي عليها يصير الأمر وكأنك تصيح «اركض» أو «توقف»، وكأنك تحادث البغل الذي تركبه، ويدور الرقَّاص في أي من الاتجاهين. إنها لعبة ممتعة للصغار والكبار».

- «وجافن يستخدم هذا التعبير للاحتفاء بتراث كنتاكي المجيد. لا بأس. وما الذي يفعله هذا السوط السحري في دماغك بالضبط؟».

- «يقول مهاويس العلوم إن بإمكان أي نظام كَمِّي أن يكون سلسًا وشاملًا، أو يكون متخشِّبًا ومتقطِّعًا. وهذه الأداة الدماغية الكَمِّية تسمح بفتح آفاق دماغك على اتساعها. يمكنك البقاء في الحالة الكونية، ولو فعل رفيقك هذا هو الآخر حينها سيحدث بينكما نوع من التخاطر. وهذا ما نسميه التخاطر الكَمِّي».

- «تخاطر؟ أتعني أن بمقدور الفأر قراءة أفكاري؟».

- «بصورة ما، نعم. لكنه لا يدخل في حالة الاندماج التامة إلا مع شخص آخر مزوَّد بالأداة الدماغية الكَمِّية نفسها».

- «لطالما أردت امتلاك القدرة على التخاطر».

- «سنبدأ في تسويق هذا الأمر في وقت قريب على الأرجح، لكن ليس الأمر كما تظن. فالمتخاطرون لا يتذكَّرون ما يحدث خلال فترة التخاطر فيما بعد، وهذه مشكلة. لقد حصل جافن على بعض التمويل العسكري السري، وكان عليه أن يخبر خنازير الحرب هؤلاء أن التخاطر الكَمِّي لن يفيدهم في نقل الرسائل. لهذا منعوا عنه التمويل، وصار على حافة أزمة مالية. لقد أخبرت جافن أن علينا البدء في بيع تقنية التخاطر الكَمِّي للناس، لكنه متخوف من هذا ويفضل التريث».

- «لنتمهَّل قليلًا. أخبرني، هل بمقدور الفأر قراءة أفكاري أم لا؟».

- «لنقل فقط إنه يجيد التقاط مشاعر الناس. وفي حقيقة الأمر، ما لم تكن على مقربة بجسدك من شخص مزوَّد بهذه الأداة الدماغية الكَمِّية أو أحد الكائنات المعدَّلة جينيًّا المزوَّدة بها، فستمر فقط ببضع لحظات وجيزة من التخاطر معها. وبسبب رائحة الأداة الدماغية الكَمِّية، سيتسبَّب كل جزيء من جزيئات الرائحة في تنبيهك بدرجة بسيطة».

- «وماذا سيحدث حين يكون الطرفان مزوَّدين بهذه الأداة الدماغية الكَمِّية؟».

- «حينها يمكن تحقيق الاندماج التام. سيكون التخاطر الكَمِّي مُنتجًا فائق النجاح. لكن في الوقت الحالي، وعلى سبيل الإحماء، استخدم جافن التخاطر الكَمِّي من أجل نسخ شخصية شخص ما بحيث تنطبع على شخصية الفار المزود بالدماغ الكَمِّي».

- «إذن فهذا الفأر هو شخص في حقيقته؟» هكذا قلت في ارتباك.

قال كارلو: «أجل يا صديقي. وما نحن إلا فئران». ثم وضع يديه أسفل ذقنه مرخيًا معصميه، وكشف عن أسنانه الأمامية وأخذ يقضم الهواء في حركات استعراضية كوميدية.

رفعت يدي محاكيًا قائمي الفأر بالمثل، ونظر سكانجي وكارلو وأنا إلى بعضنا بعضًا وأعيننا تشع بالحبور. كان جو متعدِّد المستويات من الحماقة يملأ المكان، تحفِّزه رائحة سكانجي النفَّاذة. كان بإمكاني الشعور بجزيئات الرائحة المنفردة وهي ترتطم بمستقبلات الشم لديَّ واحدًا تلو الآخر.

سألت كارلو وأنا أجاهد للخروج من هذه الغشية: «من أين حصلتم على شخصية هذا الفأر البشرية؟».

قال الفأر وقد صار صوته الحاد دافئًا: «جوي مُون. أنا جوي مُون».

قال كارلو: «إن جوي يعمل في مزرعة جافن هذه الأيام كحارس. إنه يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، متزوج وله ثلاثة أبناء، ومفلس على الدوام. إنه شخص شاحب له عينان داكنتان واسعتان، مشاكس إلى درجة ما ويسرف في الشراب، كما يحب قيادة سيارته بسرعة. أعتقد أنه يصف نفسه بأنه رسَّام، مثلك. ويُقال إنه يعامل زوجته وأبناءه بقسوة».

قلت باقتضاب: «أجل، أعرفه. ليس صاحب الشخصية المثالية التي تريد غرسها في أحد المنتجات الاستهلاكية».

كنت قد رأيت جوي في البلدة على مدار الأعوام السابقة، وهو يركب سيارته أو يثمل في الحانة. كان أصغر مني بنحو عشر سنوات وأكثر جموحًا بكثير. كان يقول إنه فنان هو الآخر، وقد أتى إلى معرضي مرة أو مرتين، محاولًا الاتفاق على عرض لوحاته، تلك اللوحات التي كان غير مستعد، أو غير قادر، أن يريني إياها مسبقًا. كان من المفترض أن تكون بورتريهات من نوع ما، لكنه لم يكن يريد أن يراها أي شخص آخر إلى أن تُعرض للبيع. كان يخشى أن يُقدِم أحد «نجوم الفن» على «سرقة أفكاره الكبرى». ومن التلميحات القليلة التي حصلت عليها من كلامه خمَّنت أن هذه اللوحات الكبيرة قد لا تعدو كونها محض أطر فارغة أو مرايا عاكسة. كان يغيِّر قصته كل مرة، وبدا وكأنه يريد الحصول على استحسانك، لكنه أيضًا يريد أن يسخر منك ويخدعك، كل هذا في الوقت نفسه.

قال كارلو: «لم أكن أفضل استخدام جوي أنا أيضًا، بل كنت أريد شخصًا من مدينة نيويورك. لكن كان جوي متاحًا بسهولة، كما أننا بصدد طراز أوَّلي لا أكثر. لقد دفع جافن بعض المال لجوي كي يوقِّع على تنازل قانوني وصريح لنا بالاستخدام الكامل لدماغه، ومنحه حصة لا بأس بها من الأسهم كذلك. بعد ذلك أجرى عملية التعديل الدماغي الكَمِّي لجوي، بحيث يمكنه التخاطر مع الفأر».

- «ما زلت لا أفهم الأمر».

- «لا يهدف التخاطر الكَمِّي إلى تغيير شخصية الهدف أو تطويرها، بل أنت فقط تنسخها من نموذج حي. الأمر يستغرق ساعة أو نحو ذلك لا أكثر. ومع ذلك فقد كان لعملية التخاطر الكَمِّي بعض التأثير على جوي. إنه لا يتأقلم جيدًا، ونحن لا نزال ننتظر رؤية كيف سينتهي الأمر. لا بد من هذا قبل البدء في بيع علاجات التخاطر الكَمِّي في كل مكان».

- «لقد باع جوي مُون روحه من أجل صغاره المساكين». هكذا أضاف سكانجي بصوت مُحمل بالشفقة.

سألت: «وماذا عن الفئران القادمة؟ هل ستكون نسخة من جوي بالمثل؟».

في هذه اللحظة بدأت الكاميرات في الأزيز أمام وجه كارلو، وأضاء السوار مشيرًا إلى ورود العديد من الرسائل.

قال كارلو: «يكفي هذا القدر من الدردشة يا صاحبي. سأعلمك بالمزيد من التفاصيل لاحقًا. إن جافن يقيم الآن رحلة خلوية في مزرعته بمناسبة إطلاق المنتج، وأنت وجين كلاكما مدعو، لقد بعث لها جافن رسالة بالفعل. كما أنه

أرسل الدعوة إلى ريبا كذلك. لا شك أنها كانت في طريقها إلى هناك حين شاهدناها تمتطي ديناصورها الطائر. تعال في أسرع وقت ممكن، وربما تجد فتاة وتضاجعها! سيروق لك فريق شركة سلايجرو يا زاد، ونحن نحتفي بمعارفنا القدامى أيَّما احتفاء».

بعد ذلك خرج كارلو إلى الشارع، ثم قفز ممتطيًا عنكبوت الطريق الخاص به.

أغلقتُ متجري وركبت سيارتي اللينكولن التي يحرِّكها الحلزون، ثم اتجهتُ صوب مزرعة جافن جرابر أنا أيضًا. كنت قد أنزلت سقف السيارة، وجلس سكانجي على التابلوه مستمتعًا بوقته، وبين الحين والآخر يعطيني نصيحة لا قيمة لها من نصائح جوي مُون. كنت أحصل على إرشادات الطريق من فأر جنوبي قذر.

كانت قيادة السيارة ممتعة للغاية، وبفضل أقدام الحلزون اللزجة كانت السيارة تتهادى وكأنها يخت فاخر. سرتُ في طريق النهر القديم بمحاذاة طريق أوهايو، متجهًا صوب الطرف الريفي للبلدة. كان أغلب الأسفلت والخرسانة قد اختفى من الطرق، وحل محله عشب معدَّل جينيًّا كثيف غير منفذ للماء. كان من شأن أي سيارة عادية ذات عجلات أن تواجه صعوبات بسبب هذا، لكن ليس هذه السيارة ذات الأقدام اللزجة.

لوَّح لي بضعة أشخاص وأنا في الطريق، منهم صاحب كشك المشويات القريب من محطة المياه وسيدة من جامعي الأعمال الفنية مرقت إلى جواري وهي تركب عنكبوت الطريق الخاص بها، وسمسار عقاري كان صديقًا لوالدي يركب ديناصورًا طائرًا ذا ظهر متعرِّج. كانت أنباء سيارتي اللينكولن التي تسير على أقدام الحلزون قد ذاعت. يا لهذه البلدة التي لا يخفى فيها سر! حتى لو لم أبِع شيئًا ذا قيمة طوال عامين، كنت ما أزال محتفظًا ببهائي، أنا زاد بلانت، ذلك الفنان اللامع غير التقليدي.

بعد أن أرشدني سكانجي نحو الطريق الأخضر الطويل الواصل بين الطريق الرئيسي ومنزل تود تراسك القديم أدركتُ أن جافن جرابر يعيش هناك الآن. كان تود نفسه قد توفيَ نتيجة مرض يتسبَّب في تآكل اللحم منذ بضع سنوات، وتقول الشائعات إنه التقطه من حفل عربدة أقيم لمضاجعة كائنات معدَّلة جينيًّا في نيويورك.

جلبت تلك الكائنات معها بعض الأخطار الصحية الجديدة تمامًا؛ ففي بعض الأحيان كان من شأن الكائن المعدل جينيًّا أن يحتضن مرضًا بشريًّا، ثم تتسلَّل منه الميكروبات أو الفيروسات إلى البشر وهي أقوى ألف مرة. في البداية لم

يدرك الناس ما كان يحدث، لكنهم الآن يعلمون تمامًا أنه لا يجدر بأحد أن يضاجع إحدى الكائنات المعدَّلة جينيًّا.

تود المسكين. لقد منحني البداية التي كنت أنشدها. كنا قد عدنا صديقين مجددًا بعد أسابيع قليلة من فشل مشروع عناكب الطريق. وكما توقَّعت جين بالضبط فقد ساعدني ذلك الموقف البغيض في إطلاق حياتي المهنية. كان تود قد اشترى لنفسه مهرين أصيلين جديدين عن طريق إعادة بيع واحدة من لوحات «يوم بارد في الجحيم» الخاصة بي. لكن أيام مجدي ولَّت وانقضت، على الأقل في الوقت الحالي.

وأنا في منتصف الطريق شاهدت الحضور إلى جوار البحيرة القديمة التي كنا نخيِّم جوارها حين كنت صبيًّا. أشار لي حارس أمن ممشوق القامة بالتوقف.

قلت له: «أنا زاد، زاد بلانت».

قال الحارس: «عظيم، وأنا أدعى آرتي. هذه سيارة رائعة. فقط واصل القيادة عبر المرعى».

قدت السيارة نحو المنحدر السهل كي أنضم إلى المجموعة. كانوا مستلقين على مقاعد معدَّلة جينيًّا أسفل شجرة بلوط ضخمة، بينما كان ديناصور ريبا الطائر يتمرَّغ في البركة. كان ذا لون أرجواني شاحب وله جناحان كجناحي الخفَّاش ومنقار كمنقار البجعة. كانت شمس سبتمبر تصبغ السماء، وكان الجو باعثًا على الاسترخاء.

رغم أن الجو لم يكن حارًّا ذلك اليوم فقد وضع جافن ثلاثة ضفادع عملاقة تُخرج من أفواهها هواء باردًا جافًّا، وكانت القطع الجليدية في أفواهها تبدو وكأنها أسنان بيضاء. كانت فراشات ملتهمة للبعوض لها ألوان قوس قزح منتشرة في المكان، وكانت أسماك ذات خياشيم زرقاء وأرجل دقيقة وردية تسير حول حافة البركة وعشب ذيل القط المحيط بها وتلتهم الديدان. لقد قام جافن بتخليق بعض الكائنات المبهرة بحق.

كان يقف إلى جوار زوجتي، جين، ويتحدَّث معها باهتمام. دوَّى جرس إنذار في عقلي. في الوقت ذاته كانت ريبا رانشتري تتحدَّث مع كارلو ومع امرأة ذات وجه مريح لم أرَها من قبل، خمَّنت أنها ريكي شيمانو التي كان كارلو يتحدَّث عنها؛ الفتاة الجامحة المهووسة بالتكنولوجيا حسب وصفه.

في أحد الأركان كان رجل شاحب متوتر يعتني بنار الشواء ويرتب بعض الأطعمة في طبق ضخم على شكل قرن. إنه جوي مُون. لم أرَه منذ وقت بعيد، وكنت أشعر بالأسف لرؤية حاله يتدهور بهذا الشكل. كان يعمل في مزرعة جافن جرابر. لم أكن أريد التحدث إليه، إذ أعلم أنه سيبادرني بحديثه المتملق الزائف.

لاحظت بعض النقانق على الطاولة، رائع. شعرت بحنين إلى نقانق مزارع تراسك المشويَّة التي اعتدت تناولها في الماضي. كانت امرأة ذات شفتين مكتنزتين تقف خلف طاولة مليئة بالمشروبات. كان لها جلد لامع ومظهر أقرب إلى الغجريات. كانت هذه زوجة جوي مُون. كنت أريد التحدث معها حقًّا، إذ كنت قد رأيتها في السابق لكني لم أتحدَّث معها قط.

- «مرحبًا». هكذا قالت جين وهي تسير نحوي برشاقة وثقة. «إن سيارتك العجيبة تعمل أخيرًا، مظهرها فاخر».

قلت: «هذه أبعد مسافة قطعتها بها إلى الآن. تبدين رائعة يا جين، أفتقدك كثيرًا».

- «آه يا زاد، تبدو بحال طيب أنت أيضًا، وفي هذه اللحظة تحديدًا لا أشعر بالرغبة في الصياح في وجهك إلى أن يُبَح صوتي وأعجز عن الكلام».

قلت: «لقد نلت كفايتي من هذا، كلانا نال كفايته. ما زلت أتساءل ...».

قاطعتني جين قائلة: «على الأقل لم نُرزق بأبناء، هذا يجعل الأمر أيسر. لكني أتمنى بالفعل أن تزيل وعاء الدهان المعدل جينيًّا من شرفتي. لقد طلبت هذا منك مرارًا وتكرارًا، دون جدوى. أفكر في الإتيان بشخص يزيل هذا الدهان الرغوي ويلقي بالوعاء في مكب النفايات. أريد أن أزرع حديقة صغيرة في شرفتي».

- «شرفتي، شرفتي». هكذا قلت مرددًا كالببغاء.

- «زاد، دعنا لا نعود كل مرة إلى نقطة الصفر. إن متجر الفن الحي ملكك، بينما الشقة ملكي أنا. لقد انفصلنا انفصالًا نظيفًا. لكن ماذا عن هذا الوعاء؟ هل تخطِّط لاستئناف الرسم بالعفن الغروي؟».

- «أريد الوعاء، أجل. وحتى لو لم أرسم بالعفن، فهو صاحبي. أنت تعلمين كيف أستميل هذه المادة بحيث تظهر العشرات من الرؤوس الدقيقة التي

يتحدث بعضها إلى بعض، أليس كذلك؟».

قالت جين: «أحب هذه الخدعة، لكن ذلك الطلاء المعدَّل جينيًّا لن يفيدني في شيء. أعتقد أنه حزين. اسمعني، دعنا نأتي بأحدهم كي ينقل الوعاء إلى متجرك، ويمكنك الاحتفاظ به في الجزء الخلفي من المتجر. لن يضره المطر هناك. ويمكنك إلقاء القمامة فيه، وسينمو».

- «لا بأس. وحين يصير عميقًا بما يكفي سأغرق نفسي داخله».

قالت جين: «حل رائع. حينها ستحقِّق لوحاتك المرسومة بالعفن الرغوي رواجًا شديدًا».

كان من اللطيف أن أتحدَّث مع جين، لطالما كانت حواراتنا أشبه بالرقصة الرشيقة. «بالحديث عن العفن اللزج، ها قد جاء صاحبنا الضخم».

كان الحلزون الذي يحمل سيارتي قد تملَّص من أسفلها، وكان كائنًا رخويًّا أصفر اللون طوله عشرون قدمًا تعلو عيناه الكرويتان مجسَّين من مجسَّاته.

قالت ريبا وهي تسير متجهة نحونا: «يا للقرف! هل هذا الشيء آمن؟ أنت تركب أكثر الأشياء إثارة للذعر يا زاد بلانت». وقد رسمت على وجهها ملامح الصدمة.

- «الحلزون يريد عشاءه». هكذا قلت وأنا أفتح حقيبة السيارة الضخمة وأخرج منها ملء دلو من طعام الحلزون وأفرغه على الأرض. وفي غضون ثوان باشر الحلزون التهام الطعام، لكن ليس قبل أن يختطف منه سكانجي قطعة لنفسه. تضايق الحلزون من هذا، بل وسعى وراء سكانجي لكن الأخير قفز مبتعدًا عن متناوله وصعد على بنطالي وقميصي إلى أن استقر على كتفي. وبعد أن انتهى الحلزون من تناول طعامه زحف على العشب نحو البركة كي ينضم إلى ديناصور ريبا الطائر.

- «إن زاد قرصان حقيقي!» هكذا قالت ريبا، دون عجرفة على الإطلاق. شعرت أنها كانت تتوقَّع الخروج معي الليلة. كانت ريبا وجين صديقتين مقربتين، وربما اتفقتا على تمريري من إحداهما إلى الأخرى.

قال جافن: «إذن هل أعجبك فأرنا ذي الدماغ الكَمِّي؟» كان أقل طولًا مني بست بوصات، لكنه أضخم حجمًا. كما كان يرتدي قرابًا عجيب الشكل به أداة تكنولوجية معقدة ما، لكن لم يجعله أي من هذا يبدو أقل ثقة بنفسه. «أخبرني

كارلو أنك ستروج منتجاتنا في معرضك. لقد انضممت إلى الفريق الرابح أخيرًا!».

قلت: «أنا في فريقك؟ أم أنت الذي في فريقي؟».

قال جافن وهو يضحك ضحكة مقتضبة: «وقح أنت كعهدي بك. هل تعلم أنني أمتلك واحدة من لوحاتك؟ يوم بارد في الجحيم: فيضان لويزفيل».

قلت: «إنها لوحة جميلة. أحب مشهد فيضان نهر أوهايو في الربيع. أحب شعور التحرُّر العقلي بالقرب من أي كارثة طبيعية. كل شيء مستوي ولامع على امتداد طريق ريفر رود، وأشياء عجيبة تطفو على سطحه. المنظر يشبه ما بداخل رأسي. ثمة أشخاص يذهبون إلى مياه الفيضان ويحتفلون، أشخاص بدائيون».

قال جافن: «لم أحضر حفلات كثيرة في حياتي. أنت تعلم كيف كان الحال. لكن جين تساعدني في العثور على طريقي في لويزفيل أخيرًا. وكالة «جين سيز»».

سألت جين مندهشًا: «هل تعملين لدى جافن؟ لم أسمع بهذا».

قالت جين بنبرةٍ يشوبها الفخر: «عملي يشبه حصان طروادة. ما الذي يعنيه هذا التعبير المرتسم على وجهك حقًّا؟ إنه مقزِّز. على أي حال نعم، يريد جافن مني أن أطلق مجموعة كاملة من المنتجات الجديدة في لويزفيل، وسأستغل شبكة علاقاتي في هذا الأمر. لقد كانت فكرة السماح لك بترويج النماذج الأولى للفئران ذات الأدمغة الكَمِّية فكرتي أنا».

- «أخبرني كارلو أنني قد أتولَّى مهمة تسويق المجموعة كلها». هكذا قلت وأنا أتعمَّد حسم الأمر، وأضفت: «مثل ترويج منتجات التخاطر الكَمِّي، أليس كذلك يا جافن؟».

قال جافن: «خطوة بخطوة. إن هذه الفئران ما هي إلا بداية. وفي غضون شهر أو شهرين، حسنًا، لا أريد استعجال الأمور. هناك شرط بعدم الإفصاح عن أي تفاصيل!».

ضحكت جين، من الواضح أنها تعلم ما يتحدَّث عنه. شعرتُ بالضيق حين فكرت أن بينها وبين جافن خططًا سرية. يبدو الأمر وكأن ذلك المهووس البغيض بالتكنولوجيا يحاول تجربة حظه مع زوجتي. لقد حان وقته أخيرًا.

قالت لي جين: «يعجبني ذلك الفأر على كتفك». كان بإمكانها الشعور بأنني متوتر، وكانت تريد أن تهدئني. «هل سمَّيته «سكانجي»؟ سمعت أن له شخصية بشرية».

قال سكانجي بلهجة ودود: «إن لي شخصيات متعددة».

قال كارلو: «لقد عضني هذا الفأر اليوم».

قال جافن: «رأيت هذا حين حدث، أرني موضع العضة».

قال كارلو وهو يمد إصبع سبابته: «هذا الأصبع. في البداية ظننت أنه شُفيَ، لكن انظر الآن، إنه متورِّم».

سأله جافن: «هل تشعر بأي ... تغير في شخصيتك. هل تشعر بأي مشاعر جامحة؟».

قال كارلو: «ربما، لكني أكبح أي مشاعر لديَّ بالبوربون».

قال جافن دون أن يبدو عليه القلق: «لا بأس».

قالت المرأة التي كان جافن يتحدَّث معها قبل قليل: «يمكنني أن أعالج العضة بشيء ما. لكن لو كان الأمر كما أرى أنا وجافن فقد فات الأوان. أرى أن ندع الأمر يأخذ مجراه بحيث نتعلم ممَّا سيحدث».

قال جافن: «أوافقك الرأي».

سألت جافن وأنا أكاد أفقد أعصابي: «أهذا هو الهدف من مجيئك إلى هنا؟ هل أتيت إلى لويزفيل كي تدمِّر رفاق المدرسة الثانوية الذين كانوا يتنمرون عليك؟ أن تسرق زوجتي وتقتل كارلو؟ هل أنت بهذه الوضاعة حقًّا؟».

قال كارلو وهو يضع يديه في جيبه: «اهدأ، لا تفسد اتفاقنا يا زاد. بمقدوري الاعتناء بنفسي».

- «أنا معجب بكما أيها الرجلان». هكذا قال جافن وهو يتململ في وقفته ويرسم على وجهه ابتسامة عريضة، وكأنما يشاهد عرض فيديو. «يجب أن تعلما هذا. أنتما طليعة التغيير. هل قابلتِ زاد يا ريكي؟».

- «مرحبًا بك». هكذا قالت ريكي وهي تخطو إلى الأمام. كانت تصفيفة شعرها عجيبة، لفَّت شعرها الأسود على شكل كعكتين مسطحتين، فبدتا أشبه بأذني فأر مصقولتين. «ريكي شيمانو. أنا من المعجبين بلوحاتك. كل خريجي صفي في جامعة ستانفورد معجبون بك، ولسان حالهم جميعًا يقول: أجل! إنه يعلم كيف أن الكائنات المعدَّلة جينيًّا جميلة!».

قلت وأنا أصافح يدها الجافة الباردة: «أشكرك، لقد امتدحك كارلو كذلك».

قالت ريكي: «كلنا بحاجة للإطراء. عليك بمواصلة إطرائي، فأنا أفتقد الثقة بالنفس. أنا فتاة لامعة تفتقد المهارات الاجتماعية، وآخر ضحية من ضحايا كارلو». ثم نظرت إليه وقهقهت قائلة: «هذا ما يظنه. من الغريب للغاية أن يأتي شخص ما من كاليفورنيا إلى كنتاكي. الأمر يبدو وكأنني أزور بلدًا مختلفًا. لقد أخبرني بالتاريخ السري، والمحرمات الاجتماعية، والأردية الفولكلورية».

قالت ريبا: «الأردية الفولكلورية! هل تتحدثا عن سترتي ذات النقش المتصالب المزينة بالخرزات الملتوية؟».

قالت ريكي: «أود أن أعرف أين وجدتِ ذلك الشيء. أحب الذهاب إلى المنزل بواحد من تلك الأردية».

قالت ريبا: «سأمنحك ردائي، فنحن في الحجم نفسه تقريبًا. وهو ليس بالشيء الذي أعيد ارتداءه مرارًا وتكرارًا».

قالت جين: «لن أرتديه ولو مرة واحدة».

قالت ريكي: «تلك الخرزات، أهي معدَّلة جينيًّا؟».

سألت جافن بنبرة هادئة: «كيف حال جوي مُون؟».

قال جافن وهو يرنو ببصره إلى جوي، الذي لم يكن يفعل شيئًا الآن: «إنه عالق في حالة التخاطر الكَمِّي. لكن ريكي وأنا نشعر أن من المفترض بالناس أن يتأقلموا مع هذه الحالة. ينبغي أن يكون هناك سوق لها. صحيح أنه ليس ما تتوقعه، لكن مع هذا ...».

صاح الفأر الواقف على كتفي: «جوي مُون!» كان سكانجي شارد الذهن في معظم الوقت لكنه كان يستمع دون تركيز إلى حديثنا. رفع صوته الحاد وقال بصوت مرتفع: «جوي مُون!».

لم يبدو على جوي أنه سمع سكانجي، إذ كان يحدق في شجرة بلوط كما لو كان غارقًا في أفكاره. قفز الفأر، وقد تملَّكته حماسة مفاجئة، إلى الأرض وركض إلى أن وقف أمام جوي. شرع الفأر ذو الدماغ الكَمِّي يصرخ أمام الهيبي شارد الذهن، الذي هز رأسه وحاول أن يركله في غلظة، بل وحاول أن يطأه بقدمه. تراجع سكانجي مصدومًا إلى داخل سيارتي. اعترضت المرأة الواقفة عند البار - زوجة جوي - على سلوك زوجها برفق.

راغبًا في معرفة المزيد عن الأمر، ذهبت إليها وطلبت منها بعض البوربون والماء وقلت لها: «سأتولى مهمة تسويق هذه الفئران. اسمي زاد بلانت».

قالت المرأة: «وأنا لولو سابادو». لم أكن أعرف اسمها. كانت تتحدث في صوت خفيض ناعم. «وهذا جوي مُون». ثم عبست في وجهي وأردفت: «وأنت تعلم كل شيء عنَّا بالفعل، بفضل هذا الفأر».

قلت محاولًا تهدئتها: «لقد حصلت على الفأر للتو. وبالتأكيد لا أخطط لأن ...».

- «أتعرف محاميًا بارعًا يا زاد؟» هكذا قاطعني جوي مُون، وكان غير متزن في وقفته قليلًا. وكالمعتاد، بدا ممتعضًا وغاضبًا، كما كانت رائحته كريهة كالعنزة. «لقد أفسدت تجربة صديقك السيد جرابر عقلي تمامًا. صرت أسمع أصواتًا في رأسي، والأمر يسير من سيئ إلى أسوأ. حتى هذه الشجرة تتحدث. ليس لها صوت بشري في حقيقة الأمر. غمزات ولمزات. وأنا أعرف ما يدور في خلدك بشأن زوجتي، أيها المخنث الحقير. يجدر بي أن ...».

قالت لولو وهي تهز رأسها: «توقَّف أرجوك يا جوي، يا إلهي!» ثم وضعت مشروبي بقوة وقالت: «ها هو مشروبك يا سيدي».

قال جوي: «أحتاج مشروبًا». كانت رائحة الماعز التي تنبعث منه تخترق أنفي، جاذبة إياي إلى أفكاره المتشابكة.

قالت لولو وقد فاض بها الكيل: «كلا، لا شراب لك. اجلس وتوقف عن مضايقة الناس».

قبل أن يبتعد جوي قال لي: «لا تنسى أنني فنان أنا الآخر يا زاد. حتى لو لم تعرض لوحاتي في معرضك. أنا لست فنانًا مشهورًا يأتي كل شيء إليه على طبق فضي، لكنني لا أقل عنك على الإطلاق».

- «بالطبع يا رجل. لقد كانت ظروفك عسيرة وحسب». كنت مستعدًّا لقول أي شيء من أجل تهدئته.

ذهب جوي وجلس عند قاعدة الشجرة، يحدق بنا ويصدر إيماءات عجيبة يقصد منها أن يظهر أنه يدرك خواطرنا الدفينة. بدا لي أنني في حالة من التواصل الجزئي منعه طوال الفترة التي كنت أشم فيها رائحته. بالتأكيد كان محقًّا بشأن تلك المشاعر التي كان يستشفها مني - مشاعر الخوف والنفور والذنب ناحيته - فضلًا عن اشتهائي زوجته. كان الأمر صعبًا.

لكن على أي حال كان لدينا حفل يجب المضي فيه. احتسيت كأسًا آخر من البوربون ودخَّنت سيجارة برفقة كارلو، الذي بدا في طريقه إلى التحول لنسخة أخرى من جوي مُون.

قال: «أشعر أنك تستخف بي في داخلك، كما أنني أتفهم رأي ريكي في مستوى ذكائي المنخفض. إن انجذابها لي شهواني وحسب، فلا أحد يحبني حقًّا، أنا مهرج البلاط، بهلوان للإيجار».

- «لا تقل هذا يا كارلو! هل قام جافن بنشر هذا التخاطر كالطاعون أم ماذا؟!» ثم توقفت لثانية وطفقت أراقب حلقات الدخان المنبعثة. ثم شممت رائحة عجيبة في الهواء، كانت صادرة عن كارلو. قلت: «هل تضع عطرًا نسائيًّا؟ هل تردَّيت إلى هذا الحضيض؟».

- «إنها مزرعة جلدية بكتيرية مأخوذة من الكانجارو، وتدعى «لطمة الذيل». النساء تحبها».

- «بالتأكيد. لكن على أي حال، لو كنت تمتلك بعضًا من القدرة على التخاطر، هل يمكنك أن تخبرني بشيء عن لولو سابادو؟».

قال كارلو: «امرأة خطيرة. إنها أصغر منا بخمس سنوات، وأكبر من جوي بخمس سنوات. امرأة خبيرة بالحياة، وأعتقد أنها ربما تمتلك القدرة على التخاطر. إذا نظرتُ إليها أشعر أنني على وشك الانفجار، وكأنني داخل بيت الرعب في مدينة الملاهي». ثم حدق كارلو في يديه، محاولًا السيطرة على أفكاره المتدافعة وأضاف: «هذه الإصبع التي عضها الفأر، لا أستطيع أن أفهم لماذا لا يرغب أحد في مساعدتي. إن ريكي واقفة هناك تتحدَّث إلى جوي مُون، وهي منجذبة إليه بطريقة عجيبة مريضة. ثمة شعور بالحكة يتنامى داخل أصبعي يا زاد. ثمة طفيل خبيث يعيش بداخلي».

- «أنت ثمل يا رجل، لقد فقدت صوابك».

- «مرحى أيها الرجلان!» هكذا نادتنا ريبا وهي مبتهجة. «أيها المحبَّان، لا أحظى في المعتاد بمثل هذا المرح في ليلة الخميس. حادي بادي، من منكما سأختار». قالت هذا وهي تنقل إصبعها بيننا، ثم انتهى بها الحال وهي تشير إليَّ. «ألا تشعر بالوحدة وأنت تنام في ذلك المتجر كالخفير يا زاد؟».

ثم جاء جافن، وكان يسير نحونا بينما يحيط خصر جين بذراعه.

قال كارلو مفشيًا ما كان يدور في خلدي تمامًا: «كيف تطيق جين أن تسمح له بأن يلمس جسدها؟».

- «هلَّا تناولنا العشاء في الهواء الطلق؟» هكذا قال جافن بطريقة أرستقراطية مداهنة.

قلت له: «تبدو مثل تود تراسك، الرجل الذي كان يعيش هنا في السابق. لكنك تبدو متكلفًا».

قال جافن: «إنه مثل يُحتذى به، أليس كذلك؟ أنا أعمل على تحسين صورتي، وكأنني أحد الأعيان. دعونا نأكل». ثم استدار في عفوية نحو جين وأشار نحو القرن وقال: «لدينا نقانق وقريدس وبرجر وسمان، كل ما ترغبين في شيِّه. يمكنك أن تعديه بنفسك أو أن تطلبي من لولو إعداده».

- «لكن لا تطلبي من جوي». هكذا صاح جوي من على مسافة خمسين قدمًا عند قاعدة الشجرة بينما ريكي تقف إلى جواره شاعرة بالإثارة. من الواضح أنه كان منتبهًا لكل ما يحدث.

قال جافن في لهجة رتيبة خالية من المشاعر: «لو أن كل مقدمي قوالب الفئران ذات الأدمغة الكَمِّية مروا باضطرابات نفسية من هذا النوع، قد يعيق هذا سير العمل. ناهيك عن تأثير هذا على العلاقات العامة فيما يخص تسويق عملية التخاطر الكَمِّي».

- «في حالة الفئران، بوسعنا استخدام شخصية جوي مرارًا وتكرارًا». هكذا قال كارلو وهو يجاهد كي يدخل نفسه في أجواء العمل. كنت أكاد أرى الدخان وهو يتصاعد من أذنيه. «فلنستخدم شخصية جوي مع كل فأر، عن طريق نسخها من الفأر الأصلي. لا حاجة إلى التعامل مع جوي أو مع أي قالب بشري آخر مجددًا».

ردد جافن: «لا مزيد من جوي. فلنخضعه للعلاج في مكان يشعر فيه بالأمان».

قال كارلو وقد بدأ يستعيد إعجابه بنفسه مجددًا: «وبهذه الطريقة تكون لدى زاد فرصة للتقرب من لولو».

سألتني جين: «هل هذا ما تفكر به حقًّا؟ أستسعى خلف ساقطة كهذه؟».

قلت: «ليس هذا من شأنك، أليس كذلك؟ خاصة لو كنت بالفعل توعدين جافن. كما أن لولو ليست ساقطة».

قالت جين: «هذا ما تظنه أنت. أنت لا تفقه شيئًا يا زاد، وهذا مثير للشفقة» ثم رسمت على وجهها تعبيرًا محايدًا متكلفًا وأضافت: «لا لا لا، أنا فنان لا يهتم بتفاهات هذا العالم».

قاطعها كارلو قائلًا: «لنعاود الحديث عن فأرنا، عن القياس المعياري لشخصيات الفئران ذات الأدمغة الكَمِّية. فكرتي اللامعة».

صاح جوي: «لدي هنا قضيب بلاتيني من أجلك!» وشرع في إنزال بنطاله.

ابتعدت عنه ريكي بهدوء.

وضع جافن فمه على يده المضمومة وتمتم قائلًا: «إنذار الخطر، آرتي. عليك بتهدئة جوي».

تعامل آرتي مع الموقف بكل سلاسة؛ إذ أتى من جهة المدخل ورش بعض الرذاذ على وجه جوي المتجهم. تراجع جوي إلى الوراء ثم انهار على الأرض وقد تراخى جسده بينما كان بنطاله حول ركبتيه. قالت لولو شيئًا حادًّا لآرتي وهي تشير بإصبعها، لكن الحارس هز كتفيه ثم رفع بنطال جوي الخامد. بدت لولو تعيسة للغاية.

قال جافن: «حان وقت الطعام. أعتقد أننا جميعًا نشعر بالتوتر. يمكنك العودة إلى المدخل يا آرتي».

سألته: «هل سيكون جوي على ما يرام؟».

قالت ريكي وهي تعاود الانضمام إلينا: «لقد منحه آرتي جرعة خفيفة، وسيفيق بعد خمس عشرة دقيقة أو نصف ساعة على الأكثر. لقد تعيَّن علينا

فعل هذا من قبل للأسف. إن جوي صاحب شخصية مثيرة للاهتمام. هل تعرفه يا زاد؟ يقول إنه فنان هو الآخر».

قلت: «أجل. من الصعب أن يكون المرء فنانًا. صنع الأشياء وبيعها، كلا الأمرين مستحيل، ولا أعتقد أن جوي يجيد أي من الأمرين. لكن إحقاقًا للحق هو يشع بالحيوية، خاصة في ضوء موضوع التخاطر هذا. إن العامة يحبون الفنانين غريبي الأطوار».

قالت ريكي: «سنستأصل جهاز التواصل المغروس داخل دماغه. وبمجرد أن نؤسِّس خط إنتاج الفئران ذات الأدمغة الكَمِّية سنرغب في بيع العلاجات الكَمِّية للناس. نحن نرى أن هناك سوقًا كبيرًا لأجهزة التواصل الدماغية، أليس كذلك يا جافن؟».

قلت: «ولكن لو تسببت هذه الأجهزة في تأثيرات مماثلة لتلك التي أصيب بها جوي...».

قالت ريكي: «لن يحدث هذا. لقد اختبرناها على أشخاص آخرين. هل أخبر زاد عن هذا الأمر يا جافن؟».

قال جافن: «لا أريد حقًّا التحدث في شؤون العمل. كما أن ما ستخبرين به زاد من المفترض أن يكون سرًّا. وكما تعلمين فقد وقعتِ اتفاقًا يلزمك بالسرية».

قالت ريكي: «وماذا في هذا؟ إن سلايجرو تتحرَّك ببطء. وإذا واصلنا الزحف بهذه الطريقة ستسبقنا شركة يونايتد ميوتيشنز، ولن تساوي أسهم مؤسسنا مليمًا، سأخبر زاد بما لديَّ الآن». ثم حدَّقت فيَّ، وبدا لي أنني شعرت بوخزة خفيفة من نظرة عينيها. قالت: «لقد خضعت لعملية التعديل الدماغي الكَمِّي بالفعل، وكذلك جافن، منذ نحو أسبوع. نشعر أن الأمر على ما يرام، وأرى أن علينا البدء في ترويج العملية في أسرع وقت ممكن. غدًا لو أمكن».

قال كارلو وهو يهز رأسه: «أعتقد أنني أمر بهذا التحول أنا أيضًا، بفضل ذلك الفأر المقيت الذي عضني. أشعر داخلي بشعور غريب من التعاطف، وكأنني أخصائي اجتماعي. أهي عملية التخاطر يا ريكي؟».

قال جافن بضيق متزايد: «ثورة في القصر. أأنا الوحيد الذي يشعر بالجوع هنا؟ تعالوا وتفقدوا الطعام. افتحي لنا بعض زجاجات النبيذ الأبيض الألماني يا لولو».

أومأت برأسها دون أن تنبس ببنت شفة وأخذت نَفسًا عميقًا. شعرت بالتعاطف معها.

قلت مخاطبًا لولو في محاولة مني لتخفيف ضيقها: «أتذكر حين كانت أسرتي تأتي لتناول الطعام بالخارج، في هذا المكان بالضبط. كان هذا منذ ثلاثين عامًا. إنها واحدة من أوائل ذكرياتي. أشكرك على كل المساعدة التي قدمتيها اليوم».

أومأت معبرة عن العرفان الشديد والاهتمام، ربما على نحو ساخر. لم أكن أحقق أي نجاح في مسعاي.

أدخلت قطعة نقانق في أحد تلك الأفرع الخضراء اللينة التي كانت لولو قد جهزتها. رفعت الفرع على النار مستمتعًا بالطقطقة الرقيقة للفرع الثقيل. جعلت الضفاضع المكيفة للهواء الحرارة محتملة بجانب نيران الشواء.

قال جافن: «هذا الرجل يعرف كيف يشوي».

- «فلتكن كريمًا يا زاد وتشوي بعض قطع النقانق الصغيرة هذه من أجلي أنا وجين». كانت هذه ريبا، تتحدث في صوت أرستقراطي متكلِّف. ثم انفجرت هي وجين في الضحك.

قال كارلو متمالكًا نفسه: «وسأعد بعضًا منها من أجلي أنا وريكي. إن جافن يستطيع الاعتناء بنقانقه، كالمعتاد». كان الشراب يجعلنا نتصرف بسخافة، وكان الأفق أشبه بمتاهة مزركشة من اللونين الرمادي والذهبي. استلقى ديناصور ريبا الطائر والحلزون الخاص بي في البركة، بينما كان جوي فاقد الوعي ومستلقيًا على ظهره.

قلت: «لقد تذكرت شيئًا لتوي. عشب ذيل القط، إنه يبدو أشبه بقطع نقانق موضوعة على أسياخ، أليس كذلك؟ وحين كنت آتٍ إلى هنا وأنا في الخامسة من عمري كنت متأكدًا من أنني لو استطعت إخراج أحدها من البركة فبإمكاني أن أشويه ويكون له طعم النقانق نفسه».

«يمكنني تحقيق هذا من أجلك» هكذا قال جافن وهو يتحسس الأداة التي تتدلى من حزامه «بفضل عملية التعديل الدماغي والتخاطر».

- «أيمكنك تحويل عشب ذيل القط إلى نقانق الآن؟».

- «لا يمكنك أن تتخيل السهولة التي يمكنني بها القيام بتعديلات هندسية كَمِّية الآن، وكل هذا بفضل أساليب التخاطر الكَمِّي. لقد اخترعت أداة التعديل هذه الشهر الماضي بالمناسبة، وهي ترسل حزمة من المجالات الكَمِّية المتفرعة إلى داخل خلايا الكائن المستهدف، بحيث تُحدث لديه تعديلًا على المستوى الكَمِّي. لقد استخدمتها مع جوي، وكذلك عليَّ أنا وريكي. ولن يمر وقت طويل حتى نعرضها للبيع».

- «ما علاقة هذا بعشب ذيل القط؟».

- «حسنًا، لقد خضعتُ للتعديل الكَمِّي بالفعل، وأمتلك القدرة على التخاطر. وإذا كان العشب مزودًا بأداة التعديل الكَمِّي هو الآخر فبإمكاني فرض إرادتي عليه. وبوسعي أن أنظر إليه وأعدِّل برمجته البيولوجية الداخلية، بحيث أغير جيناته وإنزيماته وآلية عملها. بعد ذلك تعيد الأنسجة تنظيم نفسها على الفور».

كانت أداة التعديل الكَمِّي لها مظهر يشبه المسدس، لكنها كانت مجمَّعة من مئات الأجزاء الصغيرة، على غرار الجنيحات والأنابيب والشرائح والمكثفات والمغناطيسات والمرايا الدقيقة، إلى جانب خزان صغير للغاية من الهليوم. مد جافن ذراعه وصوب. شعر الديناصور الطائر والحلزون العملاق بالتوتر بسبب حركته هذه فشرعا يسبحان إلى الجانب القصي من البركة.

صدر عن أداة التعديل الكَمِّي صوت أزيز، وسرت ذبذبات في الهواء المحيط بعشب ذيل القط. بعد ذلك حملق جافن في العشب لوقت قصير، بينما كانت شفتاه تتحركان في بطء. أصدر بعض الإشارات الغامضة بيديه، وبدا وكأنه يحاول تنويم العشب مغناطيسيًّا. ثم انتهى كل شيء على نحو مباغت.

صاح جافن: «أنا المسيطر! أنا سيد التعديلات الجينية الكَمِّية. حان وقت الحصاد يا زاد».

قلت: «هيا يا ريبا، أمسكي عصي النقانق لثانية».

- «لا أظن هذا، فلتدع لولو تمسك بها. هل يمكنك هذا يا عزيزتي؟».

تحرَّكت لولو ببطء، دون أن تنبس بكلمة، وأمسكت العصي مني. تلامست أيدينا لثوانٍ وشعرت برجفة بسيطة - تبعها شعور بالذنب لتفكيري فيها بهذه الطريقة بينما زوجها المسكين متكومًا على الأرض في حالة يرثَى لها بسبب الرذاذ الذي رشه الحارس عليه - بعدها خامرني شعور عجيب بأن لولو تعرف كل ما يدور في خلدي.

حسنًا، كنت ثملًا تمامًا. كنت ثملًا إلى درجة أنني خضت البركة بينما أرتدي حذائي، واقتلعت ثلاثة من نباتات ذيل القط المعدَّلة من جذورها. وبالفعل، تحولت الانتفاخات التي تعلوها إلى لحم، أو شيء أشبه باللحم، ذا لون شاحب أقرب إلى لحوم العجل أو الدجاج.

قال كارلو: «يستحيل أن آكل هذا الخراء. أدرك تمامًا أنه ليس من الحكمة تذوق كل ما تنتجه سلايجرو من هراء. ويكفيني ما أصابني من هذا الفأر».

- «لنطعم جوي مُون ذيل القط». هكذا قالت ريبا، التي كانت تتسم دومًا بقدر من الوضاعة.

هنا هب جوي واقفًا، وكأنما استثاره سماع اسمه، وتحرك بسرعة لا تصدق نحو جافن واختطف أداة التعديل الجيني الكَمِّي من يده.

صاح جافن: «كلا! إياك أن تصوبها على أحد! أيها الحارس! آرتي! أوقفه!».

صاح جوي وهو يلوح بالأداة: «لقد خضعت للتعديل الكَمِّي بالفعل، وسأريكم كيف يبدو الأمر!» كان يركز تفكيره على جسده هو، محاولًا تعديل شيء في أداة التعديل الكَمِّي المغروسة بداخله، وشرع في تغيير بنيته الجسدية.

وببطء، ثم بسرعة، اتخذ جوي شكل أحد الرسومات الخرقاء التي يرسمها الأطفال. كانت له ساقان ذات شكل مخروطي، وجسد بيضاوي، ورأس كبير مستدير تتفرع منه شعيرات كثة خشنة، بينما كان فمه عبارة عن خط مائل وعيناه نقطتين زائغتين غير متقنتي الشكل. كانت ذراعاه الطويلتان الرخوايان تلوحان في جنون، بينما ظل يطبق إحدى يديه ذات الأصابع الثلاثة على أداة التعديل الجيني الكَمِّي.

اقترب حارس الأمن آرتي من جوي.

صاح جوي: «مكاااانك» وقد استدار في الوقت المناسب بحيث غمر الحارس بالرذاذ المنبعث من الأداة. ضيق جوي عينيه وثبت الحارس في مكانه بقوة إرادته وحدها.

جثم آرتي على أطرافه الأربعة، وقد صار أشبه برسمة خنزير كارتونية غير متقنة؛ إذ كان جسده مستديرًا مكتنزًا رخوًا ذا لون وردي ومرقطًا ببقع سوداء. أخذ الخنزير يحك أنفه في الأرض، وكأنما يتشممها بحثًا عن جوزات البلوط،

بينما أخذ يتغوَّط في الآن عينه. شعر سكانجي بالذعر بسبب هذه الفوضى وصعد على كتفي.

تحرك جوي في بطء، وخيلاء، وكأنه مفتون بحجمه الضخم، ثم اقترب من صحن الطعام الضخم وألقى محتوياته في فمه المفتوح. وبينما غاص الطعام داخله أخذ جوي يكبر في الحجم، بحيث صار أشبه بكتلة ضخمة غير مميزة الملامح تزن ثلاثمائة رطلًا. نظر إلينا في تجهُّم، وقد صار أشبه بكتلة بغيضة من اللحم تخرج منها شعيرات متماوجة، وتأهب كي ...

لكن بإشارة خفية من جافن أخرج أحد ضفادع التبريد العملاقة لسانه البالغ طوله ثلاثين قدمًا وانتزع أداة التعديل الجيني الكَمِّي من يد جوي مُون العملاقة. وفي لمح البصر استعاد جافن أداته من فم الضفدع، وشغلها بينما أخذ يثبِّت عينيه على جوي وعلى الخنزير، مركزًا تفكيره عليهما، بحيث دلف إلى داخل جسديهما كي يستعيد الحالة السابقة لهما قبل التعديل الجيني.

صاح جافن: «إبطال، إبطال، إبطال». وقد جلجل صوته بنبرة الانتصار. تذكرت هذه النبرة من أيام الدراسة، حين كان يتباهى بدرجاته النهائية.

بعدها بلحظات استعاد جوي وآرتي هيئتهما القديمة. انهار جوي على الأرض وهو يرتعد، وقد تكونت إلى جواره بركة من اللحم المتقيَّأ. كان اليأس يشع منه وكأنه قوة مادية. أما الحارس آرتي فقد اتخذ شكله البشري مجددًا.

أمر جافن آرتي: «قيِّد جوي، واتصل بالعيادة النفسية التي كنا نتحدث عنها واطلب منهم أن يرسلوا عربة إسعاف. لماذا تحدق في هكذا يا آرتي؟ هل من خطب ما؟».

أخذ آرتي يتحسس وجهه وجسده بيديه، متحققًا من أن كل شيء في موضعه السليم. كان أنفه ملوث بالطمي، بينما كانت هناك جوزة بلوط داخل فمه. «يمكنني قراءة أفكار جوي، وأفكارك يا جافن، وأفكار ريكي و...».

لكن في هذه اللحظة قاطع صراخ كارلو حديث آرتي، بجانب أذني مباشرة.

قلت بغضب: «ما خطبك يا رجل؟».

- «إصبعي! إنه ينفتح. يا إلهي، ثمة فأر صغير يخرج منه. اللعنة، اللعنة، اللعنة!» سقط الفأر الوليد على الأرض وأخذ يتلوَّى.

ضحك سكانجي، وهو لا يزال على كتفي وقال: «قال كارلو إنني لن أرزق بأبناء. لقد كان مخطئًا. هذه ابنتي، سأسميها سيسا. لقد نمت من برعم غرزته داخل كارلو. والآن سأرسل شخصيتي إليها. سأجعلها مثلي تمامًا».

تأوه كارلو وأمسك برأسه، بينما يتقاطر الدم من أصبعه المشقوق وقال: «آه، اللعنة. الأمر يزداد سوءًا. إن عشب ذيل القط يغني، لكني لا أستطيع سماع الكلمات. وجوي وجافن وريكي ولولو، كل واحد منهم أشبه بزوبعة من الضباب الملون. مضت ساعة وأنا على هذه الحال، لكني ظننت أن بمقدوري ... اللعنة. ساعديني يا ريكي».

وضعت ريكي شيمانو علقة فودو شافية على أصبع كارلو. أخذ كارلو يحملق فيها وقد ازداد اضطرابًا بفعل ما خطر له من أفكارها. أخذ يسب ويلعن ثانية ثم مشى على العشب بغضب كي يأتي لنفسه بكأس بوربون أُخرى.

قالت ريكي: «لقد فقد صوابه مثل جوي مُون. إن ذوقي في الرجال مريع. لكن جوي يتمتع بقدرة فنية أعلى، ألا توافقني؟ هذه التعديلات الجينية التي فعلها بجسده كانت مذهلة. سيكون فنانًا رائعًا لو أنه تعلم كيف يستمتع بقدراته هذه. كما أنه يمتلك بعض الأسهم في سلايجرو».

قالت جين: «حمدًا لله أن هذا حفل خاص، لم يسبق لي أن رأيت فضيحة كهذه».

قال جافن: «لكنك تحبين شعور الإثارة الذي أجلبه، أليس كذلك؟».

نظرت جين إليه بتمعُّن. كانت في نقطة وسيطة بين الانجذاب والنفور. تلاقت أعيننا للحظة حينها، وشعرت بما كان يدور بخلدها. إنه نوع من التخاطر الموجود بين المتزوجين. كان واضحًا لي أن جين تريد الحصول على كل ما يمكنها الحصول عليه من جافن. كان قرارها إستراتيجيًّا، وكان هذا يصيبني بالاشمئزاز والغيرة، لكن كان عليَّ تجاوز الأمر في الوقت الحالي.

أسفل قدمي كانت الفأرة الوليدة الصغيرة سيسا تهز جسدها، تاركة مشاعر وأفكار والدها تتخللها. بعد ذلك شرعت الفأرة الوليدة في تسلق ساقي مثلما فعل والدها من قبل. هرع سكانجي إلى الأسفل وكشف عن أسنانه لها.

ثم قال في صوت حاد: «زاد يخصني أنا، أنت ستكونين مساعدة لولو، تلك المرأة هنا».

كانت لولو واقفة إلى جواري، كما لو كانت قد انجذبت لي مغناطيسيًّا بفعل انجذابي لها. قالت لي بصوت خفيض قوي: «أخرجني من هنا يا زاد، هذا الجنون يفوق الاحتمال».

بالتأكيد! اصطحبت المرأة الغامضة إلى سيارتي، يتبعنا الفأران ذوا الأدمغة المعدَّلة كَمِّيًّا. وكان الحلزون قد عاد إلى مكانه أسفل هيكل السيارة.

صحت بحماسة: «سنخرج من هنا! شكرًا على كل شيء!».

بعد ذلك كنت في طريقي خارجًا من مزرعة تراسك بصحبة امرأة، للمرة الثانية، تمامًا كما حدث مع جين منذ عشر سنوات. تعالت أصوات الشكوى والاحتجاج من خلفنا، لكن كنت قد خرجت بالفعل بصحبة لولو متجهين صوب طريق ريفر رود.

التزمنا الصمت لنحو عشر دقائق، تاركين هواء الليل يرتطم بوجهينا، وكل منا يستجمع أفكاره. كانت ليلة غير مقمرة من ليالي شهر سبتمبر، وكان الهواء دافئًا رطبًا عذب الرائحة. كانت ليلة يكتنفها الغموض والوعد. كنت أشعر برائحة عطرية محببة تنبعث من لولو، ومعها شعرت ببعض الخواطر عن شخصيتها. قال كارلو إن لولو تتمتع بالقدرة على التخاطر الكَمِّي هي الأخرى.

قالت بصوتها المبحوح: «لنسلك المنعطف التالي إلى اليسار، نحو تلك الساحة الواقعة خلف مدرسة بالارد القديمة. لن يزعجنا أحد هناك». ثم أومأت مؤكدة على خطتها.

كان التوافق بيننا يتزايد أكثر وأكثر. كانت ساحة بالارد هي المكان الذي ذهبت إليه بالفعل في السابق مع جين. كانت أول مكان تضاجعنا فيه أنا وجين.

ما إن توقفنا بالسيارة حتى شرعت لولو في تقبيلي وتحسس جسدي، وبعدها بخمس دقائق كنا عاريين تمامًا ونتضاجع على المقعد الخلفي للسيارة. كان وجودنا في الخارج يضفي لمسة رومانسية، وبفضل وجودنا خلف مدرسة بالارد شعرت بأنني استعدت أمجاد الشباب.

على الغطاء الأمامي للسيارة أخذ الفأران يرقصان بسعادة غامرة وهما يتلذذان بمشاعرنا الغنية.

بعد أن انتهينا رقدنا على الجلد الناعم لمقعد السيارة المكشوفة ونحن ننظر إلى السماء، وقد استكانت لولو عارية على صدري. شعرت بقرب شديد منها ومن العالم من حولنا. كنت أقرب وأقرب. درجة من القرب لم أشعر بها من قبل قط.

لم يعد الأمر يقتصر على إحساسي بمشاعر لولو الآن، بل كنت أندمج مع أفكارها، كنت داخل عقلها. أيضًا شعرت بعقلي الفأرين ذوي الأدمغة المعدَّلة كَمِّيًّا، وبصورة غير محددة شعرت بأشكال الأشجار المتمايلة وبحركة الحشرات داخل الأوراق المتحللة الساقطة على الأرض. لم يكن شعورًا

محددًا، بل كان شعورًا فضفاضًا انطباعيًّا. أشبه بدرجات الألوان السائلة على لوحة ما قبل أن تجف. وكأن الحواجز كلها قد سقطت.

- «أنا أرى ...» هكذا تلعثمتُ وأنا أجد صعوبة في نطق الكلمات. «أنا أراكِ».

همست لولو وشفتاها تلامسان خدي: «لا تجزع أرجوك، حاول التعود على هذا الشعور».

- «أنت تتواصلين معي عن طريق التخاطر الكَمِّي؟ كنت تمتلكين هذه القدرة طوال الوقت».

- «لقد التقطتها من جوي. لقد أخضعوا جوي لعملية التعديل الدماغي الكَمِّي الأسبوع الماضي، أليس كذلك؟ حتى يستطيع دمج عقله مع عقل الفأر».

- «وقد نقلتِ هذه القدرة إليَّ؟ عن طريق المضاجعة؟».

- «في حالة الاتصال الحميم تصير هذه القدرة مُعدية. يمكنك القول بأن التخاطر مرض من الأمراض المنقولة جنسيًّا». ثم ضحكت وأضافت: «إنها قدرة مفيدة يا زاد. لقد سمعت ما قالته ريكي. وليس من الضروري أن تجن كما حدث لزوجي».

- «هل تأسفين لما أصابه؟».

- «بالطبع. لكن قبل أن يحدث هذا كانت العلاقة بيني وبين جوي قد وصلت إلى طريق مسدود. والآن هو لم يستحم منذ أسبوع، يا للقرف. أنت فارسي، وربما تنجح علاقتنا. فقط استرخِ يا حبيبي، فالتخاطر الكَمِّي أشبه بقوة سحرية».

كان الاسترخاء سهلًا، لكنه مرعب قليلًا. لم أكن أرغب في الغرق، لم أكن أرغب في أن أكون ذرة غبار في إعصار العقول. لكن سواء أحببت هذا أم لا فقد كنت مندمجًا مع لولو، ومع فأرينا ذوي الأدمغة الكَمِّية، والآن يبدو أنني أشعر بالضوء من مسافة بعيدة، كنت أشعر بعقل كل من كارلو وجوي وريكي وجافن وآرتي الحارس كذلك. كان جافن يتحرق شوقًا للإيقاع بجين، وكان كارلو يحاول استمالة ريبا رانشتري، أما جوي فكان مقيدًا في سترة مجاذيب داخل صَدفة إحدى سلاحف الطريق في طريقه إلى عيادة نفسية بوسط البلد، وكانت ريكي شيمانو تركب معه. أما آرتي فكان يحدق في السماء. كانت أصواتهم الصغيرة كلها تتردد في رأسي، غائمة وملتبسة.

سمحت لنفسي بالاندماج. كانت لولو محقة. لم يكن من الضروري أن أنهار، بل ظللت على حالي. كنت أتواصل مع أفكار العقول الأخرى، أتذوقها، دون أن أدري ما كنت أفعل، لكن بصورة ما تغيرت مشاعري.

في محاولة مني لاستيعاب ما كان يحدث، عدت مجددًا إلى صورة تصفح شبكة الويب. بدت العقول الأخرى وكأنها مواقع إلكترونية أتصفحها على شاشات متعددة. لكن هذه الشاشات كانت غير واضحة، كما لو أنها موجودة في ركن قصي لا ألمحها إلا بطرف بصري.

ربما لم أكن أضيِّع وقتي في تصفح الويب وأنا نصف نائم على مقعد الأحلام الخاص بي. لقد كنت أجهز نفسي، أجهز نفسي للتخاطر الكَمِّي.

جيل انتقالي

ديفيد برين

«أقسم أنني على وشك أن ألقي نفسي من تلك النافذة! لا أعرف إلى أي مدى يمكنني التحمُّل أكثر من هذا».

أشار كارمودي بإصبعه نحو الفرجة التي تعلو تقاطعًا مزدحمًا في منطقة وسط البلد بثلاثة وعشرين طابقًا. كانت بعض قطع العزل المطاطية لا تزال تتدلَّى من بعض المواضع، منذ أن فتح الراحل جو ليفي النافذة عنوة ليلقي نفسه منها خلال كساد عام 65. وبعدها بخمسة عشر عامًا لا يزال لوح النافذة الزجاجي موجودًا، لكن ظلت فجوة بعرض نحو عشرة سنتيمترات مفتوحة، تسمح بمرور نسمة خفيفة من الهواء المحمل برائحة العادم. إنها نقطة مفضلة للقافزين، تقدم لأي رجل تعيس متعجل مثل كارمودي مهربًا سهلًا مُغريًا.

كان عليهم أن يغلقوها منذ عقود.

لكن حقًّا، هل كان ذلك سيشكل فارقًا؟

«قل هذا لشخص يهتم». هكذا قالت بيسي سميث بغلظة. كانت بيسي تدير حسابات الغذاء والزراعة عبر ميكروفون مثبت إلى صدغها الأيمن. كانت توزع

الاستثمارات في أوعية اللحوم العملاقة التي تتغذى على ضوء الشمس من كانساس إلى القمر، وكانت تغمغم وتشيح بيديها بينما كان سرب صغير من الروبوتات يحتشد حول رأسها، ويتحسَّس ذقنها ووجنتيها وحاجبيها، كي يشكِّل وجهها الجديد الثالث لهذا اليوم. رأى كارمودي أن هذا المشهد غير لائق؛ إذ ينبغي على المرء الاحتفاظ بوجهه لأشهر، كما أن عملية التحويل ينبغي ألا تجري في العلن.

قال بحدة: «أجل، حسنًا، ليس أنت من عليه التعامل مع الحمقى المسؤولين عن حركة النقل. لقد ابتلوني بحافظة حسابات ملعونة من شأنها أن ... آه اللعنة!».

تراكمت الرموز داخل مجال الرؤية الجانبية لكارمودي، مخطَّطات بيانية آنية تظهر انخفاضًا آخر في عقود الطيران المستقبلية. كانت طلبات الشراء التي قدمها هذا الصباح قائمة على توقُّع مفاده أن التدهور الطويل كان في طريقه إلى التوقف، لكنه لا يزال مستمرًّا! كانت المؤشرات تهوي بمعدل أسرع من طائرة ساقطة. عليه أن ينسى حوافز الأداء للأسبوع السادس على التوالي. حين تعرف جايا بهذا ستتنهَّد وتلغي آخر عملية شراء للوحة فنية قامت بها، ثم تذكر في حنين أحد أخلائها القدامى.

ولعلها محقة يا رجل؛ فربما سيكون حال زوجتك وابنك أفضل من دونك ...

أمام عينيه المتعبتين ظهرت صورة جايا بغتة، وكأنما استدعاها تفكيره العَبوس فيها. ظهر الأفاتار الذكي [(31)] المبهر الخاص بها وأزاح جانبًا عشرات المخطَّطات والتحليلات الاستثمارية التي، بدورها، أخذت تغطِّي أسطح حجيرات العمل البسيطة في المكان الذي يعمل كارمودي به. على الأقل كان يفترض أن هذه المرأة التي تناهز الآلهة جمالًا والمتجسِّدة داخل الواقع المعزَّز كانت جايا، إذ بدا وجهها شبيهًا بوجه المرأة التي كانت تجلس أمامه على الإفطار، ذات العينين المتعبتين بسبب الاجتماعات الليلية مع رفاقها المحرضين في القارات الاثنتي عشرة، الذي يحاربون من أجل بسط «قوانين مواطنة الحيوانات العليا» إلى مستوى إضافي جديد، بحيث تسري هذه المرة على عجول البحر وكلاب البراري.

ماذا بعد ذلك؟ أسنعطي حقوق التصويت للغربان والأبقار وفصيلة الكلبيات؟ أنَّى لهذا أن يفلح؟

في صورتها المتأنِّقة، كانت جايا تظهر أمامه بينما خصلات شعرها النشطة تحيط برأسها وكأنها أعشاب بحرية، ويتغير لونها من الأشقر إلى البني، وتتخلَّل ذلك ألوان قوس قزح. وتسبَّبت هبَّة من العطر المعزِّز للجاذبية في جعل كارمودي يسب ويلعن ويغلق خاصية الشم المقرون بالرؤية داخل نظارته.

إنها تعلم كم أكره هذا.

حرك الأفاتار الذكي لجايا يده في اتجاه كارمودي، محركًا إصبعه كعصا سحرية، ناشرًا مجموعة من العبارات التذكيرية: - «توقف عند الطبيب الأوتوماتيكي كي تعدِّل الأجهزة المساعدة المزروعة بداخلك. عليك بإصلاح ذلك الفلتر المزاجي المعطوب!».

- «تقول دار رعاية المسنين إن عليك الذهاب لاصطحاب والدك، وإلا ستدفع غرامة تأخير».

- «اشتر بعض البيض».

أجفل كارمودي، وشعر بكراهية شديدة حيال ذلك الشخص الذي اخترع بريد الأفاتار الذكي، بحيث زود تلك النسخ شديدة الواقعية بذكاء اصطناعي. بطبيعة الحال كان بمقدوره قضاء بعض الوقت في إتقان أحدث الحيل ... مثل تخصيص أفاتار ذكي خاص به من أجل الرد بصورة أوتوماتيكية، حتى لا يتعرَّض لأي مقاطعات خلال العمل...

حاول إرغام صورتها على التراجع إلى ركن قصي من مجال رؤيته قائلًا: السيد باتل سيعاقبني بشدة لو لم أرسل تقرير عن اتجاهات حركة النقل. ما زلت أرى أنها تشير إلى تغير في حركة الشحن الجوي بحيث ...

تعلَّق أفاتار جايا الذكي بأحد مخطَّطات الأداء مقاومًا جهوده لطرحه جانبًا، ومواصلًا سلسلة التنبيهات والتوبيخات بينما كانت أفكار كارمودي تدفعه إلى الوراء. انهار المخطَّط وتناثرت البيانات بينما اندفع الأفاتار إلى الوراء في غيمة من البيانات المتناثرة.

وصل المجال البصري لكارمودي إلى درجة من الحِمل الزائد. تشوَّه أحد الأركان بفعل دوران الرسوم البيانية والتقييمات المستقبلية بعضها حول بعض، بحيث اتخذت شكل إعصار حلزوني، مثل الماء القذر الذي يدور حول فتحة تصريف، جاذبة معها عمل أسبوع بأكمله - وصورة زوجته المحتجة بالمثل - نحو نقطة تفرد معلوماتية.

صاح كارمودي: «إلغاء! استعادة النسخة الاحتياطية التي مرّت عليها خمس دقائق!».

واصل إصدار الأوامر المحمومة لكن دون جدوى. وفي خضم محاولاته السعي وراء هذا الإعصار ارتكب خطأً ما، تسبَّب في رد فعل إلكتروني عنيف! بدا وكأن صواعق قاسية من البرق تمرق من بين عينيه.

صرخ كارمودي من الألم وانتزع عن وجهه نظارة الانغماس في الواقع الافتراضي وأمسكها بكلتا يديه. ثم أراح وجهه على السطح البارد للمكتب وهو يكتم نحيبه.

كنت أظن أنني بارع للغاية في التعامل مع هذه النظارات الحديثة. لكن في أيامنا هذه يستعيض الأطفال عن هذه النظارات بعدسات لاصقة بل وبعمليات زراعة لمقلة العين تمكنهم من التعامل مع قدر أكبر بكثير من المدخلات.

هل عفا عليَّ الزمن حقًّا؟

- «بوب؟» سمع صوتًا حقيقيًّا يتردد داخل أذنه الحقيقية. «بوب!».

كان هذا صوت كيفن، الذي كان واقفًا إلى جوار المكتب. لم يتحرك كارمودي.

- «هل أنت بخير يا بوب؟ هل من مشكلة يا رجل؟».

رفع كارمودي عينيه الغائمتين ناظرًا إليه ثم هز رأسه نافيًا.

- «فقط أرتاح قليلًا». ثم استجمع رباطة جأشه إذ كان يدرك في داخله أنه حريٌّ به ألا يظهر أي علامة ضعف أمام مساعده الشاب الوقح، الذي يطمح دون شك في نيل وظيفته.

قال الشاب: «حسنًا، أنا سعيد لهذا». لكن تعبير الزهو بالنفس الذي ارتسم على وجهه أخبر كارمودي بكل شيء. انهيار المجال البصري وفقدان كل ذلك العمل ... كان يعلم يقينًا أن هذا من صنع يد كيفن! لقد نفذ حيلة ما، بحيث تسلل إلى عمل كارمودي وأفسده بطريقة من المستحيل إثباتها.

هل عليه أن يتفاخر بنفسه بمثل هذا الوضوح؟

- «رأيت أنه يجدر بك أن تعرف أن السيد باتل في طريقه إلى هنا، وهو يريد الاجتماع بك وبي». كانت نظرة الترقب المرتسمة على وجه كِيفن واضحة

تمام الوضوح، واضطر كارمودي إلى كبح رغبة بدائية طاغية في أن يمحو هذه النظرة بلكمة من قبضته. ربما كان من الممكن أن يتعلَّم كيفن التصرف بقدر من الكياسة لو كان قد ارتاد الجامعة أو عمل في وظيفة عادية. لكن أبناء جيله يمتصون المهارات التكنولوجية مباشرة، وكأنهم يمتصونها من ...

لم يجد التشبيه المنشود. والعجيب في الأمر أن هذه كانت القشة التي قسمت ظهر البعير.

لقد طفح الكيل.

أضاف الشاب: «تبدو في حالة رثة يا سيدي، ربما من الأفضل أن تذهب إلى الحمَّام وتغسل وجهك قبل أن ... إلى أين أنت ذاهب؟ إن السيد باتل يريد ...».

وضع كارمودي إحدى يديه على زجاج النافذة والآخر على إطارها، ثم حدَّق من الفتحة إلى الأسفل عبر المسافة البالغة ثلاثة وعشرين طابقًا، ثم أخذ شهيقًا وهو يشعر بالتصميم يتعاظم داخله ويتغلب على شعور الذعر، بحيث صار يغطي شعور الذعر ويضخِّمه إلى شعور أكثر رجولة.

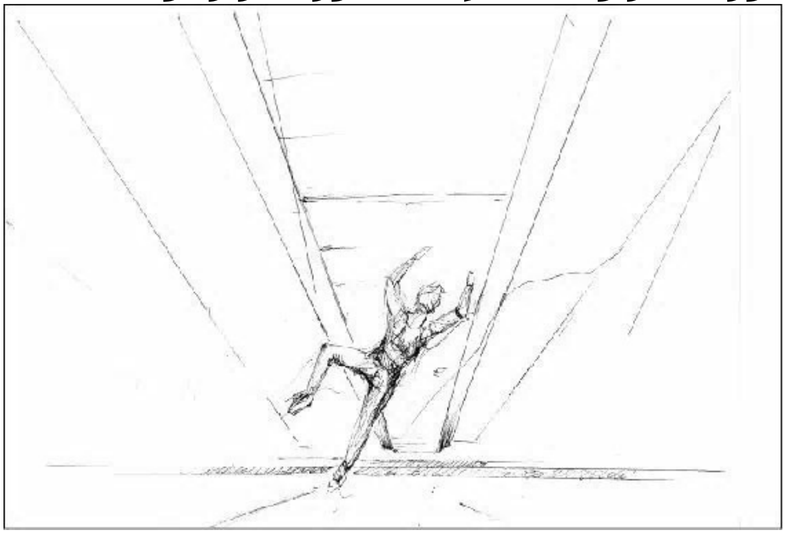

© Haylee Bolinger / ASU ,2013

العزم.

حان وقت إنهاء كل هذا.

شعر كارمودي بالأعين تتجه نحوه، محدقة في النافذة التي انفتحت. وضع قدمه اليسرى على عتبة النافذة، وضغط عليها إلى أن وقف، يتأرجح أمام

الخواء.

- «بوب، ما الذي تفعله؟».

ابتسم كارمودي من فوق كتفه إلى زملائه في العمل، ولم ينهض أي منهم من مكانه كي يمنعه.

- «سأسلك طريق الهروب السهل».

ثم قفز.

شعر كارمودي بقبضة الخوف البدائي وهي تعتصر أحشاءه بينما كان يجتاز الطوابق القليلة الأولى. على الأقل لم يمر شريط حياته أمام عينيه.

كان يعلم أن عليه أن يتمالك نفسه، لكن بينما كانت الرياح ترتطم بعينيه وتجذب شعره، خيم عليه ظلٌّ من اتجاه غير متوقَّع؛ إذ كان ثمة جسد ساقط يمرق في اتجاه الأرض. كان ذلك الشخص يرتدي بذلة عمل ترفرف في الهواء بينما ضمَّ قبضتيه وفرد ذراعيه كما لو كان يسابق كارمودي في الوصول إلى الرصيف. كان هذا ديكرسون من قسم الحسابات.

هذا الأحمق اللعين، كان دائمًا قصير الفتيل.

حقًّا؟ هكذا رُد جزء أمين من نفسه، وماذا عنك أنت؟ لقد اتخذت من الهروب سبيلًا.

حاول كارمودي التركيز على ما يهم، في ظل الوقت القليل المتاح له. لكن هل هناك ما مهم من الأساس، في هذه اللحظة؟

فجأة سمع أحدهم يتحدَّث؛ إذ سمع صوتًا مرتفعًا، ولكن غير منفعل، لامرأة يشق ضوضاء الرياح.

- «إن ديكرسون أحمق! لقد كنت حاضرة في الاجتماع نفسه الذي طلب منا فيه السيد ساونج أن نقفز جميعًا. لكن هل تراني أتباهى بنفسي مثلما يفعل؟!».

نظر إلى اليسار فرأى امرأة ترتدي الزي الأنيق المميز لمحاميي الشركات. كان قد رآها من قبل. لكن بدلًا من أن تهوي المرأة بأسلوب الأبطال الخارقين

فقد فردت ذراعيها مثل كارمودي، حتى تؤجل المحتوم. وحين نظر إلى اليمين لم يرَ أثرًا لديكرسون. لم يكن ثمة أحد سواهما الآن.

أمركم بالقفز؟ يا للهول، ساونج هذا شديد القسوة، أسوأ كثيرًا من باتل. في الواقع، ربما كان يجدر بي البقاء والقتال …

كاد كارمودي يرد على المرأة بدعابة قاسية عن كيف أنه يسقط «معها» وليس يسقط «في حبها»، لكنها كانت تقطِّب في تركيز، مهيئة نفسها للشارع الآخذ في الاقتراب بسرعة.

هذا ما عليَّ فعله أنا أيضًا.

وفي تجهُّم، أعاد كارمودي ارتداء نظارته مجدَّدًا. تقلَّصت عضلات وجهه وجزَّ على أسنانه بينما أخذ يردد في عقله ترنيمة قديمة.

أنا ابن الضوء. أنا ابن الضوء. أنا ابن الضوء …

لم يحدث شيء. فتح عينيه للحظة فوجد أنه في منتصف الطريق إلى الأرض، بحيث لم يعد متاحًا له سوى أقل من نصف الوقت المتاح قبل أن … يتعثر في الحاجز الواقي الذي يحيط الآن بكل مبنى من مباني المدينة، الذي يحمي المارة والمركبات من القافزين.

أتعثَّر، أنا؟ هيا، فلتركز!

أنا ابن الضوء. أنا ابن الضوء. أنا ابن الضوء …

قبض عضلات ذراعيه وظهره وفخذيه، وشعر بالجهد الكهربائي يسري بطول عموده الفقري، أخيرًا. بدا وكأن قرقعة مكتومة، كهربائية وغامضة في الوقت عينه، تنبعث من كل مسم من مسام جسده. شعر بألم مبرح! لكنه واصل ترديد أنشودته، مقطِّبًا جبينه بشدة ودافعًا الطاقة إلى قبضتيه، وقدميه.

أنا ابن الضوء. أنا ابن الضوء. أنا ابن الضوء …

وبداية من فروة رأس كارمودي المزروعة وصولًا إلى أخمص قدميه تدفقت الطاقة، مصحوبة بألم مبرح.

أنا ابن الضوء … أستطيع الطيران!

توقف عن السقوط قبل الحاجز الواقي بطابقين، مسببًا اهتزاز نوافذ الطابق الثاني عند مروره بها.

ثم أخذ كارمودي يطير ...

... وكاد يرتطم بنحو نصف دستة من الأشخاص، من بين مجموعة البشر الذين يطيرون فوق برودواي. امتلأ مجال كارمودي البصري بصيحات التحذير والمخالفات الصغيرة التي أخذت تُسجَّل على حساب انتقالاته. بيد أنه تمكن من الحفاظ على تركيزه، بحيث طار على نحو أفقي ثم شرع في اتخاذ مسار صاعد من دون أن يصيب أي شخص.

اللعنة، لا عجب أنهم يقولون إن من الأفضل دومًا استخدام منصة إطلاق. إن القفز من ناطحات السحاب أمر لا يفعله إلا الأغبياء! أو، على الأقل، الأشخاص الذين لم يعفُ عليهم الزمن مثلك أيها الأحمق.

اتجه نحو الشارع السابع باستدارة واسعة أكسبته قدرًا من الارتفاع كذلك. شعر أن الأمر ... ممتع، لوهلة بسيطة، رغم أن هذه المناورة الحادة جعلت معدته تئن.

حسنًا، ما الذي ذكرته جايا به؟ بفرض أنه سيُفصَل ويمكث بالمنزل، ربما يكون من الأنسب أن يفي بقائمة الطلبات.

أجل، عليه أن يصطحب والده.

شغَّل كارمودي كواشف الرائحة الملحقة بنظارته وتتبع رائحة النيتروجين السائل. بعد ذلك هبط إلى حارة طيران منخفضة السرعة، وتفادى بصعوبة إحدى المركبات المنطلقة بسرعة، ثم ثنى جسده وهبط على منصة التقاط عند تقاطع الشارع السابع والشارع الثامن والخمسين.

كانت أذناه تطنان وراحتا يديه تؤلمانه، لكنه نفض الغبار عن نفسه وشعر برجفة عابرة بينما شرعت أجزاء الإصلاح المغروسة في جسده في التعامل مع الكدمات المعتادة ومع أصبعه المكسور.

«حاذر!» دوَّت هذه الصيحة من أعلى. خطا جانبًا كي يفسح المجال للشخص الطائر التالي، الساعي إلى هبوط طارئ.

غمغم كارمودي: «لا بد أن هناك طريقة أفضل. أحيانًا أتمنى لو أن مترو الأنفاق لا يزال موجودًا».

بعدها بعشر دقائق كان يوقِّع باسمه عند النضد كي يتسلَّم والده. كان العجوز موضوعًا داخل حقيبة حَمل، مربوطة إلى صدر كارمودي. كان الحِمل ثقيلًا وغير مريح، لكن كانت هناك مساحة لوضع عبوة البيض.

لو أنني ذهبت بالسيارة كان سيتعين عليَّ دفع رسوم توقف ... لكن كان أيضًا سيكون لديَّ مقعد إضافي فارغ يمكنني ربط الحقيبة إليه. أو ربما كان يمكنني وضعها في حقيبة السيارة. حسنًا، ستكون لبقائي دون وظيفة جوانب إيجابية.

استقل المصعد إلى منصة الإطلاق الموجودة في الطابق الخامس، ودفع الرسوم، ثم وقف في الطابور إلى أن يأتي دوره. شاهد بحسد مجموعة من المراهقين وهم يجتازون مسرعين المنصة المخصصة لمساعدة الناس على التحليق متجهين إلى منصة مفتوحة أخرى، حيث شرع كل واحد منهم بالجري ثم القفز نحو السماء.

حسنًا، بالطبع بمقدور أي شخص أن يفعل هذا لو أراد، فقط لو كان لديك الوقت الوفير للتدريب ... ورشاقة الشباب. منذ عشرين عامًا كان كارمودي أحد المشاهير في متنزه الألواح الطائرة المحلي. تساءل ما إذا كان أحدٌ يستخدم هذه الألواح اليوم، كم كانت أنيقة وصامتة وسلسة الحركة. كما أنها لم تكن تؤلمك حين تركبها! لم تكن تؤلم إلا حين تسقط من عليها.

«أنا ابن الضوء». هكذا غمغم وهو يهيئ عقله لدفعة الانطلاق القادمة، التي تسبب دائمًا ألمًا مبرحًا. «أنا ابن الضوء».

- «بل أنت ابني». هكذا تذمر صوت من داخل حقيبة الحَمل. «وهل أحتاج إلى أن أذكرك أن الجو مظلم ها هنا؟».

أشاح كارمودي بعينيه في ضيق.

- «اصمت يا أبي. عليَّ أن أركز».

ومع ذلك فقد فك سحَّاب الحقيبة بقدر ما، حتى يتسنى لدماغ والده المجمدة أن يرى ما بالخارج. ركز كارمودي على ترديد ترنيمته، متحكمًا في الأجهزة المساعدة المزروعة في جسده بشكل أفضل هذه المرة، بقدر أقل من

العاطفة وقدر أقل من الألم، بينما أمسك المساعد الروبوتي ذراع الإطلاق المشدود من أجله.

«أنا ابن الضوء ...».

إن منصة الإطلاق هذه بحاجة إلى ضبط. ألقاه ذراع الإطلاق بدوران شديد جعله يشعر بالغثيان. كافح كارمودي محاولًا تصحيح وضعيته، وأخذ يجز على أسنانه بقوة لدرجة أنه تساءل عما إذا كان قد تسبَّب في خلع إحداها. لكن هذه المرة تمكَّن على الأقل من الانضمام إلى حركة المرور دون تلقِّي العديد من المخالفات.

«أستطيع الطيران ... أستطيع الطيران» هكذا أقنع نفسه بينما يمرق إلى الأمام على ارتفاع مائتي متر عن الشارع، كان يشعر بالتعب لكنه كان في طريقه على المنزل.

«أستطيع ... الطيران».

واصل الأب التذمر والشكوى.

قال بلهجة آمرة بينما كانا يحلِّقان أعلى الركن الجنوبي الغربي لمتنزه سنترال بارك: «أتسمِّى هذه حركة مرور؟ حين انتقلنا إلى المدينة، خلال عصر إعادة الإعمار العظيم، كان بمقدور سيارات الأجرة والحافلات فقط الطيران! داخل حارات ضيقة فقط! على الأقل مرة واحدة كل شهر كان أحمق ما يقوم بعملية هبوط اضطراري على أرضية الشارع، مسببًا حالة ازدحام مشابهة للأزمات المرورية التي تراها في الأفلام القديمة. فقط انظر إليكم أيها المخنَّثين، تشكون وأنتم تحلقون في الهواء كالآلهة!».

رنا كارمودي ببصره ناحية المنطقة الحرة التي تعلو البحيرة، حيث لا تُفرَض أي قواعد، وحيث ينطلق الأشخاص الطائرون وهم مستمتعون بوقتهم في حرية، فيحلقون في حلقات ويدورون حول أنفسهم. ولو فكرت في الأمر لوجدت أن مسلكهم هذا يشبه بالتأكيد مسلك الآلهة. ربما كان الأب محقًّا.

لكن المعجزات لا تبدو كذلك حين تصير من الأعمال الروتينية اليومية.

«تبدو أشبه بوالدي الذي اعتاد التذمر والشكوى حول رحلات الطيران». هكذا تردد صوت الأب - نكدًا لوَّامًا - من داخل الكرة التي تحيط بدماغه. الآن وقد

تحوَّل من حالة التبريد الكامل المكلفة إلى الحالة البلاستيكية الاقتصادية فإنه لم يعد شخصًا من الناحية القانونية. كانت تلك التعليقات تصدر عن ذكاء اصطناعي داخلي كانت خوارزمياته تتحقَّق من ردود الفعل المتوقعة في مقابل مليارات الخلايا العصبية الموجودة في دماغ الأب المستقر في سائل هلامي، بحيث تكون ردود أفعاله مماثلة لما كان سيقوله بالفعل.

«كان والدي يطير من رالي إلى فينيكس في رحلة عمل ثم يعود في غضون يومين، وكان يكتفي بتناول الفول السوداني ومشاهدة الأفلام بينما يقطع القارة التي كان جده البعيد يستغرق عامًا، ويكاد يهلك، كي يقطعها على ظهر بغلته! لكن كل ما كان يتحدث عنه هو المقاعد الضيقة ورسوم الحقائب، كما كان يشكو بشدة من اضطراره خلع حذائه قبل الركوب».

أجل، هذا يبدو شبيهًا بالفعل بوالدي، وكأنه يلقي محاضرة وهو يلوح بإصبعه، لكن من دون إصبع هذه المرة. لو لم أعد أنني سأحتفظ به على الأقل لعشر سنوات لكنت قد ألقيت بجمجمته المتذمرة في تلك البحيرة.

لكن كارمودي كان يعرف أنه لن يفعل هذا. ففي غضون عقد من الزمن ستكون عمليات المحاكاة أفضل بكثير، وربما تجري محاكاة الجانب الأعمق الأفضل في هذا العجوز، بل وحكمته كذلك. وربما يومًا ما يتحقَّق الحلم البعيد المُغري المتمثل في «تحميل» شخصية المرء إلى عوالم رائعة من الواقع الافتراضي. ولو كنت أريد أن يعتني أبنائي برأسي، أعتقد أن عليَّ أن أضرب لهم مثلًا يُحتذى.

على أي حال، ألم يكن هذا مجرد مثال آخر على ما كانت جايا تشكو بشأنه؟ مزاج عكر، يأخذ كل شيء كهجوم شخصي عليه، حساسية مفرطة حيال منغصات الحياة، ميْل كفة التوازن ناحية الامتعاض المرير على حساب المرح. حسنًا، لم تكن الأمور في أحسن حالاتها الآن. لكن كان كارمودي يقر أيضًا أن ثمة ما يسوء «بداخله» أيضًا.

كان يقاوم عملية الضبط، ولم يكن ثمة أحد على وجه الأرض يمكنه أن يجبره عليها. يمكنني إصلاح كل شيء بنفسي، هكذا كان يزمجر وهو يدرك كيف كان يبدو متزمتًا وعتيق الطراز.

كانوا يصفون بعض العقاقير فيما سبق. ارتعد حين تخيل إلى أي مدى كان هذا الأمر مزلزلًا. أما الآن …

أعتقد أنني لن أشعر بألم حين أخضِع الأجهزة المساعدة المزروعة في جسدي للضبط، بحيث أستطيع رؤية صورة أوسع، وأستطيع إظهار المرح بشكل أيسر، خصوصًا لو كنت بصدد البحث عن وظيفة جديدة. ربما سأصير زوجًا وأبًا أفضل، وربما أعود إلى موسيقاي. أو على الأقل سيمكنني التركيز على نحو أفضل حين يكون عليَّ الطيران!

في حركة مفاجئة انحرف كارمودي نحو الشارع الثالث والثمانين، ومرق بين الأبراج السكنية المزود كل طابق منه بمنصة هبوط. هدأ سرعته قليلًا وهو يشعر بالقلق حيال المنطلقين غير الحريصين، إلى أن توقف تقريبًا في الهواء عند نهاية أحد المربعات السكنية، ونظر بمشقة إلى الأسفل وإلى الغرب نحو المدرسة الخاصة رقم 43، التي ترتاد آني الصغيرة الصف الثاني بها.

كان السطح الساطع لمجال القوى الواقي للمدرسة ينعكس على مياه نهر هدسون، على مسافة كيلومتر واحد إلى الغرب. كان ذلك المجال أحد الخواص التأمينية البارعة، وقد صُمم كي يمنح الآباء قدرًا من راحة البال كي يطمئنوا إلى أن أبناءهم في أمان، وفي كل مرة يرتطم جسم ما بهذه القبة الواقية، كان ينبعث منها ضوء شديد السطوع. وفي غضون الثواني القليلة التي نظر خلالها، انبعث الوميض عشرات المرات بما دفع كارمودي إلى تخفيف سطوع الضوء المار عبر مرشحات نظارته.

كم أنا ممتن لوجود هذه القبة الواقية.

دوَّى صوت ارتطام آخر، بينما اندفع أحد التلاميذ نحو السطح الداخلي للقبة، وارتد عنها وسط شلال صغير من الشرارات الكهربائية قبل أن ينطلق محلقًا من جديد، وينقض ناحية بعض التلاميذ ويتفادى البعض الآخر، كجزء من لعبة شديدة التعقيد من ألعاب الأطفال في المدارس. اندفعت خلفه فتاة تطارده، ترتدي حذاءً طويل الرقبة وزينة شديدة البهرجة على الكتفين وتعقص شعرها على هيئة ذيل حصان، وارتطمت هي الأخرى بمجال القوى بكلتا قدميها وسط وابل من الشرارات، وقد ساعدتها ساقاها المنثنيتان على الوثب بقوة مطاردةً إياه.

لم يكن كارمودي يتمتع بمثل هذه الطاقة. ركَّز عقله وعض على شفتيه، ثم تمكن من الهبوط على سطح المجمع السكني. بعد ذلك خطا نحو الحافة بينما عضلاته وأعصابه تنتفض في قوة.

يا لهؤلاء الأطفال. إن جيلهم يأخذ كل شيء كأمر مسَّلم به. إنهم هم من سيجوبون السماء بحرية حقيقية، براحة ودون ألم - جميعهم - وهم يتمتعون بقوى الأبطال الخارقين. تنهد وفكر قائلًا: «أتمنى فقط أن يقدِّر بعضهم ما لديه، من حين لآخر».

ثم نظر نحو آني ... وميزت نظارته صورتها من بين حشود التلاميذ. كان جسدها صغيرًا، ولها شعر داكن أُبقيَ على حالته الطبيعية عن قصد، تربطه شريطة صغيرة، وكانت تطير ضمن تشكيل يضم بعض صديقاتها كجزء من لعبة أكثر هدوءًا. لا ريب أن نظاره آني نبهتها إلى وجود والدها، لأنها انفصلت عن رفيقاتها ثم انزلقت في كسل نحو الجزء الأقرب من الحاجز وهي مستلقية على ظهرها وتضرب الهواء بيديها، ثم لوَّحت بيدها نحو كارمودي وابتسمت. ملأت ابتسامتها قلبه بالدفء وشعر بفرحة شديدة لدرجة أنه كاد يفقد اتزانه.

بعد ذلك دوَّى صوت جرس. لقد انتهت فترة الاستراحة. توقَّفت أجهزة الطيران المساعدة عن العمل بشكل تدريجي، وصارت تحت تحكم المعلمين، الذين أجبروا التلاميذ على الهبوط. وقف هناك، يتوقَّع مشاهدة آني وهي تعود ثانية إلى داخل المدرسة ... لكن في هذه اللحظة دق جرس هاتفه. وفي الركن الأيسر من مجاله البصري شاهد طلب استدعاء مقتضبًا مكتوبًا بلهجة عملية.

إنه رئيسي في العمل. اللعنة. تمامًا في اللحظة التي شعرت فيها بالحياة تبتسم لي. حسنًا، لننتهِ من هذا الأمر. لقد كنت النجم الأول في الشركة العام الماضي، لذا ينبغي أن تكون مكافأة نهاية الخدمة طيبة.

لم تظهر صورة الأفاتار الذكي للسيد باتل وإنما صورته الفعلية، وكان يبتسم وهو جالس إلى مكتبه. تجهَّم وجه كارمودي، وكان يدرك أن تعبير وجهه العابس سيُنقَل إلى مديره. أما وقد استقال بالفعل، فقد وجد في نفسه العزم والتصميم على مواجهة العواقب بكل كرامة.

اسمعني، أعرف أن اليوم كان صعبًا ... هكذا كان يريد أن يبدأ حديثه، لكن باتل تحدث أولًا.

«بوب، أتمنى لو أنك انتظرت، لكنني أتفهم أسبابك. انظر، أعرف أن الأمور سارت على غير ما يرام أخيرًا... ولم أكن منتبهًا بما يكفي للعلاقات بين العاملين، وفكرت أنك ربما تبالغ في مخاوفك بشأن كيفن. لكن حيلته التي نفذها اليوم تثبت أنك لم تكن تبالغ، بل على العكس ...».

قاطعه كارمودي قائلًا: - «إذن أنت تعلم أن هذا كان من صنعه ...؟».

هز باتل كتفيه وقال: «بالطبع. لقد استخدم خدعة حديثة شائعة اليوم. وكأنه يظن أنها ستفلح! ألا يعلم أن لنا أعينًا في كل مكان تنقل لنا كل ما هو جديد؟! أحمق متعجرف، إن خطيئته الكبرى هو أنه استهان بمهاراتنا!».

- «ماذا ... إذن عملي ...».

- «لديَّ التقرير، وهو بحاجة لبعض التنقيحات قبل أن نعرضه على الإدارة العليا، لكن أعتقد أن تحليلات اتجاهات السوق الخاصة بك سليمة. ربما تكون قد بخست مقاومة السوق قدرها لا أكثر. التقرير فقط بحاجة إلى مُعامِل مرحلي مقداره أسبوعين على الأقل كي يضع في الاعتبار مقدار تمسك الجميع بانحيازاتهم وافتراضاتهم. لكن بمقدورنا انتهاز فرصة النمو في حركة النقل في غضون عشرة أيام. لقد أحسنت العمل! سأوافيك بملحوظاتي حين تصل إلى المنزل».

راجع كارمودي افتراضاته من جديد. وبدلًا من أن يسأل عن مكافأة نهاية الخدمة، قرر أن يسلك طريقًا مختلفًا.

- «ليس الليلة. لقد مررت بأسبوع شاق وأريد إزاحة الضغوط عن كاهلي. سأصطحب أسرتي إلى نزهة خلوية ونحلِّق معًا. سأتولى الأمر غدًا».

- «لا بأس، موعدنا غدًا إذن. لكن حلِّق بحذر، هلَّا فعلت؟ لقد أعدت للتو مشاهدة قفزتك اليوم ... كلنا فعلنا ذلك. إنهم يسمونك «قافز الحواجز»!».

لم يستطِع كارمودي أن يمنع نفسه من رسم ابتسامة ساخرة على وجهه. هذا النوع من الألقاب قد يفيد المرء في عمله هذا.

قال قبل أن يغلق قناة الاتصال: «موعدنا غدًا إذن».

ثم نظر ثانية نحو المدرسة، التي صارت هادئة الآن تحت القبة الواقية غير المرئية تقريبًا. كان أمامه ساعة ونصف الساعة قبل انتهاء الدراسة، وكانت آني ستستقل سيارة أحد أولياء الأمور الآخرين على أي حال، لذا لم يكن مضطرًّا للانتظار. ربما يستطيع الذهاب إلى المنزل مبكرًا ومفاجأة جايا. هذا لو كان لشيء أن يفاجئ زوجته.

نظر كارمودي إلى أسطح المباني وأخذ يفكر. كانت منصة الانطلاق التالية على بعد مربع سكني ... وكان السيد قافز الحواجز يشعر بالرغبة في المغامرة.

- «ولدي، هل أنت متأكِّد من أنك تريد ...» هكذا تساءل دماغ والده المحفوظ في السائل الهلامي. ثم صمت تاركًا كارمودي يركز بينما كان يقطع السطح نحو الحافة البعيدة.

سنحظى بانتقامنا، هكذا فكر بينما كانت ساقاه تطآن الأرض بقوة وسرعته تزداد. أفضل صور الانتقام، حين نشاهد أبناءنا وهم يتفوَّقون علينا بكل سبيل ممكنة، ثم نشاهد أبناءهم وهم يتفوقون عليهم بالمثل!

اللعنة، أراهن أن ابن آني أو ابنتها سيكونان مزوَّدين بأجهزة دافعة تطير بسرعة الضوء!

ومع ذلك سيشكون ويتذمرون منها، فهذا هو دَيْدَن الحياة.

وهنا شعر ابن الضوء بدفعة عنيفة من الحماس، والألم، والإثارة وألقى بنفسه من فوق حاجز السطح، نحو شمس المغيب البرتقالية العظيمة.

ثم أضاف قائلًا لنفسه: أجل، البيض.

عليه ألا ينسى إحضار البيض.

يوم انتهى كل شيء

تشارلي جين آندرز

أوقف بروس جرينورد سيارته بشكل مائل في موضعه المعتاد ثم هرع إلى داخل المقر الرئيسي لمؤسسة ديزي كورب. لم يذهب بروس لتفقد فريقه، بل لم يتوقَّف لمشاهدة الشباب الصغار حسني المظهر الذين تعمل الروبوتات على طقطقة أصابع أقدامهم بينما يحتسون مخفوق توت الغوجي المطيل للعمر ويفكرون في سبل يجعلون بها الجيل القادم من الأدوات المساعِدة ذات

مظهر أفضل ونفع أقل. بدلًا من هذا هرع بروس نحو الجناح التنفيذي، واندفع صاعدًا السلم، قاطعًا درجتين أو ثلاث درجات في القفزة الواحدة، إلى أن صار يلهث بشدة لدرجة أنه خشي أن يصاب بأزمة قلبية قبل أن ينتهي من تدمير مستقبله المهني.

كان مؤسس ديزي، جيثرو جروبر - الذي حصل على جائزة بارون لأفضل شاب ذي رؤية مستقبلية للعام الخامس على التوالي - قد وضع مكتبه أعلى البرج المركزي الذي يحوي مكاتب مؤسَّسة ديزي، داخل برج دائري صغير. كان هذا البرج الصغير يطل على حانة الأكسجين التي يقصدها الموظفون وعلى كافيتريات الطعام التي يقدَّر عددها بالعشرات. إذا لم تمتلك مفتاح المصعد الخاص، فإن الطريق الوحيد أمامك هو السلم الحلزوني، الذي يمر بنحو عشرة من ساحات اللعب المخصَّصة للتنفيذيين، وباستطاعة أي من هؤلاء الأشخاص منعك من المرور قبل أن تصل إلى غرفة جيثرو. ومع ذلك بدا أن أحدًا لم يلحظ بروس وهو يندفع صاعدًا السلم، وقد تجهَّم بغضبٍ، حتى حين أخطأ وضع قدمه بين درجتين وكاد يسقط داخل مقهى التوابل المغربية.

أراد بروس أن يقتحم مكتب جيثرو وأن يصرخ معلنًا استقالته في مواجهة نظارة جيثرو الأنيقة الشبيهة بنظارات مدراء المدارس. كان يرغب في دخول الغرفة وهو يلعن الغباء والفساد الذي يتسم به كل شيء، لكن حين وصل إلى نهاية السلم كان يتنفَّس في صعوبة وقد شعر بالألم يعتصر أحشاءه. كان قد دخل مكتب جيثرو مرة واحدة من قبل، ذلك المكتب الأنيق الذي لا يحوي سوى مكتب وحيد يتغيَّر شكله باستمرار (بفضل القطع القابلة للتعديل التي كانت تخرج من الأرضية)، وبضعة مقاعد، وبساط بني صغير في منتصفه. وقف بروس واضعًا يده على بطنه المتألِّم بينما يستوعب ذلك المشهد البسيط الآسر.

وهكذا تحدَّث جيثرو أولًا، بصوته الخفيض اللزج الذي كان بروس يعرفه من ملايين الفيديوهات الخاصة بالشركة. «مرحبًا بروس، لقد تأخرت».

- «لقد ... ماذا؟».

قال جيثرو: «لقد تأخَّرت. كان من المفترض أن تمر بأزمة الضمير هذه منذ ثلاثة أشهر». ثم أخرج مفكِّرته الإلكترونية وعرض تقويمًا شخصيًّا تضمن عبارة واحدة: «يمر بروس بأزمة ضمير». وكان التاريخ يشير إلى بضعة أشهر خلت. «ما الذي أخَّرك هكذا يا رجل؟».

بدأ الأمر كله حين سلك بروس منعطفًا بطريق الخطأ وهو في طريقه إلى العمل. في الواقع كان يقود سيارته إلى المكتب الخطأ، وكأنها زلة لسان فرويدية ولكن بالسيارة.

كان يقود على الطريق السريع بين الولايات في السابعة والنصف صباحًا، بينما يستمع إلى عزف منفرد على طبول البانجو التي لم يتعلَّم بعد كيفية العزف عليها. من النافذة اليمنى كانت كل باحة من باحات منازل الضواحي مزوَّدة ببرج ثَندر نِت الخاص بها، والذي يشبه التمثال الفضي الموجود في الطريق الذي يوجد فيه منزل بروس، بخطوطه الملساء المقعَّرة وقاعدته الانسيابية التي تشبه التصميمات الفضائية الخيالية التي شاعت في خمسينيات القرن العشرين. وإلى اليسار كانت جميع السيارات المارة تقريبًا مزودة بجهاز «كار دينجو» مثبَّت إلى غطاء المحرك، بجنيحاته المائلة وأضوائه الدوارة المعهودة. كان نصف السائقين يستمعون إلى الموسيقى أو يدلون باعترافات شخصية إلى مفكراتهم الإلكترونية. وبمجرَّد أن صار بروس على الطريق الحر كان بمقدوره أن يرى نسخًا أكبر حجمًا من برج ثندر نت ترصِّع المشهد أمامه، من أسطح المجمَّعات التجارية إلى الحقول الخالية. علاوة على ذلك ففي كل مكان كان يشاهد لافتات إعلانية عملاقة تعلن عن منتج شركة ديزي الجديد: المهد الذكي المعروف باسم «كرادو»؛ إذ أظهرت الإعلانات صور أطفال من أعراق مختلفة مستلقين في مقاعد بيضاء اللون بيضاوية الشكل تراقب تنفُّسهم ودرجة حرارتهم بطريقة لا يستطيع بروس تفسيرها.

كان بروس يشغل منصب نائب رئيس الشركة المسؤول عن التسويق، ألا ينبغي إذن أن يجد شيئًا طيبًا يمكن قوله عن أحد منتجات الشركة على الأقل؟

وهكذا في هذا الصباح ترك بروس الطريق السريع قبل المخرج المعتاد، وبدلًا من أن يقود سيارته نحو مقر شركة ديزي فقد سلك طريقًا فرعيًّا متجهًا إلى مجمع رث كان يضم مكاتب عمل بدلًا من محال التنظيف الجاف. كان هذا هو الطريق الذي سلكه بروس لأعوام قبل أن ينضم لشركة ديزي، وقد شعر وكأنه سلك هذا الطريق بالخطأ.

كان مكان الانتظار الخاص ببروس خاليًا، وكان بإمكانه أن يتخيَّل أن الزمن قد عاد به إلى الوراء، باستثناء أنه فقد بعض الشعر واكتسب بعض الوزن. وجد نفسه يجتاز الباب المصنوع من الخشب القوي والمعدن ويحمل لافتة رخيصة مكتوبًا عليها «إيكو نوميك»، ECO GNOMIC، إلى داخل مقر الشركة ثم توقَّف، إذ فوجئ بغرفة مليئة بأشخاص غرباء جالسين على مقاعد وعلى أكياس محشوة

(بين باج) يستديرون نحوه ويحملقون فيه، ولم يكن لدى بروس أي تفسير لسبب مجيئه إلى هناك. قال بروس: «آه».

كانت مكاتب إيكو نوميك تبدو رثة الحال مقارنة بمكاتب ديزي الفخمة، وكذلك مقارنة بآخر مرة رآها فيها. خذ على سبيل المثال اللوحة الإلكترونية العملاقة التي تغطي الجدار الرئيسي: وقت أن كان بروس يعمل هنا كانت هذه اللوحة مغطَّاة بملايين المسارات متعدِّدة الألوان، والمرتبطة بأحداث متنوعة. فإذا كانت شركة ما تخطِّط لمشروع من شأنه أن يتسبَّب في تلويث البيئة كنا نحشد المحتجين في هذا الموضع، وننظِّم مسيرة احتجاجية عند جلسة استماع علنية في موضع آخر، وهكذا. كانت أشبه بلعبة شطرنج ضخمة متعدِّدة الأبعاد تغطِّي جدارًا بأكمله، نستعين فيها بالصبر وسعة الحيلة في مواجهة الشركات الكبرى. أما الآن فلا تحتوي اللوحة الإلكترونية إلا على أخبار سيئة، ولا ذكر فيها لأية إستراتيجيات. ذوبان الرفوف الجليدية، الفيضانات، العواصف العنيفة، الجفاف، انقطاع تيار الخليج، حوادث انقراض متتابعة كقطع الدومينو. كانت قطع الأثاث المكتبي تتأرجح على أرجل مكسورة، وكانت أجهزة الكمبيوتر العتيقة هي ذاتها المستخدمة منذ خمس سنوات. لم تكن الشابة الجالسة قرب بروس تستطيع تحمُّل تكلفة قصة شعر موهوك لائقة، إذ عاود الشعر النمو في رقع متفرِّقة على جانبي رأسها، وكان شريط الشعر بالأعلى ذابلًا. لم يكن أي من هؤلاء الأشخاص يبدو متحمِّسًا لإنقاذ الكوكب.

كان بروس على وشك الخروج من المكان، لكن مديره القديم جيري دونكينز ظهر وقال: «بروس! مرحبًا بك مجدَّدًا في قطاعنا غير الربحي يا رجل». ثم انتهى المطاف بجيري وبروس وقد قضيا الساعة التالية وهما جالسين على قفصين من أقفاص الشحن ويحتسيان مشروب شيكولاته غير طازج. قال جيري وهو يبرم شاربه الضخم: «أجل، إن إيكو نوميك تُحتضر، وكذلك كوكبنا».

قال بروس: «أشعر أنني ارتكبت خطأً فظيعًا». ثم نظر إلى اللوحة لكنه لم يرَ أي نمط يخص ترتيب الأحداث المشؤومة المعروضة عليها.

رد جيري: «هذا صحيح. لكن لا يهم هذا، فقد كنتَ سعيدًا. لقد كنتَ سعيدًا، أليس كذلك؟ كلنا ظننا أنك سعيد. كيف حال ماري بالمناسبة؟».

قال بروس: «لقد تركتني منذ عامين».

قال جيري: «آه».

- «لكن ثمة جانبًا مشرق في حياتي، إذ بدأت أتدرَّب على عزف طبول البانجو».

- «دون إساءة، لم تكن لتحدث أي فارق على أي حال لو أنك بقيت معنا. لقد اجتزنا على الأرجح نقطة اللاعودة منذ فترة».

نقطة اللاعودة. بدا التعبير يحمل إيحاءً جنسيًّا، أو أشبه بالتخلي عن الأرجوحة وهي في قمة تأرجحها.

قال جيري: «لقد تصرفت بذكاء حين ذهبت للعمل لدى أكثر شركات المنتجات الاستهلاكية جذبًا للأنظار بعد أن استمتعت بجزء طيب من رحلة العمل معنا».

ركب بروس سيارته البيريوس وذهب إلى العمل، مارًّا بأبراج ثندر نت والدخان المنبعث من حرائق الغابات البعيدة. كان يشعر أن هذا آخر أيام الجنس البشري، رغم أنه لم يكن مختلفًا عن أي يوم آخر معتاد من أيام الانهيار. وحين وصل بروس إلى مبنى شركة ديزي ذي اللون الأرجواني شعر بالخدر في داخله، كما كان يشعر على الدوام. لكن هذه المرة سيطر عليه غضب عارم، وحينها اندفع صاعدًا درجات السلم إلى مكتب جيثرو، متأهبًا لإلقاء استقالته في وجه.

- «ماذا تعني؟» هكذا قال بروس لجيثرو حين استعاد أنفاسه. «هل كنت تتوقَّع مني أن آتي إلى هنا وأستقيل؟».

- «شيء كهذا». ثم أشار جيثرو إلى بروس كي يجلس على أحد المقاعد البيضاء شديدة الراحة التي تتخذ شكل قدح الشاي. جلس جيثرو متربِّعًا على المقعد الآخر وقد بدا في قميصه الكتَّاني واسع الأكمام وسروال التخييم أشبه بمعلم يوجا. كان يبدو في الواقع أشد بدانة وأقل وسامة مما يظهر في صوره الترويجية، ومع ذلك كانت هناك أمور مميزة في مظهره مثل الشعر المنسدل على عينيه والسالفين الطويلين والنظارة الشهيرة. أضاف جيثرو قائلًا: «لكن كما قلت: لقد تأخرت. لكن ما يهم في الأمر أنك جئت إلى هنا في النهاية».

- «أنت لم تصمِّم هذا. أنا لست إحدى أدواتك. هذا أمر جدي، فلقد سئمت صنع اللُّعَب عديمة الجدوى بينما العالم يشارف على الاختناق في دنسنا. لقد طفح الكيل».

- «ما كان الأمر ليستحق لو لم يكن جديًّا يا شقيقي». قالها جيثرو وهو يرمق بروس بواحدة من ابتساماته التآمرية/العابثة التي دائمًا ما كانت تجعل بروس يرد بابتسامة رغم غضبه العارم. «لهذا السبب اخترناك للعمل معنا في المقام الأول. أنت عصفور الكناري داخل المنجم [(32)]. انظر إلى هذا المخطَّط التنظيمي للمؤسسة».

ثم لوَّح جيثرو بيده، فتحوَّل أحد الأسطح الزجاجية إلى شاشة ظهر عليها المخطَّط التنظيمي للمؤسسة وعليه آلاف الأسماء وتوصيفات الوظائف. وهناك، في المنتصف إلى جهة اليسار، كان يوجد اسم بروس وفوقه عبارة «عصفور الكناري في منجم الفحم» وصورة لرأس بروس موضوعة على رسمة كارتونية لطائر.

- «كنت أظن أن وظيفتي هي نائب الرئيس التنفيذي لإدارة المنتجات». هكذا قال بروس وهو يحدِّق في وجهه الفاغر فاهه وجناحيه المبسوطين.

هز جيثرو كتفيه وقال: «حسنًا، لقد استقلت للتو، أليس كذلك؟ إذن لم يعد لك مُسَمًّى رسميًّا». ثم أشار ثانية بيده فخرجت من المصعد فتاة رشيقة تدفع أمامها عربة مشروبات صغيرة وعرضت على بروس مشروبات مختلفة من الجعة والويسكي والساكي والقهوة والكولا المكسيكية. شعر بروس برغبة في التمرد، فاختار الويسكي المُقطَّر تقطيرًا واحدًا، لكنه أدرك أنه كان يفعل بالضبط ما كان جيثرو يريده. احتسى الويسكي على دفعة واحدة وشعر بحرقة في حلقه وعينيه.

قال جيثرو: «إذن أنت تستقيل، عليك أن تخبرني برأيك في الشركة». وبسط يديه وابتسم.

احتسى بروس مزيدًا من الويسكي وقال: «حسنًا، لو أنك تريد حقًّا أن تعرف ... إن منتجاتك شرٌّ خالص؛ فأنت تبني هذه الأدوات عديمة القيمة المزودة بهذه القدرات الفائقة والأنظمة التي لا لزوم لها. هل سبق أن نظرت إلى مخطَّطات أبراج ثندر نت؟ الأمر يبدو وكأنك تحاول أن تبني شيئًا بالغ التعقيد. يوجد تشديد عظيم على الشكل في مقابل الوظيفة، ولقد تمكنت من إقناع كل شخص يملك بعض المال بشراء ذلك الهراء، لأن الناس يحبون أي شيء يدعو للتفاخر حتى لو كان عديم النفع. أمتلك مفكرة إلكترونية منذ أعوام، وما زلت لا أفهم الغاية من وراء نصف الأدوات الذكية وخيارات القوائم، ولا أظن أحدًا غيري يفهمها أيضًا. أنت تستخدم المظهر الساحر والتسويق من أجل إقناع الناس بأنهم يحتاجون إلى ملء حياتهم بهذا الهراء بدلًا من الانتباه إلى

العالم وإدراك مدة الهشاشة والجمال اللتين تتسم بهما الحياة في الواقع. ما أنت إلا شيطان».

كانت الفتاة المسؤولة عن تقديم المشروبات تقف محدقةً وهي تسمع حديثه هذا، ثم قرَّرت أنه ليس في مصلحتها أن تسمع هذا الحديث، فتراجعت إلى المصعد واختفت بينما كان بروس يعبر عن عدم فهمه لنصف ما تقوم به المفكرة الإلكترونية.

كان بروس يحلم بلحظة المصارحة هذه منذ سنوات، وكان يستمتع بها بشدة لدرجة أن الدموع اندفعت من عينيه في النهاية. معرفته بأن جيثرو قد سجل هذه اللحظة على مفكرته الإلكترونية لم تفسد هذا الاستمتاع.

كان جيثرو يومئ، كما لو كان بروس قد غطى كل النقاط المهمة في حديثه. بعد ذلك أشار بيده ثانية، وتحول الجدار الزجاجي إلى شاشة مجددًا، وعلى هذه الشاشة ظهرت شريحة باور بوينت مكتوب عليها: ● إستراتيجية منتجات ديزي كورب

● منتجات جميلة ليس لها وظيفة نافعة

● قدرة فائضة

● أنظمة زائدة على الحاجة

● الإفراط في إنتاج أنظمة متماثلة لكنها تبدو مختلفة من الظاهر وحسب

● الاعتناء بالشكل وليس الوظيفة

● إضفاء الغموض على الخيارات وتصميم واجهات مستخدم مربكة

قال جيثرو: «أعتقد أنك أغفلت إحدى النقاط، تلك المعنية بالإفراط في الإنتاج. في هذه المرحلة نقنع الناس بشراء ثلاثة منتجات مختلفة هي في حقيقتها متطابقة، لكن ليس بشكل تام».

نظر بروس إلى الشريحة المزينة بنجوم ذهبية وقال: «يا إلهي! أنت شرير بحق».

- «هذا ما يبدو عليه الأمر، أليس كذلك؟» قالها جيثرو وهو يضحك بينما كان ينقر على مفكرته الإلكترونية وأضاف: «اسمعني، لدينا اجتماع خاص بوضع

الاستراتيجية في الثالثة، ونحتاج عصفور الكناري هناك. فلتحضر الاجتماع وتخبر الجميع بما أخبرتني به الآن».

- «ما الجدوى؟» خامر بروس شعور بالقنوط لم يمر به من قبل قط. كل شيء كان مزحة، وقد جُرِّد من متعة أن يكون هو من كشف النقاب عن الحقيقة.

- «فقط احضر يا رجل، أعدك أن يكون الأمر مسليًا. ما الذي ستفعله خلاف ذلك في بقية اليوم، عدا القيادة نحو الشاطئ ومشاهدة النوارس وهي تموت؟».

كان هذا ما يخطط بروس لعمله بالضبط بعد ترك ديزي. هز كتفيه وقال: «بالتأكيد، سأذهب لطقطقة أصابع قدمي لبعض الوقت».

- «فلتفعل هذا يا بروس، أراك في الثالثة».

من المؤكَّد أن فتاة المشروبات تحدَّثت عمَّا فعله بروس، لأن الموظفين كانوا ينظرون إليه وهو يسير نحو المتنزه الرئيسي. لو كان فيلم «2001: أوديسة الفضاء» يضم قاعة طعام لكانت ستبدو مثل متنزه الموظفين بمؤسسة ديزي. لم يجلس بروس لطقطقة أصابع قدميه وإنما تناول قطعتي كالزون كي يهدئ معدته بعد ما احتساه من ويسكي في الصباح، لكن تسبَّب الكالزون في إصابة بروس بمزيد من الغثيان. لوَّح زملاء بروس في فريق التسويق له في الكافيتريا لكن لم يقترب أيهم منه.

ذهب بروس إلى اجتماع وضع الاستراتيجية قبل موعده بخمس دقائق، ومع ذلك فقد كان آخر الحاضرين، وأخذ الجميع يحدِّقون به. لم يسبق لبروس أن زار من قبل «بقعة تأمُّل المدراء التنفيذيين»، التي كانت أيضًا بمنزلة دار العرض السينمائي الخاصة بجيثرو. كانت عبارة عن غرفة كبيرة تقع أسفل المبنى الرئيسي لمؤسسة ديزي ذات جدران مبطَّنة تخرج منها فوهات تبث روائح عطرية.

- «مرحبًا بروس». كان هذا جيثرو، الواقف في الجزء الأمامي من الغرفة، في الموضع الذي ستكون به شاشة العرض. «أيها الحاضرون، لقد مر بروس بأزمة ضمير اليوم. فلنصفِّق جميعًا لبروس».

صفَّق الجميع، وبدأت معدة بروس تتقلَّص ثانية، لذا وضع وجهه قبالة إحدى الفوهات العطرية وتنشق الروائح المهدئة. «وهكذا أقنعني بروس أن الوقت

قد حان كي نغير استراتيجية المنتجات الخاصة بنا وأن نركز على إنقاذ الكوكب».

أبعد بروس وجهه عن رائحة الياسمين المهدئة وقال: «ماذا؟ أأنت مخبول أم ماذا؟ هل أحطت نفسك بهؤلاء الإمَّعات ورجال الإعلام المتملِّقين لوقت طويل لدرجة أنك فقدت كل إحساس بالواقع؟ لقد فات الأوان على إنقاذ الكوكب يا رجل». حدق الجميع في بروس، إلى أن بدأ جيثرو التصفيق مجدَّدًا. بعد ذلك عاود الجميع التصفيق ثانية.

قال جيثرو: «لقد أثار بروس نقطة وجيهة، فالإطار الزمني ضيِّق، ونحن متأخِّرون بالفعل، وجزء من هذا يرجع إلى أن أزمة الضمير الخاصة بك تأخَّرت أشهر عن موعدها المتوقَّع. لكن على أي حال، كيف لنا أن نحقِّق هذا الهدف الطَّموح؟ إن «الجرأة والمغامرة» من سمات مؤسستنا الجوهرية. ولمناقشة هذه النقطة سأتحول إلى زوي. زوي؟».

جلس جيثرو في الصف الأمامي، وظهرت شاشة كبيرة في الأمام. نهضت امرأة ترتدي سترة رمادية داكنة واستخدمت مفكرتها الإلكترونية كي تتحكَّم في العرض.

قالت المرأة شديدة النحول، التي كان شعرها يشبه شعر الممثلة أماندا سيفريد بشكل مثالي: «شكرًا يا جيثرو. الأمر يتعلَّق في جوهره بما نسمِّيه تعدُّدية جوانب المنتجات». ثم ضغطت على صورة لسيارة متوسِّطة الثمن مثبَّت إلى سقفها جهاز انسيابي الشكل. «لنأخذ كار دينجو كمثال، ما الذي يفعله؟».

رفع عدد من الحاضرين أيديهم وتحدَّثوا بعبارات دعائية محفوظة على غرار «يجعل السيارة البيريوس تبدو أشبه بسيارة رياضية». أو «إنه يجعل قيادة السيارة تجربة مبهرة».

ابتسمت زوي وقالت: «بالضبط!» وبضغطة أخرى استدعت الشريحة التالية، فظهرت المواصفات الكاملة المحمية ببراءة الاختراع لجهاز كار دينجو. لم يسبق لبروس أن رأى هذه المواصفات، وبذل جهدًا في محاولة فهم كل تلك الروابط والدوائر الكهربائية الإضافية التي تتصل مباشرة بالمحرك. أظهرت زوي شريحة مواصفات مشابهة تخص أبراج ثندر نت، كلها مليئة بالتفاصيل السرية، ثم أظهرت شريحة أخرى التفاصيل الخاصة بقوائم المفكرة الإلكترونية، وفجأة صار لكل شيء معنى.

كان بروس الشخص الوحيد الواقف بخلاف وزي. قال: «مهلًا لحظة، إذن أنتِ تقولين إن كل تلك الأجهزة كانت لها وظيفة ثنائية طوال الوقت؟ وأنكم خلال مئات الاجتماعات الخاصة بهذه المنتجات لم تذكروا هذه الحقيقة ولا مرة واحدة؟».

قال بروس من الصف الأمامي: «بروس، لدينا شيء مهم في مؤسَّسة ديزي يدعى «ثقافة الاستماع». هذا يعني عدم مقاطعة العرض التقديمي حتى ينتهي، التزم بهذا وإلا ستُحرَم من تناول الكعك».

تنهَّد بروس ثم تجاوز أحد الأشخاص كي يجد مقعدًا، وجلس يستمع لمدة ساعة أخرى إلى التفاصيل المتعلِّقة بمنتجات الشركة. في نقطة ما كاد بروس يقسم أن وزي قالت شيئًا عن «تعمية المستخدم النهائي». ومن الأمور التي استطاع بروس فهمها وسط كل هذا الغموض أنه على الرغم من أن شركة ديزي كانت تشجب رسميًّا استخدام نسخ منتجاتها المقلَّدة التي تغرق أسواق العالم الثالث، فقد كانت تحرص أشد الحرص على أن تجعل هذه النسخ غير الشرعية تستخدم المواصفات نفسها المطابقة للمنتجات الأصلية.

وبينما كان بروس على وشك النوم من فرط الملل، شكر جيثرو زوي وقال: «الآن لنمنح الكلمة لبروس. بروس، تقدَّم للحديث». تعيَّن على بروس أن يلكز ساقيه كي ينشطهما، وحين وصل إلى المقدمة كان قد نسي كل الأشياء التي كان يتحرق شوقًا لقولها منذ ساعة مضت. حدَّق المسؤولون رفيعو الشأن في ديزي فيه، منتظرين منه أن يقول شيئًا.

شعر بروس بألم في رأسه، وقال: «آه، ما الذي تريد مني أن أقوله؟».

وقف جيثرو إلى جوار بروس ووضع يده على كتفه وقال: «من هنا تأتي أزمة الضمير يا صديقي بروس. لنقل فقط، كوسيلة لتنقيح التفكير، إن بمقدورنا إصلاح الأمر». («تنقيح التفكير»، كان هذا أحد شعارات جيثرو.) «إصلاحه؟».

ناول جيثرو بروس مفكرة إلكترونية تظهر على شاشتها الكلمتان نعم ولا. «الأمر كله في يدك يا صديقي. إذا ضغطت على كلمة «نعم»، يمكنك إحداث الفارق. ستكون هناك بعض الصعوبات، وقد يتضايق الناس قليلًا، لكن سيكون بوسعنا التخفيف من وطأة المشكلات. أما إذا ضغطت على كلمة «لا»، ستظل الأمور على ما هي عليه. لكن ضع في اعتبارك أنك إذا ضغطت على كلمة «نعم»، ستكون أنت المسؤول عن شرح الأمر كله للناس».

كان بروس لا يزال غير مدرك ما كان سيوافق عليه، لكنه لم يكن يهتم البتة، وضغط على كلمة نعم بإبهامه في قوة. صاح جيثرو بحماسة وقاده إلى مصعد المدير التنفيذي، حتى تتسنى للجميع متابعة المرح من على السطح.

قال جيثرو وهم يهرعون نحو المصعد: «من المفترض أن يحدث كل شيء فورًا، وكل هذا بفضل تقنية «سناجل توث» التي نملك براءة اختراعها والتي تجعل المنتجات تتحدث بعضها إلى بعض. ستنتقل التغييرات حول العالم كالموجة، وكل هذا جزء من فلسفة مؤسستنا التي تركز على العمل بشكل فوري».

اندفع المصعد إلى الأعلى، وفي لحظات كانا قد وصلا إلى السطح. «إنه يبدأ». هكذا قال جيثرو وهو يشير إلى أقرب برج ثندر نت. كان الغطاء اللامع ينفتح كبتلات الوردة، إلى أن صار الجزء العلوي يشبه طبق تجميع الطاقة الشمسية، بينما أخذت غيمة عجيبة تتجمع فوقه.

قال جيثرو وهو يغمز بعينه: «كانت هذه التكنولوجيا موجودة منذ سنوات، لكن قال الجميع إنها باهظة الثمن ولا يمكن نشرها على نطاق واسع. باختصار، تحتوي قمم الأبراج على مادة حفازة ضوئيًّا تعمل على تحويل ثاني أكسيد الكربون والماء في الغلاف الجوي إلى غازي الميثان والأكسجين. يجري تخزين الميثان واستخدامه كمصدر طاقة إضافي. أيضًا يرش البرج مركب أميني في الهواء يقتنص المزيد من ثاني أكسيد الكربون عبر تفاعل كيميائي خاص. لهذا السبب كان على أبراج ثندر نت أن تكون مكلفة».

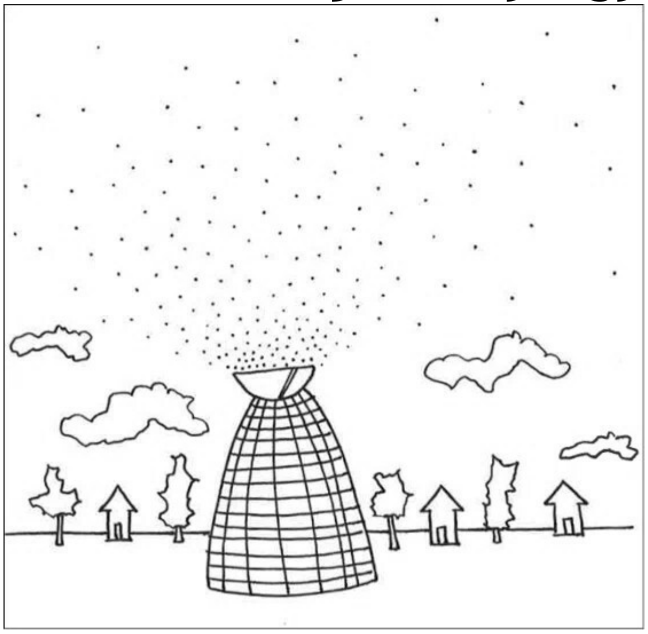

© 2013, ASU / Lauren Pedersen

حينها شعر بروس باهتزاز صادر عن مفكرته الإلكترونية. وحين نظر إليها اندهش حين رأى حصْرًا مفصلًا للبصمة الكربونية الخاصة به، بما في ذلك كل هدر للطاقة تسبب فيه على مدار الأعوام الخمسة الماضية.

قال جيثرو: «انظر إلى ساحة انتظار السيارات». كانت كل أجهزة كار دينجو تعيد تشكيل نفسها، مشكلة روابط جديدة مع محركات السيارات. «نحن نعمل على تعديل تلك السيارات بحيث لا تصدر عنها أي انبعاثات، باستخدام المركبات الأمينية التي تقتنص غاز ثاني أكسيد الكربون المنبعث منها. يمكنك استخدام الحرارة الفائضة الصادرة عن المحرك كي تعيد توليد المركبات الأمينية». بيد أن المكسب الحقيقي سيأتي من أنظمة التموضع العالمية (جي بي إس) الملحقة بالسيارات، والتي ستبدأ في تنبيه الناس إلى التشارك في استخدام السيارات حين يكون مستخدم آخر لكار دينجو متجهًا إلى الوجهة عينها، وذلك باستخدام نموذج «تبادل حزم المعلومات» الذي يختار أفضل الطرق لكل شخص من أجل تقليل التلوث البيئي. إذا رفضت التشارك في السيارة، ربما تظهر مشكلات في محرك سيارتك، وكان بروس يعلم أن جهاز كار دينجو كان يستحيل تقريبًا إزالته من السيارات.

ماذا عن كرادو؟ أوضح جيثرو أن هذه المهود كان تتسلل بالفعل إلى كل جهاز ذكي يستخدمه الناس في بيوتهم، كي تجعلها أكثر كفاءة في استهلاك الطاقة سواء أراد الناس هذا أم لم يريدوا.

كانت زوي واقفة قرب مرفق بروس، وقالت وسط الضجيج الذي تسببه أبراج ثندر نت: «لقد فات أوان إيقاف التدهور المناخي، أو عكس التأثيرات، لكن بمقدورنا إبطاؤه بشكل كبير، وتظهر أكثر تقديراتنا تفاؤلًا حدوث تحسينات عظيمة على المدى المتوسط».

قال بروس: «إذن طوال هذا الوقت - طوال هذا الوقت اللعين - كانت لديكم السبل التي تمكنكم من إحداث الفارق، لكنكم ... آثرتم الانتظار. ما الذي كان يدور بخلدكم بحق الجحيم؟».

قال جيثرو وقد بات مضطرًّا لرفع صوته بسبب أبراج ثندر نت التي تصدر ضجيجًا هادرًا: «أردنا الانتظار حتى تخترق منتجاتنا السوق بشكل تام. كما أردنا أن يكون الناس مستعدين. فإذا تسرَّعنا وصارحناهم فجأة بحقيقة ما تفعله منتجاتنا قد يفضلون الموت على شرائها، حتى بعد ما حدث لمانهاتن وفلوريدا. لم يكن باستطاعتنا منحها للناس مجانًا. لكن لو أننا زعمنا أننا نصنِّع منتجات عديمة القيمة مغالى في سعرها تدمر البيئة، حينها سيرغب الناس في اقتناء أكثر من منتج منها».

- «إذن أزمة الضمير التي مررت بها ...» ولم يستطع بروس إكمال عبارته واكتفى بالإشاحة بذراعيه.

- «لقد رأينا أن اليوم الذي لن تكترث فيه البتة بمستقبلك سيكون هو اليوم الذي قد يقبل فيه الناس هذا». هكذا قال جيثرو وهو يربِّت على كتف بروس وكأنه والده، رغم أنه كان أصغر منه سنًّا.

قال بروس بصوت مرتفع: «حسنًا، أشكرك على هذه الخدعة. سأذهب الآن كي أستكشف ما أطلق عليه ثقافة السُّكْر الخاصة بي».

صاح جيثرو في أذنه: «لا يمكنك المغادرة يا بروس. سيقع اضطراب بالغ بسبب ما فعلناه، وستجن الأدوات الذكية التي يستخدمها الناس كلها دفعة واحدة. ستقع أعمال عنف ويحدث تدمير واسع النطاق للممتلكات العامة، وقد تنشب ثورات. وقد تكون هناك تعليقات ساخرة على تويتر. نحن نحتاجك في الواجهة كي تفسر الأمر للناس».

نظر بروس إلى سحب المغيب الحمراء الداكنة التي تموج بينما الملايين من أبراج ثندر نت تقصفها بالأشعة المنظفة. وحتى على هذا الارتفاع كان يسمع أبواق السيارات وصيحات الناس تدوي على الطريق السريع بينما صارت أجهزة كار دينجو تتصرف من تلقاء نفسها. استدار بروس ونظر إلى الضوء

المنعكس على نظارة رئيسه في العمل وقال: «تبًّا لك يا رجل». وبعدها بثانية أضاف: «سأفعل ما تريد».

قال جيثرو: «كنا نعلم أن بوسعنا الاعتماد عليك». ثم استدار إلى المدراء المتجمعين على السطح خلفه وأضاف: «فلنصفق لبروس جميعًا». انتظر بروس إلى أن انتهى الجميع من التصفيق ثم مال على الحاجز وتقيأ بعنف.

البرج العالي

بروس ستيرلنج

ذهبت زوجتي إلى البرج العالي، ثم غادرت إلى المدار عازمةً على ألا تعود إلى الأرض مجدَّدًا. لطالما أرادت جريتشن الذهاب إلى هناك.

شعرتُ بوحدة شديدة، وأخذ عقلي المهموم ينشغل بالبرج العالي.

الحلم الكبير والبناء غير المسبوق، كانت تلك هي الفكرة العظيمة الكامنة خلف البرج العالي. كانت الفكرة تتمثَّل في بناء برج يمس تخوم الفضاء الخارجي. وفي حالة انعدام الوزن سيبنون أبراج أكبر مما تسمح به أرضنا الخضراء.

تتحقَّق الأحلام الكبيرة أحيانًا، لكن يمضي الوقت، بصرف النظر عن حجم الأحلام. كنت قد حقَّقت بعض الأحلام، إذ رُزقت بزوجة محبة وولدين رائعين، كما نلت أكثر من نصيبي من صيد السلمون المرقَّط والغناء حول نار المخيَّم بينما أعزف على جيتاري.

بنيت لنفسي بيتًا، وكنت أدير عملًا مربحًا كذلك. كنت مرشدًا سياحيًّا تاريخيًّا، أمتطي جوادي - ليفي - وأقود مجموعات السائحين إلى منجم قديم للنحاس.

كان ذلك المنجم في أريزونا أحد أضخم المنشآت التي شيَّدتها يد الإنسان، وفي ذلك الوقت كان عبارة عن منجم هائل مهجور تجتاحه الانهيارات الصخرية العنيفة، ويموج بالأفاعي ذات الجرس والصبار.

اعتدنا، أنا وليفي، الذهاب إلى منجم النحاس في أريزونا ونحن نرتدي ملابس الجولات السياحية المبهرجة؛ وفي كل موسم كنا نرتدي ملابس رعاة البقر التقليدية؛ فكنت أرتدي قبعة بيضاء وبنطالًا من الجينز الأزرق، إلى جانب مسدس ذي ساقية وحبلًا طويلًا ذا أنشوطة، بينما كنت أضع على ليفي سرجه الفضي اللامع والدثار ذا الخطوط البيضاء والزرقاء.

كان السائحون كرماء معي، كما أحب الأطفال ليفي كثيرًا. وفي غير فترات الموسم السياحي كنت أذهب أنا وليفي في جولات طويلة إلى أماكن بعيدة، وفي بعض الأحيان كنا نصل إلى الأطلال المتداعية لمدينتي إل باسو وتوكومكاري. كان كلانا ذو روح قلقة.

© Haylee Bolinger / ASU ,2013

مع مرور الوقت صرت عجوزًا، وكذا صار ليفي كهلًا بحسابات الخيول.

في ضوء كل هذا، وجدتُ أن الوقت قد حان كي أرتاد البرج العالي. ثمة مساحة واسعة في مدار الأرض يمكنها أن تحتوي روح الرجل القلقة. فحين أعيش في الفضاء الخارجي سأتمتع بعمر أطول وأمتلك قدرات خارقة. سأعيش بين النجوم، بين أعلى صور التكنولوجيا قاطبة.

لكن كان شيء بسيط يضايقني، وهو التساؤل عما سيحل بجوادي. من الواضح أن كوني «إنسانًا خارقًا» شيء عظيم، لكن ماذا عن «الجواد الخارق»؟

كانت زوجتي جريتشن أول من وضع تلك الفكرة في رأسي؛ إذ قالت لي ذات ليلة صيف بينما كنا نجلس على الشرفةِ الخلفية في مزرعتنا ونشرب الجعة

المصنوعة في المنزل: «ليس هذا عادلًا؛ فأصدقاؤنا الحيوانات لن يشاركونا ذلك النعيم، حين نكون «السادة السامين» في الفضاء الخارجي!».

كانت زوجتي، جريتشن، تتمتع بحياة روحية قوية. كانت تعيش دائمًا على مرأى من البرج العالي، إذ كان البرج العالي يلقي ظله الصباحي من أريزونا إلى لوس أنجلوس.

لم يسبق للبشر أن بنوا شيئًا في روعة ذلك البناء المعدني المهيب المرتكز على ست قواعد ويرتفع إلى النجوم. كانت الأضواء الساطعة تنعكس عليه، بينما تتلألأ الأضواء الصغيرة في لمعان على امتداد ثنايا تعاريجه الهائلة. كما كانت أسراب جميلة من الدرونات تحلق على امتداد قوائمه المستعرضة.

كانت ثمة حدائق زهور تتدلَّى من البرج العالي، بينما كانت السحب تتجمع حوله على نحو دائم؛ وسبب هذا أنه كان في معظم الأحيان يمتلك طقسه الخاص.

منذ أن اكتمل بناء البرج العالي لم يضاهيه أي بناء أرضي آخر. فلماذا نبني برجًا آخر؟ ولماذا نبني مثل هذه الأبنية على الأرض؟ سيكون من الصعب للغاية أن تشيد بناءً يفوق البرج العالي دون أن تخاطر بزعزعة الأرض من تحته. لقد كان البرج العالي أطول وأعظم بناء تستطيع الأرض تحمله.

كان البرج يناجينا من موضعه، وفي كل ليلة كانت هناك عمليات إطلاق لسفن الركاب. كانت تلك القطارات الفضائية تحمل حشودًا من البشر المتحمِّسين، المتحرِّرين من جميع القيود الأرضية، والروابط التي تجمعهم بهذا العالم.

وبينما أخذ البشر يرتحلون من الأرض كي يشيدوا أشياء أعظم في الفضاء الخارجي، صارت الأرض المتعافية خضراء وبرية مجددًا. وبمقدور رجل يمتطي جوادًا صحيح البدن أن يقطع الطرق السريعة الخالية من مقاطعة يوكون الكندية إلى الهندوراس دون أن يرى إنسانًا آخر.

ومع انتقال التكنولوجيا إلى عالم النجوم، عاودت الدببة والذئاب والنسور الصلعاء الهيمنة على أنهار الأرض وسهولها وقممها. تزايدت أعداد قطعان الماشية طويلة القرن، وبالمثل تزايدت أعداد خيول الموستانج القوية، مثل ليفي. صارت الأرض ساكنة تحت سماء الليل العامرة بالأقمار الصناعية.

كانت جريتشن تبجِّل السادة السامين، إذ كانت تؤمن بأنهم مصدر خلاصها. وفي كل ليلة كانت كبسولات مليئة برواد الفضاء يجري تحميلها في القاعدة

الخاصة بالبرج العالي. كان أنبوب إطلاق ضيق يمتد داخل البرج، وكأنه فوهة بندقية مصوَّبة إلى السماء.

كانت هذه الكبسولات يجري نقلها كموميًّا، من خلال تقنية نجمية طوَّرها السادة السامون. كانت الكبسولات موجودة في قاعدة البرج، ومع ذلك فقد كانت موجودة بالمثل عند القمة العالية البعيدة للبرج، في اللحظة الكونية عينها.

وعند انهيار الدالة الموجية، من شأن المركبة الفضائية الكمومية أن تدفع نفسها من البرج نحو السماء مباشرة، وكأنها بذرة بطيخة تندفع منزلقة من بين أصبعين.

حين قرَّرت جريتشن مغادرة الأرض لم نتشاجر بشأن هذا الأمر. كان السادة السامون يمتلكون قدرات نجمية؛ وكانوا يعيشون في جنات نجمية مصنوعة من الحديد المأخوذ من الكويكبات، مدن فضائية عظيمة شديدة الضخامة لدرجة أنني كنت أراها في ضوء النهار بالعين المجردة.

كان مبلغ علمنا نحن البشر بعلومهم الكونية لا يزيد على مبلغ علم جوادي، ليفي، بعملية حياكة السرج. كان السادة السامون كائنات نانوية، روبوتية، بيولوجية، وكنَّا نحن البشر بمنزلة حشرات لا أكثر. لم يتكاثر السادة السامون قط، إذ تركوا هذه المهمة الحيوية لنا، للبشرية.

أقدم السادة السامون على هذا الخيار الحكيم، التبتُّل، بمحض إرادتهم. كان أعظم هؤلاء السادة مكانة عبارة عن كائنات نجمية رخوة لها أعين تليسكوبية وأعصاب ومادة مخية هائلة الحجم، تهيم في أرجاء الفضاء أسفل قشور فولاذية لامعة.

كانت الأرض مهدهم. وقد نادانا السادة السامون من هذا المهد، كي نصير جندًا لهم. وقد ارتقينا إلى النجوم كي ننضم إليهم في السماء، لكن فقط حين كنَّا مستعدين لهذا، أما قبل ذلك فكانوا يحافظون على المسافة الفاصلة بيننا. كان هذا ترتيبًا حصيفًا.

والآن، إحقاقًا للحق، كان البعض لا يروق لهم هذا الترتيب. إن الطبيعة البشرية غير سوية، وأحيانًا ما نتراجع عن الخلاص مثلما يجفل الجواد حين يرى ظله. وأقر أنا أيضًا بأنني كنت أعاني من مشكلة محدَّدة، تتعلَّق بجوادي.

كان الترتيب الحالي يستبعد جوادي. إن الإنسان كائن حي، وكذلك الجواد كائن حي، لكن البشر كائنات طامحة، تمتلك القدرة على التخيُّل والتأمل والتخطيط والبناء.

ليس بوسع أي جواد أن يفعل هذا. ومع ذلك فقد كان لليفي قيمته واحترامه في نظري، لأنه كان يضع السرج وكان مطيعًا لي. لقد أوفى ليفي بعهده لي، والآن صرت بمفردي معه. لقد كبر أبنائي، ومضت زوجتي في طريقها، فلم يعد متبقيًا أسفل تلك النجوم الساطعة والأجرام التابعة سوانا أنا وهو.

يمكنك أن تصفني بأنني عنيد، أو بأنني أحمق مرهف الشعور، لكنني كنت أدين بشيء ما لهذا الحيوان القوي.

ومن ثم فقد رتَّبت أموري على هذا الأساس. بعتُ ممتلكاتي، وألقيتُ نظرة الوداع الأخيرة على الأرض، ووضعت السرج على جوادي. كنا متجهين نحن الاثنين إلى البرج العالي كي نلاقي قدرنا.

لم يحدث أن جرؤت على الذهاب ولو لمرة واحدة إلى القمة الجليدية البعيدة للبرج العالي؛ إذ إنني رأيتها وحسب، ماثلة في الأفق وكأنها وعد بالخلاص، لكنني ذهبت من قبل إلى المدينة الخبيثة التي نَمَت داخل الأرجل المتباعدة لقاعدة البرج عظيمة الحجم.

كانت هذه المدينة الصاخبة المزدهرة تمتلئ بمسافرين متجهين إلى الفضاء من كل حجم وشكل وعقيدة، وكانت تسمى «مدينة المجهول».

كان من السهل كثيرًا العثور على مدينة المجهول، نظرًا لوجود ذلك البرج العملاق الذي يعلوها، وكان العثور على المتاعب في هذه المدينة أسهل من ذلك. إن من يقطنون تحت ظل الآلهة يسخرون على الدوام من كل ما هو إلهي، وكان سكان مدينة المجهول قومًا واسعي الحيلة ذوي أذهان متقدة يملكون خططًا معقَّدة.

كانت مدينة المجهول بمنزلة الواحة بطبيعتها. كان البرج العالي يجمِّع الجليد على قوائمه المائلة التي تشقُّ السحاب، وكانت المياه الموحلة تتقاطر عبر مجموعة من الأنابيب. زحفت ظلال فولاذية عملاقة في أرجاء المدينة كل يوم، على نحو أشبه بالساعة الشمسية. وكان لكل حي مناخه الخاص.

ومن ثم كي ينطلق المسافرون إلى المدار الخارجي، كان عليهم القدوم إلى مدينة المجهول. في المعتاد كان هؤلاء المسافرون يمرون بلحظة ضعف

عاطفي أخيرة قبل أن يغادروا الأرض إلى الأبد، وكانوا يرغبون بطبيعة الحال في الحصول على وداع أخير من أماكن المتعة واللهو، وكان سكان المدينة أكثر من سعداء بتلبية هذا الاحتياج.

لذا كانت مدينة المجهول مكانًا ملائمًا يمكنك فيه الاستيقاظ فتجد إلى جوارك امرأة غريبة عليك، مكانًا تكتشف فيه مذاقًا جديدًا للرذائل البشرية القديمة، مكانًا قد تُسرَق فيه أو تُقتَل. وربما يحدث لك كل هذا في غضون يوم واحد.

كانت احتياجاتي بسيطة، وكانت أهدافي واضحة تمام الوضوح. كان جوادي ليفي شريكًا لي منذ زمن بعيد، وقد رفضت التحوُّل إلى إنسان خارق قبل أن يصير ليفي جوادًا خارقًا. كنت عاقد العزم على أن يسمو ليفي فوق الحدود الفطرية لطبيعته كجواد.

من شأن شخص ما في مدينة المجهول أن يساعدني على تحقيق طموحي هذا. من الواضح أن هذه الفكرة التي خطرت لي لم تكن جديدة بالكامل، فلم يكن ثمة شيء جديد بالكامل في مدينة المجهول.

وهكذا شرعت في البحث في أرجاء المدينة، متسلِّحًا بالحيطة والحذر، ذلك الحذر الذي اكتسبته من كوني رجلًا خَبُرَ الحياة.

كان همِّي الأول هو العثور على مأوى مناسب لجوادي، وبالفعل وجدت اسطبلًا ملائمًا شمالي المدينة.

كان البرج العالي يضم مزارع عمودية، وكانت مساحات شاسعة من البناء الفولاذي تمتد إلى الأسفل. كان بمقدور المحاصيل أن تنمو داخل مساحات مختارة كانت أشد برودة أو رطوبة أو جفافًا أو سطوعًا من المعتاد، كل هذا حسب المطلوب.

وهكذا عثرت على مزرعة عمودية يديرها مجموعة من اليهود الدمثاء. كان أولئك القوم المتدينون ملتزمين بشروط غذائية صارمة، ولم تكن تعاليمهم القديمة تسمح لهم بتناول الأغذية الحديثة.

كان الغذاء الحديث مبنيًّا على الميكروبات والطحالب والحشرات، وهو ما لنا أن نتوقعه من العلوم الزراعية، لكن وجد اليهود أن هذا أمر مثير للضيق. لم يشاركهم أحد آخر الرأي عينه، لكن بوصفهم شعب الله المختار لم يهتموا لهذا.

كان مُستضيفو الجدد مجتهدين أشد الاجتهاد، إذ شيَّدوا حدائق معلّقة بها أحواض ري وأوعية وأنابيب ومضخَّات ورفوف من الصلب، على مساحة تناهز الكيلومتر رأسيًّا.

كان هناك استخدام متاح للجواد أيام السبت، حين يمنعون أنفسهم من استخدام الكهرباء. ومن ثم فقد توصَّلت أنا وهؤلاء المزارعين إلى اتفاق ودِّي بمقتضاه استضافوا جوادي وأطعموه من حبوبهم، واستضافوني وأطعموني من السبانخ التي يزرعونها، كما وفَّروا لي فراشًا. في المقابل، كنت أبحث لهم عن أسواق جديدة لما ينتجونه من خضروات.

اجتهدت أشد الاجتهاد في دراسة كل العشائر والصنوف والعقائد الخاصة بقاطني البرج. كان البرج العالي قد اجتذب كل أنواع الطوائف، من الآميش إلى الزرادشتية؛ إذ كان ذوو الميول الروحية يلتصقون بالبرج كما تلتصق برادة الحديد بالمغناطيس.

اجتهدت أشد الاجتهاد في دراسة هؤلاء المؤمنين. لطالما شعر البشر بالحيرة بشأن الله، وبشأن معنى الحياة، والروح، والخلود، والغاية البشرية من هذا العالم. وقد ظن معظمنا أن البرج العالي حل هذه القضايا عن طريق الهندسة الميكانيكية وحدها.

ومع ذلك، سريعًا ما تعرَّفت على طرق أخرى للتفكير. إن تلك المِلل الصوفية تملك إجابات عديدة وافية للأسئلة الروحية التي يموج بها قلبي، ومع ذلك فقد كانت تقدِّم لي إجابات متباينة.

بعد مناقشة الأمور الروحية لبضع ساعات مع أفراد هذه المِلل، كنت أغيِّر الموضوع وأعرض عليهم بعض الخضراوات الحلال في ملتهم، وفي المعتاد كانوا يشترونها مني.

كانت أسئلتي المتعلِّقة بالحيوانات الخارقة معروفة بالفعل لهؤلاء القوم الحكماء. عرفت الكثير عن الجياد الخارقة وعن القطط الخارقة. كان العديد من مُلاك الحيوانات ذوي الأفئدة الرقيقة يرغبون في مشاركة طموحاتهم الروحية مع حيواناتهم الأليفة. جُربت بعض المحاولات، وتحقَّقت بعض النتائج.

شجَّعتني النتائج التي عثرت عليها، فواصلت اقتفاء كل أثر، وفي النهاية نجح مسعاي.

عرفت بشأن الطيور الخارقة من المجوس. كان المجوس هم أيضًا من الملل التي تقطن البرج العالي، وعلى مدار قرون كانوا يشكلون أصغر الديانات القديمة الباقية في البشرية.

منذ زمن بعيد وهناك طقس مقدَّس لدى المجوس يكشفون فيه رؤوسهم أمام الطيور الجارحة أعلى «برج الصمت» العظيم. من هنا جاءت الألفة بذلك الطقس المجوسي القديم.

كان معظم قاطني البرج يحملون إحساسًا عميقًا بالاحترام للمجوس. ففي نظرهم، كان وجود المجوس بينهم بمنزلة تأكيد دامغ على صحة الحياة التي اختاروها.

لكن للأسف، نفقت كل الطيور الجارحة المقدسة لدى المجوس بسبب التغير المناخي الذي أصاب الأرض. وبينما أخذت سماء الأرض السقيمة تتعافى بدرجة ما، اجتهد المجوس في محاولة إحياء - أو بالأحرى إعادة خلق - طيورهم المقدسة المنقرضة الآكلة للجثث.

وبكثير من البراعة والاجتهاد، تمكن هؤلاء المجوس من تخليق طيور جارحة خارقة. وقد عشَّشت هذه الطيور الخارقة داخل البرج العالي.

كانت هذه النسور الخارقة المجوسية الاصطناعية في حجم الطائرات الصغيرة، وقد صار من الشائع رؤيتها وهي تحلق فوق الغرب الأميركي الأوسط، حيث تتبع قطعان الثيران بحثًا عن الجيف. يا لها من كائنات مهيبة لها مظهر شاعري، هدية حقيقية للعالم.

لكن في واقع الأمر لم يشعر المجوس بالسعادة لهذا الإنجاز، وبدا أن مشروع الطيور الخارقة لم يشبع غاياتهم الروحية الأعمق. ومن ثم فقد وصل هؤلاء الأشخاص الدمثاء النبلاء، الذين يتبعون مذهبهم الروحي لأربعة آلاف سنة، إلى نهاية رحلتهم على الأرض. كان الاتجاه الوحيد المتاح أمام هؤلاء المجوس هو الفضاء، وبالفعل تحوَّلوا جميعًا، واحدًا تلو الآخر، إلى أناس خارقين من قاطني الفضاء، ولن يمر وقت طويل قبل أن تنسى الأرض عقيدتهم إلى الأبد.

انفطر فؤادي لقصتهم. ربما كنت لأنضم إلى المجوسية، لو أنهم كانوا يقبلون التحول إلى ديانتهم. لكن هؤلاء القوم الآخذون في الاختفاء كانوا يفخرون بعقيدتهم ويُجِلُّونها، ولم يقبلوا بهذا. لذا فقد اكتفيت بدلًا من هذا بأن بعثُ لهم بعض الأرز والزعفران.

بعد ذلك حاولت بيع الخضروات لكبرى متاجر البقالة في البرج. إن رجال الأعمال أشخاص عمليون، ولهذا كانوا يبيعون أغذية حديثة مصنوعة بطرق علمية من الحشرات والطحالب. وقد أقنعت متاجر البقالة بعرض بعض الخضروات التقليدية في واجهاتها، وقدَّمت بعض الأزهار بالمجان كي أشجعهم على عقد الصفقة.

هذه المعروضات القديمة جعلت المتسوِّقين يقفون ويحدِّقون فيها ببلاهة. كنت أمر بالمتاجر مرتديًا ملابس راعي البقر المتأنِّقة، وألتهم على مرأى من الناس بعض الخضراوات، فقط على سبيل الاستعراض. كان لهذا الأمر أثر طيب.

في مقابل هذه الخدمة التي كنت أسديها، كان صاحب المتجر يخبرني بمعلومة عن الجياد الخارقة: سائل عالي الطاقة مصمَّم خصيصًا لجياد السباق.

كان هذا السائل الدبق المالح يحتوي على كل المغذيات التي يحتاجها جواد السباق كي يؤدِّي على النحو الأمثل. شرع ليفي في التغذِّي على تلك المادة وبدأ يكتسب الطاقة على الفور. أيضًا رتبت له إجراء عمليات تنقية دورية للدم وحَقْن بهرمونات النمو. كانت النتائج مشجِّعة، إذ بدأ ليفي العجوز يتخلَّص من شيخوخته بشكل واضح.

تساقط الشعر القديم المرقَّع وحل محله شعر جديد سميك ولامع يناسب وضعه كجواد خارق. كما تحوَّلت أسنانه النخرة الصفراء إلى أسنان بيضاء عند الجذور، أما حوافره المتشقِّقة فقد نمت وصارت صلبة وملساء.

صار اليهود متخوِّفين بعض الشيء من ليفي، لذا صار عليَّ أن أستأجر لليفي مربطًا جديدًا في مسبك معادن قديم، حيث يمكنه الشب والرفس والاصطدام بالأشياء من دون أن يؤذي أحدًا.

في تلك الأثناء تعرَّفت على رجال الصُّلب الذين يعملون على إصلاح البرج العالي وصيانته. كان هؤلاء الرجال الأشداء يواجهون موقفًا صعبًا، وقد تفهَّمت موقفهم وتعاطفت معهم.

في البداية، في مرحلة بناء البرج، كان شراء ملايين الأطنان من صلب البناء عالي الأداء مهمَّة صعبة تستحق التقدير. لكن في وقتنا الحالي صار لدينا العديد من المدن المهجورة لدرجة أن الصلب صار وباءً يثقل كاهلنا. ومن ثم فقد صار علينا أن ندفع المال للناس كي يخلِّصونا من هذا الصلب.

احتسيت الخمر رفقة هؤلاء الرجال الأشداء بضع مرات في الحانة الصغيرة المفضَّلة لديهم. وقد أقنعتهم أن عليهم إعادة التفكير في صورتهم العامة وأن يفخروا بهذا الصلب ذي التاريخ المجيد.

قلت لهم إن السبيل الأمثل لعمل ذلك هو إقامة مأدبة تقليدية، يتناول فيها الناس الخضروات القديمة. كان من شأن هذه المهرجانات المدنية أن تستعيد تقدير العامة للمواد الخام عتيقة الطراز مثل الصلب. وبمقدور رجال الصلب أن يضمنوا أن البرج العالي مدعوم بمعدن حقيقي.

احتجت إلى بذل بعض الجهد من أجل تحقيق فكرتي على أرض الواقع، فالتغيير يستغرق وقتًا كما هو معروف. لكن خطوة بخطوة تحوَّلت مشاعر قاطني البرج العالي ضد ذلك الهراء المعاصر على غرار نتريد السليكون وأنابيب الكربون النانوية الرغوية، وعادت مجدَّدًا إلى تأييد الصلب الحقيقي.

إن كل مدينة ساحة مؤامرات بين السياسيين الذين يديرونها، والفنيين الذين بنوها ويصونونها. والمدينة التي تزن مليون طن من الصلب ليست بمدينة هينة الشأن. وبمجرد أن تستقر أحوال العمل داخل أي مدينة، يرغب أهلها في المشاركة في هذا العمل. إن مدننا تشكل شخصياتنا، وبعد ذلك نشكل نحن مدننا. كان لأهل مدينة المجهول قلوب من الصلب. كشخص غريب عنهم كنت أدرك دومًا هذه الحقيقة بشأنهم، وبعد فترة من الوقت صاروا متفقين معي في رؤيتي هذه.

بعد ذلك الحدث صار أهل المدينة يحبُّونني، ووجدت نفسي أختلط بالدوائر العليا للبرج العالي.

كان صفوة مجتمع البرج العالي يتنقَّلون بواسطة طائرات خاصة. فلطالما كان علية القوم يعيشون في أماكن مرتفعة.

كان الأثرياء يعانون من المشكلات نفسها التي يعاني منها كافة البشر، كل ما في الأمر هو أنهم أكثر ثراءً. كان البرج العالي قد شُيِّدَ بواسطة رجل فاحش الثراء، مهووس بالكمبيوتر أو شيء من هذا القبيل حسبما يشاع.

في الوقت الحالي لم يكن أحد تقريبًا يذكر الشخص الذي شيَّد البرج. لكن من الواضح أنه كان شخصًا شديد التقليدية لأنه بنى لنفسه أعلى البرج كازينو قمار على غرار كازينوهات لاس فيجاس. كما أنه شيَّد أيضًا قطارًا مكيف الهواء يدور صاعدًا لأعلى البرج حول الجوانب، كي يصل إلى اليوتوبيا المضاءة بالنيون على القمة.

كان محكوم على ذلك الكازينو البائس بالخراب، ففي كل يوم كان يتعرَّض لشمس أريزونا القاسية التي تذيب الطلاء، والتي لم يكن ثمة غلاف جوي كي يخففها. كانت هذه المأساة تستمر منذ وقت الفجر عند المستوى الأرضي إلى ما بعد غروب الشمس.

احترق الكازينو ودُمِّر تمامًا، ثم تبعه القطار الصغير؛ إذ كان على هذا القطار الصغير أن يمر عبر تيارات الرياح النفاثة على ارتفاع تسعة كيلومترات. وعلى ارتفاع اثني عشر كيلومترًا كانت هناك «منطقة موت» يقصفها البرق. وفوق ذلك الخطر كان البرج العالي يضيق فيما يعرف باسم «العنق». لم يكن بمقدور أحد العيش «فوق العنق» باستثناء جواسيس المراقبة والجيش؛ وهم أشخاص كتومون متجهِّمون.

كان قاطنو البرج قد تكيَّفوا مع واقعهم بطريقة صاخبة؛ إذ فكَّكوا قطاراتهم القديمة المعطوبة، ووجدوا سبلًا للانتقال بين أجزاء البرج كان أكثرها شيوعًا الدرونات والحوامات. شاع استخدام شبكة معقدة من التلفريك لبعض الوقت بينما فضل البعض استخدام أنابيب هوائية تشبه القصبات. أيضًا كانت سيارات الليموزين التي تتحرَّك بالقوة المغناطيسية تسير في صمت على العوارض الفولاذية. بُنيت مجانق كبيرة، وأعني بكلمة «كبيرة» هنا أن هذه الروافع كانت من الضخامة بما يمكنها من قذف كبائن العطلات إلى الأعلى.

في المناسبات الاحتفالية كان سكان البرج يزورون قمة البرج؛ حيث تقع طقوس مهمة هناك، بعضها علني والآخر سري.

من أجل الوصول إلى قمة البرج كان المرتحلون يقطعون نصف الطريق إليها داخل قمرات مُحكمة تتنقل عبر سلسلة من الروافع والكابلات والمصاعد، كلها مملوكة لعدد من أصحاب المصالح الجشعين.

رأيت في هذا الترتيب المرهق قدرًا من الانحطاط في حقيقة الأمر.

فلماذا لا يركب أحدهم جوادًا إلى قمة البرج العالي؟ يبدو لي أن بمقدور أي جواد وراكبه أن يقطع المسافة من الطابق الأرضي وحتى قمة البرج، فقط بالاستعانة بالقوة المحضة للرجل والجواد.

أؤمن أن بالإمكان تحقيق هذا العمل البطولي، رغم أنه سيكون أمرًا صعبًا بطبيعة الحال. سيحتاج الجواد الشجاع إلى بذلة فضائية غير منفذة للهواء من نوع ما، وخوذة مزودة بالأكسجين وتغذية وريدية. وسيتعيَّن على الراكب أن يقود الجواد عبر تيارات الرياح النفاثة على ارتفاع تسعة كيلومترات.

بعد ارتفاع اثني عشر كيلومترًا هناك العنق، وهو المكان الذي يضيق فيه البرج في حالة مقاربة للفراغ التام، حيث البرد القاتل والإشعاع الشمسي المسبِّب للعمى. كان العنق نقطة الاختناق الخطيرة للبرج، إذ يمتلئ بالمحركات النفاثة العملاقة المعطوبة وأدوات المراقبة العاملة بالرادار الضوئي الآتية من وكالات التجسس القومية المنسية، وأجهزة التعديل المناخي التي لم تفلح في عملها؛ باختصار كان العنق بمنزلة ساحة خردة تاريخية.

المرحلة الأخيرة السابقة على قمة البرج يشاع عنها أنها مروِّعة بشكل خاص. كانت صواعق عجيبة من البرق تضرب الصلب المتجمد الجاف طوال الوقت فتبدو وكأنها أشباح وعفاريت وتجمعات لكرات البرق، علاوة على ظواهر جوية فضائية ليس لها مسمى بشري إلى الآن.

العقبة الأسوأ التي سيتعين على الجواد وعليَّ مواجهتها هي البشر. كان المجرمون يملؤون هذه المناطق العليا الوعرة. وقد سمعت قصصًا مثيرة عن سرقات وكمائن جرت في الفراغ، تطايرت فيها السهام المنطلقة في الفراغ هنا وهناك، فضلًا عن الفؤوس وسكاكين القتال. لم يجرؤ أحد على الذهاب إلى قمة البرج من دون مرافقين محليين وحراس نظاميين.

كنت أدرك أن قصص الغرب الموحش هذه مبالغ فيها بالتأكيد، لكن أولئك الذين يواجهون الواقع قد لا يعيشون كي يخبروا الناس بالحقيقة.

قرَّرت المضي في هذه المغامرة لأنني ظننت أنها كانت الشيء الأمثل لجوادي. فحين يصعد جوادي إلى قمة البرج العالي سيكون قد حقَّق إنجازًا غير مسبوق للجياد. سيصير ليفي جوادًا شهيرًا وسيخلِّد التاريخ اسمه.

بدا الأمر معقولًا بدرجة كبيرة في نظري، بل وكانت لدي رؤية تمتد لما هو أبعد من هذا.

فلو أن كلانا نجح في اجتياز الرحلة، ربما نتمكَّن من تنظيم رحلات سياحية دورية إلى قمة البرج العالي. لقد سبق لنا أن أرشدنا جموع السائحين داخل مناجم النحاس، فلِمَ لا نصعد الحواف الفولاذية إلى أعلى مكان في العالم؟

كانت هذه الرحلة بمنزلة مناجاة روحية. ومن أجل القيام بها كنت أنا وليفي بحاجة إلى راعي سخي متعاطف، إلى شخص ثري يتفهم الطبيعة المثالية لمهمتنا.

بما أن الحظ يحالف ذوي الجرأة، فقد ابتسم الحظ لي ولجوادي إذ تبين أنني كنت أعرف راعيتي بالفعل. كانت لويزا من داكوتا، مثلي تمامًا، وكنا نعرف أحدنا الآخر منذ أن كنا طفلين.

المرة الأخيرة التي رأيت فيها صديقة الطفولة لويزا كانت هي الفتاة الأجمل في مدينتنا الآخذة في الازدهار بفعل استخراج النفط الصخري. بينما كانت في سن السادسة اعتادت الجلوس على الأرجوحة، وهي ترسم على وجهها ابتسامة متكلِّفة حتى يأتي بعض الصبية الأكبر ويدفعون الأرجوحة كي تصل هي لارتفاع أعلى. لطالما كانت تضع القمة نصب عينيها.

في الوقت الحالي صارت لويزا، صديقة الطفولة، أرملة ثرية. كانت ترفع شعرها وتضع طلاء شفاه قرمزي اللون، ولها عينان متقدتان وتتحلى بأكوام من المجوهرات الفيروزية وترتدي سترة مفصلة خصيصًا لها مصنوعة من أفخر أنواع جلد الغزال. لقد صارت الفتاة الجميلة أرملة فاتنة راقية، وكانت تمتلك منطقة كبيرة تمتد لستة كيلومترات عموديًّا.

في الداخل كان قصر لويزا يعج بأغراض جوية وفضائية طريفة: كؤوس سباق، مظلات، حوامات رباعية، مَرْكبات الأورنيثوبتر [(33)] وما شابهها. كان رجل الأعمال الثري الذي جعل من لويزا أرملة ثرية لأحد أولئك الأشخاص المجدين في العمل الذين يحققون الإنجازات. وحين توقف قلبه عن العمل ترك لويزا في حال طيب، وصارت راعية محلية شهيرة للثقافة والفنون.

شرحتُ لها طموحاتي المتعلِّقة بالجواد.

حسنًا، كانت لويزا شديدة الحماسة لرؤية ليفي، وكأنها طفلة في العاشرة من عمرها. وعلى الفور رافقتني إلى المسبك المهجور الذي خبأتُ ليفي فيه. كان ليفي قد بات شديد القلق، وكانت سماته الخارقة تجعله شديد الاستثارة. كان أكبر حجمًا وأقوى جسديًّا من أي جواد عادي، وكان يشع بالحرارة وكأنه موقد.

كنت أخشى أن يُقدِم ليفي على عض لويزا، لكن لويزا كانت تعرف كيف تسحر الرجال والحيوانات على السواء. وسريعًا ما كان ليفي يأكل من يديها.

قالت لويزا وهي تعدِّل حافة قبعتها العريضة: «أعرف الفنان الحرفي الملائم لتصميم بذلة فضائية لهذا الحيوان النبيل. فمن أجل مغامرته العظيمة سيرتدي درعًا فولاذية محكمة، وكأنه سيغوص في أعماق البحار! حينها سيتمكن من ارتقاء أي برج وكأنه جواد حرب من الأيام الخالية!».

أشرت إلى صعوبة وضع جواد آخذ في النمو داخل صفائح فولاذية محكمة الغلق.

قالت لويزا وهي تمشط شعر الجواد النافر: «دعني أهتم أنا بأمر الملابس. إن الطب البيطري أحد الفنون الرفيعة! لنخرج هذا الجواد من هذا المكان القذر ونضعه في منتجع مناسب!».

بفضل الصداقة التي تجمعني بسيدة البرج الثرية هذه صارت مهمتي أيسر بكثير، لكن بعد ذلك أخذت الأمور منحى شخصيًّا.

- «لماذا إذن تريد الصعود إلى الفضاء الخارجي؟» هكذا سألتني وهي تحكم وضع اللجام بين أسنان ليفي الجديدة القوية.

قلت: «لم أفكر في السبب بعد».

- «حسنًا، من المؤكد أنك ستطير إلى الفضاء الخارجي! هذا ما يفعله الناس، هذا ما يفعله كل من يأتي إلى البرج العالي. هل تَحدد موعد الانطلاق الخاص بك بعد؟ يمكنني مساعدتك فيما يخص قائمة الانتظار».

- «لم أحسم أمري بعد».

- «أنت بشري فانٍ يا كودي جيننجز! قد تزل قدمك بفعل قطعة صابون وأنت في الحمام! حينها لن تصير كائنًا غير أرضي على الإطلاق!».

- «حسنًا، المشكلة يا سيدتي هي أن هذه المهمة تتعلَّق بجوادي بالأساس».

ردت لويزا في غلظة وهي تعقد حاجبيها: «أنت فلاح أخرق. أنت شخص أخرق خارج عن السيطرة. لا بد أن الحياة لم تغيِّرك كثيرًا يا كودي، ولا يزال أمامك الكثير كي تتعلمه عن الحضارة».

قد يكون كل هذا صحيحًا، لكني لم أكن مهتمًّا بهذا الدرس، قلت: «حسنًا، لماذا لم تنطلقي أنتِ إلى الفضاء الخارجي إذن يا لويزا؟».

قالت لويزا: «إنني أنتظر العثور على حبي الوحيد هنا على الأرض» ثم شرعت في الحديث بأسى عن هذا الموضوع طيلة الوقت المتبقِّي من النهار وحتى المساء.

اعترفت لويزا أن بحثها عن الحب الحقيقي كان يمثل لها المغزى من وجودها كامرأة، ولهذا لم يكن باستطاعتها الصعود إلى الفضاء الخارجي، وأن تتحول إلى كائن نجمي مخي طافٍ بتول، من دون العثور أولًا على توأم روحها الأرضي الحقيقي.

السيدات الراقيات يحببن رعاة البقر، وقد مر بعض الوقت منذ أن تركتني زوجتي، لذا توطدت العلاقة بيننا.

في البداية كان الأمر جميلًا، إذ حظينا ببعض المرح واعتنينا بموضوع الجواد، كما حققنا تقدمًا طيبًا في ترتيب الرحلة إلى قمة البرج العالي.

لكن ببطء بدأت أدرك أنني لن أكون البند الأول على قائمة لويزا؛ فمملكة الجمال تعشق شخصًا واحدًا وحسب: صورتها في المرآة.

صرت أنا وليفي مقيمين في الإسطبل الخاص بلويزا. صار ليفي يبدو كجواد نصف آلي بسبب أنظمة المراقبة والأجزاء المزروعة والمستشعرات الجديدة التي زُوِّد بها. أما أنا فكنت أشبه بتمثال برونزي لراعي بقر، موضوع داخل برطمان زجاجي.

لم نكن وحيدين كذلك. كانت لويزا إنسانة عطوفة، حتى بعد أن سأمت مني في الفراش. رتبت السيدة الشهيرة مجيء أفواج من السياح إلينا داخل قصرها.

كان عليَّ أن أجلس على طاولة الطعام المصنوعة من خشب الماهوجني مع شخص يدعى ريناتو. كنا نحن الاثنان نتنافس على حب سيدتنا الساحرة، لذا كان من المرجح أن يطعن أحدنا الآخر بالسكين. ومع ذلك فقد أخذنا نتشارك إبريق النبيذ البلوري الموضوع على طاولة الطعام، وقد رأى كلانا الجانب الهزلي في موقفنا.

أعجبت بريناتو كثيرًا، إذ كان شخصًا نشيطًا موهوبًا بارعًا له عين منحرفة إلى الجانب. كان بإمكان هذا الفنان رؤية أشياء لم يكن بمقدوري رؤيتها وفعل أشياء لم يكن باستطاعتي فعلها. رجل كهذا له قيمته.

- «نحن نعيش في حقبة متفرِّدة من تاريخ الفن». هكذا أسرَّ لي ريناتو ذات يوم بينما كنا نشرب بعض الويسكي المعتَّق في مكتبة لويزا محكمة الغلق. كانت هذه الغرفة الأنيقة مليئة بكتب عن الفن مجلَّدة تجليدًا فاخرًا، كتب لم يفتحها أحد منذ أربعمائة عام.

قال ريناتو: «حتى في عصور ما قبل التاريخ، كان البشر المبكرون يرسمون على الحجارة. لكن اليوم، نظل نحن البشر على هذا الكوكب كبقايا وقتية زائلة. إن جنسنا آخذ في التلاشي، إذ يهرب إلى النجوم. ونحن البشر نتقلَّب بين ماضينا البعيد كرئيسيات وبين حالة غير معروفة من التسامي».

قلت: «إذن، ما الذي يعنيه كل هذا يا ريناتو؟».

أخذ رشفة من كأس الويسكي وقال: «فيما يخص الممارسة الفنية لا يوجد اختلاف كبير. فقط اقتطع لنفسك مساحة للعمل بها وأنجز عملك. ثم اشحنه وأنت لا تزال معجبًا به. وإياك أن تثق في أي ناقد».

سألت ريناتو عما كان يعمل عليه أخيرًا؛ إذ كنت أعرف أن الفنانين يحبون هذا السؤال.

أراد ريناتو أن يريني عمله بصورة شخصية، لذا فقد تركنا قصر لويزا المهيب وعدونا منحنى نجاهد لالتقاط أنفاسنا، صاعدين مجموعة طويلة ملتوية من درجات السلم المعدنية.

دخلنا الاستديو الخاص به، الذي كان عبارة عن حجيرة محكمة الإغلاق يعلوها الصدأ، وكان كل شيء داخلها يفوح برائحة الطلاء واللحام والبلاستيك وملابس ريناتو المتسخة. ومع هذا فقد كان الاستديو يتمتع بإضاءة رائعة ويطل على مشهد جميل.

- «لقد وجدت طريقة لعمل لفتة إنسانية أصيلة، حتى في يومنا الحاضر». هكذا قال ريناتو وهو يجلس على كرسي عديم الظهر ثم شغل مصباح العمل وغلاية الشاي وأضاف: «أفعل هذا عن طريق إعادة بناء الأعمال القديمة لفنون الأداء. إن هذه العروض ترجع إلى حقبة كان فيها كل إنسان فانيًا، ولم يكن ثمة وجود لبشر خارقين».

- «حسنًا». هكذا قلت وأنا أسعل في يدي المضمومة. كان هذا الهواء الرقيق البارد قد استثار رئتيَّ بشدة.

قال ريناتو: «إن إحياء العروض الفنية أشبه بإذابة الجليد عن ضفدع، فإذا قفز الضفدع يعني هذا أنه على قيد الحياة».

قلت: «أفهم ما تعني. الأمر مماثل لعزف أغنية قديمة من أغاني المخيمات». كانت بعض الأغاني قديمة للغاية، ومع ذلك فقد كانت تثير الشجون بقوة.

فتح ريناتو كتابًا ورقيًّا وأراني التوصيف الأرشيفي لأعماله الفنية. كان التوصيف مكتوبًا بلغة أوربية مندثرة، وليس الإنجليزية.

سألته: «ما المقصود بالكاميرا البولارويد؟».

قال ريناتو وهو يغلق الكتاب: «كنت أتساءل عن الأمر عينه أيضًا. إن تلك الأجهزة آلات مندثرة تنتمي إلى تكنولوجيا منقرضة منذ زمن بعيد. وكجزء من تدريبي الفني أعدت بناء نسخة عاملة طبق الأصل من الكاميرا البولارويد». ثم فتح ريناتو دولابًا بمفتاح أخرجه من سروال العمل الذي يرتديه.

وضع ريناتو ذلك الجهاز العجيب أمامي، ثم ضغط على زر التصوير. صدر أزيز ثم خرجت شريحة بلاستيكية من الكاميرا. كانت الشريحة بيضاء خالية تمامًا، لكن ريناتو أخد يهزها.

بعد ذلك أخذت صورة تظهر عليها، وكأنها كدمة ملونة تظهر أسفل جلد سليم. كانت هذه «صورة فوتوغرافية» لي. وفي هذه الصورة كانت الدهشة واضحة على وجهي.

قلت له: «أيمكنني الاحتفاظ بها؟».

ابتسم ريناتو وقال: «الكل يطلب هذا! بالطبع يمكنك الاحتفاظ بها يا صديقي! فأنا فنان، وهذه هي هداياي للناس!» ثم ناولني الكاميرا وقال: «هيا، فلتجربها بنفسك».

ضغطتُ على الزر الأحمر بإصبعي، واهتزت الكاميرا في يدي، ثم خرجت شريحة بلاستيكية منها.

كانت صورتي الفوتوغرافية معوَّجة ومشوَّشة، لكنها كانت قطعة حيَّة من الواقع. نظرت إلى الصورة ثم إلى المشهد الذي صوَّرتُه، ثم نظرت إلى الصورة مجددًا.

من ذا الذي يمكن أن يفكر في مثل هذا الإنجاز المذهل؟ إن جنسنا البشري مذهل بحق. قلت: «إن فنك التصويري رائع للغاية يا ريناتو! لقد أثرت انبهاري».

قال ريناتو: «ما الكاميرا إلا أداة تقنية وحسب، أما الفن الأدائي فهو تجربة مختلفة تمامًا».

- «حقًّا؟».

ناولني ريناتو مظروفًا مصنوعًا من الورق. كان ثمة صورة صغيرة ملصقة على المظروف لزعيم سياسي من الزمن الغابر، وعليها شعار مكتوب بلغة مندثرة.

كنت أشعر بارتباك شديد، بسبب كل تلك الأشياء الرائعة الموجودة في عالم الفن التي لم أكن أعلم شيئًا عنها.

قال ريناتو: «هذا ما كان يطلق عليه في الماضي «مظروف البريد»، إذ كان الناس يكتبون أخبارهم، بالحبر، على قطعة من الورق ثم يضعون الرسائل الورقية في تلك المظاريف ويغلقونها. كانوا يكتبون العنوان على المظروف ويشترون هذا الطابع الصغير من الحكومة، وبعد وضع هذا الطابع تُحمل هذه المظاريف بواسطة موظفين حكوميين يرتدون زيًّا موحدًا إلى أي مكان على ظهر الكوكب!».

لم أتخيل من قبل وجود شيء كهذا. كان هذا أكثر إثارة للذهول من الصورة الفوتوغرافية.

قال ريناتو: «فكر في تلك الشبكات الشاسعة من الأوراق المتنقلة! مليارات الخطابات المغلقة المحمولة من المرسلين إلى المستقبلين! لقد استمرت الأنظمة البريدية لقرون، عابرة نطاقات زمنية ومكانية هائلة. هذا هو التاريخ، وهو صحيح بالكامل».

قلت: «أنا محظوظ لرؤية هذا». لطالما ظننت أن البرج العالي هو أعظم شيء شيدته يد البشر على الإطلاق، لكنني أدركت الآن أننا كنا قادرين على إنجاز أمور أخرى عظيمة.

أومأ ريناتو ردًّا على مجاملتي وقال: «الفن الأدائي كالتالي: اعثر على امرأة تظن في نفسك أنك قد تحبها، لكنك لن تحبها بالفعل مطلقًا. التقط صورتها بالكاميرا البولارويد، وقبل أن تظهر الصورة ضعها داخل المظروف. بعد ذلك أغلق المظروف، ولا ترسله إلى أي شخص».

لوقت طويل فكرت كثيرًا في هذا الطقس العجيب. كان ثمة شيء عميق، مقدس، بل مخيف، بشأن هذا الشيء العتيق الذي عرفني ريناتو عليه. كان هذا الفن الأدائي، بطريقته الخاصة، أكثر إرباكًا من طقوس المجوس وطيورهم الجارحة الآكلة للحم.

كان ثمة شيء خاص، شيء مرتبط بالبرج العالي، بشأن الموقف الذي وجدت نفسي فيه. كان هذا الطقس يحاول التحدث إليَّ، وكنت على شفير الفهم.

كي أختبر نفسي، أخذت الصورة الفوتوغرافية ووضعتها داخل مظروف البريد. توافق هذان الغرضان معًا بشكل طيب: هذا الغرضان المنسيان منذ زمن بعيد، هاتان التقنيتان المندثرتان، كانا قد صُمما كي يتوافق أحدهما مع الآخر. ولن يتحدا معًا بعد ذلك أبدًا.

نظرت إلى ما فعلت، وأمسكته في يدي، وصرت أفهم الفن الأدائي. شعرت به بطريقة مفاجئة مؤلمة صامتة أقرب إلى الطريقة التي يتفهَّم بها الجواد ضربة السوط.

ناولني ريناتو الكاميرا وقال: «صديقي، لقد صنعت هذا العمل الفني. الآن عليك أن تصنع عملك الفني أنت أيضًا».

وهكذا، بفضل هذا العون من جانب زميل سخي، صرت فنانًا أدائيًّا. وقد نجح عملي الفني، نجح بالدرجة عينها التي نجح بها مع أي بشري آخر فيما مضى.

صارت رحلتي إلى القمة برفقة ليفي عملنا الفني الخاص.

بعد أن صرت أطلق على نفسي لقب فنان تمكنت من التقدم نحو هدفي. واستطعت خطوة بخطوة أن أرسم طريقًا، وأن أجمع الموارد، وأن أصنع المعدات التي أحتاجها. كانت هناك مشكلات هندسية، لكن لو وصفت نفسي بأنني مهندس لكان قاطنو البرج العالي قد منعوني من أن أجرب حظي، بل ربما كانوا يسجنونني. تطلَّب التعامل معهم حنكة وسعة حيلة، وكان الفن مفيدًا في حل المشكلات.

كان قاطنو البرج أشخاصًا راقين معقدين راسخين في هذا المكان. كانوا مواطنين في مَعلَم عظيم، ويسكنون مركزًا دينيًّا عظيمًا. ولهذا السبب فقد كانوا أشخاصًا فاسدين.

لم يخبروني قط بكل ما يعرفونه، ولم يقصدوا قط كل ما كانوا يقولونه. كانوا يستخفون بأمور لم يكن من المفترض الاستخفاف بها، وكانوا يقطعون وعودًا لا ينوون الوفاء بها.

كان بعضهم يكرهني، ويتمنى لي الفشل، ويريد بي السوء. كان أسوأ أعدائي داخل البرج العالي هم الأشخاص الشبيهين بي.

كان أسوأ الأشخاص هم المتطفلين أمثالي، الدخلاء أمثالي، الغرباء الآتين من البرية. كان البرج يأوي أناسًا كثيرين، لكن لم يكن هناك أبناء حقيقيون للبرج.

فوق العنق، حيث يصير البرج العالي نحيفًا، ولكن أسفل القمة - حيث يتسع البرج - توجد منطقة برية.

كانت هذه المنطقة البعيدة شديدة التجمد وعديمة الهواء ومعادية للبشر حتى إن أحدًا لم يكن يحب الوجود فيها. كانت هذه المنطقة الفولاذية الوعرة تضم كل نقيصة يتسم بها البرج، دون أيًّا من مباهجه وسحره.

كان البرد قارسًا هناك، والهواء منعدمًا، وتنتشر بالمنطقة إشعاعات قوية، وكانت في حال رثة. أيضًا كانت المنطقة في حالة حركة دائمة، ففوق العنق كان البرج يتأرجح ويتمايل.

كان الأشقياء يفرون إلى هذه المنطقة، لأن بمقدورهم الاختباء بها دون أن يقترب منهم أحد. كانوا مختبئين، لكن على هذا الارتفاع العالي كانوا يرون أشياءً لم يكن يجدر بهم رؤيتها، كان مطاريد الجبل هؤلاء يمتلكون عيونًا كعيون الصقر.

صعد رجال آخرون إلى هناك أيضًا لأنهم أُمروا باستعادة السيطرة. كانوا رجالًا أشداء، أقوياء، جنودًا مخلصين.

لكن مع مرور الوقت تغيرت الأحوال، ولم يستطع الرجال الموجودون في أعالي البرج العالي - قطاع الطريق والجنود - أن يظلوا أعداء. فقاطع الطريق الذي يغير مبادئه يصير من صائدي اللصوص، والجندي الذي يرتكب إثمًا لا يليق ببذلته العسكرية يصير أمير حرب. وما إن علموا أن الباقين يخشونهم حتى وجدوا رابطًا يجمع بينهم.

صعدت نساء ذوات نيّات خبيثة إلى هناك سعيًا خلف هؤلاء الرجال الأشقياء، وولد أطفال أشقياء.

لم يكن قاطنو المرتفعات العظمى هؤلاء يأبهون البتة بالخير أو الشر وفق المعايير السائدة بالأسفل. كانوا عراة، وقحين، بسطاء. كانت أرضهم الفولاذية

الجرداء فقيرة وبائسة، مجردة من أبسط أساسيات الحياة على الأرض كالماء والهواء والتربة.

لقد تسبَّب أحدهم في معاناتهم، وسيتعيَّن على أحدهم أن يدفع الثمن.

أما قاطنو البرج الأكثر رقيًّا وكياسة وتعقيدًا فكانوا يخافون من تلك القلة الشرسة التي تقطن المنطقة المقفرة الواقعة فوق رؤوسهم. لكن مع مرور الوقت وجدوا أن عليهم أن يدفعوا المال لهؤلاء الذين يخشونهم. في الغالب كان الأشخاص المسالمون يدفعون المال كي يتركوا لحالهم، وهذا أسوأ صور الدفع؛ لأنه كان يضمن بقاء الخارجين على القانون على حالهم هذا.

ومع مرور مزيد من الوقت خلق قاطنو البرج أعرافًا اجتماعية من مشكلاتهم؛ إذ باتوا يدفعون لهؤلاء الأشرار مقابل القيام بأمور بغيضة كانوا هم أنفسهم يرغبون سرًّا في القيام بها. وأغلب تلك الجرائم كانت تحمل مسميات بشرية قديمة.

لكن بعض الجرائم كانت جديدة، وكانت أفدحها تلك المتعلقة بجهاز ضخم بُني داخل هيكل البرج. كان الجهاز عبارة عن آلة إطلاق فضائي عاملة، لكنها عتيقة الطراز، وكان الناس يطلقون على هذه الآلة اسم «السوط».

كان السوط جهازًا كبيرًا قويًّا، مركبًا في البرج أعلى العنق مباشرة. كان السوط أشبه ببكرة حرة الدوران في سنارة صيد عملاقة.

كان هذا السوط مزودًا بحبل صيد قوي، علاوة على عجلات معشَّقة وأثقال موازنة. كان السوط تقنية فضائية جوية من اختراع البشر، مشيَّدة بتكلفة عظيمة.

كان السوط مصممًا كي يعلق بأي ثقل على سطح الأرض؛ ونعني بهذا أي جسم متوسط الحجم له شكل البرميل أو قفص التخزين، أو ربما قنبلة ذرية.

بعدها يدفع السوط هذا الجسم إلى أعلى بسرعة جنونية ثم «يطرقع»، فيلقي السوط حمولته نحو السماء بسرعة خاطفة تفوق سرعة الصوت.

لو كان هذا الجسم المقذوف صاروخًا، فإنه يشغل محركاته ويطير نحو المدار، ولو كان هذا الصاروخ يحمل مسامير من الصلب فمن الممكن أن ينفجر.

كان الصاروخ المليء بمسامير شيئًا قاسيًا مميتًا؛ إذ من شأن حمولة دلو من المسامير المصنوعة من الصلب، والمتناثرة كخردة فضائية لاسعة، أن تمثل خطرًا منتشرًا طويل العمر يخشاه السادة السامون أنفسهم.

من ذا الذي لا يخشى رجلًا لا يخشى إثارة غضب الآلهة؟

كان قاطنو البرج العالي يخافون من السوط خوفًا شديدًا. كما كانوا أيضًا شديدي الفخر به، فكانوا يحترمون ويؤلهون من يجرؤ على امتلاكه. كان ذلك الطاغية الجبار واحدًا منهم على الدوام، طاغية العالم السفلي القابع في قلب عالمهم الفولاذي السامي.

كان هناك العديد من هؤلاء الطغاة في البرج العالي، ونصب كل واحد من هؤلاء المجرمين الجسورين نفسه ملكًا بالحديد والدم، واتخذ اسمًا ولقبًا خياليين، يتناسب مع الحكايات الشعبية لقاطني البرج، على غرار «زعيم الزعماء» و«البطل الطائر» و«سيد السماوات» و«الرجل الفولاذي» و«المهندس الأعظم»، أعتقد أن الفكرة باتت واضحة.

لم يقر أحد صراحة بوجود هذا الجانب المظلم في البرج العالي. لم يكن الأمر مجرد مسألة هندسة أسيء استخدامها، فهذا الجانب المظلم كان بشريًّا. كان الجميع متورطين، ولم يكن هناك أبرياء.

وبدلًا من انتقاد الموقف علانية، كتب الضحايا أغنيات ساخرة عن ورطتهم. جُرِّبَت كل الحلول النظيفة البسيطة لهذا الموقف، وفشلت، مرارًا وتكرارًا.

كل جيل أو جيلين تظهر مجموعة من الشباب الجسور المتمرد الذين يوحدون صفوفهم ويتقدمون إلى أعالي البرج، ويطيحون بالطاغية الدموي ويدفعون ثمن هذا بدمائهم هم.

لكن بمجرد أن يصير هؤلاء المغامرين وحدهم بالأعلى، وتصير بيدهم مقاليد الأمور، سريعًا ما يدركون أنهم يمسكون السوط الذي يسيطرون به على الناس. لقد كان السوط هو الإنجاز البشري الأنبل في البرج العالي، ولم يجرؤ أحد على تفكيكه.

كي نصل أنا وليفي إلى قمة البرج العالي، وكي نكمل رحلتنا، علينا أن نجتاز هذه الصعاب. كانت الصعاب عديدة، بينما كنت أنا وليفي وحيدين، مجرد رجل وجواد.

حاولت اجتذاب مؤيدين لي من أتباع زعيم المجرمين الشهير الذي يسيطر على السوط. كان هذا اللص يدعى «رائد الفضاء»، وكي نفي الرجل حقه فقد كان بالفعل ذا قوة بدنية هائلة.

كان رائد الفضاء قد ركب صاروخًا بدائيًّا متصلًا بالسوط، ثم ألقى السوط برائد الفضاء نحو مدار الأرض، وبهذا رأى الفضاء الخارجي رأي العين. كما أنه نجا من الهبوط على سطح الأرض. لقد ذهب رائد الفضاء إلى الفضاء الخارجي وظل مع هذا بشريًّا.

هذا الإنجاز المذهل جعل الرحلة التي أعزم القيام بها برفقة جوادي شيئًا تافهًا. لقد ركب رائد الفضاء صاروخًا إلى المدار، بينما كنت أحاول صعود البرج العالي على صهوة جواد. كان طلبي متواضعًا، لكن شعر رائد الفضاء بالغيرة على صورته، لذا رفض الاستماع إليَّ، إذ كنت لا أضاهيه مكانة.

بمقدور البشر أن يبنوا شيئًا عظيمًا. وأحيانًا نفعل هذا بالفعل. لكن حينها يكون لزامًا علينا أن نتعايش مع تبعات هذه العَظَمة. ما الذي يخبرنا به أي شيء عظيم عن أنفسنا؟ ليس لأننا عظماء وإنما أن الأشياء العظيمة التي نبنيها شديدة الندرة، ويساء استخدامها كثيرًا. ثمة أشياء عظيمة كثيرة في أحلامنا، لكن لا يتحقق منها على أرض الواقع إلا أقل القليل.

بعد أن تعرفت على هذا الجانب المظلم الفاسد، بكل تفاصيله السرية المخزية، وبعد أن استوعبت هذه الأخبار السيئة، أدركت أنني صرت واحدًا من أبناء البرج العالي. فمن خلال علاقتي الحميمة بهم صرت أنتمي إلى حضارتهم. صرت أفكر مثلهم، وأشعر مثلهم، وأعيش مثلهم. وبعد أن رأيت الكثير من هذه الظلمة داخلي، بدأت أحبهم من أجلها.

ومع هذا فقد استمرت رغبتي في الصعود إلى قمة البرج العالي. كانت هذه الرحلة تتعلق بالاتحاد بيني وبين جوادي، وكان ليفي يتحرَّق شوقًا للذهاب.

كان ليفي دائمًا أفضل مستمعٍ إلى مشكلاتي، وقد صار جوادًا خارقًا بمعنى الكلمة الآن. لقد تحوَّل إلى قوة حية من القوى الخارقة للطبيعة، أما عن الشكوك والمخاوف البشرية التي أعاني منها فلم يكن ليفي يملك أيًّا منها.

جعلتني مشاهدة ليفي في حالته الحالية أدرك الإمكانات الواعدة للدم الحار والقلب النابض. كان ليفي جوادًا نبيلًا، وكان فاتنًا.

بعد أن أخفقت في حل جميع مشكلاتي الإنسانية، صرت أترك العنان لليفي كي يقودنا. كان ليفي مستعدًّا للمغامرة، وكان متلهفًا. كان جوادًا عظيمًا يشب ويخطو وهو في بذلته المصنوعة من الصلب اللامع.

حين انطلقنا، أنا وليفي، نحو قمة البرج العالي كان لدينا جمهور ليس بقليل يشجعنا على المضي قدمًا وإلى الأعلى.

لم يلق ليفي أي خطاب وداع مؤثر على الناس، ولم أفعل ذلك بالمثل. فعلى أي حال كنت داخل بذلة محكمة الإغلاق، مثله تمامًا، بذلة فضائية مصنوعة بالمنزل. وبفضل صفائح الصلب المتداخلة المغلقة بحلقات مطاطية كان ليفي يبدو وكأنه خرتيت فولاذي.

مضينا إلى الأعلى في ذلك اليوم الأول المجيد، وكانت حشود من الأطفال السعداء تحيط بنا وتحيِّينا، بينما راهن أصدقائي الأعزاء على أنني لن أعود حيًّا.

تركنا شوارع المدينة الدنيا وشرعنا في الصعود.

كان هناك الكثير من الشوارع، ثم عدد أقل من الشوارع، ثم المزيد والمزيد من الهواء الخالي.

بحلول غروب الشمس كنا قد وصلنا إلى حي سكني شديد الرقي، إذ كان الهواء أبرد وأنقى وكان البرج يضم في هذه المنطقة السكنية العديد من الفيلات والشاليهات. كانت جميع الطرز المعمارية التقليدية موجودة هنا، ووصلت إلى حالة من التناغم الإنساني التام. كانت هذه أماكن السكنى الراقية داخل آخر صروح البشر العظيمة، وكانت تتسم بالذوق الرفيع والأناقة.

وصلت إلى المكان الذي اخترت أن يكون بمنزلة معسكر الاستعداد الخاص بي وكان داخل ضيعة تمتلكها صديقة خدومة. قضيت هناك يومًا أعمل على إصلاح التسريبات وأعتني بقرحة على قائم ليفي الخلفي. كنا بصدد ماراثون طويل، ولا تزال الأجزاء الصعبة تنتظرنا.

في اليوم الثالث واصلنا الصعود دون كلل، وأخذت المساكن البشرية تتلاشى أسفلنا. وجدنا أنفسنا في منطقة بها آلات مكشوفة، وتكثر بها الأعشاب الجبلية المزدهرة. كانت الطيور المهاجرة قد جلبت بذور هذه النباتات شديدة التحمل التي تشيع في جبال روكي في روثها.

بحلول مساء اليوم الرابع كنا قد تجاوزنا خط الثلج الخاص بالبرج. كان الهواء يمر في رفق عبر عشرات الثقوب في بذلتينا.

أسرفت في استخدام مادة الإيبوكسي اللاصقة التي جلبتها معي. كانت تجف من دون هواء، وتصير شديدة الصلابة بمجرد جفافها. مع كل كيلومتر من الارتفاع كنت أنا وليفي نكسبه، كنا نفقد قدرًا من المرونة. وبدا درع ليفي النبيل اللامع مرقعة كجلده.

في هذه البقاع الأكثر إقفارًا كنا لا نزال نرى بعض الأثرياء الذين يعيشون في حجرات الضغط الخاصة بهم، ويلوحون لنا من وراء الألواح الزجاجية المانعة.

على مدار بضعة كيلومترات رافقنا بعض رجال الصلب الأشداء في جراراتهم المعزولة. وأحيانًا كانت تحلق طائرة دون طيار فوقنا وهي تحمل لافتة تشجيعية، أو يقص علينا أحد المتشككين طُرْفة بارعة، أو تأتينا رسالة تشجيع من سيدة معجبة بعملنا.

بعد ذلك صار صعودنا صعبًا، وصرنا وحيدين. كان معظم الناس يحجمون ببساطة عن الصعود إلى هذه الارتفاعات؛ إذ إن العيش من دون هواء أسوأ بكثير من العيش من دون ماء، رغم أن نقص الماء من شأنه أن يدمر كل الكائنات الحية.

بينما واصلت الصعود برفقة جوادي، أمكنني مشاهدة كل أنواع الابتكارات والطرق العشوائية والعجيبة؛ فرأيت فقاعات مطاطية ضخمة، وجراجات أشبه بأكوام من ماصات الصودا، وعربات ذات عجلات كانت تهبط إلى الأسفل كي تمتص بعضًا من الهواء النقي ثم تعاود الصعود إلى ارتفاعات عالية، ومكيفات هواء تجمد الأكسجين في دلاء فولاذية ثم تنشر هذا الهواء حتى يتسنى للناس التنفس بدرجة ما.

كانت هناك مآوي مليئة بالأشنات والبرنقيلات، تمتص شذرات الهواء وتحبسها داخل سائل رغوي، ولا تسمح للهواء بالتسرب منه إلى الخارج. لم تكن هذه المآوي البشرية الموجودة في الفراغ مسكونة بعد. فبعد مائتي عام من وجود البرج، لا تزال هذه الصحراء الفولاذية العظيمة متمسكة بسماتها الخاصة. وعلى مسافات شديدة التباعد كنت ألمح وجهًا بشريًّا شاحبًا ملتحيًا مجنونًا يحدّق فيَّ من وراء زجاج كوة مَخبأ مصنوع من الصلب ...

أنا أيضًا وجدت نفسي متورطًا في صراع عنيف مع طموحاتي الكبيرة.

كانت بذلتينا، أنا وجوادي، تتصلان من منطقة السرج وصارتا فقاعتين منتفختين بالهواء الآخذ في النفاد. ومع كل خطوة نخطوها كان يحيق بنا خطر الموت اختناقًا وتجمدًا. كما أخد البخار يتراكم على زجاج خوذتينا الزجاجيتين بفعل أنفاسنا المتعبة.

في صعوبة، كنت أتمكن من جذب يدي من كُم بذلتي الفضائية، وأمد أصابعي داخل الخوذة كي أمسح الندى المتكثف على زجاج الوجه. أمكنني هكذا أن أرى بالقدر الكافي حتى أتمكن من توجيه الجواد، لكن بعد ذلك بدأ الصقيع يتجمَّع على خوذتي. كان ذلك بسبب دفء جسدي ورطوبته الملازمين لي.

بسبب هذا الصقيع كان من الصعب علينا أن نرى العقبات التي تواجهنا، تلك التي تحت أقدام ليفي المطاطية الكبيرة مباشرة.

كنت قد صنعت خريطة ورقية للمنطقة المرتفعة، اعتمادًا على أفضل النصائح المستقاة من المستكشفين، لكن على ارتفاع ستة كيلومترات أطاحت عصفة ريح عنيفة بالخريطة وحملتها معها وكأنها ورقة شجر.

بعدها صرت مضطرًّا للاعتماد على غريزة ليفي. وإحقاقًا للحق فقد كان ذلك الجواد الخارق جسورًا ولا يكل. كان ليفي يتغذى وريديًّا ويستنشق الأكسجين النقي، وكان يتسلق المرتفعات في مهارة ماعز الجبل.

كنت أدرك من رائحة عرق ليفي الغزير أنه يعاني كثيرًا، لكنه مع ذلك كان يفهم هدفي. ولو أنني مت وأنا أمتطيه فسيحمل جثتي إلى المرتفعات.

لم تفلح الأسيجة المتكسرة ولا السلالم المتداعية ولا أكوام الآلات المعطوبة ولا مشهد الصحراء المقفرة المسبب للدوار في النيل من عزيمة جوادي. كان يرتقي السلالم المعدنية درجتين في القفزة الواحدة، ورغم أنه كان ينوء تحت ثقل درعه الفولاذي فلم يكن يتردد في القفز مطلقًا.

في بعض الأوقات، حين كنا ندور حول منعطف مقفر ما، كانت الفرصة تتاح لنا لمشاهدة الارتفاع المهيب الذي وصلنا إليه. كنا نرى تقوس الأرض، وطبقات الضباب في الغلاف الجوي، ونرى الطائرات تطير أسفل منا، صغيرة ولامعة وكأنها فراشات، ونرى السحب الرمادية الطويلة الملاصقة للبرج العالي، وهي تلتوي وتتجعد بفعل تيارات الهواء القوية الملاصقة للبرج.

صارت الملامح الطبيعية لسطح الكوكب أكثر إبهامًا مع المسافة، فتحولت المنازل إلى نقاط، والطرق إلى خطوط رفيعة، والأخاديد إلى عروق دقيقة

ملتوية، وبدا كل شيء بعيدًا أسفل طبقات الضباب المغبرة ذات الألوان المتعددة.

في الليل، كانت عمليات الإطلاق الكمومية تجري في قلب البرج العالي. وبينما كنا ننام في صعوبة، ونتعرق داخل بذلتينا الفضائيتين محكمتي الإغلاق، كان يراودنا إحساس مقبض بحركة غير طبيعية، إحساس بسرعة زمكانية عنيفة تفوق بمراحل أي سرعة أرضية، وكانت تلك الإحساسات المهيبة تتسلل داخل جلدي وجلد ليفي المتغضِّن، وسمعت جوادي يخور في ذلك المجال الجوي المحدود الملوث الذي كنا نتشاركه.

أحيانًا كنت أترجَّل عن صهوة الجواد. كانت صمامات الإغلاق تعمل جيدًا، لكننا كنا نفقد قدرًا معتبرًا من الهواء خلال هذه العملية. ومع هذا فقد كان عليَّ أن أتحرك كي أخفف من حدة آلام جسدي وتيبُّسه، وأيضًا كي أتخلص من أسطوانات الأكسجين الفارغة وأخفف الحمل عن كاهل ليفي.

حالفنا الحظ عند اجتياز الرياح الأسطورية في المرتفعات. كانت تلك الرياح موجودة، وكانت على وشك أن تطيح بنا، لكننا أسرعنا الخطى، وسريعًا ما هدأت حدة الرياح قبل أن نتأذّى منها.

بعد أن اجتزنا محنة الرياح، صعدنا إلى مكان غريب ساطع صامت، كانت الشمس فيه شديدة السطوع وتبدو وكأنها عملة ذهبية، أما الأسطح العارية المسفوعة فبدا شكلها عجيبًا؛ فكانت بقع الصدأ تتقشر وكأنها طلاء أظافر. أيضًا كان الغبار الكهروستاتيكي يعلق بنا، ثم يتراكم علينا في موجات صغيرة من السخام الحي، ثم ينفض عنا بسرعة مخيفة.

كانت ثمة اهتزازات بطيئة تسري في أرجاء البرج العالي المعدني. احتوت بعض الشقوق المظلمة على بعض الثلج الجاف، أو على مادة متجمدة قذرة ليست في حقيقتها بماء. كانت الأشياء تتحلل على هذا الارتفاع، لكنها كانت تتحلل عبر طرق غير معروفة للكائنات الحية. كان تحللًا فضائيًّا في بيئة عديمة الهواء.

كانت هناك اهتزازات رنانة، وأحيانًا دمدمات عنيفة مخيفة، لكن لم يكن هناك هواء كي ينقل أي ضوضاء مسموعة. كانت كل سقيفة وقلعة ذات ضغط عادي تبدو رمادية، مسفوعة من الشمس، وقديمة بالكامل.

لم تكن هناك أي إشارات تحذيرية فوق منطقة العنق، حيث يقطن القوم العدوانيون. لم تكن هناك أي إشارة للحياة يمكن أن يتفهمها شخص عاش حياته كلها على سطح الأرض، لكن كانت توجد آلات عملاقة مهجورة، وتوجد أيضًا فخاخ قاتلة. على هذا الارتفاع يمكن لسلك شائك بسيط أن يقتل رجلًا، إذ بمقدور السلك أن يمزق بذلته. كانت الأسلاك الشائكة موجودة بوفرة، في أكوام ولفات أفعوانية.

حدث أن قطع ليفي سلكًا رفيعًا لأحد الفخاخ، وكان من المفترض أن يؤدي هذا إلى انهمار كتل خرسانية علينا بحيث تسحقنا سحقًا. بيد أن هذا الفخ كان منصوبًا منذ عقود بعيدة، وتسبب الغبار الإستاتيكي في تثبيت القطع الخرسانية معًا.

كانت هناك متاهة من الأنابيب الواسعة البيضاء، ملفوفة في شريط لامع محكم الغلق. استقرت ألواح شمسية مائلة في أعشاش صغيرة من الأسلاك الكهربائية الملونة، وفي بعض الأحيان أمكنني أن أرى جدولًا صغيرًا من مياه الصرف المتجمدة، في مناطق ليس من المفترض وجود مياه فيها من الأساس. كانت ثمة آلات تعمل هنا، لأنني أحسست بدقاتها المنتظمة، وكان

بعض هذه الدقات مشؤوم ومتعمد، وكأن ثمة يد بشرية ترسل شفرات باستخدام هذه الدقات.

يسعدني أن أزعم أن الشجاعة والمهارة هما ما أوصلانا إلى قمة البرج، لكن في حقيقة الأمر كان الحظ والإصرار العنيد هما السبب. حين وصلنا إلى القمة في النهاية كنت شديد الإرهاق، متعرِّقًا وأعاني من القرح، لدرجة أنني توقفت عن إحصاء أسطوانات الأكسجين اللازمة لرحلة العودة.

صعدنا درجة السلم الأخيرة نحو القمة المسطحة للبرج. كان البرج العالي كبيرًا للغاية، لدرجة أن قمته العظيمة المسطَّحة كانت أشبه بساحة عملاقة خالية، مدينة أشباح مهجورة عديمة الهواء.

علمنا أننا وصلنا إلى القمة حين لم نجد أي شيء آخر كي نصعده؛ إذ لم يكن هناك سوى السماء الداكنة والنجوم المرئية في ضوء النهار والأقمار الصناعية اللامعة التي يطارد بعضها بعضًا في أرجاء السماء بطريقتها الثابتة المهيبة.

وعلى مدار ساعة من السير الشاق أخذت أنا وليفي نجوب الشوارع عديمة الهواء للكازينو المهجور منذ زمن بعيد، والمغطَّى بطبقة رملية رفيعة بدت وكأنها من غبار النيازك. كنت أبحث عن أي تذكارات يمكنني استلابها كي أثبت للناس أنني صعدت إلى القمة فعلًا.

حينها لاحظت آثار أقدام، أقدام عارية همجية في الغبار المحبب، عند قمة البرج العالي ذاتها.

تتبعتُ أنا وجوادي هذه الآثار، وسريعًا ما وجدت علامات عديدة لأصابع أقدام وكعوب، بل ولطخات لأصابع يد، تخص رجالًا رشيقي الحركة يعدون ويسقطون ويطأ بعضهم بعضًا في خطوات عُجلى.

بعد ذلك وجدنا الطقس الهمجي. كان هناك شباب عراة شرسين، وقد دهنوا أنفسهم من قمة الرأس إلى أخمص القدم بدهان الحرب. وفي هذا الطقس المقدس، هذا العرض الطقسي السري، كانوا يلقون بأجسادهم البشرية العارية من قمة البرج العالي نحو الأرض البعيدة بالأسفل.

كان هؤلاء المنتسبين الجدد لهذه الطائفة الغامضة يلقون بأنفسهم، في تهور وهم يلهثون، فيسقطون سقوطًا حرًّا نحو كوكبهم الأم. كانوا قد بنوا منصة للقفز هي عبارة عن كتلة متشابكة من الحبال والقطع الخشبية. كانوا يلقون

بأنفسهم من عليها وهم عراة لا يرتدون شيئًا سوى مظلات صغيرة عجيبة الشكل.

وكي يحظى هؤلاء المراهقون الجامحون بشرف القفز في الخواء كان عليهم أن يجروا بين رفاقهم الأكبر سنًا ويتحملوا ضربهم لهم.

كان هؤلاء الرفاق الأكبر سنًا والأكثر حكمة يرتدون ملابس غوص وخزانات مرتجلة تشبه الرئات المائية، كما كانوا يحملون أيضًا عصيًّا طويلة يبرحون به هؤلاء الصبية العراة ضربًا، هؤلاء الصبية الذين كانت ضلوعهم تنتفض في عنف بسبب الفراغ الخاوي، قبل أن يلقوا بأنفسهم في سعيهم المحموم إلى بحر الهواء النقي الموجود بالأسفل.

كان هؤلاء الهمج المولودون في هذه الارتفاعات عديمة الهواء - الذين تربوا داخل حجيرات مغلقة بإحكام ومن ثم كانوا شاحبين كالأشباح - يؤدون هذا العمل العجيب ليس لأنه يسير، بل لأنه كان صعبًا.

كانت هذه المعاناة الروحية فنًا نبيلًا، وقد دنَّستُ هذا الفن؛ إذ رآني الكبار حين تدخلت وكانوا شديدي الغضب لذلك. عمت حالة من الارتباك، وأخذ العدد القليل المتبقي من المغامرين الصغار يتشنَّجون ويفقدون الوعي. أما المحاربون الأكبر سنًا، الذين كانوا يضعون أقنعة تنفس، فلم يعرفوا ما إن كان من الأفضل أن يقتلوني على الفور أم أن ينقذوا رفاقهم المختنقين.

كان ليفي هو مصدر خلاصي. لقد ارتكبنا إثمًا عظيمًا، لكن أشد المحاربين تهورًا لم يكن يرغب في مواجهة هذا الجواد القوي، ذلك الخرتيت العجيب المصفح بالفولاذ.

في نظر أبناء المرتفعات هؤلاء كان كائنًا مثل ليفي يمثل أعجوبة حقيقية.

لم نتبادل أي حديث - إذ لا يوجد هواء كي ينقل الصوت من الأساس - لكنني أوضحت لهؤلاء الهمج بإشارات اليد أنه بغض النظر عن المصير الذي سألقاه، فسألقاه أنا وجوادي معًا.

استحققنا، ليفي وأنا، العقاب بسبب الإهانة التي سببناها، لكن في نظر هؤلاء الهمج كان فعلنا المسيء، العجيب وغير المتوقع في نظرهم، يحمل دلالة روحية غامضة. لقد كان تعدِّينا بمنزلة علامة.

كانت علينا مغادرة الأرض المقدسة أعلى البرج في اتجاه من اثنين: إما إلى الأسفل أو إلى الأعلى. حين تدبَّر الحكماء من هؤلاء الهمج الموقف وجدوا أنه لا بأس من الانطلاق إلى أعلى، ولا بأس أيضًا بالسقوط إلى الأسفل. المهم في الأمر أن نغادر وألا نعود مجددًا.

لم نكن، أنا وجوادي، نكترث بالقفز من على المنصة إلى حتفنا، لكنني رأيت أن من الأفضل أن نُقذَف معًا إلى الفضاء الخارجي.

تطلب الأمر بعض التفاوض مع رائد الفضاء - وكبار معاونيه روبر وفيرنر ويوري - لحسم هذا الموقف المعقد.

لكن مع مرور الوقت صرت معتادًا على طرق معيشة أبناء البرج. صادقتُ بعضًا منهم، وأحيانًا تمكنت من حمل هؤلاء الناس على رؤية أشياء معينة لم يكن بمقدورهم أن يروها في أنفسهم من قبل.

اخترت أنا وليفي أن نُلقى معًا إلى الفضاء، وقلت: لندع السوْط يفعل بنا، أنا وجوادي، أسوأ ما يستطيع. كنت أعلم أن السوط، ذلك الجهاز الخبيث الذي يحتفون به كثيرًا، كان في حقيقته أداة ضعيفة معيبة. كانوا يعشقونه، لكنه كان يعج بعيوب لم يدركوها من قبل.

ربما يستطيع السوط أن يقذفني بعيدًا نحو المدار، أو يقذف ليفي، ذلك لو جرى تقطيع ليفي إلى أجزاء منفصلة. لكن لم يكن السوط مصممًا قط من أجل إطلاق رجل يركب جوادًا. فبغض النظر عما تثيره الآلات من رهبة داخلنا فلا يسعها إلا القيام بما هو ممكن من الناحية الفيزيائية وحسب.

يمكن للخرافات أن تتحدث بما تشاء، لكن الفيزياء علم. ومن الممكن لعمل فني أن يرمز إلى أي شيء، لكن الهندسة محكومة على الدوام بقيود قاسية.

شرع أبناء البرج في بناء سوط كبير بما يكفي بحيث يحمل رجلًا وجوادًا. رُفعت الضرائب وتعاون الجميع عن طيب خاطر، وتطور برنامج بناء داخل البرج العالي. انشغل الجميع بالأمر وتطلعوا له.

كنت قد أقسمت على أن أكون الضحية التي يقذفها ذلك الجهاز الفضائي. لكني فكرت في نفسي: دعهم يحاولون، دعهم يبنون أداة هلاكي هذه، لو كانوا يظنون أن بمقدورهم إهلاكي، أنا وجوادي.

إحقاقًا للحق، كنت مستعدًا تمام الاستعداد للموت في سبيل البرج العالي. لقد مات كثيرون من قبلي في سبيل طموحات سامية. وليس موتي وأنا رجل طاعن في السن خَبُرَ الحياة بحلوها ومُرها بالأمر المروِّع. لقد مات مليارات البشر من قبلي، دون خوف أو أسى. إن الخوف من الموت لهو أمر مبالغ فيه.

لا يزال أبناء البرج العالي يعملون حاليًّا على هذا البرنامج الفضائي، وشأن معظم الأعمال العظيمة للبشرية كان يبدو أنه لا نهاية له. ومع ذلك فقد شارك أغلب قاطني البرج فيه. لقد عم الرخاء بين الناس، وكل هذا بفضل حنكة قاطني البرج.

وبينما هم يعملون على تصميم وبناء سوط أكبر وأعظم، توقف السوط الأصلي القديم عن العمل تمامًا. كان عليهم أن يفكِّكوه استعدادًا لشيء أكبر، ولا يمكنني القول بأن كثيرين يفتقدونه. من الشائع دومًا أن يستعيض البشر عن أحلامهم الكبيرة بأعمال هندسية واقعية. ولحسن الحظ كان قاطنو البرج معتادين دومًا على التغافل عن البدهيات.

في الوقت حالي صرت معروفًا للجميع تقريبًا في البرج العالي، رغم أنني لست أكثر من عجوز ذي شعر أبيض. في الواقع يعشق أبناء البرج جوادي الشهير، والكل منشغل بالمهمة المهيبة المتمثلة في إرسال ليفي إلى المدار؛ إذ سيكون أول جواد ينطلق إلى الفضاء الخارجي.

بالطبع لم يثر ليفي أي جلبة بهذا الشأن، وهو الحيوان البسيط ابن كوكب الأرض. أنجب هذا الجواد دائم الشباب مِهارًا صغيرة ذات أرجل طويلة، تستقر على ارتفاع كبير في إسطبلاتها محكمة الإغلاق. لو كان باستطاعة جوادي أن يكتب مثلما أفعل فأنا واثق من أنه سيعبِّر عن رضاه.

من الجلي أن هذا الموقف لن يستمر إلى الأبد. أعلم هذا يقينًا، وتعلمه أنت أيضًا. لكن لنواجه الأمر: لا شيء يدوم إلى الأبد، مهما كان كبير الحجم. فعلى الرجل وجواده أن يفعلا ما يستطيعان في الوقت المتاح لهما. فإذا لم نفعله نحن، فمن سيفعله؟ وإذا لم نفعله الآن، فمتى؟

العلم والخيال العلمي

مقابلة مع بول ديفيز

يناقش إد فين مشروع هيروغلاف مع عالِم الفيزياء والكونيات بول ديفيز، مدير مركز بيوند للمفاهيم الأساسية للعلم في جامعة أريزونا الحكومية.

إد فين: سأبدأ بسؤال بسيط: لماذا تؤلِّف الكتب؟

بول ديفيز: في شبابي كنت أتعرَّض لنقد شديد من أقراني، إذ كان هناك إحساس عام بأنك لو كنت تؤلِّف كتابًا موجَّهًا لعامة القراء، في مقابل الكتب الدراسية، فإن هذا يعني بصورة ما أنه لا يمكن أخذك على محمل الجد كعالِم. وفي الواقع، أخبرني زميل لي بأن عليَّ في مقابل كل كتاب أؤلِّفه أن أسقط من حساباتي عشرة كتب أكاديمية من قائمة مطبوعاتي. كان هذا هو الشعور السائد وقتها.

لماذا كنت أفعل هذا؟ أعتقد أن السبب وراء ذلك يرجع جزئيًّا إلى أنني اكتشفتُ على نحو غير متوقَّع أنني أمتلك القدرة على أن أوصِّل بلغة بسيطة، وباستخدام التشبيهات والمسائل الرياضية وغيرها، مفاهيمَ متقدِّمة ومعقَّدة في الفيزياء على نحو خاص. بدا أن الناس يحبون هذا، ولا يوجد ما يشجعك على المُضي مثل وجود جمهور يقدِّر ما تقدمه له.

أنا عالم متحمِّس، وأرى أن العلم شديد الإثارة والأهمية إلى درجة تدفعني إلى الرغبة في إبلاغ الناس بالأنباء الطيبة فيه. وحين أتحدَّث إلى غير العلماء أدرك حينها أنهم لا يملكون أي فكرة عن أشياء مثل الواقع الكمومي أو بوزون هيجز أو ما حدث قبل الانفجار العظيم أو أيٍّ من هذه الأمور المهمة للغاية، أو عن أمور مثل طبيعة الزمن التي نعرفها منذ مئات السنوات.

إنهم يفوِّتون على أنفسهم تلك الإثارة الشديدة، وكل ما أريده هو أن أشرك الجميع معي في شعوري هذا بالإثارة، ولا أريد أن أنشر حماستي للعلم فقط بل، وما يعنيه أن نكون بشرًا وما يعنيه أن نعيش في هذا الكون. كنت أشعر بحماسة تماثل حماسة المبشرين. لكن تغير كل هذا في الثمانينيات، وهو ما يرجع جزئيًّا إلى أن الفيزياء، وهي المجال الذي أتخصص فيه، بدأت في الذبول.

كان الطلاب يجدونها صعبة، ويجدونها أكثر تجريدًا مما يحتملون، وبدا أن الفتيات يكرهنها. كان المجال كله في حالة من التدهور. بدأت الجامعات في الانتباه إلى حقيقة أنها لو شجعت على تأليف كتب عن الفيزياء تكون رصينة ومثيرة للاهتمام وموجهة لعامة القراء، فإن هذا قد يحسِّن من معدلات التحاق الطلاب بأقسام الفيزياء. بعدها ألَّف ستيفن هوكينج كتابه الشهير «تاريخ موجز

للزمن»، ووصل به إلى شرائح من القراء لم يكن باستطاعة بقيتنا الوصول إليها.

وفجأة صار من المقبول أن يؤلف المرء كتابًا لعامة القراء. وبالفعل شرع كل زملائي في عمل هذا، لدرجة أنني صرت أعتقد أنه جزء أساسي من وظيفة عالم الفيزياء. بطبيعة الحال ليس هذا أمرًا إجباريًّا، ولا يفعله الجميع، كما لا يفعله الجميع بشكل جيد. المقصد هنا أن الأيام التي كان فيها هذا الأمر يُقابَل بالاستهجان ولَّت ومضت، وكم أنا ممتن لهذا، رغم أنني أعتقد أن عدد الكتب العلمية الموجهة لعامة القرَّاء الموجودة في السوق حاليًّا أكبر مما ينبغي.

إد فين: هل ترى أن هذا يحدث بشكل أساسي في الفيزياء، أم هل تراه يحدث في الفروع العلمية الأخرى كذلك؟ وهل يوجد الآن توقع أوسع بحدوث هذا النوع من التواصل مع عامة القراء؟

بول ديفيز: كان لعلم الأحياء السبق على علم الفيزياء في هذا الصدد. فحين بدأتُ الكتابة لم يكن ثمة كثيرون ممن يؤلفون الكتب العلمية لعامة القراء، وكان معظم المؤلفين وقتها قادمين من مجالي علم الفيزياء والكونيات. من السهل الحديث عن علم الفلك والكونيات لأنك تستطيع مناقشة أجرام موجودة في الفضاء كالنجوم والثقوب السوداء. كان علم الأحياء وقتها في موقف ضعف. لكن هذا تغير، ربما بسبب كتب ريتشارد دوكينز، فهو يكتب على نحو طيب للغاية، وساهم بكتاباته في رواج علم الأحياء بين عامة القراء.

كان أول ما جال بخاطري عند قراءة كتب ريتشارد دوكينز - التي أرى أنه يكتبها بشكل جميل وأجد متعة كبيرة في قراءتها - هو أن تساءلت: حسنًا، وما الجديد؟ فهي تتناول نظرية التطور لداروين، التي مضى عليها 150 عامًا. [يضحك] لماذا يكتب عن هذه الأمور؟ إنها أشياء قديمة، أليس كذلك؟ لكني بطبيعة الحال لم أعتقد أنها أمور عفا عليها الزمن. والآن حين تتفقد قوائم الكتب العلمية الموجهة للعامة، ستجد أن علم الأحياء يهيمن عليها.

يمتلك علماء الأحياء مزية فريدة، ويعانون من عيب خطير في الوقت ذاته. المزية هي أنه بمقدورنا جميعًا تخيل حيوانات ونباتات معينة؛ فالمفاهيم التي يتناولونها ليست شديدة التجريد. أما العيب فيتمثل في أنه على المستوى الجزيئي يصير الأمر شديد التعقيد، وكل شيء تتناوله في حديثك يمتلك اسمًا بغيضًا صعب النطق. [يضحك] وأخيرًا فقط بدأ علماء الأحياء في الاقتداء بما فعله علماء الفيزياء من قبل [فيما يخص التسمية]. على سبيل المثال، يستخدم علماء الفيزياء مصطلح «الثقوب السوداء»، وهي تسمية بليغة، رغم

أنهم في بادئ الأمر كانوا يطلقون عليها النجوم المنفجرة داخليًّا أو شيء من هذا القبيل.

والآن يتحدث علماء الأحياء عن أمور مثل الدي إن إيه الرديء، أو يمنحون الجينات أسماء مضحكة مثل القنفذ أوناندوج. وأعتقد أنهم تعلموا أنك لو أردت أن توصل للناس شيئًا، سيكون من المفيد بحق أن تبتكر له اختصارًا أو وصفًا بليغًا.

إد فين: للأسماء قوة كبيرة بطبيعة الحال، وهناك العديد من الأسماء تأتي محمَّلة بهذه الاستعارات، والثقب الأسود خير مثال على ذلك. فتسمية كهذه توصل صورة قوية للغاية عن ماهية الشيء. يوجد في الأسواق حاليًّا عدد كبير من الكتب العلمية الموجهة لعامة القراء. في رأيك، ما هي مسؤولياتك بوصفك أحد شارحي العلم لعامة القراء؟ كيف للمرء أن يُحسِن أداء هذه المهمة؟

بول ديفيز: إياك والتظاهر بأن ممارسة العلم تتعلق في نهاية المطاف بكسب المال. هذه نزعة مشينة منتشرة اليوم بين أولئك الذين يحاولون نشر العلم بين العامة: «لماذا نبحث عن بوزون هيجز؟ حسنًا، ربما سيتمكن أحدهم بعد مائة عام من تحقيق مكسب مادي من ورائه». ليس هذا هو السبب وراء ممارسة العلم، بل السبب هو فهم كيفية عمل الكون، والتعرف على موضعنا داخله. إنه مسعى نبيل.

ليس هذا بالشيء الذي نخصص من أجله خمسين بالمائة من الناتج المحلي الإجمالي، ولكن نسبة بسيطة من هذا الناتج تُنفَق سنويًّا على استكشاف بنية الكون، والقوانين الأساسية له، وكيف نشأ، وكيف سينتهي. كل هذه الأمور تعادل في أهميتها ما كانت الأسئلة الدينية الكبرى تمثله للأجيال السابقة. لقد شيد الناس الكاتدرائيات في العصور الوسطى في أوربا، وأعتقد أن بعض الناس قالوا وقتها: «حسنًا، ما تأثير هذا على الناتج المحلي الإجمالي؟ ما جدوى هذا الأمر، ولِمَ ننفق كل هذه الموارد؟».

إد فين: انتهى الحال على الأرجح بهؤلاء الناس بأن قُطعت رؤوسهم.

بول ديفيز: هذا صحيح. كان مَن يشيِّدون الكاتدرائيات يفعلون هذا لأنها كانت مغامرة بشرية عظيمة تسعى إلى فهم موضعنا في الطبيعة. كان الأمر باعثًا على السمو؛ إذ كان يمنح الناس حسًّا بالانتماء والهدف. والعلم مماثل لهذا تمامًا، ولا يتطلب الأمر إنفاق الكثير كما حدث عند بناء الكاتدرائيات

القروسطية كي نمارس العلم من منظورنا. وأعتقد أن العلم ليس مسليًا وحسب، بل هو جزء مما يعنيه أن يكون المرء إنسانًا.

لو أدى العلم إلى تطبيقات عملية، فهذه مكافأة إضافية. إن السبب الأساسي وراء ممارستنا العلوم الأساسية - ليس العلوم «التطبيقية» وإنما العلوم «الأساسية» - هو استكشاف أسرار الطبيعة كلها وتفهمها. أعتقد أن من الرائع عمل هذا، وأرى أن المؤلفين الذين يوصلون ذلك الإحساس بالروعة - أننا لا نمارس العلم فقط في سبيل اختراع نوع أفضل من فتاحات العلب أو شيء من هذا القبيل - وأن هذا جزء من المغامرة البشرية، يحسنون صنعًا.

أما ما لا يفيد، وما حذرني منه وكيلي الأدبي من البداية، فهو تناول أحد الموضوعات، وتقديم ملخص له، واستعراض أحدث الآراء في البيانات المتاحة عنه. لن يفلح هذا الأمر كثيرًا. لو تناولتُ موضوعًا عنوانه «نظرية الفوضى تغير بالكامل فهمنا للعلاقة بين السبب والنتيجة» فهذا موضوع عميق. أيضًا يظهر الواقع الكمومي أنه قد توجد عوالم موازية، وهذا أمر يجذب الانتباه كثيرًا.

لا بد أن يكون هناك شيء في العلم - وهذا يمس الخيال العلمي أيضًا - يأخذنا إلى خارج حدود حياتنا اليومية المعتادة، إلى عالم آخر ربما يبدو في نظر البعض أشبه بعالم أليس في بلاد العجائب المتسم بالغرابة والمفاهيم الرائعة. فالأشياء في هذا العالم مناقضة للبديهة، وتتحدى المنطق السليم، وتقع فعليًّا خارج نطاق خبرات الحياة اليومية، ومع هذا لا يزال بوسعنا أن نتفهمها، وهذا هو سحر العقل البشري. فبإمكاننا الولوج إلى منطقة يغيب عنا فيها بالكامل خيالنا ومنطقنا السليم، ومع ذلك يظل بوسعنا تفهمها. إن العلم يمتلك القدرة على كشف الكيفية التي يعمل بها العالم، حتى في المناحي التي لا يمكننا تخمينها عن طريق النظر وحسب.

إد فين: أود الاستفاضة في نقطتين ذكرتهما لتوِّك. الأولى هي استعارة الكاتدرائية، التي أراها موفقة للغاية. والثانية هي إحساس التعجب. ما أحبه تحديدًا بشأن فكرة الكاتدرائيات هي أن الناس وقتها كانوا يشيدون بنية معمارية للكون حرفيًّا؛ إذ كانت هذه الكاتدرائيات وسيلة لفهم العالم عن طريق وضع إطار حوله.

أرى أن هذا يشبه إلى حدٍّ كبير ما عليه البحث العلمي، الذي يكون أكثر تجريدًا في بعض الأحيان، لكنه لا يقل عنه قوة وطموحًا. لقد صار الخيال العلمي كاتدرائية للخيال من نوع ما. فهو مساحة تسمح بالاستقصاء على نحو مرح، وبطريقة استكشافية.

أخبرني كيف تحاول ككاتب اقتناص وتوصيل إحساس التعجب، ثم دعنا نستخدم ذلك كجسر لنا نحو الخيال العلمي، الذي يمثل في نظر الكثيرين محركًا جوهريًّا لخبرة التعجب تلك في العالم.

بول ديفيز: إن المزية العظيمة التي يمتلكها كتاب الخيال العلمي مقارنة بأشخاص مثلي هي أن بإمكانهم كسر القواعد، وكثيرًا ما يفعلون هذا بالفعل. فبإمكان كتاب الخيال العلمي صياغة قوانين فيزيائية جديدة أو التظاهر بأن بعض الأشياء التي نألفها لن تكون موجودة مستقبلًا.

حين أكتب في العلم التأملي، فإن أول وأهم ما أحرص عليه هو أن أكون أمينًا. أما ثاني الأمور التي أحرص عليها فهي التفرقة بين التأملات العلمية، ذات الجذور الراسخة في الفهم المتفق عليه للعلم، وبين الأفكار الأخرى التي قد تتطلب بعض التغيرات المستقبلية أو الأفكار التي يجري طرحها عشوائيًّا في البيئات الأكاديمية، التي يتناولها العلماء المعنيون دون جدية كبيرة ومن غير المنتظر أن تفلح. وكثيرًا ما يقول الناس: «عجبًا لكل هذا الحديث عن نظرية الأوتار وغيرها. لا يمكننا أن نأخذ هذا على محمل الجد، أليس كذلك؟».

حسنًا، الإجابة هي ربما، بقدر ما. أرى دائمًا أنه من المهم بحق إذا كنت بصدد نشر العلم على نحو مسؤول أن تقول: «إنها فكرة رائجة، وتتسم بالاتساق. وقد جرى العمل عليها بقدر من التفصيل. نعلم أن هناك العديد من النماذج الرياضية الموضوعة لها، لكن ليس هناك دليل متفق عليه في هذه المرحلة على أنها صحيحة. وقد يتبين في نهاية المطاف أنها فكرة مفيدة أو قد يطويها النسيان». هذا أمر مهم فعلًا.

يمكنك بالتأكيد الخروج قليلًا عن الحدود، وليس عليك أن تظل ملتزمًا بالوضع التكنولوجي الحالي. فبإمكانك الحديث عن الأفكار التي تتحدى هذا الوضع، لكن لا يمكنك فقط أن تلوح بعصا سحرية وتتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء. وإذا كنت ستتحدث عن التحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء فيجب أن تفعل هذا بشكل حريص للغاية.

إد فين: من المؤكَّد أن هذا يصيب كثيرًا من كتاب السيناريو في هوليوود بالإحباط.

بول ديفيز: أجل، لو كان هناك ما يقيد الخيال العلمي فهو السرعة المحدَّدة للضوء. إنها سرعة كبيرة، بيد أنها بالمعايير الفلكية بطيئة للغاية بطبيعة الحال؛ إذ يستغرق الضوء مائة عام كي يعبر مجرتنا. ولو كنت تؤمن حقًّا بأن لا شيء يستطيع التحرُّك بسرعة تفوق سرعة الضوء وأن من المستحيل إرسال

المعلومات بسرعة تفوق سرعة الضوء، فإن هذا يؤدي بنا إلى استبعاد الكثير من سيناريوهات الخيال العلمي الرائجة اليوم. ربما نكتشف يومًا ما أن هذا القيد على سرعة الضوء غير صحيح، وأن ثمة سبلًا لتجاوزها، لكن عن نفسي أرى أن هذا غير ممكن، وأن ذلك القيد سيظل موجودًا.

كعالِم، عليَّ دومًا أن أظل منفتح العقل. والمغزى هنا هو أن لا أحد يملك الكلمة الأخيرة في العلم، وكل ما يسعني عمله هو أن أنقل بقدر استطاعتي الفهم الحالي لهذا الموضوع أو ذاك بينما أظل منفتحًا لحقيقة أن ذلك الفهم قد يتغير المستقبل. وإذا تمتعتَ بعقل منفتح يقبل بأي شيء - كما حدث معي حين ألَّفتُ كتابًا بعنوان «الصمت العجيب» عن البحث عن كائنات فضائية ذكية - حينها سينفتح الباب أمام مختلف التأملات العجيبة، وستتمكن من تخيل كل أنواع الحضارات الموجودة في الفضاء، وكل أنواع الأشياء التي تدور هناك، وهكذا دواليك.

حرصت في أحد كتبي على أن أقول: «حسنًا، كما تعلمون فإننا لو استطعنا تخيل إمكانية وجود حضارات فائقة، فلماذا لا نخترع حضارات يمكن فيها التحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء؟ ما الأثر الذي سيخلفه هذا على بحثنا عن الكائنات الفضائية؟» ما أشير إليه هو أن الانغماس على نحو مسؤول في العلم التأملي يتطلب منك أن تتفهَّم جيدًا أن المعارف التي نمتلكها اليوم قد يثبت خطؤها في المستقبل.

لو تبنيتَ الرأي القائل بأن بمقدورنا اختراع أي شيء، وابتكار أي قوانين، وتنفيذ أي أفكار قديمة نريدها، حينها لن يكون لتأملاتك قيمة؛ إذ لن تختلف تأملاتك أي شخص عن الآخر. لا بد أن تكون التأملات مستنيرة ومبنية على أفضل فهم نمتلكه عن العلم مع اليقين بأننا لم نصل بعد إلى الكلمة الأخيرة، وأن المستقبل لا يزال يحمل لنا الكثير.

إد فين: كيف يتقاطع الخيال العلمي والعلم في حياتك؟ هل يدعم أحدهما الآخر؟ وهل مثَّلت أي قصص خيال علمي إلهامًا لك حين كنت صغيرًا؟

بول ديفيز: لا أعتقد أن هناك شك في أنني استقيت الإلهام من قراءة قصص الخيال العلمي، غالبًا في فترات المراهقة، وهو حال العديد من زملائي كذلك، خاصة أولئك الذين تخصصوا في العلوم الفيزيائية. حدث هذا معي بكل تأكيد. وفي حالتي، كان جزء من حبي للفيزياء وعلم الفلك نابعًا من قراءة تلك الكتب المبكرة. لقد أحببتُ على وجه الخصوص قراءة كتابات فريد هويل، عالِم الكونيات. وفي الواقع كان هو من منحني وظيفتي الأولى. وقد كنت أقرأ كتبه

قبل أن تربطنا علاقة عمل بوقت طويل، وأرى أن هذا أفادني بشدة، إذ كانت هذه الكتب قائمة على أدق المعلومات العلمية المتاحة وقتها.

ونظرًا لأنني قرأت كتابات عظيموف وإتش جي ويلز، فقد كنت على الدوام انتقائيًّا بقدر ما عند اختياري كتابات الخيال العلمي التي أقرؤها، وأيضًا لأنني كنت أفضل الخيال العلمي الصارم المبني على معلومات علمية حقيقية، والقريب مما أشعر أن بإمكاني تصديقه. بصورة ما أظن أنني أستمتع بقراءة القصص المتعلقة بعالَم البيولوجيا أكثر من استمتاعي بتلك المتعلقة بعالَم الفيزياء، وذلك لأن من الأيسر لي أن أتخلى عن عدم التصديق حين أقرأ في مجال لا أتفهَّمه جيدًا.

بالطبع لم أكن قادرًا في سنوات المراهقة على تبيُّن الهفوات، ولا أظن أن هناك أي هفوات علمية في كتابات فريد هويل في حقيقة الأمر. [يضحك].

هذا التأثير ثنائي الاتجاه بطبيعة الحال، فالعلماء يتأثرون بالخيال العلمي غالبًا، لكن ليس دائمًا، وهم في سن صغيرة. بعد ذلك هناك مسألة المقدار الذي يتابع به كتاب الخيال العلمي الأفكار العلمية الجديدة ويتأثرون بها. يتباين هؤلاء الكتاب في هذا الصدد، إذ يتأثر بعضهم فيما لا يتأثر البعض الآخر. فهناك من يكتبون «فانتازيا» علمية، وقد يكونون على معرفة بأمور عجيبة مثل المحلية الكمومية أو أشياء من هذا القبيل، لكنهم لا يبذلون جهدًا كبيرًا من أجل تقديم هذه المعرفة بصورة سليمة.

في المقابل هناك مَن يفعلون هذا، منهم ستيفن باكستر مثلًا. إنني معجب للغاية بالطريقة التي يتابع بها ويكتب عن أحد المكتشفات في نظرية المجال الكمومي، والجاذبية الكمومية، وغيرها، ثم ينسج قصة حول كل هذا، وأرى أن هذه مهارة عظيمة. ديفيد برين يفعل هذا أيضًا؛ إذ يجمع كل هذه العناصر معًا. وبصراحة، أجد نفسي شديد الإعجاب بالطريقة التي يفعلون بها هذا، لأن محاولة الاطلاع المتواصل على أحدث المستجدات العلمية أمر شديد الصعوبة، حتى لعالِم محترف. وإنه لأمر مثير للإعجاب أيضًا أن تكون كاتبًا أدبيًّا.

أيضًا أستمتعُ كثيرًا، كما تعلم ربما، بكتب إيان ماك إيوان، رغم أنها لا تنتمي إلى فئة الخيال العلمي. إنه يكتب قصصًا عن العلماء، ومجددًا كم يذهلني مقدار تفهُّمه الدقيق لأحدث مستجدات علم الفيزياء الحديث.

إد فين: حين كان إيان ماك إيوان يزور جامعة أريزونا الحكومية، كان من المثير للاهتمام بشدة الاستماع إليه وهو يتحدَّث عن الاختيار الذي أقدم عليه في نقطة ما من حياته العملية، وذلك بأن اختار المضي في الكتابة بدلًا من البحث

العلمي، وهو المسار البديل الذي أرى أنه كان من الممكن أن يبرع فيه. لقد عبر مثلك عن استمتاعه برؤية ذلك العدد المتزايد من الكتابات العلمية الموجهة لعامة القراء. وقد مكنته هذه الكتابات من أن يظل منخرطًا في ذلك المجال رغم أنه ليس قادرًا على ممارسته بشكل احترافي بسبب انشغاله الشديد بكتابة كل هذه الروايات الرائعة.

بول ديفيز: أعتقد أن هذا هو المقصود بالفعل؛ أن كتاب الخيال العلمي لا يهدفون فقط إلى تسلية القراء، ولا إلى تأليف كتب يقرؤها العلماء في أوقات فراغهم. [يضحك] فلهم بالفعل دور اجتماعي مهم، أولًا بوصفهم جزءًا من عملية توصيل العلم للناس. والكثير من الناس، خاصة الشباب، يتعرفون للمرة الأولى على الأفكار العلمية الصعبة الحديثة من خلال قراءة الخيال العلمي.

في الخيال العلمي أنت تخلق عالمًا خياليًّا لكنه قابل للتصديق بدرجة ما، ويمكن أن يُستخدم هذا العالَم وسيلة لإيصال كل أنواع الرسائل الاجتماعية والسياسية أيضًا. لم تكن رواية «آلة الزمن» لإتش جي ويلز تدور حقًّا حول السفر عبر الزمن، بل كانت تناقش ما سيحدث مستقبلًا لو واصل المجتمع المضي في رأسماليته الجامحة، بحيث يترسَّخ في المستقبل الفصل بين من يملكون المال ومن لا يملكونه.

إن الخيال العلمي يوفر أداة للتعليق السياسي والاجتماعي، وأرى أنه نوع أدبي ثري ومتنوع شأنه شأن أي نوع أدبي آخر. فهو يقدم كل شيء بداية من التسلية المرحة وانتهاءً بالآراء الاجتماعية الأكثر جدية.

إد فين: أعتقد أن هذا صحيح. إن مهمة مشروع هيروغلاف هي العثور على هذه النقطة المحورية التي يتقاطع عندها الخيال العلمي مع العلم، بحيث نسعى على نحو متعمد للغاية إلى أن نضع الكُتَّاب في تواصل مباشر مع العلماء والمهندسين، وأن نحملهم على التعرف على أحدث الأفكار المتقدمة وعلى آخر الأبحاث، وفي الوقت عينه نمنحهم حرية تأليف القصص التي تستكشف القضايا الاجتماعية والأخلاقية والثقافية.

أعتقد أن باستطاعة الخيال العلمي فعل هذا بصورة تعجز عنها الكتابات العلمية الخالصة؛ وأعني بهذا خلق عالم خيالي وتناول الصراعات البشرية في بيئة مستقبلية توجد بها تكنولوجيات أو مكتشفات جديدة. يمكن لهذا أن يُحدث تأثيرًا كبيرًا، وبهذا يستطيع بقيتنا أن يتابع هذه القضايا ويتفكَّر بها على نحو أوفى.

أحب النظر إلى الخيال العلمي بوصفه أقرب إلى معملٍ للخيال يمكنك فيه تجربة سيناريوهات مختلفة والتفكر في كل التبعات الممكنة بطريقة يصعب عملها حين تركز فقط على المشكلات الفنية.

إن الأساس الذي يقوم عليه مشروع هيروغلاف، الرسالة الأساسية التي نادى بها نيل ستيفنسون، هي إبداع كتابات خيال علمي متفائلة، ويهمني بشدة أن أعرف منك ما إن كنت تتفق مع ذلك أم لا، والكيفية التي ترى بها حالة علاقتنا الثقافية بالمستقبل؟

بول ديفيز: إن الأدب المستقبلي بالكامل تقريبًا أدب ديستوبي، وربما كان كذلك طوال الوقت. حين أفكر في كتابات إتش جي ويلز وجورج أورويل فإنني لا أنظر إليها بوصفها من كتابات الخيال العلمي، ما أعنيه هو أن الوضع الآن أسوأ مما تنبأ أنه سيكون عليه في 1984. فقد تحققت مخاوفه. [يضحك].

هل نرى الآن أي خيال علمي يوتوبي؟ حسنًا، ليس بقدر كبير. أرى أن آرثر سي كلارك هو المثال المناقض لذلك؛ فكتاباته ليست يوتوبية، لكنها بالتأكيد لا تتسم بالتشاؤم والسوداوية. بمقدور الخيال العلمي أن يتناول العلوم المستقبلية، كما أن بمقدوره كذلك أن يتناول علومنا الحالية ولكن في ظل تكنولوجيا مستقبلية. كل ما علينا فعله هو أن نتناول ما يلوح لنا في الأفق القريب، ثم نتخيل ما سيكون عليه الحال بعد عشرين عامًا، ثم خمسين عامًا، ثم مائة عام، كيف سيكون الحال وقتها؟

إن أي رؤية تتضمن تغييرًا جذريًّا للمجتمع من الممكن اعتبارها رؤية ديستوبية، حتى لو لم تكن كذلك في حقيقتها. تخيل عالَمًا مستقبليًّا، «عالم جديد شجاع» كما نسميه عادةً، تجري فيه إدارة عملية التكاثر البشري بصورة مختلفة تمامًا، بحيث نُخلِّق أطفالًا بمواصفات خاصة، وبشرًا خارقين، بشرًا مستقبليين لهم سمات مختارة بعناية، يتم التحكم بهم بواسطة سلطة ما. يبدو هذا مروعًا من منظورنا الحالي.

لو تحقق هذا بالفعل، لنا أن نتوقع أنه بعد مائة عام من تحققه سيقول الناس إن عصرنا كان عصرًا بغيضًا؛ يتسم بالانفجار السكاني الجامح وندرة الموارد ويتصرف الناس فيه بصورة مروعة. لا يوجد ما هو أفضل من امتلاك جينومات مُهندسة وتعداد سكاني خاضع للسيطرة، بحيث يكون الناس متكيفين على نحو أفضل مع مجتمعهم ومع ما يمكنهم المساهمة به ومع ما يحتاجونه منه، وكل شيء خاضع للتخطيط والتنظيم.

ربما يعتبرون هذا عالمًا يوتوبيًّا. ما الصواب وما الخطأ في هذا العالم؟ يعتمد الأمر بالأساس على العصر الذي نعيش فيه؛ فهناك أشياء نفعلها الآن في مجتمعنا ويألفها الناس رغم أنها كانت تعد شديدة البُغض منذ خمسين عامًا. وأرى أن من التبسيط المخل أن نقول إن المستقبل، كما يرسمه لنا الخيال العلمي، قاتم على الدوام.

إد فين: أحد أفضل الأشياء التي يستطيع الخيال العلمي فعلها في الواقع عادة هي تعقيد الأمور قليلًا أو إبراز الأوقات التي نفرط فيها في الاستناد إلى افتراضات معينة. أعتقد أن الخيال العلمي في حقيقته أدب فلسفي بالأساس؛ فأكثر الأفكار التي يطرحها الخيال العلمي جموحًا وخطورة تكون مرتبطة عادة بمسائل أخلاقية وفلسفية أكثر من ارتباطها باختراع تكنولوجي جديد.

بول ديفيز: حين تفكر فيما سيكون عليه الحال بعد خمسين عامًا فإن أعمق التغييرات ستأتي على الأرجح من جوانب العلم والتكنولوجيا التي لا نعلم عنها أي شيء بعد، أو ربما نعلمها لكننا لا نُقدِّر أهميتها. وكثيرًا عند مناقشة نظرتي للمستقبل في صغري والكتب التي كنت أقرؤها عن المستقبل يتبادر إلى ذهني القصص المصورة التي اعتدتُ قراءتها وما تحويه من صور للمدن في عام 2000، وفيها يرتدي الناس حقائب نفَّاثة على ظهورهم.

لقد أخفقوا تمامًا في التعرف على الثورة المعلوماتية، التي كانت حاضرة وقتها، لكنها كانت متوارية عن الأنظار وحسب. إن الناس لم يتفهموا مغزاها. وهذه هي المتعة الكامنة في محاولة التعرف على ما سيحدث في المستقبل، أليس كذلك؟

إد فين: هذه مسألة مثيرة للاهتمام بشدة. فنحن نتحرك بسرعة كبيرة للغاية في ساحات كشفية عديدة متنوعة لدرجة أنا بتنا نمتلك عددًا مهولًا من الأفكار والأدوات والنظم التي خلقناها، لكننا لم ندرك بعد الأثر البالغ الذي قد يكون لها. هذا أحد الأمور التي تثير حماسي بشأن الأساس الذي يقوم عليه مشروع هيروغلاف: أنه خيال علمي موجَّه إلى الحاضر بالكامل تقريبًا. فما الذي بوسعنا أن نفعله «الآن» لو عقدنا العزم عليه؟ لا نتحدث عن الاعتماد على تكنولوجيات غير مُكتشفة بعد وإنما عن إعادة تشكيل الإطار الثقافي أو تبديله كي نقول: «هذا أمر مهم، وهذه هي الأدوات المطلوبة لتحقيقه. لم يقم أحد بعمل هذا بعد، لكن يمكننا عمله بالتأكيد لو أردنا ذلك».

بول ديفيز: أحب التأمل فيما يمكننا تحقيقه بواسطة العلم والتكنولوجيا الحاليين، في ظل الالتزام بالموارد المتاحة. من الأمور التي عكفت على

تدبرها لأعوام هو القيام برحلة ذهاب فقط إلى المريخ. فبإمكاننا إنشاء مستعمرة مريخية الآن باستخدام التكنولوجيا الحالية، ولسنا بحاجة فعلًا إلى أي تكنولوجيات مستقبلية لعمل ذلك. فبوسعنا الذهاب إلى المريخ، ولدينا القدرة التي تمكننا من عمل ذلك، وبوسعنا إرسال بشر إلى هناك. قد لا يعيش هؤلاء فترة طويلة كما لو كان الحال لو أنهم ظلوا على الأرض، لكنها ليست مهمة انتحارية بأي حال من الأحوال. وبإمكاننا بناء المستعمرات بدءًا من الآن.

هل تنتمي هذه الفكرة لعالم الخيال العلمي؟ لا أدري. أعتقد أنها قابلة للتحقيق، لكنها في وقتنا الحالي تنتمي إلى عالم الخيال. أرى أن ما نحتاجه ببساطة هو أن نمتلك سببًا لعمل ذلك، وأن تمتلك الدول القدرة على حشد مواردها. لقد كانت أجواء الحرب الباردة وسباق التسلح مهيمنة على السواد الأعظم من حياتي المهنية، خاصة مجال الفيزياء، والأحياء بدرجة ما. لكن المنجزات العلمية الكبيرة كانت دوافعها عسكرية في الغالب.

أشياء مثل معجلات الجسيمات، التي كانت مكلفة للغاية، أو المشروعات الكبيرة، أو برامج الفضاء، كل هذه الأشياء كانت معتمدة على الميزانيات العسكرية. وهي إن لم تكن تعد عسكرية بشكل مباشر فقد كانت تعتبر على الأقل جزءًا من سباق القوة القومي: أي قدرتك التكنولوجية على ترهيب خصومك. ومنذ وقت مبكر وكثيرون يتحدثون عن «ثمار السلام». [(34)]

كانت الخطة تقضي بأننا حين نتوقف عن إنفاق هذا الكم الفاحش من المال على التسليح، سيكون بمقدورنا إنفاقه على الأشياء المفيدة بحق مثل برامج الرعاية الصحية، ومن شأن العلوم غير المرتبطة بالمجال العسكري أن تزدهر بلا شك. لكن ما حدث هو العكس تمامًا؛ إذ بمجرد أن توقف سباق التسلح حتى تبين أن ثمار السلام سلبية، وصار من الصعب للغاية تمويل المشروعات العلمية الكبيرة. وإنها لمأساة ألا تستطيع البشرية حشد الموارد تحت راية التعاون لا التنافس.

لكن الحقيقة هي أن بإمكانك أن تخرج من الناس عن طريق التسابق أو التنافس أكثر مما يمكنك إخراجه عن طريق تشجيعهم على التعاون. يُنبئنا هذا بشيء عن الطبيعة البشرية، وهو ينطبق على الدول مثلما ينطبق على الأفراد. ومن المعروف أنك لو أردت إنجاز مشروع ما بميزانية مليون دولار، ولم يكن هذا المبلغ كافيًا، كل ما عليك فعله هو وضع جائزة مقدارها مليون دولار لمن ينفذه، وهذا يذكرني بجائزة مؤسسة إكس برايز. إنها طريقة عظيمة لتشجيع الناس على الذهاب إلى المريخ: امنح جائزة لمن يحقق ذلك.

إد فين: هذا محفز قوي، ويذكرني بالكاتدرائيات. لقد وفرت الحرب الباردة هذا الإطار الذي مكننا من تفهم قصة الكون. لم تكن القصة سعيدة بالأساس؛ إذ كانت قصة عن قوتين عظميين متنافستين توجِّهان الصواريخ النووية إحداهما إلى الأخرى. لكنها كانت قصة منطقية، مكَّنت الجميع من التلاقي والتركيز على هذه الأشياء. كما كانت تضم عناصر التنافس والأيديولوجيات والمصلحة الذاتية.

كانت رحلات برنامج أبوللو جزءًا من الحرب الباردة، وكان سباق التسلح جزءًا من صراع عسكري أوسع نطاقًا. بالطبع كان لدينا فيرنر فون براون وكان لدينا صواريخ خاصة بنا. ولم نكن فقط نستخدم الصواريخ في دراسة الصخور القمرية. ومع هذا فقد كانت بعثات الفضاء، بقطعها هذه الخطوة للبشرية، تتسم كذلك بالجمال وبنوع من الإيثار الجليل.

أعتقد أنك محق، فهذه القصص التي ترسي الأطر مهمة للغاية. ويبدو أننا نجد صعوبة في العثور على قصص جديدة.

بول ديفيز: الصورة أكثر إرباكًا بكثير الآن. ففي مجتمعنا الحالي أعتقد أن بإمكاننا إدراك شيء ما؛ إذ ثمة شعور عميق بالضعف يسري في أوصال ديمقراطيتنا الليبرالية ومجتمعنا الغربي، وفي كل أنحاء العالم. إن الصراعات الأيديولوجية قائمة الآن بين عالم الإسلام الأصولي والديمقراطية الغربية، بينما في الماضي كانت بين الشيوعية والرأسمالية.

لبعض الوقت كان الحديث بعد انتهاء الحرب الباردة يدور عن النظام العالمي الجديد، عن كيف أنه من الممكن الآن جعل الجميع يندمجون في سوق واحدة مشتركة، بحيث يحقق الجميع الثراء معًا. عليَّ أن أقر بأن الأحوال اليوم أفضل مما كانت فيما سبق؛ ومن يجأرون بالشكوى مما عليه الحال اليوم نسوا ما كان عليه الحال في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته. أعتقد أن العالم في حال أفضل اليوم، فبشكل نسبي صار الفقر أقل، وإن كان هذا لا يعني أنه انتهى تمامًا. كل ما في الأمر أنه أقل نسبيًّا.

ما أرصده حقًّا هو تشظي المجتمع، فلم يعد بمقدورنا تصديق الروايات البسيطة، التي فيها يبدو وكأن هناك مسار واحد واضح من المفترض أن نتبعه، وأننا إذا حاولنا بالجدية الكافية ولم تثننا المقاومة أو الأيديولوجيات البديلة عن مسارنا، سنحقق المبتغى.

حين أتحدث إلى الشباب يبدو لي أنهم لا يتفهمون بحق مَن يكونون، أو ما نوع المجتمع الذي يعيشون فيه، أو إلى أين يتجه. إنهم يعيشون اللحظة الحالية

وحسب، ويبحثون عن الإشباع الفوري من دون أي التزام حقيقي بمستقبل مرسوم بعناية. ربما هنا يستطيع الخيال العلمي أن يقدم يد العون، عن طريق رسم ملامح طريق التقدم، والابتعاد عن فكرة العيش في اللحظة الحالية وعدم الاكتراث بالتخطيط للمستقبل.

بالطبع أنا أتحدث بالأساس عن الديمقراطيات الليبرالية الغربية، وقد يكون الحال مختلفًا تمامًا في الصين.

إد فين: لقد بدأت الصين موجة جديدة للخيال العلمي. كمفهوم ثقافي، من المؤكد أنه مختلف بدرجة كبيرة. حين ننظر مثلًا إلى فيلم «سولاريس» لتاركوفسكي ستجد أن الخيال العلمي السوفييتي كان رائعًا. إن الطريقة التي نتخيَّل بها المستقبل دائمًا ما تكون انعكاسًا للحاضر. نحن نحتاج إلى بناء هذا الطريق إلى المستقبل، لكن ليس للمستقبل البعيد، الذي لا يختلف في منظورنا الحالي عما كان عليه منذ خمسين عامًا.

ما الهدف الذي يمكننا إنجازه بعد عشر سنوات أو عشرين سنة من الآن؟ كانت الأجيال الماضية تضع هذا السؤال نُصب أعينها، فكان بناة الكاتدرائيات يضعونه في اعتبارهم لأنهم كانوا يعلمون أنهم في نهاية المطاف سينتهون من بناء الكاتدرائية، وأنها ستكون أفضل من الكاتدرائية المبنية في المدينة المجاورة لهم.

بول ديفيز: كان جوهر برنامج أبوللو هو أنه كان قابلًا للإكمال في غضون حياة بشرية واحدة، وكان بمنزلة التزام كبير، وكان الجميع يقفون خلفه. من السهل أن نتخيل القيام بأمور مشابهة الآن. لقد ذكرتُ بالفعل أن هناك طريقة ممكنة للذهاب إلى المريخ، لكنها تتسم بالتهور قليلًا. وبمقدورنا أن نتخيل مشروعات عظيمة يمكننا تنفيذها هنا على الأرض، فإذا وُجد الالتزام سنتمكن من تحقيقها. لكنني أرى أن ما تحتاجه هذه المشروعات هو أن تكون موحِّدة للبشر، وليست جزءًا من تنافس قومي. فنحن بحاجة إلى مشروعات عظيمة يمكنها جمْع الناس معًا تحت راية واحدة.

عن المُحرِّرَيْن

إد فين: المدير المؤسِّس لمركز العلم والخيال بجامعة أريزونا الحكومية، حيث يشغل وظيفة أستاذ مساعد في كلية الفنون والإعلام والهندسة وكذلك في قسم اللغة الإنجليزية. تستكشف أبحاثه ومحاضراته الطرق التي تجوب بها الأفكار أرجاء ثقافتنا المعاصرة، خاصة في صورتها الرقمية، وهو حاليًّا يعمل على كتاب عن الطبيعة المتغيرة للقراءة في عصر الخوارزميات. حصل على درجة الدكتوراه في اللغة الإنجليزية والأدب الأميركا من جامعة ستانفورد، وقبلها كان يعمل صحفيًّا في مجلات Time وSlate وPopular Science. إد فين حاصل على درجة البكالوريوس في الأدب المقارن من جامعة برينستون، ويحمل شهادات في تطبيقات الحاسب والكتابة الإبداعية والدراسات الثقافية الأوربية.

كاثرين كرامر: كاتبة وناقدة ومحررة مجموعات قصصية، شاركت في تحرير سلسلتي Year’s Best Fantasy وYear’s Best SF، كما شاركت في تحرير نحو ثلاثين مجموعة أدبية. كانت كاثرين كرامر المحررة المؤسِّسة لمجلة New York Review of Science Fiction وحظت بترشيحات عديدة لجائزة هوجو لكتابات الخيال العلمي في فئة المجلة شبه الاحترافية. وقد فازت بجائزة الفانتازيا العالمية عن المجموعة القصصية (1987) The Architecture of Fear التي حررتها. كما نُشرت قصص من تأليفها في مجلتيAsimov وNature وكذلك في المجموعات القصصية التي تحررها. وقد نُشرت قصتها «Am I Free to Go?» أخيرًا على موقع Tor.com. تحمل كاثرين درجة البكالوريوس في الرياضيات ودرجة الماجستير في الدراسات الأميركية، كلتيهما من جامعة كولومبيا في نيويورك. وعلى مدار خمسة أعوام عملت كاثرين كرامر بتدريس الكتابة في مدرسة هارفرد الصيفية. وحديثًا عملت مستشارة لدى كل من شركة ولفرام للأبحاث، ومتجر إل دبليو كاري لبيع الكتب الأثرية، ومركز العلم والخيال بجامعة أريزونا الحكومية. تعيش كاثرين كرامر في ويستبورت بنيويورك في منطقة أديرونداك بارك.

سلاسل من تحرير كاثرين كرامر وديفيد جي هارتويل

Year’s Best SF 7

Year’s Best SF 8

Year’s Best SF 9

Year’s Best SF 10

Year’s Best SF 11

Year’s Best SF 12

Year’s Best SF 13

Year’s Best SF 14

Year’s Best SF 15

Year’s Best SF 16

Year’s Best SF 17

Year’s Best Fantasy Year’s Best Fantasy 2

Year’s Best Fantasy 3

Year’s Best Fantasy 4

Year’s Best Fantasy 5

المؤلفون والمشاركون

تشارلي جين آندرس: تكتب عن الخيال العلمي بمدونة io9 ومؤلفة قصة Choir Boy (2005). كما تكتب في مطبوعات مثل Mother Jones وWall Street Journal وthe San Francisco Chronicle وZYZZYVA وPindeldyboz وStrange Horizons وغيرها من المطبوعات. شاركت في تحرير المجموعة القصصية (2006) She’s Such a Geek ونشرت مجلة خاصة بها بعنوان other.

مادلين آشبي: كاتبة خيال علمي واستشارية إستراتيجيات مستقبلية تعيش في تورونتو. ألَّفت روايتين بعنوان (2012) vN و(2013) iD وهما أول روايتين في

سلسلة Machine Dynasty التي تؤلفها. ظهرت كتاباتها في مطبوعات على غرار Nature وFLURB وTesseractsو Imaginarium وEscape Pod. كما نُشرت مقالاتها وكتاباتها النقدية على مواقع إلكترونية ومدونات مثل Boing Boing وio9 وWorldChanging وCreators Project وArcfinity وTor.com.

إليزابيث بير: كتابة خيال علمي وفانتازيا تعيش في ماساتشوستس. فازت في عام 2005 بجائزة جون دبليو كامبل لأفضل الكتاب الجدد، كما فازت بجائزة هوجو مرتين، لأفضل قصة قصيرة ولأفضل أقصوصة طويلة. تعمل إليزابيث كمدربة في ورشة عمل Viable Paradise لكتاب الخيال العلمي والفانتازيا، وورش عمل Clarion وClarion West وWisCon Writer’s Respite وOdyssey.

جريجوري بينفورد: كاتب خيال علمي ومعلم وفيزيائي فلكي. علاوة على تأليف أكثر من عشرين رواية، يُدرِّس جريجوري بينفورد الفيزياء في جامعة كاليفورنيا بإرفين، حيث يعمل منذ عام 1971. عمل استشاريًا علميًا لمسلسل Star Trek: The Next Generation وحاصل على زمالة وودرو ويلسون ويشارك في تحرير مجلة Reason.

ديفيد برين: عالِم ومؤلف له عدد من أكثر الكتب مبيعًا، ومنظِّر مستشرف للتكنولوجيا المستقبلية. تتضمن رواياته رواية(1990) Earth و(1985) The Postman، وجرى تحويلها إلى فيلم في عام 1997، وفاز بجائزة هوجو عن روايتي Startide Rising (1983) و(1987) The Uplift War. ديفيد برين أحد أبرز المعلقين على النزعات الحديثة، وفاز كتابه غير الروائي (1998) The Transparent Society بجائزة حرية التعبير الممنوحة من رابطة المكتبات الأميركية.

جيمس إل كامبياس: كاتب خيال علمي ومصمم ألعاب. ظهرت قصصه القصيرة في Magazine of Fantasy and Science Fiction وNature وthe Journal of Pulse-Pounding Narratives. شارك في تأسيس موقع Zygote Games وشارك في تصميم لعبة Bone Wards: The Game of Ruthless Paleontology، كما كتب وشارك في كتابة عدد من الكتب عن ألعاب تقمص الأدوار.

بريندا كوبر: كاتبة خيال علمي ومنظَرة مستشرفة للمستقبل واختصاصية في التكنولوجيا. تشغل بريندا كوبر منصب مدير المعلومات بمجلس مدينة كيركلاند، واشنطن، وهي عضو في مجلس استشراف المستقبل التابع لمؤسسة لايف بوت. ألّفت بريندا كوبر سبع روايات منها رواية The Silver Ship and the Sea التي فازت بجائزة Endeavor لعام 2008.

بول ديفيز: عالِم متخصص في الفيزياء النظرية وعلم الكونيات والبيولوجيا الفضائية، وله عدد من أكثر الكتب مبيعًا. يحمل بول ديفيز درجة الأستاذية الشرفية، ويشغل منصب مدير مركز بيوند للمفاهيم الأساسية للعلم، ويشارك في إدارة مبادرة علم الكونيات في جامعة أريزونا الحكومية. من كتبه الفائزة بجوائز: The Eerie Silence (2010) وThe Goldilocks Enigma (2007) وHow to Build a Time Machine (2007)، وThe Mind of God (1992).

كوري دوكتورو: كاتب خيال علمي وناشط وصحفي ومدوِّن. شارك في تحرير مدونة Boing Boing وألّف روايات للناشئين منها Homeland (2013) وPirate Cinema (2012) وLittle Brother (2008) وروايات للكبار منها Rapture of The Nerds (2012) وMakers (2009). شغل كوري دوكتورو في السابق منصب مدير الفرع الأوربي لمؤسسة إلكترونيك فرونتير، وشارك في تأسيس مجموعة أوبن رايتس بالمملكة المتحدة. ولد كوري دوكتورو في تورونتو بكندا ويعيش حاليًّا في لندن.

كاثلين آن جونان: كاتبة خيال علمي ومعلمة وناقدة. حصلت روايتها الأولى Queen City Jazz (1994) على جائزة الكتاب الأبرز للعام من مجلة نيويورك تايمز، وفازت روايتها In War Times (2007) بجائزة جون دبليو كامبل لأفضل روايات الخيال العلمي. وهي أستاذ زائر في معهد جورجيا للتكنولوجيا.

لي كونستانتينو: روائي وباحث في الأدب الأميركي في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية. يعمل محررًا أدبيًّا وناقدًا في مجلة Los Angeles Review of Books وأستاذًا مساعدًا في قسم اللغة الإنجليزية بجامعة ماريلاند بكوليدج بارك. ألَّف رواية Pop Apocalypse (2009) وشارك في تحرير The Legacy of David Foster Wallace (2012).

لورانس إم كراوس: عالِم متخصص في الفيزياء النظرية وعلم الكونيات ومؤلف وكاتب ومبسِّط للعلوم، وهو المدير المؤسِّس لمشروع أوريجنز في جامعة أريزونا الحكومية والأستاذ في كلية الأرض واستكشاف الفضاء وقسم الفيزياء بالجامعة عينها. من أبرز كتبه: A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather Than Nothing (2012) وQuantum Man: Richard Feynman's Life in Science (2010) و(2005) Hiding in the Mirror.

جيفري إيه لانديس: عالِم وكاتب خيال علمي. يعمل باحثًا في مركز جون جلين البحثي التابع لناسا، كما يعمل على مشروعات مرتبطة بمنظومات الدفع والطاقة المتقدمة الخاصة باستكشاف الفضاء والكواكب، وهو حاليًّا عضو في الفريق العلمي المسؤول عن بعثة استكشاف المريخ بالمركبات. وقد فاز بوصفه كاتب خيال علمي بجائزة نيبولا، وجائزتي هوجو، وبجائزة لوكاس، علاوة على جائزتي رايسلينج لما يكتبه من شِعر.

أنالي نيوويتز: كاتبة تتناول موضوعات العلم والثقافة الشعبية والمستقبل. تشغل منصب رئيس تحرير مدونة io9 التي تغطي موضوعات علمية وكتابات للخيال العلمي. ومن كتبها: Scatter, Adapt, and Remember: How Humans Will Survive a Mass Extinction (2013) وPretend We're Dead: Capitalist Monsters In American Pop Culture (2006) وشاركت في تحرير كتاب (2006) She's Such a Geek. شغلت في السابق وظيفة محللة سياسات في مؤسسة إلكترونيك فرونتير ومحاضِرة في جامعة كاليفورنيا ببيركلي، حيث حصلت على درجة الدكتوراه في اللغة الإنجليزية والدراسات الأميركية.

رودي روكر: كاتب خيال علمي وفيلسوف ومتخصص في الرياضيات وأحد مؤسسي تيار سايبربانك في أدب الخيال العلمي. عمل طيلة عشرين عامًا كأستاذ لعلوم الكمبيوتر في جامعة سان خوزيه الحكومية ونشر عددًا من حزم البرمجيات. من رواياته (2012) Turing & Burroughs و(2011) Jim and the Flims وHylozoic (2009) علاوة على سلسلة (1982 – 2000) Ware Tetralogy وهي سلسلة من أربعة كتب تنتمي لتيار سايبربانك فازت بجائزتين من جوائز فيليب كيه ديك.

كارل شرودر: يقسِّم كارل شرودر وقته بين كتابة الأدب وتحليل التأثير المستقبلي للعلم والتكنولوجيا على المجتمع. ألَّف تسع روايات وابتكر طريقة جديدة في الكتابة تمزج بين الأب وبين الأبحاث المستقبلية الصارمة، وقد اعتمد الجيش الكندي، روايتيه (2005) Crisis in Zefra و(2011) Crisis in Urlia بوصفهما أداتين بحثيتين. يحمل كارل شرودر درجة الماجستير في التفكير الإستراتيجي التنبؤي والابتكار من جامعة كلية أونتاريو للفنون والتصميم في تورونتو.

فاندانا سينج: كاتبة خيال علمي وأستاذ مساعد للفيزياء في كلية فارمينجهام الحكومية. تظهر قصصها القصيرة، ومنها (2013) Peripateia وCry of the Kharchal (2013) و(2013) With Fate Conspire و(2012) A Handful of Rice على نحو متكرر في قوائم أفضل قصص العام وغيرها من المجموعات القصصية. تكتب فاندانا سينج أيضًا الشعر والروايات وقصصًا قصيرة للأطفال.

نيل ستيفنسون: مؤلف ومؤرخ واستشاري في مجالي الخيال العلمي والتكنولوجيا، والمحرك الرئيسي لمشروع هيروغلاف. ألَّف نيل ستيفنسون ملحمة (2003 – 2004) The Baroque Cycle التاريخية المكونة من ثلاثة مجلدات وروايات منها (2012) REAMDE و(2008) Anathem و(1999) Cryptonomicon وThe Diamond Age (1995) و(1992) Snow Crash و(1988) Zodiac. ويعيش حاليًّا في سياتل بولاية واشنطن.

بروس ستيرلنج: مؤلف وصحفي ومحرر وناقد. أشهر أعماله روايات الخيال العلمي العشرة التي ألَّفها، كما كتب قصصًا قصيرة ومراجعات لكتب ونقدًا لتصميمات ومقدمات لكتب ألفها كتاب مثل إرنست يونجر وجول فيرن. كما يشارك في تحرير مجلة Wired وفي عام 2013 منحه مركز العلم والخيال بجامعة أريزونا الحكومية منصب «مستشرف المستقبل المقيم».

الفهرس

تصدير بقلم لورانس إم. كراوس5

تمهيد: مجاعة الابتكار بقلم نيل ستيفنسون11

شكر وتقدير19

مقدمة: مخطط تمهيدي لأحلام أفضل إد فلين وكاثرين كرامر21

الغلاف المجهول نيل ستيفنسون25

فتاة حائرة كاثلين آن جونان61

حين نصل إلى أريزونا مادلين آشبي93

الرجل الذي باع القمر كوري دوكتورو115

جوني أبلدرون في مواجهة إدارة الطيران لي كونستانتينو201

درجات من الحرية كارل شرودر225

سيناريوهان عن مستقبل الطاقة الشمسية أنالي نيوويتز259

فندق في أنتاركتيكا جيفري إيه لانديس267

المدار المنخفض جيمس إل كامبياس297

الرجل الذي باع النجوم جريجوري بينفورد321

تشابك فاندانا سينج367

ملائكة الأفيال بريندا كوبر413

العهد إليزابيث بير437

تخاطرٌ كَمِّي رودي روكر453

جيل انتقالي ديفيد برين485

يوم انتهى كل شيء تشارلي جين آندرز497

البرج العالي بروس ستيرلنج509

العلم والخيال العلمي مقابلة مع بول ديفيز535

عن المُحرِّرَيْن549

المؤلفون والمشاركون551

(1) التيار النفاث أو التيار المنطلق: هو تدفقٌ للهواء في طبقات الغلاف الجوي العليا بصورة أفقية وبسرعة عالية للغاية تتراوح بين 150 و500 كيلومترًا وأحيانًا أكثر (المترجم).

(2) سحب السندان: سحب ضخمة قد يصل سُمكها إلى خمسة كيلومترات، لها قواعد أفقية ورؤوس على شكل سندان، وهي عادة سحب عاصفة تنتج زخات من المطر أو البَرَد أو الثلج، وقد تولِّد عواصف رعدية (المترجم).

(3) حيوان لاحم ينتمي إلى فصيلة ابن عُرس ويتسم بالقوة والشجاعة والشراسة الشديدة (المترجم).

(4) التلبيد أو التصليد، sintering، هو تسخين كمية مضغوطة من مسحوق إلى درجة حرارة تقرب من درجة انصهارها دون أن تبلغها، حتى تتلاصق جزيئاتها وتنخفض مساميتها وتزداد مقاومتها (المترجم).

(5) مهرجان سنوي يعقد في صحراء الصخرة السوداء في شمال ولاية نيفادا الأمريكية، وتأخذ المناسبة اسمها من طقوس حرق تمثال خشبي كبير (المترجم).

(6) البريكاريا مفهوم اقتصادي احتماعي منحوت من لفظ البروليتاريا ويصف طبقة من الناس يعيشون في وضع اقتصادي هش يتسم بالشك وعدم الأمان (المترجم).

(7) يوم الذكرى، memorial day، يوم عطلة فيدرالية في الولايات المتحدة الأمريكية يُحتفل به في آخر يوم اثنين من شهر مايو، وذلك من أجل تكريم الجنود الذين قتلوا في ساحات المعارك (المترجم).

(8) السايبورج كائن نظري أو خيالي يتكون من مزيج من مكونات عضوية وميكانيكية إلكترونية. التعديل الرابع المشار إليه هنا هو التعديل الرابع للدستور الأميركي المتعلق بحق الناس في أن يكونوا آمنين في أشخاصهم ومنازلهم ومستنداتهم ومقتنياتهم من أي تفتيش أو احتجاز غير معقول (المترجم).

(9) **الليبرتارية** ويسميها البعض «مذهب مؤيدي مبادئ الحرية»، هي المذهب السياسي الفلسفي الذي من أولوياته الحفاظ على الحرية الفردية، ويدعو إلى التحرر وإزالة القيود المفروضة على الفرد من قبل الدولة والمجتمع، كالعادات والتقاليد، وتقليص حجمها قدر المستطاع (المترجم).

(10) الواقع المُعزَّز، augmented reality، إحدى التكنولوجيات ذات المستقبل الواعد، ويقوم على مبدأ إسقاط طبقات افتراضية من المعلومات الرقمية على بيئة المستخدم الحقيقية كي توفر معلومات إضافية أو تكون بمنزلة موجه له. يستطيع المستخدم التعامل مع المعلومات والأجسام الافتراضية في الواقع المعزز من خلال عدة أجهزه سواء أكانت محمولة كالهاتف الذكي، أم من خلال أجهزة يتم ارتداؤها كالنظارات والعدسات اللاصقة (المترجم).

(11) **الأمم الأولى:** مصطلح عرقي يشير إلى شعوب كندا الأصلية ويبلغ مجموع سكانها نحو 700 ألف شخص (المترجم).

(12) منطقة تقع في جنوب شرق ألاسكا، وهي عبارة عن لسان أرض شبيه بيد المقلاة، وتحوي مساحات واسعة من الغابات (المترجم).

(13) **متلازمة أسبرجر:** هي أحد اضطرابات طيف التوحد، ويعاني المصابون بهذا المرض من صعوبات كبيرة في تفاعلهم الاجتماعي مع الآخرين إذ يفتقرون لمهارات التواصل غير اللفظي، ويظهرون تعاطفًا محدودًا مع أقرانهم (المترجم).

(14) نوع من السياحة يتضمن السفر إلى مناطق خطيرة كالجبال والأدغال والصحاري والكهوف والوديان وما إلى ذلك (المترجم).

(15) نقاط لاجرانج هي نقاط مميزة في ميكانيكا الأجرام السماوية وهي النقاط التي ينعدم عندها تأثير جاذبية جرمين سماويين كبيرين على جرم ثالث، في العادة أصغر حجمًا، مما يجعل حركته تتبع حركة الجرمين الكبيرين (المترجم).

(16) النقاط التي يلتقي عندها مجال الشمس ومجال الكوكب بشكل يسمح بوجود مدار مستقر للكويكبات التابعة، وتسمى هذه الكويكبات بالكويكبات الطروادية (المترجم).

(17) السَّمْت: النقطة التي يلتقي فيها الخط العمودي المنطلق من مكان ما على سطح الجرم نحو القبة السماوية (المترجم).

(18) السرعة المطلوبة للإفلات من حقل جاذبية (المترجم).

(19) رائد فضاء أميركي كان على متن رحلة المكوك أبوللو 11 التي حملت أول البشر إلى القمر، وهو ثاني رجل تطأ قدماه سطح القمر، بعد نيل أرمسترونج (المترجم).

(20) رابطة اللبلاب (بالانجليزية Ivy League) هي رابطة تضم ثماني من أشهر وأقدم جامعات الولايات المتحدة الأميركية، منها هارفرد وييل وبرينستون (المترجم).

(21) مقصود بهذا لحظة الفزع التي أصابت الأميركيين بعد إطلاق الاتحاد السوفييتي القمر سبوتنيك 1 عام 1957 في أول غزو حقيقي للفضاء (المترجم).

(22) في عام 1965 أوضح جوردون مور، أحد مؤسسي شركة إنتل، أن عدد الترانزستورات على شريحة المعالج يتضاعف تقريبًا كل عامين في حين يبقى سعر الشريحة على حاله، وهو ما يعني زيادة هائلة في القدرة مع خفض كبير في التكاليف (المترجم).

(23) على اسم لعبة محاكاة افتراضية تقوم على بناء عوالم فضائية بكل تفاصيلها (المترجم).

(24) التقييد المدِّي، أو قفل المد والجذر، هو بقاء جرم سماوي مواجهًا لجرم آخر أثناء دورته حوله، كما هو الحال مع القمر حين يواجه الأرض بوجه واحد طوال الوقت تقريبًا (المترجم).

(25) الحوت الأبيض أو حوت البلوجا، beluga، يسمى أيضًا الدولفين الأبيض، وهو نوع من الحيتان يشبه الدلافين (المترجم).

(26) نسبة إلى فرضية جايا، وهي فرضية بيئية تقضي بأن الأجزاء الحية وغير الحية من الأرض إنما هي أجزاء من نظام واحد متفاعل يمكن رؤيته بوصفه كائنًا حيًا واحد (المترجم).

(27) أشجار كثيفة الأغصان تنمو على ضفاف نهر الأمازون (المترجم).

(28) الجزر الحرارية الحضرية: ظاهرة تحدث في المناطق المبنية التي يعيش فيها الإنسان، وتكون درجة حرارتها أعلى بعدة درجات مئوية من البيئة المحيطة بها (المترجم).

(29) مشروع مارشال هو المشروع الاقتصادي الذي وُضع لإعادة إعمار أوربا بعد الحرب العالمية الثانية (المترجم).

(30) الصفة skungy بالإنجليزية تعني قذرًا أو بغيضًا (المترجم).

(31) الأفاتار، تجسيد رسومي حاسوبي لشخصية الفرد (المترجم).

(32) في بدايات أعمال المناجم لم تكن توجد أنظمة تهوية جيدة، لذا اعتاد العاملون اصطحاب عصفور كناري داخل قفص معهم نظرًا لحساسية هذه الطيور الشديدة لغاز أول أكسيد الكربون، وكان موت الكناري بمنزلة إنذار بضرورة المغادرة على الفور (المترجم).

(33) مركبة جوية تطير عن طريق رفرفة أجنحتها (المترجم).

(34) ثمار السلام، شعار سياسي قام بالترويج له الرئيس الأميركي جورج بوش الأب ورئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر في أوائل تسعينيات القرن العشرين، ويزعم وجود منفعة اقتصادية من خفض الإنفاق على الدفاع (المترجم).

الكتاب: **هيروغلاف/قصص ورؤى من آجل مستقبل آفضل**

تمهيد: **نيل ستيفنسون**

تحرير: **إد فين وكاثرين كرامر**

تصدير: **لورانس إم. كراوس**

ترجمة: **محمد فتحي خضر**

هذه ترجمة مرخصة لكتاب

***Hieroglyph**: Stories and Visions for a Better Future* Edited by Ed Finn and Kathryn (Cramer) Copyright © 2014 .by Arizona State University Published by arrangement with Darhansoff & Verrill, New York

الترقيم الدولي: 978-977-6483-93-4

رقم الناشر: 2016/23535

الطبعة الأولى: 2017

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com **مصر:** القاهرة –2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com **تونس:** 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com